مكتبة ٦٠٩

سوزان سونتاج

في أمريكا

رواية

ترجمة : علي عبد الأمير صالح

مكتبة | ٦٠٩

في أمريكا

رواية

Author: **Susan Sontag**	اسم المؤلف: سوزان سونتاج
Title: **In America**	عنوان الكتاب: في أمريكا
Translated by: **Ali AbdulAmir Saleh**	ترجمة: علي عبد الأمير صالح
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2019**	الطبعة الأولى: **2019**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © 2000, Susan Sontag

All rights reserved

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

مكتبة
t.me/t_pdf
٢٠٢٠١٠٥

سوزان سونتاج

مكتبة | ٦٠٩

في أمريكا

ترجمة : علي عبد الأمير صالح

إلى أصدقائي وصديقاتي في سارايبڤو

«أمريكا سوفَ تَكون!».

• لانجستُن هيوز

صفر

مترددة، لا، مرتعشة، تطفلتُ على حفلةٍ في غرفةِ الطعامِ الخصوصيّة في أَحد الفنادق. بدا الجوّ شتائيّاً في داخلِ المبنى، أيضاً، غير أنه ما مِن واحدةٍ من النساء اللواتي يرتدينَ الثيابَ النسائيّة ولا واحدٍ من الرجالِ بالستراتِ الرجاليّة التي تبلغُ الركبتين الذين كانوا يتحركون في اضطرابٍ هنا وهناك في الحجرةِ الطويلة ذات اللونِ الداكن بدا أنه اكترثَ بالبَرد، لذا كان المستوقَد القرميدي في أحد الأركان لي وحدي. عانقتُ البدعةَ الضخمةَ المرتفعةَ حتى السقف ـــــ كنتُ أفضّل أزيزَ نارٍ ملء المصطلى، لكني هنا، حيثُ الحجراتُ مُسخَّنةٌ بواسطةِ المواقد ـــــ ومن ثم أبدأُ بعجنِ بعضِ الدفءِ في داخلِ خَديَّ وراحتيَّ. حين أصبحتُ أكثرَ دفئاً، أو أكثرَ هدوءاً، غامرتُ بأن اجتزتُ الحجرةَ من جانبٍ إلى آخر بدءاً من موضِعي في طرفِها. من أَحَد النوافذ، عبرَ الستارِ السميك لرقائقِ الثلجِ الهاطلةِ دون صوت التي تضيئها مِنَ الخلف حَلقةٌ من ضوء القمر، خفضتُ بصري ناظرةً إلى صفٍّ من المَزالج (جمع مزلجة) ومركباتِ الأحصنةِ، إلى السائسين المتدثّرين ببطانياتٍ خشنةٍ يغالبُهم النعاسُ في مقاعدِهِم، على الدوابِ الصّلبةِ المرقّطة بالثلجِ ذواتِ الرؤوسِ المحنية. سمعتُ قرعَ أجراسِ كنيسةٍ قريبةٍ تُعلن الساعةَ العاشرة. بعضُ الضيوف اجتمعوا قربَ الخوانِ الضخم المصنوعِ من خشبِ السنديان بجوارِ النافذة. وفيما أنا شبه ملتفتة استطعتُ أَن أسمعَ نقاشَهم، الذي كان غالبيتُه بلغةٍ لم أكنْ أعرفُها (كنتُ في بلدٍ زرتُه مرةً واحدةَ، قبلَ ثلاثة عشر عاماً)، لكني بشكلٍ من الأشكال، لمْ أسألْ كيف، كانتْ كلماتُهم قد وَصلتني كإحساس. كانَ شيئاً عنيفاً عن امرأةٍ ورجلٍ، نبذةً من المعلومات. وعلى الفورِ أعطيتُها قيمةً عُليا من

خلالِ الاعتقاد بأن الاثنين كانا، لِمَ لا، مُتزوجين. ومن ثم بعنفٍ مساوٍ كانَ الحديثُ متعلّقاً بامرأةٍ ورجلين، هكذا، ما مِن شكٍّ أن المرأةَ كانتْ هي نَفسُها، افترضتُ أنه إذا كانَ الرجلُ الأولُ زوجُها، فالثاني لا بدَّ أن يكونَ عشيقَها، وأنا أوبّخُ نفسي لأني أتخيّلُ الموقفَ بطريقةٍ تقليديّةٍ جدّاً. لكن سَواء أكان امرأةً ورجلاً أو امرأةً ورجلين، ما زلتُ لمْ أفهمْ لماذا كانوا يتناقشون. إذا كانت القصةُ مألوفةً للجميع، إذن لا توجد بالطبع حاجةٌ لسردها. إنما مِن الجائزِ أن الضيوفَ كانوا يتكلّمون بتروٍّ كيْ لا يُفهموا بنحوٍ جيّدٍ جدّاً، لأنَّ، لنَقلْ، إنَّ المرأةَ والرجلَ، أو كلا الرَّجُليْن، إذا كانا اثنين، كانوا هنا في الحَفلة. هذا الأمرُ دفعني لأن أفكّرَ في النظرِ إلى النساءِ في الغرفةِ واحدةً فواحدة، جميعُهن مُسرَّحات الشَّعْر بنحوٍ مُبهِج وإذا تسنَّى لي أنْ أحكُمَ عليهنَّ مِن خلالِ ملابسِ ذلكَ الزمن، يرتدينَ ثياباً مُسايرةً للموضةِ السائدةِ، كَيْ أرى ما إذا كانتْ واحدة منهن تَختلفُ عن النسوةِ الباقيات. وحالما بدأتُ بالتطلّع إليهنَّ، تطلّعتُ إليهنَّ وهذهِ الفكرةُ في بالي، رأيتُها، وتساءلتُ لماذا لَمْ أنتبهْ إليها من قَبل. هي لَمْ تعدْ في أوّل شبابِها، كما دأبَ الناسُ على القول وقتئذٍ عن امرأةٍ جذابةٍ تخطّت الثلاثينَ من عمرِها، متوسطةِ القامة، ذات جذعٍ مستقيم، ذات كدسٍ من شعرٍ أشقر – رمادي ثبتتْ فيه بعصبيةٍ خصلاتٍ قليلَةً هاربةً، لم تكُنْ جميلةً بنحوٍ استثنائيّ. إلّا أنّها كانتْ تغدو جذابةً أكثر كلّما أطلتُ مُدّةَ تحديقي فيها. ربما تكونُ، لا بدَّ أن تكونَ، المرأةُ التي كانوا يتناقشون بِشأنِها. حينَ كانتْ تتحرّكُ في أرجاءِ الغرفة، كانَ يطوّقها الآخرون دوماً؛ حينَ تتكلّم، كانوا يُصغُون إليها على الدَّوام. بدا لي أني التقطتُ اسمَها، فهو إما هيلينا أو مارينا ــــ وإذا ما افترضَنا أنَّ هذا يُساعدني على فكِّ لغزِ القِصَّة إذا ما تسنّى لي أنْ أتعرَّف إلى الثنائي أو الثلاثي، أيّ بدايةٍ أفضلُ من أن أُعطيهم أسماءً، قررتُ أنْ أفكرَ بها بوصفِها مارينا. وبعدها فَتشتُ عن الرجلين. أولاً، فتشتُ عن رجلٍ من الجائزِ أن يُعتقَد بأنه زوجٌ. إذا كانَ هو زَوجاً شَغوفاً، مثلما تخيلتُ هيلينا هذه، أعني مارينا، يُمكنُ أن يكونَ لها زوجٌ كهذا، إذن سأجدُهُ قريباً منها، ولن يُلهيني طَويلاً أيُّ فردٍ آخر. وبنحوٍ مؤكدٍ تقريباً، فيما أنا أُبقي مارينا في خَطِّ رؤيتي، بدا

جلياً الآن أَنها هي التي تُقيمُ الحَفلة أو أَنَّهم كانوا يُقيمونها على شرفِها، رأيتُ رجلاً يقتفي أثرَها، لَهُ لحيةٌ ذات زوايا وشعرُه أشقر ناعمٌ، ممشَّطٌ للوراء، بحيث تَركَ جَبهتَه المَهيبةَ المقوَّسةَ بنحوٍ فعال مكشوفةً، وكانَ يُومئ برأسِهِ بدماثةٍ لكلِّ ما تقولُه. لا بدَّ أن يكونَ هذا هو الزوجُ، فكرتُ. الآنَ يتعيّنُ عليَّ أن أَجدَ الرجُلَ الآخر، الذي، إن كانَ هو العشيقُ ـــ أو، تبيّنَ أنه لَمْ يكن العشيقَ، بنحوٍ مشوّقٍ بالقَدر نفسِهِ ـــ يُحتملُ أن يكونَ أَصغرَ سنّاً من الأرستقراطي ذي الشكلِ اللطيف. لئِن كان الزوجُ في منتصفِ ثلاثينياته، ربما أصغر من زوجتِهِ بسَنةٍ أَو سَنتين لكنهُ بطبيعةِ الحال بدا أَكبر سِنّاً منها بكثير، أما هذا الرجل فسيكونُ، كما خَمّنتُ، في منتصفِ عشرينياته، وسيماً بما يكفي، مع عدمِ استقرارِ الشباب أو، في الأرجح، بمنزلةٍ اجتماعية أدنى، ارتدى ثياباً أكثر مما ينبغي نوعاً ما. قد يكون، دعني أرَ، صحافيّاً أو محامياً صاعداً. مِن بين الرجالِ الكثيرين في الحَفلةِ الذين ينطبقُ عليهم هذا الوصف، الفردُ الذي تخيّلتُه إلى حدٍّ بعيدٍ جدّاً كانَ فرداً ضخمَ الجسم ذا نظارات، وفي اللحظةِ التي تجسستُ فيها عَليه، كانَ قد تَخطّى الرسميّات مع خادمةٍ تمدُّ ذخيرةَ الفندق المؤلفة من أفضلِ أنواعِ الفضةِ والكريستالِ على المائدةِ الرَّحبة في الطرفِ الآخر مِن الحجرة. شاهدتُه يَهمسُ في أذنِها، يَلمسُ كتفَها، يَعبثُ بضفيرتِها. سيكونُ ذلك مُسلياً، هكذا فكرتُ، إذا كانَ هذا هو العاشقُ المُرشّحُ لحسنائي ذاتِ الشعرِ الأشقر – الرمادي: ليس أعزب مكبوتاً، بل فاسِقاً متفانياً. إنهُ هو، لا بدَّ أن يكونَ هو، قررتُ بيقين خالٍ من الهُموم، فيما أنا أقرّرُ أيضاً بأنْ أحتفظَ بشابٍّ آخر من بابِ الاحتياط، وهو فردٌ نحيلٌ يرتدي صدريةً صفراءَ اللون، ڤيرتري[1] نوعاً ما، هل يتعيّنُ عليَّ أن أغدو مُقتنعةً بأن رجلاً مُحتشماً أكثر أو في الأقلّ عاشقاً مُحترساً أكثر سوفَ ينسجمُ أكثر مع هويتي الرجلَين الآخرين. وبعدها دَوّرتُ انتباهي صوبَ مجموعةٍ أخرى من الضيوف، مع أنّي بعدَ دقائق قلائل أكثرَ من استراقِ السمعِ اليقظ لا يُمكنني أنْ أصنعَ شيئاً يتخطّى القصةَ

1- ڤيرتري Wertherish: نسبة إلى الشاب ڤيرتر، بطل رواية «آلام الشاب ڤيرتر» للكاتب الألماني غوته. صدرتْ بطبعتها الأولى في العام 1774، وبطبعتها المنقّحة في العام 1787 – م.

التي كانوا يُناقشونَها أيضاً. لعلكَ تَحسَبُ أني الآنَ سأسمعُ اسمَي الرجلين. أو في الأقلّ اسمَ الزوج. لكن لا أحدَ ممَّن وجَّهَ كلامَه إلى الرجُل الواقف في موضعٍ لا يبعد كثيراً عني الآنَ في المجموعةِ التي كانتْ تطوّقُ المرأةَ بإحكام، كنت متيقنةً مِن أنهُ زوجُها، يستخدمُ على الدوام اسمَه المسيحيّ، وهكذا، كانَ مُحصَّناً بالهِبة غير المتوقّعة لاسمِها ـــ أجل، أعرفُ أنه ربما كان هيلينا، لكني قررتُ أنه سيكونُ، أو يجبُ أن يكونَ، مارينا ـــ صممتُ على أن أَكتشفَ اسمَه بمساعدةِ مفاتيح حلٍّ سمعيّة أو دونِها. ماذا يَمكنُ أن يُدعى، أعني الزوج؟ آدم. يان. زيغمونت. حاولتُ أن أفكّرَ في الاسم الذي يناسبُهُ إلى أبعدِ حَدّ. لأنَّ كلَّ شخصٍ له اسمٌ مِن هذا النوع، عادةً الاسم الذي أُعطي لَه أو لَها. في نهايةِ الأمر، سمعتُ أحداً يناديه... كارول. لا يَسعُني أن أفسّرَ لماذا لم يُسرّني هذا الاسم؛ أغلب الظنّ، لأني انزعجتُ من عدمِ تمكّني مِن سَبرِ أغوارِ القصة، كنتُ ببساطةٍ أصبُّ جامَ إحباطي على هذا الرجُلِ ذي الوجهِ الطويل، الشاحبِ بالشكلِ المُنتظم الذي كان أبواه قد اختارا له اسْماً رَخيماً جدّاً كهذا. إذن، على الرغم من أني لَمْ أشكّ بما سمعتُه، لا يَسعُني أن أَزعمَ أني غيرُ متيقنةٍ، كما كنتُ عليه فيما يتصلُ باسمِ زوجته (مارينا أو هيلينا)، حكمتُ أنه لا يمكن أَن يكونَ رجُلاً يحملُ اسم كارول، سَمعتُ اسمَه بنحوٍ خاطئ، ومنحتُ نفسي الرخصةَ بأن أسمّيه مِن جديد بوصفِه بوغدان. أنا أَعرفُ أن هذا الاسمُ غير جذاب شأنه شَأن كارول في اللغة التي أكتبُ بها، إلّا أنّي أنوي أن أتعوّدَ عليه، ويحدوني الأمل أنه سوف يحتفظُ بجودتِه بنحوٍ حسن. وبعدها، حوّلتُ انتباهي إلى الرجل الآخر، فيما كنتُ أفكرُ فيه، كان قد هوى على الأريكةِ الجِلد كي يدوّن شيئاً ما في دفترِ ملاحظات (بدا هذا الشيءُ أطولَ من مذكّرة تعيين موعِد غرامي للخادمة). متأكدة من أني لَمْ أسمع اسمَه بعدُ، لأني لَمْ أسمعْ تلميحاً باسمِه، ولم أسمعْ هذا التلميحَ بنحوٍ خاطئ، يلزمني أن أكونَ اعتباطية، قررتُ أن أمضي قُدُماً وأجعل منه رجلاً يحملُ اسمَ ريتشارد، ريتشارد بلغتِهم: ريشارد. بديلهُ الجاهزُ بالصدريّة الصفراء، أتحرّكُ الآن بسرعةٍ، سأسميه تاديوش؛ على الرغم من أني شرعتُ أفكرُ بأني لنْ أكونَ نافعةً

له البتة، في الأقلّ في هذا الدَّور، بَدا مِن الأسهل أن أُعطيهُ اسماً ما الآن، فيما أنا في مزاجِ التسميةِ. ومن ثم رجعتُ إلى الإصغاء، ساعيةً إلى أَن أُصعّد شعوري بالقصة بحيث إنّها، بنحوٍ مسموعٍ أكثر من قبل، كانت تُقلِقُ معظمَ الأشخاص الذين وُجّهتْ إليهم دعوةُ العشاء. ليست المسألة، في الأقلّ أني تكهنتُ بهذا المقدارِ الوافر، أن المرأةَ كانت تهمُّ بأن تتخلّى عن زوجِها من أجل الرجل الآخر. إني متأكدةٌ من هذا الأمر، حتى إذا كانَ المُخربِش على الكنبةِ هو في حقيقة الأمر عاشقُ المرأة ذات الشعر الأشقر - الرمادي. عرفتُ أنه لا بدَّ أن هنالكَ قصصَ حُبٍّ رومانسية قليلة وحالات زنا في هذه الحفلة، كما هو الحالُ في أيّ حجرةٍ تكتظُّ بأناسٍ مُفعَمين بالحيوية حَسني الهندام هم أصدقاءٌ وصديقات، زملاءٌ وزميلات، أقارب. غير أنَّ هذا، مع أنّ هذا الشيء بعينِهِ هو ما يتوقّعُهُ المرءُ حينَ يكونَ مُستعِدّاً لقصةٍ عن امرأةٍ ورَجُلٍ، أو امرأةٍ ورَجُلين، لم يكنْ هو الشيءُ الذي يثيرُ هؤلاء الضيوف في هذِهِ الليلة. سمعتُ، *إلّا أنّ واجبَها يكمنُ هنا. إنها لا تملك شعوراً بالمسؤولية ولا تملك أدنى... ولكنهُ طلبَ منه أن يَمضي قُدُماً. إنه شيءٌ صحيح أنه...* وإلّا أنّ *أيَّ فكرةٍ نبيلةٍ تبدو أشبهَ بالحماقة. على أيّة حال*، هي... وبثباتٍ، *عسى أن يحفظهما الله*، هذِهِ الجملةُ الأخيرةُ أطلقتْها امرأةٌ مُسنّةٌ ترتدي قبعةَ مَخمل بنفسجيّةً زاهية، كانت قد رَسَمتْ علامَةَ الصليبِ على نفسِها في ذلكَ الحِين. قلّما كانتْ تلك الطريقةُ التي يناقشُ فيها الملأُ علاقةً غراميّةً عابِرة. لكنها، حالُها حالَ بعضِ العلاقاتِ الغراميّةِ العابرة، حَمَلتْ طابعَ الطَّيْش؛ وبدا أنها تُظهرُ أفراداً رُقباء على الأخلاق وآخرين يتمنّون الخَيرَ بقدرٍ متساوٍ. وفيما بَدت القصةُ في أول الأمر تتعلّقُ فقط بالرَّجُل والمرأة (مارينا، بوغدان)، أو بالمرأةِ والرَّجُلين (مارينا، بوغدان، ريشارد)، بدا غالباً أنها تضمُّ أكثرَ من هذين الاثنين، أو هؤلاء الثلاثة، لأني سَمعتُ بعضَ المَدعوين الواقفين هنا وهناك في الغرفةِ، حامِلين كؤوسَهم المُترَعة بالخمر المُسخَّن والمُحلّى والمتبّل في يدٍ واحدةٍ ويومئونَ بالأخرى، يَقولون نحن (وليس فقط هم)، وبدأتُ أسمعُ أسماءً أخرى، بربارة وألكسندر ويوليان وواندا، وهم على ما يبدو ليسوا من بَين المتفرّجين الذين

يُطلقون الأحكام، بل جزءاً من القصة، وحتى يُمكننا أن نعدَّهم متواطئين. ربما كنتُ أتحرّكُ بسرعةٍ شديدةٍ الآن. إنما، سواءَ أكان تواطؤاً أم لا، كانت فكرةُ التواطؤ قد تبادرتْ إلى ذهني بشكلٍ طبيعي، بما أنَّ هؤلاء الأشخاص بسببِ أناقتِهم ورفاهيتِهم لم يفعلوا شيئاً أفضلَ من أن يُولدوا في بلدٍ خَضَع على مدى عقودٍ من الزمنِ للأحكامِ القضائيّة الثأرية من نواحٍ شتى، هذه الأحكامُ صَدَرتْ من الاحتلالِ الأجنبي الثلاثي، بحيث إنّ كثيراً من الأفعال العاديّة، التي أعني بها ما يعتبرهُ الناسُ في بَلدي ممارسةً اعتيادية من ممارساتِ الحريّة، لا بدَّ أنها هناك كانتْ تملكُ صفةَ تواطؤ. وحتى إذا كانَ ما فَعلوه أو ما كانوا يُخططونَ للقيامِ به تبيّن أنه شيءٌ قانونيّ، لا أزالُ أتدبّر أمري كي أَفهمَ أن الآخرينَ، وهُم ليسوا بالقلةِ القليلة، كانت لهم أدوارٌ في هذه القصة المتعلّقة بالمرأةِ والرَّجُل أو المرأة والرجلين (أنتَ تعرفُ أسماءَهم)، من بينِهم بعضُ أولئكِ الأشخاصِ القريبين الذين يُواصلون نقاشَهم سواء أكانَ نقاشاً «صحيحاً» أو نقاشاً «خاطئاً». لا أعرف لماذا وضعتُ هاتين الكلمتين بين أقواسِ الاقتباس، هما ليستا فقط الكَلمتين اللتين سمعتُهما منطوقتين؛ لا بدّ أنَّ السببَ يرجعُ إلى أنه في الوقتِ الذي أعيشُ فيه، هاتان الكَلِمتان استخدمتا بثقةٍ أقلّ بكَثير، وحتى باعتذارٍ إذا لم تكنْ متعصباً راضياً عن نَفسِكَ أو منتقماً قاتلاً، في حين إن قدراً كبيراً من سِحرِ هؤلاء الأشخاص، سِحر زمانِهم، يتجلّى في مسألةِ أنهم كانوا يَعرفون، أو يَحسَبون أنَّهم يَعرفون، ما هو«الصحيح» وما هو «الخطأ». في الواقع، كانوا سَيشعرونَ بأنَّهم عراةٌ تماماً دون شيئهم «الصحيح» و«الخطأ»، شيئهم الحسن و«السيئ»، الذي سيستمرُ في أن يعيشَ شيخوخةً متأملةً، ذاويةً في زَمني أنا، فَضلاً عن زمانِهم، هو الآن مشوَّهُ السمعة تماماً، «متحضرٌ»، و«بربريّ»، و«نبيلٌ»، و«بذيء»، زمانُهم، الآن غيرُ مفهوم، «غيريّ» و«أناني» ـــ اعذرني على علاماتِ الاقتباس (سأتوقفُ حالاً عن استعمالِها)، أعني هنا فقط أن أُعطي هذه الكلمات توكيدَها المُناسب، المؤثّر. وقد خَطَر ببالي أن هذا من الجائز أن يُفسر جزئيّاً، حضوري في هذِهِ الغرفة. لأني كنتُ أتحرّكُ بالطريقةِ التي امتلكوا فيها هذِهِ الكلمات وعدّوا أنفسَهم مقيّدين

بواسطتِها إلى الأفعال. لم أسمعْ إلّا حَماسةً، وفاءً، في كلماتِهم التي نَطقوها بأصواتٍ ناعمةٍ، *هل يتعينُ علينا، ما كان يتعينُ عليهم، كيف كان باستطاعتهِ، كيف كانَ باستطاعتِها، كيف كان باستطاعتِهم، لو كنتُ في مكانِهم، هي ما تزالُ لا تملك الحق، إلّا أنّ الشرفَ يتطلّبُ*.... كنتُ أستمتعُ بالتكرار. هل أجرؤ على القول إني أحسستُ بأني متفقةٌ مَعَهم؟ تقريباً. تلكَ الكلمات المروِّعة، التي رَوّعتْ الآخرين (لم تروِّعني)، بدتْ أشبهَ بالمُداعبات. وأنا مُخدّرةٌ بنحوٍ لذيذ، أحسستُ بأن موسيقاها تحملُني بعيداً... إلى أنْ سمعتُ رجلاً أصلعَ بلحيةٍ صغيرةٍ مُدببة يلاحظُ بحدّةٍ تزيدُ على تلكَ التي سمعتُها حتى الآن، *بالطبع بوسعِهم أن يفعلوا ذلك، إذا كانتْ تريد*. إنه ثريّ. كانت تلك جرعة من الحقيقة. مَهما كانَ الموضوعُ الذي كانوا يناقشونه، بدا أنّه كان يتطلّبُ المال، أموالاً طائلة. زيادةً على ذلك، بدا أنه شيءٌ أكثرُ من مُحتمل أن لا أحَدَ هنا كانَ ثريّاً بنحو جدّي، حتى إذا كانَ أحدُهم يملكُ لَقباً، الرجلُ الذي قررتُ بأنه الزوجُ، والجميعُ أظهروا بتباهٍ علاماتِ نجاحٍ تقليديّ. ثمةَ دليلٌ آخر على منزلتِهم الاجتماعية: وهو أن نُتفاً من حواراتِهم كانت تقعُ بانتظام في نطاقِ اللغةِ الأجنبيّة الوحيدة التي أتكلّمُها جيداً. ذلك أني كنتُ أعرفُ أَني في هذا الوقت، في جزئِهم من العالم، أفرادُ الطبقةِ الأرستقراطيّة ناهيكَ عن الذين يَملكونَ مِهنةً ليبراليّة كانوا يتحدّثونَ عادةً دون كلفةٍ بلغةِ فرنسا الرسميّة، البعيدة. وفيما كنتُ أعترفُ بأنه شيءٌ يبعثُ على الراحةِ أن يَسمعَ المرءُ اللغةَ الفرنسيّةَ بين الحينِ والآخر، سمعتُ المرأةَ ذاتَ الشَّعر الأشقر- الرمادي، مارينا خاصتي، تَصيحُ، *أوه، دعونا نتوقفُ عن التحدّث بالفرنسية!* أسف، لأنها كانتْ تتحدّث بفرنسيةٍ نابضةٍ بالحياة إلى حدٍّ بعيد من بين الجميع. كانت نبرةُ صوتِها عميقةً، تتكئ بنحوٍ لذيذٍ على حُروفِ اللين الختامية. وكانت تتحرّكُ فيما هِي تتكلّم، بإيقاعٍ مختلفٍ مقارنة بالآخرين، مع توقفٍ قصيرٍ في نهايةِ كُلِّ إيماءةٍ رشيقةٍ، كلّ التفاتةٍ سريعةِ الحركةِ من جسدِها الذي لم يَعُدْ رشيقاً، حين كانتْ تمرُّ، كما لو أنّها تتلقّى إجلالَهم وثناءَهم، من مجموعةٍ من المدعوين إلى مجموعةٍ أخرى. لكن في بعض الأحيان كانت تبدو مُستثارةً.

وفي أحيانٍ أخرى، رأيتُ ذلك، لا أعرف ما إذا بدا شخصٌ آخر كذلك، بدتْ متعبةً فقط. تساءلتُ ما إذا كانتْ مريضةً مؤخراً. لم تكنْ تبتسمُ كثيراً، باستثناءِ ابتسامِها للغلامِ الصغير، لم أذكرْ أنه كانَ هنالك صبيٌّ في الحجرة، ذو نظرةٍ محدّقةٍ ناضجةٍ وشَعر بلونِ الدقيق، يتعينُ عليَّ أن أفترضَه نجلَ مارينا. بدا شديدَ الشَّبه بها، ما مِن شيءٍ فيه من صفاتِ الرجل الذي اخترتُه بوصفِه زوجَها، الفردُ الذي سميتُه بوغدان، الأمرُ الذي جَعلني أتساءلُ ما إذا اخترتُ الرجلَ الصحيح. إنما يحصلُ في كثيرٍ من الأحيان أَن يشبهَ شخصٌ ما أحدَ أبويه حينَ يكونُ طفلاً، وحينَ يُصبحُ بالغاً يغدو شبيهاً بالأب الآخر بنحوٍ حَصريّ تماماً، بدلاً من أن يَعرِضَ خليطاً خلّاقاً، فريداً من ملامِح الاثنين. حاولَ الصبيُّ الصغير أن يُلفتَ انتباهَ مارينا. أينَ هي مُربّيته؟ أليسَ الوقتُ متأخراً بالنسبةِ لعمرِهِ، كانَ في نحو السابعةِ، أن يظل مستيقظاً حتى الآن؟ هذه الأسئلةُ ذكّرتْني كيف كانتْ محجوبةً صورتي الذهنية لحيواتِهم[1] خارجَ هذه الغرفة الواسعة، الشديدة البرودة؟ وأنا ألاحظُهم في حفلةٍ، مركزةً انتباهي على شيءٍ من مثل السلوك الحسن، في حالةٍ من اليقظة الفاتنة، لم يكنْ بمستطاعي أن أعرفَ، في سبيل المثال، ما إذا كان سينتهي المساءُ بالنسبة للأزواج والزوجات في سريرٍ واحد واسع، في سريرين دُفعا معاً، أو سريرين منفصلين بواسطة وادٍ ضيّق مكسوٍّ بالسجاد، أو بواسطة بابٍ مغلق. تخميني، إذا ما تعيّن عليَّ أن أخمّن، هو أن مارينا لا تتقاسم غرفةَ نوم مع بوغدان، وفقاً للعادة المتَّبعة في أسرتِه، وليس أسرتَها. وكنتُ ما أزالُ غيرَ قادرةٍ على تسمية الفعل أو المشروع الذي كان الضيوف يناقشون صحتَه أو خطأَه، أو هكذا ظننتُ ــــ حتى وأنا أتلقّى هبّةً من مفاتيح الحلّ الجديدة، هي الآن تمضي بسرعةٍ شديدة، سأضعها في علامات اقتباس هي أيضاً، إنما فقط كي أتذكّرَها: كلمات من مثل «هجرتْ جمهورها»، و«رمز وطنيّ» و«أزمة أعصاب»، و«شيء مُتعذرٌ تغييره» و«متوحش نبيل» و«نيپو. نعم، نيپو». حصلَ بالمصادفة أني قرأتُ مرةً (بترجمةٍ

1- أي بمعنى أن صورتها الذهنية كانت مكسوةً أو مغطاةً بحجاب، أو ستار؛ بمعنى آخر: إن الصورة الذهنية لحياتهم خارج هذه الغرفة غير جليّة، أو غير واضحة – م.

فرنسيّة) الكتابَ المُعنوَن: «*مغامرات السيد نيكولاس ويزدم*»[1]، الذي يصفُ إقامةَ ويزدم المُؤَقتة في مجتمعٍ مثاليّ، معزولٍ كلياً، هو في حقيقةِ الأمر جزيرةٌ، تُدعى نيپو. غير أني لمْ أكنْ أتوقّع أن يستحضرَ أحدُ الأشخاص الحاضرين هنا هذا العَملَ الكلاسيكيّ من أدبِهم القوميّ، المكتوب على وجهِ الدقةِ قبلَ قرنٍ من الزمن، الذي اجتمعَ فيه الضيوفُ في حجرةِ الطعام الخصوصيّة في أحد الفنادق وكنتُ أفكرُ فيهم. إن وصفَ الكتابِ للحياةِ في مجتمعٍ نموذجيّ، تأثّرَ بنحو ساذج بڤولتير وروسو معاً، وعكسَ جَميعَ الأوهام الطريفة والغريبة العائدة للعصرِ المُنصرم. يقيناً إنَّ هؤلاء الأشخاص سوف يشعرونَ بأنهم بعيدون عن وجهاتِ نظرٍ متنوِّرة كهذه، متنوّرة بحرف E الكبير[2]. إن تاريخَ بلادِهِم المُمزقة بنحوٍ لا سبيلَ إلى تغييرِه قد أبقاهم، هكذا فَكرتُ، مُحَصَّنين من أيّ إيمانٍ بالكمالِ البشريّ أو بمجتمعٍ مثاليّ. (وقد شفي، إلى الأبد، من ذلك الوَهم الهائل الآخر المُتعلّق بحرف E الكبير: كما أعلنَ شاعرُهم الأعظم ذاتَ مرة، أَن التجربةَ المريرة قد علّمتْ بلادَهُ أن كلمةَ الأوروبيّ ليس لها قيمةٌ سياسيّة. هذِه الأُمة، التي هاجَمَها عدوٌّ مُرعِبٌ لديها بجوارها كلُّ الكتب، كلُّ الصحف، كلُّ اللغاتِ الفصيحة في أوروبا؛ ومن هذا الجيشِ الكاملِ من الكلمات لمْ يخرجْ فعلٌ واحد)، فضلاً عن ذلكَ كانوا هنا في هذه الحجرةِ الفخمةِ ذات السقفِ المُشع والسجاجيد الفارسيّة في قلبِ هذه المدينةِ العتيقةِ الكبيرة، يستحضرون نيپو، ذلك المخطَّط المُتجهِم لحياةٍ تقتصرُ على الأشياءِ الضروريّة، حياة تتعلّقُ بالكياسةِ النموذجيّةِ، الريفيّة. بدأتُ أتساءلُ ما إذا عثرتُ بالمصادفة على مجموعةٍ من الرومانسيين المُتأخرين (كون العصرُ الرومانسي قد انتهى منذ عهدٍ بعيد)، وقد خفتُ عليهِم، بسببِ الأوهام التي ربما كانتْ ما تزالُ عالقةً في أذهانهم. لكنَّهم ربما كانوا ببساطةٍ وطنيين من طرازٍ مُفخّم بنحوٍ

1- مغامرات السيد نيكولاس ويزدم The Adventures of Nicholas Wisdom: رواية كتبها إغناسي كراسيكي Ignaci Krasicki بالبولندية في العام 1776، وهي أول رواية تُكتب بالبولندية، وهي حَدَث مهم يمثّل مرحلةً من مراحل الأدب البولندي - م.

2- هنا إشارة إلى كلمة تنوير Enlightenment الإنكليزية، التي تبدأ بحرف E الكبير (الكابتال) - م.

استثنائي. أغلب الظن يتعينُ عليَّ أن أَذكرَ أني سمعتُ، مراراً، كلمة «*الوطن*»، لكني لم أسمعْ حتى مرةً واحدةً «*يسوع المسيح بين الأمم*» كما كان يحلو للوطنيين في زمنِهم بأن يُسموا أمتَهم المُعذّبة. كنتُ أعرفُ أن ذاكرةَ الظُّلم قد لوّنتْ كلَّ الأفكارِ وسطَ هؤلاءِ الأشخاص، الذين اختفتْ بلادُهم مِن خارطة أوروبا. وأنا مرعوبةٌ من الازديادِ المفاجئ القاتلِ للمشاعرِ القوميّة والقبلية في زمني أنا، بالأخص (يمكنكَ أن تكونَ في مكانٍ واحد فقط في زمنٍ ما) من مصيرِ بلدٍ أوروبيّ صغير، مجدولٍ معاً بصورة قبليّة، وبسبب ذلك، مُحطَّمٌ بالحصانة، بالإذعان لـ أو التغاضي عن: القوى الأوروبيّة العظمى (أمضيتُ وقتاً طويلاً استمرّ ثلاثةَ أعوام في سارايڤو المُحاصَرة)، تساءلتُ ما إذا كان يُحتملُ أن يكونوا مُتعبين مِثلي بسببِ القضية القوميّة وبسبب الخيانة، خِداع أوروبا. لكن ماذا يمكنُ أن يعني أن نسمّي فرداً ما ــــ يجبُ أن يكونَ هذا الفرد المرأة ذات الشّعر الأشقر - الرمادي، المرأة التي قررتُ أن أُسمّيها مارينا ــــ *رمزاً وطنيّاً*؟ إذا ما افترضتُ أنّها مُعزَّزة بشكلٍ مميّز جدّاً لا لأنها كانت ابنةَ أو أرملةَ شخصٍ ما، بل بسببِ منجزاتِها هي، ماذا يُحتملُ أن تكونَ هذه المنجزات؟ لا يسعني أن أُعيدَ كتابةَ التاريخ: يلزمُني أن أعترفَ أن امرأةً في زمنِها، وبلادُها كانت معروفةً لدى جمهورٍ واسع، وتحظى بإعجابِهِ وتقديرِه، كانتْ في الأرجح قد اعتلتْ خشبةَ المسرح. لأنه في ذلك الحين ــــ فقط ثمانيةُ أعـوام بعد ولادةِ البطلة الأبـرز لطفولتي المبكرة جـدّاً، ماريا سكوودوڤيسكا، التي أصبحتْ لاحقاً مدام كوري ــــ قلّما كانتْ هنالك أيُّ مسيرةٍ حياتيّة أخرى مرغوبٌ فيها جدّاً مفتوحةً لامرأةٍ (لن تكونَ هي حاكمةً، أو معلّمةً، أو مومساً). كانت أكبر سنّاً من أن تكونَ راقصةً. صحيح، كان بوسعِها أن تكونَ مُغنيّة. إلّا أنّها ستكونُ أكثر شهرةً، وأكثر وطنيةً، إذن، لو أنّها كانت، أنا متأكدةٌ، مُمثلة. وهذا الأمرُ سوف يفسرُ مسألةَ كيف أن إطلالاتها البهية فرضَتْ نفسَها على الآخرين بوصفها حسناء؛ الإيماءات البارعة، النظرةُ المُحدِّقة المُسيطرة، والطريقة التي كانتْ غالباً ما تُطيلُ التفكير فيها وتتوقفُ عنها، دون قَصاص. أعني، كانت تشبهُ مُمثلة. وقد حدّثتُ نفسي أني أحتاجُ

إلى أن أُفسحَ مجالاً أوسعَ لما هو جليّ: أيّ، في الأعمّ الأغلب، يبدو الناسُ شبيهين بما هُم عليه فعلاً. كنتُ أراقبُ رجلاً آخرَ، قررتُ أن أُسميّه هينريك، وهو رجلٌ هزيلٌ جلسَ مترهلاً على كرسيٍّ ذي مَسندين كان قد أفرطَ في تناولِ المشروبِ الكحوليّ. بلحيتِه الصغيرة المشذبة «السكسوكة»، وجلستِه غير المُبالية ونظرتِه الكئيبة، كان أشبهَ بالطبيب في إحدى مسرحيات تشيخوف، وربما يكونُ هو كذلك، بما أنّ هنالكَ فرصة طيّبة للعثورِ على طبيبٍ في أيّ حاشيةٍ مُهذَّبة تنتمي لهذا الزمن. وإذا كانتْ مارينا خاصتي هي مُمثلةٌ فعلاً، يمكنني أن أحسبَ أن الأشخاصَ الموجودين هناك هُم أشخاص آخرون يَعملون في المسرحِ أتوا إلى هنا: لنَقُلْ، الرجلُ الرئيسُ في مركبتِها الحاليّة ـــ اخترتُ الرجلَ الطويلَ دون لحيةٍ ذا الصوت الرنّان الذي كان قد بدأ، لم أفهم السبب، يُرهِب تاديوش بالوعِيد ـــ مع أنّ حضورَ الممثلات الأُخريات، في الأقل جيلُ مارينا، بدا أقل توكيداً (سيصبحنَ منافساتٍ لها). في الأرجح، سأجدَ المديرَ العام لمسرحِ المدينة الرئيس، الذي كانت تحيي موسمَه سنويّاً بظهورِها المتكرر كضيفة. ولم تكنْ تخفقُ في أن تُحصي من بين أصدقائِها وصديقاتِها ناقداً مسرحيّاً، وهو فردٌ كانت تعتمدُ عليه دوماً كي يُعطيها المُراجَعات[1] المبجّلَة التي كانت تحصلُ عليها (كان متودّداً مرفوضاً بلطفٍ منذ زمنٍ طويل). وزيادةً على ذلك، لأنه يناسبُ تَجمعاً كبيراً، ثمةَ فردٌ ما لا بدَّ أن يكونَ صاحبَ بنك، ولا بدَّ أن يكون هنالك قاضٍ... ربما كنتُ أَمضي بسرعةٍ شديدة. استدرتُ نحو المستوقَد وفيما أنا آخذ نَفَساً عميقاً، وضعتُ يديَّ على الآجرات الخضر - الداكنة، الساخنةِ، مع أنّي في حقيقةِ الأمر لم أكنْ أشعر قط بالبردِ الشديد الآن، وبعدها عُدتُ إلى النافذة وحدّقتُ في عتمةِ الليل. كان الثلجُ ينهمرُ سَريعاً مع البرَد؛ كان يقعقعُ على زجاجِ النوافذ. ولمّا التفتُّ للوراء كي أحدّقَ في الضيوف، كان ثمةَ رجلٌ قويّ البُنية يقولُ: *أنصتوا*.

1- المراجعات reviews: المقصود هنا المراجعات أو المتابعات النقدية في الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية أو الشهرية (للعروض المسرحية أو المعارض التشكيلية، أو الإصدارات إلخ) التي يكتبها النقاد المسرحيون أو التشكيليون إلخ؛ سوف يتكرر مصطلحا «المراجعات» و«المراجِعون reviewers» في متن الرواية - م.

قلّما توقفَ أحدٌ عن الكلام، *Mes enfants*، *أولادي*، صاحَ بصوتٍ عالٍ، *هكذا يبدو صوتُ البَرد. ليس على غرار البازلّا المجففة التي تُسقَطُ على طَبلة!* ابتسمتْ مارينا. أنا أيضاً ابتسمتُ، لسببٍ آخر (أنا لا أُبالي بأن أُبرهنَ أني على حق): إذن، كنتُ وسطَ أناسِ المسرح. قررتُ أن هذا الرَّجُل لا بدَّ أن يكونَ مدير المسرح، بما أنّه كان يهتمُّ بشأن المؤثرات[1]. وكنتُ قد سمّيته تشيزواف Czesaw، تخليداً لاسمِ شاعِري الحيّ. ومِن الآنَ حتى بقيّة الممثلين والممثلات، خاطبتُ نفسي بثقةٍ متجدّدِة. مع أنّي لم أتعرّفْ بعدُ إلى أيٍّ من النسوةِ الأُخريات، أدركتُ أن ستّاً منهنَّ من المُحتمل أن يكنَّ زوجات المُمثل الرئيس، والمُخرج المسرحيّ، والناقد المسرحيّ، وصاحب البنك، والقاضي، ومدير المسرح. الطبيبُ المتغضن، بما أنّي ظننتُ أنه كان طبيباً لأنه يبدو شبيهاً بأستروف في «*الخال ڤانيا*»، ظننتُ أنه ليسَ فقط غير مُتزوج، بل إنه لا يَصلح للزواج. (وكنتُ أريدُ أن أُبقي ريشارد خاصتي دونِ زوجةٍ أيضاً، وهو يصلحُ أكثرَ للتَّغزّل وللرغبةِ الجارفةِ، مع أنّي شككتُ أنه سيثبتُ في نهايةِ المطافِ أنه، حين يَشيخُ كثيراً، لا يصلح للزواج فحسب، بل يصلحُ للزواج ثلاث مرات) إذن، وأنا أرجعُ إلى النسوةِ الأُخريات، توقفتُ لحظةً، متسائلةً ما إذا لم أخطئ في حُكمي على مارينا. ما إذا كانتْ هي ناجحةً جدّاً كي تُبقي مُعلمةً سابقةً بجانبِها، فيما هي لم تُصبحْ بعدُ مُسنةً جدّاً كي تشعرَ بأنها غير مُهدّدَة من الأصغر منها سنّاً، مع ذلك ربما ضمّتْ إليها ممثلةً أصغرَ سنّاً إلى حَلقةِ أصدقائِها وصديقاتِها؛ وقد وجدتُها بسرعةٍ، امرأةٌ شاحبةٌ رقيقةٌ ذات مُدلاة[2] كبيرةٍ على صدرِها، كانت تمسُّ باستمرار شعرَها الأسمرَ المحْمَر مسّاً خفيفاً بإيماءةٍ تشبهُ إلى حدٍّ كبيرٍ إيماءةَ مارينا. أوه، وإحدى النساء ربما تكونُ من الأقارب وفي الواقع، امرأةٌ ما حَسِبتُ أنها بَدَتْ شبيهةً بنحوٍ كافٍ ببوغدان كي تكونَ شقيقتَه، كانت في تلك اللحظة تحديداً تتكلّمُ مع الطبيب، مستندةً على

1- المؤثرات effects: المقصود هنا المؤثرات الصوتية والبصرية التي تصاحب العرض المسرحي – م.
2- مدلاة locket : علبة معدنية نفيسة (تحتوي على تذكار كرسم شخص أو خصلة شعر) يُدلّيها المرء من قلادة أو سلسلة – م.

كرسيّه؛ أعتقدُ أنَّها انتبهتْ إلى أنهُ كان ثملاً نوعاً ما. كما تساءلتُ ما إذا كنت سأجدُ يهوديّاً، سيكونُ رساماً شابّاً يُدعى ياكوب، عادَ مؤخراً بعدَ أن قضى سنتين مع جمعيّةٍ فنيّةٍ كوزموبوليتانية في روما. إنما بقدرِ ما أستطيعُ القولَ إنه كانَ هنالكَ رسامٌ واحد فقط هنا، وهو ليس يهوديّاً، اسمُه ميشال: رجلٌ ذو شعر أحمر، بمشيةٍ متيبّسةٍ في نحوِ الثلاثين من عمرِهِ، فقدَ إحدى رِجليه لمّا كانَ في الثامنة عشرة خلالَ «الانتفاضة»[1]. في نهايةِ الأمر (خلال هذه الآونة) بدا لي أنَّه في حفلةٍ بهذا السعة والتكوين يجب أن يكونَ هنالك في الأقل اثنان من الأجانب، لكنني فيما كنتُ أدقق في الضيوف يمكنني أن أَجدَ فقط ذلك الفرد الذي انتبهتُ إليه أصلاً: رجلٌ مكتنزٌ بلحيةٍ كاملةٍ وماسةٍ في ربطةِ عنقِه، حيث يقفُ معه بعضُ الأشخاص بجوارِ نافذةٍ مرتفعةٍ أخرى، وكانَ يتكلّم الألمانية. من الجائز أن يكونَ مُنتِجاً وكان يوشكُ أن يُدخلَ المحميةَ الشابة لدى مارينا إلى بعضِ الأدوارِ المسرحيّةِ الصغيرةِ في الربيع المقبل في مسرحِهِ الكائن في ڤيينا. خمنتُ هذا، أنه كانَ من ڤيينا، لأني مَيزتُ لكنتَه، ذاكرتي لها أذنٌ جيّدة، مع أنّي لمْ أتعلّم التحدّثَ أو فهمَ الألمانية بشكلٍ مناسب. بطبيعةِ الحال، لم أتعجبْ من أنهم كانوا يُحسنِون التكلّمَ بلغاتٍ عديدة بشكلٍ ممتاز إلى حدٍّ بعيد؛ حتى يومنا هذا، الأشخاصُ المتعلمون في هذا البلد، ممَّن كانوا

1- الانتفاضة Uprising: وتُسمى أيضاً انتفاضة نوفمبر، أو انتفاضة الضباط الصغار (29 تشرين الثاني / نوفمبر 1830 - 5 تشرين الأول / أكتوبر 1831): عصيان متمرد مُسلّح ضد حكم الإمبراطورية الروسية في بولندا. بدأت الثورة في 29 تشرين الثاني / نوفمبر 1830 في وارسو، عندما قام ضباط صغار السن في الأكاديمية العسكرية التابعة للجيش الإمبراطوري الروسي في تلك المدينة بالثورة بقيادة بيوتر فيسوتسكي، كردّ فعل على أنباء عن خطة روسية لاستخدام الجيش البولندي لقمع ثورة يوليو في فرنسا والثورة البلجيكية. وقد انضمتْ إلى الضباط تباعاً أعدادٌ غفيرة من شرائح المجتمع البولندي، كما امتدت الثورة بعدها إلى مناطق في ليتوانيا وبروسيا وأوكرانيا. على الرغم من بعض النجاح الذي حققته الثورة محليّاً، إلّا أنها في النهاية قُضي عليها بواسطة الجيش الروسي المتفوق عدديّاً تحت زعامة القائد العسكري إيفان باسكيفيتش في عهد الإمبراطور نيكولاي الأول، وانتهت في تشرين الأول / أكتوبر 1831. من نتائج الثورة هجرة الكثير من البولنديين إلى فرنسا، أحدهم الموسيقي الشهير فريدريك شوبان، وبالتالي تقوية العلاقات الفرنسية- البولندية - م.

يرجعونَ إلى خارطةِ أوروبا قبل ثمانين سنةً تحديداً، هم أناسٌ يتكلّمون بنحوٍ بارز بلغاتٍ عديدة. لكني، أنا بتضلّعي فقط باللغات الرومانسية[1] (أنا أنشغلُ بالألمانية من بابِ الهواية، أعرفُ أسماءَ عشرين نوعاً من السمك باليابانية، أرهقتُ نفسي كي أتعلّم شيئاً قليلاً من البوسنية، وبالكاد فهمتُ كلمةً من لغةِ البلدِ الذي وُجدَتْ فيه هذه الغرفة)، أنا، كما قلتُ آنفاً، تمكنتُ بشكلٍ من الأشكال من فهمِ معظمِ ما كانوا يتحدّثون به. مع ذلك، يلزمني أن أفهمَ أيضاً ما كانوا يقولونه فعلاً. إذا ما افترضتُ أنّي على صواب، أعني فيما يتعلقُ بمسألةِ مَن هي المُمثلة ومَن هو مُدير المسرح ومَن هم البقيّة، هذا الأمرُ لن ينفعني كثيراً جدّاً كي أفكَّ عقدةَ سِجالِهم حول مسألةِ ما إذا كانت أفعالُ المرأة، مارينا، والرَّجُل، بوغدان، أو الرَّجُلين، بوغدان وريشارد، أو ما يُخططونَ للقيامِ به، صحيحةً أم خطأ. (كما ترى، لقد استغنيتُ عَن عكازاتي الصغيرة، علامات الاقتباس)، إنّما حتى أولئكَ الذين قالوا إنها خطأ يبدو أنّهم يُخففون حُكمَهم فيما يتصل بمارينا. كانَ من الجليّ أنّهم جَميعاً مُعجبونَ بها، ليسَ فقط زوجُها والرَّجُل (ريشارد، ربما تاديوش) الذي ربما يكونُ أو لا يكون عشيقُها. ليس لديّ شكٌّ أنَّ جميعَ الرجال وعدداً من النسوةِ لا بدَّ أنّهم كانوا في الأقل يُحبون مارينا قليلاً. غير أن الأمرَ هو بشكلٍ من الأشكال، أكثرُ من حُبّ. كانوا مفتونين بها. تساءلتُ ما إذا كان يُمكنُ أن أكونَ مفتونةً بها، لو أنّي كنتُ واحدةً منهم، لستُ حصراً شخصاً ما يُراقب، أحاولُ أن أفهمَهم وأحكُم عليهم. كنتُ أحسبُ أنَّ لديَّ وقتاً كافياً، لمشاعرِهم، ولقصتِهم؛ ولقصتي أنا. بدوا ـــ وأخذتُ عهداً على نَفسِي أن أكونَ على غرارِهم، ونيابةً عنهم ـــ لا أعرف التعبَ والإعياء. مع ذلك هذا الأمرُ لم يُجرّدني من نفاد صبري. كنتُ أنتظرُ راحةً سريعة: أن أسمعَ شيئاً ما، جملةً، تجلبُ لي زبدةَ ومغزى الشأن الذي يشغلهم. وخطر ببالي أني ربما كنتُ أنصتُ بتوقٍ جارف. ربما، حسبتُ، أنَّ المسألةَ لا تكمن في أنه يتعيّن عليَّ أن أُنصِتَ بنحوٍ أقوى، بل يتعيّنُ عليَّ أن أفكرَ ملياً في ما سمعتُه أصلاً. (شبه الجملة [*أزمة أعصاب*] بدأتْ تطنُّ في

1- اللغات الرومانسية Romance languages: هي اللغات الناشئة عن اللاتينية – م.

رأسي). ربما، فكرتُ، أنه يتعيّن عليَّ ببساطةٍ أن أنصرف. وماذا عن [هجرتُ جمهورها؟]، ربما فقط لو أنّي نزلتُ إلى الطابق الأرضي ومضيتُ إلى الخارج حيثُ العاصفةُ الثلجيّة العنيفةُ ومشيتُ برهةً (أو ببساطةٍ أوقفتُ نفسي في ثلجٍ كدّسته الريحُ بجوارِ الحوذيّيْن الجاثميْن على صناديقِهما، بجوارِ الأحصنةِ الصبورة) هل يُمكنني أن أفهمَ ما الذي كانَ يستحوذُ على انتباهِهم. يجبُ عليَّ أن أقرَّ، كذلك، بأني كنتُ أتوقُ لهبّةٍ من الهواءِ العليل. لمّا دخلتُ إلى الحجرة، بدا أن لا أحدَ من الضيوفِ كان يُبالي بالبردِ الشديد، لكنهم الآن لا يَبدون مُهتمين بأن الجوَّ هناك دافئ جدّاً. قُرعتْ أجراسُ كنيسةٍ قريبة إحدى عشرة مرةً، وسمعتُ الصدى البعيد، المتزامن بنحو غير مُتقن، الآتي من الكنائسِ الأخرى في المدينة. ظهرت امرأةٌ بدينةٌ، حمراءُ الوجه بمريلةٍ متناغمة تقريباً، حمراءُ كالطماطم، تحملُ حَطَباً ملءَ ذراعِها، وفيما هي تمرُّ بي وتَمسُّني مَسّاً عابراً، فتحت البابَ الصغير الخاص بالمستوقَد وألقمت النار. تساءلتُ في سرِّي ما إذا كانت المدخنةُ تسحبُ بشكلٍ جيّد كما ينبغي، علماً بأني لا أتوقع شيئاً أفضلَ من خراطيم الغازات، تُلقمُ بنحوٍ غير متساوٍ، وبناءً على ذلك فهي تتسربُ وتبقبقُ كما كانتْ تفعلُ ذلك دوماً وقتها، قبل مجيء الغازِ الطبيعيّ؛ لكن، على أية حال، مهما كانَ محتوماً أني، طفلةُ النيون والهالوجين، أقدّرُ شكلَ اشتعال الغاز، على خلافِ جميعِ الأشخاص الآخرين في الغرفة لم أكنْ متعوّدةً على رائحتِهِ اللاذعة. وبالطبع رجالٌ كثيرون كانوا يدخّنون السجائر. ريشارد، الذي كان يَرسمُ الرسوم الكاريكاتورية للضيوف كي يُسلّي الصبيَّ النعسان الذي ظننتُ أنه لا بدَّ أن يكون ابن مارينا، كان ينفثُ الدخانَ بشكلٍ متقطع من غليون مرشومي[1] كبير، منحوت بنحو منمّق ـــ بالضبط الشخص الفيتشي[2] ربما يتوقعُ أن شاباً غير آمن، طموحاً يمتلكُ مثل هذا الغليون. رجال

1- مرشومي meerschaum (بالألمانية): صفة للمرشوم، وهو معدن قوامه سليكات المغنسيوم تُصنع منه الغلايين – م.

2- الفيتشي fetish: صفة للفيتشية fetishism، وهي انحراف يتمثل في تركيز الشهوة الجنسية على جزء من الجسد، كالقدم مثلاً. أو على حذاء أو جورب أو خصلة شعر أو ثوب تحتي – م.

عديدُون أكبر سنّاً كلُّ واحدٍ منهم أشعلَ سيجاراً ماركة ڤيرجينيا. ومارينا الآن اتخذتْ لها مَجلساً في كرسي مُجنَّح[1] واسع، وأمسكتْ بسيجارةٍ تركيةٍ طويلةٍ بيدِها الضعيفة ـــ كما لو أنّه شيءٌ زريّ باعتدال أُجيز لممثلةٍ ذائعة الصيت أن تفعلَه. وحتى كان بوسعِها أن ترتدي بنطلوناً مثل جورج صاند[2] إن شاءتْ، ويمكنني أن أتخيّلها تماماً بوصفِها «روزاليند»[3]؛ كان بوسعِها أن تؤدي دور «روزاليند» بشكلٍ رائع، مع أنّ سنّها كبيرة نوعاً ما على أداء هذا الدور، إلّا أنّ هذا لم يمنعْ أيَّ ممثلةٍ مشهورة: ظهرتْ ممثلاتٌ في سنّ الخمسين، وانتصرنَ، وهن يؤدينَ دورَ جولييت. كما يمكنني أن أرى مارينا تؤدي دور «نورا»[4]، أو«هيدا غابلر»[5]، إذ تشهدُ هذه الحقبةِ الزمنيّة هيمنةَ إبسن على العروضِ

1- كرسي مجنح wing chair: كرسي ذو ذراعين يتميز ظهره بجانبين ناتئين يريح عليهما الجالس رأسه – م.

2- جورج صاند George Sand (1804 - 1876): هو الاسم المستعار لأمانتين أورو لوسيل دوبين وهي روائية فرنسية، من أسرة أرستقراطية. لم توفق في الزواج فطلبت الطلاق بعد أن أنجبت طفلين أخذتهما معها إلى باريس، حيث أقامت. وبدأت تكتب قصصها التي اعتمدت على ما تكسبه منها في تربية ولديها – م.

3- روزاليند Rosalind: بطلة وإحدى الشخصيّات المتخيّلة في مسرحية وليم شكسبير «كما تهواه As you like it»، وهي ملهاة «كوميديا» ألّفها شكسبير نحو 1599 – 1600. وهي (في المسرحية) ابنة الدوق سينيور، الأخ الأكبر للدوق فريدريك – م.

4- نورا هيلمر Nora Helmer: شخصية نسائية في مسرحية هينريك إبسن الموسومة بـ «بيت الدمية The doll's house». هي زوجة هيلمر تورڤالد وأم لثلاثة أولاد. تعيش حياة زوجية مثالية في القرن التاسع عشر، لكنها تغادر أسرتها في نهاية المسرحية. عُرضت المسرحية أول مرة في 21 كانون الأول / ديسمبر 1879، على المسرح الملكي في كوبنهاغن، الدنمارك – م.

5- هيدا غابلر Hedda Gabler: مسرحية من تأليف الكاتب النرويجي هينريك إبسن. تمّ عرضها لأول مرة في 31 كانون الثاني / يناير 1891 في مسرح ريسيدنز في ميونيخ، وكان إبسن حاضراً وقتها. اسم هيدا قبل الزواج هو «هيدا غابلر»، أما بعد الزواج فأصبح «هيدا تيسمان». تُعد هذه المسرحية من أفضل أعمال إبسن، ويُنظر إليها اليوم بوصفها واحدة من كلاسيكيات المسرح الواقعي ومسرح القرن التاسع عشر والمسرح العالمي، وهي الشخصية الرئيسة في المسرحية، تُعدُّ من أفضل الأدوار في العمل المسرحي. تُرجمت المسرحية إلى لغات عديدة، وحظيتْ بعروض متعددة على نطاق عالمي – م.

المسرحيّة... لكنها ربما لا ترغب بتمثيلِ دور هيدا غابلر بعد الآن مثلما ترغبُ بتأديةِ دور «الليدي ماكبث»، الأمر الذي يعني أنّها لم تكنْ ممثلةً كبيرةً فعلاً، فالممثلة من هذا النوع لا تخشى تأدية أدوارِ شخصياتٍ شاذة. كنتُ أتمنى ألّا تكون أقلَّ من فنانةٍ من خلال سموّ المبادئ، أو من خلال احترامِ الذات. كانت تتكلّمُ مع المنتج من ڤيينا، وكان الأخيرُ يبتسمُ بحَذَر، فيما دنا الآخران منهما كي يصغيا. تاديوش خاصتي، كونُهَ تحرّرَ أخيراً من دورِ الممثل الرئيس الذي يُلقي خطبةً ـــــ سمعتُ كلماتِهما الأخيرة، «*حماقة خالصة*» (من الممثلة)، و«*ما من شيء لا يمكن تغييره*» (من تاديوش) ـــــ يقفُ الآن بجوارِ كرسي مارينا، إبهاماه في فتحتي الذراعين في صدريتِه الصفراء: وهي إيماءة غير ڤيرترية (نسبة إلى ڤيرتر)، لكن مَن يقدرُ أن يؤنبَه على كونِه تنحّى عن النموذج، وعلى كونِه سعيداً، وعلى كونِه واثقاً بنفسه، ببساطةٍ لأنه كان واقفاً بقربها. ريشارد، الذي يبعدُ عنهما مسافةً قصيرةً، كانَ قد أخرجَ دفترَ ملاحظاتِه من جديد. رفعتْ مارينا عينيها وانبرتْ قائلة: «*ماذا تكتب؟*». وبعجالة دسَّ دفترَ الملاحظات في جيبِه، وغمغمَ قائلاً: «*وصفاً لك. سأضعُه في رواية* ـــــ يهزُّ رأسَه ـــــ *إذا كان لديّ وقت، مع كلِّ هذهِ الأشياء التي ينبغي لنا أن نفعلَها الآن، كي أكتبَ رواية*». الرجلُ الذي قررتُ أنه ناقدٌ مسرحيّ صفعَه على ظهرِه. *ثمة سببٌ آخر، أيها الشاب، لا تباشرْ في هذه السفاهة*، قال بجذل. غير أن مارينا كانتْ قد خفضتْ بصرَها أصلاً. كانت تخاطبُ المُنتِجَ بهدوءٍ مُسيطَر عليه. *أوه، هذا الشيءُ ليسَ جيداً بنحوٍ كافٍ على الإطلاق*، قالت. رأيتُ هذهِ المرأة المستبدة أكثر فأكثر، المرأةَ العصيّةَ على الإقناع، والتي كانتْ كلمتُها قانوناً. تذكرتُ أولَ مرة حدثَ أن شاهدتُ مغنيةً شهيرةً عن كَثَب: كان ذلك قبلَ ما يزيد على ثلاثينَ عاماً خلتْ، كنتُ جديدةً في نيويورك ومعوزةً بشكل جديّ وأخذني متوددٌ غنيّ كي أتناولَ الغداء في مطعم لوتيس Lutèce، حيث، بعد أن أصبحتْ أولُ الأطعمة الشهية عملياً على طبقي بوقتٍ قصير، كان انتباهي قد تكهربَ بواسطة (فكّرْ في هذا الأمر) امرأةٍ ذات شكلٍ مألوف، عظامُ وجنتيها بارزة، ذات شَعرٍ رمادي – أسود، فمُها كلُّهُ مصبوغٌ بالأحمر تتناولُ طعامَها إلى

المائدة المجاورةِ مع رجلٍ عجوز، قالتْ له بصوتٍ مرتفع: «سيد بنغ. [توقف قصير] إما أن نقومَ بالأشياءِ على وفق طريقة كالاس[1] أو لا نقوم بها على الإطلاق. والسيد المدعو بنغ في السؤال لزمَ الصمتَ على مدى دقائق قلائل ـــ مثلما فعلتُ أنا. الآن عرفتُ أن مارينا، مارينا خاصتي، لا بدَّ أنها كانتْ لها لحظاتُها الكالاسية (نسبة إلى كالاس)، إذا كانت مثلما ظننتُها، مع أنّها لم تكنْ كذلك الليلة، هكذا حسبتُ، لمّا كانتْ بين أصدقائها وصديقاتها، لمّا كانت تفضّلُ أن يتملّقوها. غير أنه بوسعي أن أرى عينيها الزرقاوين – الرماديتين وهما تتوسّعان تعبيراً عن انزعاجِها. كم كانت تتوقُ حتماً، بدأتُ أعرفُها، على ما أعتقدُ، كم كانت تتوقُ حتماً لأن تنهضَ من الكرسي، أن تزعجَ الجميع، وتغادرَ الحجرةَ حالاً. كي تهربَ؛ كي تمضي إلى الخارج، ليسَ فقط

1- ماريا كالاس Maria Callas (1923 – 1977): مغنية أوبرا يونانية، (ولدت يوم 2 ديسمبر من العام 1923 في نيويورك لأبوين يونانيين)، وعاشت سنوات طفولتها في الحيّ اليوناني في نيويورك، قبل أن تعود مع والدتها إلى اليونان وهي في سن الثالثة عشرة. عاشت ماريا كالاس حياةً صاخبةً على المستويين الفنّي والشخصي، متنقلة بين اليونان وإيطاليا وفرنسا، وأسالت قصة حياتها حبراً كثيراً، من نشأتها إلى حياتها العاطفية، خصوصاً علاقتها بالملياردير اليوناني أرسطو أوناسيس التي دامت عشر سنوات من الجنون، وصولاً إلى مرضها وموتها. حينها، قال كثيرون إنّه نجمَ عن محاولة انتحار «ناجحة» تناولت فيها كالاس كميات كبيرة من أقراص الحبوب المنوّمة. اشتهرتْ كالاس بأدوار كثيرة، وخصوصاً للمؤلفين الإيطاليين الذين ختموا فنّ الـ «بل كانتو» Bel canto في القرن التاسع عشر، مثل «نورما» لبلّيني و«توسكا» و«مدام بترفلاي» لبوتشيني و«عايدة» و«ماكبث»، إضافة إلى «لاترافياتا»، و«حفلة تنكرية» لفيردي (أخرجهما للأوبرا السينمائي الإيطالي الشهير لوتشينو فيسكونتي)، وغيرها. كذلك أدّت بالفرنسية «كارمن» رائعة المؤلف الفرنسي جورج بيزيه، وبالألمانية «تريستان وإيزولد»، و«دي فالكوره» و«بارسيفال» لفاغنر... إضافة إلى أعمال أخرى من العصر الكلاسيكي (القرن الثامن عشر) وصولاً إلى القرن العشرين. أما الدور الأهم الذي لم تؤدّه «الديفا» الكبيرة، فهو «ملكة الليل» في أوبرا «الفلوت السحري» لموزار. ولو أنّها فعلت، لأحدثت زلزالاً في العالم. إذ إنّ ما كتبه موزار من ألحان لهذه الشخصية الأساسية، مفصّل بأدقّ خيوطه على قياس الاستثناء الصوتي الذي يتمثل بالسوبرانو الدرامي الماهر والقادر على التلوين. قالت ذات مرة: «أنا ابنة القدر، استولى عليَّ ورسمَ لي الطريق. لست مُلكَ نفسي، بل أنا شاهد خارجيّ على حياتي» – م.

كي تعبَّ بعضَ الهواء العليل، كما كنتُ أودُّ أن أفعل. ذلك أني لمْ أعبأْ بأن أهربَ إلى الخارج ربعَ ساعة، وحتى أن ينهمرَ عليَّ البَرد ـــ مع أنّي عادةً أعبأ بالبرودة (ترعرعتُ في أريزونا الجنوبية وكاليفورنيا الجنوبية). إلّا أنّي لم أجرؤ على المغادرةِ، خشيةَ فقدانِ شيءٍ ما خلال اللحظة التي أغادرُ فيها الغرفة، والذي من شأنِه أن يجعلَ كلَّ شيءٍ واضحاً بالنسبة لي. ورأيتُ، أن هذه بالكاد هي اللحظةُ التي أنزلُ فيها إلى الشارعِ المكسوّ بالثلج. في الجانبِ البعيد من المائدةِ الطويلة كان رئيسُ النُّدُل يقوم بإشارةٍ متحفظةٍ لبوغدان، فيما كان مرؤوسوه الأربعةُ منهمكين بهمةٍ ونشاطٍ وبانسجامٍ تقريباً كي يضيئوا الشمعدانات الفضية الأربعَة ذات الشُّعَب الثلاث. نهضتْ مارينا من كرسيّها، مررتْ يدَها برفقٍ على مقدّمةِ ثوبِها الأخضر كنبات المريمية فيما هي تُطفئُ سيجارتَها باليد الثانية. *أصدقائي الأعزاء، صديقاتي العزيزات*، بدأتْ حديثَها. *لقد انتظرتم طويلاً جدّاً. كنتم صبورين جدّاً.* نظرتْ خلسةً إلى بوغدان. نعم، قال. وهو يضيفُ شيئاً كسولاً فضلاً عن كونه مرهَفاً إلى نشاطِ مشاعرِه الزوجيّة التي كانت تعبرُ وجهه، تناولَ ذراعَها. كم كنتُ سعيدةً لأني لم أختلقْ عذراً كي أتنصّلَ من مسؤوليتي لمّا وددتُ ذلك لكني بقيتُ في موضعي. كانت أمنيتي هي، ما إن يكون الضيوفُ على العشاء، ما إن تندمج نتفُ الحوار الذي أسترقُ سمعَه، سأفهمُ أخيراً ما كان يُشغلُهم. ذلك أني كنتُ أعتقدُ أنه حتى من المُمكن أن كلَّ فردٍ يلتفتُ، ينهضُ من مجلسِه، يتلكأُ، يمشي بانحرافٍ نحو المائدةِ الطويلةِ في أحد طرفَي الحجرة في الطابقِ الأول في الفندق (في بلدي هو الطابق الثاني) كان شيئاً شخصيّاً بالنسبةِ لهذا الفعل (أو هذه الخطة) حيث صحتُه أو خطؤه كان لا يزال يخضعُ للنقاش، آخذين بنظرِ الاعتبار أنَّه مهما كانت الأشياءُ التي أكتشفها كثيرةً، كانت فيه أصلاً، في كلّ شيء تعهّدَ به عددٌ قليلٌ، اثنان، أحدهُما مسؤولٌ أكثرَ من الآخر (مع أنّه ما مِن أحدٍ دون مسؤولية تماماً، كلّما كانت هنالك موافقةٌ فثمةَ مسؤولية)، ومع، لنَقُلْ، عشرين، في الحقيقة أحصيتُ، كان هنالك سبعةٌ وعشرون فرداً في الحجرة ـــ ولن يكونَ فردٌ واحدٌ فقط مسؤولاً أكثر من الآخرين، بل فردٌ سيكونُ عند دفّةِ السلطة،

مهما كان هذا الفردُ مؤثراً، إذا كان امرأةً، فربما تكونُ، في ذلك الزمنِ، قد تنصّلتْ من اسمِ القائد. كي نفسر ذلك، مهما يكنْ من أمر: لماذا يتبعُ كلُّ فردٍ فرداً آخر. أو، على غرارِ الأحجية، لماذا يرفضُ الفرد، أيّ فرد، دوماً، أن يكون تابعاً. (ما ترغبُ به الكتابةُ هو الاتباع والقيادة، كلتاهما، وفي الوقتِ نفسه). شاهدتُ كيف كانَ الجميعُ يطيعون الأمرَ الذي انتظروه طويلاً كي يجلسوا ويُقدّمُ لهم الطعامُ والشراب. لم آبهْ بالمراقبة والاستماع فقط، أنا لا أُبالي مطلقاً، وخاصة في الحفلات؛ مع أنّي أتصوّر فعلاً أنه، لو كانَ بمستطاعِ الضيوف في هذه الحفلةِ أن يَعوا وجودي، أن يَعوا تطفّل أجنبيةٍ غريبة الأطوار بكلّ معنى الكلمة، أن يَعوا أن ثمةَ موضعاً أُفسِحَ لي إلى مائدةِ الطعام. (احتمال أن يُبعدوني إلى الشارعِ المُغطى بالثلج لم يخطرْ ببالي قط) كَوني غيرَ مَدعوةٍ، غيرَ مرئيةٍ، يُمكنني أن أَتطلّعَ إليهم أطولَ مدةٍ وفقَ ما أشتهي، أن أتفرّسَ فيهم: جزءٌ من التصرّفات السيئةِ عادةً لا يُمكنني مزاولتُه لأنه من المحتمل أن يكونَ عُرضةً للتحديق بالمقابل. لمّا كنتُ طفلةً، أعني حالي حالَ أطفالٍ كثيرين وحيدين، كنتُ أرغبُ عادةً أن أكونَ غير مرئية، من الأفضل أن يرى المرءُ ـــ أعني، أن لا يراكَ الآخرون. إلّا أنّي مثّلتُ كذلك، غالباً، بأني لا أُبصر شيئاً على الإطلاق. في نحو الثالثة عشرة، بعد أن لملمت الأسرةُ الأشياء الصغيرة جدّاً وانتقلتْ من توكسون إلى لوس أنجلس، هذا المسيرُ هنا وهناكَ وعيناي مغمضتان لمّا كنتُ وحدي أو دون أن ينتبهَ إليَّ أحدٌ في المنزلِ الجديد، أتذكّره، كلعبةٍ أثيرة. (أكثر مغامراتي المُتصلة بالعمى التي ظلتْ راسخةً في بالي هي عندما، في منتصف رحلةٍ ليليةٍ إلى الحمّام، حَدثَ زلزال) أنا أحبُّ الشعور بأني قُلصتُ إلى مواردي الذاتية. بأن لا يكون لديَّ ما أفعلُه باستثناءِ التغلّبِ على المشكلات. *حانَ الوقت تقريباً*، تمتمَ القاضي بانزعاجٍ لزوجته. ابتسمتْ ووضعتْ إصبعين على شفتِها. *هل سيكونُ هنالك آيس كريم؟* قال الصبيُّ الصغير. كان الضيوفُ يقتربونَ من المائدة، ريشارد، تقدّمَ في الطليعة، نافذَ الصبر كي يرى كم يقربُ مقعدُه من مقعدِ مارينا، حيث كان تاديوش وراءَه مباشرةً، إلّا أنّ ريشارد الذي يغذُّ خطاه هو الذي وَصلَ إلى المائدة أولاً.

شاهدتُه وهو يُلقي نظرةً عامةً على بطاقةِ موضعِه وأخبرتني بسمتُه العريضةُ أنه لم يكنْ ممتعِضاً. ما إن شغلَ الضيوفُ جميعَ الكراسي، فيما كانوا لا يزالون ينشرون مناديلَ المائدةِ المنشاة بوضع عموديّ، كان رهطُ النُّدُل قد بدؤوا يوزعونَ هباتِ الدورةِ الأولى من الأطعمة. كنتُ قد تحرّكتُ إلى الأمام، بدوري، وكنتُ جالسةً متقاطعةَ الساقين في فتحةِ نافذةٍ عاليةٍ في ذلكَ الطرف من الغرفة، وفيما كنتُ أحاولُ أن أستوعبَ بعضَ الكلمات الأولى عند المائدة كان يلزمُني أن أُسكِت بعضَ الكلمات في رأسي: «حساء أسمر محمر»، «*سمك شبوط مع اليهودي*»[1]، «*سمك وطعام بحري مع الغرتِن*»[2]، «لحم خنزير ذكر في صلصة كرز... الاقتباسات هي فقط كي أُشيرَ إلى ما أفتقدُه من صبرٍ الآن حصراً كي أصفَ؛ كان لديَّ متسعٌ من الوقت كي أصفَ، على ما أعتقدُ، بعد أن فهمتُ القصة. مع أنّي كنتُ أعرفُ أنَّهم ظلوا ينتظرون (مثلما كنتُ أنتظر أنا، إنما بطريقةٍ أخرى)، كنتُ مندهشةً قليلاً لأن الجميعَ قد لبثوا في مواضعِهم دون جلبة. هل توقعتُهم أن يتلوا صلاةً قبلَ تناولِ الطعام؟ أعتقد أني توقعتُ. وفي الحقيقة، أحدُ الأشخاص، شقيقة بوغدان العطوفة، غمغمتْ فعلاً في نهايةِ المطاف في نفسِها قبل أن ترفعَ شوكتَها؛ أنا متأكدةٌ أنها كانت تتلو صلاةً. مع أنّي كنتُ أتمنى ألّا يكونوا مُتعبين من النقاش، ففي هذه اللحظة بدا الجميعُ منشغلين بوجبةِ الطعامِ السخيّة. ما كنتُ أشاهدُه هو سلسلةٌ كاملةٌ من سلوكِ الأكل، من السلوك اللذيذ إلى السلوك المفترِس، الذي تخللَته تعليقاتٌ متنوعةٌ حول الطعام، وحتى، العاصفةُ الثلجيّة. عجباً، ليس الجوّ! ارجعوا، أيها المثاليون النبلاء الذين استدعيتُم من الماضي. للعلم، لم يكن

1- سمك شبوط مع اليهودي: سمك شبوط محشو يُقدّم كوجبة مقبلات في منازل اليهود الإشكيناز (الأوروبيين). في بولندا (الأكثر شيوعاً في المناطق الشمالية القريبة من بحر البلطيق) يُقدّم عشية عيد الميلاد (الكريسماس) وفي السبت المقدّس. ورد اسم الطبق بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل carpe à la juive – م.

2- سمك وطعام بحري مع الغرتِن: الغرتِن هو قشرة سمراء تتكون على سطح الطعام المكسو بطبقة من كسر الخبز المزبدة أو من الجبن المبروش. ورد اسم الطبق بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل sole au gratin – م.

الجميعُ يأكلون فقط. الطبيب، رأيتُه، كان يُفضّل كثيراً شرب الشمبانيا والخمر الهنغاريّ مع الدورات الثانية من الأطعمة. (ديكٌ رومي محشوّ بالجوز، وطيهوج أسود وطيورُ حجل مُحمّصة...) والممثلةُ الشابة التي لم ترفعْ عينيها البتة عن وجهِ مارينا اللؤلئي، الخالي من التجاعيد، كانت تمضغُ بحركةٍ بطيئةٍ؛ بالكاد فُقد شيء ما من طبقِها. ومثلها، ومثل أغلب الضيوف، وجدتُ أنّه من الصعب ألّا أُبقي مارينا في مركزِ اهتمامي. تساءلتُ في سرّي كم يبلغُ عمرُها الحقيقيّ؛ على أية حال، كانت ممثلةً. إذا كانَ هذا يجري الآن، كنتُ سأقولَ إنها في منتصفِ عقدِها الرابع (الصدرُ المكتنز والفكّ الضخم، والحركات الحكيمة، والثوبُ النسائي الضخم). لكن، علماً بأنه حتى الذي في وضعٍ حسن شاخَ بنحوٍ أسرع يومئذٍ، وحتى إن كلَّ فردٍ غير فقير كان، وفق معاييرنا، ذا وزنٍ زائدٍ عن المسموحِ به، خمنتُ أن عمرَها لا يتجاوز الخامسة والثلاثين. لم أقلْ إني كنتُ أضيّع وقتي منذ البدايةِ بالعمر الظاهر لكلِّ واحدٍ من الضيوف في الغرفة. ريشارد، بما أنّه بدا كأنه قد أوغلَ عميقاً في ثلاثينياته، يجبُ أن يكونَ في سنّ الخامسة والعشرين، وهلمَّ جرّاً. وأنا أسافرُ عائداً إلى الماضي، توقعتُ أن تكونَ هنالك بعض الإحباطات (العلوّ، الموقد الذي يُخفي النارَ بدلاً من المستوقَد المتوهِّج بمستوى الخصر)، وبعض التعديلات (كي أقدّرَ عمرَ كلِّ فردٍ تجاوزَ منتصف عشرينياته، ذكراً كان أم أنثى، عليَّ أن أُنقصَ عشرة أعوام)، بالإضافة إلى التسويات والإضاءات الواضحة. كان الحديثُ قد تطوَّرَ من النكات حول الطعام إلى فورة المديح بسبب أداء مارينا هذا المساء. تقبلت التمنيات بتواضعٍ بدا قاسي الفؤاد مثلما كان فاتناً. «*كم كان رائعاً*»، قال ريشارد، وجهُه متقد من فرطِ الإعجاب. «*لقد تفوقتِ حقيقةً على نفسك، إذا كان هذا ممكناً*»، قال الرسام الشاب. «*هي تتفوقُ على نفسها دوماً*»، قال الممثلُ الرئيس بلطفٍ، بتوبيخ. وهي تفصلُ نفسَها عن كلّ هذه الشهيةِ الرطبة، كانت مارينا تجلسُ جامدةً دون حراك، بدتْ كأنها قلّما تتنفسُ، منديل قطنيّ أبيض ناعم على خدِّها الأيسر *ودائماً جيد*[1]، أفضى الطبيبُ إلى النادلِ

1- «ودائماً جيد»: وردت بالإيطالية في النص الإنكليزي الأصل É sempre brava – م.

المرتبك الذي كان يملأُ كأسَه من جديد. بعد هدوءٍ مؤقت في الأصوات وعودةٍ إلى أكلٍ مُخلص أكثر، بالطبع كنتُ أتمنى شيئاً آخر، نهضَ الناقدُ مترنّحاً، القُودكا في يده. «*في صحتكِ، مدام*». الكؤوس كلُّها باستثناءِ كأسِ مارينا رُفعتْ. «*نخب انتصار هذه الليلة*»، أرخى الطبيبُ كأسَه نحو فمَه. «ابقَ، لا تستعجلْ، هينريك»، هتف الناقدُ بقسوةٍ زائفة. «*ألا ترى أني لم أفرغْ بعد؟*». وفيما هو يتأوّه أعادَ الطبيبُ ذراعَه إلى وضعِ رفع النخب. تنحنحَ الناقدُ، ومن ثم ترنّم قائلاً: «*نخب ذلك الفن الساميّ والبطوليّ الذي شرّفتهِ بجمالكِ وعبقريتكِ. نخب المسرح*». أومأتْ مارينا برأسِها لَه وللآخرين، وهي تزمُّ شفتيها، وبعدها همستْ بشيءٍ ما للمُنتج، الذي كانَ جالساً إلى يمينها. «*هذا ليس عدلاً، إنه ليسَ نخباً واحداً، بل ثلاثة أنخاب*»، قال الطبيبُ بغبطة. «*ثلاثة أنخاب، ثلاثُ جرعات من هذه القُودكا الممتازة!*». نادى أحد النُّدُل. «*لا، عزيزتي مارينا، أنا لا أشترك من كلّ قلبي بهذهِ العواطف التي أُطلقتْ توّاً*»، قال فيما كانتْ كأسُه يُعاد مَلؤها ثانية. ومن ثم، وهو يرفعُ النخب مرةً أخرى: «*نخبَ أدائِك في يوم غدٍ*. وأفرغَ كأسَه. بعدها بوغدان، في الطرفِ الآخر من المائدة، نهضَ على قدميه، «*لأني لا أريد أن أُغضبَ صديقنا الظامئ*، قال، *سوف أحدُّ نفسي بنخبٍ واحد*. وهو ــــ كأسه في الهواء ــــ *نخبَ الصداقة. اسمعْ، اسمعْ*»، صاح ريشارد. «نعم»، قال بوغدان: «*ونخبَ جمعيتنا الخيريّة*». الجمعيةِ الخيريّة، فكرتُ. ماذا يعني ذلك؟ «*انظرْ، إنه يفعلها أيضاً*»، هتفَ الطبيب، كانت القُودكا قد لامَستْ شفتيه أصلاً وهو يشربُ بحيويةٍ بالغةٍ بحيث إنّه سَكبَ شيئاً منها على قميصِه الكتان. «*إنه لا يستطيع أن يتمالكَ نفسه*»، صاحَ القاضي، ضاحكاً. «*مَن، أنا؟*». قال الطبيب، وهو يمسحُ فمَه. قهقه الجميعُ عدا مارينا وبوغدان. «*أعني*»، استطردَ بوغدان قائلاً بوقار: «*نخبَ ما يُمكننا أن نقومَ به معاً*». تصفيق. «*اسمعْ، اسمعْ*»، قال تاديوش. «*أنا جاهز*». حلَّ هدوءٌ مرتبك، التفتوا كلُّهم إلى مارينا. مدّتْ يدها إلى كأسِها وضغطتْها على جبينِها. ومن ثم، دون أن تنهضَ، رفعتْها فوق رأسها. «*لديّ حقيقةً نخبٌ واحدٌ فقط كي أقدّمه، وليس ثلاثة أنخاب تتظاهرُ بأنها واحد*».

وجهتْ بسمةً ودية نحو بوغدان. «*أنا أشربُ من أجلِ نخبٍ واحد... مُقسَّماً على ثلاثة. ذلك أنه في يومٍ ما سيكون واحداً*». توقفٌ قصيرٌ مُثير. «*نخبَ وطننا*». شرعَ الجميعُ يصفقون. *براڤا*[1]، قالَ الرسام. أنخابُ الحشد الذي عبرّ عن رضاه، جميعُها ـــ كان تأثيرُها الرئيس، على ما يبدو، هو أن تبلّلهم كلَّهم بالكآبة. الصبيُّ الصغير (بيوتر، وورومان) غادرَ كرسيّه كي يمشي على أطرافِ أصابعِه متجهاً صوبَ مارينا ويهمسُ شيئاً ما لمْ أستطعْ سماعَه. هَزّتْ رأسَها، وهي تبدو (أنا متأسفة على نقلِ هذا الخبر) نزقةً نوعاً ما، وعادَ الغلامُ إلى كرسيّه بجوارِ شقيقة بوغدان، واستقبلتْه في حضنِها، وغالبه النعاسُ وهو يستندُ على عنقِها. من الظلمةِ الناتجةِ عن النقاش، لم أسجلْ شيئاً كثيراً. أتمنى أن يكونَ بوسعي القول إني فقط كنتُ أشعرُ بأني ميّالةٌ للتفكير، لذا كان يتعينُ عليَّ أن أغمضَ عينيَّ كي أعتلي الدرجةَ التاليةَ من السلّم في العتمة. «*لقد أعطيتَنِي شيئاً كثيراً جدّاً كي أتأمله*»، قال صوتٌ كئيب. «*بالطبع، أريد أن أوسّع آفاقي*»، قال صوتٌ مرح. «*ما مِن هواجس، ما من هواجس على الإطلاق؟*». قال صوتٌ حادُّ الطبع، واثقٌ من نفسِه. «*كم أنا معجبٌ بكِ*»، قال صوتٌ حزين. «*لا يمكن تغييره*»، سمعتُ ثانيةً. وفتحتُ عينيَّ. ربما كانَ هذا هو الطبيب، الذي كانَ قد ضمَّ رأسَه بين يديه. هل أغفلتُ شيئاً؟ آراءٌ سخيفةٌ بدأتْ تضربُ عقلي بعنف. وفيما كنتُ أسمعُ أحدَهم يمشي بتثاقل (هذا هو كلُّ ما احتفظتُ به)... «*صحبة شقيقي بالرضاعة، ماريك، ابنهما*»، وأنا أتعرّفُ إلى المُتكلّم فيما كانَ الرجل ذو الخدين الريانين غير الحليقين الجالسُ بجوارِ زوجةِ صاحب البنك، فكرتُ: أيَّ طفلٍ رضيعٍ شرهٍ كنتَ حتماً على صدرِ تلك المرأة الريفية! بدا لي تناولُ الطعامِ متطاولاً، ولم أسعَ إلى اتباعِ خطةِ وجبةِ الطعام، المفترضة أنها كانتْ، وجبةَ *طعامٍ فرنسية*[2]، *عشاء من ثلاثة فصول*[3]، وأنه، كلّما أردتُ،

1- براڤا Brava: صرخة استحسان وتقدير تُقال للممثلة والمغنية – م.

2- وجبة طعام فرنسية، أو وفق الأسلوب الفرنسي: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل à la française – م.

3- عشاء من ثلاثة فصول three- act dinner: تعبير مجازي يُقصد منه عشاء ذو ثلاث دورات من الأطعمة – م.

يُمكنني أَن أختلسَ النظرَ إلى لائحةِ الطعام المكتوبةِ باليد بخطٍّ صغير المُجهزة إلينا مع كلِّ دورة، على غرارِ البرامجِ المسرحيّة، كي أرى كَمْ تبقّى لدينا. كما لو أنّه قرأَ أفكاري، مع أنّي حَضرتُ إلى هنا كي أقرأَ أفكارَه هو، تمتمَ بوغدان قائلاً: «*يتعينُ علينا ألّا نأكل هكذا. أنا، شخصيّاً، سأكونُ سعيداً أن آكلَ ببساطة*». كنتُ أتمنى أن يكونوا قد شارفوا على تناولِ الحلوى الآن. كان بوغدان قد وَضعَ سكينَه وشوكتَه جانباً. «إلى أين أنت ذاهب»[1]، قال القاضي. «*إلى أينَ أنتَ ذاهب؟*» ابتسمَ ريشارد وأخرجَ دفترَ ملاحظاتِه من جيبه. «*أين*، نعم. وكيف»، قال صاحبُ البنك. «*كلُّ شيء يجبُ أن نفكرَ فيه طويلاً وبعناية، لا مبرّرَ للعجلة*»، حلّتْ لحظةُ صمتٍ، كما لو أنّ الجميعَ كانوا يستغرقون في التفكير فعلاً. بعدها سمعتُ صوتاً رتيباً، شيئاً من قبيل:

من الجبالِ، وهم يحملون صلبانَهم الثقيلةَ، المُرعِبة،
كان بمستطاعِهم أن يروا في البعيدِ الأرضَ الموعودة.
كان بمستطاعِهم أن يروا الضوءَ الأزرق في الوادي،
إليه كانت تتوجّه قبيلتُهم

من المرأةِ العجوزِ بالقبعةِ البنفسجيّة الزاهية. «*نحنُ نحتاجُ إلى بيانو*»، قاطَعَها مديرُ المسرح. «*لم أعدْ قادراً على سماعِ هذه القصيدةِ إلّا بمصاحبةِ موسيقى شوبان*». المرأةُ العجوز، لم أقرِرْ أبداً ما إذا كانتْ زوجةَ أحدِهم أم لعلَّها عمة عانس، لعلَّها عمة بوغدان، بدتْ منزعجة. «*من فضلكِ تابعي*»، قالت الممثلةُ الشابةُ، كريستينا، نَسِيتُ أن أذكرَ أني اكتشفتُ اسمها. «*لديَّ نيّةٌ خالصةٌ بأن أقومَ بذلك حصراً*»، قالت العجوزُ بنحوٍ لاذع. «كيف يمشي الحال؟». صاحَ الرسامُ، «كيف يمشي الحال؟» أنتِ تعرفينَ تمامَ المعرفة. وواصلَ هو بصوتِه الباريتون الرنّان:

1- إلى أين أنت ذاهب؟: وردتْ باللاتينية في النص الإنكليزي الأصل Que vadis?- م.

ومع ذلك هُمْ أنفسُهم لنْ يصلوا!
لن يَجلسوا إلى وليمةِ الحياة،
وربما نُسيوا، نُسيوا، نُسيوا.

كان خطيباً مُفوَّهاً. «*بالضبط*»، قالت العجوز. وبعدها حَصلَ شيءٌ ما كانَ مُربِكاً بعضَ الشيء. رفعتْ ماريانا ذراعيْها وألقت القصيدة بصوتِها الألتو[1] الدافئ:

مثل الأمواج التي تَتحرّكُ نحو الساحلِ المَكسوّ بالحصى،
هكذا تفعلُ دقائقُنا وهي تُسرعُ نحو نهايتِها؛
كُلُّ واحدةٍ منها تحلُّ محلَ تلكَ التي مَضَتْ قبلاً،
في كدحٍ متعاقبٍ تتنافس كلُّها نحو الأمام.

وعلى مدى لحظاتٍ قلائل لمْ أكنْ أعرفُ أَنَّها كانتْ تتلو الشعرَ بالإنكليزية. لا يسعني القول ماذا جالَ في خاطري أوّل ما سمعتُ، بما أنّه ما كانَ يلزمني أن أجفلَ لدى سماعِ أيِّ لغةٍ يتمُّ التحدّث بها في هذا التجمّع (أيّ لغةٍ عدا الروسية، لغة الأكثر كُرهاً من بين مضطهِدي الأمّة الثلاثة). ثمةَ لغةٌ أخرى لا أعرفها لكني بشكلٍ من الأشكال، الليلةَ، كنتُ قادرةً على فهمِها؟ في غضونِ ذلك، شَرَعت الممثلةُ الشابةُ تقول فجأةً:

هكذا ابتكِرْ معي كيفَ يُمكننا الطيران،
إلى أينَ نمضي، وماذا نَحملُ معنا.
ولا تحاولْ أن تقبلَ بأن تُجري تغييراً على نفسِكَ،

1- الألتو alto: أخفض الأصوات في غناء النساء – م.

أن تحملَ همومكَ بنفسِكَ وتتركني؛
لأنه، بواسطةِ هذه السماء، الآن عند حدودِ أحزاننا
قلْ ما يُمكنكَ قولَه، سأمضي قُدُماً معك.

مكتبة
t.me/t_pdf

ارتجفَ صوتُها الصافي، ومن ثمَّ توقف. لو كنتِ اطّلعتِ على «*كما تهواه*»[1]، لاستطعتِ التَّعرّفَ على كلماتِ الأدوار ــــ بالطبع، سوف تؤدي دور سيليا[2] لـ روزاليند التي ستمثلُ دورها مارينا ــــ مع أنّهما نادراً ما كانتا واضحتين، لكنتُها حتى غير واضحةٍ أكثر من لكنة مارينا. هي، مارينا، لا تبدو مسرورةً. «*لقد ذبحتُ إنكليزية شكسبير البهيّة*»، سمعتُها تقول للناقِد المَسرحيّ، الذي كانَ جالساً إلى يسارِها. «*أبداً*»، هَتفَ، *لقد نطقتِها بشكلٍ جميل.لا، لم أفعلْ ذلك*»، ردّتْ عليه مارينا بحدّة. وفي الواقع، لم تفعلْ ذلك. كنتُ أتمنى أن يَتحسّنوا حينَ يتكلّمونَ الإنكليزية أكثر، كما كنتُ أشكُّ في أنَّهم سيفعلون ذلك، إنْ كنتُ فهمتُ أيَّ شيء عمّا كانوا يتحاورون بشأنِهِ. دون شك، سوفَ يستمرون في التحدّث بالإنكليزية بلكنةٍ، كما يفعلُ عددٌ غفيرٌ من الناسِ في بلدي وكما كانَت تفعلُ أمهات جدّيَّ، وجدّاي، مع أنّه مِن الطبيعي أن أولادَهم ليسوا كذلك. لأنه من الواجبِ أن نَذكرَ، لِمَ لا نفعلْ هنا، إنَّ جميعَ أجدادي الأربعة وُلدوا في هذا البلد (أي، وُلدوا في بلدٍ لم يَعُدْ موجوداً منذ ثمانين عاماً مضت)، في الحقيقة، وُلدوا تقريباً في السنةِ نفسِها التي سافرتُ فيها في خيالي كي أتعايشَ مع هذه الغرفةِ بحواراتِها العتيقة، مع أنّ الأقوامَ الذين أنجبوا الثنائي الذي أنجبني كان لا يشبه قط هؤلاء القوم، كونُهم فلاحين مَعوزين غير دنيويين ذوي مِهنٍ من مثلِ مِهنةِ

1- «كما تهواه As you like it»: مسرحية كوميدية ريفية لوليم شكسبير، كتبها في العام 1599، ونشرها في العام 1623. أول عرض لها غير مؤكد، ربما عُرضتْ على «ويلتون هاوس» في العام 1603 – م.

2- سيليا Celia: إحدى شخصيات مسرحية«كما تهواه»، ابنة عم روزاليند (بالإنكليزية: her cousin) – م.

بائعٍ متجوّل، وصاحب خان، وحطّاب، وتلميذ تلمود. كوني ظننتُ أن لا أحدَ هنا يهوديّاً، تمنيتُ، كانتْ هذه فكرةٌ جديدةٌ، أني لن أسمع انفجاراً مُناهضاً للساميّة من أيِّ فرد؛ لم أسمعْ، وبشكلٍ من الأشكال خمنتُ أنهم كانوا، بالأحرى، فيلوساميين[1]. إن هذا هو البلدُ الذي اختارَ أسلافي أن يغادروه بواسطةِ سفينةٍ مزدحمةٍ بالرُّكاب وفي المقاعدِ ذات التعريفةِ الأرخص قلّما ربطني بهؤلاءِ القوم، مع أنّهم بنحوٍ مُمكن تصوّره، ربما جَعلوا اسمه يرنٌ، ربما يَسحبونني إلى حجرةٍ هنا بدلاً من أيّ مكانٍ آخر، محاولينَ أن يستحضروا غرفةَ طعامٍ في فندقٍ من الحقبة الزمنية ذاتِها في سارايِيڤو، وباؤوا بالفشل، وكانَ يلزمني أن أقبلَ أينما حللتُ. إلّا أنّ الماضي هو أكبرُ البلدان كلِّها، وثمةَ سَبب يدعو المرءَ لأن يَستسلمَ لرغبةٍ أن يجعلَ زمنَ القصص في الماضي: كلُّ شيءٍ جيد تقريباً يبدو أنه وَقعَ في الماضي، ربما هذا وَهمٌ، غير أني أشعرُ بالحنينِ المَرَضي إلى كلِّ الحقبِ الزمنيّةِ التي تَسبقُ ولادتي؛ وواحدةٌ منها خاليةٌ من الممنوعاتِ الحديثة، ربما لأن المرءَ لا يحمل أيَّ مسؤوليةٍ تجاه الماضي، في بعضِ الأحيان أشعرُ ببساطةٍ أني خجلةٌ من الزمن الذي أعيشُ فيه. وهذا الماضي سيكونُ هو الحاضر أيضاً، لأني في غرفةِ الطعام الخاصة بالفندق، أنثرُ بذورَ التنبؤ. لم أكنْ أنتمي إلى هناك، أنا طيفٌ أجنبي، يتعين عليَّ أن أحني رأسي كثيراً جدّاً وأكونُ قريبةً جدّاً كي أسمعَ، ولن أفهمَ كلَّ شيء، لكن حتى ما أسأتُ فهمَه سيكونُ نوعاً من الحقيقة، ليتَه كانَ يتعلّق بالزمن الذي أعيشُ فيه، بدلاً من أن يتعلّقَ بالزمن الذي جَرَتْ فيه قصتُهم. «*يتعين علينا دوماً أن نطلبَ أكثر من أنفسِنا*»، سمعتُ مارينا تقولُ بجدّ. «*دوماً. أم أنا أحدّثُ نفسي فقط؟*». آه، كانتْ تلك ملاحظةٌ مُحبَّبة. لديَّ ضعفٌ تجاهَ الشيء الجدّي، الشيء المتوقّد. لو أنّي فكرتُ في مارينا بوصفِها شخصيّةً روائيّةً، كنتُ أفضّل أَن تملكَ شيئاً ما من

1- فيلوساميين: صفة للفيلوسامية التي تعني: الاهتمام بالشعب اليهودي وتقديره، والاهتمام بأهميته التاريخية، والآثار الإيجابية لليهودية في العالم، بخاصة من جانب غير اليهود – م.

دوروثيا بروك[1] أتذكرُ أولَ مرةٍ لمّا قرأتُ «*ميدل مارتش*»[2]: (كنتُ قد بلغتُ سنَّ الثامنة عشرة توّاً، ولم أكنْ قد انتهيتُ من مطالعةِ الثلثِ الأول من الكتاب حتى انفجرتُ بالبكاء ليس لأني أدركتُ أني لستُ دوروثيا فقط بل لأني، قبلَ بضعةِ أشهرٍ خَلتْ، تزوجتُ السيد كازوبون)، معَ ذلك لم يكنْ هنالك إذعان أو محوُ الذات، يُمكنني أن أرى ذلك، في هذهِ المرأة ذاتِ الشّعر الأشقر الرمادي والعينين الزرقاوين - الرماديتين العميقتين، الصريحتين. إنها تودّ أن تقومَ بما ينفعُ الآخرين، إلّا أنّها لم تكنْ تُغوَى كي تَنسى نفسَها. بالنسبةِ لشخصٍ طموحُه هو الصُّعود على خشبةِ المسرح، وكونُها أنثى ليس عَقبةً: كانتْ قد عاشت الحياةَ التنافسيّة، وفازتْ. إلّا أنّي حسبتُ أَن بوسعي أَن أتحمّلَ قَدراً كبيراً من الغرور وحبّ - الذات ما دامتْ هي تحتفظُ برغبتِها في تحسينِ الذات، وهو ما خمنتُ أنها تقومُ به فيما كنتُ أدرسُ التباينَ بين التعابيرِ النافذة الصبر والمُرهَقة بسببِ السهر الظاهرةِ على وجهِها، وتلكَ الطريقة الخاصة التي تملُكُها بأن تُبقي نفسَها جامدةً، دون حراك. من الغريب أن نَحسبَ أن فرداً ما ربما حاولَ أن يَصفني، محجوبةً عن الأنظار في موضعٍ دافئ في المُعتزَل العميق للنافذة، فيما كنتُ أصفُها. في الواقع، أنا مُتهوّرةٌ (تزوجتُ السيد كازوبون بعد أن تعرفتُ إليه بعشرةِ

1- دوروثيا بروك Dorothea Brooke: شخصية روائية في«ميدل مارتش». امرأة ذكية، ثرية، ذات تطلعات كبيرة. كانت ترفض عرض ثروتها، وتبدأ في إنجاز مشاريع عدة. تتزوج الكاهن العجوز إدوارد كازوبون الذي لم يأخذ طموحاتها على محمل من الجدّ، واستاء من شبابها وحماستها وطاقتها، وكان زواجهما خالياً من الحب. بعد وفاته تقع في حب قريبها ويل لاديسلاو Will Ladislaw وتتزوجه – م.

2- ميدل مارتش Middle march: رواية للشاعرة والروائية الإنكليزية ماري آن إيفانس الشهيرة بجورج إليوت، إحدى أهم روايات الأدب الإنكليزي وأكثر روايات الكاتبة إليوت تميزاً، إذ تمّ اختيارها من قبل الموسوعة البريطانية كأحد أعظم الأعمال الغربية منذ العصور اليونانية والإغريقية حتى عصرنا الحاضر. وتكمن أهمية رواية «ميدل مارتش» في تصويرها حياة المجتمع الإنكليزي في مطلع القرن التاسع عشر بجميع شرائحه وطبقاته وجوانب حياة أفراده الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كافة دون أن تهمل تأثير التطور العلمي والاكتشافات الحديثة في ذلك المجتمع. نُشرت أول مرة في العام 1871 – م.

أيام) وكانت لديَّ رغبةٌ في المُخاطرة، غير أني ميّالةٌ أيضاً للاجتماعِ الطويل، المتطاول، في زاويةٍ تتعلّق بالواجبات التي يتعيّنُ القيامَ بها (استغرقتُ تسعةَ أعوام كي أقرّرَ أنَّ لي الحقّ، الحقّ الأخلاقيّ، في الطلاقِ من السيد كازوبون)، لذلك كانَ من السَّهل بالنسبةِ لي أن أشعرَ بأني مُتسامحةٌ مع هؤلاءِ القوم الواقعين في شِركِ عشائِهم، في جدالِهم بشأن ما سيقومُ به بعضهُم في الأيام الآتية. ومن السهلِ عليَّ أن أغضبَ منهم. ما مِن أحدٍ تمَلملَ. لم أتلصصْ على أيِّ شعوذةٍ تحتَ المائدة. لم يتوارَ أحدٌ عدا بالطبع الغلام الصغير الذي تكوَّر في حضنِ امرأةٍ أخرى، يدعكُ عينيه، بدلاً من أَنْ يَستبقوه في المنزل، وفي فراشِهِ حصراً. لا بدّ أنه الطفلُ الوحيد، لا بدَّ أن أمَّه كانت تُريده قريباً منها هذه الليلة، مع أنّي لمْ أرَها تعيرهُ أدنى اهتمامٍ خلال هاتين الساعتين الأخيرتين فيما نحنُ جالسون إلى المائدة. لقد بدوا لي فعلاً، على الرغمِ من لحظاتِ اهتياجهم الخاطفةِ في ما يَتصلُ بالموضوعِ الذي يَشغلُهم، هادئين جدّاً. إلامَ يمكنني أن أعزو جمودَهم؟ هل إنَّ الطعامَ المطبوخ أكثر مما ينبغي ما يزالُ يستحثُهم على البقاء جالسين إلى المائدة؟ هل هو العُقم المستديمُ لدروسِ التفكير؟ هل هو ضجرُ أواخرِ القرنِ التاسع عشر؟ هل هو نفوري من تخيّلِ أيّ شيءٍ أكثر حيويةً ونشاطاً؟ صحيح، ما يزالُ هنالك وقتٌ لأن يَحدثَ شيءٌ حيوي فعلاً. ربما يُصابُ شخصٌ ما بنوبةٍ قلبيّة أو أن يَضربُ شريكاً في العشاء بشدّةٍ على رأسِه أو يبكي ويتأوّه أو يقذفُ كأسَ خمرٍ بوجهِ شخصٍ مُزعج. غير أن هذا بدا شيئاً غير مُرجح كأن أغادر بسرعةٍ مقعدي عندَ النافذة لأرقصَ على المائدة أو أن أَبصُقَ في الحساء أو أُداعبَ ركبةً أو أعضَّ كاحلَ شخصٍ ما. أفكارٌ رطبة: كنتُ بحاجةٍ إلى شيءٍ من الهواء. بإشارةٍ من بوغدان، فَتحَ أحدُ النُّدُل الشباكَ في الطرفِ الآخر من الغرفة، حيث اختبأتُ لمّا وَصلتُ. سمعتُ هيجاناً من صياحِ الشارع والخيولِ الصاهلة. كان الوقتُ تحديداً الواحدةَ بحَسبِ أجراسِ الكنيسة (ونعم، بحَسب ساعتي اليدويّة؛ اعترفتُ بأني قد أصبحتُ قلقةً). لم أكنْ في المسرح في الساعةِ السابعة من أجل أَداء هذه الليلة، بطبيعةِ الحال

كنتُ أتمنى أن أراه، كما فعلوا هُم. لا بدّ أن بعضَهم كانوا قلقين أيضاً. إنما لم يقفْ أحدٌ إلى أن فعلتْ مارينا ذلك. كنتُ تقريباً قد تخليتُ عن الأملِ بأن يكونَ نقاشُهم حولَ صحةِ أو خطأ الموضوع الذي كانوا يتناقشون فيه، مهما كانَ نوعُ هذا الموضوع، قد وَصلَ ذروتُه هذا المساء، مهما طالَ بقاؤهم جالسين إلى المائدة وبقيتُ أنا على مَقربةٍ منهم، أُحدّقُ إليهم، أُصغي إليهم، أفكرُ فيهم. ذلك أنه من طبيعة نقاشاتٍ من هذا النوع، النقاشُ المُتعلّق بالصحيح والخطأ، بحيث يكونُ لديكَ على الدوام هواجس وفكرةٌ جديدةٌ في اليوم التالي، بحيث إنّكَ حينَ تلتفتُ بأفكاركَ إلى حوارِ المساء قد تصيحُ قائلاً: يا لي من غبيّ كي أقولَ ذلك، أو أؤيدَ ذلك. هل كنتُ تحتَ تأثيرِ كذا وكذا، أم لأني فقط مُغفّلٌ أو عديمُ التفكير، انقلبتْ ثرموستاتي الأخلاقية رأساً على عَقِب؟ لذا في صبيحةِ اليوم التالي، تكون أنتَ صاحبَ الرأي المُناقِض (لعلكَ تفكرُ في الرأي المناقِض تماماً بسببِ ما تَجادلتَ من أجلِه في الليلة الفائتة، تلكَ الفكرةُ كانت تحتاجُ إلى تهويةٍ كي تُفسِحَ مجالاً لهذهِ الفكرة، الفكرة الأفضل)، لديكَ شيءٌ ما من مِثل بقايا أخلاقيّة مُتخلّفة من الماضي، لكنكَ تحسُّ بالهدوء لأنكَ تعرفُ الآن أنكَ في المضمارِ الصحيح، في حين إنكَ بنحوٍ غير سَهل تَشكُّ بأنك لا تزال قادراً على الاعتقاد بأن ثمة شيئاً مُختلفاً في الغد، وفي غضونِ ذلك، في الزمنِ المُخصَص للقرار الذي تُفكرُ فيه مليّاً، مسارُ العقل الذي قد تَسلُكُه أو لا تسلُكه، يدنو. ربما الآن تحديداً. وبعدها هبّتْ مارينا واقفةً على قدميها، تناولتْ سيجارةً من حقيبتِها اليدويّة الصغيرةِ ذات الخرز الذهبيّة وانزلقتْ إلى وسطِ الحجرة. وَقَفَ الآخرون، وحَسِبتُ أنهم جميعاً سيغادرون الآن. إنما فقط قبّل ريشارد يدَ مارينا بحماسةٍ، وبعدها دارَ دوراتٍ عدّة، مسَّ بشفتيه رسغَ كلِّ واحدةٍ من النسوة الأُخريات في الحجرة، اعتقدتُ أنه كانَ يتطلّعُ إلى أن يُكمِل المساءَ بوقفةٍ عند ماخوره الأثير. ومن ثم غادرَ المخرجُ المسرحيّ وزوجتُه، وأعقبهما صاحبُ البنك والقاضي وزوجتاهما، ومن ثم المُمثل الرئيس ومديرُ المسرح وقلةٌ آخرون. لم يعدْ هناك أحدٌ يهمُّ بالمغادرة. فتحَ الطبيبُ

زجاجةَ توكاي على الخوان. الصبيُّ الصغير، بيوتر، (وها أنا ذا أخيراً سَمّيتُه)، الذي أوقِظَ من نومِهِ وهُيئ للمُغادرة، وأُجلِسَ على الكرسيّ المُجنّح. مالتْ مارينا بعرضٍ فاتنٍ للكسلِ على ظهرِ الكرسيّ، يُحيطُ بها بوغدان، وتاديوش، والممثلةُ الشابةُ، والمُنتج، وشقيقةُ بوغدان، والطبيبُ، والرسامُ بالرِّجْل الوحيدة. توجدُ هنا فرصةٌ أخيرةٌ واحدة للحوار كي يَنضجَ ولقرارِهم كي يتمسّكوا به بإحكام كالمحفظةِ اليدويّة. «*حسناً، بالطبع*»، قالتْ مارينا، وهي تقهقهُ بنحوٍ رائع، «*أنا لا أؤيد نفسي على الدوام*. فكرةٌ مُشجِّعةٌ». واصلوا التحدّثَ بهدوء. وأنا أستمرُّ بالاستماعِ إليهم. إبان سنوات طفولتي، فيما أنا أسلّمُ بأني كنتُ أُحسنُ التعلّم، كنتُ متأكدةً من أني لستُ «ذكية فعلاً»، (من فضلكَ تجاهل الاقتباسات) فيما كنتُ أدرسُ ما المقصودَ من الكتب، من السير الذاتية، لم يكنْ هنالك بجواري ممّن بدا «ذكيّاً فعلاً» (الطلبُ نفسُه) أيضاً. مع ذلك، حسبتُ فعلاً أنَّ بمستطاعي أَن أفعلَ كلَّ ما يدورُ في ذِهني (كنتُ سأصبحُ عالمة كيمياء، على غرارِ مدام كوري)، ذلك الثبات والاهتمام أكثر من الآخرين فيما يتعلّقُ بما هو جوهريّ يأخذني إلى حيثما أريدُ الذهاب. وهكذا، الآن، أعتقدُ أني لو كنتُ أصغيتُ وراقبتُ وتأملتُ، آخذةً وقتاً بقدرِ ما أحتاجُه، يمكنني أن أفهمَ القومَ في هذه الغرفة، وأن قصتَهم ستكونُ قصةً تتحدثُ إليّ، مع أنّه لا يُمكنني أن أفسّرَ كيفَ عرفتُ ذلك. كانت هنالكَ قصصٌ كثيرةٌ جديرةٌ بأن تُروى، من الصَّعبِ القول لماذا هذه القصّةُ دونَ سواها، لا بدَّ أنَّ السببَ يرجعُ إلى أنه مع هذه القصّة تشعرُ بأنكَ قادرٌ على أن تروي قَصصاً كثيرةً، وأنه سيكونُ هنالك ضرورةٌ لسردِها؛ أرى أني أفسّرُ بنحوٍ سيئ. لا يُمكنني أَنْ أفسّرَ. لا بدَّ أن يكونَ ذلك أشبهَ بالوقوع في الحُب. مهما كانت تفسيراتُك لسببِ اختيارِكَ هذه القصّة ـــــ ربما، في الواقع، اجتذبتْ حيويةً من حزنٍ أو اشتياقِ طفولةٍ ما ـــــ فهي لنْ تُفسِّرَ كثيراً. القصّة، أعني القصّة الطويلة، الرواية، هي أشبهُ بجولةٍ حولَ العالم في ثمانين يوماً: قلّما يمكنكَ أن تتذكرَ البدايةَ حينَ تصلُ إلى نهايةٍ ما. إنما حتى الرحلةُ الطويلةُ، أيُّ رحلةٍ طويلةٍ، لا بدَّ أن تبدأَ من

مكانٍ ما، لنَقُلْ في غرفةٍ ما. كلُّ واحدٍ منا يحملُ غرفةً في داخلِهِ، ينتظرُ أن تُؤثث وتغدو مأهولةً، وإذا ما أنصتَّ جيداً، فربما تحتاجُ لأن تُسكِتَ كلَّ شيء في غرفتِكَ، كي تستطيعَ أن تَسمعَ أصواتَ تلكَ الغرفةِ الأخرى في رأسِكَ. يُمكنكَ أن تَسمعَ فرقعةَ النار أو تكتكةَ ساعةِ الحائط أو (إذا كانت النافذةُ مفتوحةً) صيحةَ حوذيّ أو *ڤروون* - *ڤروون* درّاجةٍ ناريةٍ في الزقاق. أو ربما لا يكون بمُستطاعكَ أن تَسمعَ أيَّ واحدٍ من هذِهِ الأصوات، إذا كانت الحجرةُ تضجُّ بالأصوات. الأشخاص خشنو الطباع أو ليّنو السلوك قد يكونون جالسين بغرضِ تناولِ العشاء، لنَقُلْ إن شيئاً ما لا تفهمه تماماً، لنأملَ ليسَ لأن جهازَ التليفزيون يعملُ، وبكلِّ طاقتِه، لكنكَ سوف تُمسِكُ بلُبِّ المسألة. في بادئ الأمر، ستكونُ هنالك عباراتٌ فقط، أو مُجرّدُ اسم، أو هَمسةٍ مُلحّة، أو صرخة. إذا كانَ هنالك صراخٌ، لا، زعيق وتشاهدُ أنتَ شيئاً ما أشبهَ بالسرير، يُمكنكَ أنْ تأملَ ألّا تكون هذه حجرة يُعذَّبُ فيها شخصٌ ما، لكن، بالأحرى، ثمةَ امرأةٌ تضعُ طفلَها، مع أنّ هذِهِ الأصوات هي الأخرى لا تُطاق. يُمكنكَ أَن تأملَ أنكَ وَجدتَ نفسَكَ وسطَ قومٍ ذوي قلوبٍ كبيرةٍ، الحنانُ شيءٌ جميل، وكذلك هو الفهم، الاقترابُ من أجلِ فهمِ شيءٍ ما، وهذا الشيءُ هو الحنان، وهو رحلةٌ، أيضاً. كان الخدمُ يَجلِبون إلى مارينا والآخرين معاطفَهم. كانوا مُتأهبينَ للمُغادرة الآن. برعشةِ توقّع، قررتُ أَن أتبعَهم إلى الخارج وأُوغل في العالم.

واحد

أغلب الظن كانت الصفعةُ التي تلقّتْها من غابرييلا إيبرت بعدَ الساعةِ الخامسةِ بدقائق قليلةٍ عصراً (لم أشهدْ ذلك) هي التي جعلتْ شيئاً ما، لا، كلَّ شيء (لم يكنْ بمستطاعي أن أعرفَ هذا أيضاً) أوضح قليلاً. فيما هي تصلُ إلى المسرح، دقيقةً في مراعاةِ مواعيدها بنحوٍ غير قابلٍ للتغيير، قبل ساعتين من رفعِ الستارة، مَضتْ مارينا مباشرةً إلى عرين النجومية خاصتِها، وهناك جُرِّدتْ حتى قميصِها التحتاني الفضفاض والكورسيه خاصتها وساعدتْها زوفيا، مُلبِّستها، على ارتداءِ ثوبِها المبطّن بالفراء وخفّيها، وهي التي أرسلتْ ثوبَها إلى الكيّ في غرفةٍ مجاورة، دفعت الشموع أقرب إلى كلتا جهتَي المرآة، انحنتْ إلى الأمام على لوحةِ الألوان المُختَلطة دون نظامٍ للجِرار غير المغطاة أصلاً وقْيالات مستحضرات التجميل من أجلِ إنعامِ النظر عن قرب في القناعِ المألوف جدّاً، وجهها الحقيقي، وجه الممثلة التحتاني، عندما بدا الباب الذي خلفها كأنه ينكسرُ وينفتحُ وأمامها متقاسماً المرآة مندفعاً نحوها بسرعة، رأتْ وجهَ غريمتها الجليلة المحمرّ، المشؤوم تصيحُ بإهانتها العبثية، رَمتْ نفسَها إلى الوراء في كرسيّها، استدارتْ، ألقتْ نظرةً خاطفةً على ذراعها وهي تهبطُ مباشرةً قبيل ابتسامةٍ عريضةٍ لاإرادية منها مخفِّضةً جفنيها في اللحظةِ نفسِها التي كشفتْ فيها أسنانَها العليا وقصّرتْ أنفها، وتحسستْ دفعةً عنيفةً ولسعةً من يدٍ كبيرةٍ مزوّدةٍ بخاتم على وجهها.

جرى ذلك كلُّه بسرعةٍ وجلبةٍ شديدتين ـــ ظلتْ عيناها مُغمضَتين، البابُ مغلقٌ بقوة ـــ والغرفة المُرقّشة بالظل بخراطيم الغاز ذوات الهسيس

التي صمتت الآن، ربما كان ذلك حُلُماً مُزعجاً: كانت ترى في منامِها أحلاماً مزعجة. ربتتْ مارينا براحةِ يدها على وجهِها الذي تلقّى الأذى.

«زوفيا؟ زوفيا!».

صوتُ الباب وهو يُفتحُ برفق. وثرثرةٌ قلِقةٌ من بوغدان. «ماذا تريدُ هي بحق الشيطان؟ لو لم أكنْ هناك في الممر مع يان، كنتُ سأمنعها، كيف تجرأتْ بأن اقتحمتْ غرفتكِ هكذا!».

«هذا لا يعني شيئاً»، قالت مارينا، وهي تفتح عينيها، وتُنزل يدها. «لا شيء». المعنى: طنينُ الألم في خدِّها. وداءُ الشقيقة يلوحُ الآن في الجانب الآخر من رأسها، الذي كانت ترغب بأن تُصدَّه (أي الداء) من خلال تمرينِ الإرادة الذي مارسته طويلاً حتى نهاية المساء. انحنتْ إلى الأمام كي تشدَّ شعرَها بمِنشفة، وبعدها وقفتْ وتحرّكتْ نحو المغسلة، حيث غسلتْ ودعكتْ وجهَها وعنقَها بقوة بالصابون، وربتتْ على بشرتِها بقطعةِ قماشٍ ناعمةٍ كي تجففها.

كنتُ أعرفُ منذ زمنٍ طويل أنها لن ـــــ».

«لا بأس»، قالت مارينا. «ليس له». بل لزوفيا، وهي تتردد عند الباب نصف المفتوح، حاملةً ثوبها عالياً بذراعيها الممدودتين.

وهو يلوّحُ لها بالدخول، أغلقَ بوغدان البابَ بنحوٍ أقوى قليلاً مما كان ينوي. خلَعتْ مارينا ثوبها وارتدت الثوبَ الأرجواني ذا الأشرطة الزينية الذهبية. (لا، لا، اتركي الظهر دون أزرار!)، استدارتْ ببطء مرةً، مرتين، أمام المرآة الطويلة المتأرجحة، أومأتْ لنفسِها، أرسلتْ زوفيا كي تُصلح الإبزيم المرتخي في فردةِ حذائِها وكي تكوي الثيابَ المُجعدة، وبعدها جلستْ إلى مرآة الزينة ثانيةً.

«ماذا أرادتْ غابرييلا؟».

«لا شيء».

«مارينا!».

أخذتْ خصلةَ شعرٍ من الزَّغب ونشرتْ طبقةً سميكةً من «بيرل پاودر» على وجهِها وحنجرتِها.

«أتتْ كي تتمنى لي أحلى الأمنيات لمناسبةِ عرضِ هذه الليلة».

«حقّاً؟».

«كان ذلك كَرَماً خالصاً منها، ألا توافقني الرأي، بما أنّها كانت تعتقدُ أن الدورَ المسرحيَ يجب أن يكونَ لها».

«كَرَماً خالصاً»، قال. وفكّر، بطريقةٍ مختلفةٍ تماماً عن غابرييلا.

راقبها حين وضعَت المسحوقَ ثلاث مرات، ووضعت المستحضر التجميلي بنبتة النفل البري على الجزء العلويّ من عظام خديها وتحتَ عينيها وعلى ذقنِها، وصبغتْ جفنيها بلونٍ داكن، ورفعته كلَّه ثلاثَ مرات بواسطة قطعة إسفنج.

«مارينا؟».

في بعض الأحيان أعتقد أنه لا جدوى من وراء أيّ واحدٍ من هذه الأشياء كلِّها، قالت دون طابعٍ معين، وهي تبدأُ ثانيةً بطلاء جفنيها بالعود المصنوع من الفحم النباتي.

«هذا الشيء؟».

غطستْ فرشاةً من وَبر البعير الرفيع في طبقٍ من الصبغ البني المصفر المحترق ورسمتْ خطّاً تحت رموشِها السفلية.

بدا لبوغدان أنها كانت تستخدم كَمّاً كبيراً من الكُحْل، ما يجعل عينيها الجميلتين تبدوان حزينتين، أو شائختين تحديداً. «مارينا، انظري إليَّ!».

«عزيزي بوغدان، لن أنظرَ إليكَ». كانت تضعُ برفق مزيداً من الكُحْل على حاجبيها. «وأنت لن تُنصتَ إليَّ. لا بدّ أنكَ الآن تعوّدتَ على نوباتي العصبية. نوبات ممثلة. وهي نوباتٌ أسوأ من المعتاد، غير أن هذه أول ليلة. لا تلتفتْ إليَّ قط».

كما لو أنّ ذلك كان شيئاً ممكناً! انحنى ومسّتْ شفتاه مؤخرةَ عنقِها.

«مارينا...».

«ما الخطب؟».

«أنتَ تذكرين أني أخذتُ الغرفة في [فندق ساسكي] كي نحتفلَ نحن البقية فيما بعد ـــــ».

«نادي على زوفيا من أجلي، هل ستفعل؟». بدأتْ بمزج الحنّاء.

«سامحيني على إحضار العشاء فيما أنتِ تستعدين لأداءِ دوركِ في المسرحية. إنما يجب إلغاء العرض إن أحسستِ بأنكِ في منتهى...».

«لا تفعلْ»، غمغمتْ. كانت تمزجُ قليلاً من أنتيمون ورديّ ومُذرر هولندي مع [المُبيّض الجاهز] كي تكسو يديها وذراعيها بالبودرة. «بوغدان؟».

لم يردّ عليها.

«إني أتطلّعُ إلى الحفلة»، قالت ومالتْ للوراء كي تستقر على كتفها يدٌ ترتدي قفازاً.

«أنتِ منزعجةٌ من شيءٍ ما».

«أنا منزعجةٌ من كلِّ شيء»، قالت بطريقةٍ جافة. «وستكون رحيماً جدّاً إذا ما سمحتَ لي أن أتمرّغ فيها كلِّها. يحتاجُ الممثلُ المُخضرَم إلى قليلٍ من التحفيز كي يستمرَّ في تقديم أفضل ما لديه!».

لا تستمتع مارينا بالاستلقاء لبوغدان، الفردُ الوحيدُ من بين أولئك المُغرَمين بها، أو الذين يدّعون أنهم مُغرَمون بها، الذي كانت تثقُ به فعلاً. إلّا أنّها لا تفسح المجالَ لغضبِه أو توقِه لمواساتها. كانت تعتقدُ أنه من الأفضل لها أن تحتفظَ بهذه الحادثة المُدهِشة لنفسِها.

في بعض الأحيان يحتاجُ المرءُ إلى صفعةٍ حقيقيّةٍ على وجهه كي تجعله يشعرُ بإحساسٍ حقيقيّ.

حين تَصفعُكُ الحياةُ على أُذنيكَ، تقول: «هي ذي الحياة».

أنتَ تشعرُ بالقوة. تريد أن تشعرَ بأنكَ قويّ. الشيء الجوهري هو أن تستمرَّ قُدُماً.

كما فعلتْ هي، بعناد، أو تقريباً: ثمة أشياءٌ كثيرةٌ ينبغي تجاهلها. لكنكَ إذا

كنتَ بطبعٍ رواقيّ، ولديكَ موهبةٌ في احترام - الذات، وعملتَ بأقصى ما تستطيعُ مع موهبةٍ أخرى وهبَها لكَ الله، وكوفئتَ بالضبط كما كنتَ تجرؤ على أن تتمنى على اجتهادِكَ وإصرارِكَ، في الواقع، نجاحُكَ وَصلَ بنحوٍ أسرع مما كنتَ تتوقّع (أو ربما، أنتَ تعتقدُ هذا سرّاً، كنتَ تستحقُ ذلك)، ربما تعتبر ذلك وقتها أنه شيءٌ ثانويّ أن تتذكرَ حالات التجاهل أو الاستخفاف وأن تغذّي المَظالم. لمّا تكونُ منزعجاً تكونُ ضعيفاً ــــ مثلَ قلقِكَ فيما يتعلق بكونكَ سعيداً أم لا.

الآن لديك وجعٌ غير متوقّع، تستطيع أن تتبلورَ المشاعرُ المكبوتةُ حوله.

عليك أن تجعل مُثُلك العليا تطفو بعيدةً نوعاً ما عن الأرض، كي تُبعدها عن التدنيس. وأن تهربَ من المِحن والإهانات، أيضاً، مخافةَ أن تتأصّلَ وتشنقَ روحَك.

أن تتلقى الصفعة مهما كان سببُها، انتقادٌ مسعور، وغيورٌ من منافستِها على نجاحها المنيع ــــ كان ذلك شيئاً تقاسَمتْه مع بوغدان، وفي الحال كفّتْ عن التفكير فيه. أخذته بوصفه شعاراً، ودعوةً للاستجابة للحاجات الشبيهة بالهمس التي كانت قد أخفتها طوالَ أشهرٍ عدّة ــــ هذا الشيء يستحقُّ أن تحتفظَ به لنفسها، وحتى أن تُبقيه في ذهنها. نعم، سوف تُبقي صفعة غابرييلا المسكينة في ذهنها. لو كانت تلك الصفعة بسمةَ طفلٍ صغير، فسوف تبتسمُ حين تتذكرُها، لو كانت صورةً، فسوف تؤطرُها وتحتفظُ بها على مرآة الزينة خاصتها، لو كانت شعرةً، فسوف تأمر بأن يصنعوا لها باروكةً منها... أوه أفهم هذا، فكّرتْ، أنا أُصاب بالجنون. هل يمكن أن تكونَ تلك الصفعة بهذه البساطة؟ ضحكتْ على نفسِها وقتَها، لكنها رأتْ بنفور أن اليد التي تضعُ الحناء على شفتيها كانت ترتعش. الشقاءُ شيءٌ خاطئ، حدّثتْ نفسها، إن شقائي لا يقلُّ عن شقاء غابرييلا، وهي لا تبغي سوى الحصول على ما أملكهُ أنا. الشقاءُ دوماً على خطأ.

أزمةٌ في حياة ممثلة. التمثيل هو أن تنافس الممثلين الآخرين، ومن ثم، ويا لدهشة المرء (في الواقع، لا يدهش المرء تماماً)، أن تجدَ نفسكَ أفضل من أيٍّ واحدٍ منهم ــــ من بينهم المانحة المثيرة للشفقة لتلك الصفعة. ألم يكنْ ذلك كافياً؟ لا، لم يعدْ كافياً.

كانت تُحِبُّ أن تكونَ ممثلةً لأن المسرحَ بدا لها شيئاً لا يقلُّ عن الواقع. واقعاً أسمى. إن التمثيل في مسرحيةٍ ما، واحدة من المسرحيات العظيمة، تُصبح أنتَ أفضلَ مما كنتَ عليه فعلاً. لقد قلتَ فقط الكلمات المنحوتة، الضرورية، المُلهِمة. أنت تبدو دوماً جميلاً بقدر ما ينبغي أن تكون عليه، البراعةُ تساعدُكَ، في عمرك. كلُّ حركةٍ من حركاتِكَ ذات معنًى كبير، نبيل. بوسعك أن تشعرَ بأنكَ تحسنتَ بما أُعطيَ لكَ، على خشبةِ المسرح، كي تعبّرَ عنه. الآن سوف يحصلُ هذا، في منتصف الطريق في خطبةٍ مُسهبةٍ عنيفةٍ نبيلة من لدن شكسبير، كاتبها المحبوب، أو شيللر أو سووڤاكي[1]، فيما هي تدورُ حول محور بثوبها غير الطيّع، تومئُ، تتكلّمُ بطريقةٍ خطابية، تتحسّسُ الجمهورَ وهو ينحني لفنِّها، لم تشعرْ بشيءٍ أكثر من ذاتها. لقد ولّى تمجيدُ - الذات القديم. وحتى رهاب خشبة المسرح[2] ـــ تلك الرجّة الضرورية للمهني الحقيقي ـــ هجرَها. صفعةُ غابرييلا أيقظتها. بعد مرورِ ساعة وضعتْ مارينا شعرَها المستعار وتاج الوَرَق المعجَّن[3]، وألقتْ نظرةً أخيرةً أخرى على المرآة، ومضتْ إلى الخارج كي تُعطي أداءً هي نفسها بوسعها أن تعترف، بحسب معاييرها الحقيقية لنفسها، لم يكنْ سيئاً جدّاً.

كان بوغدان مفتوناً جدّاً بجلال مارينا حين مضتْ كي تُعدم بحيث إنّه في بداية الترحيب الحماسي كان لا يزال متأصلاً في الكرسي المغطى بالبَلَش[4] في مقدمةِ مقصورته، يداه تقبضان على الدرابزون. وهو مُكهرَبٌ الآن، انزلقَ

1- يوليوش سووڤاكي Juliusz Słowacki (1809 - 1849): كاتب مسرحي وشاعر رومانسي بولندي. يُعدّ أحد الشعراء الثلاثة في الأدب البولندي، وشخصيةً بارزةً في الحقبة الرومانسية البولندية – م.

2- رهاب خشبة المسرح stage fright: حالة التوتر التي يشعر بها الممثلون كافة قبل الظهور على خشبة المسرح –«معجم المصطلحات المسرحية»، إعداد سمير عبد الرحيم الجلبي، دار المأمون، بغداد 1993: 221 – م.

3- الورق المعجَّن: مادة صلبة مصنوعة من عجينة الورق ممزوجة بالغراء وغيره من المواد الدبقة – م.

4- البَلَش: نسيج ذو زئبر أطول من زئبر المخمل – م.

بين شقيقته، والمُنتج من ڤيينا، وريشارد، والضيوف الآخرين، ولدى نداء الستارة[1] الثاني شقَّ طريقه إلى ما وراء الكواليس.

«را ــــ ئع»، نطقَ حين أكملتْ دعاءَ الستارة الثالث وراحتْ تنتظر بجواره في الأجنحة حجم الصوت كي يؤكدَ عودةً أخرى إلى الخشبة المفروشة بالزهور.

«إن كنتَ تعتقدُ هذا، أنا سعيدة».

«أنصتي إليهم!».

«إليهم! ماذا يعرفون هم إن لم يروا شيئاً أفضل مني؟».

بعد أن أذعنتْ لأربعة نداءات ستارة، رافقها بوغدان إلى بابِ غرفة تبديل الملابس. كانت تحسبُ أنها بدأتْ تسمحُ لنفسِها بأن تشعر بالرضا عن أدائِها. لكنها ما إن أصبحتْ في الداخل، حتى أطلقتْ عويلاً خالياً من الكلام وانفجرتْ بالبكاء.

«أوه، مدام!». بدتْ زوفيا كأنها تهمُّ بالبكاء، هي أيضاً.

وفيما هي تشعر بأنها ابتليتْ بالكَرَب البادي على وجه الفتاة وترغبُ في مواساتِها، رمتْ مارينا نفسها بين ذراعَيْ زوفيا.

«هوّني عليكِ، هوّني عليكِ»، تمتمتْ فيما كانت زوفيا تمسكها بقوةٍ وإحكام، وبعدها أفلتتْ إحدى ذراعيها وبرفق راحتْ تربّتُ على كتلةِ الشعر المتيبسة المُعدَّة.

أفلتتْ مارينا نفسها على مضض من القبضة غير المترددة للفتاة وقابلتْ نظرتها المحدّقة بحنان. «لديكِ قلبٌ طيبٌ، زوفيا».

«لا يمكنني أن أتحمّل وأنا أراكِ حزينةً، مدام».

«لستُ حزينةً، أنا... لا تحزني عليَّ».

«مدام، كنتُ في الأجنحة تقريباً في الفصل الأخير كلّه، وحين مضيتِ كي

1- نداء الستارة curtain call: تصفيق استحسان في نهاية المسرحية تحمل الممثلَ على العودة إلى المسرح – م.

تموتي، لم أركَ تموتين بأفضلِ من تلك المِيتة، كُنتِ مدهشةً جدّاً بحيث إنّي لم أستطعْ التوقف عن البكاء».

«إذن يكفينا بكاءً نحن الاثنتين، أليس كذلك؟». بدأتْ مارينا تضحك. «إلى العمل، أيتها الفتاةُ السخيفة، إلى العمل. لماذا نحن الاثنتان نضيّع وقتَنا سُدًى؟».

تحررتْ من ثوبِها المَلَكي ولبستْ من جديد ثوبَها المُبطّن بالفراء، أزالتْ مارينا بقطعة إسفنج وجهَ ماري ستيوارت وبسرعةٍ ووضعت القناعَ المتحفظ المناسب لزوجة بوغدان ديمبوڤيسكي. زوفيا، وهي تتنشق قليلاً «زوفيا، كفى!»، وقفتْ خلف كرسيها محتضنةً الثوب الأخضر كنبات المريمية الذي اختارت مارينا عصر ذلك اليوم أن تلبسه من أجل العشاء الذي كان يقيمُه بوغدان في«فندق ساسكي». لبست الثوب ببطء أمام المرآة الطويلة المتأرجحة، ورجعتْ إلى طاولة الزينة وحلّتْ خصلات الشعر المُجعدة وراحتْ تفركُ وتفركُ شعرَها بالفرشاة ثانيةً، وبعدها كدّستْه بارتخاءٍ على رأسها، دنتْ من المرآة ونظرتْ عن كَثَب، أضافتْ شيئاً قليلاً من الشمع الذائب إلى أهدابِها، وقفتْ مجدداً، عاينتْ نفسها مرةً أخرى، وراحتْ تُصغي إلى الضوضاء المتصاعدة في المجاز، أخذتْ أنفاساً مرتفعةً، متناغمةً، وفتحت الباب لموجةٍ مُغلّفةٍ من الصياح والتصفيق.

من بين المعجبين المرتبطين بها بنحو كافٍ كي يُسمح لهم بالدخول إلى ما وراء الكواليس كان هنالك بعضُ المعارف لكن، باستثناء ريشارد، وهو يقبضُ على باقةِ أزهار حرير ويضمُّها إلى صدرِه العريض، لم تَرَ أحداً من الأصدقاء المُقرَّبين: أولئك الذين دعتهم إلى الحفلة طُلب منهم أن يذهبوا مباشرةً إلى الفندق. وأكثر من مئة شخصٍ كانوا ينتظرون خارج بابِ المسرح الخلفيّ، على الرغم من الجوّ العاصف. عَرَضَ بوغدان ملاذاً تحت مظلته الشبيهة بالسيف[1] ذات المقبض العاجي كي يكونَ بمستطاعِها أن تمكثَ خمسَ عشرةَ دقيقةً تحت الثلجِ الهاطل، وكانت ستبقى خمسَ عشرةَ دقيقةً

1- ما قصدته الكاتبة أن شكلَ المظلة يكون كالسيف حينَ تكون مطويةً – م.

أخرى لو لم يلوّحْ هو للمعجبين الأكثر جبناً بالابتعاد، برامجُهم لم تُوقَّعْ بعد، ورعى مارينا عبر الحشد صوبَ مركبة الجليد التي كانت تنتظرُهم. ريشارد، وهو يضغط أخيراً باقةَ الزهور العائدة إليه بين يديها، قال: «إن فندق ساسكي» لا يبعد سوى سبعةِ شوارع من هنا وهو يُفضّل أن يقطعَ هذه المسافة مشياً على قدميه.

يا له من شيءٍ غريب، في مدينتِها وموطنِها، أن تستقبلَ هي أصدقاءَها وصديقاتِها في فندق، إنما طوالَ الأعوام الخمسة المنصرمة ـــ كانت مواهبها قد قادتْها بنحوٍ عنيد صوبَ القمة، إلى اتفاق بالعمل مدى الحياة لدى «المسرح المَلَكي في وارسو» لم تعدْ لديها شقةٌ في كراكوف.

«غريب»، قالت. لبوغدان، للا أحد، لنفسِها. قطّبَ بوغدان حاجبيه.

صاعقة، على غرار فرقعة إطلاق المدافع، حين وصلا الفندق. صوتُ زعيق، لا، مجرّد صيحة: حوذي غاضب.

صعدوا على أقدامهم السلّمَ الرخامي المُغطى بالسجاد.

«أأنتِ بخير؟».

«بالطبع أنا بخير. إنه مُجرَّد مَدخلٍ آخر».

«ولي الامتياز بأن أفتحَ الباب لكِ».

الآن جاء دورُ مارينا كي تعبس.

وكيف لا يكون هنالك تصفيقٌ ووجوهٌ تبتسم بابتهاج، ترحيبٌ مألوف في حفلة الليلة الأولى ـــ غير أنها فعلاً قدّمتْ أداءً باهراً ـــ فيما كان بوغدان يفتحُ الباب (في ردٍّ على سؤالها «بوغدان، هل أنتَ على ما يرام؟». تنهدَ وتناولَ يدها دخلتْ. هرع بيوتر إلى حضنها. عانقتْ شقيقة بوغدان وأعطتها باقة أزهار ريشارد الحرير التي كانت تحملُها؛ وسمحتْ لكريستينا أن تحتضنَها، فيما كانت عينا الأخيرة مغرورقتين بالدموع. بعد أن عبّر كلُّ واحدٍ من الضيوف الذين احتشدوا قريباً منها عن تقديرِه لأدائِها المسرحي، تطلعتْ إلى كلِّ وجهٍ من الوجوه، ومن ثم راحتْ تنشدُ ببهجة:

يا أصدقائي يا مَن تناولتم ما تبقى في الأسفل
عسى ألّا تروا مأدبةً أفضلَ من هذه في حياتِكم كلِّها![1]

وعلى هذه الكلمات ضحك الجميع، التي تعني، أنا أعتقد (لم أصلْ أنا بعد)، أنها قالت كلمات دور تيمون الأثيني باللغة البولندية، وليس الإنكليزية، لكنها تعني أيضاً أن لا أحدَ عدا مارينا قرأ «*تيمون الأثيني*»، لأن الوليمةَ في المسرحية ليستْ وليمةً سعيدةً، قبل كلّ شيء بسبب الفرد الذي أقامها. ومن ثم تفرّق الضيوف في أنحاءِ الغرفةِ الواسعة وشرعوا يتحدثون بينهم حول أدائها المسرحي وبعدها، حول المسألة الأكبر الجارية حاليّاً (وهي تقريباً حين وصلتُ، شعرتُ بالقشعريرة وكنتُ متلهفة لدخولِ القصة)، فيما كانت مارينا تُرغمُ نفسَها على أفكارِ أكثرَ تواضعاً، وأقلَّ سخرية. لا توجد هنا مُنافِساتٌ غيورات. هؤلاء هم أصدقاؤها وصديقاتها، أولئك الذين تمنّوا لها الخيرَ والسعادة. أينَ هو عرفانُها بالجميل؟ كانت تكرهُ سخطَها واستياءَها. لو تسنّى لي أن أمتلكَ حياةً جديدةً، فكرتْ، فلن أتذمَّر ثانيةً.

«ماريانا؟».

ما من جواب.

«مارينا، ما هو الشيءُ الخطأ؟».

«ما هو الشيءُ الذي يمكن أن يكونَ خطأً... دكتور؟».

هزَّ الطبيبُ رأسَه. «أوه، فهمتُ».

«هينريك».

«هذا أفضل».

«إني أزعجكَ».

1- اقتباس من مسرحية شكسبير «تيمون الأثيني Timon of Athens»، الفصل الثالث، المشهد السادس. هذه المسرحية التراجيدية ألّفها وليم شكسبير نحو عامَيْ 1604 - 1605- م.

«نعم» ابتسمَ ـــ«أنتِ تزعجينني، مارينا. إنما في أحلامي وحدها، وليس في غرفة الاستشارة العائدة لي». ومن ثم، قبل أن تتمكنَ من توبيخِه لأنه تغزّل بها: «أبهة أدائكِ المسرحيّ البارحة»، شرحَ لها.

رأى أنها لا تزال ترددُ. «ادخلي» مدَّ يدَه ـــ«اجلسي» أشارَ إلى أريكةٍ مغطاة بنسيجٍ مُزدانٍ بالرسوم والصور ـــ«حدّثيني». خطوتان في داخل الغرفة، استندتْ على خزانة كتب. «ألن تجلسي؟».

«أنت تجلس. وأنا سوف أستمرُّ بالمشي... هنا».

«أتيتِ إلى هنا مشياً على قدميكِ في هذا الجوّ؟ هل هذا عملٌ حكيم؟».

«هينريك، أرجوك!».

جلسَ على زاوية مكتبه.

شرعتْ تذرعُ الحجرةَ جيئةً وذهاباً. «كنتُ أحسبُ أني آتيةٌ إلى هنا كي أُحاصركَ بالأسئلة حول ستيفان، ما إذا كانَ هو فعلاً ـــ».

«لكني أخبرتكِ»، قاطعها هينريك، «أن الرئتين كانتا قد أظهرتا في وقتٍ سابق تحسّناً ملحوظاً. حيالَ عدوٍّ هائل كهذا، الكفاح الذي يشنُّه الطبيب والمريض سيكون طويلاً بشكلٍ مؤكد. بيد أني أعتقدُ أننا نفوزُ، أنا وشقيقكِ».

«كلامُك هراء، هينريك. هل قالَ لكَ أحدٌ هذا الكلام من قبل؟».

«مارينا، ما الخطب؟».

«كلُّهم يتحدثون كلاماً لا معنى له ـــ».

«مارينا...».

«بمَن فيهم أنا».

«إذن» ـــ تنهّدَ ـــ «هو ليس ستيفان الذي كنتِ تريدين أن تستشيريني بشأنه».

هزّتْ رأسَها.

«إذن دعيني أخمّن»، قال، وهو يغامرُ بالابتسام.

«إنك تجعلُ مني أضحوكةً، يا صديقي القديم»، قالت مارينا بكآبة. «أعصاب النساء، أنت تفكر. أم أسوأ من ذلك».

«أنا؟» ـــــ صفعَ المكتبَ ـــــ «أنا، صديقُكِ القديم، كما تعترفين، وأنا أشكركِ على ذلك، هل أنا الذي لا آخذ مارينا خاصتي على مَحْمَل الجَدّ؟». ألقى عليها نظرةً حادة. «ما هي المسألة؟ هل هي نوباتُ الصداع خاصتكِ؟».

«كلا، المسألة لا تتعلق بذلك» جلستْ على حين غَرّة ـــــ «أنا. أعني، نوبات الصداع خاصتي؟».

«سأجسّ نبضَكِ»، قال لها، وهو يقفُ لصقَها. «أنت متوهجة. لن أندهشَ إن كانت لديكِ لمسةٌ من الحمى». بعد لحظةِ صمت، لمّا أمسكَ برسغِها ومن ثم أعاده إليها، تطلَّعَ في وجهِها ثانيةً. «لا توجد حمى. أنتِ تتمتعين بصحةٍ ممتازة».

«قلتُ لكَ إنه ما من شيءٍ خطأ».

«آه، هذا يعني أنكِ تريدين أن تَشكي لي. حسناً، ستجدين أني أكثرُ المُستمعين صَبراً. اشتكي، مارينا العزيزة»، صاحَ بفرح. لم يرَ الدموع في مآقيها. «اشتكي!».

«لعله شقيقي، على أية حال».

«لكنّي أخبرتكِ ـــــ».

«اعذرني» وَقفتْ ـــــ «إني أخدعُ نفسي».

«أبداً! من فضلكِ لا تذهبي. هبَّ واقفاً كي يسدَّ عليها طريقَها نحو الباب. «لديكِ حمى فعلاً».

«قلتَ لي إني غير محمومة».

العقلُ يمكن أن يغدو مرتفعَ الحرارة، حالُه حالَ الجسم.

«ما رأيكَ بالإرادة، هينريك؟ قوة الإرادة».

«أيّ نوعٍ من الأسئلةِ هذا السؤال؟».

«أعني، أتعتقدُ أن بمستطاع المرء أن يفعلَ ما يحلو له؟».

«يمكنكِ أن تفعلي ما تريدين، عزيزتي. نحن كلُّنا خدمُكِ ومُغريكِ». تناول يدَها ونكّسَ رأسه كي يقبّلَها.

«أوه» سحبتْ يدها ــــ «أنتَ رجلٌ مثير للقرف، لا تتملَّقني!».

حدّقتْ لحظةً وعلى وجهِها لاح تعبيرٌ لطيفٌ، مُندهش. «مارينا، عزيزتي»، قالَ لها بطريقةٍ مُهدئة. «ألم تعلّمكِ تجربتُكِ شيئاً ما عن كيفيةِ استجابةِ الآخرين لكِ؟».

«التجربةُ معلمٌ خامل، هينريك».

«لكنها ــــ».

«في الجنّة» اندفعتْ نحوه، عيناها الرماديتان تتألقان ــــ «لن تكون هنالك تجارب. منتهى السعادة لا غير. هناك سنكون قادرين على قولِ الحقيقة كل منا للآخر. أو إننا لا نحتاج للكلام البتة».

«منذ متى وأنتِ تؤمنين بالجنّة؟ إني أَحسدُكِ».

«على الدوام. منذ أن كنتُ صغيرةَ السن. وكلّما يكبرُ سني، يزدادُ إيماني بها، لأن الجنةَ شيءٌ ضروريّ».

«أنتِ لا تجدينها... من الصعب أن يؤمِنَ المرء بالجنّة؟».

«أوه»، تأوهتْ، «المشكلة لا تكمن في الجنّة. المشكلةُ هي ذاتي المُحَطَّمة».

«أنتِ تتكلمينَ كالفنانةِ القابعة في داخلك. إن فرداً بمزاجكِ على الدوام سوف ــــ».

«كنتُ أعرفُ أنكَ ستقول هذا!». داستْ بقدمها بقوة. «إني آمركَ، إني أتضرَّعُ إليكَ، لا تتكلمْ عن مزاجي!».

(نعم كانت مريضةً. أعصابها. نعم هي ما تزال مريضةً، جميع أصدقائها وصديقاتها باستثناء طبيبها كانوا يتكلّمون عن ذلك فيما بينهم).

«إذن أنتِ تؤمنين بالجنّة»، غمغمَ كي يسترضيها.

«نعم، وعند أبواب الجنّة، سأقول، هل هذه هي جَنّتُكِ؟ هذه الشخصيّات الأثيرية المُجلَّلةُ بالبياض، التي تنجرفُ وسطَ الغيوم البيض؟ أينَ يمكنني الجلوس؟ أينَ الماء؟».

«مارينا...» وهو يتناولُ يدَها، قادها ثانيةً إلى الأريكة. «سوف أسكبُ لكِ جرعةً من الكونياك. سيكون نافعاً لكلينا معاً».

«أنتَ تشربُ كثيراً، هينريك».

«هو ذا»، سلّمها إحدى الكأسين وسحبَ كرسيّاً قبالتَها. «أليسَ هذا أفضل؟».

ارتشفت الكونياك، وبعدها مالتْ إلى الخلف ونظرتْ إليه بصمت.

«ماذا هناك؟».

«أعتقد أني سأموت في وقتٍ قريب جدّاً، إن لم أفعلْ شيئاً متهوِّراً... كبيراً. حسبتُ أني كنتُ أحتضر السنة الفائتة، كما تعرف».

«لكنكِ لم تفارقي الحياة».

«يتعينُ على المرء أن يموت كي يبرهنَ على إخلاصِه!».

من رسالةٍ لم تبعثها إلى أحد، أي، مُرسلةٍ إلى نفسها:

هذا لا يرجع إلى أن شقيقي، شقيقي المحبوب، يحتضر ولن يكون لديَّ أحدٌ كي أبجله... هذا لا يرجع إلى أن أُمي، أُمّنا المحبوبة، هي التي تزعجني، أوه، كم كنتُ أتمنى أن أمنعها من الكلام... هذا لا يُعزى إلى كوني أنا أيضاً أُمّاً غير صالحة (كيف يمكنني أن أكون كذلك؟ أنا ممثلة)... هذا لا يُعزى إلى أن زوجي، وهو ليس والد ابني، عطوفٌ جدّاً ويفعل كلَّ ما أريدُه... هذا لا يُعزى إلى أن الجميع كانوا يصفقون لي، لأنهم لا يستطيعون أن يتصوّروا بأن بمستطاعي أن أكون أكثر نشاطاً أو اختلافاً مما أنا عليه فعلاً... هذا لا يرجع إلى أني في سن الخامسة والثلاثين الآن ولأني أقيمُ في بلدٍ قديم، ولا أريد أن أكونَ مسنّة (أنا لا أرغب أن أُصبحَ أمي)... هذا لا يرجع إلى أن بعض النقاد يتلطّفون، إذ تتمّ مقارنتي بممثلاتٍ أصغر مني سنّاً، في حين إن حالات الترحيب الحماسي بعد كلِّ أداءٍ مسرحيّ لم ينقصْ دَويُّها (ما هو إذن معنى التصفيق؟)... هذا لا يرجع إلى أني كنتُ عليلةً (أعصابي) وكان يتعيّنُ عليَّ أن أتوقفَ عن التمثيل المسرحي طوالَ ثلاثة أشهر، ثلاثة أشهر فقط (أنا لا أشعر

بأني على ما يرام عندما لا أعمل)... هذا لا يرجع إلى إني أؤمن بالجنّة... أوه، هذا لا يرجع إلى أن البوليس لا يزال يتلصّص عليَّ ويكتب التقارير عني، مع أنّ كلَّ تلك التصريحات والأمنيات الطائشة مضى عليها زمنٌ طويل (يا إلهي لقد انقضتْ ثلاثَ عشرة سنةً منذ [الانتفاضة])... الأمر لا يرجع إلى أيّ سببٍ من هذه الأسباب أني قررتُ أن أقومَ بشيءٍ ما لا يريدني أيُّ امرئٍ أن أقوم به، وأن الجميعَ يعدّونه عملاً أحمق، وأني أريدُ أن يفعله بعضُهم معي، مع أنّهم لا يُريدون ذلك؛ حتى بوغدان، الذي يُريدُ دوماً ما أُريدُه أنا (كما وعدَني، حين تزوّجنا)، لا يريد حقيقةً أن يفعل ذلك. غير أنه يجب أن يفعل.

«لعلها لعنةٌ قادمةٌ من أيّ مكان. العالم، كما ترين»، قالت: «واسعٌ جدّاً. أعني»، قالت: «العالم يأتي في أجزاءٍ كثيرة. العالم، على غرار بولندا المسكينة خاصتنا، يُمكنُ أن يُقسَّم على الدوام. وأن يُقسّم ثانيةً. أنتِ تجدينَ نفسكِ تشغلين فضاءً أصغر فأصغر. مع أنّكَ في ديارِكِ في ذلك الفضاء ــــ».[1]

«على تلك الخشبة»، قالت الصديقة بنحو مفيد.

«إن كنتِ ترغبين»، قالت ببرود. «تلك الخشبة». وبعدها عقدتْ حاجبيها مقطبةً.

«يقيناً أنكِ لا تذكّرينني أن العالمَ كلَّه هو خشبة مسرح؟».

1- هنا إشارةُ إلى تقسيمات بولندا Partitions of Poland بالبولندية: (Rozbiory Polski) أو تقسيم الكومنولث البولندي الليتواني، هو تقسيم تمّ فيَ النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وأنهى وجود الكومنولث البولندي اللتواني. حيث قام كل من الإمبراطورية الروسية، ومملكة بروسيا وملكية هابسبورغ بتقسيم أراضي الكومنولث بينهم لتوسيع نفوذهم إقليمياً. وقد جرتْ هذه التقسيمات على ثلاث مراحل: التقسيم الأول حصل في 5 آب / أغسطس 1772، التقسيم الثاني في 23 كانون الثاني / يناير 1793 (لم تشاركْ فيه النمسا)، التقسيم الثالث في 24 تشرين الأول / أكتوبر 1795، وهو التقسيم الذي أنهى استقلال دولة بولندا. وقد حدث التقسيم الأخير بعد ثورة تاديوش كوسيوسكو. كما يقسّم المؤرخون هذا التقسيم إلى تقسيم لصالح النمسا، وتقسيم لصالح بروسيا، وتقسيم لصالح الإمبراطورية الروسية. ويطلق مصطلح «التقسيم الرابع» على أيّ تقسيم تالٍ لأراضيِ بولندا أو على مجتمعات الشتات التي لعبت دوراً سياسيّاً هامّاً في إعادة تأسيس الدولة البولندية القومية بعد العام 1914 – م.

«لكن كيف بمستطاعكِ أن تغادري مكانكِ، وهو هنا؟».

«مكاني، مكاني»، صَرَختْ. «لا مكانَ لي أبداً!».

«ولا يمكنكِ أن تهجري ــــ».

«أصدقائي وصديقاتي؟». صاحتْ مستهزئةً.

«في حقيقة الأمر، أنا وإيرينا كنا نفكرُ في جمهوركِ».

«مَن يقول إني أهجرُ جمهوري؟ هل سينسونني إذا ما اخترتُ أن أغيب؟ كلا. هل سيرحبون بي ثانيةً إذا ما اخترتُ العودة؟ نعم. فيما يتعلّق بأصدقائي وصديقاتي...».

«نعم؟».

«يمكنكِ أن تتأكدي من أَني لا أنوي أن أَهجرَ أصدقائي وصديقاتي».

«أصدقائي وصديقاتي»، كررتْ، «هم أخطرُ من خصومي. إني أفكرُ في استحسانهم. في آمالِهم. إنهم يريدونَ مني أن أكونَ مثلما أنا عليه، ولا يسعني أن أحرّرهم من أوهامِهم تماماً. قد يكفّون عن حبهم لي».

لقد شرحتُ لهم. إنما كان بمستطاعي أن أُعلنَ لهم ذلك، كالنزوة. مؤخراً، فكرتُ أني مستعدةٌ لأن أفعل هذا. على العشاء في أحد الفنادق، الحفلةُ بعد أداء الليلة الأولى. كنتُ سأرفع كأسي. إني مغادرةٌ. حالاً. إلى الأبد. أحدُهم يهتفُ قائلاً: [أوه، مدام، كيف يسعكِ أن تفعلي هذا؟]. وكان بوسعي أن أردَّ عليه أني قادرةٌ على فعلِ ذلك. إنما لم أكنْ أملك الجرأة. بدلاً من ذلك، اقترحتُ أن نشربَ نخبَ بلدِنا المسكين المُقطّع الأوصال.[1]

حُبّ الوطن، وحُبّ الأصدقاء والصديقات، وحُبّ أفراد الأسرة، وحُبّ خشبة المسرح... أوه، وحُبّ الله: الحب، والكلمة، أتتْ بسهولةٍ إلى شفتَيْ مارينا ــــ مع أنّها توقعتْ شيئاً قليلاً من الحُبّ الرومانسيّ، مادة المسرحيات.

كانت طفلةً متجهمةً، مُطيعة. كانت تعتقد أن الله يراقبُها على الدوام

1- هنا إشارةٌ واضحةٌ إلى تقسيم بولندا الذي أشرنا إليه آنفاً - م.

ويوثّقُ في سجلٍّ كبير بني اللون (كما تخيّلته هي) كلَّ فكرةٍ تخطرُ في بالِها وكلَّ فعلٍ تقوم به. كانت تُبقي ظهرَها مستقيماً وكانت تتبادلُ النظر مع الآخرين. كانت متيقنةً من أن الله يؤيدُ ذلك. كانت تفهمُ، منذ وقتٍ مبكر، أنَّ لا جدوى من التشكّي، ومن الأفضل ألّا تثق بأيّ شخص. الله يعرفُ كم هي ضعيفةٌ وهشّةٌ، إلّا أنّه كان يصفحُ عنها لأنها كانت تبذلُ أقصى ما تستطيع. بالمقابل، كانت قد عقدت العزمَ على ألّا تطلب من الله أيَّ شيء ربما لا تستحقه، إما بواسطة مواهبها أو بواسطة قوة أمنيتها. لم تكنْ ترغب بأن تُجهِد كَرمَ جلالته.

حتماً، هي غيرُ قادرةٍ على قولِ الحقيقة. إنما توجدُ في داخلها طاقةٌ كبيرةٌ جدّاً لأن تقول *شيئاً ما*، وأن تجعلَ الآخرين يُنصتون إليها. إن المرأة، أيّ امرأة، لا يسعها أن تقول أشياءً كثيرةً جدّاً. إن المرأة المزاجية، أيَّ امرأة مزاجية، بوسعها أن تقول أشياءً كثيرةً جدّاً. بوصفها امرأةً مزاجيةً، ديفا، تمتلك رُخص الديفا، من الجائز أن تكون لديها نوبات غضب، بوسعها أن تطلبَ المستحيل، بوسعها أن تكذبَ.

سيكون من المناسب لو أنّها ظهرت للعيان من اللامكان كي تغدو نجمةً. سيكون شيئاً مناسباً بالقدرِ نفسه بأنها يجب أن تكونَ سليلةَ قبيلةٍ فاتنةٍ، ذات موهبةٍ واسعة. إن تاريخ الأسرة الذي أسستْه هي، طفولتها السعيدة مع أنّها بخيلة، دمجتْ عناصرَ السعادة والبُخل بنحوٍ بارع.

كانت هي أصغر أولاد أُمِّها العشرة ــــ كان لديها ستة أولاد من زواجها الأول، وبعدها أربعة أولاد بعد أن تزوجتْ مدرّس ثانوية يُعلّم اللغة اللاتينية ــــ وكما دأبتْ مارينا على القول، مع اثنين من أخوتها، من أمها، كانا على الخشبة حينَ كانت هي في سن الرابعة وتتعلمُ القراءة، كيف كان بوسعها ألّا ترغب بأن تحذو حذوهما؟ في حقيقةِ الأمر، مارينا لم تكنْ تحلم في البداية بأن تعيشَ حياةَ الممثلة. كانت تريدُ أن تُصبحَ جنديةً؛ وحين خطرَ ببالها ذلك، كونها فتاةً، لم يُسمح لها بحملِ الأسلحة، كانت تريدُ أن تُصبح شاعرةً يتلو الرجالُ قصائدَها الغنائيّة الوطنيّة فيما هم يُحثون الخُطى للمطالبةِ بحريةِ بلادهم. إلّا أنّ

أباها، مع أنّه لم يشجعْ وَلَعها بالقراءة، بدا أنه فكر أن الوَلعَ بالموسيقى مناسبٌ أكثر للفتاة مقارنة بولعِ القراءة. وانسحبَ، بعد أن جهّز دروسَ اليوم التالي، انسحبَ من ضوضاءِ مساءِ الأسرة بأن شَرَع يعزفُ على الفلوت.

من هذا كلِّه، ما قطّرته لأصدقائها وصديقاتها هو أن أباها علّمها العزفَ على الفلوت.

ابتعدتْ عن أخبارهم: عدم التوافق المُخيف بين أبويها، خُطَب أمها المُسهَبة العنيفة، أبوها الذي يغالبه النعاسُ فيما هو يطالع قيصر أو ڤيرجيل الأثيرين لديه، السُّخريات المُهينة من أطفال الجيران حين كانت في السادسة من عمرها وأن مدرس اللغة اللاتينية لم يكنْ أباها، بل هو شخصٌ استأجر غرفةً في الشقة (كانوا يحتاجون دوماً لأن يُسكنوا أشخاصاً آخرين ويقدّموا لهم وجبات الطعام): شخصٌ ما كالرجل الأكبر سنّاً، نصف ألماني، نصف بولندي، الذي انتقل للإقامةِ في الشقة بوصفه ثاوياً حين كانت في سن الحادية عشرة، بعد عامين على وفاة أبيها، والذي لم يبدأْ بزيارةِ سريرِها (انتزعَ منها وَعداً بألّا تُخبر أمها) إلى أن أصبحتْ في الرابعة عشرة ـــ يلزمُها أن تعدَّ نفسَها سعيدةَ الطالع كونها ظلّتْ دون تحرّش في عمرٍ متأخر كهذا، كان هذا هو تعليقُ أمها.

«أنا أنتمي لأسرة ذات أخوة وأخوات، في طفولتنا كنا جميعاً دون استثناء نُحب المسرح، مع أنّ أربعةً منا فقط ـــ ستيفان، وآدم، ويوزفينا، وأنا ـــ ارتقينا خشبة المسرح. بالطبع، واحدٌ منا فقط كانت لديه موهبةٌ حقيقية، ولم أكنْ أنا. كلا» رفعتْ يدها ـــ «لا تُكذبني».

كان يحلو لمارينا أن تُصرّحَ قائلةً إن ستيفان كان هو الموهبةُ الطبيعيةُ الأكثر، وإنها حققتْ كلَّ شيء من خلال العملِ الشاق والتطبيق: لم تكفّ عن الشعور بالذنب فيما يتصلُ بالسرعة التي بزتْ فيها مسيرتُها الفنيّة مسيرتَه.

وكنا فقراء. وغدونا أفقر حين فارقَ أبونا الحياة، لمّا كنتُ في سن التاسعة. بعد رحيلِه عملتْ أمي في محل معجنات في الشارع نفسه الذي تقوم فيه الشقة التي رأينا فيها النور جميعاً، تلك الشقةُ ضاعتْ في [حريق كراكوف

الكبير][1]. توقفتْ هنيهةً عن الكلام. حين كنتُ صغيرة السن، كنتُ أفكرُ أني لا يسعني العيشَ دون راحةٍ ورفاهية. كان ثمة نادلٌ نحيل يسكب الكونياك. «وبعدها فكرتُ أنه ليس بمستطاعي العيش دون أصدقائي وصديقاتي».

«والآن؟».

«الآن أعتقدُ أني قادرةٌ على العيش دون كلّ شيء».

«وهذا يعني أيضاً أنكِ تريدين كل شيء»، ردَّ عليها صديقها الذكي.

كانت في سن السابعة، حين دخلت المسرح أول مرة. كانت المسرحية هي «*دون كارلوس*»[2]. كانت تبدو أنها حول الحُبّ، وبعدها بدتْ أنها حول تحطّم الفؤاد، لكنها في ذلك الحين بدتْ أنها حول شيءٍ أفضل بكثير، حينما يمضي كارلوس في النهاية كي يحارب من أجل حريةِ هولندا المستعبَدة. (مسألة أنه لن يذهبَ إلى هولندا ـــ مسألة أنه في اللحظة الأخيرة من المسرحية: الملك، والد كارلوس، يأمرُ باعتقال نجلِه وإعدامه ـــ *مُفزِعةٌ* جدّاً كي يتقبّلها المرء). كانت قد اكتسحتها رسالةُ شيللر بشأن الحرية، إلى درجةٍ كبيرةٍ بحيث إنّها، في النهاية، أزاحتْ من ذهنِها سببَ أخذِها، كونها صغيرةَ السن، إلى المسرح. كان سببُ ذلك هو أن ترى أخاها غير الشقيق ستيفان، وهو يُمثل في كراكوف لأول مرة، في أحد الأدوار الرئيسة. لأنها أدركتْ، فيما تتقدّم المسرحية، بشعورٍ قويٍّ بالإذلال أنها لم تتعرفْ إليه. نظرتْ إلى جميعِ الرجال الذين كانوا يجيئون ويذهبون على الخشبة، ولم ترَ أخاها الوسيم بينهم. أحدُ

1- حريق كراكوف الكبير Great Krakov Fire: حصل الحريق في 18 تموز / يوليو 1850، واستمر أياماً عدّة. انتهى بتدمير نحو عشرة بالمئة من المدينة، التي كانت وقتئذٍ جزءاً من الدوقية العظمى Grand Duchy» التابعة للإمبراطورية النمساوية – م.

2- دون كارلوس Don Carlos: مسرحية تراجيدية (تاريخية) من خمسة فصول للكاتب الألماني فريدريك شيللر. كتبها بين 1783 و1787 وأُنتجتْ أول مرة في هامبورغ العام 1787. الشخصية في عنوان المسرحية هو كارلوس، أمير أستورياس، والمسرحية بصورة عامة استعانتْ بشكل فضفاض بأحداث تاريخية في القرن السادس عشر خلال عهد فيليب الثاني، ملك إسبانيا – م.

الرجال بدينٌ جدّاً، ورجلٌ آخر مُسِنّ جدّاً (كان ستيفان في التاسعة عشرة)، ورجلٌ ثالث طويل جدّاً، الرجلُ الوحيد الذي لم يكنْ بديناً جدّاً أو مُسِنّاً جدّاً أو طويلاً جدّاً، وهو رجلٌ ذو شعرٍ مستعار فضيّ وطلاءٍ أحمر على وجهه، يؤدي دور المُخلص پوسا، لا يبدو أبداً شبيهاً به. غير أنها لم تكنْ قادرةً على أن تسألَ والديها مَن يكون ستيفان بين هؤلاء. سوف يحكمان عليها بأنها غبيّةٌ بنحوٍ ميئوس منه ولن يأخذوها إلى المسرح ثانيةً.

بعد انتهاء العرض المسرحي، حين رافقتْ أمها إلى ما وراء الكواليس وظهر ستيفان، باسماً، وجهُه بارزُ العظام بفكه الأسفل القوي وجبهتِه العالية وقد أُزيل عنه مسحوقُ التجميل، قلّما كانت قادرةً على أن تسأله أيَّ دور مَثّله في المسرحية هل يُحتمل أنه مَثّلَ دور پوسا؟ وقالت له فقط إنه كان مُذهلاً، مُذهِلاً.

وبعدها خَطرَ ببالِها ـــ بدا ذلك حساباً بارعاً، راشداً جدّاً ـــ أنه توجد طريقةٌ واحدةٌ كي تضمنَ أن يسمحوا لها بالذهاب إلى المسرح مجدداً. وهذه الطريقة هي أن تُصبحَ هي نفسها ممثلةً. مَن يقدر أن يمنعَ ممثلاً من الذهاب إلى المسرح؟ في حقيقةِ الأمر، كان الممثلون مُرحباً بهم بحيث إنّهم في الظاهر لا يتعين عليهم أن يستخدموا المَدخل الاعتيادي (مع أنّها افترضتْ أنه كان ما يزال مطلوباً منهم أن يبتاعوا التذاكر) بل يدلفون إليه من بابٍ خلفيّ.

(تلك الليلة) ـــ كانت تروي القصة، وهي تضحكُ على نفسِها، لأحد أصدقائها ـــ «أخذتُ على نفسي عهداً وأنا واقفةٌ وفمي مضغوطٌ على الزجاجة الجليدية في النافذة الصغيرة في الغرفة التي أتقاسمُها مع خمسةٍ من أشقائي وشقيقاتي... لا، ليسَ في الشقة التي وُلدتُ فيها، بل في الشقة الجديدة (كان ذلك في العام الذي أَعقبَ [الحريق])... بأني سوف أعيشُ فقط من أجلِ المسرح. بطبيعة الحال لم أكنْ أعرف ما إذا كان بمقدوري أن أُصبحَ ممثلةً. وعلى مدى زمنٍ طويل ستيفان، وحتى آدم، فعلا كلَّ ما بوسعهما كي يُثبّطا عزيمتي بصور مخيفة عن حياةِ الممثل: العمل الشاقّ والضجر، الأجور السيئة، مديرو المسارح غير النزيهين، الجماهير الجاهلة

الناكرة للجميل، المراجعون الخبثاء. ناهيك عن ذكر غرف الفنادق القذرة غير المُدفأة وألواح أرضياتها ذات الصرير، الطعام المُشبّع بالسمن والشاي البارد، الرحلات المتطاولة إلى درجةِ السأم على الطرق غير الجديرة بالثقة في مركبات ذات نوابض رديئة، لكن» ـــ توقفتْ عن الكلام، كي تشرحَ قائلةً ـــ «هذا هو الذي كنتُ أُحبُّه.

«المشقات؟».

«أجل، السفر! أن تكونَ متشرداً. أنتَ تمضي إلى مكانٍ ما، أنت تُدخلُ السرورَ إلى أفئدةِ الناس، وبعدها لن يتسنى لك أن تراهُم مجدداً».

«لكن يجب أن يكون الحال مريحاً أكثر الآن، بما أنّكِ قادرة على السفر بالقطار».

«أنتَ لا تصغي إليّ. أنتَ لا ترى»، صَرَختْ. «يبدو أنه شيءٌ صحيح ألّا يملكُ المرء بيتاً!».

«ما زال بمستطاعي أن أرى ذلك الحريق» ـــ كانت تقول هذا لريشارد ـــ «وأن أشمَّه. سأظل دوماً مفزوعةً من النار. كنتُ في العاشرة. من الجهة الأخرى للساحة، احتميتُ في أول الأمر مع أشخاص آخرين لا حصر لهم عند باب الكنيسة الدومينيكية، كنا نشاهد نوافذنا وهي تذوب، النوافذ التي يستهدف منها أشقائي الجنود النمساويين ببنادقهم الخشبية ـــ كم كانَ ذلك يُخيف أُمَّنا. قالت إننا كنا محظوظين بأن نفلتَ بحياتنا، وهي الشيءُ الوحيد الذي هربنا به، لأن النارَ شبتْ في كلِّ شيء، حتى الكنيسة، والشقة التي انتقلنا إليها بعد الحريق كانت حتى أصغر حجماً. مع ذلك، ومع أنّها صغيرةٌ، آوتْ أمي ثاوياً آخر ـــ كان لدينا على الدوام أشخاصٌ يسكنون معنا ويتناولون الطعام مقابل أجرٍ في الشقة الواقعة في [شارع غرودزكا] ـــ وكان ذاك الثاوي هو السيد زويزوڤيسكي، هينريش زويزوڤيسكي، الذي كان عطوفاً جدّاً وأعطاني دروساً في اللغة الألمانية. بالطبع، كانت اللاتينية قد أصبحتْ سهلةً بالنسبة لي؛ كان أبونا قد علّمنا اللاتينية من خلال التكرار؛ غير أني لم أكنْ أعرف أن لديَّ موهبة في

تعلّم اللغات. مع أنّه كان أجنبيّاً، من كونيغسبيرغ، كان اسمُه الحقيقي هو سيبيلمير، أصبحَ السيد زويزوڤيسكي واحداً منا وتبنّى اسماً بولنديّاً. كان السيد زويزوڤيسكي وطنيّاً متحمساً. في سن السابعة عشرة قاتل في [انتفاضة العام 1830]. كان أشقائي يحبونه حبّاً لا حدودَ له. وبدتْ أمي، هي الأخرى، شديدةَ الولع به، وطوال برهةٍ من الزمن أنا وأشقائي كنا نحسب أن معلمي الخصوصي، مُعلّم الألمانية الملتحي سرعان ما يصبح زوجَ أُمّنا كُلّنا. إنما تبيّن أنه أصبحَ مولعاً بي ولعاً شديداً، أنا التي كنتُ صغيرة السن، ومع أنّ فارقَ العمر بيننا هو سبعة وعشرون عاماً، لم أجدْ في قلبي ما يدفعني لرفض عواطف رجلٍ رائع جدّاً، الذي كان بمقدوره أن يعلّمني كثيراً جدّاً. كان هو الذي آمنَ بمستقبلي في المسرح لمّا كان ستيفان ما يزال يثبطُ عزيمتي، وبعد تجربة أداء كارثية مع ممثلةٍ ذائعةِ الصيت في وارسو (لا، لن أخبركَ مَنْ كانت هذه الممثلة) قالت لي إني لا أملك أيةَ موهبةٍ على الإطلاق، ولا ذَرّةً من الموهبة. ولا ذَرّة! وعرض عليَّ أن يأخذني بيده إلى خشبة المسرح كي أبدأ مشواري. قبل ذلك ببضعة أعوام، فيما كان مختبئاً من البوليس، كان السيد زويزوڤيسكي يديرُ فرقةً مَسرحيةً جوّالة، واقترح عليَّ أن نمضي إلى بوتشنيا كي نقضي هناك ردحاً من الزمن وأن نُحيي تلك الفرقة المسرحية ببعض الممثلين ممَّن عرفهم هناك والذين كانوا يفتشون عن عمل. وبذلك، يكون لديه وسيلةٌ كي يقومَ بإدارةِ مسيرتي الفنية.

وهكذا، حين أصبحتُ في سن السادسة عشرة، مع المبارَكة الدامعة لأمي، لأني ما كنتُ لأفعل ذلك دونها، تزوجنا أنا والسيد زويزوڤيسكي وغادرنا كراكوف إلى المدينة التي كان ما يزال يملك فيها ارتباطاته، وهناك ظهرتُ في أول عمل مسرحي وأنا في السابعة عشرة، في [*نافذةٌ في الطابق الأول*] لكورزينيڤيسكي، بدور الزوجة التي، كما ستتذكّر، في اللحظة التي تكون فيها غير وفية لزوجها تنقذها صرخةُ طفلِها الصغير المعتلّ الصحة. لم تكن الجماهير في حينها شديدة التكلّف. كانوا يحبّون العواطف السليمة

وكانوا أخلاقيين. إلّا أنّ السيد زويزوڤيسكي كان يريدني أن أؤدي مسرحياتٍ عظيمةً، مسرحيات ألمانية ومسرحيات شكسبير، وفي بحرِ أشهر قلائل تعلّمتُ أدوار غريتشين وجولييت وديزدمونه[1] و ـــــ

«لماذا أُخبركَ بهذهِ الأشياء كُلِّها؟». قالت هذا باضطراب. «إني أُسهّلها بشكلٍ سليم!».

«بالطبع لم يكنْ ذلك سهلاً»، قال الصديق مُهدئاً.

«إلّا أنّه كان سهلاً!». هتفتْ. «لأني، أنا التي أحملُ طموحاتٍ لا حدودَ لها، لم أكنْ غير متكلّفة مثل جماهير تلك الأيام. إني أتذكر تأثيرَ أحد الكُتيبات عليَّ، كان عنوانُه [صحة *الروح*]، وفيه يحاول المؤلفُ، شخصٌ يُدعى فيوخترسلبين، أن يُثبتَ أنَّ كلَّ شيء نريدُه يمكنُنا أن نحصلَ عليه إذا كنّا نريدُه بقوّةٍ كافية. ولأني أطعتُ روحَ هذا المؤلف اليوطوبي، نهضتُ من سريري ـــــ كان الوقتُ هو ساعة متأخرة من الليل ـــــ ورحتُ أدوسُ الأرض بقوّة، صحتُ، [حسناً إذن، يتعين عليَّ وسوف أحصلُ!] هذه الجملة أيقظت الممرضة وبدأتْ طفلتي الرضيعة تبكي، لذلك عدتُ وتسلقتُ سريري، وأنا أحلمُ بأكاليل غار المستقبل.

«كنتِ يافعةً جدّاً يومئذٍ».

«كنتُ قد بلغتُ سنَّ العشرين وقتها. لا، لستُ يافعةً جدّاً. وابنتي، طفلتي الرضيعة ـــــ أنتَ تعرفُ ما جرى. الخنّاق. حين كنتُ بعيدةً في إحدى جولاتي.

أجل.

لم يكنْ بمستطاعي الذهاب إليها. السيد زاليزوڤيسكي، زوجي، أشار

1- ديزدمونه Desdemona: إحدى شخصيات مسرحية شكسبير «عُطيل» (1601 – 1604)، وهي حسناء من فينيسيا، تُغضب وتخيّب أمل أبيها، السيناتور الفينيسي حين تفرّ من منزل أهلها بقصد الزواج بعُطيل، وهو رجل مغربي يكبرها ببضعة أعوام – م.

إلى أن المسرحيات لا يمكن أداؤها دوني ولن يكون بمستطاعنا المشاركة ثانيةً في المسرح إذا ما أخفقنا في إكمال عقدنا».

«لا بدّ أن الأمرَ كان مُروِّعاً بالنسبة لكِ».

«ما يزالُ كذلك. كنتُ أتفجع عليها في كل يومٍ من حياتي. أنا أحب پيوتر، غير أني لم أتخيّل نفسي مع ابن. كنتُ أتخيّل نفسي دوماً مع ابنة».

«غير أن أكاليل الغار ـــ أنتِ محقةٌ فيما يتعلق بأكاليل الغار».

«نعم، إني أقرُّ أني منذ البداية لم أمثّلْ أيَّ دورٍ عدا الأدوار الرئيسة. إلّا أنّ الأمرَ لم ينفعني. إنه شيءٌ مُدهش أن يتعوّدَ المرء على التصفيق».

مثلما ثَبّطَ ستيفان والآخرون همَّتها، كانت مارينا تشعر بأن من واجبها أن تُثبّط همّة الشبيبة ممَّن يطمحون لاعتلاء الخشبة والذين كانوا يبحثون عن دعمٍ منها. «لا يمكنكِ أن تتصوّري التجاهلَ الذي يجبُ عليكِ أن تتحمليه»، حذّرتْ كريستينا. «حتى إذا أصبحتِ ناجحةً» هزّتْ رأسها ـــ«وبعدها، في أحد الأيام، *لأنكِ* ناجحة».

لكن مع أنّ مارينا لم تكنْ تعني أن تشجعها، فعلتْ هي ذلك حقيقةً، ببساطة لأنها كانت تُحبُّ أن تُعطي إرشادات، وأن تروي قصصاً عن حياتها.

السيد زويزوڤيسكي، هينريش زويزوڤيسكي، تعوّد أن يقول، [إنه شيءٌ لن يساعدكِ أن تكدحي ليلاً ونهاراً على أدواركِ المسرحية. هذا الأمر سوف يُدمّرُ صحتكِ ويعطيكِ أفكاراً غزيرةً جدّاً. صدّقيني، الممثلون لا يحتاجون إلى التفكير!] قهقهتْ. «بطبيعة الحال كنتُ أعتقد أن هذا شيءٌ مُحال. أنا أحب الأفكار».

«أجل»، تدخّل أحد الأشخاص الخاضعين لحمايتها، «الأفكار هي ـــ».

«بيد أني كنتُ أعرف أنه لا جدوى من النقاشِ معه. لذلك أجبتُه بتواضع، كنتُ ما أزال يافعة جدّاً وكان هو أكبرُ مني بكثير، وزوجي: [ماذا يجب عليَّ أن أفعل إذن؟] [الكدّ يوميّاً!] صاحَ (لماذا يصيحُ المسرحيون كثيراً جدّاً؟) كما لو أنّي لم أكنْ أكدّ!».

ضغطتْ بأصابعها على صدغيها. ثمةَ صداعٌ آخر في الأجنحة.

«والكدُّ ليس كافياً. يمكنني أن أدرسَ دوراً مسرحيّاً على مدى زمن طويلٍ غير أني مع ذلك لن أكونَ مستعدةً لأداء الدور. أتعلّمُ كلماتِ الدورِ المسرحي، أردّدُها فيما أنا أذرعُ المكان جيئةً وذهاباً، أتخيّلُ كيف سأديرَ رأسي وأُحرّكَ يديَّ، أحسُّ *بكل* شيء تحسّه شخصيتي في المسرحية. غير أن هذا غير كافٍ. يلزمني أن أراها. أن *أرى* نفسي بوصفي هذه الشخصية. وفي بعض الأحيان، مَن يعرف السبب، لا أستطيع. الصورةُ غير واضحة أو أنها لن تبقى في بالي. لأنه المستقبل ـــ وهو شيء لن يقدر أحدٌ أن يعرفه».

هذه هي اللحظة التي تُصبح فيها الممثلةُ اليافعة حين تنصتُ إلى مارينا خائفةً قليلاً.

نعم، هذا هو الاستعداد لتقديم الدور، إنه يشبه إنعام النظر في المستقبل. أو التنبؤ بما يمكن أن تكون عليه رحلةٌ ما.

«التأمل»، قالت: «لستُ جريئةً، كما تعرفين. إني أعرفُ نفسي جيداً جدّاً. وأنا لستُ سريعةً، أيضاً. يلزمُني أن أَصفَ نفسي باعتباري... بطيئةً».

«لكن ـــ».

«لستُ سريعةً. لستُ ذكيةً. فقط أعلى قليلاً من المتوسط. حقيقةً. غير أني فهمتُ دوماً» ـــ ابتسمتْ بصورةٍ لا يمكن تهدئتها ـــ «أني قادرةٌ على الانتصار من خلال الإصرار الخالص، بأن أنكبَّ على عملي بحيث أتفوّقُ في انكبابي هذا على أيّ فردٍ آخر».

«ربما يتعين عليكِ أن ترتاحي».

«لا»، قالت، «أنا لا أريد أن أرتاح. أريد أن أعمل».

«مَن يعمل بدأبٍ ومثابرة أكثر منكِ؟».

«أريد السلام».

«السلام؟».

«أُريدُ أن أتنفسَ الهواءَ النقيّ. أريدُ أن أغسلَ ثيابي في جدولٍ رقراق».

«أنتِ؟ أنتِ تغسلين ثيابكِ؟ متى؟ متى يكونُ لديكِ الوقتُ كي تفعلي ذلك؟ وأين؟».

«أوه، إنها ليست الملابس!». صرختْ. «أما مِن أحدٌ يفهمني؟».

«باريس»، اقترح أحدهم. «على الرغم من أنه يوجد هنالك كثيرون جدّاً من زملائنا الكئيبين، ذوي الأرواح النبيلة، باريس حافلةٌ بالمَرَح والفُرص. وأنتِ لن تكوني منفيةً *كالآخرين*[1]. سترغبين بأن ــــ».

«لا، ليس باريس».

«صحيح لستُ راضيةً. أكثر الأشياءِ كلّها»، أضافتْ قائلةً: «عن نفسي».

«لا يلزمكِ أن ــــ».

«شيءٌ جيد أن يكونَ المرءُ سعيداً، غير أنه شيءٌ سوقيّ أن يرغب المرء بأن يكون سعيداً. وإذا ما كنتِ سعيدةً، إنه شيءٌ سوقي أن تعرفي ذلك. هذا الأمر يجعلكِ راضيةً عن نفسكِ. إن الشيء الجوهريّ هو احترام - الذات، وهي صفةٌ ستكون ملكاً لكِ فقط في حالة أن تظلّي مُخلصةً لأفكاركِ. من السهلِ جدّاً أن تَصلي إلى حلٍّ وَسَط، ما إن تكوني قد عرفتِ نزراً يسيراً من النجاح».

«بطبيعة الحال لستُ متعصبةً»، قالت، «لكني قد أكونُ صعبةَ الإرضاء. في سبيل المثال، أنا لا أتمالكُ نفسي عن التفكير بأن الشخص الذي يعطسُ بطريقةٍ غير بارعة هو أيضاً يفتقرُ إلى احترام - الذات. وإلّا لماذا يتعينُ عليه أن يوافقَ على شيءٍ غير جذاب بكلّ معنى الكلمة؟ يجب أن تكونَ مسألةَ تركيز وأن يصمّمَ على أن يعطسَ بطريقةٍ جميلة، بطريقةٍ صريحة. مثل الزلزال. إني أتذكرُ حواراً مع شخصٍ ما عرفتُه على مدى أعوامٍ طويلة، وهو رجلٌ لطيف ومُهذّب، طبيب، أنا أعتزُّ بصداقتِه، حيث، في منتَصفِ جملةٍ ما، كنا نتكلّمُ عن نظرية فورييه[2] عن الهوايات الجذرية الاثنتي عشرة، وعلى حينِ غرّة بدا

1- كالآخرين: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي comme les autres – م.

2- شارل فورييه Charles Fourier (1772 - 1837): رجل اقتصاد وفيلسوف فرنسي، وصاحب نظرية اجتماعية اقتصادية عُرِفتْ باسمه، تأثر في حياته بالأفكار الاشتراكية

أن العاطفة تغلبتْ عليه. أطلقَ زعيقاً حاداً ومن ثم قال [كسش] ـــــ قالها مرتين وأغمضَ عينيه. ماذا قالَ، تساءلتُ مع نفسي، وأنا أحدّق إلى وجهِهِ المُرقّش. فهمتُ حين رأيتُه يتلمّسُ بحثاً عن منديلِه. غير أنه كانَ من الصعب أن نستمرَّ مع [التناسق المثالي] و[حساب الجذب] بعدها!».

«في اعتقادي»، بدأتْ كلامها بنحوٍ مَهيب.

مكتبة
t.me/t_pdf

وبعدها توقفتْ عن الكلام.

«يا له من هُراء هذا كلُّه!».

«تابعي كلامكِ»، قال بوغدان.

أجل، إنه هُراء أن تحسَّ بما كانت تحسُّه هي. أو ربما لا. يا له من شيءٍ بغيضٍ أن تفرضَ هذا الحزن، إذا كان هو كذلك فعلاً، على بوغدان، الذي كان يأخذ كلَّ ما كانت تقوله بنحوٍ حرفيّ جدّاً. لماذا كانت تشعرُ دوماً بأنها تودُّ أن تقولَ شيئاً ما يجعلُ جبينَه يتغضن وفكَّه الأسفل يتوتر؟ «إني أفكرُ كم أنتَ نافعٌ لي»، قالت، وهي تضغطُ وجهها على حنجرته، وهي تنشدُ راحةَ وعفوَ جسده.

قطّبتْ حاجبيها. «نعم، أنا أكرهُ أن أتذمّر، لكن...».

التي سبقت أفكار وأدبيات كارل ماركس. ولكنه لم يكن اشتراكيّاً بالمعنى الدقيق فهو لم يطالبْ بإلغاء الملكية وإنما كان يدعو إلى الاتحاد في الإنتاج بطريقِ المشاركة الاختيارية وأن يُتاح لكل شخص العمل وفقَ قابليته الشخصية وله الحقّ في تغيير نوع العمل.

كان فورييه يأمل في تغيير العالم وتحويله إلى نظام اقتصادي أفضل عن طريق المثال الصالح، وليس عن طريق الوعظ والإرشاد، وتصور مستعمرةً تُدار على شكل هيئة تعاونية بحيث يعيش أفرادُها في بناءٍ مشترك ويختصُّ كلُّ واحدٍ منهم بعملٍ معين طبقاً لذوقه للإبقاء على حياة الجماعة، هذا في رأيه سيؤدي إلى زيادة الإنتاج بحيث تُتاح السبل والفرص لكلٍّ مَن في المستعمرة في أن يعتزل العمل عندما يبلغ سنّ الثامنة والعشرين، وقد امتلأتْ نفسه حبوراً وأملاً، وكان فورييه يأمل في أن يقوم أحد الأغنياء بتمويل مستعمرته الخيالية. ولكن أحداً لم يمدّ له يدَ العون، وبعد وفاته عَمدَ الكثيرون إلى تطبيق نظريته، وأسسوا عدداً من الهيئات التعاونية في فرنسا – م.

«لكن؟». كان ذاك ريشارد الذي يتكلّم.

«أنا أُحبُّ أن أتباهى». قبضتْ على جبينِها بيدها، وهي تئنّ. «أوه، أوه، أوه!». ومن ثم ابتسمتْ بتكتم.

بدا الشاب مُبتلى. (نعم، كانت عليلةً. جميع أصدقائها وصديقاتها قالوا ذلك).

«هل أنا متباهية؟». قالت، عيناها لامعتان. «أنتَ ستقول لي ذلك، أيها الفارس المُخلِص».

لم يردّ عليها ريشارد.

«وإذا كنتُ كذلك فعلاً»، تابعت القول بقسوة، «لماذا؟».

هزَّ رأسه.

«لا تخفْ. ألا تريد القول، [لأنكِ ممثلة]».

«أجل، ممثلةٌ رائعة»، أجاب.

«شكراً لك».

«قلتُ شيئاً غبيّاً. سامحيني».

«كلا»، قالت. «أغلب الظن أنه ليس تباهياً. حتى إذا لم يكنْ بمستطاعي التحكم به.

أنا أحاول فعلاً أن أفهمَ مشاعري فهماً كاملاً، صدّقني!».

«أن تفهمي مشاعركِ»، هتف الناقد، وهو ناقدٌ مسرحيّ وديٌّ جدّاً. «لأيّ سببٍ، سيدتي العزيزة؟ إن غزارةَ مشاعركِ هي التي تُبهج الجمهور».

«كنتُ أحتاجُ دوماً لأن أتعرّف على نفسي مع كلِّ واحدةٍ من البطلات التراجيديات اللواتي لعبتُ أدوارهـن. إني أعاني معهنَّ، أذرفُ دموعاً حقيقيّة، وعادةً لا يُمكنني أن أحبسَها بعد أن تُسدلُ الستارة، ويلزمني أن أضطجعَ دون حراك في غرفة تبديل الملابس خاصتي إلى أن أستعيدَ قواي. خلال مسيرتي الفنية كُلِّها، لم أفلحْ أبداً في أن أُعطي أداءً مسرحيّاً دون أن أتحسّس آلامَ وعذاباتِ الشخصية التي أؤديها». ابتسمتْ بسمةً عريضةً. «إني أعدُّ هذا ضعفاً».

«لا!».

«مـاذا سيقولُ جمهوري إذا ما قـررتُ أن أمَثّلَ أدواراً كوميدية؟ الكوميديا» ـــ قهقهتْ ـــ لا يُعتقد بأنها ميزتي القوية.

«أيَّ أدوارٍ كوميدية؟». قال الناقدُ المسرحيّ بحذر.

«حين تبدئين في مستوًى عالٍ جدّاً، لن يكون أمامكِ مكانٌ آخر تمضين إليه».

«إني أتذكر» كانت تؤكدُ هذا لريشارد ـــ«إني أتذكرُ مرةً من المرات فقدتُ السيطرة، وكانت النتيجةُ كارثةً مع أنّي لم أكنْ مستعدةً لأن أدفعَ الثمن. كانت المسرحية هي [*أدريانا ليكوڤرييه*][1]، وهي مسرحيتي الأثيرة. وهي ممثلةٌ في دور ممتاز، وكانت ليكوڤرييه أعظمَ ممثلاتِ عصرِها. حسناً، كان الفتى الذي يدعو الممثلين لأداء أدوارهم قد أتى، كنتُ غادرتُ غرفة تبديل الملابس خاصتي، كنتُ واقفةً في الأجنحة، كان قد حان زمني كي أظهر على خشبة المسرح، ومع أنّه قلّما كان ذلك أولَ مرة أؤدي فيها هذا الدور، أدركتُ أن لديَّ رهابُ خشبة المسرح. يحدثُ لي ذلك في كثيرٍ من الأحيان. لو أنّ الأمر يقتصرُ فقط على أن يجعل فؤادي يخفقُ وأن تنضحَ راحتاي عَرَقاً، فإن ذلك لن يزعجَني. على العكس، اعتبرتُ ذلك علامةً من علامات المهنية. لو لم يكنْ لديّ شيءٌ من الارتعاش والحمى قبل أن أظهر على خشبة المسرح، ربما كنتُ سأؤدي أداءً سيئاً. على كلِّ حال، كان ذلك أسوأ قليلاً من المعتاد

1- أدريانا ليكوڤرييه Adrienne Lecouvreur (1692 – 1730): ممثلة مسرحية فرنسية، يعدّها كثيرون بوصفها أعظم فناني عصرها، كانت حياتها مصدر إلهام لكثيرٍ من الكتاب المسرحيين، والموسيقيين والشعراء. كما كتب فولتير قصيدةً عن رفض الكنيسة الكاثوليكية إقامة دفن مسيحي لها. بعد ظهورها أول مرة في «كوميدي فرانسيس» توثقتْ علاقتها مع جمهورها على نطاق واسع. علاقتها الرومانسية مع موريس دي ساكسن Maurice, Count of Saxon ما تزال عالقةً بالأذهان، وثمة نظريات مختلفة تُفيد بأن غريمتها دوقة بولون هي التي سممتها، إلّا أن الباحثين لا يؤكدون صحة هذه النظريات – م.

تلك الليلة ـــ ليس من نوع الرهاب الذي يشلُّ (كان لديّ ذلك، أيضاً!) غير أنه النوعُ الذي يجعلكَ تفقدُ عقلكَ. دخلتُ إلى المسرح، وبدأت الصالةُ كلُّها تصفق، واستمرَّ التصفيقُ طوال دقائق عدّة. في إقراري بالشكر، غطستُ في انحناءة احترام عميقة على الخشبة، بحيث كانت يداي المتقاطعتان تمسان ركبتي اليمنى ورأسي مُطأطَأ، ولمّا تلاشى الثناءُ ورفعتُ رأسي قلتُ لنفسي، [سترين، سترين ماذا يمكنني أن أفعل]. كانت راشيل قد خلقتْ هذا الدور، كان صوتُها أقوى، أعمقَ من صوتي، والناس ما زالوا يتذكرون حين جلبت المسرحية إلى وارسو قبل بضعة أعوام، إنما يعتقدُ الجميعُ أن أدريانا خاصتي رائعة، وفي تلك الليلة فكرتُ أني على وشك أن أقدّم أفضلَ أداءٍ مسرحيّ في حياتي. وفي هذه الحالة العقلية المشدودة، بدأتُ مَشهدي ـــ وأخذتُ كلمات دوري الأولى إلى مصافاتٍ سامية. كنتُ ضائعةً. كان من المُحال أن أخفض طبقة الصوت ما إن أكون قد بدأتُ. أدريانا خلف الستارة في [كوميدي فرانسيس] تدرسُ دورَها المسرحيّ الجديد، إلّا أنّها لا تستطيع أن تركّز، نبضاتُ قلبِها تتسارع، لأنها تتوقّعُ أن تلتقي ثانيةً الرجل الذي وقعتْ في حبه توّاً. وحين تُخبر صديقَها الحميم، الملقّن، الذي كان مُغرماً بها، مع أنّه لا يجرؤ على المجاهرةِ بذلك، بعاطفتها الجديدة، السرّية، صحتُ، صحتُ مثلَ ممثلةٍ لا تملك أدنى قدرٍ من الموهبة. ولمّا كنتُ قد بدأتُ في ذلك الصوت، تخيلي كيف أصبحتُ حين يدخلُ الأمير، هذا الرجل الذي كانت هويتُه الحقيقيّة غير معروفة بالنسبة لأدريانا، الحجرة الخضراء[1]. مثلما يُخبركِ أيُّ ممثلٍ ذي خبرة، لم يكنْ لديَّ خيار، كان يتعين عليَّ أن أواصلَ دون انقطاع. لم يكنْ بمقدوري سوى أن أرتفع إلى مصافّ أعلى فيما كانت العاطفة التي وجبَ عليَّ أن أعبّر عنها أمستْ أقوى وأكثر حزناً. تنفستُ الصعداء، تلوّيتُ، وكلُّ شيء كان أصيلاً. عند الفصل الخامس، بعد أن قبلتْ أدريانا باقةَ أزهارٍ مسمومةٍ أرسلتْها إليها المرأة التي كانت تنافسُها

1- الحجرة الخضراء green room: الحجرة التي يستريح فيها الممثلون والممثلات في المسرح – م.

كي تظفر بحُبّ الأمير، كانت معاناتي الجسديّة فظيعةً جدّاً، وكانت الذراعان اللتان امتدتا إلى بطلي[1] فيما كنتُ أرقد محتضرةً تتلوّيان برغبةٍ حقيقية. حين أُسدلت الستارة، حَملني دون شعور إلى غرفةِ تبديل الملابس خاصتي».

«أنا أحبُّ قصصَكِ»، قال ريشارد. كان يعني، بالطبع: أنا أُحبُّكِ. «ولأني أُحبُّ قصصَكِ»، استطردَ قائلاً: (إلّا أنّ هذا لم يكنْ يعني شيئاً على الإطلاق)، «سأقوم بأكبرِ تضحيةٍ يمكن أن يقومَ بها الكاتب».

«وماذا يُحتمل أن تكون هذه التضحية؟».

«حتى إذا كتبتُ مئة رواية ــــ»

«مئة رواية!». هتفتْ. «برنامجٌ ضخم. وأن تعتقد» ــــ ابتسمتْ ــــ «بأنكَ كتبتَ روايتين فقط».

«انتظري»، قال، «هذه لحظةٌ مقدّسة. إني أقسمُ».

«ممثل!».

«قَسَمي، مارينا». رفعَ رأسَه. «حتى إذا كتبتُ مئة رواية، لن تكون هنالك واحدةٌ بطلتُها الرئيسة ممثلةٌ عظيمة».

كانا في غرفةِ تبديل الملابس خاصتها. كان ريشارد جالساً على «ستول» واطئ، يرسمُ رسماً تخطيطيّاً لها. كانت تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، وهي تقدّم له صورتَها الظلّية المُدهشة.

«ثمة شيءٌ يتعلّق بالمكياج»، قالت متأملةً. «بحوزتي صورة سخيفة في ذهني بحيث إنّي لن أضع هذه المواد كلها» ــــ أشارتْ إلى صينية من جرار وقيالات ــــ «على وجهي، هذا الوجه الشائخ» ــــ قهقهتْ ــــ «ذلك أني لا أحوّل نفسي كي أظهر مختلفةً عما أنا عليه فعلاً» ــــ تنهّدتْ ــــ «بحيث يُمكنني أن أظلَّ كما أنا عليه وتظلَّ كما هي كلُّ الأدوار التي أُحبُّها» ــــ هزّتْ رأسَها ــــ «وهذا شيءٌ مستحيل».

1- البطل leading man: هو الممثل الرئيس في المسرحية – م.

«لماذا مستحيل؟». قال ريشارد. «لماذا لا يُمكنكِ؟».

«تقول هذا لأنك كاتبٌ أصلاً». ابتسمتْ. كم آلمها لمّا أمسكَ بيدِها. «ما من كاتبٍ يقدرُ أن يفهمَ أن التمثيلَ لا يدور حول الوفاء. وحتى إنه لا يدور حول الشعور، هذا محضُ وهم. إنه يدورُ حول المظهرِ الخارجيّ. إنه يدورُ حول اتخاذِ القرار. ينبغي أن يكونَ عن عدمِ الشعور».

«لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. لقد أخبرتِني أنكِ تشعرين، إلى درجةِ عدمِ الراحة الجسديّة، بكلِّ عواطف الشخصيات التي أدّيتِ أدوارَها».

«أوه، ماذا يهمُّ ما أقولُهُ عن نفسي!».

«لكنكِ ـــــ».

«ريشارد، إني أتكلّم عن الكيفية التي يُصبحُ فيها الممثلُ أحسن. أنا لا أعرف أني جيدةٌ جدّاً، أنا فقط أفضلُ من الممثلين الآخرين. ولماذا أغلبُ الممثلين سيئين جدّاً؟ إنهم يعتقدون أنهم حينَ يكونون مهتاجين بإفراط هي الطريقة التي يُظهِرون فيها شعوراً قويّاً. إنهم لا يعرفون كيف يُمثلون. إنهم لا يعرفون كيف يختبئون. أنا أحاولُ أن أقولَ هذا لممثلينا اليافعين. إني أتذكرُ ما قالَه السيد زويزوڤيسكي غير مَرّة حين كان يوبخني. [لا تُسيئي الفهمَ بأن تتصوّري أن تهوركِ هذا هو عبقريّة]، يقول لي. [ثمةَ شيءٌ كثيرٌ من المفترض أن يُقص قبل أن يتسنى لكِ أن تكوني... فرداً ما]. كان على حقّ. كان شيئاً حقيقيّاً أكثر من أيّ شيءٍ آخر عرفه في أيّ وقت مضى، لأن السيد زويزوڤيسكي كان ـــــ كانت تنتقي كلماتِها بحرصٍ وعناية ـــــ رجلاً قديم الطراز بكلّ معنى الكلمة».

«تصوّري نفسكِ»، قالت لكريستينا، «أنكِ فتاة صغيرة تعيشين مع رجلٍ يكبرك سنّاً بأعوامٍ كثيرة جدّاً، رجل أجنبي. كان قد وعدَ بالزواج إلّا أنّه يوجد مانعٌ قانوني، لديه زوجةٌ في مكانٍ ما، مع أنّكِ بالطبع تقولين إنه زوجكِ. ولديك طفلةٌ الآن. في بعض الأحيان يكون قاسياً، لكنكِ تُحبينه وتختلقين الأعذارَ عن كلِّ ما يفعلُه، الأفعالُ التي من شأنها أن تُسبب لكِ الألمَ. حاليّاً مَسكنكِ هو حجرةٌ سيئةُ الأثاث في مدينةِ تَعدين كئيبة، بعيدةٍ عن المدينة

الجميلة التي وُلدتِ فيها وعن مسكنِ طفولتِك الزاخر بالحُبّ. تخيلي تلكَ الحجرة. نافذة قذرة. موقد. خزانة كبيرة ذات أبواب ورفوف. سريرٌ كبير. مَهدٌ في الزاوية مع طفلتِكِ الصغيرة، النائمة بسعادة. طاولة الخشب العاديّة وكرسيان. أنتِ جالسةٌ إلى العشاء. وهو، بعد أن يلتهم وجبةَ الطعام المقتصدة التي أعددتِها ويمسحُ فمَه بكُمِّه، يُعلنُ قائلاً إنه يغادركِ. ينهض عن المائدة. أنتِ تتبعينَه إلى الباب، تتضرّعين إليه. لكنه يصفقُ الباب. في الواقع، سيعود. أوه نعم، إنكِ لن تتخلّصي من الشخص الوحشيّ بسهولةٍ شديدة، إلّا أنّكِ لا تستطيعين أن تعرفي ذلك. بالنسبة لك، رَحلَ هو إلى الأبد. الآن، ماذا يَسعُكِ أن تفعلي؟ أريني. أنتِ في حالة كَرَب بسبب اليأس. أريني. كلا. اذهبي إلى هناك، بجوارِ الباب».

واقفةً عند الباب، ترددتْ كريستينا لحظةً، ومن ثم انخرطتْ بالبكاء. ترنّحتْ، كتفاها ترتفعان وتنخفضان بطريقةٍ إيقاعيّة، متجهةً صوب منتصف الغرفة؛ وبعدها انهارتْ على الكرسي ورمت الجزء العلوي من جسمها على الطاولة، ذراعاها ممدودتان باستقامةٍ أمامها، وأنزلت الجانبَ الأيمنَ من رأسِها على ذراعيها؛ وبعدها ركعتْ، ورفعتْ ذراعيها بزاويةٍ خمس وأربعين درجة، وشبكتْ يديها معاً؛ ومن ثَم ـــ

«لا! لا! لا!!».

تورّدتْ كريستينا وهبّتْ واقفةً على قدميها.

«لكن، مدام، رأيتكِ تفعلين ذلك. تذكرين، حين مَثلّتِ الدور ـــ».

«لا!».

«قولي لي ماذا يتعيّنُ عليَّ أن أفعل».

«تسيرين للوراء إلى عمقِ الغرفة ببطء... لكن ليس ببطءٍ شديد... أنتِ تجمعين الأطباق... تجلسينَ على الكرسي، تهبطينَ قليلاً. تحدّقينَ في الطاولة».

«هل هذا كلُّ شيء؟».

«أجل».

«أنا لا أُصلّي».

«قلتُ لكِ، [هذا كل شيء]».

إلهي، أوه إلهي، حدّثتْ نفسها، لا يبدو الأمرُ كما لو أنّ مارينا كانت ورعةً حقّاً عدا أنها حين عُذبتْ (لكنها متى لم تُعذب الآن؟)، أوه اللهمَّ ربي كُنْ رحيماً بي! خذْ هذا الاستياء مني، أو هَبني الطرائقَ كي أستطيعَ أن أحققَ رغبتي. على مدى برهةٍ قصيرة خفَّ الكَرَب، لكن الآن كلَّ ما يراه بوغدان هو العقبات، كان قد قرّر أنها حماقةٌ، ويسألُ لماذا يتعينُ عليه أن يهجرَ كلَّ شيء، وبالنسبة لي أن أُعطي وَعداً بأننا سنعود. يلزمني أن أُكلّمَ بوغدان الليلة. سأجعلهُ يجلسُ على سريرِه وآخذُ يديه العزيزتين في يديَّ وأحدّقُ في عينيه، لكن، لا، أنا لا أريد أن أعطيه رشوةً بهيئة عَرضٍ عاطفي، لمّا أقنعتُه، كان ذلك دون خُدع يقومُ بها ممثلٌ ـــ أوه يا إلهي، كم أنا خائرةُ العزيمة الآن. ومع ذلك، بوغدان يجب أن يقرَّ بما يلي: لقد فعلتُ كلَّ ما استطعتُ، بقدراتي الذاتية، القيام به. أعطيتُ ما تعيّن عليَّ أن أُعطيه لبلادي، وأنا أفكرُ بأهميتِه الوطنية. أن أفكرَ بأنه في وارسو المنبر الرسمي الوحيد الذي يُسمح فيه للبولنديين أن يتحدّثوا بالبولندية هو الخشبة! كنتُ متواضعةً، كنتُ محترسةً وحكيمةً. وكنتُ مُقرةً بالجميل، حيثما يجب أن أكون مقرةً بالجميل. لهينريش أيضاً، بسبب كلِّ خياناته، بسببِ رجوعِه الوحشيّ المتكرر إلى حياتي وسريري كلّما كان يطيبُ له ذلك ـــ لهينريش قبل الآخرين كلِّهم. لم يكنْ بوسعِهِ أن يوبّخني على نكران الجميل. وصديقتي العزيزة، زوجة مدير المسارح، كانت تعرفُ كم كنتُ ممتنةً لحمايتها. كلُّ شيء بات ممكناً في وارسو يُعزى إلى تدخّلها شخصيّاً. حين قررتُ أنه حانَ الوقت لأن أعرض أوفيليا خاصتي لجمهور وارسو ورئيس الرقابة رفض أن يمنح المسرح رخصةً لعرض «*هاملت*» ـــ لأنها تُظهر مقتل أحد الملوك!

دعت الرجل إلى منزلِها وأقنعته أن حادثة القتل هي قضيةً عائليةً لا غير، ومن هنا فهي غير ضارّة البتة، وضمنتْ رُخصةُ عرضِ المسرحية. كان هذا مثالاً واحداً على منفعتها لي. لكن منذ أن فارقتْ مدام دميتشوڤا الحياةَ لم يعدْ هنالك أحدٌ يحميني. لو كانت ما تزال على قيد الحياة ما كانوا ليجرؤوا ليؤدوا هذه المسرحية، تلك... الكوميديا، عن ممثلةٍ مسرحيّة مُسنةٍ مع زوجٍ من أسرة ثريّة تملك الأراضي، كانت جلسات استقبالها يوم الثلاثاء تُعلن بطريقة غير ودية إلى حدٍّ كبير. بالطبع، إني أرى ذلك الآن، ممثلةٌ شعبية جَلَبها زواجها إلى منازل المجتمع الراقية كانت مرغمةً على إثارة السخرية. يا للوقاحة! لغو حانةٍ تافه، حواراتنا الوطنية السامية؟ ألا نأخذ بالحسبان أنها كانت ساميةً ووطنيةً بما يكفي بحيث إنّها هزّتْ يقظةَ السلطات الروسية، التي عيّنتْ رجلَيْ شرطة على بابنا كلَّ يوم ثلاثاء، وكانا يراقبان ويدوّنان اسمَ كلِّ ضيفٍ من ضيوفنا ويسألان أولئك الآتين من خارجِ البلد عن عناوينهم وعن طبيعةِ عملهم معنا؟ إلّا أنّ ما يفعلُه مُضطهِدونا لا يثير دهشتي. إنهم النقاد هنا. إنهم الممثلون الغيورون وكُتّاب المسرح المتوسّطو الجودة! لو كنتُ أعرفُ كيف أكرهُ، ربما كانت ستجلبَ لي الكراهيةُ راحةَ البال. كان ينبغي لي أن أملكَ جبيناً من الفولاذ وقلباً من الحجر ـــ لكن أيَّ فنانٍ حقيقيّ يملك درعاً من هذا الطراز؟ إن المرءَ الذي يحسُّ هو وحدَه الذي يستطيعُ أن يُنتج الإحساس، إن المرء الذي يحبُّ هو وحدَه الذي بمستطاعه أن يُلهِمَ الحُبَّ. وهل ستقلُّ معاناتي لو أنّي ظهرت باردةً ومتغطرسةً؟ لا، لا، يلزمني فقط أن أمثّلَ! نعم، إن الحياةَ العامة لا تناسب المرأة، أيّ امرأة. المنزلُ هو المكانُ المناسبُ لها. هناك يمكنُها أن تفرضَ سيطرتها ـــ يتعذّر التأثير عليها، لا تُنتهك حرمتها! إلّا أنّ المرأة التي تجرؤ على أن ترفعَ رأسَها على الآخرين، المرأة التي مدّتْ يدَها التوّاقة إلى أكاليلِ الغار، المرأة التي لم تترددْ عن أن تكشفَ للحشود كلَّ ما تضمُّه روحُها من حماسةٍ ويأس ـــ تلك المرأة كانت قد أعطت الجميع الحقَّ في التنقيب في أكثرِ المواضع سريةً من حياتِها. بالنسبة للشخصِ الفضوليّ ما من شيءٍ مشوّقٍ أكثر من نتف يسترقُ السمعَ

إليها من كلامٍ صريح تُدلي به ممثلةٌ مسرحيّةٌ، أو شائعةٍ تتعلّق بعلاقةٍ غراميّة غير نظامية أو سوءِ فهم في منزلِها. أوه يا إلهي - هل من المفترض أن تكونَ حياتي تكفيراً خارجيّاً عن الذنوب، ذنوبي أنا وذنوب الآخرين؟ مع ذلك ما من شيءٍ من هذا يهمُّ لو أنّه مسّني أنا وحدي. إنما حين تنشبُ القسوةُ والحقدُ براثنهما في أولئك الأشخاص العزيزين عليَّ، عندئذٍ أبدأ بكُره آلة التعذيب[1] تلك المسمّاة [المسرح]. بوغدان، بوغدان الشهم غير الأناني، لا يقدر أن يحميني. ذلك أن الممثلةَ في هذه المسرحية لديها زوجٌ مفتون بزوجته وُلد وتربّى في پوزنان التي يذكرُها فقط باعتبارها دليلاً على أن الممثلة هي أنا، كما لو أنّي كنتُ غير مكترثة بالطريقة التي أُهين بها هو نفسه. إنما بالنسبة لرجلٍ مثل بوغدان إما هذا الصمت أو ما جرى قبلَ عامين، حين تحدّى من وراء ظهري ناقداً مسرحيّاً هنا في وارسو في مبارزة؛ من حسن حظ بوغدان، النقادُ المسرحيون جبناء. قلبي يتحطم. الآن شقيقُ بوغدان سوف يكرهُني حقّاً. إني أسمع أنّ الجميع يتكلمون عن هذا الموضوع منذ أن بدأ عرضُ المسرحية في الأسبوع الفائت، لكن بالطبع لا أحدَ يتحدّث عنه معنا. في يوم السبت تناولنا الغداء مع ناقد الـ [*غازيتا پولسكا*]، إلّا أنّ بوغدان لم يقلْ شيئاً وكذلك هو أيضاً لم يقلْ شيئاً. في المرة الثانية شاهدتُ فيها الرجل، إنه يحضرُ دوماً جلسات الثلاثاء خاصتنا، كنتُ أنوي أن أقودَه إلى إحدى الزوايا وأسأله ما إذا كان غاضباً مني ـــ في اعتقادي أن أشخاصاً كثيرين غاضبون مني لأني مثّلتُ مسرحياتٍ أجنبية كثيرة جدّاً ـــ غير أن النقاشَ، الذي كان يدورُ حول الحريّة الحقيقيّة وعذابات بلدنا، كان آسراً للغاية، بحيث إنّي شعرتُ بالخجل من أن أستغرقَ في عذاباتي أنا. بدلاً من ذلك، كتبتُ رسالتين، هادئتين، ساخطتين، واحدة إلى جريدته الأسبوعية، أما الرسالة الأخرى فكانت موجّهةً إلى مدير المسرح، وهو مُعجبٌ بي، أو هكذا قالَ لي، لكني لم أرسلهما بالبريد. كان يجبُ أن أعرفَ أنكَ إذا حققتَ النجاح، في يومٍ ما، قبل

1- آلة التعذيب: في النص الإنكليزي pillory: وهي آلة خشبية للتعذيب تُدخل فيها يدا المجرم ورأسه ابتغاء التشهير به؛ تُسمى: مشهرة - م.

أن يهدّك التعبُ بوقتٍ طويل، سوف يبغضُكَ الجمهور ـــ أنا لا أفكر فقط في تلك المسرحية. الجمهور متقلّبٌ. جمهوري يريد أن يُغرمَ بوجهٍ أحدث، أصغر سنّاً. أجل، لا بدّ أن الجمهورَ لم يكنْ راضياً عني، ولم يكنْ بمستطاعي أن أمثّل دوري المسرحيّ بنحوٍ أفضل في وارسو. علينا أن نهربَ من هنا. بوغدان يجب ألّا يدفع ثمنَ العداوة التي تطوّقُني، مع أنّه للعلم ثمةَ أشخاصٌ كثيرون دافعوا عني. الأصدقاء والصديقات يلومون المسرحية لأنها أخذتني بعيداً، حتى أولئك الذين يعرفون أني على مدى ردحٍ من الزمن كنتُ أفكر في الذهاب إلى خارج الوطن. لكنهم سوف ينحون باللائمة عليَّ أيضاً لأني انزعجتُ، انزعجتُ إلى درجة أني أخيراً أقوم بذلك. بوغدان، الذي يندم على كونِه لم يؤيدْ أبداً مغادرتنا، لا يدعني أغيبُ عن أنظاره، ويمكنني أن أفهمَ أنه يأمل بأن يوجه روحي المشوَّشة ـــ بوصفه زوجي، دون شك، إنه يعدُّ هذا الأمرَ واجبَه. يلزمني أن أكونَ ممتنةً له بالجميل. أنا مقرّةٌ له بالعرفان. أوه يا إلهي، أوه يا إلهي، كنتُ أتطلّع بحميةٍ شديدة إلى هذا التغيير ـــ إنه لمِن الصعب أن ننظّمَ كلَّ شيء ـــ والآن كلُّ شيء آلَ إلى الدمار! أنا لم أعدْ أتطلّع إلى مغادرةِ البلد، الناس سوف يحسبون أني أهربُ، كنتُ أتطلّع دوماً إلى شيءٍ ما. في طفولتي كان لديّ كريسماس، مع أنّنا كنا فقراءً جدّاً ولم تكنْ هنالك أيُّ هدايا قط، وكنتُ أتطلّع لأن أكبر، أوه كم كنتُ أتمنى ذلك، لن أتظاهرَ بأني كنتُ سعيدةً في تلكَ الحجرةِ الداكنةِ الصغيرة جدّاً مع أشقائي الصغار وشقيقاتي الصغيرات، غير أني لم أكنْ أشعر بأني صغيرةٌ، كنتُ أحلمُ بالزمن الذي أكونُ فيه حرةً وقويةً وبعيدةً والناس سوف ـــ لا، لن أفتري على طفولتي. كنتُ سعيدةً، كنتُ أعرف أن ثمةَ نوراً يقبع في داخلي، كنتُ أفكرُ بثقةٍ قوية بالمستقبل. أوه رباه، لا تتخلَّ عن طفلتِكَ الضعيفة. أنا مشوّشةُ الذهن ومُرهَقةٌ من التمثيل!

اثنان

الله ممثل، أيضاً.

وهو يظهرُ في مواسم لا تُعدُّ ولا تُحصى في شتى الألبسة العتيقة الطراز، وهو يُحيي تراجيدياتٍ كثيرةً وقلةً من الأعمال الكوميدية؛ متعددة الأشكال ـــ مع أنّه يظهر عادةً في أدوار ذكورية ـــ وهو دوماً ذو جمالٍ كلاسيكيّ، آمر، مؤخراً (هذا هو النصف الثاني من القرن التاسع عشر) كان جلالتُه قد حظي بمراجعات قليلة سيئة، مع أنّها لم تكنْ سيئةً بما يكفي، مع ذلك، كي يُنهي العرض. كان اسمُه المألوف العزيز عليه يُزبد باستمرار على شفاه الجميع. مشاركة جلالته ما تزالُ تسبغُ أهميةً غير مفنَّدة على كلّ مسرحيّة.

الرياح ترتفع. الكواكب تنبض. الأرض تدور. الناس ينزفون. (في وقتٍ قريب جدّاً سيكون هنالك مزيدٌ منهم يمشون على وجه الأرض أكثر من أولئك الراقدين تحتها!) التاريخ يصبح خشناً. أناس داكنو البشرة يتأوّهون. أناسٌ ببشرةٍ شاحبة (المفضّلون لدى الله) يحلمونَ بالفتح، بالهرب. دلتات ومصبات من الناس. إنه يديرُهم جهة الغرب، حيث يوجدُ فضاءٌ أكبر ينتظرُ أن يُملأ. إنها الساعة الحادية عشرة صباحاً، التوقيت الأوروبي. لا يلبس الثياب المَلَكية ولا ثوبَ الفلاح الذي يُولع به جلالته دوماً، اليوم جلالتُه هو «الله مدير الدائرة»، ثوبُ جلالتِه بزةٌ صوفية من ثلاث قطع، قميصٌ أبيضَ منشّى، حافظات أطراف الأكمام، ربطةُ عنق فراشيةُ الشكل، وـــ الله، أيضاً، يريدُ أن يكون حديث الطراز ـــ إنه يمضغ التبغ. اللونان الغالبان في الطُّقم هما الأصفر والبُني: الخشب الأشقر لكرسي جلالتِه الدوّار

ومكتبِه الضخم؛ التثبيتات الصُّفر[1] الناعمة العائدة للمكتب، الذي أدراجُه تعجُّ بالأوراق؛ النحاسُ الأصفر البالي، المنبعج نوعاً ما للمصباح بعنقِ الإوزة، العائد للمِبصقة القريبة. الكوعان على سطحِ المكتب، الذي كانت تتكدّس عليه سجلات الحسابات. جلالتُه يستشيرُ تقاريرَ السكان، النشرات الاقتصاديّة، مُخططات الأراضي. الآن يقومُ جلالته بالدخول إلى واحدٍ من سجلّات الحسابات.

التواريخ تلتحم. العقبات تتداعى. الأُسر تتمزق إرباً إرباً. الأخبار تصلُ تباعاً. الله وكيل السفر «بعث رُسلاً إلى كلِّ حدبٍ وصوب كي يُعلن أن العالم الجديد» يُغري، حيث بوسع الفقير أن يُصبح غنيّاً والجميع يقفونَ متساوين أمامَ القانون، حيث الشوارعُ مرصوفةٌ بالذهب (هذا للفلاحين الأميين) والأرضُ يتمُّ التخلّص منها (كذلك) أو تُباع بسعرٍ زهيد (هذا لأولئك القادرين على القراءة). القرى بدأتْ تفرغ، الأشجعُ أو الأكثرُ يأساً يمضي أولاً. حشودٌ من القوم الذين لا يملكون أراضي يندفعون صوب الماء (بريمرهيڤين، هامبورغ، إنتويرپ، لِي هاڤر، ساوثامپتون، ليڤربول)، يسلّمون أنفسهم كي يُحشروا في قعرِ السفن النتنة. من المدنِ المكسوّةِ بالقشرة، التي ترقد تحت ظُلة الليل بأضوائه المشتعلة، موجةُ المغادرات قلّما تتمُّ ملاحظتُها ـــ لكنها مستمرةٌ. الله يتفحصُ جداولَ الشحن بالسفن. لم تعدْ هنالك مخاوف من «الممر الأوسط. جلالتُه يشكرُ نفسَه: فقط أولئك *يريدون* الذهاب. وكذلك ـــ شكراً، أيضاً ـــ أصبح أكثر أماناً أن يجتازوا الأطلسي»، حتى إذا هَلَكتْ خمسٌ من راهباته الفرانسيسكانيات المخلصات السنة الماضية حين غرقتْ «*الألمانية*»[2]، غبَّ مغادرتها بريمرهيڤين متجهةً نحو «أمريكا الشمالية»، بعيداً عن ساحل كينتيش[3] الغادر. وأسرع: بواسطة

1- الصُّفر brass: النحاس الأصفر – م.

2- الألمانية: في النص الإنكليزي the Deutschland: باخرة ألمانية لنقل المسافرين، شُيّدتْ في العام 1866 وتحطمتْ في العام 1875 – م.

3- كينتيش kintish: كينتيش تاون هي منطقة في شمال غرب لندن، إنكلترا. تقع في قصبة كامدن اللندنية، شمال كامدن تاون مباشرةً – م.

البواخر الجديدة تستغرق الرحلةُ ثمانيةَ أيام فقط. بالطبع، الله يتطلّعُ إلى اليوم الذي يستطيعُ فيه الناسُ أن يتحرّكوا عبر المحيطات في وقتٍ أقل بكثير. وفي النهاية، وحتى أسرع، عبرَ السماء. الله يُحبُّ السرعة بقدر محبته للشخص الشاحب التالي. كلُّ شيء ينطلقُ بسرعة الآن، يغدو أسرع. هذا في الأرجح شيءٌ حسن، بما أنّ هنالك أشخاصاً آخرين كثيرين جدّاً.

الله يقرُّ بأنه قليل الصبر. وهذا لا يعني أن جلالته قليل الصبر حقّاً. إن جلالته... يمثّل. (هذا نوعٌ واحدٌ من الممثل العظيم، ذلك الممثل الذي لا يشعر أو يحاول ألّا يشعر بشيء؛ أن يبقى بعيداً، خاملاً. بالمقارنة مع مارينا، التي تشعرُ بكلّ شيء، وهي عصبيةٌ جدّاً.) لكن الأشخاص الذين كان الله هو «مُحرِّكهم الرئيس» يُطرَدون إلى مصائرِهم الجديدة هم حقيقةً أشخاصٌ قليلو الصبر، مُتلهّفون للرحيل إلى أمكنة فُهِمتْ على أنها خاليةٌ من العقبات المتوارَثة، أمكنةٌ لا ضرورةَ لأن تُحفظ، بل بدلاً من ذلك تقدّمُ نفسَها بشكل لانهائي كي يُعاد صنعها، كي تتخلصَ من آمال الماضي، كي تبدأَ مُجدّداً بعبءٍ أخف. كلّما انطلقوا بنحوٍ أسرع، سيكون عبؤُهم أخفّ.

والله يُحرّضُ على هذا كلِّه. هذا التوق للتجدد، للإفراغ، للتخلّص من الماضي. هذا الحلم في تحويل الحياة إلى مستقبل خالص. ربما جلالته ليس لديه خيار ـــ مع ذلك، إذ يفعل هذا، الله «النجم» يوقعُ تفويضَ الموت خاصته بوصفه ممثلاً، بوصفه نجمَ النجوم. لم يعدْ جلالته يضمن الدور الرئيس في أيّ مسرحيّة ذات شأن حضرتها الجماهير الأكثر اشتهاءً وثقافةً. في أحسن الأحوال، الأدوار الثانوية من الآن فصاعداً ـــ باستثناء تلك التي تجري في المواضع الخلفية المنعزلة الفاتنة، حيث لم يسبقْ للناس أن شاهدوا مسرحيةً دون جلالته. حركة الجمهور هذه هنا وهناك سوف تساوي نهاية مسيرة جلالته.

هل يعرفُ الله هذا الأمر؟ ربما يعرفُ جلالتُه. إلّا أنّ هذا لا يوقفه. إنه ممثلٌ عريق.

الله يبصق.

في أيار / مايو 1876، حين كانت مارينا زويزوڤيسكا ما تزالُ في سن الخامسة والثلاثين في أوجِ مجدِها، ألغتْ تعهّداتها المتبقية لموسمها في «المسرح الإمبراطوري في وارسو» ـــ وتعهّداتها كضيفة في «المسرح البولندي في كراكوف»، «المسرح الويلكي في پوزنان»، «مسرح الكونت سكاربيك في لڤوف» ـــ وطارت سبعين ميلاً جنوب كراكوف، مسقط رأسها، حيث جرت الحفلة في غرفة طعام خاصة في «فندق ساسكي» في كانون الأول / ديسمبر 1875، إلى قرية زاكوپين الجبلية، حيث دأبتْ على أن تقضي هناك شهراً في أواخر الصيف. ذهبَ معها زوجُها، بوغدان ديمبوڤيسكي، وابنها البالغ سبعة أعوام، وپيوتر، وشقيقتها الأرملة، ويوزفينا، والرسام ياكوب غولدبيرغ، *والفتى الأول*[1] تاديوش بولاندا، ومدير المدرسة يوليان سولسكي وزوجته، واندا. كانت هذه الأنباء مثيرة جدّاً للاستياء بالنسبةِ لجمهورها بحيث إنّ إحدى صحف وارسو انتزعت الثأر بأن أعلنتْ أنها تأخذُ تقاعداً مبكراً، الأمر الذي نفاه «المسرح الإمبراطوري» (كانت قد وقعتْ عقداً مدى الحياة معه) حالاً. ناقدان قاسيان أوحيا أن الوقتَ قد حانَ كي يعترفا أن أشهرَ ممثلات بولندا قد تخطتْ قليلاً ربيعها. مُعجبون ومعجبات وبخاصة أتباعُها المتحمسون من بين طلبة الجامعة، قلقوا أنها ربما مَرضتْ مَرضاً شديداً. في العام المنصرم، كانت مارينا قد أُصيبتْ بنوبةٍ من حمّى التيفوئيد ومع أنّها كانت طريحةَ الفراش على مدى أسبوعين فقط، لم تمثلْ ثانيةً على المسرح طوالَ أشهر عدّة. وقد عمّتْ شائعةٌ مفادُها أن الحمى كانت مرتفعةً إلى درجة أنَّ شعرَها كلَّه تساقط. شعرها كلّه تساقط. وقد نما كُلُّه مجدداً.

إذن ماذا جرى لها هذه المرّة، تساءَلَ أصدقاؤها الذين لا يعرفون. كانت الرئات الضعيفة وباءً في أسرة مارينا الكبيرة، وقد قضى التدرن الرئوي على أبيها وهو في سنّ الأربعين، وفيما بعد زَعَمتْ شقيقتاها، وفي العام الفائت

1- الفتى الأول Jeune Premier: مصطلح فرنسي، يُطلق على الشاب الذي يؤدي الدور الأساس في المسرحية – م.

زعم شقيقُها الأثير، الذي كان ممثلاً شهيراً في يومٍ ما، كان سعيُها نحوَ الشهرةِ قد استندَ الآن على كونه «شقيقها»، أنهم أُصيبوا بالمَرَض. كان طبيب ستيفان في كراكوف، وصديقها هينريك تيشينسكي، يأملُ بأن يرسَله معهم كي يستنشقَ الهواءَ الجبليّ النقيّ، إلّا أنّ صحتَه كانت هشةً جدّاً بحيث إنّها لا تتحمّل الرحلةَ الشاقة، يومان من الترنّح عبر طرقٍ مُخدَّدَةٍ ضيّقةٍ في مركبةٍ ريفية. وهل كانت مارينا نفسها قادرة على؟ هل جاءَ دورُها الآن كي تَمرَضَ مع؟ «لكن لا»، قالت مقطبةً، «رئتاي سليمتان. أنا معافاة كالدب».

وكان هذا صحيحاً... ومارينا، التي كانت تميلُ منذ مدةٍ طويلةٍ لأن تُعيدَ صياغة استيائها كي تغدو مثالاً للصحة، كرّستْ نفسَها كي تغدو أصحَّ مما هي عليه الآن. وارسو، وأيُّ مدينةٍ مزدحمةٍ بالسكان، غير صحيّة. إن حياةَ الممثل، أيّ ممثل، غير صحيّة؛ مُرهِقة، حافلةٌ بضروب القلق الخاصة بالسلوك. وأكثر فأكثر، بدلاً من الاعتقاد أن أيَّ وقت تكون فيه حرةً كي تقوم برحلةٍ ما يلزمها أن تقضيه في تثقيفِ نفسها في مسارح ومتاحف عاصمة رائعة، ڤيينا أو حتى باريس، أو تتمرّن على الطرائق العالمية في منتجع من مثل بادن – بادن أو كارلسباد، ومارينا، كان أصدقاؤها المقرّبون الذين في عهدتِها، يختارون البساطات المنقية للحياة الريفية كما كان يعيشُها أصحابُ الامتيازات. يكمن إغراء زاكوپين، من بين قرًى مُرشّحةٍ أخرى، في موقعِها الساحر وسطَ القممِ المهيبةِ لجبال «تاترا»، والحدود الجنوبية لپولندا ومرتفعاتها الوحيدة، والطقوسِ الكثيفة واللهجةِ العاميّة السائغة لسكانها المحليين الداكني البشرة، الذين بدوا غريبين بالنسبة لقومِ المدينة هؤلاء مثل الهنود الأمريكيين. كانوا قد شاهدوا رجالاً من سكانِ الهضاب طويلي القامة رشيقين يرقصون في مهرجان منتصف الصيف مع دبٍّ أليف بنيّ اللون مُقيّد بالسلاسل. كانوا قد أقاموا علاقاتِ صداقةٍ مع شاعر القرية الذي ينظمُ القصائد في مآثر الأبطال وينشدها ـــ أجل زاكوپين لا يزال لديها شاعرٌ ينظم القصائد البطولية، لا تزالُ مثقلةً بالنسيان الرخيم للضغائن القاتلة وقصصِ الحُبّ الحزينة التي وقعتْ في ماضيات الأيام. في الأعوام الخمسة

التي أمضاها الاثنان، مارينا وبوغدان، هناك خلال بعض أشهر الصيف، وجدا متعةً بالغةً في التصاقهما المتنامي بالقرية وبسكانها المبجلين، الغرباء، وتحدّثا عن انسحابهما في يوم ما إلى هناك إلى الأبد مع مجموعة من الأصدقاء كي يكرّسوا أنفسَهم للفنون وللحياةِ الصحيّة. في سجل أحداث زاكوپين المعزولة، المتوحّشة بنحوٍ مؤدَّب يُمكنهم أن يصفوا وجهةَ نظرهم المتعلّقة بالمجتمع المثالي.

كان جزءٌ من إغرائها يكمنُ في خطورةِ الوصولِ إلى هناك. الشتاءُ يجعل الطرقَ غيرَ سالكةٍ على مدى شهور دون انقطاع، وحتى حين تصبحُ الرحلةُ، في شهر أيار / مايو ملائمةً، تكون العربةُ هي واسطةُ النقل الوحيدة. لم تكنْ هذه هي عربةُ الفلاح العاديّة، المألوفة، للريفِ الأقرب، بل قطعة خشبية طويلةٍ مُغطاة بقماش الكنفا الممدود فوق هيكل مقوّس من خشبِ شجرة البندق، مثل عربةِ غجر ـــ لا، بل أشبه بتلكَ العربات في نقوش الغرب الأمريكي ولوحاتِه الزيتيّة المُقلَّدة. عددٌ ضئيلٌ من هذه العربات تُحاصر في كراكوف، عند سوق الطعام الرئيس، حيث كان هناك على الدوام بعض سكان الهضاب في رحلتهم الأسبوعية الخاطفة من زاكوپين إلى المدينة؛ وما إن يُفرِغوا شحنتَهم من ذبائح لحم الضأن وجاكتاتٍ مصنوعةٍ من جلود الأغنام وأجزاءٍ مُقطّعةٍ بدقةٍ من جبن الخرافِ المُدخَّن، حتى يؤوبون إلى القرية خالين.

إن مجردَ المباشرة بالرحلة هي مغامرةٌ بحدِّ ذاتها. أن يتركوا ضوءَ الفجر يتكدّسُ في داخلِ العربةِ المظلم اللاذع، حيث يضغطُ الحوذي بتودّد بجاكتته المصنوعةِ من جلدِ الخروف على مدام مارينا كما لو كانت وسادةً، كانوا يحتشدون بين حقائبِهم، يتحدّثون دون كلفةٍ ويبتسمون بغبطةٍ ابتساماتٍ عريضةً، فيما يثبّتُ الحوذي وهو أحد سكان الهضبة قبعته ذات الحافة العريضة على رأسِه ويحثُّ حصانيه الپورجيرون على المضيّ للأمام، خارجَ المدينة وأسفل السهل الواقع جنوب كراكوف. ليحفظ الله عظامهم! صليبٌ طريف في جانب الطريق أو مرقد أو، أفضل، إحدى كنائس مريم العذراء

الصغيرة في تقاطع طرق، سوف توفرُ لهم عذراً كي يتسلّقوا بجهد ويمطّوا أرجلهم فيما يكون الحوذي منشغلاً بالتعبّد وبتلاوة بعض الصلوات. ومن ثم ترتقي العربة تلالَ بيسكيد، وحين يلفّ الظلامُ التلالَ، يتحوّلُ خببَ الحصانين إلى مشي. يقتطعون جزءاً من وقتِ نزهتِهم السريعة في تناول طعامٍ أحضروه معهم من كراكوف، وبعدها يصلون إلى القريةِ الصغيرةِ الواقعة في القمة في وقت الأصيل وكما تفاوضوا مع الحوذي، يُطعمهم مضيّفوهم الريفيون وينوّمونهم نوماً عميقاً، النساءُ في أكواخ والرجال في مخازن الحبوب، قبل هبوط الظلام. سيكون المكانُ مظلماً، في الثالثة فجراً، حين كانوا يسحبون أنفسَهم إلى داخلِ العربة المقعقعِة من أجل النصفِ الثاني من الرحلة، التي كان لها ـــ بعد الامتداد الطويل، الذي يرجُّ العظامَ، للمنحدَر، أغلبه في خبب ـــ وقفةٌ انتظروها طويلاً قبيل منتصفِ النهارِ في المدينةِ الوحيدة على الدرب، «نووي تارغ»، حيث يكونُ بمستطاعِهم أن يغتسلوا ويأكلوا وجبةً دسمةً ويشربوا الخمرَ الرديء جدّاً لدى صاحب الحانةِ اليهوديّ. أحسّوا بالتخمة، إلّا أنّهم سرعانَ ما يجوعون، ويعودون إلى عربتهم، التي تواصلُ طريقَها على امتدادِ المروجِ المزروعةِ بالحشائش والأعشاب، يحفُّ بها جدولٌ يمورُ بالحياة. بعيداً، أمامهم، مرتفعاً نحو سماء تزدادُ زرقةً أكثر فأكثر، سورُ جبال الـ «تاترا» من حجر الكلس والغرانيت، المتوجّ بالقمة الثنائية لـ «جبل جاييوونت». كانوا يمضغون شيئاً من الجبن المجَفف ولحم الخنزير المُدخّن الذي اشتروه من «نووي تارغ» حين ضاقَ الوادي وبدأت العربة صعودَها الأخير غير المستوي. أولئك الذين اختاروا المسيرَ وراءَ العربة مدةً قصيرة، كانت مارينا واحدةً منهم على الدوام، كانوا يكافَؤون بنحوٍ ثابت بنظرةٍ خاطفة، عبر مجموعةٍ من أشجارِ الصنوبر والتنوب الأسود، إلى دبٍّ أو ذئبٍ أو غزال، أو بتبادل تحيات على جانبِ الطريق، متساويةٍ بنحوٍ مقبول («ليتبارك اسم يسوع المسيح!». عبر العصورِ كلِّها آمين!) مع راعٍ يلبسُ معطفاً أبيض طويلاً وغطاء الرأس الذكري المميَّز، وقبعةً سوداء من اللّبّاد مزوّدةً بريشةِ نسرٍ مُثبتة فيها، كان يرفعُها عند مَشهَد

الترحيب بالقوم ذوي المنزلة الرفيعة القادمين من المدينة الكبيرة. سوف تنقضي ثلاثُ ساعات أخرى قبل أن يصلوا إلى الوادي الأعلى، الذي يبعدُ نحوَ تسع مئة متر إلى الأعلى، حيث تقومُ القريةُ، والجوادان المتعبان، التواقان إلى الديار وإلى السلوان الخاص بالأحصنة، يزيدان من سرعتِهما. من حسن الحظ أن الغروبَ يكون قد حلَّ توّاً حين يأتون مقعقعين إلى القريةِ كي يختاروا حياتَهم الريفيّة المستعارَة.

على مدى بضعة أسابيع، على مدى شهرٍ واحد، شغلوا كوخاً واطئاً مربعاً بأربع غرف، اثنتان منهما يمكن استخدامهما كغرفتَيْ نوم: النساء وبيوتر في غرفةٍ واحدة، أما الرجال ففي الغرفة الأخرى. حاله حال أيّ مسكن في زاكوبين، هذا الكوخ كان نحتاً بارعاً من خشب أشجار الراتينجية[1] (كانت المنطقة تعجُّ بغابات الراتينجية) حيث تكونُ المفاصلُ مُعشّقةً في الحافة، بينما كراسيُّه الثقيلةُ والقليلة، ومناضدُه، وأسرّتُه المُضلّعة نُجرتْ من خشب أشجار الأرزية[2] الغالي الضارب إلى اللون الوردي. في غضونِ دقائق من وصولِهم فتحوا النوافذ ذات الزجاج الغائم على وسعها كي يطردوا رائحةَ الثوم القوية، يوزعون في الخوانات ومشاجب الجدران الحدّ الأدنى من ممتلكاتهم ـــ إن جلبَ كميةٍ قليلةٍ جدّاً كان أيضاً جزءاً من المغامرة ـــ وكانوا مستعدين كي يباشروا بالاستمتاعِ بحريتِهم غير المحدودة. في الأساس، الحياةُ الريفيّة بالنسبةِ لسكان المدينة هي فراغٌ لذيذ، الزمنُ مَسَح تماماً العملَ والعادات والالتزامات المعهودة. أليسوا هُمْ في إجازة؟ بالطبع. هل مَنحهم هذا وقتاً أكثر لأنفسهم؟ كلا. الأعمالُ الروتينية الإلزاميّة، الفاتنة لقومِ المدينة في الريف تتمكنُ من ملء النهارِ كلِّه. تناولُ الطعام. ومزاولة التمارين الرياضية. والتحدّث. والمطالعة. وممارسة الألعاب. وبطبيعة الحال تدبير المنزل، جزءٌ آخرَ من المغامرةِ هو الاستغناء عن الخدم. كان الرجالُ يكنسون ويقطّعون الخشب ويجلبون الماء من أجل الاستحمامِ

1- الراتينجية spruce: شجرة من الفصيلة الصنوبرية – م.

2- الأرزية larch: شجرة من الفصيلة الصنوبرية – م.

وغسلِ الملابس. أما غسلُ الملابس، وضربُ الغسيل، وتعليقُه كي يجفَّ فهي مهمة النساء. «كتائبيتنا»[1]، تقول مارينا، وهي تستحضر اسم المبنى الرئيس في مجتمعٍ مثاليّ كما تصوّره فورييه العظيم. الطهي وحدَه تُرِكَ لصاحبة الكوخ، السيدة باتشيلدا، وهي أرملةٌ عجوز كانت قد انتقلتْ للسكن فيه مع أسرةِ شقيقتها خلال الإقامة المُربِحة. كان اليومُ قد نُظِّمَ وفقَ وجباتِ طعامِها الوافرة. على الفطور، حليبٌ رائب وخبزٌ أسود، كانوا يقسّمون المهماتِ بينهم ويخطّطون للقيام بنزهاتٍ راجلة. في وقتِ الضحى، الفريق كلُّه ينطلقُ في مسيرةٍ جماعية في الوادي، حيث يقومون بنزهةٍ ومعهم الخبزُ الأسود وجبنُ النعجة والثوم النيئ وضربٌ من التوتِ البرّيّ. وفي الأمسيات، بعد العشاء المؤلف من حساءٍ مُعدّ من الكرنب المخمَّر، ولحم الضأن، والبطاطس المسلوقة، يحين أوانُ المطالعة بصوت عالٍ. شكسبير. أيّ شيء يمكن أن يكون أكثر صحةً من هذا النظام؟

بوصفهما فردَيْن بضميرٍ حيّ، مارينا وبوغدان ما كان بالمستطاع أن يأتيا كفردين صيفيين حصراً، وأن يُبرِما عقداً خيريّاً مفهوماً ضمناً مع القريةِ يتخطّى سكب النقد[2] الذي كان يجلبُه حضورُهما السنويّ إلى اقتصادها القريبِ من عَيش الكفاف. مارينا وأصدقاؤها قلّما كانوا غير واعين بأن زاكوپين بقدر ما كانت صحيّةً بالنسبةِ لهم، كانت الصحةُ قد غادرتْ سكانها القرويين البالغ عددُهم ألفا نَسَمة بحيث إنّهم كانوا يتمنون الحصولَ عليها. لحسن الحظ أحد الأصدقاء ممَّن تبعوا مارينا إلى زاكوپين كان هو هينريك الوفيّ. وفي الحال باتَ يقضي وقتاً أكثر مما تقضيه هي، عهد بخبرته إلى زميلٍ له طوال ثلاثة أشهر كاملة، وأضحى يعالجُ القرويين مجاناً. في أولِ الأمر كانوا مرتابين، لا يرون أيةَ عقبةٍ في عددٍ قليل من الأسنان التالفة أو تضخّم الغدة الدرقية أو الكساح، وما من شيءٍ غير طبيعيّ في موت الأطفال القاصرين

1- الكتائبية phalanstery: إحدى المستعمرات التعاونية التي دعا الفيلسوف الاشتراكي فورييه إلى إقامتها – م.

2- سكب النقد infusion of cash: تعبير مجازي يدلّ على الإنفاق بكثرة ؛ بالدارجة العراقية: كَتّ فلوس – م.

أو مرضِ أيّ شخص يزيد عمره على الخامسة والثلاثين. كان حديثُه القليل عن قواعدِ العيش الصحيّ ومنع تفشي الأمراض هو كلامُ مدينةٍ غير مفهوم بالنسبة لآذانهم ــــ إلى أن شاهدوا كم كان عدد الأشخاص الذين أنقذ حياتهم بواسطة خدماته (والطعام الذي جلبه من كراكوف) في الصيف الثاني كان هناك، في العام 1873، حين تفشى وباء الكوليرا. وكان هو الوحيد من بين مارينا وأصدقائها الذي يفهمُ فعلاً معظمَ ما يقولُه سكان «جبال التاترا»، حتى حين كانوا يتكلّمون بسرعة، لهجتهم المحلية التي تحتوي على عددٍ لا حصرَ له من الكلمات للأشياء المألوفة لا تشبه البتة مرادفاتِها في البولندية الفصحى. كان معلّمُه الخاص، المريض المُقرّ بالجميل، هو كاهن القرية.

كان دور القرويين في العَقد (هم لم يوافقوا على ذلك بصورةٍ واعية) هو: أن لا يتغيروا. كان زائروهم الكوزموبوليتيون يعتقدونَ أن بوسعِهم أن يقدّموا لهم العونَ في هذا المجال. كان لدى بوغدان فكرةٌ مفادها أن يبدأ بتأسيس مجتمع فولكلوري، وأن يتعلّم ريشارد اللغةَ الدارجة كي يترجمَ حكايات الجان وقصص الصيد التي كتبها شاعرُ القرية. وكان هينريك يخطط لإقامةِ متحفٍ علميّ يعرضُ من أجل تنوير القرويين بأمجاد القلعة الألبية التي تبدو للعيان فوقَهم، ومن مثل النوع المثير للإعجاب من الطحالب التي جمَعَها أثناء تسلّقه الصخور. كانت مارينا تفكرُ في تأسيسِ مدرسةٍ لصنع الدانتيلا لفتيات القرية، الأمرُ الذي من شأنه أن يُعين الاقتصادَ المتداعي ويساعدُ في الحفاظ على حرفةٍ يدويةٍ محليّةٍ مُعرَّضة للخطر. في الصيف المنصرم كانت قد تلقّتْ دروساً من حيزبون ذات عينٍ واحدة اشتهرتْ بكونها بطلةَ الدانتيلا في زاكوپين وبمصاحبةِ الضحكات نصف المكبوتة لنساء القرية، جرّبت يدها في نحت الخشب.

كانت صعوبةُ النجاح قد صانتْ حتى الآن القرية، طقوسُها القديمة واتساق السلوك والتقاليدُ الغنية للتلاوات الشفاهيّة. كانت الوجوهُ قد صُبتْ من قوالب قليلة فقط، بما أنّه كانت هنالك فقط أسماءُ أسرٍ قليلة. ما يزالُ للقرية شارعٌ مُوحِلٌ واحد، وكنيسةٌ من الخشب، ومقبرةٌ واحدة. مجتمعٌ

حقيقيّ! لكن مارينا وأصدقاءَها لم يكونوا الغرباءَ الوحيدين. لم يكنْ هنالك بعدُ أيّ شاليه (يحاكي، بنحو مزخرف، البساطةَ الخشبية لأكواخ سكان الهضاب) أو مصحّ لمرضى السل (سوف يمرُّ عقدٌ من الأعوام قبلَ أن تُنجِزَ زاكوپين الحالةَ الرسمية بوصفها منتجعاً صحيّاً) أو خطٌّ سكة حديدية مرتبط بكراكوف (يضمن دخولاً إلى المدينة على مدارِ العام) لن يُشيّدَ إلّا بعد مرورِ ثلاثة عشر عاماً من الآن. مع ذلك كانت القرية تكادُ تبدو حديثةَ الطراز في شهور الصيف، لأن ممثلة بولندا الشهيرة جدّاً وزوجَها كانا يقضيان إجازتهما هناك. حين أقبلا أوّل مرة، كانت هنالك طريقةٌ واحدة للمكوث في زاكوپين: أن يناموا ويُطعموا في كوخِ أحد سكان الهضبة. بعد مرورِ صيفين، لمّا دُعي ريشارد أولَ مرة كي يرافقهم، كانت القريةُ لا تملك سوى مقرّ إقامةٍ عموميّ واحد لم تتمّ المحافظة عليه بشكلٍ جيد وكوخين قريبين يقدّمان طعاماً رتيباً غالي الثمن وخمراً غير صالح للشرب. وكان هنالك سائحون، حفنة، كي يقيموا في الفندق وأن يتردّدوا على المطاعم.

كم كانت مختلفةً مِهن هؤلاء السائحين عن النظام الصحي الذي كانت تخضع له مارينا. كلَّ يوم، مهما كان الجوّ، كانت تبدؤه بالاستحمام فجراً في الجدول الواقع وراء الكوخ، وبعدها مسيرةٌ انفرادية قبل الفطور. كانت تطوفُ هنا وهناك في المروجِ الرطبة، تلتقطُ الفطر غير المألوف من جذوع الأشجار المتعفنة وتتحدّى نفسها بأن تأكلها في الحال، وهي تتلو شكسبير للماعز. كانت تستنزفُ مخزوناً غنيّاً من الهَوَس، اختارته بحماسةٍ ومن ثم تخلّتْ عنه. بعض ضروبِ الهَوَس هذه تتعلّق بالغذاء: على مدارِ أيامٍ دون انقطاع لم تكنْ تستهلك سوى حليب الخراف، ومن ثم لا شيءَ باستثناء حساءِ الكرنب المخمَّر. كانت هنالك أيضاً تمارين التنفس، من كتاب للبروفيسور ليبرميستر، وتمارين عقلية، كذلك: طوال ساعة واحدة في اليومَ كانت تضطجعُ بلا حراك على الحشائش وتركّزُ على استذكار ذكرى سعيدة. أيّ ذكرى سعيدة! كانت تلك بداية حقبة «الأفكار الإيجابية»، التي كان يبشرُ بها الاختصاصيون في المعالجة البارعة الذاتية للرجال، كي يجعلوا

من أنفسِهم باعةً نشيطين، ويصفها الأطباء للنساء، بخاصة اللواتي يعانين من «الأعصاب» أو «الإنهاك العصبي» ـــ عندما كانوا لا يصفونها للنساء فالسببُ هو ببساطة كي لا يفكرنَ على الإطلاق. التفكير (مثل حياة المدينة) من المفترض أن يكونَ سيئاً لصحةِ الفرد، بخاصةٍ صحة المرأة.

غير أن هينريك ليس من هذا الطراز، فهو لا يشبه الأطباء الآخرين. لعله يقول: «ثقوا بهواءِ زاكوپين العليل كي يمارسَ قدراتِه العلاجيّة». كان هينريك يؤمنُ إيماناً راسخاً بالهواء. إلّا أنّه لا يقول: «استريحي، أغلقي عقلكِ، أَقصري نفسكِ على ممارسةِ مِهن المرأة من مثل صنع الدانتيلا. لم يكنْ هنالك شخصٌ يحلو لمارينا أن تتحدّثَ معه بقدر ما يحلو لها ذلك مع هينريك. ليته لا يكون مُغرماً بها بنحوٍ جليّ. ثمةَ شيءٌ واحدٌ يتعلق بالشبان من مثل ريشارد وتاديوش كي يقعا في حبِّها؛ كانت تعرف طاقةَ ممثلةٍ حاكمةٍ كي تُلهِمَ حالات افتتان طائشةٍ، وفيةٍ تماماً، إنما ضحلة، من هذا النوع. غير أن حالةَ هذا الرجل الأكبر منها سنّاً، الذكي، الكئيب الذي كان يعلّق آمالَه على حبٍّ غير مُعلَن كانت موجعةً لها. كانت تتمنى أن يعطس.

«أعطسْ، هينريك!».

«معذرةً».

«أودّ أن أسمعكَ تعطس. هذا الأمرُ يجعلني أجدكَ طائشاً».

«أنا طائش».

عطستْ مارينا. «أرأيتَ كيف أقوم بذلك بنحو لائق؟».

جرى ذلك في أيلول / سبتمبر المنصرِم وكانا جالسين في غرفةٍ مغمورةٍ بنور الشمس في الكوخ الذي استأجره هينريك كي يقضي فيه الصيف. فيه طاولة من خشب الأرزية، وكرسيان، ومصطبة، والجدرانُ عاريةٌ إلّا من صفٍّ من الصور الملوَّنة بنحوٍ غير مُتقَن على زجاجٍ عائد لرعاة وقطاع طرق رسَمها رعاةٌ وقطاعُ طرق محليّون، قلّما كانت هي غرفة استقبال، أصغر بكثير من أن تكون غرفةَ استشارة طبية. كانت ثروة الخوانات من المَشارط،

والكمّاشات، وأنابيب القسطرة المعدنيّة أو المطاطيّة التي تُدخل في مجرى البول لتفريغ المثانة، المناشير (جمع مِنشار) ذوات الألسن، والمناظير الطبية، والميكروسكوب الطبي، والڤيالات ذوات السدادات، وكتبٌ طبيّة زوايا صفحاتها مطويةٌ مثل إذن الكلب ـــ اختيارٌ متواضع من مكتبه المجهَّز تجهيزاً جيداً في كراكوف ـــ تؤكد مهنته.

«هل تقولين لي إنكِ مصابةٌ بالزكام؟ إنه شيءٌ قلّما يُدهشني بما أنّكِ تسيرين حافيةَ القدمين في الحشائش وتستحمين في الجدول الثلجي فجراً».

«لستُ ـــ بدأتْ تسعلُ ـــ مصابةً بالزكام».

«بالطبع لا». أَقبلَ نحو المصطبةِ حيث كانت جالسةً ومدَّ يده المفتوحة.

«آه، هواء زاكوپين العليل»، قالت مارينا، وهي تسلّمُ رسغها الرقيق.

أَغمضَ عينيه فيما هو واقفٌ بجوارها. مرّتْ دقيقة. بيدِها الطليقة تناولتْ طبقَ توت العليق في طرفِ المصطبة وأكلتْ ببطء ثلاثَ حبات. انقضتْ دقيقةٌ أخرى.

«هينريك!».

فيما هو يفتحُ عينيه، ابتسمَ بعَبث. «يحلو لي أن أجسَّ نبضكِ».

«لاحظتُ ذلك».

«كي أستطيعَ أن أُطمئنكِ» ـــ وضع يدَها ثانيةً في حضنها ـــ «كم أنتِ معافاة».

«توقفْ عن ذلك، هينريك». تأخذ توت العليق.

«وماذا عن حالات الصداع خاصتكِ؟».

«لديّ صداعٌ على الدوام».

«حتى في زاكوپين؟».

«كل ما عليَّ القيامُ به هو أن أسترخي. كما تعرف، نادراً ما يكون لديَّ صداعٌ شديدٌ جدّاً حين أعمل بجدٍّ بالغ».

كان قد عادَ إلى الطاولة. «ومع ذلك ما تزالُ غرائزكِ سليمةً كي تخبركِ

أن تبحثي عن ملاذٍ لكِ هنا، كلّما استطعتِ، من هَرَج ومَرَج وارسو وهذا التجوال كلّه».

«أيّ ملاذ!». هتفتْ. «اعترفْ بذلك، يا صاح، إنها قلّما كانت القرية غير المكتشفة حينَ وصلنا إلى هنا قبلَ أربعة أعوام خلتْ».

«حين وصلتِ *أنتِ*، عزيزتي مارينا. أرجوكِ تذكّري أنكِ كنتِ أولَ فردٍ مشهور يأتي إلى هنا صيفَ كلِّ عام. لقد حذوتُ حذوكِ حَصراً».

«لستَ وحدَك». قالت. «أعني الآخرين كلّهم».

أمالَ هينريك رأسَه، وضعَ سبابَته على ذقنِه الملتحي، ونظرَ خارج النافذة إلى منظرِه الأثير، الباعث على الحيوية، منظر جيوونت وقمة كاسپروي البعيدة.

«ماذا تتوقعين، بما أنّكِ وبوغدان تأتيان في كلِّ مرةٍ يكتشف أفرادٌ أكثر قليلاً جمالَ المكانِ وروعتِه. أنتِ أكبرُ مُشجِّعة على السكن في القرية».

«حسناً، في الأقل هم أصدقائي وصديقاتي. غير أنه يوجد الآن أشخاصٌ أجهلُهم في ما سُمّي بالفندق، ذاك الذي فتحه العجوز زارنياك. زاكوپين أصبحَ لديها فندق!».

«أينما مضيتِ يتبعُكِ الجميع»، قال، باسماً.

«والأجانب. لا تقلْ إنهم أقبلوا إلى هنا بسببي. إنكليز، ليتمجد الربّ». توقفتْ هنيهةً عن الكلام، عبّرتْ بطريقةٍ مَسرحيّة. «إذا كان لا بدَّ أن يكونَ لدى المرء سائحون، فليكونوا إنكليزاً. في الأقل نحنُ ليس لدينا أيّ شخص ألماني».

«فقط انتظري»، قال. «سوف يأتون».

كانت إقامةُ هذه السنة مختلفةً. ثمة شيءٌ واحد، ألا وهو أنهم وصلوا في وقتٍ أبكر كثيراً، لم يكونوا في إجازة. كان بوغدان قد اقترحَ أن يجمعوا كلَّ المنخرطين في الخطة ـــ خطتهم: لم يكنْ من الصعب أن يُحضروا بوغدان إلى هذهِ الأرجاء من جديد. كانت مارينا تعتقد أنَّ عليهم أن يدعوا فقط

أصدقاءً قليلين، أولئك الذين كانوا يترنّحون. ريشارد والآخرون ممَّن كانت تعرفُهم أصلاً والذين يُمكن أخذهُم بالحسبان لا يحتاجون إلى المجيء.

بعد رحلةٍ إلى كراكوف، وشفاء پيوتر ـــ قبل ذلك بعامين كانت مارينا قد أرسلتْ طفلها بعيداً عن وارسو حيث كانت لغة التعليم في المدارس هي الروسية، كي يسكنَ مع أمها في كراكوڤ حيث القانون النمساوي الأكثر لينينيةً (نسبة إلى لينين) يسمحُ بتعليم اللغة البولندية ـــ مارينا وبوغدان أمضيا أسبوعاً من أوقاتِ ما بعد الظهر في شقة ستيفان، وكان يلتحقُ بهما دوماً هينريك المُطمْئِن بحذر. كان ستيفان الآن مُجبراً على ملازمةِ سريرِه في معظم الأوقات. في صبيحة اليوم الذي أعقبَ وصولَهما بوغدان نفسه ذهبَ إلى ساحة سوق الطعام كي يُرتبَ كلَّ شيء مع أحد سكان الهضبة متأكداً من أنه قادرٌ على التأخّر هناك بعد أن يبيعَ شحنتَه من لحم الضأن والجبن. ازدحمتْ وجوهٌ أليفةٌ حوله، عارضين عليه خدماتِهم، عرباتهم. اختار بوغدان رجلاً طويل القامة ذا شعرٍ أسودَ غير مُجعّد يتحدّث بنحو أوضح بدرجة واحدة مقارنة بالآخرين وبخليطه الهزليّ من البولندية الدالّة على الثقافة واللهجة المحليّة لرجلٍ من سكانِ الهضاب، أبلغَ الرجلَ أن يُخبرَ الأرملةَ العجوز التي استأجروا كوخها في أيلول / سبتمبر الماضي كي تجهّزه الآن لوصولِه هو وزوجته وابن زوجته مع خمسةٍ آخرين. كان الرجلُ، يدريك، من المفترض أن يستعدَّ لأن يأتي بهم إلى القريةِ بعد أسبوعٍ واحدٍ من اليوم. أعلن قائلاً إنه سيكون شرفاً لا يُنسى أن يحمل الكونت والكونتيسة وفريقهما في عربته.

كانوا يعرفون الصيفَ وحده، لمّا كانت الجبال فوق النطاق الشجري[1] تبدو خاليةً من الثلج والمروجُ أصبحتْ عاريةً من الأزهار. الجبالُ الشاهقة الآن ما تزالُ مكسوةً بالثلج ـــ فصولُ الشتاء طويلةٌ وقاسيةٌ في جبال الـ «تاترا» ـــ غير أنه فيما كانت العربة تمرُّ بامتداد المروج الخُضُر المكسوة

1- النطاق الشجري tree line: الحد الذي لا ينمو الشجر بعده في الجبال والمناطق القطبية بسبب البرد – م.

بسجادٍ من الزعفران الأرجواني، أرجوانية مع شيءٍ قليل من الزرقة الداكنة، ركابُ يدريك قلّما يستطيعون أن يرفضوا أن يسمّوه ربيعاً. وصلتْ مارينا إلى القرية فرحةً، وبعدها منفعلةً ـــ أحاسيس ميّزتها بوصفها الابتهاج الذي يعقبُ اتخاذ قرارٍ كبير والقلق الذي يتبعُ ضروب الإزعاج المألوفة للرحلة. لا يمكن أن يكون هذا صداعاً، كانت متيقنةً من هذا الأمر، مع أنّ هذا الدوار والطاقةَ الباردة لم يكونا مختلفين عما تشعرُ به، غالباً، ثلاث أو أربع ساعات قبل بدء كلٍّ واحد منها. لا، لا يمكن أن يكون هذا صداعاً. إلّا أنّها حين وقفتْ مع بوغدان مُبدِيين إعجابهما بمَشهد غروب الشمس، كان يتعيّن عليها أن تعترف أن ثمةَ شيئاً خطأً فيما يتصلُ بالطريقة التي تراه بها، إذ أصبح زاخراً بالأضواء الباهرة والخطوط المتعرّجة وبصيص ورذاذ الضوء، الشمسُ بَدَتْ كأنها تغلي، ولم يعدْ باستطاعتها أن تُنكر الخفقانَ في صدغِها الأيمن والضغطَ في مؤخرةِ رقبتها. هي التي لم تشطبْ أداءً مسرحيّاً واحداً بسبب صداعٍ أفقدَها قوَّتَها على مدى أربعٍ وعشرين ساعةً، وظلّتْ مستلقيةً في غرفة النومِ المعتمة مع منشفةٍ مشدودة بقوةٍ حولَ رأسها الذي كان في حالة دوار ثقيلٍ مصحوبٍ بالسبات. كان بيوتر يدخلُ ويخرج ماشياً على أطراف أصابعه، ويسألها متى تنهضُ من السرير، ومن الجليّ أنها كانت بحاجةٍ إلى أن ترتاح، وبذلتْ مجهوداً كي تُبقي الصبي معها على مدى برهةٍ من الزمن. إنه لأمرٌ حَسَن إذا ما ربتتْ على شعرِه وقبّلتْ يدَه وعيناها مغمضتان بقوة. كلّما تفتحهما كان بيوتر يبدو صغيراً جدّاً وبعيداً جدّاً، مثل بوغدان، الرابض عند السرير، يسألُ ثانيةً ماذا يُحتمل أن يجلبَ لها ـــ بدا أنهما كانا يملكان أغطيةً شبكيّة على وجهيهما. كانت هنالك وجوهٌ كافيةٌ تحدّق خارج العُقَدِ الداكنةِ في العوارض الخشبية الساندة للسقف التي بدتْ فوق رأسها مباشرةً، تضغطُ عليها من الأعلى، وامضةً، متلألئةً. كلّ ما تريدُه هو أن تُترك وشأنها. أن تتقيأ. أن تنام.

كان الصداع الذي أصابها مؤخراً خلال مكوثهما طفيفاً مقارنة بهذا الصداع، وهو واحدٌ من أسوأ الأنواع التي يمكن أن تتذكرها مارينا. لكنها

بعد أن شفيتْ كانت منحرفة المزاج جدّاً. كانت هنالك ليالٍ طويلةٌ مؤرقةٌ وهي تشاهدُ الأشباحَ على الجدار (كانت تُبقي مصباحاً زيتيّاً واحداً مشتعلاً) وتُرهِفَ السمعَ لأنفاس پيوتر الذي كانت لديه زوائد أنفيّة تُعيق التنفس، شخير يوزفينا، سعال واندا، نباح كلب الراعي. في إحدى الليالي سوف يزحفُ پيوتر ويتسلّلُ إلى سريرِها كي يقولَ لها إنه يحتاجُ إلى استخدام المرحاض الخارجي ويتعيّن عليها أن تأتي معه لأن ساحرةً مخيفةً كانت تقيمُ في الفناء بدتْ أشبه بالعجوز السيدة باتشليدا. وحين رجعا إلى حجرةِ النوم، يريدُ هو أن يعودَ إلى داخل سريرِها لأن الساحرة، شَرحَ لها، ستحاول أن تقتلَه في أحلامِه. لا جدوى في رأي مارينا من أن تُخبر پيوتر أنه أكبر سنّاً بكثير من أن تكون لديه مثل هذه المخاوف الصبيانية. لكن حالاً، فيما هي تسمع التنفس الضاجّ من طريق الفم الذي يدل على النوم، يمكنها أن تحمله إلى فراشه وتذهب إلى الخارج ثانيةً كي تنظر مجدداً إلى الظلمة المبقعة بالنجوم. بعدها، أخيراً، سويعات قلائل قبل الفجر، يأتي دورها كي تنام. وأن يكون لديها أحلامٌ غريبة، أيضاً: أن أمها كانت طيراً، وأن بوغدان لديه سكين ويؤذي نفسه بها، أن شيئاً رهيباً كان يتدلى من شجرةٍ ما.

كانت متعبةً على الدوام. وفي بعض الأيام كانت تشعر بأنها «حسنةً بشكل خطير»، كما عبّرتْ هي، لأن أيَّ طاقةٍ استثنائية أو أيّ معنوياتٍ عالية ربما تكونُ علامةً على أنها سوف تُصابُ بواحدةٍ من حالات الصداع التي تُقعدها عن العمل في اليوم التالي. الأفكار القديمة جدّاً، الحافزُ الذي لا يمكنها التحكمُ به للضحك أو الغناء أو الصفير أو الرقص ـــــ سوف تدفعُ ثمنها كلّها. مقتنعةً بأن حالاتِ الصداع هي بسبب ضعف المجهود، كانت تقومُ بمسيراتٍ راجلةً متحمّسةً أكثر من أيّ وقتٍ مضى؛ بدا أنها جمعتْ أصدقاءَها وصديقاتِها من حولها في الأغلب كي تتركهم.

كانت تمشي جزئيّاً كي تُرهقَ نفسها ـــــ ولم تكنْ بحاجةٍ إلى صحبةِ أحد. ساعدها بوغدان في ارتداءِ ثيابها، وبرقةٍ ساعدها كي تنتعلَ جزمتَها، وظلَّ يراقبُها إلى أن توارتْ عن الأنظار، متجهةً نحو الجنوبِ الغربي. المسافةُ

من القرية إلى المروجِ العالية المؤدية إلى جبل جييوونت «تبلغُ نحو سبعة كيلومترات. من هناكَ توغلتْ في عمقِ الغابة وسَلَكت المسارَ الذي أخَذَها، مقطوعةَ الأنفاس، إلى نجدٍ أعلى قليلاً، تكسوهُ الحشائش، والشجيرات الصغيرة نسبيّاً، «والزهورُ الألبية» نسبة إلى الألب؛ في إجلالٍ مستهتر لقاتلةِ أدريان ليكوڤرييه بواسطة الهدية التي تتألف من زهورٍ مسمومة، جَمعتْ باقةً من الإيديلويس، قبّلت الزهورَ العديمةَ الرائحة، ورفعتْ وجهها صوب الشمس. كانت ترغبُ بالصعود إلى قمة جبل «جييوونت»، الأمر الذي فعلتْه في الصيفِ المنصرم مع بوغدان وأصدقائها وصديقاتها ومع مرشدٍ من القرية. لكنَّها، بسببِ خوفِها من الأوهامِ الكئيبةِ التي تزدحمُ في رأسِها، لم تجرؤْ على أن تجرّبَ ذلك بمفردها. وحتى في مغامرتِها للتوغّل إلى أسفلِ الهضبة عبر رقعِ الثلج الذائب، وصعود السفوح جزئيّاً، كانت ترغبُ بأن يكون بوغدان، بوغدان وحدَه، الذي يرافقها.

كانت مشيةُ بوغدان أسرعَ من مشية مارينا، ولم تكنْ تهتم بأن تسيرَ وراءَه. بهذه الطريقة يُمكنُها أن تشعرَ بأن فرداً ما رافقها وبأنها وحيدة في الوقت ذاته. إنما في بعض الأحيان كان ينبغي لها أن تأتي به إلى جنبِها، حين ترى شيئاً ربما يفوته. غرابٌ في شجرة. أو صورةٌ ظلّية لأحد الأكواخ. أو صليبٌ على تل. أو تجمّع من الشامواة[1] أو الوعلِ في جرفٍ قريبٍ شديد الانحدار. أو النسرُ يهبطُ منقضّاً على مرموطٍ[2] سيّئ الحظ.

«انتظرْ»، تصيح، «هل رأيتَ ذلك؟». أو: «أُريد أن أريكَ شيئاً ما».

«ماذا؟».

«هناكَ في الأعالي».

ينظرُ إلى الجهة التي تُشير إليها بإصبعها.

«مِن هنا. ارجعْ إلى هنا».

1- الشمواة chamois: حيوان مجترّ من الظباء - م.

2- المرموط marmot: حيوان من القوارض - م.

يأتي إلى منتصف المسافة ويحدّقُ ثانيةً.

«لا، هنا على وجهِ التحديد».

تأخذُ ذراعَه وتُعيدُه للوراء إلى الموضع الذي توقفتْ فيه كي تتعجبَ، كي يكون باستطاعته أن يضعَ قدمَه تحديداً... هناك. وبعدها، فيما هي واقفةٌ بجوارِه، يكونُ بوسعِها أن تراقبه وهو يرى ما شاهدتْه وهي مستغرقة في التفكير، لا تتحركُ على مدى دقيقة كي تريه ما رأتْه هي.

يا لي من مستبدةٍ، كانت مارينا تفكر غالباً على هذا النحو. إلّا أنّه يبدو كما لو أنّه لم يكترثْ. إنه عطوفٌ جدّاً، وصبورٌ جدّاً، وذو سلوكٍ زوجيّ حقّاً. كانت تلك هي الحريّةُ الحقيقية، القناعةُ الحقيقيّة للزواج، أليسَ كذلك؟ أن يكونَ بمقدوركَ أن تطلبَ من شخصٍ ما، أن تطلبَ بصورةٍ شرعيّةٍ من شخصٍ ما، أن يرى ما رأيتَه أنتَ. أن يشاهدَ ما شاهدتَه أنتَ على وجهِ الدقة.

من رسالةٍ كانت مارينا قد ائتمنتها لدى واحدٍ من سكانِ الهضبةِ مغادرٍ إلى السوق في كراكوف، كي يبعثها بالبريد آنَ وصولِه إلى هناك:

ريشارد، ماذا كنتَ تفعلُ، تفكّرُ، تخططُ للقيام به؟ إذا ما أخذَنا بالحسبان فكرتَكَ المعهودةَ الممتازة عن نفسِكَ، ربما ما كان يلزمني أن أُفضي إليك بأننا كلُّنا افتقدناكَ هنا. أنتَ لا تشعر بأنكَ مهمٌّ جدّاً، على كل حال. ربما يرجعُ هذا الأمر إلى أن وظائفَنا المألوفةَ أُخذتْ منا. أولاً إن الثلج يهطلُ طوال اليومين الماضيين ـــ نعم، ثلجٌ في مايو! والآن مضتْ علينا ثلاثةَ أيام ونحن تحتَ رحمةِ المطرِ البارد، ولهذا لم يكنْ أمامنا، أنا وبوغدان والأصدقاء، من خيارٍ سوى أن نقضي أوقاتَنا في نطاقِ المنزل. والآن أتذكرُ كيف تكون الصورة حين يكونُ المرء طفلاً صغيراً في عائلةٍ كبيرة لا تسمح له بمغادرة المنزل. ولهذا، ونحنُ محصورون في مكانٍ ضيق ومزدحم، سئمنا من كلِّ مواضيع الحوارات، حتى تلك التي كانت تشغلُ بالنا في معظم الأحيان، وعلى الرغم من الشغف الكبير جدّاً بما أَخبرنا به بوغدان في ما يتصل بمستعمرةٍ في واحدة

من ولايات «نيو إنجلاند»[1] يُطلق عليها «برووك فارم». حسناً إذن، سوف تقولُ، سلّوا أنفسَكم. لكننا فَعَلنا ذلك أصلاً! كنتُ قد ابتكرتُ تمثيلياتٍ تحزيريةً لأولئك الذين يرغبون بأن يمرّنوا مهاراتِهم في التمثيل (لم يكنْ من العدل أن أشارك أنا نفسي فيها) ـــ كنا قد ألّفنا أغنياتٍ سعيدةً وأخرى حزينةً (تاديوش يتعلّم العزف على الربابة)[2]، تلك الآلة الموسيقية الشبيهة بالكمان التي سمعنا عنها في مخيمات الرعاة ـــ تلونا أشعار ميتسكيفيتش[3] وأكملنا «*كما تهواه*» و«*الليلة الثانية عشرة*». ونعم، ما تزالُ تمطر.

خمّنْ ماذا فعلَنا اليوم. كنا قد قصَرنا أنفسَنا على تسليةِ أنفسِنا بقتل الذباب. فعلاً! صباحَ هذا اليوم وسط ألعاب پيوتر وجدتُ قوسين صغيرين جدّاً، صنع يوليان سهاماً من عيدان الكبريت ووضع فيها إبراً في أطرافِها، وتبادلنا الأدوارَ في استهدافِ الذبابِ النعسان الذي كان يزخرفُ الجدران الخشبية للغرفة التي نجلسُ فيها، وكلُّ واحدٍ منا يصفقُ للآخر كلّما تسقطُ ضحيةٌ من ضحايانا عند أقدامِنا. ماذا تقولُ بشأن عملٍ كهذا لجولييت أو ماري ستيوارت؟

1- نيو إنجلاند New England: إقليم يتكوّن من ست ولايات أمريكية هي: ماين، نيوهامشاير، فيرمونت، ماسوشوسيتس، وروود آيلند. ويُعتبر هذا الإقليم النواة الأولى التي تكوّن منها «اتحاد» الولايات المتحدة الأمريكية – م.

2- الربابة gęśle أو gusle: آلة موسيقية ذات وتر واحد، يضعها العازف على ركبته ويعزف بوساطة قوس على وترها بأصابع يده اليسرى. يشيع استخدامها في جنوب شرق أوروبا (دول البلقان)، ويرافق الآلة الغناء، الفولكلور الغنائي والشعر الملحمي (البطولي) – م.

3- آدم بيرنارد ميتسكيفيتش: (Adam Bernard Mickiewicz) ولِدَ في الرابع والعشرين من ديسمبر عام 1788 وتوفي في السادس والعشرين من نوفمبر عام 1855. وهو شاعرٌ وطني بولندي وكاتبُ مقالاتٍ ومترجم وناشر وكاتب سياسي. كما كان ممثلاً رئيساً للحقبة الرومانسية البولندية، وواحداً من الشعراء الوطنيين الثلاثة في بولندا، وأعظمَ شاعر في تاريخ الأدب البولندي. ويُعدُّ أيضاً واحداً من أعظم الشعراء السلافيين والأوروبيين وقد وصفه الناس ولقبوه بالشاعر الوطني السلافي. كما كان كاتباً مسرحيّاً رومانسيّاً رائداً، وكان يناظر في بولندا وأوروبا الشاعر البريطاني بايرون والشاعر الألماني غوته– م.

مهما يكنْ من أمر، لا تحسبْ أن ذلك يعودُ إلى كوني ضجرةً لأني لم أوجهْ إليكَ دعوةً للانضمامِ إلينا. نحنُ متيقنون من كوننا سوف نمكثُ هنا أسبوعين آخرين في الأقل، وخلال هذا الوقت من المفترض أن يتحسّنَ الجوّ ويُمكننا أن نناقشَ أشياء أكثر، ويخطرُ ببالي بما أنّ يوليان الآن يبدو مُلتزماً ومُتلهِفاً تماماً، يجب أن تكون هنا أنتَ أيضاً، كي يكونَ بمقدورِنا أن نرتبَ بعض التفاصيل المتعلّقة بالخطةِ الجديدة التي تلعبُ فيها دوراً رئيساً. ويمكنك أن تُطمئِن واندا، التي تشعرُ بالحزن بسببِ انفصالهما الوشيك، أنكَ سوف تعتني بزوجها وأنكَ تحرصُ على أن لا يتصرف بطريقة ما تجعلُه ينهمكُ في مخاطرةٍ لا ضرورةَ لها، مع أنّي أعرفُ، كوني أعرفُكما أنتما الاثنين، أن الأمرَ يجب أن يكونَ على العكس من ذلك! إذن، اعتبرْ نفسكَ مَدعوّاً ــــ إذا (نعم، يوجد إذا)، أعطيتني رأيكَ في مسألةٍ حساسة. ما هو الشيء الذي تريده مارينا العزيزة مني الذي لم أضمنْه لها عن طيبِ خاطر، سوف تفكرُ في هذا الأمر. إني أعرف فؤادَكَ الدافئ. بيد أني أعرفُ كذلك شيئاً آخر عنكَ. هل ستسامحني على صراحتي؟ يجب أن تعدني بأن تتصرفَ بوصفك جنتلمان مع الفتيات المحليّات. أجل، ريشارد، إني مُطلعةٌ على عاداتكِ السيئة. لكن ليس في زاكوپين، إني أتضرّعُ إليكَ. إنكَ ضيفي. أنا لم أعدْ إلى هنا بعد، لديَّ التزامٌ مع هؤلاء القوم. هل نفهمُ بعضنا الآن، صديقي؟ نعم؟ إذن تعال، عزيزي ريشارد.

كان مجروحَ المشاعر لمّا تلقّى رسالة مارينا، وعَقدَ العزم على القيام بأيّ شيء وكلِّ ما طلبته منه، غادرَ ريشارد إلى وارسو في اليوم التالي. ولمّا وصل إلى كراكوف، استدعى هينريك كي يطلبَ مساعدتَه في تنظيمِ الرحلةِ إلى القرية. هينريك لم يصاحبه فقط إلى السوق كي يقدّمَ له العونَ في العثور على حوذيّ موثوقٍ به، بل قرّرَ بنحوٍ مندفع أن يذهبَ، هو أيضاً. من المؤكد أن حالةَ ستيفان لن تسوءَ بالضرورة إذا ما ذهبَ إلى هناك مدّة عشرةِ أيام لا غير. إذا ما وُجهت الدعوةُ إلى ريشارد، وبوساطة مارينا نفسِها، كيف يُمكنُه أن يبقى بعيداً عنها؟

شَغَلَ ريشارد حجرتَه في كوخِ شاعر القرية الملحميّ، جزئيّاً كي يستمرَّ في مَهمتِه التي كان قد باشرَ بها في الصيف الفائت في القيام بتصنيف حكايات الرجل العجوز، جزئيّاً للهَرَب من العين اليقظة لمارينا إذا تعيّن، على الرغم من أحسن نواياه، عليه أن يستسلمَ للسِّحر العاميّ لواحدةٍ من فتيات القرية.

«آه، الحياة الجماعية»، قال هينريك لبوغدان حين أخبرَه أن هنالك فراشاً ينتظره في غرفةِ نومِ الرجال. «أرجوك لا تتضايقْ إذا ما مكثتُ في مكانِ زارنياك».

«الفندق؟». قال بوغدان. «لا يمكنْكَ أن تكونَ جادّاً في كلامِكَ. إني أثقُ بأنكَ تحملُ مطهِّراً في حقيبةِ الطبيب خاصتك من أجلِ الفراشِ الذي سوف يعطونُه لك هنا».

إلّا في حالةِ استدعائِه من أجلِ حالةٍ طبيّةٍ طارئة (ولادةٌ مستعصية، أو رِجلٌ مُهشّمةٌ، أو زائدةٌ دوديةٌ منفجرة)، كان هينريك يلازمُ الكوخ في أغلب الأوقات، ويكونُ على مَقربةٍ من مارينا، ومسلّياً پيوتر. كان الصبيُّ يبدو ذكيّاً في نظره، لذا قررَ أن يعلّمه ما يتصل بالمذاهب الجديدة لنظرية النشوء.

«لو كنتُ في مكانكَ»، خاطب پيوتر. «أنا أفكرُ مرتين قبل أن تخبرَ أنتَ القساوسةَ في المدرسة بأن صديقاً لأمِّكَ الشهيرة ذكرَ أيضاً اسمَ ذلك الإنكليزيّ العظيم، السيد دارون. «لكني لا أستطيع أن أخبرَهم»، قال الصبيّ. «ماما تقول إني لن أعودَ إلى تلك المدرسة بعد الآن».

«وهل تعرفُ سببَ عدم رجوعِكَ إلى المدرسة؟».

«أظنُّ هذا»، قال پيوتر.

«ما السبب؟».

«لأننا سوف نسافرُ في سفينة».

«وماذا ستفعل في السفينة؟».

«سأرى الحيتان!».

«من أيّ نوعٍ من المخلوقات هذه الحيوانات؟».

«إنها نوعٌ من اللبونات».

«ممتاز».

«هينريك!». ذاك هو ريشارد، الذي كان يمشي الهوينى. «لا تحشُ رأسَ الغلام بحقائقَ عديمةِ النفع. اروِ له الحكايات. حفّز خيالَه. اجعله جَسوراً».

«أوه، أنا أودُّ الاستماع إلى قصةٍ ما»، صاح بيوتر. «احكِ لي قصةً عن ساحرة، وكيف قُتلتْ. قُليتْ. في فرن. وبعدها كانت قد ــــ».

«كان يتعيّن عليكَ أن تروي لَه القَصص»، قال ريشارد.

«لديّ قَصص، أيضاً»، قال هينريك. «إلّا أنّها لا تجعلني جسوراً».

كانت تغدو صموتةً أكثر فأكثر، هي التي كانت ثرثارةً جدّاً على الدوام. كيف كان أولئك الذين التأمَ شملُهم هنا يرغبون بأن يدخلوا السرورَ إلى قلبِها!

كانت مارينا تراقبُ تاديوش وريشارد يراقبها بعينين ملؤهما الإعجاب. كانت تتمنى لو أنّها مُغرمةٌ، لأنه حين يكونُ المرء مُغرَماً بصورةٍ عاجزة فإن هذا من شأنه أن يوقِظَ الذاتَ الأفضل القابعة في داخلِه. إنما حينَ يضعُ الزواج نهايةً لذلك فتلك هي الحريّة. الحبُّ يجعل الرجالَ أقوياء، واثقينَ من أنفسِهم. لكنه يجعلُ النساءَ ضعيفات.

الصداقة، كذلك... تلك هي مسألةٌ أخرى. الأصدقاءُ يجعلونك قويّاً. ماذا كان بوسعها أن تفعل يا ترى دون هينريك؟، كانوا في الغابة جالسين على جذلِ شجرة تنوب بالقرب من رقعةٍ تنبت فيها شجيرات العليق. كان بيوتر يلعبُ مع قوسِه بالحجم الطبيعي والسهام على مقربةٍ منه.

«لم يسبقْ لي أن أحببتُ الغابات»، قال هينريك. «غير أني بدأتُ أُحبُّها. كلّ ما عليَّ أن أفعلَه هو أن أتخيّل أنَّ كلَّ شجرةٍ هي كائنٌ رفيق. أنا ملتصقٌ بهذه الغابة الكئيبة. راسخُ الجذور هنا. إنها تلوّح بورقِها يميناً وشمالاً. النجدة! النجدة! تصيحُ الشجرةُ، أنا ــــ».

«لا تكنْ مُحزِناً، عزيزي هينريك».

«لِمَ لا؟ أنا أمتّعُ نفسي».

«كنْ مُحزِناً، عزيزي هينريك».

«حسناً. أين كنتُ؟ أوه، أشجاري. لا توجد بيرنام وود ولا هضبة دونسينين[1] بالنسبة لهم. وهي فضلًا عن ذلك مقطوعةٌ، وهي ليستْ وسيلةَ الفرار التي كانت تدور في أذهانِهم. جرّبي شيئاً من هذا».

تناولتْ مارينا قارورة الفودكا المفضّلة.

«تصوّر»، قالت بعد برهةٍ، «ماذا نَبتَ في رأسِكَ بحيث إنّ [قدرك] أراد شيئاً ما، أن عليكَ أن تُطيعَ طالعَكَ. مهما يدورُ في أذهانِ الآخرين».

«مارينا، أنتِ تتحدّثين عن نفسِكِ كما لو أنّكِ وحيدةٌ تماماً. إنَّ ما يُذهلني هو كم أنتِ مصممةٌ على أن تُحضري الآخرين معكِ».

«لا يستطيع المرءُ أن يمثّل المسرحيات دون الناسِ الآخرين».

«في حقيقة الأمر، كنتُ أفكرُ في زاكوپين. أنتِ مغتاظةٌ لأنكِ لا تستطيعين أن تحتفظي بزاكوپين التي اكتشفتها، إنما يتعينُ عليكِ أن تعرفي أنها لا يمكن أن تبقى كما كانتْ عليه. في اعتقادي أنها يجب ألّا تبقى. إن حيواتِ الناس هنا عصيبةٌ. غير أنهم ليسوا قبيلةً من الهنود البدو في أمريكا الشمالية. إنهم رعاةٌ يسكنون قريةً صغيرةً مطوّقةً، في أوروبا التي رزقُها البائسُ آخذٌ في الانكماش. كانت الأرضُ على الدوام مُجدبةً جدّاً بالنسبة للزراعة الجادّة، وأنتِ تعرفين، أليس كذلك، أن منجمَ الحديد من المؤكد أن يُغلقَ في غضونِ السنوات القليلة المُقبلة. كيف سيعيشون عندئذٍ إن لم يبيعوا بالتجزئة معملَ التكرير المتواضعَ خاصتهم، ودُماهم الخشبية التافهة، وجبالَهم، ومناظرهم الطبيعية، وهواءَهم النقي؟».

«أتعتقد حقيقةً أني لا أبالي فيما يخصُّ ـــــ».

1- اقتباس ورد في مسرحية «مكبث» لشكسبير. في النص المسرحي، يخبر كائن خارق مكبث أنه لن يُهزم، ما لم تقفْ ضده بيرنام وود العظيمة وهضبة دونسينين العالية. بيرنام وود Birnam wood: مدينة في اسكتلندا، تقع على إحدى ضفتي نهر تاي. وتقع هضبة دونسينين Dunsinane Hil قرب قرية كولاس، في بيرث شاير، في اسكتلندا – م.

«وكما أشرتُ عادةً»، استطردَ قائلاً بودّ: «أنتِ، كونكِ تعرّضتِ للغواية من بوغدان العزيز الذي لا غنى عنه، وجعلتِ ذلك كلَّه يبدأ. مع أنّه كان ينبغي أن يحدثَ في كلِّ حالٍ من الأحوال. كيف يُمكن أن تكونَ هنالك أعدادٌ متزايدةٌ من الناس لم يسمعوا فيما يتصل بزاكوپين؟ أنتِ تريدين أن يكونَ الآخرون من حولكِ. أن يكونوا مجموعتكِ».

«إنكَ تعتقدُ أني ساذجة».

هزَّ رأسه.

«إنكَ تحسبُ أني طموحة».

«أوه» ـــ ضَحَكَ ـــ «ما من خطأٍ في أن يكون المرءُ طموحاً، مارينا. إني أقرُّ بالضَّعف الجدير بالعبادة أنا نفسي. إنها خصوصيةٌ بولندية، كالمثالية. غير أني أعتقد أنه لا يتعين عليكِ أن تخلطي حفلةَ منزل إسبارطية[1] مع الكتائبية[2] بحيث يتعذّر التمييز بينهما».

«أنا أعرف أنكَ لا تحب فورييه».

«المسألة لا تتعلّق بأن أُحبَّ أو أكرهَ حكيمكِ اليوطوبي. لا يسعني أن أتمالكَ نفسي إذا ما كنتُ أعرف شيئاً ما عن الطبيعة البشرية. إنه لمِنَ الصعب على الطبيب أن يتفادى هذا الأمر».

«وأنتَ تحسبُ أن بمستطاعي أن أكونَ الممثلة مثلما أنا عليه الآن دون أن أعرفَ شيئاً ما عن الطبيعة البشرية؟».

«لا تغضبي مني». تنفّسَ الصعداء. «لعلّي غيورٌ لأنكِ... لا يسعني أن أكون عضواً من أعضاء فريقكِ. يلزمني أن أمكثَ هنا».

«لكنك إذا كنتَ ترغبُ، يمكنكَ، حين نقومُ ـــ».

«لا، أنا مُسنٌّ جدّاً».

1- إسبارطية spartan: متسمة بالبساطة وبالاقتصاد في الإنفاق والكلام وبالبُعد عن الترف وبضبط النفس وبالصرامة والجَلَد - م.

2- الكتائبية phalanstry: إحدى المستعمرات التعاونية التي دعا إليها الفيلسوف الاشتراكي شارل فورييه - م.

«يا له من هُراء! كم يبلغُ عمرك؟ خمسين؟ ولا حتى خمسين!».

«مارينا...».

«أتعتقد أني لا أشعر بتقدّم السن؟ إلّا أنّ هذا لا يمنعني من ـــــ».

«لا يسعني ذلك». رفعَ يده. «مارينا. لا أستطيع أن أفعل ذلك».

أضحى الجوّ أدفأ، والفريق كلُّه باستثناء هينريك وريشارد، أَمضوا ما بعد الظهر في الغابة وقد تجمّعوا الآن خارجَ الكوخ في النور الضعيف. مُتعَبين بنحوٍ باعثٍ على السرور، تحدّثوا كثيراً، كانوا يتطلعون إلى تناولِ عشائهم المؤلَّف من الحساء ونوعين من الفطر، تلك النباتات البنية الذاوية بنحوٍ رقيق التي عثروا عليها في بستان من شجر التنوب اليوم *والفطر* المُخلّل البرتقالي الداكن الفاتح للشهية الذي كانوا قد جنوه خلال جولاتِهم في الغابة في أيلول الماضي. كان بوغدان قد وضعَ سكة حديدية على الحشائش كي يلعبَ بيوتر بقطاراته الخشبية. كانت مارينا تكتبُ رسالةً وهي جالسةٌ إلى طاولةٍ صغيرةٍ على ضوءِ قنديل زيت أشعلَه لها تاديوش: بانَ قمرٌ – هلال وكوكبان في السماءِ الشاحبة. كانت واندا تغيّر الأزرار في قميص كتان مُطرَّز اشترته ليوليان. كان الاثنان، يوزفينا ويوليان، يخوضان نقاشاً هامساً فيما هما يلعبان الورق. ياكوب يرسمُ تخطيطاتٍ للاعبي الورق. نعيبُ بومٍ أعاقَ ثغاءَ بعض الخراف الضالّة، في حين أتى من داخل الكوخ صوتُ زبدٍ يئزُّ في مقلاةٍ فجة تملكُها السيدة باتشليدا ـــــ ضوضاءٌ لذيذة!

كان هينريك قد تجوَّل متمهلاً، صبَّ لنفسه شيئاً من العَرَق، جلسَ على الكرسي الإضافي إلى طاولة لاعبي الورق، يحاولُ أن يركّزَ على كتابٍ ما. ريشارد، الذي اختارَ أن يقضي يومَه في الغابةِ مع صاحبِ الكوخ خاصته (إن قتلَ الحيوانات صُحبةَ رجلٍ آخر هي الطريقةُ الممتعةُ جدّاً من البقاء بعيداً عن الغوايات التي تُلمِّح إليها مارينا)، وَصلَ أخيراً. كان قد سَحبَ كرسيّاً إلى طاولةِ مارينا، وأخرجَ دفترَ ملاحظاتِه، وراحَ يدوّنُ حكايةً قنص رواها له الرجلُ العجوز بعد أن أطلقا الرصاص على ثعلبِهما الثاني.

كان بوغدان يذرعُ المكان جيئةً وذهاباً. «لم أفعلْ شيئاً شاقّاً لكني مُتعبٌ»، قال.

أغلق هينريك الكتابَ بقوة. «أنتَ لا تشعر بالمرض؟».

«لا أظن ذلك».

«أنت لم تأخذْ عيّنةً من أيّ فطرٍ غريب اليوم؟».

«بلى، أخذتُ»، أجاب تاديوش.

«وكيف تشعرُ الآن، أيها الشاب؟».

«لا يمكنني أن أكونَ أفضل حالاً!».

«لأنه ليسَ من المفترض أن تأكلَ كلَّ ما يبدو مُغرياً لكَ في الغابة، أيّ غابة».

«الجميعُ يعرفونَ ذلك»، غمغمَ بوغدان. «لكن إذا كان أحدُهم طائشاً، فلدينا طبيبٌ معنا على مدارِ الأسبوع».

«لو كنتُ في مكانِكَ»، قال هينريك، «لن أثقَ بالأطباء أكثرَ من ثقتي بالفطر». كان يلهو بكأسِه الفارغة. «أتودّ أن تسمعَ حكايةً تحذيريةً عن كليهما؟». قهقه. «إنها قصةٌ مُفزِعة».

رفعَ ريشارد عينيه عن دفترِ الملاحظات خاصته.

«لعلكَ لم تسمعْ بشُبرت. ما من أحدٍ يعزف مؤلفاته الموسيقية الآن، وهي مكتوبةٌ للبيان القيثاري». توقف هنيهةً عن الكلام. «لقد أقام في باريس. كان مشهوراً في أوروبا كلِّها».

«ألا تعني شوبرت؟». قالت واندا.

«لا تجبها»، قال يوليان.

«أنا متأسفٌ إنه شُبرت»، قال هينريك.

وقف، أشعلَ غليوناً ببطء، وزرّر سترته، كما لو أنّه يتأهبُ للتنزه مشياً على الأقدام.

«وهكذا أخيراً»، قال ريشارد، «سوف تروي لنا قصةً».

«حسناً، هذه قصةٌ غير مُستساغة بكلّ معنى الكلمة». جلسَ هينريك مُجدداً. «إني أتساءلُ لماذا فكرتُ في سردِها لكم».

«هينريك، لا تعذبنا بأن تثير رغباتنا دون أن تنوي إشباعَها»، قالت مارينا.

ضَربَ هينريك غليونه بأسفل جزمته مُحدِثاً صَوتاً مُدوّياً. «هل يُحتمل»، قال، «إني متعطشٌ قليلاً؟». جلبتْ له يوزفينا قنينةَ العرق.

أخذَ رشفةً. «شجاعة»، قالت مارينا.

نظرَ هينريك هنا وهناك إلى مستمعيه المترقّبين وابتسم.

«طيب، يبدو أن هذا الرجل، هذا الرجل الثمين، هذا الفنان المثير للإعجاب، كان مولَعاً وَلَعاً شديداً بالفطر، ولهذا نظّم نزهة نهارية في الريف. في اعتقادي إنها كانت غابة سان – جرمان – آن – له[1]، لا يهمّ، مع زوجته، وأكبر ابنيه الصغيرين، وأربعةِ أصدقاء، من بينهم كان هنالك طبيب. وصلوا في عربتين إلى حافةِ الغابة، ترجّلوا، وشرعوا يسيرون مشياً على أقدامهم. بدأ شُبرت يبحثُ عن الفطر، وخلال سحابةِ النهار التقطَ ما ظنَّ أنه أفضل أنواع الفطر ملءَ سلّة. في وقتِ الأصيل، مضت المجموعة إلى [مارلي]، إلى خان حيث كان شُبرت معروفاً هناك، وطلبوا أن يعدّوا لهم عشاءً وأن يطهوا لهم الفطر مع الطعام. نظرَ طاهي الخان إلى الفطر، أكّد لضيوفِه أن الفطرَ الذي أحضروه من النوع غير الصالح، وحتى إنه رفضَ أن يمسَّه. أخبر شُبرت الطاهي أن يفعلَ ما طلبوهُ منه. لكن هل كان الفطرُ فعلاً من النوع غير الصالح، سألَ أحد الأصدقاء. كلامٌ فارغ، قال الصديق الذي يمتهنُ الطب. غضبوا من عنادِ الطاهي، مع أنّهم بالطبع هم الذين كانوا عنيدين، غادروا الخانَ ودلفوا إلى خان في غابة بولونيا[2]، حيث رفضَ رئيس النُّدُل أيضاً أن

1- سان – جرمان – آن – له (بالفرنسية Saint-Germain-en-Laye): هي بلدة تقع في فرنسا في الإيفلين (إقليم فرنسي)، يُقدر عدد سكانها بـ 43,015 نسمة ومساحتها 48.27 كم مربعاً وترتفع عن سطح البحر 78 متراً.– م.

2- غابة بولونيا (بالفرنسية Bois de Boulogne) هي حديقة تقع غرب باريس، بالقرب من ضاحية «بولونيا-بيلانكور». تبلغ مساحتها 8.5 كم مربعاً، يوجد فيها بحيرة مفضلة لعشاق الرومانسية، والجوّ اللطيف، وكذلك يمارس أغلب السكان فيها رياضة

يعدَّ الفطر لهم. كانوا عنيدين أكثر من أيّ وقتٍ مضى، لأن الطبيب أصرَّ على أن الفطر كان جيداً وصالحاً للأكل، ولهذا غادروا ذلك الخان ثانيةً.

«إنهم يتجهون نحو كارثة»، قال ريشارد.

كان الليل يخيّم واعترفَ الجميع أنهم يتضوّرون جوعاً، عادوا إلى باريس، إلى منزل شُبرت. وهناك أعطى الفطر إلى خادمتِه كي تطهوه للعشاء ــــ

«أوه، قالت واندا».

وسبعتُهم، بمَن فيهم الطبيبُ الذي زعمَ أنه يعرفُ كلَّ ما يتعلقُ بالفطر، وكذلك الخادمة، التي لا بدَّ أنها تناولتْ كميةً قليلةً من الفطر فيما هي تطهو، والكلب، الذي لا بدَّ أنه توسّلَ إلى الخادمة كي يتذوق، تسمموا. بما أنّهم استسلموا سويةً، لم يكنْ هنالك أحدٌ كي يقدّم لهم العون حتى منتصف اليوم التالي، وكان يوم أربعاء، حين وصلَ أحد طلاب شُبرت كي يتلقّى درسَه، حيث وجدَهم الأخيرُ يتقلّبون هنا وهناك مكابدين الألم العظيم على الأرضية المفروشة بقطعٍ خشبيّة مزخرفة. لم يكنْ بالمستطاع القيام بشيءٍ ما لهم. الطفل الذي كانَ في سن الخامسة، مات أولاً. شُبرت ظلَّ على قيد الحياة حتى يوم الجمعة. زوجتُه لم تفارق الحياة حتى الاثنين التالي. عاشَ اثنان منهم عشرةَ أيامٍ أخرى. من بين أفراد أسرة شُبرت الصغيرة الطفلُ ذو الأعوام الثلاثة، الذي لم يذهبْ معهم في نزهتهم وكان نائماً حينَ رجعوا، هو وحدَه الذي بقيَ على قيد الحياة».

ضحك پيوتر بصوتٍ عالٍ.

«اذهبْ إلى الداخل واغسلْ يديك، پيوتر»، قال بوغدان.

استمرَّ الصبيّ في دفع قطاراته هنا وهناك. «تصادمْ!». قال. «إنه تحطّم قطار».

«پيوتر!».

المشي، والجري في جنبات الحديقة، ويمرّ بها نهر السين، ولقد عدل مجرى نهر السين بحيث يدخل في وسط العاصمة باريس ويشقها بالنصف تماماً – م.

«يا لها من قصةٍ رهيبة»، قال ياكوب، الذي كان واقفاً في المدخل الإسفيني[1] للكوخ. كان يتعينُ عليهم حصراً أن يُنصتوا للطاهي في الخانِ الأول، أو لرئيس النُّدُل في الخان الثاني.

«الخَدَم؟». هتفَ ريشارد. «مَن منهم لم يشعرْ بأنه أعلى منزلةً من الخَدَم؟ إنها قصة مثاليةٌ عن النظام القديم»[2].

«تخيّل أن تضع ثقةً كهذه في طبيب»، قال هينريك.

«تخيّل طبيباً واثقاً جدّاً من كونِه خبيراً في الفطر»، قال ريشارد.

«إلّا أنّ شُبرت كان مولعاً جدّاً بالفطر»، قال بوغدان. «إنها غلطةُ شُبرت. هو ربُّ الأسرة، وهو المسؤولُ عن الرحلة القصيرة؟».

«لكن الطبيب»، قالت واندا. «رجلُ علم».

«بينما كنتُ أعتقد أن عليَّ أن أحفظ أوهامَ زوجتي عن رجالِ العلم»، قال يوليان، «الحقيقة هي، أن الاثنين يقع عليهما اللومُ بالتساوي».

«كلّا، المسؤولية هي مسؤولية شُبرت»، قالت يوزفينا. «لا أحدَ كان يريد أن يعارضه. فكرْ في قوةِ شخصيتِه. موسيقيٌّ عظيم، رجلٌ مَحطّ إعجاب الجميع...». «ماذا تعتقد؟». قال تاديوش، وهو أولُ مَن شعر بعدم الراحة لأن مارينا لم تشتركْ في النقاش. هزتْ رأسها. «إذا ما قال أحدُهم إن الفطر الذي التقطناه مسمومٌ لكنك تُريدين أن تأكليه ــــ».

«يقيناً إنكَ لا تطيعني».

«ربما أطيعكِ».

«براڤو»، قال هينريك.

نظرَ الجميع بترقّب إلى مارينا.

«لكني لستُ عنيدةً جدّاً»، صاحتْ. «أنا لن أصرَّ على تناولِ الفطر حين

1- الإسفيني pegged: واسع من الأعلى وضيق من الأسفل – م.

2- النظام القديم (وردتْ بالفرنسية ancien régime): يشير أساساً إلى النظام الأرستقراطي، والسياسي والاجتماعي الذي نشأ في فرنسا في الفترة من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر – م.

يقول أحدُهم إنه مسموم». توقفتْ هنيهةً عن الكلام. «ماذا تحسبونني؟». (ماذا يحسبونها؟ مِلكتَهم). «أوه، أصدقائي الأعزاء، صديقاتي العزيزات...».

لم تكنْ لدى مارينا رغبةٌ في المكوث بعد مطلع حزيران / يونيو، حين يصلُ أول سيّاح الصيف. أمضى الرجالُ ساعاتِهم الأخيرةَ في القرية وهم يبتاعون بطانيات جلد الخروف وست فؤوس قصيرة اليد مصنوعة بمهارةٍ وثبات ويُمكنها أن تؤدي دوراً إضافيّاً بوصفها أسلحة لسكانِ الهضبة. لمّا رجعتْ إلى كراكوڤ زارتْ ستيفان، وقد أمسى منظره الآن مثيراً للهَلَع، إذ بات أكثر شحوباً وأنحف، قبل أن تواصلَ رحلتها مع بوغدان وپيوتر، صحبة ريشارد وتاديوش، إلى وارسو. وهناك عَرفَ تاديوش أنه أخيراً سوف يُعطى عقد عمل لدى «المسرح الإمبراطوري»، الذين، كانت ماريا تدركُ أنه خاف من كونهِ خيّبَ أملَها، أشاروا إليه بحرارةٍ بأن يوافق، وأن يتخلّى تماماً عن فكرة عدم الانضمام إليهم. كان لها الشرفُ بأن تصاحب تاديوش حين وقّعَ العقد، وظلتْ هناك حين دارَ حديثٌ هادئ عن خططِها الخاصة مع تهديدات «المسرح الإمبراطوري»، مدير الفرقة العطوف، الذي لم يسمعْ شيئاً سوى إجازة مدّة سنة بسبب الغياب، لا أكثر. كان بوغدان منشغلاً بجمعِ المبلغ الذي كانوا يحتاجونه لمغامرتهم الكبرى، وهذا الأمر زوَّدَ المخبر السري المخصص لمتابعته في الأمكنة كلِّها بلائحةٍ جديدةٍ من الأسماء للمخبرين السريين الآخرين كي يتابعوهم: أولئك الذين أقبلوا كي يُلقوا نظرةً على شقتِهم وأثاثِها، تلك الشقة التي عَرَضَها بوغدان للبيع.

في بحر أسبوعين، على أية حال، كانوا يسارعون للعودة إلى كراكوڤ لأن ستيفان، الذي انفصل عن زوجتِهِ منذ أمدٍ بعيد، لم يكنْ قادراً الآن على العنايةِ بنفسِهِ على الإطلاق وعادَ إلى شقةِ أُمهما. في مساءِ وصولهم أغمضَ ستيفان عينيه وبتنهيدةٍ عالية، تَشقلبَ منحدراً نحو غيبوبةٍ عميقة. وفيما كانت جاثيةً على ركبتيها بجوارِ سريره، لامستْ شفتا مارينا جبينَه ونَشجتْ دون صوت. كان الوجهُ النديّ على الوسادة صبيانيّاً بنحوٍ مخيف، بارزَ العظام،

كما رأته أوّل مرةٍ على خشبةِ أحد المسارح، دون أن تتعرّف إلى الصديق المحبوب للاثنين: دون كارلوس ووالده الشرير؛ وجهُ الشاب الوسيم بنحوٍ بهيّ الذي أحبتْه إلى درجةِ العبادة بوصفِهِ طفلاً صغيراً. إنه شيءٌ لا يُصدّق أن يفكرَ المرءُ أن أوانَ وفاتِه قد حان!

كانت الحزنُ قد قَهَرَ الأم وشلَّ قواها، كتبتْ إلى ريشارد، إلّا أنّ آدمَ كانَ هناك، ويوزفينا، وأندريتش، وياريك الصغير. هينريك، الذي لم يغادرْنا قط، عَمِلَ ما بوسعِهِ، إلّا أنّه لم يكنْ قادراً على أن يَستبقي شقيقي الغالي العنيد. ضممتُه بين ذراعيَّ طوالَ الليل، كان جسدُهُ يبدو متيبساً وخفيفاً كالعيدان التي تُضرم بها النار فيما كان الدمُ ينزُّ منسكباً من فمه، وبعدها لفظَ أنفاسَه الأخيرة.

كان موتُ ستيفان هو أيضاً بمنزلة وداع مارينا لأسرتها.

بوغدان، هو الآخر، كان ينبغي لَه أن يقومَ بزيارةِ وداع: كان أفرادُ أسرتِه أصحاب أرضٍ أثرياء، يقيمون في ممتلكاتٍ واسعةٍ في غرب بولندا الخاضع للحُكم البروسي. كانت مارينا في عزبة ديمبوڤيسكي الرئيسة ذاتَ مرة، في العام 1870، بعد أن قبلتْ طلبَ بوغدان يدَها للزواج ـــــ إنما لا لكي تبقى، لأن إغناسي، شقيق بوغدان الأكبر سنّاً، وزعيمُ الأسرة، رفضَ حتى اللقاء بها، في حين كان يقول لبوغدان إنه، بالطبع، سوف يُرحّبُ به دوماً بذراعين مفتوحتين على وسعهما. استأجرا غرفتين في خانٍ قريب.

قبل أن يغادرا بعد مرورِ يومين، أحضرَ بوغدان مارينا إلى قصرِ العزبة ذي الأعمدة البيض كي تقابلَ جدتَه، التي كانت قد أرسلتْ كلمةً له بأنها، بطبيعة الحال، لا تعارض زواجَه. وفيما كان بوغدان يعتصرُ يدَ زوجتِه، جرّها من غرفةٍ إلى غرفة على الأرضيات الخشبيةِ الصقيلةِ اللامعة (كانت تتذكرُ بريقَها) كما لو أنّهما طفلان سيئا السلوك، يهربان من شخصٍ بالغ غاضب جدّاً بنحوٍ مُنصف، أو طفلان لَحَقَ بهما العار، يهربان من فردٍ بالغ استبداديّ مائل للقسوة ـــــ كان يخافُ خوفاً شديداً من المجيء إلى شقيقِهِ في واحدةٍ

من تلك الحجرات الكبيرة، القليلة الأثاث. بوغدان على عَجلةٍ من أمره، يلهثُ، بدا كما لو أنّه انحدرَ تدريجياً إلى سرعةِ تأثّر مُزعجةٍ في هذا المنزل حيث كان طفلاً في سالفِ الزمان. لم تشأْ مارينا أن تحسَّ بأنها كالطفلة. كان الأمر جزئيّاً كي لا تحس بأنها كالطفلة، أبداً، هي التي أصبحتْ ممثلةً.

وصلا إلى غرفةِ الجلوس العلويّة العائدة لجدتِه. أحنى بوغدان ركبتَه وقبّل يدَها، وبعدها جثا على ركبتيه وجعلها تعانقُ رأسَه. أما مارينا الواقفةُ وراءَه فقد انحنتْ باحترام؛ لم تكنْ، بنحوٍ واضح، انحناءةَ الاحترام الخاصة بخشبةِ المسرح، وبدورها قبّلتْ يدَ المرأةِ العجوز. وبعدها تركهما بوغدان وحدَهما.

لم يحدثْ أن قابلتْ مارينا أيَّ أحدٍ من مثل جدّة بوغدان. وُلدتْ في العام 1791، قبل عام من «التقسيم الثاني»[1]، لمّا كان الملكُ الأخير لبولندا، ستانسواف أوغست پونياتوڤسكي، ما يزال على العرش، كانتْ قد عاشَتْ عَهداً بعيداً، متحرِّراً أكثر من العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة. كانت تعتقدُ أن أحفادَها، ربما عدا بوغدان، هم حمقى. في المقام الأول، إغناسي، الأكبر سنّاً ـــ كما شَرحتْ لمارينا بإشارةٍ سريعةٍ مع طرفة بعينها الدامعة.

إنه مُتزمتٌ، عزيزتي[2]، هذا هو كلُّ ما في الموضوع. مُتزمتٌ مُخيف. ولا تتوقعي أن يلينَ ويغيّرَ آراءَه أو وجهاتِ نظرِه. كانت صحة شقيقه الأصغر لا تساوي شيئاً بالنسبةِ له مقارنةً بفكرة عقيمة تتعلقُ بكرامةِ الأسرة. ألهذِهِ النتيجة وصلتْ طبقتُنا الأرستقراطية البولندية الجسورة، القوية؟ نتيجةٌ مثيرةٌ

1- التقسيم الثاني the Second Partition: التقسيم الثاني لبولندا كان الجزء الثاني من ثلاثة أجزاء لعملية تقسيم بولندا التي أنهت وجود الكومنولث البولندي الليتواني بحلول العام 1795. وحدث التقسيم الثاني في أعقاب الحرب البولندية الروسية لعام 1792 وكونفدرالية تارغوفيتسكا في العام 1792. ووافق عليه المستفيدون الإقليميون، الإمبراطورية الروسية ومملكة بروسيا. تمّ التصديق على هذا التقسيم من قبل البرلمان البولندي (سيم) في العام 1793 في محاولة قصيرة الأجل لمنع الضم الكامل الذي لا مفّر منه لبولندا والذي حدث في التقسيم الثالث – م.

2- عزيزتي: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي ma chère – م.

للقرف! لا أكاد أصدّق أن لي صلة بهذا الأحمق المنافِق، المتظاهر بالتقوى، الذي يعبد أم - الرب. إنما لديك هناك، *طفلتي*[1]. الأزمنة الحديثة. *ماذا تريدون*[2]؟ وهو يسمّي نفسَه ابنَ الكنيسة. بقَدَر ما أفهم، كان يسوع المسيح ينظر فعلاً باستحسانٍ للحُبّ الأخويَ. الآن أنتِ ترينَ الوجهَ الحقيقيّ لعقيدتِنا المُضحِكة. أليستْ هي بهجةٌ مسيحيّةٌ أن امرأةً فاتنةً بارعةً مثلكِ وصلتْ كي تُسعِدَ شقيقه؟ *لكن لا*[3]. أنتَ حقيقةً تجعلينه سعيداً، أتمنى ذلك. أنتِ تَعرفينَ ما أعني بكلمة [سعيد]؟.

كانت مارينا مندهشةً من احتقارِ العجوز للعقيدة ــــ لم يسبقْ لها أن سَمعتْ أحداً يلومُ أو يشجبُ الكنيسة ــــ أكثر من دهشتِها من السؤال غير المرتبط بالموضوع الذي أطلقتْهُ في نهاية خُطبتِها المُسهَبة العنيفة. كان بوغدان قد ذكرَ أن جدتَهُ عُرفتْ بكونها اتخذتْ عشاقاً كثيرين خلال حقبة زواجِها الطويلة، الحافلة بالخِصام، من الرجل صاحب السيف، الجنرال ديمبوڤيسكي. كانت تعتقدُ أنَّ من حقِها ألّا تردّ، حشّدتْ مارينا تورّداً لائقاً، متواضعاً: كان بوسعِها أن تتورّدَ خجلاً بالسهولةِ نفسِها التي تبكي فيها في دفاعٍ داخلي. غير أن السيدةَ العجوز لم تكنْ لتتملّص من الموضوع.

«حقاً؟». قالت.

استسلمتْ مارينا. «سوف أحاولُ بالطبع».

«آه. أنتِ تحاولين».

مارينا لم تحاولْ، لم تشأْ، أن تجيبَها هذه المرة.

المحاولةُ هي جزءٌ صغير جدّاً من الأمر، *عزيزتي*[4]. الجاذبيةُ موجودةٌ أو غير موجودة. أنا أعتقدُ بما أنّكِ ممثلة، فلا بدّ أنكِ تعرفينَ كلَّ ما يتعلّق بهذه القضايا. لا تقولي لي إن الممثلاتِ لا يستأهلن بأيّ حالٍ من الأحوال

1- طفلتي: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي mon enfant - م.
2- ماذا تريدون: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي Que voulez-vous - م.
3- لكن لا: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي Mais non - م.
4- عزيزتي: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي ma chère - م.

شهرتَهن الشيّقة؟ قليلاً فقط؟ تعالي الآن؟ ـــ كَشفتْ لثتَها الدرداء ـــ «أنتِ خيبّتِ أملي».

«أنا لا أريد أن أخيّب أَملَكِ»، أجابتْ مارينا بدفء.

«طيب! لأن ثمة شيئاً يُقلقُني فيما يتعلق ببوغدان. *إنه شيء خطير*[1]. يمكن *أن يكون خطيراً جدّاً*[2]. بطبيعة الحال، هو ذكيٌّ جدّاً كي يحسبَ نفسه ميّالاً لأن ينبطحَ أمام القساوسةِ الجهلةِ الذين يتمتمونَ بلاتينيةٍ بربريّة. على العكس من إغناسي، بوغدان لديه عقل. إنه يمتلكُ وسائلَ روح مُتحرّرة. ولهذا السبب وَقعَ اختيارُهُ عليكِ. إنما مع ذلك، أنا قلقةٌ عليه. لم يكنْ لديه أعمالٌ عبثيّةٌ على غرارِ شقيقِه أو على غرارِ الشبان الآخرين في حلقتِه. والعفة، *ابنتي*[3]، هي واحدةٌ من الرذائل الكبيرة. أن يكونَ في سن الثامنة والعشرين وما يزالُ لا يعرف شيئاً عن النساء! أنتِ لديكِ مسؤوليةٌ كبيرة. إنه أحد العيوب التي وبختُهُ عليها، لكنكِ وصلتِ كي تُصحِّحي ذلك، إلّا إذا بالطبع، الأمر الذي سيفسّر اللغز، لأنه يوجد رجالٌ من هذا الطراز، كما يجب أن تعرفي، كونُه من العاملين في المسرح، ـــ».

«إنه مغرمٌ بي حقيقةً»، قاطعتْها مارينا، وهي تستشعرُ طعنةَ قلق. «وأنا أُحبُّه أيضاً».

«أرى أَني أزعجتكِ بصراحتي».

«ربما. لكنكِ شرفتِني بثقتِكِ. يقيناً ما كنتِ لتقولي هذِهِ الأشياء لي ما لم تُؤمني أني أُحبُّ بوغدان وأنوي بأن أفعلَ كلَّ ما بوسعي كي أكون زوجةً صالحةً له».

«أنتِ تتكلمينَ بنحوٍ جميل، طفلتي. مراوغةٌ ساحِرة. حسناً، لن أضغطَ عليكِ في ما يخصُّ هذه المسألة. فقط عِديني بألّا تهجريه حين يكفُّ عن

1- إنه شيء خطير: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي C'est un sérieux – م.

2- يمكن أن يكون خطيراً جدّاً: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي Trop sérieux peut - être – م.

3- ابنتي: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي ma fille – م.

إسعادِكِ ــــ لأنه سوف يفعلُ ذلك، أنتِ تملكينَ روحاً قلقةً، وهو ليس بالرجل الذي يعرفُ كيف يمتلكُ المرأةَ كلياً ــــ أو حين تقعينَ في حُبّ شخصٍ آخر.

«أعدُكِ»، قالت مارينا. جثتْ على ركبتيها وطأطأتْ رأسها.

انفجرت السيدة العجوز بالضحك. «انهضي، انهضي! لستِ على خشبةِ المسرح. بالطبع وعدُكِ لا يساوي شيئاً». امتدتْ يدٌ ناتئة العظام وقبضتْ على ذراعها. «إنما مع ذلك، سأجعلُكِ تلتزمين بهذا الوَعد».

«*جدتي؟*»[1]. كان بوغدان عند الباب.

«*مَن، يا بني، ادخلْ*[2]. لقد انتهيتُ من عروسِكَ، ويمكنكَ أن تأخذَها مع العلم أني كنتُ مسرورةً جدّاً معها. قد تكونُ نافعةً جدّاً لك. يمكنكما أن تزوراني مرةً واحدةً سنوياً، و*تذكّر*[3]، إلّا إذا سافر شقيقُكَ. سوف تتلقى رسالةً مني متى يكون بمستطاعِكَ المجيء».

كانت مارينا غاضبةً لا لأنها عُدّتْ زوجةً ذات قيمة لبوغدان لأن أسرته كانت... ماذا؟ كونها أرملة؟ لم يكنْ بوسعهم أن يعرفوا أن هينريش لم يكنْ قادراً على الزواج بها أو أنه لم يكنْ ميتاً؛ إذ قرّرَ العودة إلى بروسيا، لأن صحتَهُ ضعيفةٌ، كان قد أعطى وعدَهُ، آمنتْ هي أن وعدَهُ صادقٌ، بألّا يدخل حياتها مرةً أخرى. هل لديهما طفل؟ هل كان باستطاعتِهما أن يكونا حقيرين جدّاً كي يشكا بأن الراحل زويزوڤيسكي، زوجُها، لم يكنْ والد پيوتر؟ إلّا أنّه كان والده فعلاً! لا، كانت متأكدةً من أن السببَ هو استهجان إغناسي شَغَفَ شقيقِهِ الأصغر المستمرّ مدى الحياة بالمسرح. إنه شيءٌ سارّ إذا جاز التعبير أن الدوقة دواغر ديمبوڤيسكا لم تشاطر الأسرة ازدراءَها للممثلة، كانت مارينا تعرفُ أنها ما لم تنلْ قبولاً من الأخ الأكبر لن يقبلَها الآخرون. كانت

1- جدتي: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي Grand- mère – م.

2- مَن، يا بني، ادخلْ: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي Qui, entre mon garçon – م.

3- تذكر: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي rappelle- toi– م.

مارينا تعتقدُ أن السيّدةَ العجوز المميّزة لها بعضُ التأثير على إغناسي ـــ لكنها إما أنّها احتقرتْ أو لم تحتقر استخدامَ هذا التأثير، ولم تَرَها مارينا ثانيةً. كلّما يُستدعى بوغدان لزيارتِه السنوية، تكون مارينا في منتصفِ الموسمِ المسرحيّ في وارسو أو في جولةٍ للعروض المسرحيّة.

لم يرضوا عنها قط. في خاتمةِ المطاف، كانت قد حازتْ حُبَّ شقيقةِ خادمة بوغدان إيزابيلا، غير أن معارضةَ إغناسيو اشتدتْ مع مرور الزمن، ولم يعدْ لبوغدان أيَّ صلةٍ بأخيه، كان الزهو والكبرياء يُمليان عليه حتى أن يرفضَ، من بين دخلِهِ الماليّ ممتلكاتِ الأسرة المتنوّعة، كانت حصتُه من العزبة يديرُها إغناسيو. إلّا أنّ بوغدان لم يكنْ لديه خيارٌ عدا المطالبةِ بتخصيصِ مبلغٍ مناسبٍ من هذا المال الآن. كَتبَ إلى إغناسيو شارحاً له سببَ وصولِهِ الوشيك. استثمار، قال. استثمارٌ ممتاز. كتبَ إلى جدّتِه يطلبُ موافقتها على زيارةٍ غير مُبرمَجة. قالت مارينا إنها كانت تتمنّى أن تقول وداعاً لجدتِهِ، هي أيضاً.

ما إن وصلا واستقرا في حجرتيهما في الخان، حتى استأجر الاثنان، بوغدان ومارينا، عربةً توجّهتْ بهما إلى قصرِ العزبة. أخبرَ القهرمان الرئيس بوغدان أن الكونت سوف يستقبلُهُ في غضون ساعة في مكتب العزبة، وأن الكونتيسة دواغر في المكتبة.

وجداها متدثرةً بالشالات في كرسيّ عميقٍ مرتفع تقرأ. «أنتَ»، قالت مخاطبةً بوغدان. كانت تلبسُ غطاء رأسٍ أبيض من المُخرّمات وثمة بقعٌ من أحمر التجميل على وجهِها المتغضّن المليء بالعُقد. «لا أدري ما إذا تأخرتُما أم أتيتُما مبكراً. أعتقد أنكما تأخرتُما».

تلَعثَمَ بوغدان. «لا أحسب ـــ».

«إنما لم تتأخرا كثيراً».

كانت بجوارها طاولةٌ واطئةٌ ذات كأسٍ طويلة تحتوي على شيء ثخين وأبيض لم تتمكن مارينا من التعرّف عليه إلى أن جلبا هي وبوغدان كأسيهما: كانت بيرة حارّة مع الكرِيم ومقادير قليلةٍ من الجبن الأبيض المُقطّع تقطيعاً

صغيراً جدّاً تطفو عليها. «*نخب صحتكما*[1]، *أعزائي*»[2]، تمتمت المرأة العجوز، ورفعتْ كأسَها إلى فمِها الغائر. بعدها، فيما كانت تنظرُ إلى مارينا، عبستْ.

«أنتِ في حِداد».

«شقيقي». وهي تستذكرُ أسلوب التصريح الوقح للقديسة دواغر، أضافتْ مارينا قائلةً، «شقيقي الأثير».

«وكم كانَ عُمرُه؟ لا بدَّ أنه كان يافعاً جدّاً».

«لا، كان في الثامنة والأربعين».

«شاب!».

«كنا نعرف أن ستيفان مريضٌ جدّاً ومن المُستبعَد أن يتماثل للشفاء، مع أنّ المرء بالطبع غير مستعد فعلاً لأن ـــ».

«لا يكون المرء مُستعدّاً فعلاً لأيّ شيء. حقّاً. غير أن موتَ أيّ إنسان هو دوماً تحريرٌ لإنسان آخر. على العكس مما يُقال عادةً، *الحياة طويلة*[3]. *كما تعلمين*[4]، أنا لا أتحدّث عن نفسي. إنها طويلةٌ جدّاً بالنسبة للذين لا يحققون أيَّ طولَ عمرٍ مثيرٍ للدهشة. ثم، *أولادي*[5]ـــ كانت تنظر فقط إلى بوغدان ـــ هو ذا ما أودُّ أن أقولَه لكَ: إني أحب حماقتَك، *إنها مناسبة لكَ*[6]. لكن هل يمكنُني أن أسألَ لماذا؟».

«أسبابٌ كثيرة»، قال بوغدان.

«نعم، كثيرة»، قالت مارينا.

«كثيرةٌ جدّاً، على ما أعتقد. طيّب، سوف تجدُ السببَ الحقيقيّ *في الطريق*»[7]. بغتةً انحنى رأسها للأمام، كما لو أنّ النعاسَ قد غالبَها، أو...

1- نخب صحتكما: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي A votre santé– م.

2- أعزائي: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي mes chers– م.

3- الحياة طويلة: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي la vie est longue – م.

4- كما تعلمين: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي Figurez – vous – م.

5- ثم، أولادي: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي Alors, mes enfants – م.

6- إنها مناسبة لك: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي çela vous convient – م.

7- في الطريق: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي sur la route – م.

«بوغدان؟». همستْ مارينا.

«نعم!». ـــ كانت قد فتحتْ عينيها ـــ«حياةٌ طويلةٌ نضيّعها بكل معنى الكلمة على أناسٍ، معظمهم سرعان ما يفقدون حماستَهم أو أحلامَهم، ومع ذلك لا يزالون يملكونَ كلَّ تلك الأعوام أمامَهم. الآن، بدايةٌ جديدة، ستكون حتماً شيئاً ذا بال، شيئاً نادراً. ما لم تتمكنْ، كما يفعلُ الناس عادةً، من أن تحوِّلَ حياتَك الجديدة إلى حياةٍ قديمة».

«أعتقد»، قال بوغدان، «أن ثمةَ فرصة قليلة لتلك الحياة».

«أنتَ لا تغدو أذكى قط»، قالت جدّتُه. «أيَّ نوعٍ من الكتب تطالعها راهناً؟».

«كُتبٌ عمليّة»، أجاب بوغدان. «كُتب عن حقول الدواب، عن زراعة الكروم، عن النجارة، عن معالجة التربة[1]، عن ـــ».

«يا للأسف».

«إنه يقرأُ الشعر معي»، قالت مارينا. «نحن نقرأ شكسبير معاً».

«لا تدافعي عنه. إنه ليس بالأبله. أنتِ نفسكِ لستِ ذكيةً جدّاً، في الأقل أنتِ لم تكوني كذلك حين قابلتكِ قبل ستة أعوام خَلتْ، والآن أنتِ أذكى منه».

مالَ بوغدان على جدّتِه وقبّلها برقةٍ في خدِّها. يدٌ صغيرةٌ جدّاً شوّهها التهابُ المفاصل امتدتْ وراحتْ تربّتُ على قمةٍ رأسه.

«إنه الشخصُ الوحيد الذي أُحبّه»، قالت لمارينا.

«أعرفُ هذا. وأنتِ الشخصُ الوحيد الذي يحزنُه أن يفارقكِ».

«كلامٌ فارغ!».

«جدّتي[2]!». صاح بوغدان.

1- معالجة التربة soil management: إجراءات وممارسات من شأنها أن تحمي التربة وتسرّع أداءها (من مثل خصوبة التربة وميكانيكا التربة) – م.

2- جدتي: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي Bonne maman – م.

«*ليس لديك مشاعر*[1]، *أنت لا تجرؤ*[2]. إذن، *أيها العزيزان المعتوهان*[3]، لقد آنَ الأوان لكما كي ترحلا. لن نلتقي ثانيةً».

«لكني سأعودُ!».

«وسأكونُ قد غادرتُ العالم دون رجعة». أرختْ يدَها اليمنى، وتطلّعتْ إلى راحتِها، وبعدها رفعتْها ببطء. «بركات امرأةٍ كافرةٍ عليكما، أولادي». نكّستْ مارينا رأسَها. «ثانيةً! ثانيةً!». قالت السيّدةُ العجوز بمَرَح. «وبعض النصائح، نعم؟ لا تفعلا قط أيَّ شيءٍ انطلاقاً من اليأس. *واستمعا إليّ*[4]، لا تخترعا أسباباً كثيرةً جدّاً لما قررتما القيام به!».

«جميع الناس يتساءلون لماذا نسافر». خاطبتْ مارينا نفسَها. «دعيهم يتساءلون. دعيهم يخترعونَ الأسبابَ. ألا يروون دوماً الأكاذيب والافتراءات عني؟ أنا، أيضاً، يمكنني أن أكذبَ. أنا غير مدينة لأيّ فردٍ بتفسيرٍ ما».

«بيد أن الآخرين يحتاجون إلى الأسبابَ، أو هكذا يقولونَ لأنفسِهم».

«لأنها زوجتي، ويتعين عليَّ أن أرعاها. لأنه بمستطاعي أن أُظهرَ لشقيقي أني رجلٌ عمليّ، ابنٌ بارّ للأرض، لستُ فقط عاشقاً للمسرح ومُحرراً لدى صحيفةٍ وطنيّةٍ سرعان ما أغلقتْها السلطات. لأني لا أستطيع أن أحتملَ أن يلاحقني البوليس على الدوام».

«لأني رجلٌ فضوليّ، هذه هي مهنتي، هذا ما يجبُ أن يكون عليه الصحافي، لأني أريد أن أسافرَ، ولأني مُغرمٌ بها، لأني شاب، ولأني أحبُّ هذه البلاد، ولأني أحتاجُ إلى أن أهربَ من هذه البلاد، ولأني أُحبُّ أن أصيدَ الحيوانات، ولأن نينا تقول إنها حامل وتتوقعني أن أتزوّجها، لأني قرأتُ

1- ليس لديك مشاعر: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي pas de sentiment – م.

2- أنت لا تجرؤ: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي Je te défends – م.

3- إذن، أيها العزيزان المعتوهان: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي Alors, mes chers imbéciles – م.

4- استمعا إليّ: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي écoutez-moi bien – م.

كتباً كثيرةً جدّاً عن ذلك، فينيمور كووبر[1] وميني ريد[2] وبقية المؤلفين، لأني أنوي أن أكتبَ كتباً عظيمةً كثيرة، لأنه...».

«لأنها أمي وقد وعدتني بأن تأخذني إلى [المعرض المئوي][3]، مهما كانَ نوعُ هذا المعرض».

«لأني، بوصفي فتاةً بسيطةً، خادمتها. لأني من بين جميع المُرشّحات الأُخريات في دار الأيتام، أجملهن وأكثرهن مهارةً في الطهي والخياطة، وقع اختيارها عليَّ».

«لأنه هناك يولدُ المستقبل».

«لأن زوجي يريد أن يذهب».

«لأنه ربما لا يمكنني أن أبقى بولندية فقط، حتى هناك، إلّا أنّي لن أكون يهوديةً فقط».

«لأني أريدُ العيشَ في بلادٍ حرّة».

«لأن الحياة هناك ستكون أفضل للأولاد».

«لأنها محضُ مغامرة».

1- جيمس فينيمور كوبر James Fenimore Cooper (1789 – 1851) : هو كاتب وروائي أمريكي غزير الإنتاج في مرحلة مبكرة من القرن التاسع عشر. رواياته الرومانسية التاريخية عن الحياة الهندية في بداية التاريخ الأمريكي، صنعت شكلاً مميزاً من الأدب الأمريكي. عاش معظم حياته في كوبرزتاون في ولاية نيويورك، التي أُنشئت من قبل والده ويليام – م.

2- مين ريد (توماس) Thomas Mayne Reid (1818 – 1883): روائي أمريكي من أصل اسكتلندي – إيرلندي. شارك في الحرب الأمريكية – المكسيكية (1846 – 1848) لمّا كان في سن العشرين. ألّف روايات كثيرة عن الحياة الأمريكية. في هذه الأعمال وصف المؤلفُ السياسة الاستعمارية للولايات المتحدة، وفظاعات أعمال العبيد وحياة الهنود الأمريكيين – م.

3- المعرض المئوي Centennial Exposition: أول معرض عالمي أُقيم في الولايات المتحدة، في فيلادلفيا، بنسلفانيا، للمدة من 10 أيار / مايو إلى 10 تشرين الثاني / نوفمبر 1876، للاحتفال بالذكرية المئوية لتوقيع «إعلان الاستقلال» في فيلادلفيا. حضر المعرض ما يقارب عشرة ملايين زائر وشارك فيه سبعة وثلاثون بلداً – م.

«لأن البشرَ يجب أن يعيشوا في وِئام، كما يقول فورييه مع أنّه ـــ لا بدّ أن يكونَ أرقى كثيراً من كل ما سمعته ـــ أنا أعترفُ أني في كلّ مرةٍ أحاول فيها أن أطالعَ مقالتَه عن العمل بوصفه مفتاحاً للسعادة البشرية عيناي تبدآن بـ ـــ»

«إذن انسَ ما يتعلّق بفورييه! شكسبير». قالت مارينا. «فكرْ في شكسبير».

«لكن يوجدُ كلُّ شيء في شكسبير».

«بالضبط. كما في أمريكا. كان المعنى من أمريكا أن تعني كلَّ شيء».

وبصوت خطابيّ لممثلٍ من الطراز القديم، صوتٌ يرغب بأن يُسمِعَ حتى الصفّ الأخير في أعلى شرفة من شرفات صالة المسرح:

«استعجلْ، استعجلْ. عشرات الأشخاص يتدفّقون مارين بكَ. التاريخُ يهدرُ، محوِّلاً نفسه إلى جغرافيا: أرضٌ مفتوحةٌ إلى أبعد ما يستطيع العقلُ أن يرى. حوذيو عرباتٍ مُغطاة يجلدونَ جيادَهم بالسياط كي تمضي قُدُماً، كما لو أنّ باستطاعتَهم أن يلحقوا بالقطارات التي تربط الساحلَين الآن ـــ ثمة عاصفةٌ من البصاق!».

وهكذا ذهبوا إلى أمريكا.

ثلاثة

ريشارد ويوليان ذهبا أولاً، كي يبحثا عن مكانٍ على الحافةِ الغربية من القارة يُلبي أحلامَ المهاجرين المستقبلية. في أواخر شهر حزيران / يونيو سافرا إلى ليڤرپول، وهو الميناء الرئيس للسفنِ الشهيرة التي ترفعُ العلم الأحمرَ المثلث الشكل ذا الذيل المشقوق كذيلِ السنونو مع النجمة البيضاء ذات الرؤوس الخمسة، إحدى هذه السفن كانتْ تغادرُ الميناءَ متجهةً نحو نيويورك كلَّ يومِ خميس، كانت البواخرُ الستُّ التابعة لـ«وايت ستار لاين» مخصصةً لعبور «شمال الأطلسي» حيث كان يُعلن عنها بوصفها الأوفرَ، والأسرعَ، والأكثر أَمناً؛ وتلك التي سجّلوا على حقِّ المرورِ على متنها، الـ«أس. أس. جيرمانيك»، كانت هي أيضاً الباخرةُ الأحدَث، وقد أُنشئتْ كي تحلَّ محلَّ الـ«*أتلانتك*»، التي ظهرتْ في العام 1873، بعد أن طاردتْها ريحٌ هوجاء قاتلة عبر المحيطِ كلِّه، إلى رقعةٍ من الجوّ الصافي واصطدمتْ رأساً برأس بالساحل الغرانيتي لـ«نوڤا سكوتيا»، آخذةً معها إلى الأسفل أحياءً بلَغَ عددُهم خمسة مئة وستة وأربعين: وهي أسوأُ كارثةٍ عبر الأطلسي خلال القرن، اثنا عشر ضعف عدد الذين فُقدوا قبل ستة شهور على متن «*دوتشلاند*» التابعة لخط «نورث جرمان لويد»، المُبحِرة من بريمرهيڤين.

«كما تعرفُ»، قال ريشارد، «إذا افترضنا أني نجوتُ بعد هذهِ الكارثة، كنتُ أُحبُّ بالأحرى أن أنجو خلال تحطّم السفينة».

«أما أنا فأخوض مغامراتي على اليابسة»، قال يوليان.

كانت فكرةُ يوليان أن يغادرا من ليڤرپول بدلاً من بريمرهيڤين، الميناء

المألوف للرحلات البولندية إلى أمريكا. كان قد قضى مرةً عاماً في إنكلترا وترأسَ الفقراتِ الرئيسة للحوار المُهذب بتلك اللغة المهمة، الصعبة التي تفتقرُ بشكلٍ غريب جدّاً إلى حالات النحو وإلى الجنوسة. ريشارد الذي كان يعملُ بجدٍّ ومثابرةٍ خلال الأشهر الأخيرة كي يكونَ ضليعاً بالإنكليزية، كان قد سافرَ إلى خارج بلاده مراتٍ قليلةً جدّاً: لقد عَرفَ ڤيينا، وبرلين، وسان بطرسبورغ، وهي عواصم أسياد بولندا. ريشارد، الذي كان يريدُ أن يُجرِّب كلَّ شيء، لم يزرْ إنكلترا من قبل.

كان سعيداً بمشاركتِه في هذه الرحلةِ البحريّة نحو المجهول؛ لم يكنْ يريدُ أن يتحمّلَ المسؤوليةَ وحدَه عن مَهمتِهما. إلّا أنّه تضايقَ من الطريقةِ التي تولّى فيها يوليان الودودُ بنحوٍ لا يلين، الذي يكبرُهُ بعشرةِ أعوام، والمسافرُ الأكفأ، ببساطةٍ مسؤوليةَ تنظيماتهما وتجاربهما: تقديم ريشارد إلى الهباتِ السخيّة لفطورٍ إنكليزيّ، أعطى محاضرةً لريشارد بشأنِ الحالةِ المُزرية التي تعيشُها الطبقةُ العاملةُ الإنكليزيّة، شارحاً التحولاتِ التي أحدَثَها الاستخدامُ الأكثرُ شمولاً للطاقةِ البخاريّة في النقلِ والصناعة، أنفقا نقودَهما على مكتبِ سمسار في «واترلو رود» من أجل الحصولِ على تذاكر الدرجة الأولى. كان ريشارد قد أشارَ إلى أنهما سوف يسافران بنحوٍ اقتصادي أكثر ـــ الـ «*جيرمانك*»، لا تشبه السُّفن الخطيّة[1] السريعة الأخرى التابعة لـ «وايت ستار» المتجهة نحو نيويورك، ولا يوجد فيها درجةٌ ثانية ـــ غير أن يوليان، كالعادة، كان لديه آراؤُه الخاصة. «سوف نكونُ مقتصدين في أمريكا»، قال، وهو يلوّحُ بيدِهِ. كما لو أنّه، ريشارد ـــ لكن يوليان، أبداً ـــ هو البولنديّ الريفي. أو أحدَ طلاب يوليان. أو، لا سَمحَ الله، واندا الطيّعة؛ كان قد سَمِع يوليان يعاملُ زوجتَه باستعلاء بالنبراتِ الغادرةِ ذاتِها. هذا الأمر يجب أن يتغير، سوف يتغيّرُ، أَقسَم ريشارد، لمّا وصلا إلى جانبِ رصيف السفن كي يركبا متنَ السفينةِ المجيدة بصواريها الطويلة الأربع والمدخَنتين القصيرتين البدينتين الورديتين كالسَّلمون ذات السطوح السود المخدوشة،

1- السفن الخطية liners: السفن التي تعمل في خط مواصلات نظامي – م.

ببحارتها الصائحين ومُهاجريها الصامتين، المُخوَّفين الذين كانوا يؤخذون مع حزمِ أفرشةِ النوم والصناديق المصنوعة من الغصون الصغيرة اللَّدنة وحقائب السفر المستطيلة المصنوعة من الورق الكارتون كي ينزلوا درجاتٍ حديديةً واطئة شديدة الانحدار صوب قبو السفينة: هذا حينَ يتحوّل إلى رجل العالم، رجل يعرفُ دوماً كيف يتصرّف. أنتَ هكذا مهما ظننتَ نفسَكَ، حدّث ريشارد نفسه. *مهما تجرأتَ* بأن تفكر أنكَ هكذا. وكي تكونَ حرّاً في أن تحسبَ نفسك شيئاً ما لم تكنْ عليه فعلاً (لم تبلغْه بعد)، شيئاً ما أفضلَ مما أنت عليه الآن ـــــ أليستْ هذه هي الحرّيةُ الحقيقية التي وعدَ بها البلدُ الذي يسافرون إليه حاليّاً؟

ابن موظف كاتب وحفيد قرويين، كان ريشارد يعي بقوّةٍ مبلغَ السلوكِ واللباقةِ الاجتماعية في الانطباع الذي يكوّنه المرءُ عن الآخرين، ولم يكدْ يخفف معاييرَه عن نفسِه لأنه قرأ (المسافرون كلُّهم كانوا يؤيدون هذا الأمر) أن السلوكيات اللطيفة تُعدُّ قليلة القيمة في العالم الجديد. كان قد شاهدَ يوليان وهو يُعطي بعضَ القطع النقدية كبقاشيش للحمّالين الذين يحملونَ صناديق الثياب وحقائب السفر العائدة لهما إلى أعلى الممر المؤقت من الألواح الخشبية، وللشخصِ المفتول العَضَل الذي جلبَهم إلى وسط السفينة حيث تقعُ كابينتُهم. إن منح البقاشيش، على الدوام، مسألةٌ مُربِكة بالنسبةِ للمسافرِ غير المتمرّس. بحق الجحيم، كيف يستطيعُ يوليان، الضليعُ جدّاً في بروتوكول السفينة، أن يعرفَ أنه بعد أن يصعدا إلى متنِ السفينة من المفترض بهما حالاً أن يستقرا في المكان الذي يجلسان فيه لتناول وجبات طعامهما خلال الأيام الثمانية للرحلةِ البحريّة؟ سار في أثر يوليان فيما كان الرجلُ الأكبرُ منه سنّاً متوجّهاً بنحوٍ لا يُخطئ نحو «الصالون»[1] («ردهة الطعام»، أخبر ريشارد)، وهي حجرةٌ ضخمةٌ ذات قبةٍ ممتدّة في عَرضِ السفينة كلِّه، ذات جدران مُزينةٍ بألواحِ خشب القيقب، ذات عين الطائر وأعمدةٍ مستطيلةٍ

1- الصالون Salon: وهي غرفة للاستعمال الاجتماعي الخاص بركاب السفينة – م.

ذات تيجان وقواعد من خشب البلوط مُطعّمة بخشب الورد[1]، ومستوقدان من الرخام، ومنصةٌ في الطرفِ البعيد مزوّدةٌ ببيانو كبير الحجم، وأربع طاولات طويلة مؤطرةٌ بصفوفٍ من الكراسيّ المُنجدة ذات المساند المثبتة بالأرض بواسطة مسامير مُصومَلة. في المدخلِ يوجدُ نحو عشرة مسافرين احتشدوا حول منصةٍ عاليةٍ اعتلاها رجلٌ ملتحٍ في بذلةٍ سوداء لافتةٍ ذات خطين ذهبيين مفصولين بشريط أبيض عند الكمين. «القبطان»، همسَ ريشارد بوقاحة. «الخادم الرئيس في السفينة»، قال يوليان.

ما إن تفاوضَ يوليان بشأن مكانيهما ـــ من المفترض أن يجلسا إلى الطاولةِ الثانية ـــ وذهب إلى حجرتِهما الخصوصية «كابينتهما» كي يُفرّغَ أمتعتَه، حتى رتّبَ ريشارد مقعداً إلى الطاولة رقم ثلاثة. وبعدها التحق بيوليان، الذي ذكّره مرةً أخرى أنه خارج بولندا، الرجل لا يقبّل، بصورةٍ آلية، يدَ المرأة التي يُقدّم إليها («أخشى أن يعدّوا ذلك شيئاً قديم الطراز، بخاصةٍ في المكان الذي نحن ذاهبان إليه)، وبعد ذلك مباشرةً، كما لو أنّه يرغبُ بأن يحذفَ هذه الإشارة، ذلك أنه كانَ يشعرُ أصلاً بحنينٍ مَرَضي إلى «العالم القديم» من خلال عرضِ انسجامِهِ المطلق مع الجديد، جذبَ انتباهَ ريشارد إلى مغسلةٍ مُصمَّمةٍ بنحوٍ ذكيّ قابلة للطيّ وأشارَ إلى أسبابِ راحةٍ أخرى، من مثل قنديل الغازِ والجرس الكهربائيّ بغرض استدعاء أيِّ خادمٍ في السفينة، وهي أشياءٌ لا توجد إلّا في بواخر الـ«وايت ستار». «التحسينات الحديثة تبدأُ عادةً بوصفها أسبابَ رفاهية»، شرح يوليان. «لنأملَ أنه لن يمرَّ وقتٌ طويل حتى تتوافر أجهزةٌ كهذه كي تُحسّن [قِسمة] الجميع».

«نعم»، قال ريشارد، الذي تساءلَ كيف يجعلُ يوليان يتقبّل ما فعله توّاً.

«علينا أن نفتحَ صندوق الثياب هذا».

«نعم».

«ما الخطب؟».

1- خشب الورد rosewood: خشب جميل وردي اللون يؤخذ من بعض الأشجار الاستوائية ويُستخدم في صنع الأثاث – م.

«أنتَ مُعلِّم، رجل علم، أنتَ تقدّرُ الاختراعات، أما أنا فكاتب».

«وماذا بعد؟».

«أنا مولعٌ بالألعاب».

«حقّاً؟».

مضى ريشارد بصمتٍ ليساعدَ في عملية إفراغ محتويات صندوق الثياب.

«أيَّ ضربٍ من الألعاب؟».

«ما يجولُ في ذهني»، قال ريشارد، وهو يشعرُ بتورّدِ وجهه، «إذا كان بمستطاعكَ أن تفكرَ في تقبّلها، فهي، مُجرّد لعبة، ذلك أننا تظاهرنا بأننا لا نسافر معاً».

«نتظاهر *بماذا*؟».

«حسناً، كان بوسعنا أن نتعارفَ في وارسو. لا، من الأفضل أن نتعارف قبيل ركوبِنا متن السفينة. رَفعَ بحذرٍ قمصانَ يوليان من داخلِ صندوقِ الثياب. سأكون السيد كيرول بالنسبة لكَ وستكونُ أنتَ البروفيسور سولسكي بالنسبة لي، وسوف يُميلُ كلُّ واحدٍ منا قبعتَه للآخر حينَ نلتقي على ظهر السفينة».

«في حين إننا نتقاسمُ الحجرةَ الخصوصية ذاتَها؟».

«مَن سيعرف كنهَ الحكاية؟ باستثناء ساعاتِ النوم القليلة، أنا شخصيّاً أرغبُ دوماً أن أكونَ على ظهر السفينة أو أن أستكشفَ السفينة».

«وأن نأكلَ طعامَنا جنباً إلى جنب؟».

«في حقيقةِ الأمر، لم نعدْ نجلس إلى المائدةِ نفسها. أريدُ أن أمارسَ إنكليزيتي. إن كنتَ هناك، أنا متيقنٌ من أني سأكونُ كسولاً وأتحدّثُ معكَ بالبولندية فقط».

«كُنْ جادّاً، ريشارد».

«أنا جادٌّ في كلامي. سأجمعُ مادةً من أجل مقالاتي المُتعلّقة بانطباعاتي عن أمريكا ــــ».

«نحن لم نصلْ إلى أمريكا بعد!».

«هذه السفينة تعجُّ بالأمريكيين! يلزمُني أن أتحدّث معهم».

«أنتَ لا تمزح معي»، قال يوليان. «أنا أعرفُ السببَ الحقيقي».

«ماذا؟».

«كي يخلو لك المجالُ مع الفتيات المُتاحات. أم إنكَ تحسبُ أن هذا الرجلَ العجوزَ المتزوج سوف يعِظُكَ بخصوصِ الانغماسِ في الشهوات؟ هيا، انطلقْ!».

ابتسمَ ريشارد بسمةً عريضةً. (كما لو أنّ رجلاً آخر يُمكن أن يقيّدَ حماسته للغواية!) السبب الحقيقي هو أنه كان يريد أن يكون وحيداً مع أفكاره هو، دون أن يكون مرغماً على المشاركة في حوارٍ ما. إلّا أنّه كان راضياً بأن يدعَ ريشارد يستقرُّ على هذا التفسير. كما تبيّن لاحقاً، لم يكنْ يحتاجُ إلى التخطيط لكيفيةِ تخفيف حضور يوليان الطاغي في الرحلة البحريّة. كان يوليان حاضراً في عشاءِ الليلةِ الأولى، يُلقي بمرح خُطبةً (انتبه ريشارد من الطاولة التي خصَّصها مجدداً لنفسِه) في موضوعاتٍ مُملّة الله أعلم ما هي عن امرأةٍ إنكليزيّة في منتصفِ عمرها؛ تناول فطوراً دسماً في صباح اليوم التالي؛ لكنه أخفقَ في الظهور على الغداء. مضى ريشارد كي يرى ما الخطب فوجدَه في قميصِ النوم خاصته يحاولُ التقيؤ بنحوٍ بائس في المغسلةِ المملوءةِ بالقيء، وساعدَه كي يعودَ إلى سريره. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، مع أنّ البحر ظلَّ هادئاً طوال مدّة العبور، كان يوليان يعاني على الدوام تقريباً من دوارِ البحر، وقلّما يخرجُ من غرفتِهما الخصوصيّة.

لم يكنْ ريشارد مصاباً بدوار البحر، ولا حتى خلال نوبة الطقس السيئ، وبدا له هذا بشيراً بالقدرات المستقبلية التي لا حدودَ لها. هذه الرحلة ستجعل مني كاتباً، خاطبَ نفسه، الكاتب الذي حلمتُ أن أكونه. إذا كان الطموحُ هو أقوى مهمازٍ للكتابة بنحوٍ أفضل، وللكتابةِ أكثر، إذن الطموحُ يجب أن يُرعى: بأن نسدّدَ أنظارنا، دوماً، إلى رومانس حياتنا الشخصية. السفرُ إلى أمريكا لم يخطرْ قط في أحلامِه المتعلّقة بالحياة الرومانسية قبل أن تطرقَ مارينا الفكرةَ في السنة الفائتة، وكان ريشارد قد قرَّرَ أنه سيكون هناك ــــ في

مرجٍ ما أو صحراء، ربما سينقذُها من غارة هندية[1]، أو يجدُ ينبوعاً ويجلبُ لها الماءَ بيديه، أو بتلك اليدين العاريتين نفسيهما اللتين سيوُقِعُ بهما حيةً ذات جرس في الفَخّ كي يشويها على نارِ المخيّم حين يكونان مُفلسَين في بلدٍ غريب ودون وسيلةٍ للرحيل، ظمآنيْن، جائعيْن ـــ وفي خاتمَةِ المطاف يكسبُ ودَّها من بوغدان الأنيق، الأرستقراطي. أما الآن، في السفينة، أحلامُه المتعلّقة باحتمالاتِ نجاحِه المتعاظمة كمتودِّد ارتبطتْ بالإيمان الراسخ بقدراتِه المتعاظمة بوصفِه كاتباً. المقالات التي سيبعثُها إلى وارسو هناك[2] بوصفه المندوب الأمريكي المعيّن حديثاً لجريدة «*غازيتا بولسكا*» يمكنُه أن يجعلَ منها كتاباً مُهمّاً. أودعَ عقليّاً إلى النسيان تينك الروايتين المثيرتين للغثيان بحيث إنّه تهوّرَ وطبعهما فيما كان ما يزال طالباً جامعيّاً، كان يبتهجُ ابتهاجاً شديداً: كتابي الأول!

لم يسبقْ له أن أحسَّ بأنه كاتبٌ بمِثل هذا القَدَر، وحيد جدّاً بنحوٍ باعث على السرور. كان يوليان مكبوحَ الشهوات بسببِ دوارِ البحر: يقيناً لم يشأْ أن يبقى زميلُه في الكابينة بجوارِه وأن يعتني به. كان ريشارد يقظاً بوضوحٍ وبنحوٍ استثنائي عند الساعة الخامسة صباحاً، إلّا أنّه توانى في سريرِه مدةً أطول قليلاً ـــ وجدَ أن تمايلَ السفينةِ قد أثارَه. (في صباح اليوم الأول مارسَ العادةَ السريّة على صورة ذهنية لفظٍ[3] سمين يستديرُ ببطء من جانب إلى آخر. من الغريب، أنه خاطبَ نفسَه قائلاً: (يلزمني أن أفكّر في حبيبتي نينا غداً.) بعدها نهضَ من فراشه، اغتسلَ، وحَلقَ ذقنه؛ يوليان يتأوّه برقةٍ، فتحَ عينيه غير المُبصرتين، وأدارَ رأسه نحو الحائط. لم يكنْ ثمة أحدٌ في المجاز ـــ يا لهم من متراخين هؤلاء القوم الأثرياء! ـــ وطوالَ ساعةٍ أو نحو ذلك حتى حلولِ وقت الفطور كانت لديه غرفة التدخين المُترَفة، بمصاطبِها وكراسيّها المُغلّفة

1- هندية Indian: المقصود هنا غارة من الهنود الحُمر. في الرواية، حيثما تردُ كلمة «هندي» أو «هنود»، المقصود بهما «الهندي الأحمر» أو «الهنود الحُمر» – م.

2- هناك back: المقصود هنا بولندا. تكرر الكاتبة كلمتين هما: back أو there في عملها الروائي هذا، وتقصد بهما: بولندا – م.

3- الفظ walrus: حيوان لبون بحري شبيه بالفقمة – م.

بالجِلد القرمزيّ، كل ما كان يشغلُ بالَه هو أن يدرس بدقةٍ خرائطَه وأطالسَه وقواميسَه وعلومَ النحو والصرف الإنكليزية. عندئذٍ، على العصيدةِ العديمة الطعم وسمكِ السَّلمون المُملّح والمُدخَّن الغريب، سوف يكونُ بوسعِه أن يَسمعَ ويُجيبَ بإنكليزيةٍ غير ملطخةٍ بكلمةٍ بولندية واحدة. كان جالساً إلى الحافةِ البعيدةِ من مائدته وبمحضِ المصادفةِ كان المسافرون القريبون كلُّهم يتحدثون الإنكليزية باعتبارها لغةَ بلادهم ـــ أمريكيون بوجوهٍ ملساء، بألبسةٍ أنيقة، ذكوراً وإناثاً، وثمة مُطران كندي، كان في روما كي يتلقّى بركةَ الپاپا، وسكرتيره الشاب. بعد انتهاء الفطور، ومهما كانتْ حالةُ الجوّ كان يمضي إلى الخارج في جولةٍ في الجزء العلويّ من السفينة ـــ كان عكازُه من زاكوپين ذا مقبضٍ عظميّ منقوش، رأس دب، ربما بدا تصنّعاً على ظهرِ سفينةٍ متمايلةٍ كانت مقدمتُها تغطسُ في الماء وتعلو ـــ ومن ثم استقرَّ في كرسيّ مائل وفتَحَ دفترَ ملاحظاتِه. الوقت من الآن حتى الظهيرة كان مكرّساً لتدوينِ وصف كل ما تقعُ عليه عيناه: بحارةٌ يمسحون ويصقلون الأشياء المثبتة المصنوعة من النحاس الأصفر، ركابٌ يغالبهم النعاسُ ويتكلّمون دون كلفةٍ ويمارسون لعبةَ قذف حلقات الرمي، أشكالُ الغيوم وأنماط النوارس التي تلاحقُ السفينة، اللونُ الدقيق وخطوطُ البحر الرتيب بشكل استثنائيّ.

قبل الغداء مضى ليجلسَ مع يوليان كي يحثَّه على تناولِ المرق والرز اللذين جيء بهما إلى غرفتِهما الخصوصية، وعادَ بعد الغداء ليقوم بزيارةٍ أطول كي يوثّقَ لقاءاتِه غير المتوقّعة وملاحظاتِه ويصغي إلى محاضرات يوليان عن أمريكا: مع أنّ الغثيانَ كان يمنعُه من أن يفتح نسخةً من كتاب «*في الديمقراطية الأمريكية*» التي جلبَها معه كي يقرأَها أثناء الرحلةِ البحريّة، كان يوليان ممتلئاً بالأفكار عما قاله توكڤيل[1] حتماً في كتابه الذائع الصيت. وبعدها أسرعَ ريشارد إلى الغرفةِ الكئيبةِ بطبعاتِها المتماثلة من السير والتر

1- ألكسيس دو توكفيل Alexis de Tocqueville (1805 – 1859): مؤرخ ومنظر سياسي فرنسي. اهتم بالسياسة في بُعدها التاريخي. أشهر آثاره: (في الديمقراطية الأمريكية 1835 – 1840)، و(النظام القديم والثورة) (1856) – م.

سكوت، وماكيوالي، وماريا إيغوورث، وثاكري، وأديسون، وتشارلس لامب، وهلمَّ جرّاً، طبعاتٌ محفوظةٌ ومُغلقٌ عليها وراء خزانات كُتب بواجهات زجاجية، أسماءُ كتاب ومؤلفين مشهورين منقوشةٌ في لفيفات على ألواحِ السنديان التي تكسو الجدرانَ الداخلية، واقتباسات ذات موضوعٍ بحريّ مدوّنة على النوافذ ذات الزجاج المصبوغ: هناك، في المكتبة، دوّنَ رسائلَه ــــ إلى أمّه وخالاتِه وعماتِه، إلى أصدقائِه وصديقاتِه، إلى نساءٍ مهجوراتٍ بشتى صنوفهن وعدهنَّ بالعودة، وبالطبع كَتبَ خطابات إلى مارينا وبوغدان (كم كانَ بودِّهِ أن يكون قادراً على الكتابة إلى مارينا وحدها). بعد مرورِ نحو ساعتين حرّر نفسَه ورجعَ إلى «حجرة التدخين»، طلب قنينة ويسكي (مشروبٌ جديدٌ بالنسبة له!)، أشعلَ غليونه، وفي تلك الأرض الحرام العاصفة المقتصرة على الذكور منحَ نفسه سعادةَ حلم – يقظة محتشِم عن مارينا. وعقبَ ذلك طالب باسترداد كرسيّه على ظهرِ السفينة كي يتابع قراءةَ نسخة يوليان من توكڤيل أو كي يشحذَ مهاراتِه في الوصف في دفترِ الملاحظات العائد له؛ أو جاسَ ظهر السفينة خلسةً حيث، وهو عاكفٌ على شحذِ مهاراتِه في الإغواء، كما لو أنّه يختبرُ تصريح توكڤيل بأن الولايات المتحدة تمتازُ بصرامةٍ أخلاقيّة أكثر من أوروبا، والنساء الأمريكيّات أكثر عفةً من الإنكليزيات، وبشجاعةٍ تغزّلَ بشابةٍ أمريكيةٍ حلوة، واثقة من نفسِها من فيلادلفيا، وحاولَ أن يقنعها بأن تناديه باسمِهِ الأول.

«من المؤكد أنا لا أعرفك بما فيه الكفاية كي أناديكَ باسمكَ المسيحيّ»، قالت. «يا للعَجَب، أنا وأنتَ لم نتعرّفْ إلى بعضنا بعضاً إلّا منذ ثلاثةِ أيام، وحتى أنا في أحد هذه الأيام لم أصعدْ إلى ظهر السفينة لأني كنتُ، كنتُ... متوعّكةَ الصحة».

«أنتِ على غرار صاحبك ريتشارد»، أصرَّ على القول، وهو يلاطفها في ذهنه، مع أنّنا نتهجى اسمه بشكل مختلف.

«ماذا لو استرقتْ أمي السمعَ وأنا أنادي رجلاً نبيلاً بالكاد أعرفُه باسمِه المسيحي؟».

«اسمُه يُنطقُ بالطريقة نفسها»، قال. «*ريشارد*. هل هو صعبٌ جدّاً؟» كم يستغرق، تساءلَ في نفسه، كي يقودها إلى السرير على اليابسة؟

«لكنكَ لا تلفظْهُ بالطريقة التي نفعلُها نحن!».

«سأفعل» ـــ قَهقهَ ـــ «ما إن أصل إلى نيويورك».

«أأنتَ متأكد؟». ردّتْ عليه بوقاحة. «لستُ متأكدةً جدّاً، سيد... أوه، لا أستطيع أن أنطقَه! لديكم أسماءٌ مُضحكةٌ جدّاً في بلادِكم».

«علّميني إذا كيف أنطقُه مثل شخصٍ أمريكيّ».

«اسم أسرتكَ؟».

«كلا، أنتِ مخلوقةٌ يصعبُ التعاملُ معها. *ريشارد*!».

ويصعب التعامل معها ـــ إذا كان لدى ريشارد أيّ فكرةٍ عن مزيدٍ من المودّة ـــ فهي هذه المودة.

الكاتبُ، أيُّ كاتب، لا يكون، ولا يحتاج إلى أن يكونَ، مُضجراً ـــ وهي جدارةٌ سعيدةُ الحظ. السفينة، عرفَ ريشارد من اليافطاتِ المنشورةِ في أنحاءِ سطحِ النزهة على ظهر السفينة وفي مدخل «الصالون»، اقترحتْ قدراً كبيراً من التسليات اليومية: محاضرات، وخدماتٌ دينية، وألعاب، وسهرات موسيقية. إلّا أنّه لم يكنْ ثمةَ شيءٌ مُسلٍّ يضاهي تجاذبَ أطرافِ الحديثِ مع زملائِه وزميلاتِه من المسافرين ـــ وحالُه حال السوادِ الأعظم من الكُتّاب والمؤلفين، كان مستمِعاً حكيماً، متفتحاً بشكل سار ـــ ولم يكنْ هنالك قصدٌ كبيرٌ من محاولة التحدّث عن نفسِهِ.

كان واثقاً بأنه في وقتٍ قريبٍ جدّاً سيكونُ قادراً على فهمِهم. غير أنه لم تكنْ ثمةَ فرصةٌ في أن يكونَ بوسعِهم أن يفهموه. كما اكتشفَ فيما كان هو ويوليان يمارسان لغتَهما الإنكليزية مع الأجانب في الحانات والمطاعم إبان الأيام القلائل في ليڤربول ـــ وأكّدَ في حواراتِه أثناء وجبات الطعام الأولى في السفينة ـــ أن الأجانب ليس لديهم أدنى فكرةٍ عن بولندا، تاريخها، وعذاباتها. كان يحسبُ أن محنةَ بولندا التي طالتْ ما يناهز القرن قد جعلتْ

منها معروفةً للجميع في العالمِ المُتحضر. في الحقيقة، من الجائز أن يكونَ هو من القمر.

في كلِّ وجبةِ طعامٍ كان الأمريكيون يشددون على القول إن بلدَهم هو أعظمُ البلدان طرّاً على وجه الأرض، والبرهانُ على ذلك هو أن الجميعَ كانوا يعرفون عن أمريكا والجميع يريدون المجيء إلى هنا. ريشارد هو الآخر أتى من بلدٍ يُعدُّ نفسه قد اختير لمصير استثنائيّ، لا نظيرَ له. إلّا أنّ اختيارَ الشهادة قد أسفرَ عن انقلابٍ مختلفٍ نحو الداخل للشعب بدلاً من الانهماكِ الذاتيّ لهؤلاء الأمريكيين، النابعِ من قناعتِهم بأنهم محظوظون بنحوٍ فريد.

«في أمريكا، هذه هي الميزة كلُّها، إذا ما تابعتني، الجميعُ هنا أحرار»، قال أحد رفاق المائدة خاصته، شخصٌ فظّ ذو رأس منمش تجاهلَه إلى أن، انتهى المساءُ الثالث، دفع بنحوٍ مباغتٍ بطاقتَه إلى ريشارد فيما كان يترنّمُ، «أغسطس أس. هاتفيلد رجلُ أعمال من أوهايو».

«كليڤيلاند»، قال ريشارد، وهو يدسُّ البطاقةَ في جيبِه. «بناء السفن».

«هذا صحيح. بما أنّي لستُ متيقناً من كونِكَ سمعتَ بكليڤيلاند، قلتُ أوهايو، لأن الجميع سمعوا بأوهايو».

«في بلدي»، ريشارد، «نحنُ لسنا أحراراً».

«حقّاً؟ وأيُّ بلدٍ هو بلدُكَ؟».

«بولندا».

«أوه، إن الوضع هناك[1] متخلّف جدّاً، هكذا سمعتُ. إنما هكذا هو الحالُ في كلّ البلدان التي سافرتُ إليها، ربما باستثناء إنكلترا».

«إن تراجيديا بولندا لا تكمنُ في تخلّفها، سيد هاتفيلد. نحنُ شعبٌ مقهور. حالُنا حال الشعب الأيرلندي».

«نعم، الشعب الأيرلندي شعبٌ فقيرٌ جدّاً، أيضاً. ألم ترَ كل أولئكَ البائسين القذرين الذين صعدوا حين عرّجت السفينةُ إلى [كورك]؟ أنا

1- هناك there: المقصود هنا بولندا – م.

أعرفُ أنه كانَ يتعيّنُ على [وايت ستار] أن تأخذَهم، بالعدد الذي يتسعُ لهم المكان في الأسفل هناك. وهو عملٌ جيّد، لأنهم لا يستطيعون أن يجمعوا مبلغاً كبيراً منا وحدنا، ماذا سيفعلون بكلِّ هذا الطعامِ الفاخر والعددِ الغفير من الأشخاص الذين يسهرونَ على راحتِنا بأيديهم وأرجلهم. لكن، يا إلهي، حينَ أفكر فيهم جميعاً، إذا كانت السيدات حاضرات سوفَ يغفرنَ تلميحي إلى ذلك، محشورين سويةً في الأسرّة المبيّتة الجرداء، كلُّ سريرٍ فوق الآخر دون أيّ شعورٍ باللياقة على الإطلاق، لكنكَ تعرفُ أولئك الأشخاص، إنهم كما اعتادوا أن يظهروا، فضلاً عن ذلك يشربون ويسرقون وــــ».

«سيد هاتفيلد، لقد ذكرتَ الأيرلنديين لأنهم لا يملكون دولتهم الخاصة، أيضاً».

«أجل، وَجدَ البريطانيون مشقةً كبرى في إبقائِهم تحت سيطرتِهم. أنا أراهنُ أنهم غالباً لا يعتقدون أنهم يستحقون هذهِ الدولة، وهم يرغبون بأن يتخلّوا عن الأمر ويعودوا إلى ديارهم».

«سائرُ الناس يرغبون بأن يكونوا أحراراً»، قال ريشارد بهدوء، بعد أن ذكّر نفسَه أن الرجلَ الخبيرَ بالحياةِ وشؤونِها العملية يعدُّ التعبير عن السّخط شيئاً سوقيّاً. «لكن ما من أناسٍ يفكرون كثيراً جدّاً بالحريّة مثل فردٍ عانى طويلاً في ظلِّ السيطرةِ الأجنبيّة».

«حسناً، عليهم أن يأتوا إلى أمريكا. أعني، إذا كانوا مستعدين للعمل ــــ نحن لم نعدْ بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الأشخاص القذرين الكُسالى. كما قلتُ آنفاً، في أمريكا الجميعُ أحرار».

«نحن البولنديون كنا نحلمُ بأن نكون أحراراً طوال ثمانين عاماً. بالنسبة لنا النمساويون والألمان وبخاصة الروس ــــ».

«أحراراً كي تجمعوا المال»، قال الرجل بثبات، مُنهياً النقاش.

كيف كانوا يستمتعون بعلاماتِ امتيازهم الخاص، هؤلاء الأمريكيون، لا يتعبون من أن يلمّحوا إلى بعضهم بعضاً برفاهية وبذخ أثاثِ السفينة ــــ

جزئهم من السفينة. كم كانوا غافلين عن الحياةِ التي تحتَ أقدامِهم في تلك المنطقةِ المُكتظّة بالسكان من الفضاءات العديمة التهوية بين ظهر السفينة العلوي وحِصن الحمولة حيث أمّن سبعة أثمان ركاب الـ«*جيرمانيك*» مضجَعاً لهم ـــ نحو ألف وخمس مئة فردٍ منهم، بعد أن التقطت السفينة مكوّنها المتبقي المؤلَّف من بضع مئات من المهاجرين الأيرلنديين قبل أن تنطلق عابرةً الأطلسي.

قلّما كانَ ريشارد غير واعٍ بأن سكانَ العالم منقسمون إلى الأشخاص المرتاحين، بعضُهم مرتاحونَ جدّاً، وإلى الأشخاص غير المرتاحين. إنما في بولندا قسوة وفظاظة العلاقات الطبقية كانت قد خُففتْ بوساطة التضامن الوجداني للهويّة القوميّة، وللحزن القوميّ. إن العالم العموديّ، العائم لا يُعطي شيئاً كي يُليّنَ صرامةَ الامتياز: أنتم هنا، في القمة، موزَّعون في أمكنةٍ رحبةٍ، مُطعَمون حتى التُّخمة، في الضوء، وهُم قابعون هناكَ، في الأسفل، محتشدون سويةً، تُوزعُ عليهم المؤن، في ظلامٍ كريه الرائحة.

بماذا كان يفكرُ الحشدُ الفائض من ركاب الدرجة الأولى فيما كانوا يُنصتون صباحَ الأمس في «الصالون» إلى محاضرة الكاهن أي. ويليت، «أشعة الشمس، أم [سر السعادة]؟». ما من شيءٍ مدهش عدا أشعة الشمس تلك والسعادة. ولماذا يتعينُ عليه أن يندهشَ من ذلك؟ إن الرجلَ الخبير بالحياة وشؤونها العملية لا يندهش من أيّ شيء.

والكاتب، أيّ كاتب ـــ افتراضٌ مريح! ـــ لا يكون متطفلاً البتة، أو هكذا يعتقدُ الكُتّاب. كان ريشارد قد هبطَ هبوطاً وجيزاً إلى متاهةِ المكان المُخصّص للمسافرين بالسعر الأرخص بعد غداءِ اليوم الثاني من الرحلة البحريّة. («يلزمكَ أيضاً أن تذهبَ إلى مكان الوقّادين»، قال يوليان، حين أعلنَ عن نيتِه. «أتتذكّر ما أخبرتكَ به فيما يتعلّقُ بالمصانع في مانشستر». كونُهُ أهملَ مسألةَ الحصول على خارطةٍ للسفينة، لم يكنْ متيقناً من مسألة أينَ وجهتُه فيما هو يتمايلُ ويتخذُ سبيله مُتعرّجاً عبرَ السفينةِ المتمايلة. كان

قد طاف حول فضاءٍ سيّئ الإضاءة يعبقُ برائحةِ الطعامِ وغازات البطن؛ متجاوزاً الجلبةَ العامةَ التي ميّزها بكونها ناتجةً عن أطفالٍ رضّع يصرخون، وقعقعةِ أطباقِ صفيح، وسعال، وصياح ولعنات في بلبلةٍ من اللغات، ولحن مرح على أكورديون. تدحرُج السفينة بدا واضحاً أكثر في الأسفل، ولدى سماعِه الأصوات الأولى لتقيؤ فردٍ ما كان يشعرُ بأنه بدورِه يتقيأ.

في سالف الزمان، بطاقة المكان المُخصص للمسافرين بالسعر الأرخص تشتري رفّاً بحجم سرير في فضاءٍ شديد الرطوبة عديم الهواء يتقاسمُه عشرات المسافرين من كلا الجنسين، إنما بعد أن اكتشفوا أن هذا الأمر إساءةٌ للياقة والاحتشام، السفنُ الجديدةُ من مثل الـ «*جيرمانيك*» عزلت المسافرين غير المتزوجين الذكور عن الإناث وعن الأشخاص الذين يسافرون كأُسر. دخلَ ريشارد أحدَ المهاجع حيث كان هناك ما يقارب مئة رجل قد أمّنوا مضجعاً لهم. «أوه، انظرْ إلى الأنيق»، سمع هذه الجملةَ من مكانٍ ما في العتمةِ النتنة. وضحكا. و: «أقبلَ كي يشاهدَ البهائم في حديقة الحيوانات. من الطبقة الرابعة للأسرّة المبيّتة في جدار السفينة أمامَه مباشرةً، وجهٌ كبيرٌ شديد البياض ينظرُ إليه من الأعلى إلى الأسفل. «لديك صديقٌ هنا؟». قال الوجه. «دعْهُ وشأنَهُ»، صاحت امرأة بدينةٌ تضع منديلاً في المدخل. ولمّا غادرَ، طلبتْ منه شلناً.

في عصر اليوم التالي قرّرَ أن يجرّب مجدّداً في مدخلٍ آخر. كان قد تردّدَ في أعلى درجات السلّم، وهو يرسلُ أنظاره إلى اللافتة المُربكة المنشورةِ بقربه ــــ «ركاب الصالون مطلوب منهم ألّا يرموا النقودَ أو الأشياءَ الصالحة للأكل إلى ركابِ السعرِ الأرخص، وبهذه الطريقةِ سوف يخلقونَ الفوضى والإزعاج» ــــ وبعدها صادفَ التحديقَ الجريء لنوتيّ عاديّ يعيدُ طلاءَ عمود حديدي[1] في مكانٍ قريب.

«لن أرمي شيئاً إليهم»، قال مازحاً.

1- عمود حديد lifeboat davit: عمودٌ من الحديد يُستخدم لرفع أو خفض قارب النجاة – م.

«أتريد الذهابَ إلى مكانِ السعر الأرخص، أستاذ؟». قال الرجلُ وأنزلَ فرشاتَه.

«في الحقيقة، نعم»، قال ريشارد.

«وتريدني أن آخذكَ؟».

«لماذا؟ هل ممنوع عليَّ أن أذهب بمفردي؟».

«حسناً، الأمر متروك لك، أستاذ. إذا ما أتيتُ معك، يمكنني أن أُريك أين تذهب.

كان ريشارد مرتبكاً بسببِ الشغفِ بمرافقتِه ـــ وحتى إنه كان مرتبكاً أكثر حينَ سَمِع، فيما كانا ينزلان درجات السلّم، «أنتَ واحدٌ من أرقى نبلاء هذه الرحلةِ ينزلُ إلى ذلك المكان. كان يظنُّ أن زيارةَ شخصٍ من الطبقة الأولى ستكون شيئاً نادراً جدّاً. كان البحارُ قد دفع البابَ الحديدي الضخم وفتحَه. في أولِ الأمر، كما في اليومِ الفائت، لم يكنْ بمستطاعه أن يرى كثيراً. «اتبعني»، قال البحار. كانا في المنطقةِ المخصصة للأُسر، حجراتٌ أصغر ذات مضاجع لعشرين أو ثلاثين فرداً، كلُّ حجرة، شأنُها شأن كلِّ أسرة من الأُسر العديدة التي تعسكرُ هناك، بدرجتها المميزة الخاصة من الأسى، والمرح الصاخب، والاستسلام. في إحدى الحجرات، كان ثمةَ عازفُ كمانٍ يعزف لثلاثة أزواجٍ من الراقصين، وثمة رجلٌ عجوز يصفقُ بيديه مع اللحن الطروب؛ وفي حجرةٍ أخرى، مظلمةٍ كزنزانةٍ في سجن، نساءٌ يرتدين الشالات كنَّ يرضعنَ أطفالاً على الأرض في حين أَقبلَ من الأسرّة المبيّتة في جدارِ السفينة صوتُ ذكر يشخرُ بصوتٍ مرتفع؛ في حجرةٍ ثالثة، أربعةُ رجال يحتشدون حولَ قنديلِ زيت يتناقشون فيما هم يلعبون البوكر، وامرأةُ مسنة تتأرجحُ وتدندنُ لطفلٍ باكٍ. اقتيدَ إلى مجازٍ ضيّق يُفضي إلى مجازٍ أوسع مُغطى بالقرب من النهاية ببطانيتين بنيتين.

«ميك»، هتفَ دليلُه. من مهجعٍ بجانبِ الستارةِ التي كانت بمنزلة بديل مؤقت بزغَ رجلٌ صغيرٌ وعابثٌ ذو شعرٍ خمريّ، لا، ثعلبي ـــ كانت يدُ ريشارد أصلاً في جيبِه، تشدُّ بقوةٍ ظهرَ دفتر الملاحظات خاصته. «هو ذا الشخصُ الذي تريدُهُ. والآن سأتركك بين يديه الطيبتين».

«هذا لطفٌ بالغٌ منك»، قال ريشارد.

«أنا في خدمتِكَ، أيها الرئيس»، قال النوتيّ وبَسَطَ يده. وضعَ ريشارد شلناً فيها؛ ظلتْ راحةُ يدِهِ مفتوحةً ـــ أضافَ شلناً آخر. «أنا مُرغمٌ كثيراً. وميك، لا تنسَ ـــ».

«اغربْ عن وجهي، أيها الكلب!» زمجرَ الرجلُ الصغير السريع الغضب. «واسمه ليس ميك!».

«أيها اللقيطُ الإنكليزي»، هَدرَ وراء ظهر النوتيّ. كان يحملُ قنينةً في يدِهِ. «اشربْ قطرةً»، قال لريشارد.

«أنا صحافي بولندي»، بدأ ريشارد حديثَه، «وأريدُ أن أتحدّثَ مع بعض المسافرين في المكان ذي السعر الرخيص من أجل مقالةٍ أكتبها الآن عن سفينتنا».

«تكتبُ مقالةً، حقّاً؟». كان بوسعِ الرجلِ الصغير أن يبتسمَ بسمةً عريضةً، أيضاً. «وكم عددُ الأشخاص الذين تريدُ أن تقابلَهم؟».

«حسناً»، قال ريشارد، «إذا كان باستطاعتي أن أحاورَ خمسةَ أو ستةَ أشخاص من أصدقائِكَ ـــ».

«خمسة أو ستة!». هتفَ هذا الرجل الذي لم يكنْ ميك. «سوف تحاورُهم. تحاورُهم كلَّهم مرةً واحدة، هل بوسعكَ أن تفعلَ هذا حقّاً؟. ضَربَ بقدمه بقوّةٍ وضحكَ بينه وبين نفسه. رجلٌ صغيرٌ شرير، فكر ريشارد. «هنا، اجلسْ هنا على هذه. وفيما كان يُدفعُ على سلّةٍ مقلوبةٍ بجانب الستارة، أحسَّ ريشارد بشيءٍ من الذُّعر: هل كانَ على وشك أن يُهاجم بعنف ويُنهب؟ لا في مكمنٍ للأباشي، بوساطة محاربٍ من الهنود الحمر، محاربٍ ذي جلالٍ كلاسيكي يُلوِّحُ فوقه بفأسٍ توماهوك خاصةٍ به، إنما بفأسٍ فينية[1]، بوساطة رجل صغير ذي شعر ثعلبي اللون يلوّح بقنينة ويسكي عند رأسه؟ لكن لا...

1- فينية Finian: أي عائدة لمحارب أيرلندي. والفينية حركة ثورية قام بها الثوار الوطنيون في بريطانيا في منتصف القرن الثامن عشر، وكانت تنادي باستقلال جزيرة أيرلندا عن بريطانيا. وقد أطلق أصحاب هذه الحركة اسم (فينيان) عليها تيمناً بالملك الأسطوري فانيوس – م.

«أتعتقد أن بنات أخوتي وأخواتي ملائماتٌ لإجراءِ الحوار؟ كل ما لديّ هن ست، ستُّ بنات محبوبات لأخوتي وأخواتي أحضرُهن الآن معي إلى أمريكا. أوه». ريشارد كان أقل ارتياحاً من كونه منزعجاً بسببِ سذاجتِه هو. «اشربْ، يا رجل. لن أجعلكَ تدفع مبلغاً كبيراً عن قيمة الشراب. أنتَ شابٌّ صحيحُ البنية، يُمكنني أن أرى ذلك. أنتَ جاهزٌ لذلك، صحيح؟». ـــ وقفَ ريشارد ـــ «حسناً، أنتَ ذاهبٌ الآن».

«في وقتٍ آخر»، قال ريشارد.

وبعدها انهمكَ الرجل في تدفّق من كلماتِ الأنين إلى حدٍّ أن (ريشارد لم يكنْ يفهمُ كلَّ شيء) عدداً قليلاً جدّاً من النبلاء من الدرجة الأولى كانوا أصلاً قد أفادوا أنفسهم من خدمات فتياته، والنبيل الأجنبي لا يحتاج لأن يقلقَ، فتياته نظيفات جدّاً وموفورات الصحة، بوسعه أن يثبتَ ذلك. رفعَ البطانيات المُعلّقة. في الداخل، ممددات دون نظام على أريكةٍ وساداتُها المطرَّزة بخيوط الحرير وغطاؤها ربما أتتْ من جهازِ عروسٍ ما، كانت هنالك مجموعةٌ من الفتيات مُحمرّات العيون، لم تتجاوزْ أيُّ واحدةٍ منهن سن الثامنة عشرة، على ما يبدو. كانت إحداهُن تبكي. «نظيفات جدّاً وموفورات الصحة»، كرّر. بَدَونَ نحيلات وتعيسات، لا يُشبهن قط الفتيات المكتنزات المرحات في مواخير كراكوف ووارسو. «ما رأيكَ إذن بفتياتي المحبوبات؟».

كانت إحداهنَّ حلوة.

«مساء الخير» قال ريشارد.

«اسمها نورا. أليسَ كذلك، فتاتي؟».

نكست الفتاة رأسها بخنوع. اتخذَ ريشارد خطوةً مترددةً نحو الأمام. كان هنالك فِراشٌ واطئ في الزاوية الأخرى. ماذا لو أُصيبُ بالسفلس وـــ وتعيّن عليه أن يتخلّى عن مارينا إلى الأبد؟ إلّا أنّه كان قد دَلفَ أصلاً إلى الداخل.

«اسمي ريشارد».

«إذن شخصٌ واحدٌ هو الذي يفعلُ، إيه؟».

«لديكَ اسم مُضحِك»، قالت. «هل أنتَ ذاهب إلى أمريكا، أيضاً؟».

«على أقدامكنَّ، يا حسناواتي!». صاح الرجل. طردَ الأُخريات خارجاً وأسدلَ الستارة.

فيما كان ريشارد يخفّضُ نفسه على الفِراش بجانبِ الفتاة، انحرفت السفينة انحرافاً شديداً. «أوه»، صرخت الفتاة، «ينتابني الخوفُ في بعض الأحيان» ـــ كانت تمضغُ أطرافِ أصابِعها كالطفل ـــ «لم يسبقْ لي أن ركبتُ سفينةً، ولا بدَّ أن يكون الغرقُ شيئاً مُرعباً». موجةٌ من الندم راحتْ تنمو وتكتسحُه رويداً رويداً فيما كانت تخمدُ أمواجُ المحيط المرتفعة. كانت أصغر سنّاً مما خَطرَ ببالِه.

«كم عُمركِ، نورا؟».

«خمسةَ عشر عاماً، أستاذ. كانت تتلّمسَ أزرارَ سروالِه بارتباك. «خمسةَ عشر تقريباً».

«آه، لا يلزمكِ أن تفعلي ذلك. أبعد يدَها بأظافرِها المعضوضة واستبقاها في يده. هل كان هنالك زائرون آخرون من ـــ الأعلى».

«أنت الزائرُ الأول هذا اليوم»، تمتمتْ.

«هل شققتَ طريقكَ بشكلٍ مناسب، يا فتى؟». صاحَ الصوتُ من الناحية الثانية للستارة.

«ماذا يقولُ؟». سأل ريشارد.

«دعني أكون لطيفةً معك»، قالت الفتاة. كانت قد جرّتْ يدها وحرّرَتها من قبضتِه المرتخية، ورمتْ نفسَها على صدرِه. أمسكَ بها بقوّة، راحةُ يدِهِ على مؤخرتِها، وربّتَ على شعرِها الخشن.

«هو لم يضربكِ، أليس كذلك؟». همس في أذنها.

«إلّا إذا تذمّر السيد»، ردّتْ.

سَمحَ لنفسِه بأن يُدفعَ على ظهرِه وتحسّسَ شفتيها المتشققتين تمسان وجنتَه مسّاً خفيفاً. كانت قد رفعتْ قميصَها التحتانيّ القطنيّ وراحتْ تدعكُ

عورتَها العظميّة بجسمِه. كان قد استثير، رغماً عنه. «أنا بالأحرى لا أرغب»، قال، وهو يدسُّ يدَه تحتها ويرفعُ جذعَها بوصاتٍ قلائل فوقَ جذعِه. «سأعطيكِ النقودَ ويمكنكِ القول ــــ».

«أوه، أرجوكَ، أستاذ، أرجوكَ»، صرختْ صرخةً طويلةً حادة. «لا يسعكَ أن تعطيني النقود!».

«إذن أنا ــــ».

«وسوف يكتشفُ هو أنكَ لم تحبّني، وسوف ــــ».

«كيف سيكتشفُ؟».

«سيكتشفُ، سيكتشفُ!». تحسسَ عبراتِها على عنقِه، واحتكاكَ عورتِها. «إنه يعرفُ كلَّ شيء! سيفهمُ من خلال وجهي لأني سأكون خجلةً ومضطربةً، ومن ثم سوف ينظرُ، كما تعرف، بين ساقيَّ».

متنهداً، أزاح الجسدَ الهشّ إلى جانبِ جذعه، فكَّ أزرارَ سرواله، وأخرج عضوَ ذكورته شبه المنتصب، وجعلها تعتليه ثانيةً. «لا تتحركي»، خاطبَها، فيما كان يُدخله برقةٍ بين فخذيها الهزيلين، فوق ركبتيها مباشرةً. «ماذا تفعل؟». تأوهتْ. «هذا ليس المكان الصحيح. من المفروضِ بكَ أن تضعَه في المكانِ الذي يُوجعني». شعرَ ريشارد بأن الدموعَ تخدشُ عينيه. «نحن نمارس لعبةً»، همسَ بصوتٍ أجش. «نحن نتظاهرُ بأننا لسنا في هذه السفينةِ الضخمةِ المفزعة، نحنُ في مركبٍ صغير، والمركبُ يهتزُ ويتمايل، إنما ليس كثيراً جدّاً، والمركبُ لديه مجذافٌ صغير عليكِ أن تقبضي عليه بقوة برجليكِ لأنه بخلافِ ذلك سوف يسقطُ في اليمّ ومن ثم لن نتمكنَ من التجذيفِ صوبَ ديارِنا، إنما بوسعكِ أن تغمضي عينيكِ وتتظاهري بالنوم...».

بإذعانٍ، أغمضت الفتاة عينيْها. أغمضَ ريشارد عينيْه أيضاً، وما يزالُ يلسعُهُ الندمُ والعار، فيما قام بدنُهُ الكفء بالبقية. كانت تلك أكثرَ القصص التي ابتكرها حُزناً. كانت أكثرَ الألعاب التي مارسَها أسًى.

«يوليان...» بدأَ ريشارد حديثَه. كانا في كابينتهما، وهو يشاهدُ الرجل

الأكبر منه سنّاً يرتشفُ شيئاً من المرق. «هل كنتَ تتردّدُ كثيراً على دور البغاء في وارسو، أعني هل ذهبتَ قبل زواجِكَ من واندا؟».

«حتى في ذلك الحين لم أكنْ أتردد كثيراً مثلكَ، سأُراهن»، قال يوليان، وهو يروّض ابتسامة. «الآن؟ لا أكاد أترددُ. الزواج روّضني».

«من المحتمل أن يكونَ ذلك مُثبِّطاً للعزيمة»، قال ريشارد، المُمزق بين الرغبةِ المبتذلة التي كان يحسُّها في هذه اللحظة كي يفضي بها إلى يوليان وبين تصميم أكثر حكمةً في أن يحتفظَ بهذه التجربة لنفسه. «مُثبِّطاً للعزيمة»، كرّر، منتظراً يوليان أن يسحبَه إلى الخارج.

«ليس مُثبِّطاً للعزيمة كالزواج» - قال يوليان. «ما هو الحزنُ الناجم عن ساعةٍ خاليةٍ من الحبّ، مقارنةً بعمرٍ كاملٍ من التعايش الزوجي الخالي من الحبّ».

أدركَ ريشارد أنه أثارَ دون درايةٍ الرغبةَ في نفس يوليان كي يُفضي بأسرارِه إليه. وعلى مدى لحظةٍ كان ضعفُ الشاب الذي لم يكنْ له أب (كان قد توفي قبل ولادة ريشارد) يصدُّ الطبيعةَ الثانية للكاتب الذي كان وقتُ فراغه الأثير هو حثّ الناس الآخرين على التكلّم عن أنفسهم. وبعدها فازَ الكاتب.

«أنا متأسفٌ جدّاً على سماع أن ثمةَ خلافاً بينك وبين واندا».

«خلافاً!». صرخ يوليان. «أتعرف بماذا أحلمُ وأنا وحدي في هذه الكابينة، فيما كنتُ أتقيأ كلَّ أمعائي طوالَ هذه الأيام كلِّها؟ دعني أُخبركَ. بما أنّنا نكادُ نصل إلى أمريكا، وأننا نجد موقعاً من أجل الكتائبية، ومن ثم، قبيل مجيء البقية صحبة مارينا، أتوارى عن الأنظار. لن يعرفَ أحدٌ إلى أين مضيتُ. غير أني لن أملكَ الجرأة، سترى. لن يكون ثمة [عالمٌ جديد] بالنسبة لي».

«إنكَ لا تُحبها على الإطلاق؟».

«هل أبدو لكَ رجلاً بوسعه أن يُحِبَّ امرأةً معتوهةً كهذه؟».

«لكنكَ قبل زواجكَ بها كان يتعيّنُ عليكَ في الأقل أن تكونَ لديكَ معرفةٌ طفيفةٌ بـــــ».

«ماذا أعرفُ عن النساء؟ كانت شابةً، كنتُ أريد رفيقةً. حسبتُ أن بمستطاعي أن أقولِبها وسوف ترفعُ بصرها إليَّ. بدلاً من ذلك، كانت ببساطة تخافني. ولم أكنْ قادراً على أن أمنعَ نفسي من إظهار سخطي. خيبة أملي».

تأوَّه. «لا يسعكَ أن تتخيلَ كم أحسُدكَ. أنتَ غير متزوج وهذا شيءٌ مبارك، يمكنكَ أن تتمشى الهوينى ذاهباً إلى البغايا كلّما وددتَ ذلك بضميرٍ طاهر، فيما أنتَ تغازل امرأة مثاليَّةً لن تنالها قط ــــ».

«يوليان!».

«ليس من المفروض مني أن أذكرَ خططكَ فيما يتعلق بمارينا، صحيح؟ الجميع يعرفون».

«حتى بوغدان».

«وكيف لا يعرف؟ وإلّا كانَ عليه أن يكونَ غبيّاً حالَه حالَ واندا خاصتي. والجميع يجدونني مُضحِكاً بكلّ معنى الكلمة».

«لنقلْ... يافعاً».

«سوف أنالُها! سترى. ثمةَ حزنٌ في تلك الزيجة أيضاً. يمكنني أن أجعلَها أسعدَ بكثير».

«كيف؟».

ريشارد قلّما كان قادراً على أن يقول ليوليان أن حدَسَه أخبره أن رجلاً من مثل بوغدان لا يعرف كيف يجعلُ المرأة، أيّ امرأة، سعيدةً جنسيّاً. «سأكتبُ مسرحياتٍ لها»، قال.

«آه، هي ذي روح الشباب»، هتف يوليان.

وفجأة خطرَ ببال ريشارد أن يوليان لم يكنْ مريضاً حقيقةً، وأنه فقط أُصيب بنوبةِ قنوطٍ، وأنه كانَ يُخبئها.

«البسْ ثيابَك وتعالَ معي إلى ظهرِ السفينة»، قال ريشارد. «ستشعرُ بالتحسن، أَعدكَ».

«ونتغزل بالصبايا؟ سوف نتقاسمُ بعضاً من فتوحاتِكَ؟».

«أوه، فتوحاتي»، قهقَه ريشارد. «أيَّ واحدةٍ منهن تريدها؟ المرأة الإنكليزية ذات منظار الأوبرا ونسخة من «*تاريخ الرِّق الأبيض*» في حقيبتِها الصغيرة؟ الراقصة الإسبانية ذات صنوج الأصابع؟ الأرملةُ الفرنسية التي تتمشى هنا وهناك على ظهر السفينة، ستسمعُها وهي تدندن قائلةً للكلب الصغير الأبيض [أنت تأتي معاي[1]، حبيبي]؟ الكونتيسة من روما المُزيّنة بالجواهر المُزيّفة البرّاقة، التي تأمل أن تستعيدَ ثرواتِ أسرتِها الغابرة من خلال القبض على زوجٍ أمريكيّ؟ السيدة القادمة من وارسو، نعم، نحنُ لسنا البولنديين الوحيدين في درجة [الصالون]، التي تعلن جهاراً للجميع بلا استثناء أنها ذاهبةٌ إلى أمريكا للهَرَب من عبودية الموسكوفي، أو شقيقتها، المصابة بالحنينِ المَرضي أصلاً (أنا متأسفٌ فهي تذكّرني بواندا) بحيث إنّها ترغب يقيناً بأن تُريك كيسَ الحرير الحاوي على التراب البولندي الذي تحتفظ به بين ثدييها؟ الألمانية غير السعيدة في زواجِها التي تُصرِّحُ قائلةً بأنها لن تنجذبَ أبداً إلى رجلٍ لا يشاركها إعجابَها بفاجنر؟ الأمريكية (يوليان، أنتَ لن تصدّق هؤلاء الفتيات الأمريكيات!) التي تفضّل، من أجلِ صحتِكَ، القيام برحلة على سكّة حديد أبيها؟ الفتاة الأيرلندية المريضة المسافرة مع عمِّها في درجة السعر الأرخص ـــ بدأ يضحكُ على إبداعيته[2] المرِحة، بطبيعة الحال ليسَ من المفترض من الفرد أن يضحكَ حين يحاولُ أن يكون مُسلياً، إذن لماذا لم يكنْ بمستطاعِهِ أن يتوقفَ عن الضحك، الضحك القويّ بحيث إنّ عينيه امتلأتا بالدموع، غير أنه تردّدَ، مُنهياً كلامَه وهو يلهثُ: «إنهن يرحّبن بكَ جميعاً».

«برافو»، قال يوليان.

«إذن هل سترتدي ملابسكَ الآن؟».

هزَّ يوليان رأسه. «دعني أعيش نيابةً عن الآخرين. إني أتطلّع إلى قراءة

1- في النص الإنكليزي: you come wiz me: آثرنا إجراء تحوير طفيف في ترجمتنا وفق كلام الأرملة الفرنسية – م.

2- الإبداعية بالإنكليزية inventivness – م.

قصة عن كل واحدةٍ من هؤلاء السيدات في كتابكَ القادم. لا تخذلني. والآن، إذا سمحتَ لي، أنا متأسفٌ، أنا على وشك أن أكونَ مريضاً».

كم هو مزعجٌ أن يوليان لن يقبلَ عرضه بالإنقاذ من رثاء - الذات الساذج ومن سكونِه غير الصحيّ. وكم هو غريبٌ بالنسبة له أنه أطالَ مُدّته، بعد أن كانَ عاكفاً جدّاً على أن يُحرّر نفسَه من عبء صحبةِ يوليان خلال الرحلةِ البحريّة؛ إلّا أنّ تغيير الجوّ الداخلي لا يمكن تجاهله بعد الآن أكثر من مجيءِ ريحِ المحيط المصحوبة بالمطر أو الثلج.

مغادراً الحجرةَ الخصوصيّة، بعد أن نظّفَ مُخلّفات يوليان تعبيراً عن شعورِهِ بالواجب، استعادَ الشمسَ والريحَ ومكانتَه الرفيعة في الحدّة الهازئة. حالُه حالُ السواد الأعظم من الكُتّاب الأذكياء، كان قد مرَّ وقتٌ طويلٌ على ريشارد منذ أن عوّد نفسَه على أن يكونَ شخصين فعلاً. أحدهُما رجلٌ دافئ المشاعر، قلِقٌ، متصابٍ نوعاً ما بالنسبة لسنواتِه الخمس والعشرين، في حين إن الرجلَ الآخر... في الفردِ الآخر، منفصلٌ، متهوِّر، متلاعبٌ، متأنقٌ في مزاج شخصٍ أكبر منه بكثير. كانت الذاتُ الأولى مندهشةً أبداً من الدليل على ذكائه، إنها لا تكفّ عن أن تثيرَ دهشته، وأن تهزّه، حين *تواتيه* حالاً الكلمات، والبلاغة، والأفكار، والملاحظات، مثل طيور تحلّقُ خارج فمه. أما الذاتُ الأخرى فمحكومٌ عليها بألّا تجد أحداً ذكيّاً بما يكفي ـــــ وكلّ ما رآه هو تحدٍّ لمهاراتِه بوصفِه ملاحظاً وواصفاً، لأنها مغموسةٌ بتهوّر شديد، بكثافة في ذاتها («العالَم» ليس كاتباً).

الذات الأولى هي البولندي اليافع، غير الواثق، غير المستقر الذي يصبو لأن يكونَ رجلاً خبيراً بالحياةِ وشؤونها. أما الذاتُ الثانية فكانتْ على الدوام، في أعماقِ فؤادِه المختلِس، عدَّته بوصفه فرداً يختلفُ تماماً عن أيّ فردٍ آخر. أحد هؤلاء الأشخاص الأذكياء إلى حدٍّ كبير الذين أصبحوا كُتاباً لأنهم لا يستطيعون أن يتصوّروا استخداماً أفضل لأرقهم، إحساسهم بكونهم مختلفين عن سائر الآخرين، كان ريشارد يعرفُ أن ذكاءَه يُمكن أيضاً

أن يكونَ عقبةً: كم سيكون روائيّاً جيداً لو أنّه وجدَ سائر الناس الذين قابلَهم إما منافين للمنطق أو مثيرين للشفقة؟ يتعينُ على المرء أن يؤمن بالناس كي يُصبحَ كاتباً عظيماً، الأمر الذي يعني أن المرء يجب أن يرتبَ باستمرار توقعاتِه عنهم. لا يسع ريشارد أن يزدري امرأةً لأنها أقلُّ ذكاءً منه، بما أنّ الغباءَ صفةٌ وجدَها ريشارد بكميّةٍ وفيرةٍ لدى جميع الأشخاص الذين عرفهم، بمَن فيهم مارينا (التي وجدَ ذكاءَها... محبباً). وعلى الرغم مما قالَه ليوليان، ريشارد كان يُمكن أن يُهان لو أنّ سائرَ الناس هناك في بولندا لم يظنوا أنه مغرمٌ بها؛ وبسببِ تلك التوسّلات التي يُمكن تقليدها بسهولة، وتوسلات رجلٍ أصغر سنّاً إلى ممثلةٍ مشهورة، الرجل الذي كان يرى على الدوام من خلال الناس، الكاتب، أعطى موافقته المتقدة. فكر أنه شيءٌ لائق، وحتى مُحسَّن، أن يجعل منه الحبُّ متواضعاً.

الحُبُّ، تضحيةٌ شهوانية بالقرار. الحُبُّ، مُتحوِّل الشكل ـــــ يتغيرُ بالقدرِ نفسه في غياب المحبوب كما في حضورِه. سَحَرَهُ تنوّعُ مشاعرِه نحو مارينا. في يومٍ ما كان شَبقاً، شَبقاً خالصاً. يمكنه أن يستحضرَ فقط مؤخرةَ رقبتِها البيضاء الناعمة، تقوّسَ ثدييها، الثقل الوردي للسانها. كان اليوم التالي هو السِّحرُ بعينه. كانت هي الموضوع الشيق جدّاً الذي لم أُصادف مثيلاً له من قبل. وفي يومٍ آخر: إنه جمالُها، جمالُها (وحدَه!) إن لم تكنْ تبدو كذلك على وجه الدقة، ذلك الوجه، وتلك الإيماءات، إن لم تمتلكْ ذلك الصوت، إن لم تكنْ مديدةَ القامة، إن لم تكنْ ترتدي تلك الملابس الناعمة، الحريريّة الغالية، ما كانت لتُشعل ثقباً في فؤادي. وفي بعض الأحيان، عادةً: لا، إنه الإعجاب. كانت لديها موهبة كبيرةٌ، وروح عظيمة؛ هي مخلصة، وفية، وأنا لستُ كذلك.

مارينا، كان يعرفُ، سوف توافقُ على تعاطفِه مع ركاب درجةِ السعرِ الأرخص، وحين نزلَ، بعد يومين، إلى الأسفل مرةً أخرى إلى مكانِ المضاجع ذات السعر الأرخص ـــــ سواء لأن مارينا كانت تريدُه أن يفعل ذلك أو ببساطةٍ لأنه كان يرغبُ بأن يُجرّب ثانيةً، إنما بمزيدٍ من البرود، ذلك

الفَزَع، في تلك اللحظة كان ريشارد بنحوٍ مبهج غير قادر على أن يقولَ ـــ إنه هو بدورِه خرج بمادة أكثر من كافية لمقالتِه عن الرحلةِ من خلال الحوارات التي نجحَ في إجرائها مع نحو عشرة مهاجرين مشدوهين أو حائرين. (الرجل المُسن الذي تلا من [كتاب التأمل]، وراح يفسّرُ كيف أن الله قد قضى بأن سائرَ البشر في العالم قبل أن تنتهي أيامُهم سوف يأتون إلى «هميريكا» ـــ ريشارد سوف يحتفظُ به لقصةٍ قصيرة[1]). استغرق الأمرُ يومين قبل أن تخرجَ من منخريه رائحةُ الطعام المتعفن والمرحاض الذي تخثر فيه البراز.

كانت لا تزال في منخريه حين أخذ قبطان الـ«*جيرمانيك*» ريشارد جانباً كي يعترضَ على غزواته، قائلاً إنه فيما هو غير قادرٍ بالطبع على منع «الاتصالات» بين ركاب درجة «الصالون» وركاب درجة السعر الأرخص، كانت لديه تعليمات من الشركةِ كي يعيقها بقوة. «لأسبابٍ تتعلق بالصّحة»، كما قال. كان رجلاً ضخم البدن، حُوت في هيئة رجل، بدتْ هذه اللغةُ الأنيقةُ بنحو متكلّف غير مناسبةٍ له، كان ريشارد يفكرُ ـــ ذلك أنه ظنَّ أن القبطان كان يشيرُ إلى تجارة الجنس القذرة التي تُقدَّمُ في الأسفل. لكن لا، تبيّن أنها عقبةٌ مباشرة أكثر: إن «موظفي الصحة» في نيويورك الذين يجب أن يَفحصوا ركابَ درجة السعر الأرخص بحثاً عن أعراض الأمراضِ المعدية أو الجرثومية وإذا اكتشفوا أن ثمةَ زيارات من ركاب «الصالون» خلال الرحلة، أولئك الركاب ربما يخضعون أيضاً للحَجر الصحيّ.

«أشكرك على اهتمامِك»، قال ريشارد.

كانا في «حجرة التدخين» حيث يُتوقع أن ينفضَّ الرجالُ إليها ما إن ينتهي العشاء (الزوجات والبنات كان لديهن [مخدع السيدات] مخصصٌ لدردشتهن في أوقات الفراغ)، حيث أعفى ريشارد نفسَه من الالتزام بإجراء حوارٍ مؤدب وجلسَ على بُعد مسافةٍ قصيرةٍ مع غليونه، يراقبُ، ويصغي. الرجال، متوردو الوجوه من جراء الشراب، كانوا يتكلمون في الأغلب عن أسهمِ الشركات والنِّسب (كان يفهم قليلاً مما كانوا يقولونه) أو يروون

1- المقصود هنا أن ريشارد سيحتفظ به ليكون بطلَ قصةٍ قصيرةٍ يكتبُها لاحقاً – م.

قصصاً عن مآثرهم الجنسية (كان يتساءلُ أيّ واحدٍ منهم كان مع نورا) في حين إن ريشارد ـــــ ريشارد كان يرعى تحمّلاً بدائيّاً ولامبالاةً وديَّة. يا لها من مسافةٍ هائلةٍ قطعتُها على هذه السفينة، هكذا فكرَ. شعر بأنها ليستْ فقط مجردَ أميالٍ كثيرة، بل أعوام طويلة منذ أن قابلَ الشاب الغرّ الذي جاء على متن السفينة في ليڤربول. يا للسرعةِ التي يسافر فيها النبأ. النبأ يسافرُ أسرع من أيّ شيء في العالم.

قريباً من نهاية الرحلة البحرية تحوّل الجوّ وأصبح عاصفاً (يوم واحد من الرياح الهوجاء الحقيقية) وكما لو أنّهم كانوا يحتاجون إلى هذا التحدّي، أمر يوليان نفسه بأنه تعافى من دوار البحر وأنه قادر على استئناف الطرائق الروتينية للحياة على ظهر السفينة. «أشعر بأني استعدتُ نشاطي تماماً»، أعلن لريشارد. «كما لو أنّي تلقيتُ علاجاً».

كانا يقفان معاً عند الدرابزون فوق البحر الذي أمسى الآن أهدأ، وكان يوليان ينبه ريشارد إلى بعضِ الاختلافات بين اللغة البريطانية واللغة الإنكليزية الأمريكية مكتب الحجز A booking office هو مكتب التذاكر a ticket office، الأمتعة luggage هي الحقائب baggage، الموقف a station، هو المحطة a depot أيضاً... حين أتت الفتاة من فيلادلفيا على ظهر السفينة.

«أوه، هو ذا أنتَ. كنتُ أفتشُ عنكَ في كلّ الأرجاء».

«أها»، قال يوليان.

كانت قد أصبحتْ وسطهما الآن.

«طبتِ صباحاً، آنسة»، قال يوليان. «إنه يومٌ جميل، هل هو غير ذلك؟ يا للأسف، إنه ليس كذلك، هذه الرحلةُ البحريّة المُبهِجة تشارفُ على الانتهاء».

«أتريدها؟». قال ريشارد بالبولندية. «إنها مُلككَ».

«ماذا تقول؟». قالت الفتاة. «أمي تقول إنه ليس من الأدب أن يقول المرءُ شيئاً لا يفهمه الأشخاص الآخرون».

«إني أقول للبروفيسور سولسكي إنكِ وجدتني ساحراً جدّاً بحيث إنّكِ متلهفةٌ جدّاً للقاء أكثر ما يمكن من الرجال النبلاء البولنديين».

«سيد كرول، كيف يمكنكَ أن تقول شيئاً كهذا! يا للهول، تلك كذبة!».

«اعذريني»، قال يوليان، «اعذريني، آنسة»، وفرَّ هارباً.

«يا لك من سوقي»، صرخت الفتاة. «الآن غادر صديقُكَ. إن كنتَ تريد فعلاً اللقاء به، لم تكنْ تلك الطريقة في الشروع بذلك. يا للهول، إني أعتقدُ أنه كان مُحرَجاً حتى أكثر مني. توقفتْ هنيهةً، وبعدها هزّتْ إصبعاً باتجاه ريشارد. «أوه، أنتَ بذيء جداً، جدّاً. هل كنتَ تسعى لأن تحرج صديقك؟».

«أجل. كي أختلي بكِ».

«حسناً، يمكننا فقط أن نكون وحدنا دقيقة واحدة لا غير. يلزمني أن أعودَ مباشرةً إلى الكابينة كي أساعدَ ماما حتى تقرّرَ ماذا تلبسُ لمأدبة الوداع الليلة. إلّا أنّي أحضرتُ لك هذا». كانت تحمل ألبوماً صغيراً أحمر من نسيج البلش بحافات مذهبة.

«هل هو هدية؟». سألها ريشارد. «أنت تحضرين هديةً لي، أيتها الفتاة الفاتنة؟».

«أوه، لا، إنه لي!». هتفتْ. «إنه أغلى مقتنياتي، باستثناء الـــــ» توقفتْ عن الكلام، محمرّة الوجه. كانت لائحة مقتنياتها النفيسة طويلةً نوعاً ما.

«مع ذلك، أنتِ تريدين أن تريني أثمن مقتنياتك. وهذا يبرهن على أنكِ تحبينني حقّاً. ما هو؟».

«كتاب تواقيع الأشخاص خاصتي!». صاحتْ بانتصار. «وإن عرضي هذا لكَ لا يبرهن على أيّ شيء قط. إني أعرضُه على كلّ الأشخاص الذين أعرفُهم وكلّ الأشخاص الذين أقابلُهم، حتى إذا كنتُ أُحبُّهم قليلاً».

«أوه»، قال ريشارد في فزع زائف.

«عليكَ أن تنظر إلى ما بداخله. إنه يحتوي على أشعار كتبها أشخاصٌ لي. كل سيدة شابة تملك ألبوماً من هذا الطراز».

قلَّبَ ريشارد الصفحات الزرق المخضرة، بلون السّلمون، الرمادية، الوردية، الصفراء البرتقالية، والفيروزية. «[كوني بخير، أيتها الطفلة العزيزة، ودعينا نعرف مَن سيكون الذكي]. مَن كتب هذا؟».

«أبي».

«هل تؤيدين كلامَه؟».

«سيد كارول، أنت تطرحُ أسخفَ الأسئلة!».

«ريشارد. وهذا؟».

«أيّ واحد؟».

كم كان يستمتع بأن يُلقي بلكنتِه البولندية المُضحِكة. «في عاصفة الحياة / حين تحتاج إلى مظلة / ربما تكون مرفوعةً عالياً / من لدن قاطع أخشاب وسيم. لو كان بمستطاع مارينا أن تراه الآن!». «مَن هو المؤلف؟».

«أعزّ صديقاتي، أبيغيل. كنا في [أكاديمية الآنسة أوغليڤي] معاً، كانت تسبقني بعام دراسيّ واحد، إنما هي الآن متزوجة».

«الأمر الذي يعني أنكِ تغارين منها».

«ربما أغارُ منها وربما لا. هذهِ مسألةٌ شخصية جدّاً!».

«ليستْ شخصيةً جدّاً كما يمكن أن أكونَ أنا».

«سيد كريل، يلزمكَ أن تتوقفَ عن ذلك. ودوّن شيئاً في كتابي، ألم تقلْ إنك كاتب؟ إذا كتبتَ شيئاً ما فيه، عندئذٍ لن أنساك قط».

«يلزمني أن أكتب شيئاً ما إليكِ كي تتذكريني؟ إنكِ لن تتذكريني دوماً إذا ما تبعتكِ إلى فيلادلفيا؟».

«هل ستأتي إلى فيلادلفيا؟».

«كي أرى الـ[المعرض المئوي]، بطبيعة الحال. قلتِ لي إنه يتعين عليَّ أن أشاهده».

«لكني ـــــ».

«ويتعين عليكِ أن تكوني دليلي. سحبها إليه: لِمَ لا، سيصلون اليابسة في نيويورك غداً». «إني أضُمُّك بقوةٍ إلى قلبي. لا تقولي إنه يلزمنا أن نفترق. أو يتعين عليَّ أن أجد ـــــ» وهي، بدورها، لاذتْ بالفرار. وداعاً، آنسة فيلادلفيا.

ماء شحيح، وجزر، وزورق السحب، وبعدها الجزيرة، منهاتن، وريح شديدة الحرارة، والنوارس، وطيور الغاق، والصقور تنعطف وتدور فوق رؤوسنا فيما شرعت الـ «*جيرمانيك*» في الدنوّ من منبع النهر، وفي النهاية راحت ترتعد وتصطدم برصيف «وايت ستار» في الشارع الثالث والعشرين. إلى يمينهم، الـ*كونترا ناتورام*[1] العديم الرحمة العائد لمدينةٍ حديثةٍ، مدينةٍ مكرّسةٍ لإعادة تشكيل جميع العلاقات مع المشتري والبائع. مدينةٍ ناجحةٍ، يودُّ الناس أن يهاجروا إليها. بأيّ ثمن، مهما كانت المعاملات مهينةً.

ركـاب درجـة السعر الأرخـص كانوا لا يزالون مجتمعين خارج الـ «*جيرمانيك*» على المركب الذي سوف يعيدُهم نحو النهر إلى «كاسل كلينتون»[2]، الحصن السابق الواقع أسفل منهاتن حيث يتمّ هناك استجوابهم وفحصهم، حين ينتهي موظفو الجمارك الذين صعدوا إلى ظهر السفينة من محاورة ركاب الدرجة الأولى وتدقيق أمتعتهم والترحيب بهم في أمريكا. ريشارد ويوليان نزلا إلى الشارع الذي يتصاعدُ منه البخارُ واستأجرا مركبةً كي تأخذهما إلى فندقهما.

حجمُه أذهلَ حتى يوليان. بوساطة برقيةٍ لاسلكيّة من ليڤربول كان قد

1- كونترا ناتورام contra naturam (باللاتينية): ضد الطبيعة – م.

2- كاسل كلينتون Castle Clinton: كان يُسمى سابقاً كلينتون غاردن Clinton Garden: حصنٌ دائريّ من حجرٍ رملي، يقع الآن في متنزه باتري في منهاتن، نيويورك سيتي. ربما هو أفضل مكان يمكن تذكره كمحطة هجرة، حيث وصل إليها أكثر من ثمانية ملايين مهاجر إلى الولايات المتحدة بين 1855 و1890. هو الآن نصبٌ تذكاريّ قومي – م.

حجزَ غرفةً مزدوجة في الـ«سنترال هوتيل»ــــ بالاسم. «إنه يبدو أشبه ببنك»، قال ريشارد.

هل هذا هو الجوّ الطبيعي، سألَ الموظف الكاتب بعد أن سجلا اسميهما (في بلدٍ حرّ، كما أشار يوليان، يحتاج المرء إلى أن يعرض أيَّ وثيقةٍ تُثبتُ شخصيتَه) وبعد أن استفسر منه أين يمكن شراء طوابع كي يبعث رزمةَ الرسائل خاصته «فقط أعطه الرسائل»، همس يوليان. «إنه يفعلُ هذا ويضعُ الطوابعَ البريدية على فاتورتنا».

«أنتَ تقصدُ الموجةَ الحارة»، قال الموظف الكاتب. «أوه، إنها ليستْ حارةً جدّاً كما يمكن أن تكون. ليس في تموز. لا، سيدي. هذا الحرُّ لاشيء. عليكَ أن ترجعَ الشهر المقبل!».

تبعا الحمالين الأسودين اللذين قفزا إلى الأمام كي يتولّيا مسؤولية صندوق الثياب والحقائب العائدة لهما، اجتازا غرفة الاستقبال الرحبة، بمناطق الشذا العديدة خاصتها المؤلفة من النحاس الأصفر الصقيل والخشب المشبع بالزيت وتبغ المضغ، ونظرا إلى داخل حجرة الطعام العميقة كالكهف حيث كان نزلاء الفندق يهبطون أربع مرات يومياً كي يتناولوا وجبات طعامهم (يلاحظ ريشارد أن الحرارة على ما يبدو فوّضت الرجال كي يتناولوا الطعام دون ستراتهم، يوليان يشرحُ ذلك، كما في السفينة، في الفنادق الأمريكية لا توجد أسعار منفصلة لوجبات الطعام، كلفتُها تمّ احتسابُها مع أجرةِ الغرفة)، وصلا إلى غرفتهما الضخمة بمروحتها السقفية الجميلة لكن عديمة النفع، كما أخبراهما جلداهما، وقررا أن يخرجا من الفندق حالاً كي يتنزها مشياً على الأقدام. ولم يستوعبْ ريشارد، الذين كان منشغلاً بالملاحظة، إصدار الأحكام، الاستنتاج من لحظة وصولهما إلى اليابسة قبل ساعتين، الأمر إلّا حين رجعا إلى الشارع. ربما رؤية اليافطة آنَ خرجا من الفندق. برودوي. كانا في برودوي! تباطأ عقلُه الذكيّ وكلُّ ما تمكّنَ من التفكير فيه هو: أنا هنا، أنا هنا فعلاً.

في السفينة، ذلك العالم الصغير القاسي، كان ريشارد في اللامكان؛

لذلك كان بوسعه أن يشعر بأنه في الأمكنة كلها، ملك الوعي. أنتَ تقطعُ عالمَكَ جيئةً وذهاباً، فيما هو يتحرّكُ عبر سطح من الرتابة غير المعلّمة، من أحد الطرفين إلى الطرف الآخر. إنه صغير، هذا العالم. يمكنكَ أن تضعَه في جيبك. هذا هو جمال السفر على متن السفينة.

إنما الآن هو في مكانٍ ما. لم يسبقْ له أن أحسَّ بأنه مشدوه حين كانت وجهتُه هي سان بطرسبورغ أو ڤيينا (مع أنّ رأسه منذ أمدٍ طويل كان يعجُّ بصور تلك المُدن التي كانت، في رأيه، مُدناً أسطورية)، لم يشعرْ قط بأنه مصعوقٌ أولَ مرة بوجوده المحض في المكان الذي يكون فيه، وبدا كما لو أنّ ذلك شيءٌ مصوَّر. كانت نيويورك هي التي أنتجتْ هذا السحر، أو لعلها أمريكا، همريكا، التي أمستْ أسطوريةً جدّاً بوساطة انتشار الأحلام، وانتشار الآمال، المخاوف التي لا يمكن أن يسندها واقع ما ــــ لأن كلّ فردٍ في أوروبا لديه وجهات نظره عن هذا البلد، وهو مفتونٌ بأمريكا، يتصوّر أنه بلد رعوي أو بربري ومهما أُدرك، فهو دوماً نوعٌ من الحل. وخلال ذلك، في أعماقك أنتَ غير مقتنع تماماً أنه بلدٌ موجودٌ فعلاً. إلّا أنّه موجود!

كي يكون مصدوماً جدّاً بأن شيئاً ما موجود حقّاً يعني أنه غير حقيقي بكل معنى الكلمة. إن الشيء الحقيقي هو الذي لا تتعجب منه، وأن تشعر بالارتباك بسببه: إنه فقط التراب الجاف الذي يطوّقُ بركةَ وعيكَ الصغيرة. اجعلْ منه حقيقيّاً، اجعلْ منه حقيقيّاً!

في ذلك المساء رجعا سيراً على الأقدام تقريباً إلى قاع الجزيرة. فيما كان يهبط الليل كانت الشوارع ما تزال مزدحمةً بالناس والسيارات، المتسوقون وعمال المكاتب يفسحون المجال لحشد التسلية، الذي كان يضم عدداً لا حصرَ له من بائعات الهوى اللائي يتحرشن بالرجال في الشوارع. تأخرا في «يونين سكوير»، وراحا يراقبان الأشخاص الحسني الهندام يدلفون إلى صالات المسارح؛ محدّقين في داخل حانةٍ تقع في «بليكر ستريت» إلى نسوة شبه عاريات في أحضان رجال يرتدون قمصاناً دون سترات متكئين للوراء في كراسيهم (هذا هو ما يسميه الأمريكيون، وهو شيء غريب بنحو كاف،

الصالون. وهنالك أيضاً حانة سيئة السمعة، قال يوليان)؛ وهما يجتازان الشوارع حيث كان ساكنو الشقق المختنقون قد جرّوا أفرشة القش وألواحاً خشبيةً ثقيلةً إلى الخارج على سلالم النجاة وأرصفة المشاة كي يناموا... لزم ريشارد الصمت؛ يوليان يعلّق قائلاً إن حيّ المُشرّدين في نيويورك له معنًى مختلف عن حيّ المشردين في ليڤربول لأن الناس هنا لديهم أمل («السفن لا تغادر نيويورك أسبوعيّاً محمّلةً بالفقراء المهاجرين إلى ليڤربول»، قال). غير أن ريشارد لم ينتبهْ، وهو قلّما سمعَ ملاحظات يوليان التافهة. كان يصغي إلى الصوت القابع في رأسه الفارغ بنحو غريب. أنا هنا. أين كنتُ أفكر أني ذاهب؟ أنا هنا.

إنه موجود... لكن بعدئذٍ، هل أنت؟

بالطبع، لديكَ أشياؤك الخاصة التي تفعلُها. طرائقُك في السلوك. إن كنتَ رجلاً، حيثما تمضي، يمكنكَ دوماً أن تفتش عن الجنس. إذا كنتَ، رجلاً أم امرأة، فرداً منصرفاً لتسليةٍ غريبة، من مثل الفن، يمكنكَ أن تقضي وقتك وأنتَ تتفحص المنشآت المحلية، حتى ولو تتأسف على عدم كفايتها. إذا كنتَ صحافيّاً، أو كاتب قصة أو رواية خيالية تلعب دور صحافي، سوف ترغبُ بأن تَحصُلَ على كفايتِكَ من البؤس المحليّ. الذلُّ الذي لا يلين للنُّدُل الزنوج في مطعم الفندق، وهم يصيحون «نعم أستاذ، نعم أستاذ!». ردّاً على كلّ طلب، مؤكداً انطباعه بأن أكثر القوم أدباً الذين صادفهم في نيويورك كانوا أولئك القادمين من أفريقيا، الذين جُلبوا إلى هنا مقيدين بالسلاسل، في حين إن الناسَ الذين كان يشعرُ بأنهم يشكلون خطراً هم الأوروبيون الذين اختاروا مؤخراً المجيء إلى هنا. كلما يحذّرونه بألّا يغامر بالذهاب إلى أمكنة ما كان يمضي: وادي الخيام وأناشيد البحارة التي كانت تبدأ على بُعد شوارع قليلة غرب الـ «سنترال پارك»، شوارع خلفية مظلمة ومخيفة من مثل «بايارد» و«سوليڤان»، و«ويست هيوستن»، حتى «راغ بيكرز رو» السيئ السمعة، و«بُتل ألي»، حيث يقيم أكثر الناس عوزاً وبؤساً، وبناءً على ذلك

هم أخطر السكان قاطبةً. إن الخطر الكامن في أن تُنتشَل محفظته اليدوية هو أقلُ المخاطر التي أُخبر بأنه سيتعرّض لها. سوف يتبادرُ إلى ذهنكَ أن قدميه وطأتا جزيرةَ آكلي لحوم البشر.

كان ريشارد يملكُ فراغ الذهن المتوافر دوماً الخاص بالكاتب، أي كاتب. كان يوليان يملك الراحة الناجمة عن اهتماماته ـــ العلم، الابتكارات، التقدّم. ما رآه حين سافر وضّح أو أضاف لـ: ما كان يعرفه أصلاً. كان يوليان، وحده، هو الذي مضى إلى «المعرض المئوي» بعد يومين من وصولهما. آخر أعاجيب الاختراعات الأمريكية كانت معروضةً هناك ـــ التليفون! الآلة الطابعة! ماكينة نسخ الرسائل! ـــ ورجع بعد يومٍ إلى فيلادلفيا مفتوناً بما شاهده. ريشارد، مع أنّ جريدته كانت تريد وصفاً مكتوباً بالتماس المباشر مع هذا اليوبيل الفضي القومي والمعرض العالمي، توسّل إليهم: إنه لا يقدر أن يتحمل جولةً أخرى من شرح يوليان لما هو حديث وحساس بالنسبة له. كانت هذه نيويورك، فجاجتها، وعدم احترامها، هما اللتان جذبتا ريشارد. في الواقع، كان يشك في أنه ربما شعر بأنه اطّلع على هذه المدينة قبل ثلاثين عاماً، تلك المدينة التي شَجبَها ديكنز بقوّة، حين كانت الخنازير ما تزال تُرى على أرصفة الشوارع. من بين هذه المقالات الثلاث التي أرسلها إلى الـ «*غازيتا بولسكا*» قبل أن ينتقلا إلى مكان جديد ـــ «حياة الباخرة العظيمة العابرة للأطلسي»، «نيويورك: رؤية أولى»، «أساليب الحياة الأمريكية» ـــ المقالتان الثانية والثالثة هما وصفٌ كاملٌ ونابضٌ بالحيوية وإعجاب حكيم يتعلق بـ: قدرات المدينة.

إحدى أفضليات ريشارد بوصفه مسافراً على يوليان: ميلُه إلى التسلية الجنسية. كونه، بمحض المصادفة في البحر، لأولَ مرةٍ في حياته لمحَ شيئاً من خِسّة العُهر، قرر ريشارد أن يطمسَ هذه المعلومةَ المزعجة من خلال زيارةٍ مبهجةٍ إلى دار بغاء في «واشنطن سكوير» حيث، وفيما كان عائداً إلى الطابق الأسفل من ساعته مع ماريانا المُغرية، توقفَ كي يشرب كأس شمبانيا وينعمُ بتعزيز اللذة من خلال إعادة ملء عقله رويداً رويداً.

«لا يمكنني أن أميّز اللكنة»، قال الرجل بلطف.

«أنا صحافي من بولندا»، قال ريشارد كأنه يقدّم نفسه.

«أنا صحافي أيضاً!». لم تكن المهنة التي خمّنها ريشارد لهذا الرجل اللطيف الأكبر منه سناً بالوجه المُجعد والبنية الرياضيّة. «هل أتيتَ بشكلٍ خاص حتى تكتبَ عن أمريكا؟». أومأ ريشارد برأسه. «يتعين عليكَ إذن أنَّ تقرأ كتبي. لا يمكنني أن أمنع نفسي من نصح الناس بمطالعتها».

«أريد أن أقرأ أكثر ما يمكن من الكتب عن أمريكا».

«رائع! هذه هي الروح! ربما تبدو المواضيع ضيقةً نوعاً ما بالنسبة لك. أعني، أنا لستُ توكڤيل ــــ».

«مَن؟». قال ريشارد.

«توكڤيل، كما تعرف، ذلك الفرنسي الذي جاءَ إلى هنا، لا بدّ أن ذلك جرى قبل خمسين عاماً خلت».

«صحيح»، قال ريشارد.

«لكن، كما سترى، في كتبي سوف تعرفُ أشياء معظم الأجانبِ لا يعرفون عنها شيئاً. هنالك كتاب السنة الفائتة، [*المجتمعات الشيوعية في الولايات المتحدة*]، والكتاب الذي صدرَ قبل ثلاثة أعوام، [*كاليفورنيا: من أجل الصحة، والسعادة الغامرة، والإقامة*]، وــــ».

«لكن هذا، هذا» ــــ ريشارد، كان يبحث بسعادة عن الكلمة من مفرداته الخاملة ــــ «غريب، سيد...».

«تشارلز نوردهوف»، مدّ يده وأمسك بها ريشارد بحرارة.

ريتشارد كيرول. يا إلهي، فكر ريشارد في نفسه. إني أغيّر اسمي. في أمريكا سوف أُصبحُ ريتشـــــ ارد حقيقةً. «غريب»، كرّرَ. «لأني ذاهبٌ إلى كاليفورنيا وأتوقعُ أن أبقى هناك مدةً وجيزةً. وأنا مهتم جدّاً بالجماعات التي تعيش وفق مستوًى أعلى، نوع من التعاون المشترك». توقف هنيهةً عن الكلام. «هذا، أفترض، ما عنيتَه أنتَ بالمجتمعات الشيوعية».

«أجـل، وهنالك مجتمعاتٌ كثيرةٌ منها، في تكساس وبنسلڤانيا وكاليفورنيا، في الأنحاء كلِّها، معِ أنّها لا تنجح في النهاية، بالطبع. غير أن هذا هو حال البلد. نحن نجرّبُ كلَّ شيء. نحن بلد المثاليين. أم إن هذا ليس هو انطباعك؟».

«أنا أعترف»، قال ريشارد، «لم أرَ شيئاً كثيراً من ذلك حتى الآن».

«لا؟ حسناً، أنتَ لم ترَ أمريكا الحقيقية. اخرجْ من نيويورك. لا أحدَ يبالي بأيّ شيء هنا باستثناء المال. اخرجْ إلى جهة الغرب. اذهبْ إلى كاليفورنيا. إنها الجنّة بعينها. الجميع يودون الذهاب إلى هناك».

«لا تبدو أمريكياً فعلاً»، قال ليوليان، حيث نقل إليه هذا التبادل (مع أنّه لم يذكرْ له موقعه) لدى عودته إلى الفندق، بأن أمريكا لها أمريكا الخاصة بها، وجهاتها الأفضل هي تلك التي يحلمُ الجميع بالذهاب إليها؟

لم يدركْ ريشارد أنه عاشَ تماماً صدمَتَه وذهولَه حتى بعد زوالهما إلّا بعد أن حددَّ هو ويوليان تاريخ مغادرتِهما. لم يعدْ يتعجب؛ كان ذلك كلُّه حقيقياً بكل معنى الكلمة. في الواقع، من خلال تلك العملية التي يكون فيها العقلُ الذكي جاهزاً كي يبرع في إثارة الدهشة، قرَّرَ أن ما أذهله بتفرّده لم يكنْ فريدا: سفينة نوح هذه معنيةٌ بحالات الهرب من كلّ ضروب الطوفان، من كلِّ كارثةٍ على اليابسة، أصلاً، ثالثة أكبر المدن في العالم المعروف، لن تكون الوحيدة من نوعها. حيثما يوجد وعدٌ سيكون هذا القُبح، وهذه الحيوية، وهذا السخط، إضافةً إلى تهنئة - الذات هذه. في يوم الأحد، اليوم الثالث من مدة مكوثهما، ذهب ريشارد إلى كنيسةٍ واقعةٍ في بروكلين كي يسمعَ كاهنها البارز، مؤلف المُجلّد الصادر حديثاً، وهو من أفضل المبيعات، الموسوم بـ «*الأشياء البغيضة في العالم الحديث*»، يلقي موعظةً في لاإنسانية وكفر نيويورك. تحذيراتٌ كهذه صَدَمتْ ريشارد كما لو أنّها عائدة لقطعةٍ تمدحُ الدرجات القصوى للجوّ. نحن لدينا أعظم بلد. ولدينا العاصمة الأشد إثماً. من المؤكد لا. حركةَ مرور مشلولة، ودوّامات من نثار الورق، ومواقع

بناء، وبنايات عادية مزوّدة بيافطات وإعلانات متاجر، ووجوهٌ من الألوان والأشكال كلِّها، وهذا الوصول المستمر، والبناء، والمغادرة ـــــ حالاً سيكون العالم مليئاً بمُدن كهذه المدينة.

غادرا في القطار الذي يجتاز البلد بأكمله بعد أسبوع من وصولهما. وهو يُكمل مقالته في الرحلة عبر الأطلسي، كان ريشارد قد أمضى بعض الساعات في «كاسل كلنتون» وهو يشاهد تراكم الصباح الطبيعي العائد لركاب الدرجة ذات السعر الأرخص فيما هم ينتظرون مصيرهم في الردهة الضخمة ووسط اللافتات التي تُخبر المهاجرين بكتابة كالحة مَن الذين يرحّبون بهم ومَن هم الذين سوف يُستثنون في الأرجح، تلصّصَ على هذه الرسالة المُغرية أكثر:

هُوْ! إلى كاليفورنيا!
جَنّة العامل.
طقسٌ صحيّ. تربةٌ خصبة.
لا توجد فصولُ شتاءٍ قاسية. ما من زمنٍ ضائع.
لا آفاتٍ زراعيّة ولا حشراتٍ مُؤذية.

هذا ما كان يقوله المُلصقُ المزوَّد برسم لوعاءٍ ضخمٍ قرنيّ الشكل يُفرغ شلالاً من الفاكهة الملوّنة، والسمك، والخضار، والمحاريث، والمنازل، والناس. رآه ثانيةً في الردهة المزدحمة بالقدر نفسه التابعة لمحطة السكك الحديدية، وأشار على يوليان أن ينتبه إليه، فيما كانا يفتشان عن الرصيف الذي يغادرُ منه القطار. سيقضيان سبعة أيام وسبع ليال في القطار، الذي سيتوقف في محطات كثيرة، لا واحدةَ منها، باستثناء محطة شيكاغو، يتوقف فيها مدةً تزيد على أكثر من ساعة أو ساعتين. كان ريشارد مفتوناً بالمَشهَد، أما يوليان فكان مفتوناً أقل من ذلك بكثير بما أنّه عرف أنه بات من الممكن الآن أن يذهبَ بشكل أسرع. دُشّن في الأول من شباط / فبراير، القطار السريع،

الذي توقف في محطاتٍ قليلةً ومضى بسرعةٍ لا يمكن تصوّرها تتراوح بين خمسين وستين ميلاً في الساعة، لم يستغرقْ سوى ثلاثة أيام وثلاث ليال كي يصل إلى سان فرانسيسكو. كان هذا هو القطار، قرَّرَ يوليان، الذي يتعين عليهما أن يأخذاه. إلّا أنّ ريشارد توقف فجأةً. «ثمة أشياء كثيرة جدّاً جديرة بأنْ يراها المرء»، قال. «عليَّ أن أرى». رفض ريشارد أن يوافق على استبدال تذكرتيهما.

«ما من زمنٍ ضائع»، تمتم يوليان، وهو يومئ برأسه إلى المُلصَق.

«جنّة العامل»، هتف ريشارد. «ابتهجْ، أيها الرفيق».

«حسناً، في الأقل... حسناً. لا آفاتٍ زراعية ولا حشراتٍ مؤذية»، أنشدَ يوليان، فيما هو يبتسم بسمةً عريضة. «هوو! إلى كاليفورنيا»، ترنّما، بفرح، معاً.

مكتبة
t.me/t_pdf

أربعة

هوبوكن، نيوجيرسي
الولايات المتحدة الأمريكية
9 آب / أغسطس 1876

صديقي العزيز

نعم، رسالة. وكنتَ تفكر، «التهمتها القارة». رسالة كنتُ أُهيئها على مدى أيام في رأسي، مع أنّي استغرقتُ وقتاً طويلاً جدّاً كي أتذكر كل شيء. وما هو أول شيءٍ جال في خاطري؟ في تلك اللحظات الأخيرة في وارسو. وجهكَ العبوس في محطة السكة الحديدية. أنا لا أشاهد الحشد، أنا لا أسمع الطلبة الجامعيين الذين ينشدون لي أغاني مفعمة بحُبّ الوطن. أرى الحزن البادي على وجه صديقي. صديقي العزيز! نحن لن نضيع بعضنا بعضاً، أعدكَ بذلك. أنت عزيز جدّاً عليَّ، وستظل هكذا دوماً. لكن هل اشتقتُ إليك؟ عليَّ أن أكون صادقةً، مع مَن أكون صادقةً إن لم أكنْ صادقةً معكَ؟ لا، ليس بعد. شعرتُ بالراحة وأنا أراك تقف مترهلاً، تستدير، وتغادر الرصيف قبل رحيل القطار. عبء إضافي آخر رُفع عن كاهلي: حزنك. كنتَ تريد أن تُدرج اسمي في كآبتك، في قناعتك بأن الحياة لا يمكن البدء بها مجدداً، وأننا كلّنا سجناء مهما أصبحنا، ومهما حققنا من نجاحات، ومهما كسبنا من ثروات. لكني لا أقبل بهذا، هينريك، بوسعي أن أتغيّر، أعرف هذا. أنا أصلاً لم أعد الشخص نفسه. إنه وهمُ شخصٍ يحترف التمثيل، ستقول هذا: وهمُ فردٍ تعوّد

تغيير الشخصيات التي يؤديها، يرتدي ألبسة شخص آخر. طيب، سأريكَ أنه بالمستطاع القيام بذلك دون أن تكون على خشبة المسرح!

هل ستمضي قُدُماً وتسكر؟ بطبيعة الحال، لقد فعلتَ ذلك. هل تقولُ لنفسك، إن مارينا خاصتي هجرتني إلى الأبد؟ بالطبع، لقد فعلتَ ذلك. إنما ليس إلى الأبد ـــ مع أنّه مَن يعرف متى يرى أحدُنا الآخر ثانيةً. إن الأسى الذي تعانيه، والكرب الذي تكابده بسبب رحيلي يجعلني أبدو ضروريةً بالنسبة لك أكثر من أيّ وقتٍ مضى، في ذاكرتك سوف تضخّمُ مفاتني، وتنسى حجمَ حزن حضوري في حياتكَ، وحجم عاطفتك الكئيبة نحوي، اللذين جلبهما لكَ هذا الرحيل. إنكَ تلاحقني في ذهنِكَ: هي الآن في القطار، هي الآن في السفينة، الآن وصلتْ إلى أمريكا، بدأتْ تلك الحياة الجديدة في منظرٍ جميل لا يسعني أن أتصوّره. لقد نسيتني. بعد برهةٍ من الزمن، ستكون غاضباً. لعلك الآن غاضب. سوف تَشعرُ بأنكَ أكبر سنّاً، وبعدها تفكرُ، هي، بدورها، أخذتْ تشيخُ. عمّا قريبٍ لن تكون جميلةً البتة. هذه الفكرةُ سوف تهبُكَ شيئاً من السعادةِ الغامرة.

إذا كان الأمرُ يمنحُكَ السلوى، إذن تخيّلني فيما ينسحب القطارُ مغادراً المحطة، ينغلقُ باب المقصورة، أنزع قفازيَّ وقبعتي، أسكب شيئاً من الماء من الإبريق وأدفن وجهي في قطعة قماش رطبة، الأمر الذي من شأنه أن يُفسِدَ مساحيقَ التجميل خاصتي، وتنكشف الدوائر المنتفخة تحت عينيّ والخطوط الممتدة من أنفي إلى فمي، وبعدها أنكمشُ في مقعدي، مرتعشةً، لا أعرف ما إذا يتعيّن عليَّ أن أضحكَ أم أبكي. كلُّ مناسباتِ الوداع تلك! هل كنتَ تعي كم كنتُ على وشكَ أن أتخلخل بسببِهم؟ الممثلون الشبان دامعو العيون تجمعوا على خشبة «المسرح الإمبراطوري» العارية في عصر اليوم الذي مضيتُ فيه كي أودّعهم، حصار أنصاري المتحمسين المؤنبينُ عند باب المسرح حين غادرتُه وقتَ غروب الشمس، على رصيفِ المشاة في أسفل شقتنا خلال الأيام الأخيرة، ومن ثم، بما أنّي غير قادرة على أن أُعطل زمنَ رحيلِنا كونه نُشر في الجرائد، موكب طلبة الجامعة الذين رافقوا

المركبة، وهم يهتفون، وينشدون الأغاني، حتى وصولنا إلى المحطة، وإكليل الأشرطة البيض والحمر الموقّع عليه: «إلى مارينا زويزوڤيسكا ــــ من [الشبيبة البولندية]»، الذي قدّموه إليّ فيما كنتُ أركب متن القطار. «إنهم يريدون أن يجعلوني أشعر بالذنب»، قلتُ لبوغدان. «لا»، ردَّ عليَّ، أنت تعرف كم بوسعه أن يكون لطيفاً، رقيقاً، «إنهم يريدون أن يجعلوكِ تشعرين بأنكِ محبوبة». لكن، فكرتُ، أليس ذلك هو الشيء نفسه؟

أنا لا أفهم لماذا يتعين عليَّ أن أشعر بأني مذنبةٌ بسبب مغادرتي!

في الوقت الذي وصلنا فيه إلى بريمين[1]، ولم تكنْ هذه سوى بداية رحلتنا، أحسستُ بأني كبرتُ عاماً. كان أمامنا يومان قبل أن تُبحر الـ «*دوناو*»، يومان من عدم القيام بأيّ شيء، وكنتُ لا أريد سوى أن أنعمَ بالراحة. إنما لا تتصوّر أني كنتُ عليلةً. وما من حالات صداع، لا وجودَ للصداع على الإطلاق. كنتُ أحس بأني ضعيفة لأن شيئاً ما يتدفّق مني. أو أني كنتُ أهيئُ نفسي لكفاحٍ أخير. «لقد أصدرتِ حُكماً بالعقوبة على نفسكِ»، قلتَ لي في زاكوپين. «الآن إنكِ تشعرين بأنكِ مجبرةٌ على تحمل هذا العبء. كلا، هينريك. أنا منجرفةٌ، يمكنني أن أضمنَ لكَ ذلك، أنا مُجبرةٌ، أبداً. بيد أني كنتُ أتساءل ما إذا، في نهاية المطاف، سأتداعى. ربما ما أزال أعتقد أن شخصاً ما سوف يعطلني. ربما كنتُ أفكر على الدوام أن فرداً ما سوف يقفُ في طريقي. سعى أشخاص كثيرون جدّاً لأن يعطلوني. كثيرون جدّاً، بمَن فيهم أنتَ، وكنتَ تذكّرني مَن أكون أنا، مَن هذه الـ «مدام مارينا» المهمة جدّاً، الضرورية جدّاً بالنسبة لهم. أو بالنسبة للمسرح. أو بالنسبة لبولندا. في وقتٍ لم تكنْ ترغب فيه سوى أن تكون لا أحد!

في بريمين، تعيّن عليَّ أن أتحمّل وداعاً أخيراً آخر. محاولةً أخيرةً أخرى كي يقفوا حجرَ عثرةٍ في طريقي. كان ينتظرني في «هوتيل كورديليا»، وهو شخص يمكنني أن أحدّثك وحدك عنه. جاء ليودعني مع الأزهار! لم يكنْ

1- بريمين Bremen: مدينة في ألمانيا، تقع في شمالي البلاد، وفي منتصف المسافة بين هامبورغ وهانوفر- م.

هو أحد المعجبين الذين يمكثون في صالات استقبال الفنادق، وعادةً ما يكونون شباناً يعتمرون قبعات طلبة جامعيين، متلعثمين، يدفعون الزهور عليَّ، إنما كان رجلاً عجوزاً بهيئة تنمُّ عن الثقة بالنفس بقبعةِ لبادٍ غريبة الشكل. هذا هو كلُّ ما فهمتُه في نظرتي، فيما كان بوغدان، الذي لا يعرف كيف يبدو هو، يحصر الزهور. إلى أن تكلّم ـــ «مرحباً بكم في بريمين»، هو كل ما قاله ـــ لم أتعرّفْ عليه. كيف كان ذلك ممكناً، هينريك، كيف؟ لم يكنْ قد تغيّر *بذلك* القدر.

تطلّعتُ إلى الوراء إلّا أنّه كان قد غابَ عن الأنظار. كان پيوتر ورائي، مع واندا. كنتُ أرتعد، لا بدّ أني كنتُ شاحبةً، أنا أعرف أن صوتي قد أضحى أجش حين التحقتُ ببوغدان الجالس إلى مكتبه. هناك عثرنا على خطاباتٍ مُرسلةٍ إلى واندا من يوليان، وخطابات إلينا من الاثنين: يوليان وريشارد، الخطابات الأخيرة أُرسلتْ بالبريد من نيويورك، خطاب إلى بوغدان من شقيقته، كان من المتوقّع أن تصلَ بعد ظهر ذلك اليوم (أصرّتْ على المجيء كي تودّعنا)، رسالة إليَّ من «جمعية شكسبير في بريمين» يطلبون مني فيها أن أشرّفهم بحضوري في قراءة لـ «*يوليوس قيصر*»، كانت الدعوة من بعض الممثلين الشبان الواعدين من كلا الجنسين ـــ ومذكّرة من الرجل بقبعة اللباد. كان قد قرأ في صحيفة ألمانية أني ذاهبة إلى أمريكا. كان قد أتى، قاطعاً المسافة الطويلة من برلين، كي يرى پيوتر، كما قال. يقيناً أنا لن أناقش حقه في توديع ابنه.

يمكنكَ أن تتصوّر الفزع الذي أحسستُه لدى توقّع حدوث هذا اللقاء ـــ أنتَ تعرف هذا الأمر عني، أيضاً ـــ أنا أخاف أكثر من أكون جبانةً. تركتُ مُذكّرةً لدى البواب، كما طلبَ هو، ورسمنا مُهمَتنا لما بعد ظهر الغد في المتنزه القريب، على طول «الڤيزر»[1]. قلتُ لبوغدان، الذي فعل كل ما بوسعه كي

1- ڤيزر Weser: نهر في شمال غربي ألمانيا. يلتقي رافدا نهري فولدا وفيرا في موندن بسكسونيا السفلى ليكونا بذلك نهر فيزر. يتدفق عبر سكسونيا السفلى، ثم يصل إلى مدينة بريمن الهانزية – م.

يواسي إيزابيلا المسكينة، بأني ذاهبة للتنزه مشياً على قدميّ مع الغلام. أخبرتُ پيوتر أنه سوف يقابلُ صديقاً قديماً لجدتِه. (لا تتهمني بأني أفتح جروحاً موغلةً في القِدم، هينريك!) بالطبع، تأخرَ في مجيئِه، وبعدها دون كلمةٍ اندفعَ بقوةٍ نحو الطفل، ضَمَّه إلى سترتِه العتيقة، وفي ذلك الحين من الطبيعي أن يشرع پيوتر بالزعيق. قلتُ للخادمة أن تُعيده إلى الفندق. هينريش لم يعترضْ على ذلك. ما من وداع، ما من لمحة أبوية ولهانة ــــ كان ما يزال شخصاً وحشيّاً، هينريك، هذا العجوز الحزين، غليظ القلب. ومن ثم تابعنا المسير، إنما تبيّن أنه شيءٌ مستحيل أن نتحاورَ ونحن نتمشى جنباً إلى جنباً. «ماذا؟». ظل يقول مراراً. «ماذا؟». «هل أصبحتِ صمّاء نوعاً ما؟». أجبته قائلةً: «ماذا؟». مضينا إلى المقهى الكائن في (ألتمانشوهه) وجلسنا على مقربة من اليم. وعلى الفور قلتُ له إني لن أسمح له بأن يوبخني. «أوبخكِ!». صاح. «لماذا ينبغي لي أن أوبخكِ؟». قلتُ له إني لن أسمحَ له أيضاً بأن يصيح عليَّ. «لكني لم أسمعْ صوتي»، عوى. «يمكنكِ أن تفهمي أني لا أسمع جيداً». ومن ثم وصف لي هذه السنوات الأخيرة في برلين، والمرأة التي يعيش معها، وهي مصابةٌ بسرطان المعدة. «لن يمرَّ وقتٌ طويل حتى أغدو وحيداً تماماً. [*قريباً لن تبقى لديَّ سوى زويزوڤيسكي القديمة*][1]. هو أيضاً يتهمني بتفاديه؟ سألته ما إذا كان يحتاج إلى النقود. هذا الأمر استفزه، فأظهر عَرضاً غاضباً بنحوٍ مفرط، الأمر الذي يعني أنه في النهاية أخذ المال مني فعلاً. ونعم، كان قد سعى فعلاً لأن يبعج تصميمي. أولاً استحضر مخاطر رحلةٍ بحرية كما لو أنّي لا أعي هذه المخاطر، وحتى إنه ذكّرني بالهجوم الذي شُنَّ في العام الفائت على الـ«*موسيل*»، السفينة الشقيقة لـ«*دوناو*» خاصتنا. «أتتذكرين أنكِ قرأتِ عن ذلك الهجوم؟ القنبلةُ انفجرتْ قبل أوانِها، قبيل مغادرتها بريمرهيڤين، وقتلتْ تسعة وثمانين وجرحتْ خمسين فرداً من الركاب وطاقم السفينة». وعقب ذلك أعطى توقعه الكئيب بأني لن أحبَّ أمريكا. لا يوجد احترام للثقافة، المسرح كما نعرف لا يعني لهم شيئاً، لا

1- قريباً لن تبقى لديّ سوى زويزڤيسكي القديمة: وردت بالألمانية في النص الإنكليزي الأصل Bald ganz allein, der alte Załezowski – م.

يريدون سوى التسليات المُبتذلَة، وهكذا دواليك، في حين أنا أؤكد له أني قلما كنتُ ذاهبة إلى أمريكا كي أجد ما تركتُه ورائي في أوروبا ــــ *على العكس!*[1] وفي الختام، أعلن قائلاً إنه ليس لي الحق كي أحرمَه من إمكانية رؤية ابنه ــــ كما لو أنّه لم يُظهرْ قط أدنى اهتمام بالغلام! كانت هذه خطبٌ مُسهبةٌ غير فعالة، عديمةَ الجدوى، لا تحتوي على القوّة القديمة. كان لديه سعالٌ متقطعٌ جاف وظلَّ يمرّر أصابعه عبر شعره الرملي الخفيف. لا أحسب أنه كان يؤمن فعلاً بأن بوسعِه أن يمنعني من الذهاب. كان يبغي فقط أن يُظهرَ نفسَه. كان يريدُ رحمتي. كان مثيراً للشفقة. لم أشفقْ عليه. تحررتُ منه، أخيراً.

ومع ذلك... عرفتُ وقتها أني حقيقةً كنتُ أحبه. ربما لم أُحب أحداً بمقدار حبي له. أحببته بذلك الجزء مني الذي يريد أن يكون فرداً ما، فرداً ما يريد أن يفعل أشياءً عظيمةً في هذا العالم.

حتى هذا الشبح المثير للشفقة لم يكنْ بوسعه أن يُفسد الابتهاج الذي أحسستُه وأنا أركبُ متنَ السفينة.

كانت هنالك مخاطر في أثناء الرحلة البحرية، إنما ليستْ من ذلك النوع الذي استحضره هينريش. كان البحر هادئاً، كانت وسائل الراحة خاصتنا مُريحةً، مع أنّ السفينة بدتْ صغيرة الحجم. أتصوّر أنها صغيرة؛ كانت قد بُنيتْ قبل عشرة أعوام تقريباً. إنما في ذلك الحين كان يوجد خنوع ألماني، الأمر الذي كان يعني أن يجعلك تتفحص الميل الألماني لإعطاء الأوامر. كان القبطان متملقاً جدّاً وكان يقلق علينا كثيراً ــــ كان قد عرف أني ممثلة شهيرة وبوغدان كونت ــــ لعلك ظننتَ أن السمعة المتداعية لأسطول الـ «نوردويتشه ليويد» قد استندتْ على استحساننا. في البدء كنتُ منزعجةً من رتابةِ الحياة في باخرة نقل مسافرين تتبع مساراً محدداً عبر المحيط، وكانت هذه الباخرة منظمةً جدّاً، ومدللةً جدّاً، مُشبعةً لرغبات المسافرين. اللذة ليست موطني[2]. غير أن رحلةً

1- على العكس: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل au contraire – م.
2- اللذة ليست موطني: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل L'indolence n'est pas mon fort – م.

طويلةً في الماء لها سحرها الخاص، وهو سحر أخاذ استسلمتُ له في خاتمة المطاف. جعلتني غيرَ اجتماعية بكلِّ معنى الكلمة، حتى مع أعضاء فرقتي المسرحية، وبخاصة على العشاء، مع حديثِه الخفيف الإجباري بمصاحبةِ آلة موسيقية ذات ثلاثة أوتار تعزف بيزيه وفاجنر. كنتُ أفضّل التواصلَ مع البحر الذي يذكّر المرء بواحدٍ من الفراغات الهائلة في الكون.

كنتُ أنجذب مراراً وتكراراً إلى الظهر العلوي للسفينة كي أقف عند الدرابزون وأتطلّعُ إلى الأسفل حيث الماء الذي يعلو وينخفض بشكل إيقاعي. كان الماء القريب من السفينة أخضرَ قذراً، أبعد ما يكون عن لون إناء مصنوع من البيوتر[1] فقد بريقه. غالباً ما كنتُ أرى سفناً أخرى، إلّا أنّها كانت بعيدةً، بعيدةً جدّاً. وحتى حين كنتُ أراقبها برهةً طويلةً لم تكنْ تبدو متحرّكةً ــــ كانت تبدو مثبتةً بالأفق ــــ في حين إن سفينتنا الصغيرة، «*دوناو*» المقعقِعةً كانت قذيفةً مسرعة من البخار والحديد، تشق المحيط. بدأتْ مغامرتنا تتناغم في رأسي مع الاندفاع العنيد للسفينة عبر الماء، مع وعيي المدوِّخ بكوني أنا مَن حفزتْ فرقتنا على البدء: ما من سبيلٍ للتوقف الآن! يمكنني أن أقولَ هذا لك وحدكَ، هينريك. كنتُ مسكونةً بالفكرة القائلة إني من الجائز أن أقذف نفسي في المحيط. ربما كنتُ سأفعل ذلك، مَن يعرف. إلّا أنّي عدتُ إلى صوابي بوساطة حماقة شخصٍ آخر.

جرى ذلك في المساء الرابع، في نحو الساعة الثامنة. كنا قد أُعفينا من العشاء قبل ذلك بنصف ساعة وكنتُ قد اصطحبتُ بيوتر إلى الكابينة التي يتقاسمها مع واندا كي أرى أن الطفل قد هُيئ للنوم وغُطيَ في السرير، ورجعتُ إلى حجرتنا الخاصة حيث كان بوغدان جالساً بسيجارة غير مشتعِلة، ينتظرني. أتذكّر أني انحنيتُ كي أنظرَ معه عبر الكوّة في جانبِ السفينة إلى القمر الذي بزغ حديثاً، فيما كان كلُّ واحدٍ منا يروي للآخر، ضاحكَيْن، شيئاً سخيفاً كان القبطان قد قاله على المائدة بشأن القمر والسوداوية ــــ كنتُ قد علّقتُ ردائي الخارجي العديم الكمين في وقتٍ سابق، نزعتُ خواتمي وقلادتي وقرطيّ،

1- البيوتر pewter: خليط معدني قوامُه الأساسيّ القصدير، تُصنع منه الأواني – م.

طرحتُ مبذلي الفضفاض ــــ حين بدت السفينة كأنها تترنّحُ مثل جواد عجوز مُدرّب على الخبب أُصيب بالعجز. وبعدها سَكَنَ كلُّ شيء، سَكَنَ بنحو يُنذر بالسوء، تحت أقدامنا. كان بمستطاعنا أن نسمعَ الصيحات في المجاز؛ قال بوغدان إنه سيصعد إلى ظهر السفينة كي يرى ما هو الخطأ وتبعتُه بسرعة. كانت السفينة قد توقفتْ عن الحركة. كان أفراد الطاقم ينطلقون هنا وهناك، بعضهم يُرخي الأشرعة، وبعضهم الآخر يُنزل مركب الإنقاذ من الجانب. وجدني بوغدان كي يسرد لي الأنباء. كان الموظف الثاني قد لمحَ شخصاً ما في الماء. غلام أحد الكابينات كان قد عثر على جزمتين كبيرتين تصلان حتى الكاحلين رباطاهما في الأعلى عند درابزون الجانب الأيمن من السفينة. أحد الركاب الأوائل ممَّن أسرع إلى ظهرِ السفينة، وهو رجل إنكليزي كان يجلس إلى مائدتنا، تذكّر فردتي الحذاء: الجنتلمان، أيّ جنتلمان، لا ينتعل جزمتين حتى الكاحلين في وقت العشاء ــــ باستثناء ربما الجنتلمان الأمريكي. ما من شك إذن مَن هو الشخص المفقود. احتشدَ الملأُ من حولنا، وراحوا يسألون ما إذا أجرينا مؤخراً أيَّ حوارٍ معه ربما من شأنِه أن يسلّطَ الضوءَ على هذه الحادثة المأساوية. نادراً ما كان هنالك أيُّ حوار! كان مقعدُه عند الطاولة الملاصِقة؛ بما أنّ مناسبات التعارف التي جرتْ في أول ليلة لم «نتحدث عنها البتة». كان يسافر وحيداً: شابٌّ طويلُ القامة بعينين زرقاوين باهتتين، أَحوَل، بنظارات ذات إطار فولاذي، وجهٌ متجهم. رأيتُ، حين جلس في الليلة الأولى، أن سترته الخطافية كانت بحجم صغير جدّاً عليه. يقيناً إني لم أنتبهْ إلى فردتَيْ حذاء الشاب المسكين غير المناسبتين. وقفنا كلُّنا عند الدرابزون صامتين ورحنا نراقبُ المركبَ الصغير وهو يدورُ دون انقطاع حول السفينة في دوائر تتسع شيئاً فشيئاً. كان ما يزال هنالك ضوءٌ في السماء، إلّا أنّ البحرَ كان أسود. من المنصة كان الربان يصيحُ بالتعليمات عبر مكبر صوتٍ للبحارة في الزورق. كان البحارة يلوِّحون بمشاعلهم ويصيحون في الماء. وبعدها بدأنا نصيح، أيضاً، لأن السماء كانت تظلم، عاجلاً سيبتلع لونُ البحر لونَ السماء، وكان علينا أصلاً أن نُجهدَ أنفسنا كي نميّز البحر من السماء. إلّا أنّ الأمريكي

لم يعاود الظهور على صفحة الماء. بعد نصفِ ساعةٍ أخرى، أمرَ الربانُ الزورقَ بالعودة، وبدأ المحركُ يعملُ من جديد، وانطلقت السفينة في مسارِها.

بطبيعة الحال، من الجائز أن يكون ذلك حادث: كونه اشتاق إلى سلام ظهر السفينة بعد العشاء الممل، إنه عند الدرابزون، كونه أمريكيّاً وشابّاً، بالكاد أكبر من فتى، كان قد خلع فردتَيْ حذائه بصورةٍ لامبالية كي يمطَّ أصابع قدميه ويتحسس ألواح الخشب الثقيلة والثخينة والرطبة تحت قدميه المكسوتين بالجوارب (پيوتر ربما فعل ذلك؛ ربما كنتُ سأفعل ذلك حينما لا يكون هنالك أحد يشاهدني!) ومن ثم يلمح شيئاً كبيراً، فضيّاً، فكَّرَ بفرحٍ أنه حوت، انحنى أكثر على الدرابزون، وحين كان البحرُ يعلو وينخفضُ بنحو إيقاعيّ والسفينة تترنّح ــــ

إنما لم يكن الأمر كذلك، صحيح؟ مع ذلك، لعله لم *يخطط* لأن يفعلَ ذلك. لعله مضى إلى الخارج كي يقومَ بجولةٍ تحت سماء الليل، هادئ تماماً، دون أن يكون في باله أشياءٌ كثيرةٌ باستثناء الهواجس المألوفة المحتمَلة والندم. وبعدها، مثلي، كان إغراء البحر قد سَحَره. وعلى حين غرة، بدا أنه من السهل جدّاً أن يسقط. لكن ما الذي جعله يرغب بالتخلي عن أمان القدمين المزروعَتين في ظهر السفينة وصدره مضغوطٌ على الحاجز وخدّاه وجبينه تتلقى النسيم المُداعب النديّ كما لو أنّه مَدرَس حنطة يدوي، بقلبٍ متوقفٍ يغطسُ نحو ضربةٍ من ماءٍ جليديّ؛ كي يستسلمَ لاستنشاق عميق للهواء بفم مفتوح لأن جداراً من الماء اندفع على وجهه، غَمرَ حنجرته، التفّ حول ردفيه ورِجليه، وجرّه بعيداً عن السفينة؟ أيّ إخفاقٍ للخيال جعله يرمي نفسَه من على ظهر السفينة؟ أو أيّ يأسٍ غِرّ؟ إلّا أنّنا منقولون دوماً بنحوٍ لا فكاكَ منه نحو شيءٍ ما. مَن، ماذا، ينتظره حين اندفعت السفينة إلى الرصيف في نيويورك؟ [شغلةٌ] عائلية لم يشأْ أن يدخلها؟ خطيبةٌ لم يعدْ يرغب بالزواج بها؟ أمٌّ اهتماماتها الشغوف سوف تستعبدُه ثانيةً؟ كم كنتُ أتمنى لو كان بمستطاعي أن أشرح له أنه ما كان يلزمه أن يكون ما ظنَّ أنه هو نفسه محكومٌ عليه بأن يكونه. لأنه أليسَ هذا هو السببُ الذي يجعلُ المرء يفكر في أن ينهي حياته؟

عدد قليل جدّاً منا ظلّوا على ظهر السفينة برهةً، ما نزال نأمل بأن نلمحَ شيئاً ما في الماء ـــــ كما لو أنّ العودة إلى الأسفل كانت تعني الإذعان لموتِه. في وقت الفطور في صباح اليوم التالي تحدَّثَ الملأُ شيئاً قليلاً آخر. كانوا متفقين على أنه سيّئ الهندام، ولوحظ أنه كان يتصرّفُ بطريقةٍ غريبة، وخلصوا إلى القول إنه حتماً فقد عقله. بدا بوغدان متأثراً بإفراط. پيوتر، الذي كان ينصت بكآبة، سألني هامساً، «لماذا خلع فردتَيْ حذائه؟». ولمّا لم أردّ عليه ـــــ الانتحارُ ليس شيئاً يرغبُ المرءُ أن يصوِّره بنحوٍ واضح لطفلٍ ـــــ أعلن قائلاً إن الأمريكي خلعَ جزمتيه لأنه يريدُ أن يسبح. وإذا كان يريدُ أن يسبح في المحيط لا بدّ أنه كان سباحاً جيداً جدّاً، لذا من المحتمل، أليس كذلك، أنه ما يزال يسبح. وبعدها سفينةٌ أخرى يمكنها أن تنتشله. قلتُ له إن هذا ممكن. في ما بعد ظهيرة ذلك اليوم أقام الربان خدمةً تذكارية في «الصالون». طلبوا مني أن أُلقي شيئاً ما وفيما أنا أفكر بأن ما أُلقيه يجب أن يكونَ قصيدةً ألمانية بما أنّنا في سفينةٍ ألمانيّة، غصتُ بنحوٍ ذاهل بشكلٍ من الأشكال، في:

Vorüber die stöhnede Klage
Elysiums Freudengelage
Ersäufen jedwedes Ach-
Elysium Leben
Ewige Wonne, ewiges Schweben,
Durch lachende Fluren ein flötender Bach[1]

وهلمّ جرّاً، أنتَ تتذكر، قصيدة شيلّر المعنونة Elysium. إلّا أنّه عند *Hier mangelt der Name trauernden Leide*، هنا الأسى الحزينُ لا اسمَ له، لم

1- هذا المقطع من قصيدة «Elysium الجنة» للشاعر الألماني فريدريك شيلّر (1759 – 1805) ورد بالألمانية في النص الإنكليزي الأصل، ومعناه هو: مضى زمنُ الأنين اليائس، والمآدب المُبهِجة لوادي الجنة بددتْ الهمومَ كلّها! البهجةُ التي تتنفس وتتحركُ إلى أبد الآبدين، تتخلّلُ حُقولها الجميلة مثلَ جدولٍ عذبٍ رقراق – م.

يعدْ باستطاعتي أن أحبسَ دموعي. بحسب طلبي فتاة الريف التي أخذتُها معنا كي تساعدَنا في الأعمال المنزلية الروتينية أنشدتْ ترنيمة للسيدة العذراء، هي، أنيللا، تغني بنحوٍ جميل. كم أحزنني أن أتذكَّرَه، هذا الشاب الذي لم أكنْ أعرفه ـــــ

يلزمني الآن أن أتوقف.

10 آب / أغسطس

يمكنني أن أستمر. هل أدخلتُ الذُّعر إلى فؤادكَ، صديقي العزيز؟ لا تقلقْ عليَّ. أنا صلبةٌ بكل معنى الكلمة. إنكَ تعرف أني أملكُ هذه الأخيلة الجامحة. إنها طبيعةٌ متأصلة فيَّ أن أتخيّل، أتخيّل بطريقةٍ مفعمةٍ بالحيوية، ما يشعر به الآخرون.

ماذا يسعني أن أخبركَ غير هذا فيما يتصلُ برحلتِنا البحريّة في الـ «*دوناو*»؟ إني أكلتُ بحماسةٍ، إني أخذتُ أنفاساً عميقةً من هواء البحر، إني انتظرتُ الرحلة البحرية أن تنتهي. على خلاف أكثر من عضو من أعضاء مجموعتنا، لا أضمر أيَّ رومانس حول السفر. كي أتغلّبَ على الأفكار التافهة أو المَرضيّة، اشتغلتُ بجهدٍ على كراسة أخرى من القواعد الإنكليزية وقرأتُ. أن يضيّع المرء نفسه في كتابٍ ما هو سلوى رائعة. بوغدان لديه كتبه عن الزراعة، إلّا أنّه كان يستمتع بالرحلة كثيراً جدّاً كي يحس كما لو أنّه يُغرق نفسه في استعداداته للمَهمات التي تنتظرنا حين تصل إلى نهايةٍ ما. في الحقيقة، قال لي ذات مساء إنه كان يودّ تقريباً أننا لن نصل، أن تظل السفينة تمخر عباب المحيط إلى الأبد. پيوتر، الذي بدا مفتوناً بالقدر نفسه، نادراً ما كان يفتح المجلّد المصوّر النفيس الخاص بـ«فنيمور كووپر»، وهذا المجلّد يضمُّ حكاياتٍ مألوفة عن الهنود النبلاء الذين تراجعوا قبل انقضاض الحضارة التي أفضتْ إلى الواقع الغريب جدّاً يتعلّقُ بالباخرة

التي تواصل تقدّمها عبر المحيط تحت سماءٍ مُرصّعةٍ بالنجوم. كان يطرح الأسئلة على الجميع فيما يخص أعمال محرك السفينة وأسماء الكواكب. المهندس الرئيس، الذي أصبح حبيبه، أخذ الغلام إلى الأسفل حيث موضع المواقد والغلّايات. بوغدان، الأبوي بنحوٍ مثير للإعجاب، أمضى ساعاتٍ طويلةً مع بيوتر وهو يستغرق في قراءة أطلسٍ خاص بعلم الفَلَك استعاره من مكتبة الربان الخاصة. وكان بحوزتي المجلّد الذي أعطيتني إياه كهدية وداع، «*التعبير عن العواطف عند الإنسان والحيوانات*»، وكنتُ سعيدةً أن أجد أن إنكليزيتي تواجه تحدياً من خلال مطالعة هذا الكتاب. بطبيعة الحال، كما ينبغي لك أن تعرف، أن وصف السيد داروين المتعلّق بمسألة كيف أن الحيوانات بنحوٍ مشابه لنا تعبّرُ عن خوفِها، وبغضِها، وفرحِها، وخجلِها، وزهوِها، وما إلى ذلك، أرغمني على أن أُولعَ به. وأنا أفهمُ لماذا كان منجذباً إلى هذا الموضوع، لأننا إذا كنّا شديدي الشبه بالحيوانات، فهذا دليلٌ إضافي على الرأي القائل إننا نتحدّر منها. حسناً، ربما نحن فعلاً كذلك! لو أنّي قرأتُ الكتاب على اليابسة، سأغدو موسوَسةً، قلقةً بسبب هذا الرأي، إنما قراءته في البحر، حيث يبدو البشر غير مُهمين، يبدون لاشيء، جعلني أتقبّل تجديف السيد داروين. هينريك، أنا لم أقاوم كتابك!

نعم، إني أُقرّ بأن الحيوانات تُشبه البشر فعلاً، تُشبهنا إلى حدٍّ بعيد. إنها أشبه بممثلين قديمي الطراز، مع كل الطرائق المتوقعَة للتعبير عما يحسّون به. إن كتاب السيد داروين هو، في حقيقة الأمر، تمارين في تمثيل الدور المسرحي بطريقةٍ مبالغ فيها. ويلٌ للممثلين المسرحيين الذين يستشيرون هذا الكتاب؛ سيجدون أنّ كلَّ عاداتهم السيئة مُثبّتةٌ فيه. سيكون الممثلُ المسرحي الجيد حذراً فيما يتصل بعلامة الوجه الواضحة، الإيماءة الكبيرة ــــ طبيعية كما يُحتمل أن تكون هذه. إن ما هو مؤثر جدّاً بالنسبة للمُشاهد هو كبحٌ معين، نوعٌ من الوقار في المحنة. هذا الأمر لا صلةَ له، أنا أسرع لأضيف، بالنفور السيّئ السمعة للإنكليز من أن يعرضوا أحاسيسهم على الإطلاق. ذلك أنه حتى السيد داروين، فيما هو منهمكٌ في البرهنة على أن لغةَ العواطف هي

لغةٌ كونية، كان يتعيّن عليه أن يُقرَّ أن مواطنيه يهزون أكتافهم استهجاناً مراتٍ قليلةً جدّاً وبحيوية مقارنة بالفرنسيين أو الإيطاليين، وأن الرجال نادراً ما يبكون، في حين في بولندا، في حقيقة الأمر في معظم أجزاء [القارة]، كان الرجال متأهبين جدّاً لسفح الدموع، وكانوا يسكبون العبرات بحرية تامة.

وفي اعتقادي، ثمة اختلافٌ واحدٌ يتعذرُ اختزاله، بين البشر والحيوانات. إن رأي السيد داروين بأن كلَّ عاطفةٍ لها طريقةٌ طبيعية في أن يُعبّر عنها تفترض أن كلَّ عاطفة من العواطف هي مُميزة، جليّة. ربما يكون هذا الأمر صحيحاً بالنسبة لابن العم القرد و*شبيهنا*[1] الكلب. لكن ألسنا نحن البشر ميالين لأن نشعر ــــ باستثناء لحظات الطوارئ ــــ في الأقل بعاطفتين في وقتٍ واحد؟ أنت، صديقي العزيز، هل تشعر بعواطفَ متناقضةٍ فيما يتعلق برحيلي؟ هل كنت تعضّ شفتكَ، وترفع حاجبيكَ، وتقلّص عضلات الحزن حول عينيكَ؟ لا، من الجائز لا يوجد شيء يُمكن الانتباه إليه على محيّاكَ. هل يتعين عليَّ أن أقول عندئذٍ إنك ممثلٌ مسرحيّ جيد، هينريك؟ ربما أنا كذلك. لا شيَ يُمكن الانتباه إليه في جسمكَ، باستثناء مشيتكَ الأبطأ ــــ إلّا في الحالات التي تشربُ فيها الخمر. وسامحني على ترهيبي إياكَ، لكن هل تحتسي الخمر بالقَدَر نفسه الذي تعوّدتَ عليه؟ أكثر؟

آه، لكنك ستقول، ما أحسُّه بشأن مارينا العزيزة وتخليها عني ليس عاطفةً. إنه شغف! بالضبط، بالضبط، صديقي العزيز. والسيد داروين لا يصف حالات الشغف بل ردود الأفعال فقط. فيما يتعلق بالعواطف هذا الرجل الإنكليزي يبدو أنه يعني ما نشعر به حين يُمسك بنا ونحن غير مُدركين، مندهشين. شخصٌ ما لا أميّزه في أول الأمر إنما أمتلكُ حقيقةً مبرراً للخوف يكمنُ في مكانٍ مزدحم حيث لا أتوقّع أن أقابلَ فيه أحداً، من مثل، نعم، صالة استقبال فندق في مدينةٍ أجنبية. أو فرداً ما أعرف أنه كان يغضب مني ــــ لم يسبقْ لي أن أخبرتكَ عن هذه الواقعة ــــ ينبثق في مكانٍ ما حيث أشعر بأني في مأمنٍ تام لمّا أكون وحيداً، من مثل حجرة تبديل

1- شبيهنا: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل mon semblable – م.

الملابس خاصتي. أنا مروَّعة وبالطبع، خائفة. شفتاي تتباعدان، بؤبؤا عينَيْ يتسعان، حاجباي يرتفعان، قلبي يخفق بعنف، وجهي يشحب، وشعرات جلدي تنتصب واقفةً وعضلاتي السطحية ترتجف، فمي يغدو جافاً وصوتي ينقلبُ أبحَّ أو غيرَ جليّ ـــ كلّ هذا يحدث كردّةِ فعلٍ خارج سيطرتي. حين يزولُ الحافز، أعود إلى هدوئي. لكن ماذا بشأن تلك الأحاسيس الموجعة الصامدة طويلاً التي تبدو أنها قُهِرتْ سابقاً، ومن ثم دون أيّ إنذار، تغمرُ الروح؟ أين هو الاشتياق الغزلي غير المكافئ؟ وماذا عن الغيرة والحسد؟ ماذا عن الندم؟ ـــ أوه، نعم، الندم! والقلق، القلق بخصوص كل شيء ولا شيء؟ يبدو أن ذخيرة السيد داروين بريطانيّة إلى حدّ النخاع!

إذا ما تكلّمنا عن العقلية البريطانية، يلزمني أن أُخبرك فيما يخصُّ الكتابَ الآخر بالإنكليزية الذي أحضرتُه حتى أقرأه في السفينة ـــ رواية، ليستْ حديثةً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، «*ڤيليت*»[1] إنها بورتريه لشابة ذات مبادئ سامية وآمال صغيرة. إنكَ تعرف إلى أيّ مدى أنا أتعاطفُ مع شخصيةٍ من هذا الطراز. أنا أُحب النساء المُشبَّعات بروح البطولة وأنا أنتظر كاتباً مسرحياً يصفُ لي بطولة النساء في الحياة الحديثة، نساء غير جميلات، نساء لا ينتمين إلى أُسرٍ راقية، إلّا أنّهن كافحنَ كي يُصبحن مستقلات. وحتى إني كنتُ أتصوّر كيف يُحتمل أن يكيّف المرء الرواية للمسرح؛ سيكون ذلك دوراً من أدوار التحدّي ـــ تحرراً من الممثلات المسرحيات والمَلِكات! ـــ والذي ربما أحبُّ أن أمثّله. لم يكنْ هذا هو سببُ إعطائي الكتاب، وهو هديةُ وداعٍ من زميلةٍ لي في «المسرح الإمبراطوري» أمضتْ طفولتها في إنكلترا. كانتْ تعتقد أني سأكون مهتمةً في مشهدٍ حيث ترى البطلة راشيل وهي تمثل دوراً مسرحياً في لندن. كنتُ قد شققتُ طريقي بعناد عبر الكتاب (الآنسة

1- ڤيليت Villete: رواية من تأليف الشاعرة والروائية البريطانية شارلوت برونتي (1816 – 1855)، صدرت العام 1853. بطلة الرواية هي امرأة تدعى لوسي سنوي، تسافر من إنكلترا بعد تعرض أسرتها لكارثة غير مُحدَّدة، وتستقر في مدينة فرنسية خيالية تُدعى «ڤيليت» لتمتهن التعليم في مدرسة للبنات، وتنجذب هناك للمغامرة والحب. «ڤيليت» هي ثالث وآخر رواية كتبتها شارلوت برونتي– م.

برونتي لديها مفردات أوسع من السيد داروين!)، وقد سلبتْ لبّي شخصية لوسي سنوي Snowe، وهي فتاةٌ بسيطةٌ واعيةٌ بذاتها مليئةٌ بالشغف السريّ، إلى أن وصلتُ أخيراً إلى الفصل الذي تؤخذ فيه البطلة إلى المسرح. تخيّل فزعي حين اكتشفتُ أن البطلة، التي تعاطفتُ معها تعاطفاً كبيراً، لا تحبّ راشيل على الإطلاق. على الرغم من أنها كانت مخدوعةً، مفتونةً، بقدرة راشيل ـــ مَن منا لم يكنْ كذلك؟ - وكانت كذلك تنفرُ من المرأةِ الحنون التي تراها على خشبة المسرح. كانت في حقيقةِ الأمر تستهجنها! إنها تحكم على القدرة التعبيرية لإمبراطورة المسرح بكونها مبالغاً فيها، متمرِّدةً ـــ شيطانيةً بصورةٍ لا تليق بامرأة!

ألا تجده شيئاً غريباً أن مشاهدة ممثلة عظيمة يمكن أن تُثير عداوةً كهذه؟ خوفاً كهذا؟ في بولندا، كما في فرنسا، قد تُتهم الممثلة المسرحية بكونها منفلتةً جدّاً في اتصالاتها الجنسية، إنما ليس بكونها مُتقدّةً جدّاً. ربما المسرح يعني شيئاً ما في بولندا ولا يمكن أن يعني الشيء نفسه في أيّ مكان آخر، حتى في بلد شكسبير السماوي. لماذا لم يكنْ بمستطاع لوسي سنوي ببساطة أن تمتّع نفسها؟ لماذا لم تشأْ أن تُنقل إلى المسرح؟ لماذا شعرتْ بأنها مهدَّدة بسبب ولعها براشيل؟ ومع ذلك الرواية التي كتبتها الآنسة برونتي عاطفيةٌ إلى حدٍّ كبير. ربما كانت المؤلفة تتخاصمُ مع ذاتها. كانت تخشى أن تقلبَ عواطفُها حياتها رأساً على عقب. لم تكنْ ترغب بأن تتبدل، أو تُجبر على التبدل.

لكنكَ تفهم، إني أتخيّل مَهمتي الفرديّة ـــ والمقاوَمة لها، من الخارج ومن الداخل ـــ أينما ألتفتُ. إنه شيءٌ أصعب بالنسبة للمرأة أن تصبو إلى حياةٍ مختلفةٍ عن الحياة المرسومَة لها. أنتم مَعشرُ الرجال المسألة أسهل بالنسبة لكم. إنكم تُمدحون على طيشكم، وعلى شجاعتكم، وعلى اندفاعكم بقوةٍ ونشاط، وعلى كونكم مغامرين. المرأة لديها أصواتٌ باطنيةٌ كثيرة جدّاً تُخبرها بأن تتصرف بتعقل، وبلطفٍ، وبجُبن. وثمة أشياءٌ كثيرة يُمكن أن تُخيفها، أنا أعرف هذا. لا تحسبْ، صديقي العزيز، أني فقدتُ كلَّ معنى الواقع. في كلّ مرةٍ أكون فيها جريئةً، أنا أُمثّل. إلّا أنّ هذا هو كلّ ما يحتاجُه المرء كي يُصبِح جريئاً،

ألا توافقني الرأي؟ مظهر الجرأة. أداء دور الجرأة. بما أنّي أعرف أني لستُ جريئةً، لستُ جريئةً البتة، هذا الأمر يحثني كي أتظاهر بأني جريئة.

لا أحدَ في بلادنا يتهمُ ممثلةً مسرحيةً تعرضُ متباهيةً أحاسيسها على خشبة المسرح بكونها عفريتة، نعم، عفريتة، ومع تمجيد شخصية متمرّدة ـــ هذه أخلاقيةٌ لم أتعوّدْ عليها. في بولندا نحن نُعزّ فكرة التمرد، وفكرة الروح المتمردة، هل نحن غير ذلك؟ أنا أعز التمرد الساكن في ذاتي، كوني أعي بكلّ معنى الكلمة مسألةَ كم أنا منجذبةٌ للاستسلام، وللامتثال لآمال الآخرين بصورةٍ خانعة. كيف أقاتلُ ذلك الشطرَ الكبير مني وهو الروح المغلوبة على أمرها، التوّاقة للطاعة ـــ وهو شطرٌ أكبر، يقيناً، لأني امرأة، تربّتْ كي تكون ذليلةً. هذا جزءٌ مما جذبني إلى المسرح. أدواري المسرحية درّبتني على الثقة بالنفس وعلى التحدّي. التمثيلُ برنامجٌ من أجل التغلّب على الجاريةِ الساكنة فيَّ.

تصوّر إذن ماذا يعني بالنسبة لي أن أتخلّى عن المسرح، حيث كانت لديّ موافقةٌ بأن أمثّلَ بطريقةٍ ملوكية. لا تحسب أنها ليستْ تضحية. كنتُ قد تزوجتُ المسرح على مدى ما يقارب عشرين عاماً. ربما في يومٍ ما في كاليفورنيا ـــ حتى راهناً، وأنا في أمريكا أصلاً، إنه شيءٌ يُثيرني أنْ أكتب كاليفورنيا ـــ عند الجدول الواقع خلف كوخنا الصغير، من أجل متعة مجموعتنا وبعض الخادمات الهنديات، سوف أُمثّلُ مشهداً مسرحيّاً من إحدى مسرحياتي الأثيرة. أجل، أنا أعترف، كنتُ أخذتُ بعض ثيابي ـــ جولييت، روزاليند، پورشيا، أدريانا ـــ معي. لا ريب سيبدو الأمر مُضحِكاً أن ألبسَ واحداً منها بعد يومٍ من الكدحِ القويّ في حقولنا تحت السماء الزّرقاء أو في الهضاب على صهوةِ حصانٍ مع بندقيةٍ على كتفي. كم سيبدو هذا مصطنعاً بالنسبة لي حينئذٍ! مع ذلك، إذا ما حاولتُ الرجوع إلى المسرح، هل يسعني أن أتذكّر ما عرفته عن الشك الأنجلوسكسوني الخاص بالممثلات المسرحيّات العظيمات. شكراً للطيبة أني لم أَقدِمْ إلى أمريكا كي أصعدَ على خشبة المسرح!

إلّا أنّها لم تخبرني بأيّ شيءٍ عن أمريكا، لا بدّ أنكَ تفكر. حسناً، يمكنني أن أخبركَ شيئاً ما عن نيويورك، التي يصرُّ الجميع على أن يقولوا لنا إن المهاجرين غزوها تماماً الآن وباتت امتداداً لأوروبا ــــ ليستْ أمريكا على الإطلاق! كما رأيتَ في بداية هذه الرسالة الطويلة جدّاً أصلاً، نحن لا نمكث في جزيرة منهاتن. بما أنّ بوغدان كان يعتقد أن وسائل الراحة هناك لنا جميعاً في فندق لائق هي نفاية عاصمتنا، طلبنا مشورةَ الربان، الذي نصحنا بأن نقيم في نزل، فهو مريح وليس غالياً، وقريب من حيث يكون لخط الـ «نوردويتش ليويد» أرصفته في الجانب الآخر من «نهر هدسون». هنا، في مدينة جهة النهر هذه التي يعني اسمها الهندي الساحر «غليون التبغ»، وعلى مرأى كامل من منهاتن، نحن في الحقيقة في ولاية أخرى من الولايات الثماني والثلاثين![1]

صباح كل يوم الأجرأ من بيننا يركبُ متن العبّارة ويقضي النهار وهو يستكشف المدينة ــــ أقول الأجرأ، لأن الذين يجتازون النهر يشكلون الآن مجموعةً أصغر. برهنتْ منهاتن على كونها مُخيفةً بالنسبة لمعظم رفاقِنا الوديعين؛ وهم لا يفكرون إلّا في الاستمرار في الحركة، وفي انتظارنا الأوبرا الرعوية. واندا ضائعةٌ بكلّ معنى الكلمة دون يوليان. ألكسندر، مع أنّه لا يعرف التعب، كان مقيّداً بسبب افتقاره للإنكليزية. دانوتا وسيبريان لا بدّ لهما أن يلبيا احتياجات فتاتيهما الصغيرتين. وحدَه ياكوب، الذي يمضي يمنةً ويسرةَ وفي الأرجاء كلِّها مع كتاب الرسوم التخطيطية خاصته، استرخى وتصرّف هنا وكأنه في منزله تقريباً. أخشى أنه سيكون نادماً تماماً كونه سيغادر في وقتٍ قريب جدّاً، غير أني وعدته بأن كاليفورنيا سوف تبرهنُ على كونِها موضوعاً غنيّاً جدّاً بالنسبة للفنان. سأكون نادمةً قليلاً، أيضاً. إن الممثل هو بصورة عامة مُشاهدٌ توّاق، وما من مشهد يمكن أن يكون فاتناً أكثر مما نراه قد حدث، بكل لغةٍ معروفة، على هذه الخشبة القاسية. كلُّ سلالة وكلُّ

1- يبدو أن عدد الولايات الأمريكية في الزمن الذي تجري فيه أحداث الرواية هو ثمان وثلاثون ولاية – م.

أمةٍ وقبيلةٍ في العالم مُمَثلةٌ، في الأقل بين الطبقات الأفقر ـــــ وأغلب الملأ يبدون كأنهم فقراء جدّاً ما إن يبدأ المرء بالمغامرة وراء الشوارع الكبيرة. لم أندهشْ لمّا وجدتُ المدينةَ قبيحةً جدّاً. إلّا أنّي لم أتوقعْ أن أرى معوزين ومُشرَّدين كثيرين جدّاً. قيل لنا إن الفقراء ازدادوا عمّا كانوا عليه في الأعوام القليلة المنصرمة، لا لأن هنالك مزيدٌ ومزيدٌ من المهاجرين، معظمهم وصلوا مُفلسين، بل لأنهم ـــــ تلقّى بوغدان تحذيراتٍ كئيبةً من شقيقه بهذا الشأن ـــــ الاقتصاد لم يتعافَ بعد من الأزمة الكبرى (تُسمى هنا رعباً) منذ ثلاث سنوات مضتْ. حالات تشغيل الأيدي العاملة، بخاصة حالات رفض التشغيل، قليلةٌ والرواتب آخذةٌ في التدنّي. إنما من الجليّ أن هذا الأمر لا يثني أحداً عن المجيء إلى هنا، متوقعاً أياماً أحسن!

الليلة الفائتة أنا وبوغدان طالبنا بسهرةٍ لنا، وتناولنا العشاء في «ديلمونيكو»، وهو مطعمٌ مشهور بكونه الأفضل في المدينة. بوسعي أن أشير إلى أن الأثرياء هنا يُطعَمون غذاءً غنيّاً وهم هادئون في حركاتهم حالُهم حالُ الأثرياء في ڤيينا وباريس. في الخارج، القلق والضوضاء. العربات، والمركبات، والسيارات العمومية الكبيرة للركاب، والعربات التي تجرها الأحصنة، والقاطرات الكهربائية، والمشاة المحتشدون جعلوا كلَّ زاوية عبور مغامرةً؛ كلّ بنايةٍ من المباني مغطاة باليافطات، وثمةَ رجالٌ تمّ استئجارهم كي يكونوا أكشاكاً ماشية، مزينةً بالزهور والأشرطة من الأمام والخلف، وحتى فوق رؤوسهم، بالإعلانات، في حين أقحم آخرون كرّاسات في أيدي كلِّ عابر سبيل أو رموها بملء قبضاتهم في القاطرات الكهربائية، ماسحو الأحذية يتضرّعون للزبائن من منصاتهم الصغيرة، باعة متجوّلون يصيحون من عرباتهم، وفرق من الموسيقيين، معظمهم ألمان، ينفخون في أبواقهم عليك. دُهشتُ لمّا رأيتُ عدداً غفيراً من الألمان، هم أكثر عدداً حتى من الأيرلنديين والإيطاليين، فكلُّ بلدٍ له حيّه الخاص. هينريك، ثمة قدرٌ كبيرٌ من البؤس والفقر هنا. والجريمة: كانوا يحذروننا باستمرار بألّا نخاطر في الذهاب إلى الأمكنة التي يسكن فيها الفقراء، لأن خطرَ الهجومِ عليكَ ونهبكَ على أيدي مجاميع الأشخاص

الأجلاف كبير جدّاً. ياكوب هو الشخصُ الأَجرأ بيننا في استكشاف هذه الأجزاء المُكتظة من المدينة؛ كان قد ملأ أصلاً خمسة ألبومات بالرسوم التخطيطية. يومَ أمس أمضى ما بعد الظهر في حيّ اليهود، يهود فقراء بالطبع، يبدون شديدي الشبه بأولئك اليهود في كراكوف، الرجال باللحى السود في قلنسوات ما زالوا يلبسون السترات السود الطويلة في هذه الحرارة الفظيعة.

إنه الأمر الذي يُجبرني على معاناتي الوحيدة. لم يسبقْ لي أن عرفتُ حرارةً كهذه. نحن كلُّنا نعاني ونتعذب. پيوتر أُصيب بطَفَح جلدي. فتاة دانوتا الأصغر سنّاً تبكي طوال الوقت. إن الشعور بالحرارة يعني أني أشعر بكوني لبستُ ثياباً أكثر من اللازم ـــ أعتقد أني لبستُ ثياباً أكثر من اللازم ـــ مع أنّها أقل من ثياب النساء هنا اللائي ما يزلنَ يلبسنَ التنورات ذات الأطواق الموسِّعة[1] وعلى غرار دانوتا، وواندا، وبربارة، ينظرنَ بحسدٍ (هكذا أتصوّر) إلى تنوراتنا النحيفة. بالطبع، نحن نمشي كثيراً جدّاً بعد أن ننزل من العبّارة. يوم أمس، فيما كنا نتنزه في برودوي، الشارع الرئيس هنا، امرأةٌ ضخمة الجسم تطوقها تنورة موسّعة هائلة تحت تنورتها السوداء الثخينة انهارتْ على رصيف المشاة أمام أنظارنا. ظننتُ أنها مصابة بمرضٍ شديد لكن، لا، أحد الأشخاص المتنزهين قال إن أحداثاً من هذا النوع تجري عادة في آب، وفكَّ سائق مركبة دلو الماء المربوط بحصانه وبصورةٍ غير رسميّة رشَّ شيئاً من الماء على وجهها، وفي ذلك الحين ساعدوها في النهوض على قدميها ودون أيّ شعورٍ بالحرج تابعتْ مسيرها. إني أعرف أنه شيءٌ غير حكيم أن يبقى المرء وقتاً طويلاً جدّاً في الشمس، لكننا لا نملك فندقاً حتى نرجع إليه. لو فعل پيوتر ما شاء له، لكنا لجأنا مرةً واحدة في الساعة إلى محل آيس كريم. الآيس كريم هنا، الذي صنعه الإيطاليون، لذيذُ الطعم. كان هو أيضاً مولَعاً بالأطعمة الهندية الشهيّة المُباعة في الشارع، القطع الرشيقة اليابسة تُصنع بوساطة حبّات منفجرة من الذرة البيضاء، وحبات الفول السوداني البنية الصغيرة المغلّفة بغلاف رقيق باهت اللون، إلّا أنّي أجدُ هذه الأشياء غير قابلة للهضم. الملأ هنا يشربون الماء حتى

1- التنورة ذات الطوق الموسّع hoop skirt: تنورة تُوضع تحتها أقواس كي تبدو منتفخةً – م.

أكثر من الخمر مع وجبات طعامهم، وفي الشتاء كما هو الحال في الصيف يُشرب الماء بارداً جدّاً: الكأس تُملأ بقطعٍ صغيرةٍ مكعبة الشكل من الثلج ـــ إني متأكدةٌ من أنكَ ستعتقدُ أن هذا غير صحيّ بكل معنى الكلمة. اليوم، في بحثٍ عقيم عن البرودة بعضنا زارَ المتنزه الواسع، المترامي الأطراف، الذي لا يكتمل إلّا عند شمال المدينة؛ إنه يُدعى «المتنزه المركزي»، مع أنّه لا يوجد شيءٌ مركزي فيه. وهو أيضاً لا يشبه المتنزه، والحقُّ يُقال ـــ لا تتخيّلْ شيئاً يضاهي ذلك المتنزه الأحدث في كراكوف، وهو أقل بكثيرٍ من «بلانتي» خاصتنا الفخم، المُورِق ـــ لأن معظم الأشجار صغيرة العمر إلى حدٍّ كبير وليستْ قادرةً بعدُ على إعطاء أيّ ظل.

الجالية البولندية صغيرةٌ، عددٌ كبيرٌ من مواطنينا استقرّوا في الغرب، في شيكاغو. زار بوغدان بعض المُرشِدين، وقد أعرب هؤلاء عن رغبتهم في تنظيم استقبال على شرفي. أشعرُ بأنه يتعيّن عليَّ أن أرفض ذلك، وبالقدر نفسه أنا متأسفةٌ لأني خيّبتْ ظنَّهم. كانوا يريدون أن يرحّبوا بالشخص الذي كففتُ عن أن أكونه. إلّا أنّ الممثلة المسرحية التي كنتها لا يسعها أن تُخمد فضولَها فيما يخصُّ المسرح، وآب، ناهيك عن كونه أحرّ الأشهر، فهو كذلك بداية الموسم. في واقع الأمر، مثلما حذّرني هينريش بقسوةٍ، المسرح هنا يبدو أنه يعني شيئاً ما غير معناه الذي *عندنا*[1] ومثلما هو عليه في ڤيينا وباريس. يتوقعُ الجمهورُ أن يحصلوا على التسلية، لا أن يتساموا، وكانوا يتسلّون جدّاً بما هو متكلّف العظمة وغريب. كنا نفكر بمشاهدة أوبرا أوفينباخ[2] الموسومة بـ «*الغراندوقة*»[3]، وهي تُؤدى على واحدٍ من أكبر المسارح هنا، إلى أن عَلِمنا أن فرقة «مكسيكان جوڤينايل أوبرا كومپني» المسرحية هي التي كانت تمثلها وأن المغنية الأولى في الأوبرا، سينيوريتا نينا كارمن ومورون، كانت صبيةً

1- عندنا: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل chez nous– م.

2- أوفينباخ (جاك) (1819 – 1880) (اسمه الحقيقي غير مؤكد): مؤلف موسيقي فرنسي من أصل ألماني، كتب 102 أوبرا خفيفة – م.

3- «الغراندوقة»: زوجة غراندوق وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل La Grande – Duchesse. الغراندوق: لقب يُطلق على الأمراء الحاكمين– م.

بعمر ثمانية أعوام. أيمكنكَ أن تتخيّل سماع الدوقة وهي تغني «*قل له إننا لا حظناه*»[1] ـــ هل ثمة أغنية غرامية أكثر منها سِحراً؟ ـــ بالصوت القصير الحاد لفتاةٍ صغيرة السن! ربما هو صوت لپيوتر، مع أنّي أعتقد أنه كان سيتمتع حتى أكثر من برنامج في مسرحٍ آخر، ضمَّ جورج فرانس وكلابَه، والسيد قيصر وبرونو، والـ «هانسل تروپ أوف ألپاين واربلرز»، وجيني تيرنور ملكة أرجوحة البهلوان، والسيد كبين، الذي يرقص *رقصة ثنائية*[2] على سلكٍ عالٍ مع جدّته. لا شكسبير في أيٍّ من المسارح، وا حسرتاه، مع أنّه أكد لي أنه ما من مؤلف مسرحي تُمثل مسرحياته في أمريكا أكثر من شكسبير. بصرف النظر عن المسرحيات الساخرة والمسرحيات الميلودرامية التي تبدو أنها لا تستحق المخاطرة، حتى انطلاقاً من حب الاستطلاع، توجد فقط كوميديا خفيفة، إنكليزية بالطبع، تُسمى «*ابن عمنا الأمريكي*»، التي أمتعتْ عدداً لا حصرَ له من السكان عبر البلد كله طوال الأعوام الأحد عشر المنصرمة لأنه في أثناء مشاهدة هذه المسرحية من مقصورةٍ مع زوجته وأعضاء من حكومته رئيس الجمهورية لينكولن ذاك الذي قُتل ـــ على يدِ مُمثل مجنون، كما ستتذكر. المسرحيات المناسبة كلُّها تقريباً إنكليزية أو فرنسية لكن، فيما كان جمهورُ نيويورك يحبون فاجنر إلى درجة العبادة، لا يوجد اهتمام بالمؤلفين المسرحيين الألمان العظام. أترغب بمشاهدة شيء من مسرحيات شيلّر، عليكَ أن تذهب إلى أحد المسارح الناطقة باللغة الألمانية، حيث ستراه هناك تُمثّل مسرحياته فرقةٌ جوّالة من الدرجة الثانية من ميونيخ أو برلين. ومع أنّه شيء غير وارد أن يقدّموا مسرحية من تأليف كراسينكي أو سووڤاكي أو فريدرو بالإنكليزية ولا يوجد هناك عددٌ كافٍ من البولنديين في نيويورك كي يدعموا مسرحاً باللغة البولندية، فكتّابنا المسرحيون المهيبون يظلون مجهولين تماماً هنا.

كنتُ أودّ إلى حدٍّ بعيد أن أرى أحدَ الممثلين الأمريكيين البارزين ممَّن

1- قل له إننا لاحظناه: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل
Dites –lui qu'on l'a remarqué – م.

2- رقصة ثنائية: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل pas de deux – م.

وصلتْ شهرتُهم إلى أوروبا، إلّا أنّي لم أرَ أحداً منهم حتى الآن. ذهبنا فعلاً إلى المسرح الفخم الذي يملكه واحد من هؤلاء الممثلين، إدوين بوث[1] (كان شقيقه الأصغر هو الذي اغتال السيد لنكولن) الذي افتتح بمسرحية تراجيدية من تأليف لورد بيرون، «*ساردانپولوس*»[2]. يبدو أنه شيء تافه أن نلاحظ أن التمثيل لم يخلّف شيئاً للخيال ــــ صاحبكَ السيد داروين كان سيوافقُ على ذلك! ــــ إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن المسرحية قد تحوّلتْ إلى مَشهدٍ ضخم وبارع. الموسيقى العالية، الديكور الشاهق، مئة ممثل مسرحي يتحركون دائريّاً دون نظام على خشبة ضخمة ــــ هذا هو الشيء الذي يقدّره الجمهور تقديراً عالياً. فضلاً عن ذلك ثمة دزينة من الممثلين بالأدوار الرئيسة، «الباليه الإيطالية» في «الفصل الثاني» لها ــــ إني أنظر الآن إلى البرنامج ــــ «أربعة راقصين من الدرجة الأولى، وثماني راقصات، وست سيدات باليه، وتسعة وتسعون من النوع الممتاز جدّاً، وأربعة وعشرون غلماناً زنوجاً، واثنتا عشرة امرأة كورس، وثمانية رجال كورس، وثمانٍ وأربعون امرأة إضافية»! إني أتصوّر أن كلَّ هؤلاء يثبون فرحاً هنا وهناك فيما تُحدِث الأجهزة والأدوات الخاصة بإحداث التأثيرات الأكثر إدهاشاً: مَنظرٌ كاملٌ يمكن أن يرتفع من الأرض أو يختفي نهائيّاً عن الأنظار. انتهى الفصل الأخير بحريقٍ هائل ومذهل، قدّره الجمهور تقديراً عالياً، مثلما فعلنا نحن.

1- إدوين بوث Edwin Booth (1833 – 1893): ممثل أمريكي شهير في القرن التاسع عشر قام بجولة في جميع أنحاء أمريكا والعواصم الكبرى في أوروبا، وأدّى العديد من مسرحيات شكسبير. في العام 1969 أسس مسرح بوث Booth's Theatre. بعض المؤرخين المسرحيين يعدّونه أعظم ممثل أمريكي، وأروع مَن أدّى دور «الأمير هاملت» في القرن التاسع عشر. علاقته مع شقيقه الممثل جون ويلكس بوث الذي اغتال الرئيس أبراهام لنكولن في نيسان / أبريل 1865 ألقتْ بظلالها على منجزاته – م.

2- «ساردانپولوس» Sardanapalus: تراجيديا تاريخية كتبها بيرون في العام 1821، أبياتها الشعرية تلتزم بالعروض النظامية ولكنها دون إيقاع. تجري أحداثها في نينوى الغابرة، وتتناول سقوط آخر ملوكها الآشوريين ساردانپولوس. مُثلتْ أول مرة في العام 1834 على مسرح Theatre Royal. كتب بيرون هذه المسرحية خلال مكوثه في رافينا، وأهداها إلى غوته – م.

هنا أكبر الأشياء هي الأفضل ـــــ الرأي المُسبق ربما ليس غير صحيح أكثر من الاعتقاد بأن الأقدمَ هو الأفضل. «مسرح بوث»، الذي يسعُ نحو ألفي شخص مع حيّزٍ للوقوف يكفي لمئات أخرى، هو أبعدُ ما يكون عن الأكبر. أكبر منه هو «قاعة ستينوَي»، حيث، قيل لنا بوقار، أنجز أنطون روبنشتاين[1] عمله الأمريكي الأول. وفيما أنا أسعى لأن أؤثر في بوغدان، أحجمتُ عن ذكر-بصورةٍ عَرَضية تماماً- أن عازف البيانو العظيم هو ضيف دائم على أمسيات الثلاثاء خاصتنا في وارسو. خطر ببالي، الأمريكيون، بسبب كلِّ مفاخرهم فيما يتعلق بكونهم يملكون أكبرَ وأقصى الأشياء كلّها، فيما يتصلُ بالفن، بنحوٍ مُثيرٍ للدهشة مُجرَّدون من الثقة بالذات ذات الطابع الوطني. من الخطأ القول إن الجمهورَ يشتاق فقط إلى التسليات المبتذلة. إنما كان يُعتقد أن الإنجازات العظيمة ذات النوعية تأتي من خارج البلد. إن الممثلين الأجانب يقومون هنا بلفت الأنظار بنحو مقصود وإذا كانوا فرنسيين أو إيطاليين، يُتوقعُ منهم أن يمثلوا بلغتهم الخاصة، التي لا يفهمها أَحَد. انتصرتْ راشيل مع *أدريانا لوكوڤرييه* في أكبر مسرح في المدينة، الـ «ميتروپوليتان»، قبل عشرين سنة ونيف؛ وقبل عشرة أعوام قام ريستوري[2] بجولة ناجحة جدّاً، ومربحة جدّاً في أرجاء البلد. إن التفكير بهذا الأمر الآن، أعترف بأنه يشعرني بوخز الحسد. لكن، لا، لا تستنتج أني أحلم بمواصلة مسيرتي الفنية هنا. بأية لغة؟ لا أحدَ يرغب سماع لغتنا القوميّة، واللغة الأخرى التي تدرّبتُ على التمثيل بها، الألمانية، تُعدُّ هي الأخرى مناسبةً فقط للعامة المهاجرين.

لن أتذمر فيما يتعلق بمسرحية تُدعى «*الدولار أكبر*»[3] التي شاهدناها في «مسرح والاك»، ونحن نُنهي اختياراتنا لعيّنات مما يُقدّم في المسارح. في

1- أنطون روبنشتاين Anton Rubenstein (1829 – 1894): ملحن وعازف بيانو روسي، وهو أخ الملحن وعازف البيانو نيكولاي روبنشتاين – م.

2- ريستوري (جيوڤاني ألبرتو) (1692 – 1753): مؤلف موسيقي، وقائد فرقة أوبرا، إيطالي الجنسية – م.

3- الدولار أكبر the Almighty Dollar: مسرحية كوميدية ذات أربعة فصول ألّفها بنجامين إي. وولف، عُرضتْ أولَ مرة في أيلول / سبتمبر 1875 على «پارك ثيتر» – م.

«حديقة غيلمور» سمعنا مدام پاپنهايم، إميلي پاپنهايم، وهي مغنية سوپرانو، في حفلة موسيقية؛ أنا وبوغدان وجدناها أقل إمتاعاً من جمهورها، الذين كانوا متحمسين إلى أقصى حدّ، وكانوا يصفقون عند كلِّ رعشةٍ في الغناء. في غاليري للفن الفرنسي، «غاليري ميشيل كنويدلر»، رأينا غرفةً مليئةً بالرسوم، وفي «جمعية نيويورك التاريخية» (لا يوجد متحف هنا يستحق أن يتحدّث عنه المرء) فوجئنا بمنحوتات رخام من نوع النقش البارز[1] - أُخذتْ من قصر ساردانپولوس ــــ وهي مفاجأة لطيفة بعد أن رأينا أداءَهم الفاخر بالورق المُعجَّن أثناء أمسيتنا البايرونية (نسبةً إلى بايرون). كنا نأخذ معنا پيوتر أينما مضينا، والنظر إلى المدينة بعينيه هو يُبعدني عن أن أكون صعبةَ الإرضاء إلى حدٍّ كبير: كان الطفل مفتوناً بكل شيء. هذا الأمر لا يُمكن قوله عن الطفل الآخر في عهدتي ــــ أعني أنيللا، خادمتنا الجديدة ــــ التي كان كلُّ شيء بالنسبة لها غير مفهوم حصراً. قيل لها إنها ذاهبة إلى أمريكا، غير أن وارسو كانت حتماً أمريكا بالنسبة لها (لم يسبقْ لها أن غادرت القرية التي وُلدتْ فيها)، وبعدها ألفتْ نفسها في أحد القطارات (لم يسبقْ لها أن رأتْ قطاراً)، في فندق في مدينةٍ أجنبية، في فندق مُشيّد على الماء، كما كانت تُسمي سفينتنا، والآن هنا. حين نمشي أسمع اللازمة المستمرة، «أوه، مدام! أوه، مدام!». تخيّلني مع غلامي الصغير في أحد الجانبين وهذه الفتاة القصيرة والسمينة بوجه الحصان في الجانب الآخر، كلاهما يمسكُ بيديَّ بخوف ودهشة. لكنتَ ألقيتَ نظرةً خاطفةً عليها في المحطة وأنت تعرف تقديري للجمال بكلِّ أشكالِهِ، قد تعجبُ من أني استخدمتُها. كما أنّني أثرتُ دهشة الجميع في دار الأيتام في شيمانوف باختيارها من بين الفتيات الست اللواتي تربّينَ هناك واللائي تمّ اختيارهن لي كي أقابلهُنَّ. إحدى الراهبات أخذتني جانباً وحذّرتني من أني أقترفُ خطأً، ذلك أن كفاءةَ أنيللا في الخياطة والطهي هي أقلُّ بكثيرٍ من كفاءة

1- النقش البارز Bas - relief: نوع من النقش البارز relief، تكون فيه الوجوه والأشكال البشرية أقل عمقاً مما تكون عليه في الواقع - م.

الأُخريات. لماذا اخترتُها إذن؟ حسناً ـــ سوف تبتسمُ ـــ اخترتُها بسببِ صوتِها ـــ لمّا سألتُها ما إذا كانت تعرف كيف تغني، تطلعتْ إليّ، فاغرةً فمها، ومن ثم دون أن تغلقَ فمها أولاً (بل أغمضتْ عينيها بقوّة)، أنشدتْ ترنيمتين لاتينيتين و«الله يحمي بولندا»، واحدةً إثر الأخرى. إني أعرفُ أن هذا يبدو هزلياً، إلّا أنّ غناءَها أثارني إلى حدّ البكاء. يمكنني القول إن لها مزاجاً حلواً، الفتاة لم تتجاوزْ سن السادسة عشرة، ودانوتا وواندا سوف تعلّمانها الطهي والخياطة. وفي الحقيقة، أنا بدوري أحتاجُ إلى دروسٍ قليلة! أيّ أنثى بوسعها أن تتعلّمَ تدبير المنزل، إنما مَن يقدر أن يفكر في تعليم هذه الفتاة كيف تغني؟

يمكنني أن أفهم، أيضاً، أنه يلزمني أن أعلّمها كلَّ شيء آخر. في المقام الأول، ألّا تخشى العالم. ثانياً، ألّا تخافني. كنتُ سألتُها قبل مغادرتنا وارسو ما إذا كانت تملكُ كلَّ ما تحتاجه من أجل حياتها الجديدة، وهذا ما حاولتُ القيام به، بنجاحٍ قليل، كي أصفها. كما لو أنّ هذا كان اختباراً يلزمها ألّا تفشل فيه، صرختْ قائلةً: «أوه نعم، مدام. كلّ شيء!». اكتشفتُ بعد أن بدأنا رحلتنا البحرية أنها لا تملكُ إلّا ثوباً واحداً، ولِفاعاً، وسَمقاً ممزّقاً، وجاكتة قطنية. كان صاحب النزل في هوبوكين قد نصحنا بأن نشتري الملابس هنا قبل انطلاقنا إلى كاليفورنيا، بما أنّ كلَّ شيء في المخازن الضخمة عليه لصقة السعر بسبب «الرعب» الذي ذكرتُه آنفاً. وهكذا قد تتصوّر ديزدمونه خاصتكَ أمس تمضي من متجرٍ إلى متجر، مستغرقةً في حوار جدّي مع الموظفين الكتبة بخصوص سترة، أو تنورة، أو بلوزة نسائية، أو بعض الملابس الداخلية العملية جدّاً. متجرُ المتاجر هنا، «أيّ. تي. ستيوارت»، قصرٌ من الحديد - الصبّ يشغل بلوكاً كاملاً من المدينة، يُقال إنه أكبر المتاجر في العالم؛ لكني أفضّل مركزاً تجاريّاً أصغر، متجر «ماسي»، الذي افتتح توّاً قسماً لملابس الصبيان كانت بضائعُه الكثيرة الجميلة المرهَفة قد خيّبتْ أمل پيوتر بمرارة. كان يتوقّع أن باستطاعتي أن أشتري له هناك غطاءَ

زينياً للرأس بريش فرد أباتشي[1] ومئزراً، وخلال بقية النهار ظلَّ بلا عزاء بكل ما تعنيه هذه الكلمة!

15 آب / أغسطس

سامَحَني بيوتر على كوني خيّبتُ أمَلَه: أمس زرنا الـ «المعرض المئوي».

كانت الرحلةُ بحدٍّ ذاتها مَشهداً لافتاً، في داخل القطار ناهيك عن النظر من النوافذ إلى الخارج، بما أنّه يبدو أن العربات في القطارات الأمريكية، حتى في ما يُسمّى بالدرجة الأولى، ليستْ مُقسّمةً إلى مقصورات. وعلى مدى نحو ساعتين ونصف كان لدينا منظرٌ حميم لعددٍ محدّدٍ من الأجانب الذين يفرزون عَرَقاً، وهؤلاء الأجانب هم نحن، نفرز عَرَقاً بغزارة فيما نحن نحاول الاحتفاظ بشيءٍ قليلٍ من الوقار غير المجدي للعالم القديم. كان معظم المسافرين *مثل أحد أفراد الأسرة*[2] وكانوا يحملون سلالًا كبيرةً ذات أغطية تحتوي على الطعام والشراب، كان عطاؤها السخي، سواء أكان مقبولاً أم لا، يهبُهم الحقَّ في أن يكونوا ودودين ـــ وهو شيء يعني، في أمريكا، طرح الأسئلة. من أيّ بلدٍ أقبلنا، إذا ما كنا ذاهبين إلى الـ «مئوي»، وماذا نريد أن نرى. «إنه أضخمُ من أن نرى كلَّ شيء»، قيل لنا مراراً وتكراراً. كنا سبعة أشخاص، لأن بربارة وألكسندر، ما إن عرفا أن فيلادلفيا تقع في جهة الجنوب وكانت في الأرجح أكثر حرّاً، بقيا في هوبوكن؛ ما من شيءٍ يُقنعهم بأن يشاركونا في هذه الرحلة التي كنا نترقّبها بقوة. كان الاثنان، دانوتا وسيبريان، قادرين على المجيء لأنه كان بمستطاعهما ترك فتاتيهما الصغيرتين مع أنّيللا، إلّا أنّ دانوتا كانت تنشدُ الاطمئنان بأنهما لن يعانيا كثيراً حين نصلُ إلى كاليفورنيا. يعانيا! حتى حين أذكّرهما بأن كاليفورنيا

1- الأباتشي Apache: هو فرد ينتمي لمجموعة من الهنود الأمريكيين يقيمون في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة – م.

2- مثل أحد أفراد الأسرة: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل en famille – م.

كانت مشهورةً بجوِّها المثالي، والمُعتدل، كنتُ قلقةً من أنهما لم يفهما إلى أيّ مدى كانت حياتنا شاقةً بطرائق أخرى، في الأقل بسبب الأشهر الأولى، في أغلب الظن.

فيلادلفيا، ما شاهدناه منها بين المحطة وأرضيات الـ «إكزپوزشن» خارج المدينة، هي أقدم، وأجمل، وأنظف من منهاتن. افتقدتُ ضوضاء منهاتن! إنما عددٌ كافٍ من الملأ لأن أكثر الخبراء[1] تعطّشاً من الحشود كانوا ينتظروننا في «المعرض المئوي»، الذي كان قد استقبل أصلاً بضعة ملايين من الزائرين منذ افتتاحه في أيار / مايو.

لم تكنْ هنالك طريقةٌ تمكننا من مشاهدة كلّ شيء مثير للاهتمام في يومٍ واحد. تخيّل، هينريك، أضخم صرح في العالم، [المبنى الرئيس لـ «المعرض»]، هيكلٌ جبّار من الخشب، والحديد والزجاج أطول خمس مرات وأوسع عشر مرات من الـ «دوناو»! تخيّل ـــ لكنكَ دون ريبٍ قرأتَ عنه في صحفنا أو في الصحف الألمانية. في الحقيقة، كان عليكَ أن تكونَ قادراً على قراءة مقالة كتبها ريشارد؛ أنا أعرف أنه وعد الـ «غازيتا پولسكا» بمقالةٍ واحدةٍ في الأقل عن الـ «مئوي». إنما، كما عرفنا من الرسالة التي تنتظرنا في الفندق الكائن في بريمين، أن صحافينا الشاب الخالي البال لم يذهبْ إلى فيلادلفيا. كتب أنه متلهّف جدّاً للمغادرة، وسوف يكتبُ بعض المقالات عن الرحلةِ عبر القارتين بدلاً من ذلك، ما مثل شيكاغو تنهضُ من الرماد بعد «الحريق الكبير» قبل خمسةِ أعوامٍ مضتْ. وما إنْ يصلُ إلى الأقاليم الغربية، حتى يرى أخيراً الهنودَ الأحياء، ليتَهُ يراهم في موكبٍ كئيب، هاربين من القوات الحكومية التي لا تُقهر، تلك القوات التي تحمي الروّاد. هذا الأمر يدفعني للابتسام. لأن شيكاغو، حيث لم يقضِ ريشارد سوى سويعات قلائل، لا بدّ أن تكون قد بُنيتْ ثانيةً وبشكل تام؛ هينريك، في أمريكا خمسة أعوام وقتٌ طويلٌ جدّاً! وأحدث المعارك مع الهنود، في مطلع هذا الصيف، أسفرتْ

1- الخبراء جمع خبير connoisseur وهو المتمكن من تقنية فنٍّ من الفنون يؤهله لإطلاق حُكم نقدي فيه – م.

عن هزيمةٍ نكراء للفرسان وموت قائدهم، الجنرال كوستر. بما أنّ ريشارد له مخيلةٌ رائعةٌ ـــ ربما حتى ضروريةٌ للصحافي أكثر من الممثل ـــ لن أندهشَ إذا ما قلتَ لي إنه لم يُرسلْ مقالةً عن الـ «المعرض المئوي»، إلى هناك.

بما أنّكَ حتما تعرف شيئاً ما عن العجائبِ التي يستطيعُ المرء أن يشاهدَها هناك، سأذكر فقط الشيء المشوِّق والغريب المُدرَج في اللائحة. (أترى، أنا أغدو أمريكيةً أصلاً!) تصوّر كاتدرائية بعلوّ ستة أمتار مصنوعة من قصب السُّكّر المغزول مُحاط بشخصياتٍ تاريخيّةٍ من الحلوى، زهرية من الشوكولاته الصلبة تزن مئة كيلوغرام، ونسخةً بنصف حجم ضريح جورج واشنطن، الذي ينهضُ بفواصل زمنية منتظمة ـــ هذا الأمر سحر پيوتر أكثر بشكل خاص ـــ من بين الأموات ويُلقي عليه التحية جنودٌ من الدمى واقفون كالحرس. كان تمثالي التاريخي الأثير هو نُصب الـ «جيوراما»[1]: ديوراماتان[2] مفصلتان بنحوٍ غريب لباريس والقدس «أورشليم» ـــ تانك الصورتان وصورة لمنزل ياباني، لم يكنْ، لسوء الحظ، مزوّداً بالأثاث.

لم يكنْ لدينا وقتٌ للقيام بزيارات لـ «جناح الكتاب المقدّس»، لـ «نيو إنغلاند لوغ هاوس»، «مبنى القهوة التركية»، «مبنى تابوت الدفن»، (لا، هينريك، أنا لا أختلق هذا!)، بين الصروح الأصغر، إلّا أنّنا لم نكنْ نمشي بسرعة عبر «غاليري الفوتوغراف»، و«جناح النساء»، حيث افتقدنا الكسرَ اليومي لكرسي على يدِ سيدةٍ يبلغ وزنُها مئتين وتسعين كيلوغراماً، لكننا حدّقنا بعجب إلى النُّصب الهائل لأيولانثي[3] النائمة الذي نحتته بالزبد امرأةٌ

1- الجيوراما the Georama: كرة أرضية مجوّفة يحتوي سطحها الداخلي على خارطة للعالم كي يعاينها الشخص الواقف في داخلها – م.

2- ديوراماتان: مثنى ديوراما diorama: صورة يُنظر إليها من خلال ثقب في جدار حجرة مظلمة – م.

3- أيولانثي Iolanthe: أوبرا هزلية كتب نصها دبليو. أس. غلبرت ووضع موسيقاها آرثر سوليڤان، وهي نوع من savoy operas (نوع من الأوبرات الكوميدية التي نشأتْ في إنكلترا الفيكتورية في أواخر القرن التاسع عشر)، وهي المساهمة السابعة من بين أربع عشرة مساهمة أوبرالية بين غلبرت وسوليڤان. في الأوبرا تُبعَد الجنية أيولانثي من أرض الجن لأنها تزوجتْ قاتلاً، وهذا الأمر ممنوع بحسب قانون الجن – م.

من أركنساس. زبد؟ في هذه الحرارة؟ أجل، وهو زبد طازج، ذلك أنها كانت تنحته مجدداً كل يوم! وبعدها وعلى مدى ساعتين يجب أن يُترك النُّصب جانباً للمعروضات الهندية في مبنى الحكومة. بالإضافة إلى نماذجَ من أواني الهنود الفخارية، أسلحتهم، وأدواتهم، كانت هنالك أكواخ مستديرة الشكل وتماثيل شمعية لمحاربين هنود ذائعي الصيت، بالحجم الطبيعي وبألبستهم الخاصة الكاملة، جذبت پيوتر كي يلقي نظرةً طال انتظارها على الغلايين الطويلة والتوماهوك[1]. يا للطفل المسكين، ظلَّ يسألني كي يطمئن بأن هذه أشياءٌ حقيقية، قاصداً من وراء ذلك أنها لم تكنْ ثياباً ومستلزمات للممثلين المسرحيين. صدمتني طريقةُ صياغة الوجوه. العيون الصغيرة السود القاسية، خصلات الشعر الخشن غير المُمشطة، وأفواه الحيوانات الكبيرة كانت مصممةً بشكلٍ واضح كي تُلهم الكراهية ضد الفرد الهندي بوصفه شيطاناً شنيعاً. هنا لا تجد أثراً من ذلك التبجيل للعِرق الهندي الذي تشرّبناه في كتب المغامرات خلال عهد الطفولة والصِّبا.

لقد سمعتَ عن الاختراعات الجديدة المُذهِلة: ماكينة شبيهة بالنيص[2] لغرض دمغ الرسائل المكتوبة بالحبر على ورقة فارغة، فضلاً عن ذلك يمكنكَ أن تصنع نسخاً كثيرةً من صفحة مفردة تُنتجها ماكينة كتابة، وصندوقٌ صغيرٌ يرسل الصوت البشري في سلك كهربائي. فيما يتعلّق بهذه الآلة المخصصة للسماع من مسافات طويلة، التليفون، قيل لنا إن مخترعه يأمل أن يُحسّن مسموعية الشيء المنقول: في حين إن الجملة العَرَضية تأتي بوضوح مُروِّع، لأنه في أغلب الأحيان فقط الحروف اللينة هي التي تُنسخ بإخلاص والحروف الساكنة لا يمكن التعرّفُ عليها. إنما يقيناً سوف تُحسَّن. وكم ستكونُ تلك هديةً ثمينة للجنس البشري، في حين، بوساطة هذا الجهاز أيّ فرد يمكنه أن يحصل على أوبرا إيطالية، مسرحية من مسرحيات شكسبير، نقاش في الكونجرس، موعظة دينية لكاهنهم الأثير تشن هجوماً كالغاز في

1- التوماهوك tomahawk: فأسٌ يصطنعها الهنود الحُمر سلاحاً وأداة – م.

2- النّيص porcupine: حيوان شائك من القوارض – م.

منزل المرء. إن إمكانات التعليم العمومية غير محدودة. فكّر في الذين لا يستطيعون تحمّلَ تكاليفِ تذاكرِ المسرح حتى يكون بمستطاعِهم سماع الأداء المسرحي على تليفونهم. مع ذلك، إني قلقة بشأن العواقب المترتبة على هذا الاختراع، الكسل البشري الموجود حالياً، إذ لا يوجد شيء يمكن أن يعوّض عن تجربة دخول معبد الفن المسرحي، أن يشغل المرءُ مقعدَه وسط المشاهدين الآخرين، ورؤيتك فناناً عظيماً يؤدّي دوراً مسرحيّاً. ما إن يتوافر التليفون في كلِّ منزل، هل سيظلُّ المرءُ، يرتادُ المسرح؟

من بين النُّصب الكثيرة في أرضيات «المعرض» سوف تسلّيكَ «نافورة الـ[مئوي]»، التي نصبها الـ«التقشف»[1] الكاثوليكي التام التابع لاتحاد أمريكا. (تأمل دلائل النجاح العصيّة كهذه في بولندا!) في وسطِ حوضٍ واسع يوجد تمثالٌ ضخم للنبي موسى يبرزُ من قاعدته الجرانيت الخشنة، وتُطوّق الحوض تماثيل مرمر طويلة لكاثوليكيين أمريكيين بارزين، أسماؤهم وأفعالهم غير معروفة بالطبع بالنسبة لي، مع نافورة للشرب في أسفل كل تمثال. أطفئ ظمأك عند هذا المنبع الصافي فلن تتوقَ للكحول ثانيةً؟ كيف يمكنني أن أمنع نفسي من التفكير فيكَ، صديقي العزيز؟ أخبرنا أحدُ الحاضرين، لسوء الحظ، تبيّن أنه من المستحيل أن نُكملَ النافورة قبل افتتاح «المعرض». لم يخطرْ ببالي قط أن ثمةَ شيئاً مفقوداً. وحتى أكثر من ذلك أن تشجع النافورات الاعتدالَ في تناول الطعام والشراب؟

أنا متأهبة لأن أعانق الحب الأمريكي للمنجز الغريب بحيث إنّي أخفقتُ في تمييز تمثال آخر بسبب كونه غير مكتمل، وهذا شيء واضح ـــ هو بالأحرى، جزءٌ من شيء غير مكتمل. أرسلت الحكومة الفرنسية إلى الـ«المعرض» ساعداً هائلاً كانت يده التي لا تُقهر تمسك بمشعل؛ إنها مجوّفة، ودرجات السلّم في داخله تؤدي إلى شرفةٍ في أسفل المشعل. كنتُ مستعدةً لأن أتخيّل هذا العمل النحتي، المصنوع من النحاس والحديد، المزروع على قاعدةٍ في مركز مدينة فيلادلفيا، وكان شيئاً مُخيّباً للآمال تقريباً

1- التقشف abstinence: الامتناع عن تناول بعض المآكل وعن المُسكرات – م.

أن نعلم أنه سيكون هنالك شكلٌ بشريٌّ كامل ملتصق بالذراع البطولية، «الحرية» نفسها، تمثالٌ ضخمٌ حديث اخترع في باريس، وسوف يُوضعُ في يوم ما (على غرار التمثال الضخم في رودس الغابرة) في ميناء نيويورك كي يُرحِّب بالمهاجرين الواصلين. كيف يتسنى للمرء، أنا أسأل نفسي، أن يعرفَ ما الذي فُرِغ منه في هذه البلاد، وما الذي ما يزالُ قيد العمل؟

17 آب / أغسطس

الوقت الآن هو الأصيل وأنا ما أزال مستمرةً في تدوين هذه الرسالة في ظل شجرة دردار خلف نزلنا في هوبوكين، بعد يوم مُبهِج في المدينة. مضينا مباشرةً من العبّارة[1] إلى مكتب البريد الرئيس ووجدنا، كما كنا نتمنى، رسائلَ أكثر من يوليان وريشارد. بعد مضيّ أسبوعين في الجزء الجنوبي من الولاية، وجدا قطعةً من الأرض، قطعة كاملة مع منزل وحظائر للماشية، بجوارِ مجموعةٍ من أشجار العنب الصغيرة. يقترح ريشارد أن نمكث مدة شهر في منطقة منزلنا الجديد؛ إنه يرغب بأن يختلي بنفسه كي يكتب بعض القصص وكذلك كي يستمتع بالحياة في الهواء الطلق مع الهنود والمكسيكيين؛ سوف يذهبُ شمالاً كَرَّةً أخرى قبلَ وصولِنا. يفضّل يوليان أن ينتظرنا في سان فرانسيسكو، حيث توجد هناك جالية بولندية مفعمة بالحيوية. أنا وبوغدان قضينا بقية الصباح ونحن نعدُّ ترتيبات سفرنا. غداً سوف يأخذُ بيوتر إلى فيلادلفيا ثانيةً؛ كان الطفل يصرخ مطالباً بزيارةٍ أخرى إلى الـ«إكسپوزشن». في اليوم التالي، نغادر في الـ«كولون»، متجهين إلى پنما. هناك سوف نجتازُ البرزخَ بواسطة القطار ونركبُ متنَ سفينةٍ أخرى، ستأخذُنا إلى سان فرانسيسكو، حيث لا أتوقّع أن أبقى هناك (إلّا إذا كانَ، كما يبدو مُمكناً، إدوين بووث يمثلُ هناك دورَه المسرحي)

1- العبّارة ferryboat: مركب يُعبَر أو يُنقل به من شاطئ إلى شاطئ ؛ تُسمى بالدارجة المصرية: المعدّية – م.

لكن، مع مجموعتِنا كلِّها التي التأم شملُها ثانيةً، سوف نأخذُ القطار حالاً متجهين صوبَ الجنوب.

بما أنّ هذه السفن ليستْ بواخر حديدية حديثة، بل بواخر مزوّدة بعجلات تجديف، سوف تستغرقُ الرحلة البحرية أكثر من شهر. لِمَ لا تأخذون القطار العابر للقارات وتصلون في بحر أسبوع واحد، سوف تطرحُ عليَّ هذا السؤال. طيب، أنا أُذعنُ لرغبات زوجي العزيز ونجلي. پيوتر توسل إليَّ ألّا أحرمه من فرصة العيش في زورق خشبي، بوغدان وقع في غرام السفر بحراً، كما أخبرتكَ آنفاً، وأنا ـــ أنا بالأحرى كنتُ أحبّذُ أن أستمتعَ بالخطوط المحيطية للقارّة. لا تدعْ ما أخبرتكَ به عن علاقتي الرومانسية مع الماء تُخيفك، صديقي العزيز. روزالكا[1] خاصتك ـــ هل أخبرتك قبلًا أن روزالكا هي قصتي الأثيرة حين كنتُ طفلةً صغيرةً جدّاً؟ تتطلّع لأن تحصل على حياةٍ طويلة جدّاً على اليابسة.

أسپينوول، پنما
9 أيلول / سبتمبر

بسرعة. كانت بداية رحلتنا فاشلةً تماماً. كانت الـ«*كولون*» شديدة الصغر ـــ كنا سنرتاح لو أنّنا نمنا في خيام على ظهر الباخرة أكثر من حجراتها الخصوصية الشديدة الصغر النتنة في الأسفل ـــ وحافظتُ على الإهمالِ الوقح. بعد مضيّ يومين في البحر، انفجرَ أنبوبُ البخار الرئيس:

1- روزالكا Rusalka: في الفولكلور السلافي «روزالكا» مخلوقة خرافية أنثوية، خبيثة تجاه الجنس البشري ومصاحبة للماء في مرات عدة. تظهر روزالكا في مختلف وسائل الإعلام في الثقافة الشعبية الحديثة، بخاصة في البلدان الناطقة باللغات السلافية حيث تشبه مفهوم حورية الماء. ثمة قصة قصيرة تحمل اسم «روزالكا» بقلم الأوكراني أوريست سوموف، وأوبرا بالاسم نفسه للتشيكي أنتونين دؤوراك، وكذلك قصيدة لميخائيل ليرمونتوف – م.

استغرقنا ضعفَ الوقت في التقدّم ببطء عائدين إلى أرصفة هوبوكين! يمكنك أن تتصوّر فزع أعضاءِ مجموعتِنا، وتأنيب دانوتا وسيبريان، اللذين كانا يتحرّقان شوقاً للوصول بأسرع ما يُمكن. يبدو أن بعض الآخرين كانوا يودّون أيضاً أن يأخذوا القطار، إنما لا أحدَ كانت لديه الجرأةُ كي يعارضني. كنتُ سأشعر بأني مذنبةٌ نوعاً ما. ربما أشعر فعلاً. لا، أعتقد لا. إنكَ تعرف مبلغ كُرهي لتغيير رأيي، أن أتخلّى عن شيءٍ كنتُ قررتُ مرةً أن أقومَ به. كنا أخذنا عهداً على أنفسِنا أن نسافرَ بحراً.

يوميّاً أسلّم إلى ذاكرتي عشرين كلمةً إنكليزيةً جديدة في الأقل. صالحٌ للإبحار ـــ أليستْ هاتان الكلمتان محببتين إلى القلب؟[1]

بعد انتظار موجز في هوبوكين غادرنا مجدداً في باخرة تجديفية أخرى، أكبر ومناسبة أكثر – الـ «كريسنت سيتي». انقضت الرحلة دون حادثة. عند أفول الشمس يتجمع المسافرون على ظهر الباخرة كي ينشدوا بنغماتٍ منسجمة أغنيات شعبية من مثل «حبيبي، أصبحتُ كبيرة السن»، و«في المستقبل السعيد»؛ كان الانضمام إليهم مُهدِّئاً للأعصاب. حتى الأيام الأخيرة، حين انحرفت السفينةُ شرقاً كي تمرّ بين كوبا وهاييتي، لم تغبْ عن أنظارنا إحدى الولايات الأمريكية.

صبيحة هذا اليوم نزلنا من الباخرة عند الميناء الكائن في الجانب الكاريبي من البرزخ، والذي يقع على جزيرةٍ صغيرةٍ مكسوّةٍ بالرمل يبلغُ طولُها نحو كيلومتر ومُتصلة بالأرض الرئيسة بوساطة جسر السكة الحديدية. كنتُ أتوقّع مدينةً صغيرة. إنها قرية ذات شارع واحد، أو بالأحرى صفّ طويل واحد من المباني السكنية تشغل معظمها مخازن هيئاتُ أصحابها تشبه هيئات قطاع الطرق، جميعهم يعتمرون قبعات قش مسطحة وبدلات بيجاما بيضاً ـــ وقبيحون بصورةٍ لا تُوصف. كما لو بسبب الحرارة، انسَ معاناتي الأكبر؛ هذا يتخطى كلَّ شيء تحمّلناه قبلاً.

1- في النص الإنكليزي الأصل كلمة واحدة هي seaworthy – م.

لا تتحدّث عن ذلك بعد الآن![1] ينبغي للمرء ببساطة أن يسلّم نفسه لها. على مدى برهةٍ قصيرة كانت السماء تمطر وكنا مرغمين على اللجوء إلى مخزن منحوس للمشروبات الروحية، حيث عرفنا من زنجية عجوز سكرى أن الموسم الممطر هنا، الذي يبدأ في أبريل، يستمر تسعة شهور! توقفَ المطرُ حاليّاً، وقد أتينا إلى الخارج كي نرتب أنفسنا على كراسي رطبة في ما يُحسب بأنه مقهى. كلُّ شيء رطب. الهواء رطب. الخنافس ـــ توجد خنافس في الأمكنة كلِّها ـــ رطبة. الجوّ رطب جدّاً بحيث يمكنني أن أعصر بلوزتي وأعمّق البركات الصغيرة تحت قدميّ. نساء مكتنزات داكنات البشرة، جميلات في ثياب أرجوانية وحمراء، يتنزهن جيئةً وذهاباً أمام نظراتنا الخجولة. والنسور أيضاً، تتجوّل وتهبط فجأةً هنا وهناك بحصانة: لأنها تأكل الفئران النافقة والأشياء الملفوظة التي يرميها الجميع في الشارع، يُحظر إطلاق النار عليها. بوغدان وسيبريان ذهبا كي يجلبا الماء والفواكه الاستوائية من أجل رحلتنا بالقطار التي تستغرقُ ساعتين عبر مستنقعٍ وأجمةٍ يقعان في الجانب الآخر من البرزخ.

إذن، تصوّرني وأنا أرتشف كأس شاي أُضيف إليه مقدار طفيف من الروم جالسةً إلى مائدتي التي علاها الصدأ، أنظرُ بنفاد صبر وتسلية إلى الفواتير التي يتعيّنُ عليَّ دفعها. واندا تجلس قبالتي، تتنهد بصوتٍ مرتفع. بربارة وألكسندر، رأساهما منكّسان على مائدتهما، قلقان إلى حدّ بعيد بحيث إنّهما حتى لم يتذمرا. دانوتا بعيدة في مكانٍ ما مع فتاتيها الصغيرتين، المصابتين بالإسهال. ياكوب وپيوتر جالسان إلى مائدةٍ أخرى، كلاهما يرسم. يقول ياكوب إن هذه هي جنة الرسام ـــ الآن هو يرغب بأن يمكث في پنما! رسم پيوتر خارطة: كان قد صرّح توّاً أنه حين يكبر سوف يحفرُ قناةً للشحن بالسفن عبر البرزخ. يبدو لي أنه قد كبر أصلاً، هينريك. سوف تندهشُ إذا ما قُيّض لك أن ترى كيف تغيّر في أثناء هذه الرحلة، لم يعدْ

1- لا تتحدّثْ عن ذلك بعد الآن!: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل N'en parlons plus! – م.

ذلك الغلام الذي عرفناه، في حقيقةِ الأمر هو الآن رجلٌ صغير بكلِّ ما تعنيه الكلمة. الآن هو الذي يأخذ أنيللا من يدها ويحاول أن يُريحها. الفتاة المسكينة مروَّعة. أصدقاؤنا وصديقاتنا رواقيون أكثر، إلّا أنّي أعرفُ أنَّهم مصدومون من مسألة كيف أن كلَّ شيءٍ غريب. بربارة سألتْ توّاً بصوتٍ مرتعش ما إذا كان يوجدُ هنالك أفارقةٌ كثيرون في كاليفورنيا! سوف أنسخُ لكَ ماذا قيل الآن حصراً.

پيوتر (قافزاً): «لا، هنود!».

بربارة: «لكن أليسوا هم سوداً؟».

پيوتر: «لا، حُمر!».

بربارة: «حُمر؟».

ألكسندر: «لا تكوني سفيهةً، بربارة».

واندا: «جسمي كلُّه مُغطى بلسعات البعوض!».

ياكوب: «ولا تنسوا القومَ الصُّفر».

بربارة: «القومَ الصُّفر!!».

ياكوب: «نعم، الصينيون. والرجال لديهم ضفيرة سوداء طويلة تتدّلى على ظهورهم».

أنيللا (باكيةً): «أوه، مدام، هل نحنُ ذاهبون إلى الصين؟». «أنتِ لم تُخبريني أننا ذاهبون إلى الصين!».

الآن يُلزمني أن أفعل كلَّ شيءٍ كي أُهدئها.

لاحقاً

اشتريتُ مظلةً نسائية وزوجاً من الصنادل. تَقرُّح. أرى بوغدان وسيبريان في مكانٍ بعيد، أذرعُهما مُثقلةٌ، متجهينَ صوبنا. بدأتْ تمطر ثانيةً. فتاتا دانوتا تنشجان. صرصور بشع ضخم بني اللون يمشي متمهلاً عبر الطاولة؛ واندا

تزعق. صاحب المقهى يضحك على واندا. «*صرصور!*».[1] يصيح، يرمي نفسَه على الطاولة، يُلوّح مهدداً بمنشفة. كلمتي الأولى بالإسبانية. هينريك، طارَ بعيداً. صراصير طائرة، هينريك.

القطارُ يوشكُ أن يغادر.

11 أيلول / سبتمبر
وأنا في الـ «كونستيتيوشن»

هينريك، كتبتُ لكَ رسالةً ذات تناسباتٍ أمريكيّة حقيقية.

والآن أنا لا يمكنني أن أفكّر في أيّ شيءٍ أقولُه. إن ساحلَ مكسيكو هو ـــــ لا، أنتَ لا تريد أوصاف دليلٍ سائحين مني.

لكن هل هي أنا، مارينا صديقتكَ، التي تكتبُ إليكَ؟ إني أقول لكَ إني أفتخر برغبتي في أن أتغيّر، غير أني لستُ مستعدةً للتغيير، فالرحلة نفسها أرهقتني أصلاً. إني أسبحُ في الفراغ. رعشاتُ وتسلياتُ السفر هما موضوعي الوحيد. إني أفهمُ لماذا يُنصح المصابون بالإرهاق العصبي بالسفر. أنا نادراً ما أفكرُ في نفسي بعد الآن. ثمة أسئلةٌ عمليّة فقط. حياتي الباطنية تبخرتْ بكلِّ معنى الكلمة. بولندا، والمسرح، يبدوان بعيدين جدّاً.

في المرةِ القادمة سأكتبُ من كاليفورنيا، هينريك، أبوسعكَ أن تتخيّل ذلك؟

صديقتك

م.

1- «صرصور!».: وردت بالإسبانية في النص الإنكليزي الأصل! Cucaracha – م.

خمسة

كاليفورنيا. سانتا آنا، النهر؛ *هايم*، الديار. أناهايم. الألمان. المهاجرون الألمان الفقراء من سان فرانسيسكو الذين أتوا جنوباً قبل عشرين عاماً كي يكوّنوا جاليةً، كي يَزرعوا، كي يُحققوا نجاحاً. جيران ألمان متبلّدو الحس، مقتصدون. اندهشوا لمّا رأوا أننا كثيرون جدّاً، ولا نرتبط كلنا بصلةٍ ما مع بعضنا بعضاً، وأننا نتقاسم منزلاً صغيراً واحداً في أطراف مدينتهم. إنهم يسألون كم عدد المسدسات التي بحوزتنا. يسألون ما إذا كنا طائفةً دينية. يسألون ما إذا كان رجالنا يستطيعون أن يساعدوا في عملية حفر قناة ريّ جديدة. يسألون ما إذا سينتظم بيوتر بالمدرسة، أم إننا نستبقيه في المنزل كي يساعدنا في عمل الحقل. بالطبع سوف يذهبُ إلى المدرسة! المنزلُ، مصنوعٌ من ألواحِ خشب الجميز العادية بدلاً من قرميد اللَّبِن، صغيرٌ جدّاً ــــ بماذا كان يفكر يوليان وريشارد! ــــ بكلّ أنواع الأرضيات باستثناء المطبخ، فقد كان مفروشاً تماماً بالسجاد، وهي عادةٌ أمريكيّة على ما يبدو. أجل، نحنُ هنا كي نصنعَ هذه الحياة الجديدة معاً، أجل. إنما مع كلّ هذا الفراغ المجاور ــــ أمريكا لا شيءَ إن لم تكنْ فسيحةً ــــ إنه شيءٌ أخرق أن نكون مزدحِمين جدّاً.

كان لديهم منظرٌ مثيرٌ عن نطاق سانتا آنا شرقاً و«جبال سان برناردينو» في أقصى الشمال والشرق. خلف وجانبَي المنزل توجد أشجار الطَّمراق[1]،

1- الطَّمراق tamarack: شجرة أمريكية من الفصيلة الصنوبرية – م.

الـ «پيپروود»[1]، التين والبلوط المُعمِّر. وما وراءَ ذلك حقلٌ من الأعشاب الطويلة حيث أكداسُ القش والذُّرة تُجففُ في الشمس، وأشجار كرم تمتدُ إلى مسافاتٍ بعيدة ـــــ كلُّ شيء يبدو بعيداً عن المنزل رائع وبهيّ. المناظر الأقرب متضائلة أكثر. الفناء الأمامي المحصور من الداخل بأشجار السرو خاصته، والحشائش الخشنة، وعددٌ قليلٌ مبعثر من الورود بدا، قالت مارينا، أشبه بمقبرةٍ صغيرةٍ سيئة العناية.

«مقبرة، ماما؟ مقبرةٌ حقيقيّة؟».

«أوه، پيوتر»، قالت، ضاحكةً، «يلزمكَ ألّا تنصت إلى كلّ ما أقوله».

غير أنهم كانوا ينصتون، جميعهم، كانوا ينتظرونها كي تُعطيهم إشارةً، كي تذكّرهم، وكي تُربكهم، وكي تُثبّتهم بقصديتها غير المتَردِّدة. كان يقينها، المؤلَّف من قدراتها على الاستغراق في الشؤون الذاتية، ونفاد صبرها فيما يتصل بارتدادهم العَرَضي نحو الجبن، كان غضبهم الذي قلما يُخفي هشاشتهم، بشأنِ عدمِ اقتناعها التام بأفضل مساعيهم، فضلاً عن كل حالات صمتها، حالات صمتها المُخيفة والمثيرة للإعجاب، ووقوفها جانباً من الدردشة الشائعة، وعدم ردّها على ملاحظة تافهة أو تفصيل اجتماعي مبتذل أو سؤال غير ضروري (ذلك هو كل ما هنالك)، وربما حتى عدم سماعها ما قيل، الذي جعلهم يرغبون بأن يُدخلوا السرورَ إلى قلبِها، والذي جعلهم يحسّون بأنهم لا يريدون أن يكونوا في أيّ مكانٍ آخر على وجهِ الأرض غير هذا المكان معها، وأن يُعبّروا عن رؤيتها.

لكن كيف يسعُنا أن نخلقَ الأسرة اليوطوبية على خشبةٍ متداعية جدّاً، حقيرةٍ جدّاً؟ أولاً، من خلال العمل بأفضل ما يمكن ومن خلال التحمّل ـــــ مهارات كانت مارينا قد أصبحتْ ضليعةً فيها خلال الأعوام المبكرة من تجوالها في فرقة هينريش في أرجاء المدينة الصغيرة بولندا (تلك المسارح التي لا تحتوي إلّا على الأشياء الضرورية، تلك الغرف المستأجرة

1- الـ «پيپروود»: بالإنكليزية pepperwood – م.

المتداعية)؛ وحالات الإزعاج الحاليّة سوف تُسكَتُ عاجلاً. نعم، مارينا طمأنت الجميع في صباح اليوم التالي بعد وصولهم، بأنه سيكون هنالك منزل لَبِن ثانٍ: هي وبوغدان سوف يسألان هنا وهناك في القرية عن عمال مكسيكيين كي يساعدوهم في تشييده. في غضون هذا الوقت... دانوتا وسيبريان وفتاتاهما يجب أن يكونَ لهم غرفةُ نومٍ كبيرة، هي وبوغدان غرفة النوم الثانية. واندا ويوليان أصغر غرف النوم الثلاث. پيوتر سوف ينامُ على كَنبة في غرفةِ الاستقبال؛ أنيللا على سريرٍ مَعسكرٍ في زاويةٍ بالمطبخ. بربارة وألكسندر وافقا ببسالةٍ على أن يُخصص لهما كوخٌ للخزن لا يبعدْ كثيراً عن الزريبة: سقط المتاع، وسلالم، وبراميل من المسامير، ودلاء طلاء، ومخارط خشب أو معدن، ومطارق، ومناشير في حظيرة الماشية. كانت مارينا تتمنى أن يكونَ بمستطاعِها النومَ في حظيرة الماشية، فقط في الأيام الأولى، بمفردها. كان الحيز الذي اشتهته، منفصلاً تماماً عن الحيوانات وعدّة الحقل ومخزن التبن، وهو مؤثث بنحوٍ هادئ ومريح بالبسط، والسروج، والحُصران، وعدّة الأحصنة، وجماجم حيوانات القيّوط[1]... لكن، لا، لم يكنْ بوسعها أن تفعل هذا مع بوغدان. عازبانا، وريشارد وياكوب، في حظيرة الماشية.

تاركينَ مسألةَ إفراغ محتويات الحقائب والعناية بالأطفال الثلاثة لأنيللا، القادمون الجُدد عرضتْ عليهم الأسرةُ أن تُؤجرَ لهم الأرضَ، وقرب نهاية اليوم الأول أحسّوا بأنهم تملّكوها بحواسِّهم. بمناخيرِهم رحبوا بهجومٍ زكي لروائح الفناء المحاذي للحظيرة والنباتات، كانوا قد وقعوا في شِركٍ التربة المَروية بوفرة، يتلمسون بأصابعهم أشجارَ الكروم خاصتها المحمَّلة بعناقيد «الرسالة»، جثوا عند حافةِ قناةٍ للريّ ومرّروا أيديهم خلال الماء. وراء أشجار الكروم مباشرةً توجد الطبيعةُ في مزاجٍ مُدرع، ووحشي أكثر: سهلٌ فسيحٌ كئيب مُنقط بالصبّار وبأشجارٍ خفيضة، منقوعٌ بالصمت. تطلّعوا إلى السماء العميقة الزرقة وفيما كانت الشمس تحوم أقرب فأقرب حول قمة الجبل، مستشعرين الحاجة لأن يتشربوا بصمت مقدارهم الكبير من الانطباعات

1- القيّوط coyote: ذئب شمال أمريكي صغير - م.

الجديدة، دون أي تدّبر إضافي يسبق الغطس في كرسي والتحديق إلى السقف أو الانطلاق في نزهةٍ راجلةٍ في متنزه مُورِق، تفرّقوا، وواحداً إثر الآخر تاهوا في الصحراء.

ما من مَشهدٍ طبيعي، ولا حتى الأجمة السّبِخة لـ«برزخ پنما»، قد صَدمَ أيَّ واحدٍ منهم مثل هذا الغريب بنحوٍ مُرعب. ولم يكونوا محمولين عبره، يتلقّونه بوصفه منظراً طبيعيّاً، إنما المشي فيه، عليه، ذلك أنه كان سطحاً باهتاً جدّاً، السماء عاليةٌ جدّاً، والأرضُ مستويةٌ جدّاً، ولم يحسّوا أبداً بأنهم منتصبون، بأنهم عموديون، بشرتُهم تمسُّها مَسّاً عابراً ريحُ سانتا آنا الحارّة، آذانهم كان يهدهدها الصوت المتطفل بنحو غريب لوقع أقدامهم، متوقفون هنيهةً، كان بمستطاعهم أن يسمعوا همسَ الكائنات الشديدة النحول التي بلون الصحراء تعدو على امتداد السطح المفروش بالحصى. كائنات ذات أنياب زَلِقة (الأفعى!)، إنما هناك في الأسفل، تنطلقُ بسرعةٍ مفرطة. لا يكاد يكون هنالك شيءٌ قريبٌ من شيءٍ آخر هنا: تلك الحارسات المتدلّيات ذوات الضفائر، أشجار اليُكّة[1]، ومجاميع من الرماح المتدلية، نباتات الصبار الأمريكي، والمجاميع القصيرة من أشجار الكمثرى الشوكي، كلُّ واحدةٍ منها تبعدُ عن الأخرى بمسافةٍ واسعة، غيرَ متشابهةٍ البتة ــــ وما من شيءٍ يُمكنُ القيامَ به مع أيّ شيءٍ آخر. كلُّ واحدةٍ على انفراد، كلُّ واحدة منفصلةٌ عن الأخرى. إن الإحساس بالخطر المُحدِق الذي لا يمكن بكلّ معنى الكلمة أن يُخمَد (هل كان ذلك عقرباً؟) حثّوا خطاهم برهةً، كما لو أنّهم ظنّوا أنهم ربما يصلون توّاً إلى مكانٍ ما. في الهواء الصافي كانت الجبال تبدو قريبةً بنحوٍ خادع. وكم كان صغيراً، حين التفتوا لحظةً كي يروا كم أصبحوا بعيدين، عالمُهم الصغير الأخضر. تابعوا المشي، ضائعين في بهجة أحاسيسهم، مشوا ومشوا: لم تُصبح الجبال أقربَ إليهم. كانت مخاوفُهم قد خمدتْ منذ أمدٍ بعيد. صفاء الأفق، انعزاله العنيد، بدا في أول الأمر كتهديد، وبعدها كإثارةٍ، وبعدها كخَدَرٍ، وبعدها مثل يقظةٍ مختلفة.

1- اليُكّة yucca: نبات من الفصيلة الزنبقية – م.

كان دخولهم الحقيقي في العَدَمية المُغرية للصحراء قد بدأ. المَشهد الطبيعي العديم الصوت، والعديم الرائحة، والأحاديّ اللون، وغير المستأجر بصورةٍ قاسية، له التأثيرُ نفسُه على كلِّ واحدٍ منهم: انطباع مُسكِر من الوحدة، التي شيئاً فشيئاً أفسحت المجالَ إلى موافقة فعالة أكثر على تجربة العزلة. كان يزورهم جميعاً شوقٌ شبيه بشوق مارينا ـــ لأن تكون وحيدةً، وحيدةً فعلاً (ماذا لو أنّي، ماذا لو أنّها، ماذا لو أنّه...؟) ـــ وسمحوا لأنفسهم أن يتخيّلوا الاختفاء، دون مسرح، دون إثم، اختفاء أقرب الأشخاص إليهم، في مكانٍ ما هناك، أيضاً. وألا نتخيل الرغبة؟ كان الاستسلام لتجفيف الشعور سريعاً إنما ضَعَفَ تقريباً بسرعة، مثل شيء ما، خوف أعمق، جعلهم ينسحبون عنه، تطهّروا، وتشذّبوا، ومن ثم حلَّ الوقت كي يستديروا ويعودوا مشياً إلى الأرض الندية وحياتهم الرطبة.

فقط واحدةٌ من بينهم، تتجوّل هنا وهناك في الانبهار الغبي عينه، استثنتْ نفسها من التناقص التدريجي لهذه الفنتازيا اللذيذة، المدمِّرة، برغم تحذيرات ريشارد ويوليان للجميع بأن يمكثوا بعيدين عن نباتات الصبّار، واندا لم تكنْ قادرةً على كبحِ فضولِها فيما يتعلّق بماهية الشعور حين يلمسُ المرءُ إحدى هذه النباتات، واختارت الوسادة الرقيقة ذات المظهر الأملس من ذيل قندس. «إنه لا يملك أيَّ أشواك»، شكتْ. «كيف يتسنى لي أن أعرف أنه يملك مثل هذه... المروِّعة ـــ» تذمّرتْ. «لكن كلتا اليدين، واندا؟ يلزمكِ أن تستخدمي *كلتا* اليدين؟». استشاط يوليان غضباً. كان قد أخذها إلى المدخل المسقوف، إلى الملاقط الصغيرة والشمعة. «ما من أحدٍ على وجه البسيطة سواكِ يفكر بأن يلمس نبتة صبار بـــ» وفيما هو يجفل ويتنهد، وقف وراءها، ممسكاً بكتفيها، في حين كان ياكوب ودانوتا يلتقطان على مدى ساعة مئات الإبر الزَّغِبة المتناهية الصغر المغروسة في أصابعها وراحتيها. حين انتهتْ تأوهات واندا سمعوا زعيقاً جليّاً من شخصٍ ما في مكانٍ قريب، أول فكرة خطرتْ ببالهم جميعاً هي كارثة نبتة صبّار أخرى. «مدام، مدام!» أسرعتْ مارينا للنجدة. إنما كان ذلك فقط

الباذنجانات الأرجوانية الهائلة الثلاث التي تعثرتْ بها أنيللا، التي تدلّتْ مثل قنابل ضخمة هوتْ وراء المنزل، وحاولتْ في حينِها أن تلتقطها، لمجرد أن تكتشف أن كلَّ واحدةٍ منها كانت ملتصقةً بقوة بالتربة الصخرية. ريشارد وهو يقطع إرباً إرباً شجرة عنب شبيهة بالحبل بسكين الصيد خاصته، فكّها.

بينما كانوا يعدّون بابتهاج شديد أول وجبة طعام في حياتهم الجديدة ــــ الباذنجانات، المحمّصة على نارٍ في الفناء، أُضيفتْ بوساطة مؤن تمّ شراؤها في القرية ــــ السماء القاسية المُنذرة بالشؤم ادلهمتْ عند حلول الليل، سواد يحمل نجوماً أكثر سطوعاً من تلك التي شاهدوها قبلاً في زاكوپين. نجوماً موضوعةً في شجرة أبنوس، قال ياكوب. دانوتا وسيبريان ذهبا إلى الداخل، سيبريان كي يلتقط أحد التليسكوبات التي اشتراها بوغدان من بولندا ودانوتا كي تضع فتاتيهما الصغيرتين في سريريهما؛ پيوتر، وهو يشعر بالإهمال وبالسرور أيضاً لأنه لم يُرسلْ إلى الفراش، أيضاً، اتخذ له مجلساً في المدخل المسقوف وراح يدرّب نفسه فيما هو يردّ على عواء القيوط. وسرعان ما أَرغمَ البعوضُ ذو الكروش الجميعَ على التوجّه إلى داخل الكوخ، هذه الحشرات كانت قادرةً على اللسع عبر الملابس وأن تجعلَ النومَ في الليلةِ الأولى تلك (وعلى مدى أسابيع بعد ذلك) عذاباً أليماً. إنما حتى دون بعوض قلّما كانوا ينامون جيداً لمّا يكونون فرحين جدّاً بجرأتهم، وكانت الأحلام المفعمة بالحيوية تسحبهم إلى داخل مملكة النوم وخارجها. كان يوليان يحلم بيدَيْ واندا النازفتين. ريشارد يحلم بسكينه. أنيللا تحلمُ بأمٍّ لم تعرفْها قط، كانت شبيهة بمريم العذراء في كنيسة دار الأيتام الصغيرة؛ في أحيانٍ كثيرة كانت تحلم بأمها. پيوتر يحلم بأشخاص أموات يزحفون خارج أجداثهم ويحاصرون المنزل. بوغدان الذي تركته مارينا لريشارد. ومارينا تحلم بإدوين بوث، الذي رأته أخيراً، قبل أسبوع واحد لا غير. بعد سويعات قلائل من ذهاب الـ «كونستيتيوشن» إلى رصيفِ السفن في خليج سان فرانسيسكو، علمتْ مارينا أن بوث الرائع كان يمثل دوراً مسرحيّاً هناك، في «مسرح كاليفورنيا»، وفي اليوم التالي تحديداً شاهدتْ شايلوك

خاصتَه وبعد مضيّ يومين شاهدتْ مارك أنتوني خاصته. لم تكنْ مُحبطةً. بكتْ تعبيراً عن إعجابها. في حلمها، كان يميل نحوها. كان يجعل راحته كالكوب على خدها. إنه يُخبرها بشيءٍ حزين، عن شيءٍ لا يُمكن أن يُهمَل، عن شخصٍ فارقَ الحياة. كانت تريدُ أن تلمس كتفه؛ حزينة هي الأخرى. ومن ثم يكونان على صهوة حصان، يركبان جنباً إلى جنب، إنما ثمة شيءٌ خطأ في ما يتصلُ بحصانِها، إنه صغيرٌ جدّاً، صغيرٌ جدّاً إلى حدٍّ بعيد؛ قدماها تكشطان الأرض. هو ملتف بالألبسة الجاهزة الشرقية التي ارتداها بوصفه شايلوك العجوز، وحتى إنه كان يعتمر قبعة الشرير الصفراء الناعمة وينتعل الحذاءين الأحمرين المدببين، مع أنّه حقيقةً مارك أنتوني. إنهما يترجلان بالقرب من شجرة أوبونسيا أسطوانية ضخمة. وبعدها يرمي قبعته على الأرض ويا لرعبها، يقبض على غصن شجرة صبّار مليء بالأشواك بيدٍ عاريةٍ ويرفع نفسه بخفة حركة رجلٍ في مقتبل العمر. لا تفعلْ ذلك! تصيح. يستمر في التسلّق. ألم يستشهدْ هو بوساطة تلك الإبر المروِّعة؟ أرجوك انزلْ! تصرخ. إنها تبكي تعبيراً عن خوفها. أما هو فيضحك. أكانَ ما يزال بوث؟ كان يبدو شبيهاً بستيفان بدرجةٍ قليلة. لكن لا، لا يمكن أن يكون شقيقها، الموجود هناك في بولندا، لا، هو الذي لقي حتفه منذ أعوام طويلة. ممسكاً بأعلى غصنٍ في شجرة الأوبونسيا الأسطوانية، يبدأ الحديثُ الرائع المتعلّق بالتوبيخ والتحريض، يلقي قصيدةً على الهواء المتغطرس ومن ثم عليها حين يصل إلى:

ياه، أنتِ تبكينَ الآن، وأنا أفهمُ أنكِ تشعرين
بقوةِ الشفقة. هذه قطراتٌ لطيفة.

إنما ثمةَ شيءٌ جديد، لا، غير مألوف، لا، مألوف، في الكلمات المتدفّقة من فمِه. كانت قد فهمته بنحوٍ مثاليّ في سان فرانسيسكو، وقد فهمته الآن، مع أنّ الكلام لا يبدو بالطريقة التي كان فيها في المسرح. هل يقولها باللاتينية؟

كان أنتوني رجلاً من روما. إلّا أنّ شكسبير كان إنكليزيّاً. إذن هل هكذا يجب أن تبدو الإنكليزية؟ لئن كان الأمر كذلك، فإن كلَّ دراستِها وممارستِها كانت بلا جدوى. إن كونها مثلما هي عليه تقلقُ وتغضبُ حين تستيقظُ وتُدركُ، وهي تضحك في نفسها، أنها كانت تحلم بإدوين بوث وهو يمثل بالبولندية.

إن أحد الأسباب التي جعلتْ يوليان وريشارد يختاران هذا الموقع هو قربه من مجموعةٍ بشرية ـــ ناطقة بالألمانية فضلاً عن ذلك، لذلك لن يكون هنالك حاجزٌ لغويٌّ ـــ من مزارعي الجيل الأول، ممَّن لم يكونوا يعرفون في يومٍ ما أكثر مما يعرفونه عن العنب والبقرة، والمحراث وقناة الريّ.

قبل عشرين سنة فقط هذه الحقول الخَصبة وهذه القرية المزدهرة كانتا ألف ومئتي أكر[1] من اليباب، التربة الرملية، ومجرَّدَ زاويةٍ من مزرعةٍ واسعةٍ لتربية الماشية كان مالُكها المكسيكي، مقتنعاً أن هذه الرقعة من الأرض لا يمكنها أن تدعم معزاة واحدة، سعيداً بأن يبيعها. هذا الأمر جعل المهاجرين الأوروبيين، الذين كانت الصحراء بالنسبة لهم ليستْ غريبةً فقط، بل نوعاً من خطأ، القادرين على التصحيح والإضافة عبر إدخال الماء، يفكرون بأن كاليفورنيا الجنوبية، وهي بمناخ إيطاليا نفسه تقريباً، يجب أن تكون ملائمةً لزراعة الكروم.

كانت الأرض التي تمّ استئجارها بنقود بوغدان تُدار من قبل أصحابها (الآن غيّروا مواقعَهم إلى مزرعةٍ لتربية الماشية في التلال الواقعة عند سفح الجبل) حالَ وصولهم في مطلع تشرين الأول / أكتوبر، بالقرب من انتهاء دائرة الكروم: معظم الكروم كانت قد جُمعتْ وبيعتْ. بدا أنها لحظةٌ سعيدة الحظ أن يبدؤوا استئجارهم الأرض، كي ينعموا بالراحة في وكالتهم.

رفضوا الموافقة على الرأي القائل إن قلةَ خبرتِهم كانت عقبةً لا تُقهر. كلّ ما كانوا يحتاجونه هو التجارة، القدرة على الاحتمال ـــ التواضع. كانت

1- الأكر acre: مقياس للمساحة يساوي نحو أربعة آلاف متر مربع - م.

مارينا تنهضُ من النوم كلَّ صباح في الساعة السادسة والنصف وفي الحال تُمسكُ بمكنستِها. آه، هينريك، ليتكَ ترى ديزدمونه خاصتكَ، ومارغريت غوتييه خاصتك[1]، وليدي آن[2] خاصتكَ، والأميرة إيبولي[3] خاصتك الآن.

عالقةً بين نَزعَتين، كي تسلّم المهمات لكل واحدٍ منهم وكي تفرض قاعدتها بأن العملَ كلّه يكون تطوّعيّاً، قررتْ مارينا ببساطة أن تضربَ مَثَلاً. كانت تستمتعُ بالكنس: الضربات واللكمات القوية تتوافق مع أفكارها. وتقشير اللوبيا، وهو العملُ الذي كانت تحب القيام به في كرسي ذي مسندين مصنوع من أغصان شجرة المنزنيتا في المدخَل المسقوف: هذا العمل الذي لا يتطلّب ذكاءً أفضى إلى احتياطات مُهدِّئة بعمق من البلاهة كانت قد استثمرتها خيرَ استثمار بوصفها ممثلة مسرحية. لم تغفلْ مسألة كونها ممثلةً على خشبة المسرح. لم تتجاهلْ أحداً. كان بوغدان في الخارج في مجال عمله مع ياكوب وألكسندر وسيبريان. كان ريشارد في مكانٍ بعيد يكتب. بربارة وواندا ذهبتا إلى القرية كي تبتاعا خبز ولحم اليوم. كانت دانوتا صحبة فتاتيها الصغيرتين. بيوتر أقبل راكضاً كي يُريها سحليةً نافقةً عثرَ عليها؛ هو وأنيللا سوف يدفنان السحليةَ في الفناءِ مع صليب صغير. سمعتهما يضحكان معاً. كانت الفتاة رفيقةً - لعب مُدهشة. هي نفسها كانت طفلةً. لو كانت كاميللا ما تزال حيةً، لكانت الآن في ربيعها السادس عشر، على غرار أنيللا. الطفلة التي تمشي بخطوات قصيرة مترنّحة وتتحدّث بنحو غير مفهوم يُمكنها أن تتخيلها هنا في حضنها، وفي دفء حضنها، تلعب مع

1- مارغريت غوتييه Marguerite Gautier: إحدى شخصيات رواية «كاميليا» للكاتب الفرنسي ألكسندر دوماس، نُشرتْ في العام 1884، ومن ثم حوّرها دوماس للمسرح - م.
2- ليدي آن Lady Anne (1574 - 1619): هي عقيلة ملك اسكتلندا وإنكلترا وإيرلندا جيمس الأول وأم هنري ستيوارت أمير ويلز وإليزابيث ستيوارت ملكة بوهيميا وتشارلز الأول ملك إنكلترا، وجدة كل من تشارلز الثاني ملك إنكلترا وجيمس الثاني ملك إنكلترا وهنري ستيوارت، دوق غلوستر وصوفي بالاتينات وريثة عرش ستيوارت لاحقاً، وهي ابنة فريدريك الثاني ملك الدنمارك - م.
3- الأميرة إيبولي Princess Eboli (1540 - 1592): سيدة أرستقراطية إسبانية، الأميرة الثانية بحقها الشخصي لـ ميليتو، زوجة روي غوميز دي سيلڤا، وهو أول أمير لإيبولي - م.

اللوبيا المقشرة في الطاس... ابنةٌ في السادسة عشرة. تلك الذكرى ما تزال توجعها ـــ لم تفتقدْ أمها ولا شقيقتها، لا ه. الصالح خاصتها ولا ه. غير الصالح خاصتها (كانت قد لقّبتْ هينريك وهينريش)، ولا حتى ستيفان. بل افتقدت ابنتها الضائعة فقط.

أن تنتهي من الحِداد! أن تعيش في الحاضر! في الشمس! كانت تتشبّع بالنور. كانت تعتقدُ أنها تستطيع أن تحسَّ فعلاً بأن وهجَ الصحراء يختِمُ جلدَها، يجفف الدموع المسفوحة وغير المسفوحَة. كانت ملموسةً تقريباً، تراجع القلق العميق الذي تقلّبتْ فيه على مدى أعوامٍ طويلة جدّاً، والزيادة المفاجئة في الحيوية، تحررتْ من الحاجة إلى توفيرها من أجل أداء الأدوار المسرحية. الجهود التي تخلّتْ عنها ـــ كونها على خشبة المسرح أو (في تلك التسلية، حياتها) تُحضّرها من، أو تستعد لـ: الزمن الذي تكون فيه على الخشبة ـــ بدتْ لها محتومة جدّاً، محصورةً جدّاً. كانت قد انتزعتْ نفسها، فقط نصف مقتنعةٍ بضرورةِ ما كانت تفعله. أما الآن فهي ذي الحياةُ الجديدة، هذا المَشهد الطبيعي الجديد وأفقه، الذي بدا، أصلاً، مكتملاً. كم كان هيّناً، على أية حال. هينريك، هل تنصتُ إليّ؟ أن يبدل المرءُ حياتَه: إنه شيءٌ سهل كما لو أنّ المرء يخلع قفازاً.

لا يوجد أحدٌ يتهرّب من عمله، الجميع متلهفون للقيام بشيءٍ ما. واندا أخبرتْ يوليان أنها تعتقد أنه يجب إعادة طلاء المنزل. أكرات عديدة من الكروم تنتظر أن تُجمع والعنب، ما إن يُنزع، حتى يكون بحاجة إلى أن يُسمّد ـــ الهدوء المؤقت في التسلسل الذي لا سبيل إلى تغييره للسنة الزراعية يكون هدوءاً نسبيّاً لا غير. فبركـ ألكسندر فزّاعةً ترتدي زيّاً أشبه بزي جندي روسي كي يضعها في مجال عمله. بعد انقضاء بضعة أيام بوغدان وياكوب شرعا يجمعان الثمار المتبقية من الكروم. إلّا أنّهما كانا قد وصلاً توّاً، كانا يتخذان مجلسهما توّاً، والجوّ الرائع بدا أشبه بدعوةٍ كي يخلط المرء الجهد مع تقويم النفس. أخذ يوليان يشرحُ لكلِّ الذين يسمعون كيمياءَ صنعِ الخمر. كانت دانوتا تساعد بربارة في أن تنجز تدريبها في كُتيّبها الخاص

بالعبارات الإنكليزية. كان ألكسندر يلملمُ مجموعةً من عيّنات الصخور. كان ياكوب قد أعدّ إزميله للعمل. اقترحَ ريشارد دروساً في الركوب على الفرس الأسمر المحمر بعد مهمته الصباحية المتعلقة بالكتابة. استلقيا في الأرجوحتين الشبكيتين اللتين مدّهما سيبريان من شجرةٍ إلى شجرة وشرعا يقرآن الروايات وكتب الرحلات؛ وفي الغسق كانا يرفعان وجهيهما إلى السماء الوردية، ويشاهدان السماء والغيوم والاتساع المؤطر بالجبال يظلّم في مركبةٍ يجرها جوادان أحدهما أمام الآخر، إلى أن يأتي قمر الحصاد البرونزي ويشكل قوساً فوق الجبل ويُضيء السُّحب ثانيةً؛ في إحدى الليالي بزغ أكبر وأشد احمراراً، مع بصمة إبهام حِبرية: يوليان كان قد أيقظ الجميع بأنه سيكون هنالك خسوف القمر. كانوا ينتظرون ذلك. ما من شيءٍ يساوي ببساطةٍ أن يكونَ المرءُ مستقرّاً، بلا حراك. وركوب الفرس، ببطء في أول الأمر، ومن ثم بهيئة عدو ما إن يتعلّموا بأن يثقوا بالحريات المتوافرة في السرج المكسيكي العالي، التوغّل في الصحراء، وغالباً حتى التلال الواقعة عند سفح الجبل، وغالباً مباشرةً نحو المحيط الذي يبعد اثني عشر ميلاً في جهة الغرب.

في عشية رحلتهما الطويلة إلى كاليفورنيا، كان سيبريان قد أُرسل إلى واشنطن كي يقضي يوماً في «وزارة الزراعة»، حيث جمع هناك صندوقاً من الكرّاسات المتعلّقة بزراعة الكروم في الجزء الجنوبي من الولاية. من الجلي، سيكون شيئاً ذا معنى أن يتبع آثار أقدام مستوطني أنهايم: كانت القرية قد أُسستْ كمستعمرة كروم. إلّا أنّ بوغدان ظنَّ أن أكراتهم السبعة والأربعين أكثر من ضعف الحصة التي كانت تستثمرها كلُّ أسرةٍ من الأُسر الخمسين الأصلية، يجب أن تضم كذلك عشرة أكرات من بستان البرتقال وخمسةً أخرى من أشجار الزيتون. لو كان لديهم محصولٌ نقدي[1] واحد،

1- المحصول النقديcash crop: (في الزراعة) هو المحصول الذي يُزرع من أجل الربح، ويستخدم المصطلح لتميزها عن الزراعة المعيشية وهي تلك التي تستخدم لتغذية ماشية المنتِج أو عائلته في حدّ ذاتها. من المحاصيل النقدية الأرز والقمح والزيتون والقطن – م.

إزعاجٌ ناجمٌ من الحضور المستمر أو مدة مفاجئة من الطقس الرديء البارد يمكن أن يزيلها تماماً. بمحاصيل عديدة، شيءٌ ما سوف ينجحُ على الدوام.

فيما كان الرجال يتناقشون من المنزلِ إلى الحدود الخارجية ومن أرجوحةٍ شبكية إلى أرجوحةٍ شبكية فإن نظام مشاريعهم، والمهمات الوحيدة التي لا يُمكن تأجيلها ــــ إطعام الحيوانات، أن يُطعموا أنفسهم ــــ تقع على عاتق النساء. ما من أحد يستطيع أن يمضي إلى الخارج كي يملأ معلف الأبقار بالتبن والشوفان وأن ينثر الحبوب للدجاج أو يجلب الشعير، والذرة، والبرسيم للأحصنة، وأقل من ذلك بكثير أن يدعو الجيران منتجي النبيذ كي يشتروا كرومهم، إلى أن ينتهوا من تناول فطور جيد، فطورٍ استمتعوا بأكله. كان بعضهم يحبون شرب الشاي، وآخرون يحبون القهوة، وطرف ثالث يحبون الحليب أو الشوكولاتة الساخنة أو مرق النبيذ؛ كان جميعهم يحبون تناول البيض، المطهو بثلاث أو أربع طرائق مختلفة ــــ حين يكون هنالك عددٌ قليلٌ من البيض، لأن الدجاجات تعوّدتْ أن تضع بيضها في الأمكنة كلِّها والكلابُ الضالّةُ كانت عادةً هي أول مَن يجد البيض. سقوف بواطن الأفواه تلك كلّها[1] التي تفرز لعاباً والأحشاء الوردية المتحرّكة باضطراب، أحشاؤهم لا تختلف عن أحشاء الحيوانات، باستثناء أن أحشاءَهم كانت لها نبرات الذائقة الفردية، نبرات التاريخ، ولها عبءُ التقلّب.

ضمان وجبات الطعام الجماعية البسيطة كان يأخذ وقتاً كبيراً من نهار النساء. لم تكنْ لأيّ واحدة منهن خبرةٌ كبيرةٌ في الطهي، وأقل واحدة منهن هي أنيللا، التي أثبتتْ أنها غير بارعة في المهمات المنزلية العامة كما حُذّرتْ مارينا. كن يتذمرن وراء ظهر مارينا ــــ ويقفزن عند أيّ فرصةٍ لعملٍ أيّ شيء تطلبُ منهنَّ القيام به. واندا، التي كانت يداها الملفوفتان بالضمادتين تجعلها عديمة الفائدة خلال الأسبوع الأول، انفجرتْ باكيةً حين قيل لها إنهن لا يحتجنها في المطبخ. دانوتا قامتْ بإطعام الأطفال الثلاثة كل على انفراد. أما

1- سقوف بواطن الأفواه palates: مفردها سقف باطن الفم ؛ يُسمى بالدارجة العراقيّة: لهّاة – م.

بربارة فقد عُهدتْ إليها مسؤولية إعادة التزوّد بالقهوة، والشاي، والسكر، ولحم الضأن، والطحين، والسلع الرئيسة الأخرى (بشكلٍ ثابت كانوا يقللون من كميةِ ما كانوا يحتاجون إليه) بالإضافة إلى شراءِ معظمٍ غذائهم اليومي إلّا أنهم لن يتناولوا غير الخضار التي يزرعونها، ويشربون نبيذهم، ويشوون دجاجهم (كلٌ واحدٍ منهم مضى ليطارد دجاجةً أو ديكاً رومياً مزوّداً بفأس، وعاد صفرَ اليدين إلى المطبخ). كان صيّادهم، ريشارد، قد جلبَ أرانب وطيورَ السمّان من رحلاتِه على متن فرس فجراً في التلال الواقعة عند سفح الجبل. كان يمكث طويلاً في المطبخ إذا كانت مارينا هناك، حين لا يوجد هناك أحدٌ ينظر إليه يدسُّ ورقةً في جيب مريلتها... قصيدةَ شعر أو فقرةً من قصة؛ تقول [الورقة] ببساطة: «هل لي أن أحكي لكِ حُلُمي؟». كانت قد أخذتْ مجاملة ريشارد بكونها شيئاً مُسلَّماً في بولندا، جزءاً من مَشهد طبيعي لمجاملة التملّق؛ هنا، في مخاضات التعلّم كي تبرعَ في صنع كعكة من خليط اللبن والبيض والأومليت؛ هذه المخاضات صرفت انتباهها. ذات مرة، كانت قد رفعتْ عينيها إلى الأعلى ورأتْ أنه رجع وكان واقفاً في المدخل يراقبها. بإيماءةٍ مسرحيّةٍ تقريباً، راحتْ تمسحُ العرقَ من على جبينِها بساعدِها العاري، ابتسمتْ له بسخرية. «إما أن تدخلَ وتساعدني»، قالت له، «وإما أن ترجعَ إلى حظيرةِ الماشية وتكتب».

ستمرُّ برهةٌ من الزمن قبل أن يُتركُ الطهو لأنيللا، التي كانت تتردد أيضاً على المكان، متحمسة كي تُدخل البهجة إلى قلب مارينا، لأنها لا تملك شيئاً تفعله كي تُسرَّها عدا غناء الترانيم القديمة الكئيبة لمريم العذراء ولبولندا. إلّا أنّ المطبخ كان مزدحماً أصلاً وأنيللا ليس بوسعها أن تُفيدَ إلّا أن تكون عائقاً. بلطفٍ أرسلتها مارينا كي تلعب مع بيوتر والفتاتين. ومن ثم بربارة، دون أن تتلقى أيَّ دعوة على الإطلاق، تعهدتْ بالمرحلة التالية من الغناء. كانت قد تعلّمتْ أغنيةً واحدة، واحدةً لا غير، بالإنكليزية، «سيواني ريڤر»[1]،

1- سيواني ريڤر: Suwanee River: نهرٌ رئيس يجري عبر جورجيا الجنوبية إلى فلوريدا في جنوب الولايات المتحدة. وأغنية بالاسم نفسه وضع كلماتها ستيفان كولينز الذي لم يرَ النهر إلّا أنّه جعله يكتسب شهرةً عالمية – م.

وقد غنّتها المرة تلو المرة. إن ما أغضبَ مارينا لم تكنْ لكنة بربارة المُضحِكة، حسناً، هذا جزء قليل من المسألة، إنها الأغنية ذاتها. هنا كانوا في الجزء الأبعد، الواقع في أقصى الغرب من أمريكا، وبربارة كانت تعوي بصوتها غير الصافي بشأن نهر هناك في شرق أمريكا، أو ربما في الجنوب (مارينا لديها معلومةٌ غامضةٌ حول موقع النهر)، والذي لم تره هي، بربارة، ولن تراه قط. صحيح، مارينا لم يكنْ لديها أيُّ أغنية عن المحيط الهادئ «الاستثنائي»، ناهيك عن «سانتا آنا ريڤر»[1]، كي تقترح بديلًا عنها. غير أن هذا لم يمنعها من الاعتقاد بأن هذه الأغنية وقاحةٌ، قلة احترام للمكان الموجودين فيه، للرب علم الجغرافيا نفسه.

أين كانوا؟

كانوا في مكانٍ بعيد، نعم... إنما يبعد كثيراً عن أيّ مكان؟ سيكون شيئاً أحمق، وحتى غير رياضي، أن نؤكد: عن أوروبا، وعن بولندا. فضلاً عن ذلك، سيكون ذلك صحيحاً فيما يتعلّق بأيّ مكان ربما يكونون فيه في أمريكا. من الأفضل أن يفكروا بأنفسهم بعيداً عن مكانٍ ما في أمريكا ـــــ لنقل، المدينة الحقيقية في الولاية (الغرب الأكبر للـ«مسيسيپي» التي يسكنها ثلاثُ مئة ألف نسمة، ذات المسارح الناجحة، ومجموعة من المهاجرين البولنديين، معظمهم أُسر هربتْ بعد العصيانات المسلّحة الفاشلة لعامَيْ 1830 و1863. أجل، كانوا بعيدين عن سان فرانسيسكو. أنهايم الصغيرة هذه، بسكانها الذين يبلغ عددهم نصف سكان زاكوپين، هي لا شيء. ومع ذلك، قلما تستطيع أن تسميها بدائيةً. أو قريةً، بحسب معانيهم: هي مكان تجمع فيه الناس، بصورةٍ سحيقة، كي يقيموا فيه. كان هذا موقعاً اختاره الناس، انتزعوه بقوّةٍ من العدم، كان يتطوّرُ بحماسة ـــــ حديثاً.

وذلك كله بدا أمريكيّاً إلى حدٍّ بعيد، فيما فهم الواصلون الجدد إلى بلادهم

1- سانتا آنا ريڤر Santa Ana River: أكبر الأنهار، يقع كليّاً في كاليفورنيا الجنوبية، الولايات المتحدة. يبلغ طولُه 154 كم – م.

الجديدة، حتى إذا كان يبدو غالباً كما لو أنّهم لم يكونوا حقيقةً في أمريكا. تحدّثوا بالبولندية فيما بينهم وبالألمانية مع جيرانهم، وهو بنحوٍ لا يقبل الجدل شيءٌ مناسب للأشخاص من مثل ألكسندر ممَّن لديهم مشكلةٌ في تعلّم الإنكليزية، مع أنّه يبدو من الغريب أن يقطع هذه المسافة كلّها وما يزال يتحاور باللغة الشائعة جدّاً لأحد قاهريهم. إنما ـــ كما أشار بوغدان ـــ كانت تلك أمريكا أيضاً، بلادٌ غريبةٌ، لعلها أغرب البلدان قاطبةً، تُرحِّبُ بكلِّ قوميةٍ أوروبية، وـــ ريشارد، الذي كان قد بدأ يدرس اللغة الإسبانية، قاطعه ـــ الإنكليزية لم تكنْ لغة سكان كاليفورنيا المحليين، أيضاً.

كانوا قد تصوّروا كوميوناً زراعيّاً هادئاً. كانت هذه مدينةً مُصغَّرةً جدّاً، شوارعُها ممدودةٌ بنحو معتدٍّ بنفسه على قضبان متصالبة، مليئة بقدرات تجارية. كانت هذه نهاية قطف العنب، وكانت المدينة تعجُّ بالذين جمعوا الكروم وسحقوها بأقدامهم. كان بعضهم هم المكسيكيون الذين كانوا يؤدون معظم المهن الوضيعة في القرية وكانوا يقيمون في قريتهم الصغيرة القريبة. كان معظمُهم من الهنود، الهنود الكاهيولا[1]، الذين نادراً ما ينزلون من الجبال البرية لـ «سان بيرناردينو» باستثناء وقت القطاف وكانوا يعسكرون مباشرةً وراء سياج أشجار الصفصاف الحية التي تطوّق القرية، وينامون في خيام أو على أكداسٍ من الجلود غير المدبوغة تحت سماء الليل. كان المكسيكيون والأمريكيون يتنافسون فيما بينهم في مسابقات الشرب، وانقطع المكسيكيون عن المشاركة فيها بملء إرادتهم، بعضهم يتيهون هنا وهناك وبصوتٍ عالٍ يُلقون تحياتِهم على الفتيات الألمانيات اللائي ما يزلن في الهواء الطلق، يرافقهنَّ آباؤهم وأشقاؤهنَّ، فيما يبني آخرون مشعلة في «شارع الليمون» ويرقصون البوليرو. كان الهنود يحرسون في أحد الجانبين، فيما يحرس الألمان في الجانب الآخر. ومن ثم يمضي الألمان إلى أسرّتهم، تاركين شوارعهم للأيدي التي تسرفُ في احتساء الخمر.

---

1 – الهنود الكاهيولا Cahuilla Indians: هنود من السكان الأمريكيين الأصليين، يقيمون في المناطق الداخلية من جنوب كاليفورنيا – م.

لمّا ذهبَ الاثنان، بوغدان ومارينا، إلى «تاون هول» كي يقدّما نفسيهما لمدير البلدية، رودولف لويدكه، أكّد لهما أنّ فظاظةً علنيةً كهذه كانت استثنائية بكل معنى الكلمة، أنهايم بوصفها مجتمعاً محترماً يتألف من أُسر تخاف الله، مثابرة، لا تشبه الأسرةَ المقيمةَ في الـ«هيلتاون» التي تبعدُ نحو ثلاثين ميلاً التي يسلّي فيها المجنّسون الخارجون عن القانون، الذين يشربون التكيولا بشراهة، أنفسَهم بتحريض الدببة على مهاجمة طرائدها وتمزيقها وبمعارك السكاكين (إلى أن بلغَ المعدلُ مؤخراً حادثةَ قتلٍ واحدةٍ يوميّاً، وكانت تمرُّ دون عقاب) وفي منازل معينة، تسليات لا يُمكن ذكرها بحضور سيدة... الأمر الذي كان يذكّر مارينا بأن ريشارد كان يلمّح كم كان يستمتع برحلاته الجانبية إلى لوس أنجلس حين أقبل هو ويوليان إلى أنهايم أولَ مرة. *السيد*[1] لويدكه منحهم جولةً على قنوات الريّ ـــ قطع تدفق اللغة الألمانية كي يستخدم الاسم الإسباني *zanjas* [2] ـــ التي شبكتْ القرية، مشيراً إلى أن الماء يطفحُ دوماً من قنواتِه إلى داخل الشوارع، في حين أشار بوغدان إلى أن هذا يحتاج إلى صيانةٍ مستمرة وأن ترميم القنوات والشوارع يجب أن يكون حافزاً رائعاً من أجل العادات المنتظمة من جانب المواطنين كافة. «بالضبط»، قال مدير البلدية. أراهم الكنائس و*النادي الرياضي*[3] و«شركة الماء»، إحدى حجراتها كانت تُستخدم بوصفها مدرسة القرية، ومبنى المدرسة الابتدائية المناسب الذي تملكه الجالية الآن، وهو مؤلّف من غرفتين، حيث بمستطاع بيوتر أن يذهب إليه. جلبهما إلى البيت كي يلتقوا *السيدة*[4] لويدكه، التي قدّمت ابنتيهما، أعدّتْ لهما القهوة والشَّنبص[5]، ودعتهما للانضمام إلى عصبة أنهايم الثقافية، التي تعقد اجتماعها في «پلانترز هوتيل» بـ«جادة

1- السيد: وردتْ بالألمانية في النص الإنكليزي الأصل Herr – م.
2- تعني كلمة zanjas الإسبانية: خنادق أو قنوات – م.
3- النادي الرياضي: وردتْ بالألمانية في النص الإنكليزي الأصل turnverein – م.
4- السيدة: وردتْ بالألمانية في النص الإنكليزي Frau – م.
5- الشَّنبص: مُسكِر هولنديِ ثقيل؛ وردتْ بالألمانية في النص الإنكليزي الأصل schnapps – م.

لينكولن» في أول أربعاء من كل شهر. لم تذكرْ مارينا أنها اعتادتْ أن تكون ممثلةً مسرحيّة.

بعد مضي بضعة أيام وصلت الاحتفالات إلى ذروتها مع وصول «سيرك ستاپينبيك» من لوس أنجلس. في ما بعد الظهر اقتحم موكبٌ من الكائنات الموضوعة في أقفاص وغير الموضوعة في أقفاص «أورنج ستريت»: فيل يحمل برجاً متداعياً على ظهره، اثنان من الدببة، أسد جبلي رث، وقرود، وببغاوات. أُصيب بيوتر بالإحباط لمّا أخبره ريشارد أن الأسدَ الجبليّ ليس أسداً بل هو كوجر؛ «كنتُ أحسب أن هنالك أُسوداً حقيقية في كاليفورنيا»، قال، متجهماً. وكان معرض وحوش فريدريك ستاپينبيك يتألف من كائنات حزينة لا يمكنها أن تترك انطباعاً لدى أولئك الأشخاص الذين يعيشون وسط الحيوانات الطليقة، التي يعدّونها أرواحهم التي تنتمي لأسرتهم. إلّا أنّ الهنود ــــ وأيّ فرد آخر ــــ كانوا يغدون همجيين حيالَ البشر الذين كانوا يمثلون تحت الخيمة: آكلو النار، والمشعوذون المدججون بالسكاكين، والبهلوان، الساحر، ومهرج «العم سام»، والمرأة الشديدة الصغر التي كانت تندفع بسرعة عبر الهواء على أرجوحة البهلوان خاصتها، والرياضي القوي، في حين إن شاباً هائلاً كئيب المنظر تعلو هامته كتلة من الشعر الأسود وله رِجلان أشبه بلوحَيْ خشب، كان ثمة اهتمامٌ خاص به، لأنه وُلد وترعرع في المنطقة. الهنود لم يتمكّنوا من التعرّف عليه بوصفه واحداً من بينهم، هذا الحفيد الذي ينتمي لامرأة أمريكية من الهنود الحمر، امرأة من الكاهيولا، غادرت الجبال وعملتْ لدى أسرة تمتهن تربية الماشية في التلال الواقعة عند سفح الجبل، حيث كانت تغسل الثياب وتكويها (توفيتْ حين كانت صغيرة السن) و*راعي بقر*[1] كان يملك أحصنة مروّضة في وقتٍ ما في مزرعة الماشية. إلّا أنّ سكان القرية يتذكرونه جيداً، باعتباره أكثر عزلةً وبوصفه رجلاً ساخطاً، مع أنّ لا أحدَ يستطيع أن يتهمه بأيّ عملٍ شرير. اسمه الحقيقي، أو – وا ــــ كا – توفي مع أمه؛ في القرية والتلال الواقعة

1- راعي بقر: وردتْ بالإسبانية في النص الإنكليزي الأصل vaquero – م.

عند سفح الجبل كان معروفاً باسم «الرقبة الضخمة»[1]. قبل عامين ببساطة غابَ عن الأنظار؛ لم يعدْ هناك أيّ أخبار عنه منذ ذلك الحين. وهو ذا يظهر للعيان من جديد، أطول بقدم، بحبل من نسيج صوفي أبيض حول تلك الرقبة الهائلة وباسم جديد، اسم سيرك: زامبو، هرقل الأمريكي. كان بوسعه أن يحمل ستة أشخاص حول الحلقة، ثلاثة على كل كتف. كان باستطاعته أن يأخذ أيّ متنافسيْن ـــ نصف دزينة تطوّعوا من الجمهور ـــ وصارعَهم وطرحَهم أرضاً. وكان في مركز الفقرة الأخيرة من برنامج السيرك، مع جميع الحيوانات الواثبة فرحاً على فرقعة سوط ستاپينبيك، وماتيلدا، «الملاك الهوائي»، باعتبارها فنانة أرجوحة البهلوان، كما أُعلن عنها، كانت تقف متوازنةً فوق عمود بارتفاع ثلاثين قدماً يحمله زامبو المبتهِج، فيما كاليوب[2] بخاريّة تُنقلُ بعربةٍ إلى داخلِ الحلقة، العم سام عند لوح المفاتيح، يُطلق سلسلةً من أصواتِ الصفير غير المتناغمة تقترب من أغنية «يانكي دودل»[3] العريقة العزيزة. والأمريكيون يصرخون «هوراه!»، والألمان، «هوخ!»، والمكسيكيون، «ڤيڤا!»، والهنود الحمر يهتفون بفرح.

اروي لي قصةً، ماما.

«كان يا ما كان ـــ »

لا، ليس هذا النوع من القصص. أعني قصةً حقيقية.

«ما هي القصة الحقيقية؟».

«القصة ذات الدببة. وأُناس يُقتلون. والجميعُ يجهشون بالبكاء».

«پيوتر! لماذا يتعيّن على الجميع أن يبكوا؟».

1- الرقبة الضخمة: وردتْ في النص Big Neck – م.

2- كاليوب calliope: آلة موسيقية تشبه الأرغن، تُطلق سلسلة من الصفارات تصدر بوساطة البخار أو الهواء المضغوط (يُعزف عليها بالضغط على مفاتيح) – م.

3- يانكي دودل Yankee Doodle: أغنية أمريكية شهيرة، ترجع نسخها الأولى إلى تاريخ يسبق «حرب الأعوام السبعة» و«الثورة الأمريكية» (1775 – 1783). تُنشد عادةً بوطنية في الولايات المتحدة اليوم وهي النشيد الوطني لولاية كونيكتوكت – م.

«لأنهم سوف يموتون».

«بيوتر!».

«لكنه شيءٌ حقيقي! لقد أخبرتِني أن ذلك حقيقي لمّا سألتكِ. والعم ستيفان مات ورأيتكِ تبكين. وسمعتُ سيبريان يقول إن البغل يبدو مريضاً. وإذا كان الجميع سيموتون إذن أنتِ أيضاً ستموتين في يوم ما و‎ـــــ».

«بيوتر حبيبي! لن أموت قبل مضيّ وقت طويل جدّاً، أعدكَ! يلزمكَ ألّا تفكّر في ذلك».

«لكني أفكر. ما إن أباشر بالتفكير في شيءٍ ما، لا يسعني أن أتوقف. الفكرة هناك في رأسي وتستمر في التحدّث إليَّ».

«بيوتر، أنصتْ إليَّ. ما من شيءٍ يبعث على الخوف هنا. وأنا لن أذهب إلى أيّ مكان بعد الآن. ذلك كلُّه قد انتهى».

«لكني خائف».

«خائف من ماذا؟».

«من كوني سأموت. لهذا السبب أنا أحتاج إلى توماهوك».

«أوه صغيري العزيز بيوتر، بماذا تنفعكَ التوماهوك؟».

«حسناً، يمكنني أن أقتلهم بها. كلُّهم يملكون مسدسات».

وكان هذا صحيحاً، أيضاً. كلُّ الرجال بحوزتهم مسدسات. وكانت المسدسات قد نفدتْ.

في الصباح الذي أعقب أداء السيرك، استيقظت القرية على أنباء مروِّعة أثبتتْ رأيهم المتعلّق بلوس أنجلس وكلّ الأشياء التي أتتْ من هناك. قُتل ستاپينبيك وخُطفتْ ماتيلدا، والقاتل والخاطف هو الرياضي القوي، زامبو. انتهى العرض، وتفرّق الجمهور وكان المؤدون متوجهين إلى عربات النوم كي يستبدلوا ملابسهم المتنافرة بثياب العمل من أجل الليلة الطويلة التي سيقضونها في تقويض الخيمة وحزم أمتعتهم. سمعوا صرخات ستاپينبيك العالية المطالبة بالنجدة وعادوا مسرعين إلى الخيمة. كان صاحب السيرك يتلوّى على ظهره بجوار قفص القرد؛ زامبو، فيما هو يركبه مباعداً بين رِجليه،

يصيح، «لا، لا، لا!»؛ وماتيلدا تنتحب في الظلال. الثلاثي الكوميدي في الفرقة هرعوا إلى الشاب وراحوا يضربونه بعظامهم. اندفع نحوهم زامبو وأزاحهم جانباً بكتفٍ واحدة وباتوا يتشقلبون، دون أذى، على نشارة الخشب، بجانب الرجل الذي يعاني سكرات الموت. وبعدها جرف لاعبة الهوائي إلى الأعلى بذراعيه وأوغل في عتمة الليل.

حاول البهلوان أن يرفع ستاپينبيك على قدميه. كان شعره منقوعاً بالدم. حُمِلَ إلى منزل مدير البلدية، وعاش زمناً طويلاً بما يكفي كي يلعن قاتله ويُسمّي المُحرِّك على الجريمة. كان قد لمح زامبو وهو ينقّب في صدره في المكان الذي تُحفظ فيه إيصالات مكتب البريد. كان لويدكه قد تباحث مع العمدة وفجراً جُمع حشدٌ من الرجال لمساعدة العمدة في حفظ الأمن والنظام وأُرسلوا لتعقب الهارب.

إلى أيّ مكان مضى زامبو راجلاً؟ كان قد تحدّث عادةً عن تخلّيه عن السيرك وعن نيته الإقامة في «جبال سانتا آنا»، وعن تطوّعه بصفته مشعوذاً وآكل نار. لكن زامبو لص؟ لا. ستاپينبيك كان يكره زامبو، مع أنّ جريمة الفتى الوحيدة هي أنه كان رقيقاً جدّاً مع ماتيلدا، التي كانت ابنة أخ ستاپينبيك (قال الساحر إنها ابنته المتبناة). ستاپينبيك سوف يجلدُ زامبو بالسوط دون أيّ سببْ على الإطلاق؛ وزامبو المسكين لم يرفعْ إصبعاً على مُعذِّبه، وحتى إنه لم يجفلْ أو يصرخ. إنهم لا يحسّون بالألم بالطريقةِ التي نفعلها، قال المهرج العم سام.

بالنسبة للقرويين، الذين لا يملكون سبباً حتى يرتابوا في الدليل المتعلّق بالرجل المحتضر، كان رحيل ماتيلدا مع زامبو قد برهن بأن القضية ضد الهجين. السرقة، ومن ثم القتل، اللذان تتوّجا بخطف المرأة البيضاء ـــ جريمة هندية نموذجية. كان العمدة واثقاً بأن زامبو والمرأة سوف يُعثرُ عليهما. كان ستاپينبيك الشخص الوحيد في السيرك الذي بحوزته مسدس.

مارينا وبوغدان وپيوتر والآخرون شاهدوهما وهما يُحرَّران بوساطة ـــ رجال شرسين مزوّدين ببنادق «شارپ» وونشستر يعدون بسرعةٍ في عمقِ الصحراء.

حبكةٌ مفيدةٌ لريشارد! بدأ يكتبها ـــــ نسخته من الحبكة ستكون قصة حب ـــــ بعد ظهر ذلك اليوم. أبقى على سنّ زامبو، السادسة عشرة، لكنه قلّل سن ماتيلدا عشرة أعوام فأمستْ في الثالثة عشرة، وأعاد تسميتهما بـ أورسو وجيني. محبوبة الرياضي القوي *خاصته* كانت طفلة ملائكية في عشية الأنوثة، وهي لا صلةَ لها بصاحبِ السيرك لا من قريب ولا من بعيد، الذي رحّب باسم «برانت». في وقت الغداء كان ريشارد قد حصلَ على كلّ شيء، باستثناء النهاية، كما أخبرَ الآخرين.

«لكنها لم تنتهِ بعد»، قال معترضاً حينَ توسّلوا إليه كي يتقاسموا القصة معه.

«حتى القصة الحقيقية لم تنتهِ»، قال بوغدان. «لم نسمعْ ما إذا عثر عليهما حشد الرجال الذين أرسلَهم العمدةُ للمساعدةِ في استتاب الأمن والنظام أم لا».

مضى ريشارد كي يجلب المخطوطة من حظيرة الماشية ويقرأها بصوتٍ عالٍ.

أنهايم في كلّ غرابتها القوية: رعاة البقر على الأفـراس[1] الصاهلة، فلّاحون من قرى صغيرة نائية يربطون عرباتهم الخفيفة[2] بدعامات مشدودة بإحكام؛ حسناوات شقراوات محليات، سيدات بثياب سود من «لوس نيتوس»، زوجات مزارعين يحتشدن في محلات بائعي القبعات النسائية كي يشترين قماش الخام بطول 40 ياردة وقماش الجنهام القطني المخطط ويتفحصن أنماطاً من كتب الأزياء؛ قيل وقال، غزل، تفاخر، مساومة؛ إشاعة توقّع بشأن وصول السيرك. مسيرة وحوش برانت على طول «أورنج ستريت». تقديم الرياضي القوي الضخم الثقيل الحركة والبهلوانية الجوية

1- الأفراس: في النص الإنكليزي الأصل mustangs؛ مفردها يعني فرس السهول الأمريكية الصغير البري أو نصف البري – م.

2- عرباتهم الخفيفة: في النص الإنكليزي الأصل their buggies: بوجياتهم؛ البوجية: عربة خفيفة وحيدة المقعد عادة يجرّها جواد واحد – م.

الصغيرة الحجم. حالات استياء أورسو الوحشية كانت تُروِّض بالغرام غير المُعلَن، براءةَ جيني الصبيانية. عكّرها حبٌّ مُزهِر. انفجارات برانت الناجمة عن الغضبِ المَشوبِ بالغيرة. جَلَد أورسو خلال هذه الهزائم المروِّعة. تحمّل أيَّ سوء معاملة، الخوف فقط من الطرد والافتراق عن الحبيبة جيني. الأداء تحت الخيمة. أعمال أورسو البطولية الخاصة بالقوة. رشاقة جيني وجرأتها. إعجاب الحشد. بعد الأداء: الفتى والفتاة يمكثان جالسين على مصطبةٍ تقع في زاوية الخيمة المظلمة. تعابير الرحمة البادية على جيني الرقيقة كعذراء بإزاء الأعمال الوحشية التي زارتْ رفيقها في السيرك. أورسو يستحضر حلم اليقظة خاصته المتعلّق بترك السيرك وأخذ جيني إلى حياةٍ حرّة جميلة في «جبال سانتا آنا». جيني تُميل مؤخرة رأسها الصغير على جذع أورسو الشبيه بالبرميل؛ أورسو يمسك بحافة المصطبة بيديه اللحميتين. يتنهد. مزيدٌ من التنهد. المجاهرات الأولى لمشاعرهما الحقيقية كل منهما للآخر. أورسو بجبن يمدُّ يدَه كي يلمسَ شعر جيني. برانت في الظلال يتلصصُ عليهما، وبعدها يندفع للأمام. أورسو لم يُظهِرْ أيَّ مقاومةٍ ويسمح لنفسه كي يُجلدَ بالسوط. برانت يلتفت إلى جيني ولأول مرة يرفع سوطَه عليها. يطرحُه أورسو بعنفٍ على الأرض. رأس برانت يصطدم بزاوية قفص القرد. أورسو يضمُّ جيني بين ذراعيه. يهربان معاً في حلكة الليل، يجتازان الصحراء ويصلان إلى التلال الواقعة عند سفح الجبل، حَشدُ العمدة يلاحقُهم. سويعات قلائل من النومِ المُحتشِم. مخاوف جيني. صفة الحماية الرقيقة لدى أورسو. يواصلان فرارهما في عمق الجبال الزرق. طقس بارد، حيوانات برّية، جوع، إرهاق...

رفع ريشارد عينيه عن مجموعة أوراقه. «وهذا هو أقصى ما حصلتُ عليه».

«قصة فاتنة إلى حدّ بعيد». قال بوغدان. «مليئة بالحيوية. مؤثرة نوعاً ما».

لم يجرؤْ ريشارد على أن يسأل مارينا عن رأيها في القصة. أن يكتب قصة حب ويقرأها بصوتٍ عالٍ بحضورها أمام بوغدان والآخرين يبدو شيئاً

جسوراً بما يكفي. ولم يرغبْ بأن يسمع رأيَ أيّ شخصٍ آخر. كان يتحاشى نظرات يوليان الهازئة.

«تفصيل صغير واحـد»، قال يوليان. «الجبال هنا. في اعتقادي أن بمستطاعك أن تقول إنها زرق».

«وأنا أفعل هذا، أنتَ... عالِم!». هدر ريشارد. «أن أكتب فقط كلمة [زرق] لقد جعلتها زُرقاً، هذا هو ما يفعله الكاتب، أيّ كاتب، وأنتَ، قارئي العبد، يلزمكَ أن تراها بوصفها زُرقاً».

«لكنها ليستْ ــــ».

«في حين أن الرسام، أيّ رسام»، استطرد ريشارد بانتصار، «إذا ما فكَّر أن الجبال زرق، يجبُ عليه أن يضعَها أمام عينيكَ، يجب أن يصنعَ لوناً من أصباغه التي ربما، مع أنّه لا يهمّ ما نقوله نحن، نحن نسمي... زرقاً ــــ».

«أو بنفسجية أو أرجوانية باهتة أو أرجوانية»، قال ياكوب بفرح.

«وكيف ستنهيها؟». سأل سيبريان.

«بنحوٍ فاجع، على ما أعتقد»، أجاب ريشار. «إما ببطء[1]»، مع مزيدٍ من مشقاتِهم وعذاباتِهم إلى أن، في الختام، يجدا ملاذاً في كهف أسد في أحد الجبال ويستلقيان ميتين من الجوع ويرتميان في حضن بعضهما بعضاً. أو بسرعةٍ[2]، بسرعةٍ شديدة[3]، مع حشد العمدة الذين يلحقون بهما في أحد الوديان الضيقة، في طرف وهد. يلزمكَ أن تراها الآن» ــــ أضافَ بصمت «مارينا» ــــ الدغل هناك في الأعالي ما يزال أخضرَ: الشيء الذي يفضحهم سيكون النثار المعدني «الترتر» على البلوزة الوردية الطويلة المتهرئة والرداء المُحكم[4] اللذين كانت تلبسهما جيني، الترتر الذي كان يلمع في الشمس.

1- ببطء: وردتْ بالإيطالية في النص الإنكليزي الأصل lento – م.
2- بسرعة: وردتْ بالإيطالية في النص الإنكليزي الأصل allegro – م.
3- بسرعة شديدة: وردتْ بالإيطالية في النص الإنكليزي الأصل allegro feroce – م.
4- الرداء المحكم tights: ثوب ضيق يلبسه الراقص أو البهلوان. في السياق أعلاه: الفتاة التي تؤدي الألعاب البهلوانية – م.

وحين يُطبق عليهما الحشد، الملاك الأثيري تأخذ أورسو من يده ويقفزان معاً في الوهد وهناك يلقيان مصرعهما.

«أوه»، تنهدتْ بربارة.

«أنا أكرهُ النهايات الحزينة». قالت واندا.

«آه، صوت القارئ غير المهذب»، قال يوليان.

«في حقيقة الأمر»، قال ريشارد، فيما كان يشعر بالحَرَج شأنه شأن الجميع بسبب ازدراء يوليان المتواصل لزوجته، «لديّ شكوك فيما يتصل بالانتحار المزدوج، أيضاً». من الشهامة إلى كمٍ قليل من الإلهام: «نعم، ربما يجب ألّا يُقبض عليهما».

«نعم، نعم»، قالت واندا.

«أيمكنكَ أن تصدق هذه المرأة؟». سأل يوليان.

«كان بوسعهما أن يتملّصا من حشد العمدة ويظلا في الجبال. الجبال الزرق كالكدمات»، يوليان. «الحسناء والوحش يتخذان لهما مستقرّاً في وادٍ ضيق بعيد حيث لا يغامر أحد عدا صيّاد الحيوانات الشديد الجرأة».

«إنما كيف يأكلان، يظلان دافئين، يدافعان عن نفسيهما في مواجهة الحيوانات الضارية؟». سأل ألكسندر.

«إنه هندي»، قال سيبريان. «إنه يعرف الأشياءَ من هذا الطراز».

«نصف هندي»، تمتم ياكوب.

«إلّا أنّ جيني ليستْ هندية»، قالت دانوتا.

«لا تنفرْ من نهايةٍ كئيبة»، قال بوغدان، «إذا بدا هذا واقعيّاً أكثر».

«القراء، القراء»، هتف ريشارد. «أنا أودُّ فقط أن أروي قصةً جيدة. أيّ شيء أكثر واقعيةً؟ ما الذي يجعلكَ تحسُّ بأنكَ أقلُّ حزناً؟ لا تُرهقْ كاهلَ هذا الحالم بمسؤولياتٍ كثيرةٍ جدّاً! أنت تحسبُ أن النهايةَ التي أقررها أنا يُمكنُها أن تؤثّر على ما يحدث فعلاً للبؤساء المساكين!».

غير أنه بدأ يحسّ بذلك تحديداً، لذا، وهو يشرِّف الإحساس الخرافي،

استشار ريشارد إحدى النسوة المكسيكيات التي تروي *suertes*، أو المصائر، ما يتعلّق بقَدَرِهم. كان تنبؤُها ـــ أي إنه سوف يتمُّ اصطيادُهم وقتلُهم ـــ قد قررته له؛ النهاية، دوماً، تكتبُ نفسها.

حددَّ أورسو موضعَ صعود هضبةٍ شديدة الانحدار حاملاً جيني بين ذراعيه؛ البنادق تلمع وتُرعِد؛ تنبعث جلبةٌ صاخبةٌ أثناءَ عودتِهم من أسوار الوادي الضيّق، تمزق رصاصةٌ رأسَ جيني، يبدو أن أورسو يسقط؛ حشد العمدة يعثر عليه مُسجّى على الأرض، يولول حزناً وكمداً، يضع جيني الميتة بين ذراعيه، حبل الصيد[1] الذي مضى طائراً صوب أورسو وأزَّ حول عنقه؛ وبعدها قاما ـــ

لا! لا. اخسرْ حشد العمدة. أنقذ الأطفال. اخترعْ فرداً عجوزاً يحتل أرضاً دون حقّ يعيش في عزلةٍ طائشة ـــ مضتْ أعوامٌ طويلةٌ منذ أن رأى آخر مرة كائناً بشريّاً في الامتداد الوعر للجبل ـــ الذي سوف يُرحّبُ بهما في نارِ المخيم خاصته ويثبت أنه لطيفٌ بسخاء برغم أن مالك السيرك كان فظّاً. كانا قد رُوِّعا، سوف يشجعهما. كانا يتضوران جوعاً، سوف يُطعمهما. وفيما هو ينقب في الرماد يضع على حاجزٍ من قضبان متقاطعة وركاً رقيقاً من لحم الغزال، وفيما هو يراقبهما وهما يأكلان ـــ ربما كان أباً في يوم ما ـــ عيناه تفيضان من الدمع. «منذ ذلك الحين عاش أولئك الثلاثة سويةً»، هكذا يقولُ السطرُ الأخير من القصة. هي ذي أمريكا، فكّر ريشارد، حيث النهاية السعيدة، جياشة العاطفة، التي تدفع القارئ لسكب العبرات، تحظى بتقديرٍ واحترام بالرغم من أنها مباراة في القتل المرح، المتسم بأنه أقوم أخلاقاً من الآخرين. وعندما يلمحُ، بعد مضيّ يومين، حشد العمدة الهاربَيْن ويفتحون عليهما النار، يضربان ماتيلدا على عمودِها الفقري (سوف تظلُّ مشلولةً طوالَ سني حياتها)، وبعدها يشنقون زامبو، ريشارد لا يأسف على حلّ عقدة القصة التي اختارها. ما هي الغاية من تحويل أحداث حقيقية إلى قصص إن لم يكنْ بوسعكَ أن تبدل كل شيء، بخاصة النهاية؟

1- حبل الصيد lariat: حبلٌ في طرفه أنشوطة يُصطنع لصيد الحيوانات – م.

وما هي الغاية من سرد القصص، إن لم تهزّ الشوقَ الساكنَ في كلِّ فردٍ إلى حياةٍ بديلة؟

فضلاً عن ذلك، لم يكنْ ريشارد في مزاجٍ مناسب كي يروي قصةً عن حبٍّ مستحيل تبيّن أنه... مستحيل. الكتابة هي استحضار. كان ريشارد يُريدُ أن يُظهِر أن الحبَّ المستحيلَ ممكنٌ. حبّه هو لمارينا بات قصةً بلا نهاية، غير منتهية، باستمرار يعدّلها، يزيّنها، يشحذها، يجد طرائق سَلِسةً أكثر كي يصفها لنفسه. هو ذا، يسكن بجانبها إلّا أنّه لا يجرؤ على الاقتراب منها بطريقة أقل من طريقة الجرو خوفاً من الرفض المؤكد. كان يشك في أنها كانت تعوّل على ملاطفتِه، ملاطفتِه المُرهِقة، بحيث إنّها ستأسف على رؤية المُتودِّد إليها، والمُتودِّد المتحمس، والصبور وهو يتخلى عنها، هكذا بكل بساطة. إلّا أنّ الدور كان أصعبَ من أن يُلعَبَ دون الديكور الذي تمّ اختراعه فيه. لا توجد غرف لتبديل الملابس (كان يحلو له النظر إليها فيما هي تنظر إلى نفسها في المرآة)، لا توجد ممراتُ مُضاءة بالغاز، يعمُّ فيها الدخان، لا توجد عربات مُعتَّمة. مواخير لوس أنجلس لها مرايا، كانت هنالك مرايا في سان فرانسيسكو وليس في المسارح وحدها، ولكن ما نفعُ قريةٍ تبدو ماديّةً في مظهرِها الخارجيّ من مثل أنهايم للمسرحية المسلّية بين المظاهر الخارجية وما يقبعُ وراءَها؟ حياتُهم الجديدة لا توجد فيها مرايا. مناظر طبيعية فقط.

ربما كان سيشعر بأنه أقل انكماشاً لو أنّه فقط تحمّل وجود زوج، أما أن ينضمّ إليه أربعة أزواج ـــ معظمهم، حتى التعيسين يوليان واندا، بدوا كأنهم متعشقون بصورةٍ يتعذر تغييرها ـــ جعلوه يشعر بأنه أبعد عن مارينا مما كان عليه قبلاً. (كي يؤكد اختلاف الأعزب، أقنع ياكوب بأن يصحبه إلى لوس أنجلس كي يقضيا هناك عطلة نهاية الأسبوع في معاشرة بائعات الهوى.) نادراً ما كانا يجتمعان وحدهما، باستثناء أوقات دروس تعلّم ركوب الخيل. روى مغامرات فردية قام بها لمّا أقبل هو ويوليان في شهر آب / أغسطس الفائت، ضرب الخيمة واستكشاف ما وراء المناطق التي استقرا فيها. هل كانا هناك كي يظلّا بعيداً عن نطاق الزواج؟ ما من ضخٍّ في الأنابيب

فيما يتعلّق بالطاقة الإيروسية الجديدة؟. «اركبي معي»، قال ريشارد. «دعيني أُريكِ الجبال». «حالاً، حالاً»، غمغمتْ. كان قد حلم بأنه يحميها. إنما لا يوجد شيءٌ كي يحميها منه. ما لم يكنْ بوغدان يودُّ بشكلٍ من الأشكال أن يتوارى عن الأنظار. في القصص، لا شيءَ مستحيلاً. هوى بوغدان من على أحد الأحصنة وكُسرتْ فقراتُ عنقه، وفي ذلك الحين تعرفُ...

مارينا، فيما هي تترجّلُ من على الحصان، تجذبه من ياقته بطريقةٍ فظّة. هذه الرحلة إلى بطالةٍ مُحرِّرة يستطيع ريشارد من خلالها أن يعرضَ نفسه بوصفه حافظاً لها، سمِّها الصحراء العديمةَ الظل، سمِّها الجبالَ غير المأهولة ـــ كانت هي هناكَ أصلاً.

«أوه، مارينا»، ولولَ. «ألا يوجد أملٌ لنا نحن الاثنين؟».

«نحن الاثنين؟».

طأطأ رأسه. «لي أنا».

«في اعتقادي»، قالت، «لا أملَ لكَ».

«وأنتِ، مارينا؟ أنتِ التي تعكفين على أن تُصبحي مولودةً بعد وفاة أبيكِ! هل تغيّرتِ فعلاً إلى ذلك الحدّ؟ هل هذا شيءٌ ممكن، مارينا؟».

«أكثر من ممكن».

«وهذا ـــ دفع ذراعه بقوة نحو الأرض المحيطة بهما ـــ هو الشغف الوحيد الذي يشغلكِ الآن؟».

لم تردّ عليه.

«لكن ألا يمكنكِ أن تخدعي نفسكِ فيما يتصلُ بما تريدينه فعلاً؟ ألم يسبقْ لكِ أن أحسستِ بأنكِ متروكةٌ في بلدٍ أجنبي؟[1] المنظر الطبيعي جميل، آردن[2] خاصتنا، إلاّ أنّه لا يتغيّر. ألم يسبقْ لكِ أن أحسستِ بأنكِ نافدة الصبر مع الجميع ـــ يوليان، واندا المسكينة، دانوتا، ألكسندر، سيبريان، بربارة، وحتى ياكوب... لا، لن أستثني نفسي. كيف يسعكِ أن تتحمّلينا؟».

1- متروكة في بلدٍ أجنبي stranded: وبخاصةٍ دون مال أو وسيلة تُمكّنها من الرحيل – م.
2- آردن Arden: حيّ في سكرامنتو الشمالية في ولاية كاليفورنيا – م.

«تتحمّلينا؟».

«والضراوةُ الحيوانيّة والبشريّة، والأحذية الثقيلة المكسوةُ بالوحل والملابس النتنة، والجلد الخشن المحمر على يديكِ، وبثور أنيللا، التي بَضَعتْها بشفرة موسى محميّة. (كنتُ أراقبكِ، أين تعلّمتِ القيام بعملٍ من هذا النوع؟) ــــ أنتِ لستِ كذلك. الوحل والرشح والجفاف ــــ أنتِ خُلقتِ من أجل النعومة. وكل ضروب العداء العِرقي التي تعتمل في نفوس هؤلاء الكاليفورنيين الجُدد، أقل قليلاً من جشعهم التوفيقي. المكانُ هنا متحجرُ الفؤاد وفارغ. سوف يجعلنا متحجري الأفئدة وفارغين، مارينا. مهلاً، لا تقولي [نحن] ثانيةً، سوف يجعلكِ هذا، حتى أنتِ، قاسيةَ القلب وفارغةً».

«أنا متأسفة لقد وجدتَني فظّةً، ريشارد. غير أني لا أبالي بأن أكون فارغة».

«ألم تشعري بأنكِ تشفقين على نفسكِ؟».

«شعرتُ بأني أشفق على نفسي في بولندا. الآن أنا حتى لا أفهم السبب. لكن هنا؟ لا، لا أشعر أبداً. يقيناً أنتَ ترى أني أكدح حتى أكون مجرَّدةً من جلّ ما يجعلني مميّزةً بالنسبة للآخرين وبالنسبة لنفسي. إنه يجعلني، الآن أنتَ تعتقد حقيقةً أني فظّةً، إنه يجعلني أضحك».

غيابات: البلش، والتذكارات، وإظـلام، وممرات، وتاريخ المرء الشخصي. كيف يمكنها أن تشرحها لريشارد؟ هنا كل قصةٍ ظهرتْ مستقلّةً، دون جذور في سلالات نسب طويلة ذات شأن والتزام. السقوط المباغت في حجم المعاني في الحياة الجديدة أثّرتْ فيها على غرار تقليل كمية الأوكسجين. كانت تشعر بأنها مصابةٌ بالدوار. ومع ذلك الأمرُ كلُّه شائعٌ جدّاً بكلّ معنى الكلمة. المجاميع التي خضعتْ للوتائر الصعبة والقيادة المتهوّرة كانت عنصر مارينا الطبيعي: الحافزُ الجماعيّ قويٌّ لدى أناس المسرح. وهذه الحياة المتأصلة حديثاً قلّما تختلف عن حياة لاعبيْن مسافريْن. لو أنّ بعضَ المهمات الأبسط المتعلقة بحياة المزرعة ما تزال تغريهم، لا عجب، كانوا قد جهّزوا أنفسهم بسرعة، وتفحصوا أدوارهم بدقة بوصفهم فلاحين في الدقيقة الأخيرة، فقط بعيداً عن أنظار الجمهور. خلال مدةٍ معينة سوف

«يرتجلونها»، كما يقول الممثلون المسرحيون، إلى أن يُصبحوا ضليعين في أداء أدوارهم.

مساءً، فيما هم يتجاهلون بأناقة عضلاتهم المَسحوبة، وظهورهم التي تؤلُمهم، وقصبات سيقانهم المُحتكة، ولفحاتُ الشمس الموجِعة تجمعوا في غرفةِ المعيشة كي يتأملوا كراساتهم التي حصلوا عليها من واشنطن والكتب المتعلقة بالزراعة التي جلبوها معهم من بولندا وناقشوا أنواع الأسمدة واستخداماتها وكذلك الأسيجة، وزراعة بستان برتقال، وإصلاح قن الدجاج، واستئجار عمال هنود أو صينيين كي يساعدوهم. وفيما هو يذرع المكان جيئةً وذهاباً، حدّد بوغدان الخطوط الخارجية لخططه المتعلقة بالمساكن الجديدة. تكلّم بفقرات سريعةٍ مختصَرةٍ، كانت يدُهُ تقبض على كأس شاي شبه فارغة وعلى ملعقته المقعقِعة. يدٌ قلّما تعرّفتْ عليها مارينا، بظفر إبهامها المسودّ والوريد الضخم يزحف من مفصل الأصبع المسفوع بأشعة الشمس إلى الرسغ؛ يد بوغدان التي لم تعرفها من قبل، لم تعدْ تستغرق فيها تماماً، هي ذي تفعل كلَّ هذا بها. وهي تغطس في ـــ الجماعية ـــ بالنسبةِ لها.[1]

كان من المفترض أن يشتركَ الجميعُ في هذه المناقشات. في الواقع، النساء ـــ باستثناء مارينا ـــ قلّما تحدثن، كما لو أنّهن كن يحسبن أنهن لا يملكن شيئاً يقلنه، أو ربما يتعرّضن للانتقاد، أو أن اتخاذ القرارات هو مهنة الرجل. إن حياة المزرعة نظّمت النساء فيما يتعلّق بطواعياتٍ جديدة، أملتْ عليهن جميعاً لوائحَ جديدةً من العجز. وإن معرفة كيف كان جيرانهن يرونهن، بوصفهن نبيلات مدللات غير عمليات، جعلوهنَّ خجولات فيما يتصل بطلب المساعدة. السيد كوهلر أرسل عامله المكسيكي الشاب في المزرعة كي يُريهن كيف يعتنين بالكروم، إذ كانت دورتُه قد بدأتْ توّاً. كان الرجال يراقبون بكآبةٍ فيما هو يُريهنَّ الطريقة التي يقطعُ بها البراعم الكبيرة،

1- وهي تغطس في الجماعية بالنسبةِ لها: في الأصل الإنكليزي.
sinking into the collective–for her – م.

وكيف يُوضع السماد، كي يرصصنَ التراب على قواعد أشجار العنب. وكان لطفاً من كوهلر، الذي كان يبيع لهم الحليب، والقشدة، والزبد، أن يُخبر بانشو بأن يُعطي دروساً في حلب الأبقار أيضاً؛ إنما لا واحدةً من النسوة كانت لديها يدان قويتان أو التقنية الصحيحة: كنَّ يشعرن بأنهن يُعذّبن الأبقار. بعد مرورِ أيامٍ قلائل شرعن يشترين الحليب من مزرعةٍ قريبةٍ أخرى.

لم يكنْ من طبيعة مارينا أن تكون مُتصدّقةً على نفسِها، أبداً، أو أن تكون متذرعةً بالصبر مع الآخرين. إنما كم بدا شيئاً تافهاً تحت هذه الشمس القاسية أن تكون قلقةً ومضطربةً لأن بربارة ودانوتا أصبحتا عاملتين في مَلبَنَةٍ دون أن تكون لديهما رغبةٌ في هذه المهنة.

التعب والإعياء ورتابة الانشغالات الجماعية بدتْ كأنها لم تفعلْ شيئاً سوى أن تضخّم شعورها العميق بعافيتها الجسدية. غيابات أخرى: الكلمات، وتحويل الذات إلى دراما[1]، والطاقات الميّالة للحب. غيابات الشفاء. حالات الحضور الجسدية. الرائحة الكريهة الثاقبة للروث الطازج وعرقهم هم أنفسهم. اللهاث وراء نطاق المطبخ، عند «ستول» حلب الأبقار، ووراء عجلة اليد ذات الدولاب الواحد، وتناغم ألحان التعب الجماعي التي كانوا يزفرونها في نهاية كل يومٍ من الأيام، بصمت، عند مائدة غرفة الطعام. كل الجهوريات تقلّصتْ إلى هذه: صوت التنفس، والتنفس وحده، وتنفسهم هم، وتنفسها هي. لم يسبقْ لها أن شعرتْ بأنها ملتصقة جدّاً بالآخرين مثلما هي عليه في ذلك الحين، وهي تشعر بأنها محاطةٌ بمُكعبٍ من التنفسِ المُفعم بالضجيج؛ لم يسبقْ لها أن شعرتْ بأنها متفائلةٌ جدّاً فيما يتعلّق بالحياة التي كانوا يكدحون من أجل بنائها. من اليسير القول: إن الأمر لن يطولَ. كلُّ زواجٍ، كلُّ مجتمع هو يوطوبيا فاشلة. اليوطوبيا ليستْ نوعاً من مكان، بل نوعاً من زمان، كلّ تلك اللحظات القصيرة جدّاً حينما لا يرغب المرء بأن يكونِ في أيّ مكانٍ آخر. هل توجدُ هنالك غريزةٌ، غريزةٌ

1- تحويل الذات إلى دراما self – dramatization: أي تحويل مواقف أو خصائص المرء من أجل أن تُحدِث تأثيراً، أي المبالغة في إظهارها – م.

موغِلةٌ جدّاً في القِدم، في التنفس بانسجام؟ اليوطوبيا المطلقة، تلك هي. في أصل الرغبة المتعلقة بالاتحاد الجنسي، توجد الرغبة في التنفس بنحوٍ أعمق، أعمق بكثير، بنحوٍ أسرع... إنما معاً على الدوام.

في تشرين الثاني / نوفمبر، تلقى الاثنان، مارينا وبوغدان، رسالةً من مواطنٍ كان مقيماً في سان فرانسيسكو طوال ما يقرب من عشرين عاماً، برونو هاليك، وهو رجلٌ عجوز لاذعٌ ووقح ذو مهنةٍ غير محدّدة وبنحوٍ جلي، إلى حدٍّ ما حقيرة. كان قد صادق ريشارد ويوليان حين كانا أولاً في سان فرانسيسكو في تموز / يوليو، وكان قد أظهر نفسه للمجموعة الأكبر حين وصلوا في أواخر أيلول / سبتمبر.

سأل هاليك ما إذا كان بمستطاعه أن يقوم بزيارة أصدقائه في قرية راينلاند المنتجة للنبيذ في الصحراء. لم يمددْ رِجليه الضخمتين على مدى ردحٍ من الزمن، قال. لم يحلمْ بأن يقوم برحلةٍ طويلةٍ كهذه لو أنّ وسيلة النقل الوحيدة لذاته الضخمة بنحوٍ لا يُمكن إنكاره هي نفسها ذلك الزورق البخاري الضيق ذو المجذاف ـــ ثلاثة أيام من لحم البقر المجفف والفاصوليا المسلوقة! إلى أن وصل إلى الميناء القريب من لوس أنجلس، *وتشو تشو تشو* فقط طوال الأميال الثلاثين الأخيرة. وتخيّلْ هذه، قال. حين مضى الألمان جنوباً في العام 1859 (كان قد قابلَ بعضَهم في ذلك الحين، وكانوا كلُّهم أغبياء مثابرين؛ سيكون مشوِّقاً أن تراهم الآن)، كانت سفينتهم قد ذهبتْ مباشرةً إلى ما وراء لوس أنجلس، ورستْ على بُعد ثلاثة أميال من الساحل حيث ستكون هناك أنهايم، وكان المُستعمَرون قد أُخذوا بوساطة زورق تجديف بجوار الشاطئ، حيث كان هناك فريقٌ من الهنود استأجرهم الألمانيان الذكيان اللذان يملكان شركة النبيذ في لوس أنجلس التي اشترى فيها سكان سان فرانسيسكو حصصاً، ينتظرونهم وهم غاطسون حتى الخصر في الماء، عفاريت مساكين، ومن ثم كل رجل، وامرأة، وطفل يحملون الجنسية الألمانية خفضوا أجسامهم كي يجلسوا على أكتاف الهنود فيحملهم هؤلاء

إلى اليابسة. إلّا أنّ هذه الأيام الملحمية جرتْ في الماضي (مع أنّه يحب أن يرى كذلك الهندي الأحمر الشجاع المفتول العضلات إلى حدٍّ كبير الذي يملك القوة كي يحمله!) وبما أنّه يوجد الآن قطار إلى لوس أنجلس كان متلهفاً للقيام بالرحلة، هو لا يقصد أن يفرض عليهم، لم يكنْ هو من طراز البشر الذين ينامون في خيمة أو كابينة من ألواح الخشب، كان يتوقع أن ينزل في فندق، لكنه حين يأتي سوف يحصلُ على مُراده، إن سمحتْ مدام مارينا العزيزة. ليته، أضاف بجذل، يأخذُ عينةً من النبيذ.

وهل بمستطاعه أن يجلب لهم أيَّ شيء من سان فرانسيسكو؟

إنها مسألة غير واردة فيما يتعلّق بسعيهم للمكوث في الـ «پلانترز». مارينا وبوغدان كانا يملكان الكنبة المنزوعة من قاعة الاستقبال واستبدلاها بسرير؛ إبان زيارته پيوتر سوف ينامُ في المطبخ مع أنّيللا. وفيما هي تزدري ذلكَ الشطرَ من ذاتِها تودُّ أن يؤثر في هاليك (بنحوٍ أدق، لا أن تخيّبَ أمله)، فيما كانت مقتنعةً أن ذلك يدعم غرور كل امرئٍ كي يساهم في مجهود جعلِ منزلهم الجديد جذاباً كما ينبغي، مارينا عدّتْ وصولَه مناسبةً كي تحثَّ الآخرين للقيامِ بمهماتٍ طالَ انتظارُها. قِن الدجاج يجب تصليحه (ضيفهم الضخم سوف يطلبُ دون شك أربع بيضات في الفطور)؛ المنزل أُعيد طلاؤه، الأثاث صُقِلَ، مزيدٌ من الكتب أُفرغتْ من صناديقها ـــــ عملُ الحقل نَحّوه جانباً وكلُّ واحدٍ منهم وضع خطةً تمهيديةً كي يجعل المنزل لائقاً ومناسباً للزيارة. وكان من المفترض أن يُجهّز موضع حفظ الأطعمة بشكلٍ مناسب، وصُفّتْ زجاجات الإغوارديينتي والتكيولا الجيدين المتوافرين في القرية المكسيكيّة (يقيناً هاليك سوف يرفعُ أنفه إزاء وفرةِ البيرة الألمانيّة في أنهايم). من ثم، بعد مرورِ أسبوع، وهما يتركان دانوتا وبربارة كي تقوما بترتيب الدُّفلى المقطوفة في سلال كاهيولا حلوة، مضتْ مارينا مع بوغدان في البوجية إلى المستودَع. كان ضيفهما قد ترجّلَ من القطار، حتى أضخم مما كانا يتذكرانه، وفضلاً عن ذلك انتفخ أكثر بقبضة صناديق مربوطة بضفيرة بنية تحتوي على صحف من

بولندا، وكتب، ومناديل وعلب عطور للنساء، وطرحة[1] من الدانتيلا لمارينا، وجنود من الرصاص لپيوتر، ودُمى وقطع كراميل في طرف عود للفتاتين الصغيرتين.

«أنا أتضوّرُ جوعاً»، انبرى قائلاً حين دخلَ إلى المنزل.

ضحك ألكسندر. «نحن دوماً جياع، أيضاً».

«هذا لأنكم تعملون بدأبٍ ومثابرة»، صاح هاليك. «أنا جائع» ـــ صفع بطنه الضخم ـــ «لأني جائع». وبعدها أطلق صوتاً، شيئاً أشبه بالنباح، شيئاً يشبه الأنين. «إني أتذكر ذلك»، قال پيوتر بفرح. كانت مشاهدة أسود البحر الهادرة على الصخور من شرفة كازينو على حافة جُرف الشاطئ خارج سان فرانسيسكو متعةً إجبارية لكل مَن يزور المدينة. «بوسعي أن أقوم بتمثيل دور القيّوط، سيد هاليك. اسمعْ».

كانت تلك فرصتُهم في أن يجعلوا زائرهم يشاهدُ المكان. أول الأشياء هي: أخذوه أولاً في جولةٍ إلى نظام الريّ في أنهايم. «أنا أفهم»، أنشدَ بتهلل، «قريةٌ تابعة لـ[راينلاند] ذات قنوات هولندية. نحن هنا في هولندا».

أروه بقرتيهم، أحصنتهم الثلاثة المُسرَجة السريعةَ الغضب، والبغل المريض. سألهم كيف يدبّرون أمرَهم مع جيرانهم.

«نحن لا نرى عدداً غفيراً منهم»، قال سيبريان.

«أتمنى ألّا يكون الأمر كذلك»، قال هاليك. «ما هو القاسم المشترك بينكم وبين هؤلاء الفلاحين وأصحاب المخازن الباحثين عن المال؟ على عكس الأسطورة التي روّجها الصحافي نوردهوف، وهو ألماني آخر، أتى إلى هنا قبل سنواتٍ قلائل وكتب كثيراً من الكلام الفارغ عن أنهايم، لا يوجد على الإطلاق، كما تعرفون، أيُّ شيء [شيوعيّ] في هذه القرية».

بطبيعة الحال، كان مُحقّاً ـــ ويا لخيبة الأمل الساكنون البولنديون،

1- طرحة mantilla (مفردة إسبانية): هذه الطرحة ترتديها النساء الإسبانيات – م.

رؤوسهم تعج بفورييه وبـ«بروك فارم»[1]. الألمان في سان فرانسيسكو كان قد جنّدهم مسّاحُ أراضي يعمل لصالحِ اثنين من مواطنيهم كانا يملكان بساتينَ عنب وشركة نبيذ في لوس أنجلس وكانا يتطلّعان إلى توسيع نطاق مهنتهما بالمال الذي وضعه المستثمرون الخمسون، اشتروا قطعة أرض كبيرة وحوّلوها إلى قريةٍ صغيرة: انخرطَ عمال صينيون ومكسيكيون في حفر قنوات الريّ، وانخرط عمال مكسيكيون في زراعة أشجار العنب، وعمال هنود في بناء منازل اللَّبِن كي تسكن فيها الأُسر الخمسون. حين وصلوا بعد مضيّ عامين كانت المنازلُ وأشجارُ الكروم في انتظارهم. في أول الأمر، كان المجتمع يملك كلَّ شيء، إنما بعد بضعة أعوام، حين بدأ المكان يحقق ربحاً، كان العمل التعاوني قد تلاشى، وكلُّ فردٍ من المقيمين الأصليين استرد استثماره وأصبح مالكاً للمال الذي راهن به. لم تكنْ أنهايم، ولا حتى في البداية، تجربةً في العيش الجماعي.

الآن أنتِ، مدام مارينا، أنتِ والكونت ديمبوڤيسكي الموقّر وأصدقاؤك وصديقاتك، بمثاليتكم البولندية العديمة المسؤولية، قررتم أن تجعلوا من الأسطورة واقعاً. ولهذا السبب أنا أرفع لكِ قبعتي. إلّا أنّي أتوسّل إليكِ، لا تنسي خشبة المسرح، لأنها ما تزال في حِداد بسبب رحيل ملكتها. في اعتقادي أنكِ لن تفكري، بعد مضيّ سنة أو نحو ذلك بهذه المغامرة، ثانيةً ــــ».

«ليس أنتَ، كذلك! لم أتوقعْ أن أتحمّل حالات التأنيب واللوم نفسها في أمريكا، وحتى من رجل ريفي. لا، هذه ليستْ مغامرة، يا صديقي. إنها حياةٌ جديدة، الحياة التي أُريدُها. أنا لا أفتقد خشبةَ المسرح».

1- بروك فارم Brook Farm: يُسمى أيضاً معهد المثابرة والتعليم، أو جمعية بروك فارم للمثابرة والتعليم: وهي جمعية يوتوبية في العيش الاجتماعي البسيط في الولايات المتحدة في أربعينيات القرن التاسع عشر أسسها الكاهن التوحيدي السابق جورج ريپلي وزوجته صوفيا ريپلي في «حقل إليس Ellis Farm»، في «ويست روكسبيري»، ولاية ماسوشوسيتس، في العام 1841 – م.

«أنتِ لا تفتقدين الرفاهية التي تعوّدتِ عليها، مدام مارينا؟».

ردّاً على سؤاله ناقشته بالإنكليزية:

آي، الآن أنا في آردن: أكثر حماقةً؛ حين كنتُ في وطني كنتُ في موقعٍ أحسن، إلّا أنّ المسافرين يجب أن يكونوا راضين.

«معذرةً؟».

«شكسبير، سيد هاليك. [*كما تهواه*]».

«وهكذا أفعل أنا، ولهذا السبب ـــــ».

«لكني أضايقكَ، سيد هاليك! أكرر: أنا لم أفتقدْ خشبةَ المسرح».

«أنتِ جريئةٌ جدّاً»، قال.

كان مبتهجاً، مبتهجاً وهو يرى أصدقاءَه هزيلين جدّاً وأصحاء. دون ريب، كان هذا كلُّه يُعزى إلى التمارين الرياضيّة التي يحصلون عليها، حيث كان حزامُ سرجِه قد قيسَ له وحده، وا حسرتاه، مع ذلك، أقرَّ هو، حتى حين كان شابّاً ورشيقاً، نعم، كان رشيقاً في يوم ما، قال، وهو يتطلّع إلى واندا (كانت معظمُ نظراتِه موجهةً إلى واندا، التي بدتْ مذهولةً لأن هاليك كان يغازلها)، حتى حين كان رشيقاً كان لا يحب شيئاً أكثر من أطباق الطعام. الأكل، والتحدّث، وممارسة لعبة الشطرنج (كان يغني حين يفكر في نقلته التالية) كانت هي لعبتُه المفضلة في أوقات فراغه. «إن أثينا الصغيرة الرعوية خاصتكِ هي التي أغرتني»، قال. «وليس إسبارطة الصغيرة خاصتك. كانوا يستمتعون بإمتاعِه بقصصٍ عن عدم كفاءتهم ـــــ في حقيقة الأمر، هاليك جعلهم يشعرون بأنهم أشبه بقوم ريفيين متأقلِمين. «أنا أحبُّ المناظر الطبيعية»، قال من الأرجوحة الشبكيّة التي كانت قد قُوّيتْ بشكلٍ خاص في اليوم الذي تلا وصوله. «والحيوانات كذلك، ما دامتْ تحافظ على بُعدها عني». كان مرتبكاً بسبب الغُرير[1] الفتي الفاتن الذي قَبَض عليه ريشارد

1- الغُريْر badger: حيوان لبون قصير القوائم يحفر وجاراً له في الأرض كي يسكن فيه – م.

وحوَّله إلى حيوانٍ أليف منزليّ كما لو أنه ارتبكَ بسبب عقرب ضخم مُخيف فعلاً ينطلق مسرعاً عبر الفناء. «أنا أعترف بأني أخاف من الحيوانات مثل خوف اليهودي من الماء»، قال. وأضاف وهو يلتفت إلى ياكوب: «أنا لم أزعجكَ، أتمنى هذا».

في أول عيدِ شكرٍ خالٍ من الديك الرومي خاصٍّ بهم ـــ بكى پيوتر فحافظوا على الطائر الزاعق ـــ كانت مارينا قد فرشت الكتان الدمقس الذي جلبته من بولندا وسمحتْ لنفسها بأن تعفيه من أعمال المطبخ الروتينية. جميع النسوة الأخريات ساهمن في الطهي، وأذهلهم هاليك بتطوّعه في إعداد الحلوى. «كيف تعتقدين أن رجلاً عجوزاً أعزب مثلي يحصل على كل ما يبتغيه إن لم يكنْ بمستطاعه أن يفعل شيئاً ما لنفسه؟». إنها تُسمى، قال لهم (شظية من الإنكليزية)، الشوو فلاي پاي[1] ـــ «شوو فلاي، شوو فلاي»[2]، بدأ پيوتر يغني ـــ لأن المرء يتعين عليه أن يطرد الذباب الذي ينجذب إلى دبس السُّكّر[3] وحشوة السُّكّر البني.

«شوو فلاي، شوو فلاي ـــ».

«كفى، پيوتر»، قالت مارينا.

«حلوة في الداخل»، دندن هاليك. «محشوّة بالحلاوة. لا يمكنكم أن تطردوا الذباب».

«إنها لذيذةٌ جدّاً»، قالت واندا. «سأكون ممتنةً لو أنّكَ كتبتَ لي وصفة تحضيرها».

«افعلْ، سيد هاليك»، قال يوليان. «هذا الأمر سوف يشغلُ بالَها أسبوعاً واحداً في الأقل».

1- الشوو فلاي پاي shoofly pie: فطيرة أو كيك دبس السكر: طوّرتْ شكلها التقليدي وسط الهولنديين المقيمين في بنسلفانيا في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وكانوا يتناولونها مع القهوة السوداء الثقيلة بوصفها فطوراً – م.

2- شوو فلاي shoo fly: تعني اطرد الذباب. يُرجى ملاحظة الجناس اللفظي بين هاتين الكلمتين واسم الحلوى في الهامش السابق – م.

3- دبس السكّر: مادة لزجة تُفصل عن السكّر الخام عند صنع السكّر – م.

بعد الحلوى، لمّا لم يبقَ شيء سوى الفتاتِ على قماشِ المائدة والأطباق اللزجة وأكواب القهوة الفارغة، تذكّر بوغدان أنهم أهملوا الطقس الذي يجب أن يبدأ به معظم الأمريكيون وجبات طعامهم. «إني أوجّه شكري لأننا كُلُّنا هنا معاً»، قال. «مَن الذي سيذهب لاحقاً؟».

«حبيبي بيوتر»، قالت مارينا، «قلْ لنا إنكَ شاكرٌ لـــــــ».

«لأني أطول»، قال بفرح. «ألستُ أطولَ الآن، ماما؟».

«نعم حبيبي، نعم. تعالَ إلى هنا واجلسْ في حضنِ ماما».

«إني أتوجّهُ بشكري إلى أمريكا»، قال ريشارد، «بلدٌ مجنون بما يكفي كي يُصرِّح بأن السعي وراء السعادة حقٌّ لا يُمكن تحويلَه إلى شخصٍ آخر».

«إني أتوجّه بشكري لأن الفتاتين تتمتعان بالصحة»، قالت دانوتا.

«آمين على ذلك»، قال سيبريان.

«أنا وبربارة نتوجّه بشكرنا إلى مارينا وبوغدان على بصيرتهما وسخائهما»، قال ألكسندر.

«أصدقائي»، تمتمتْ مارينا، وهي تحمل بيوتر بقوة وتدفنُ وجهَها في شعرِهِ. «أصدقائي الأعزاء».

«ماما، أود الجلوس في كرسيي».

«إني أتوجّه بشكري لحلم أمريكا بالمساواة لكافةِ مواطنيها، مهما كان هذا الحلمُ بعيداً إلّا أنّه ينبغي أن يتحوّلَ إلى واقع»، قال ياكوب.

«إني أتقدّم بشكري إلى هاليك على الحلوى التي أعدَّها لنا»، قالت واندا.

«أرجو من زوجتي أن تخفّض نبرة صوتها»، قال سيبريان. «في اعتقادي إنه ينبغي لي أن أتقدّم بشكري ذلك لأنه في أمريكا شيءٌ قانونيّ أن يُطلِّق المرء».

لا تفعلْ، يوليان. أتوسّل إليكَ!». هتف ياكوب.

«أنيللا»، صاحتْ مارينا.

«وأنا أشكرُ السيدة سولسكي على تمنياتِها اللطيفة»، قال هاليك، وهو يبتسم بسمةً عريضةً. ظهرت الفتاة من المطبخ.

«أنيللا»، قالت مارينا بنبرةٍ غاضبة، «نحن نتقدّمُ بشكرِنا إلى نِعمنا».

«نِعمنا، مدام؟ نِعمنا؟ هل فعلتُ شيئاً خطأ؟».

دفن يوليان رأسَه في يديه، وبعدها رفعَ بصره، وهو يبتسم بسمةً عريضةً. «إني أعتذر، مارينا. أنا لا أعني ما أقول. أنا متأسف».

«إنها ليستْ مارينا وحدها التي تدينون لها بالاعتذار»، قال بوغدان.

«الأزواج» ـــ هدر هاليك ـــ «الأزواج!».

«هل انتهت النِّعم، مدام؟ أيُمكنني الرجوع إلى المطبخ؟».

«وسوف آتي معكِ، أيتها الطفلة»، قال هاليك، «ويمكنكِ أن تقولي بركاتكِ لي».

بالطبع، كان يتغزل بوقاحة بأنيللا إضافةً إلى واندا البائسة (الأمر الذي أغضب يوليان)، إلّا أنّه نال قصاصه في اليوم التالي. حين أخرج عضو ذكورته المنتصب واندفع بقوة نحو أنيللا في المطبخ، فرّتْ منه وتحركَ بتثاقلٍ وراءَها، مفتوح السروال، إلى أن وصلَ إلى الحقل الواقع وراء حظيرةِ الماشية، حيث انزلق في داخل قناة للريّ. توقفتْ أنيللا قليلاً في اتجاه مجرى النهر ونظرتْ بدهشةٍ إلى القضيبِ المتمايل في الماء. كانت القناةُ العريضة بعمق قدم ونصف لا غير إلّا أنّ هاليك شبه المستلقي، على الرغم من نخرِهِ وخوضِه في الماء، لم يكنْ قادراً على أن يقوّم نفسَه. «يدكِ، يا طفلة!». كان مبللاً أكثر من أسد البحر. «يدكِ المحبوبة!». يقيناً كانت تلك هي كلّ غلطتِها ويجبُ معاقبتها ـــ لأنها كانت جذابةً في نظر الرجلِ البدين أو لأنه تهرّبتْ من ملاطفته، الأمر الذي جعله يسقط في الماء، لم تكنْ متيقنةً أيًّا منهما: كل ما كانت تعرفه هو أنها أحسّتْ بالإثم، الأمر الذي يعني أنها حتماً فعلتْ شيئاً خطأ ـــ دارتْ أنيللا على عقبيها ورجعتْ مهرولةً إلى المطبخ.

كان نباح كلب المنزل، وهو كلبٌ ضال كانوا قد تبنّوه، سمّاه بوغدان، الأمرُ الذي أثارَ حيرة جيرانهم الألمان، مترنيخ، قد جعلَ ريشارد وياكوب يهرعان إلى نجدةِ هاليك.

«أنا وغدٌ عجوز»، قال باهتياج بعد أن سحباه خارج الماء. «مدام مارينا، ما هي الفكرة التي كوّنتِها عني الآن حتماً؟ أيمكنكِ أن تصفحي عني؟».

فعلتْ ذلك. كان من السهل على مارينا أن تغفر لهاليك أفعاله الغريبة غير المحتشمة: كان بديناً بنحوٍ مُضحِك، كان سيعودَ إلى سان فرانسيسكو في غضون أيامٍ قلائل. باتَ من الأصعب عليه أن يعتذر لمّا اكتشفوا، بعد أن شاهدوه في المستودع، بأن صديقهم المرح كان مصاباً بهَوَس السرقة. كان بوغدان قد افتقد البرجميات[1] الصُّفر التي جلبها من بولندا، كما افتقد يوليان فرجاره، وواندا كتاب وصفات الطهي خاصتها، ودانوتا وسيبريان كوب تعميد طفلهما الأكبر سنّاً، وياكوب مجلّداً يضمُّ قصائد هاينه، بربارة وألكسندر زجاجة فودكا كشمش سوداء، وريشارد حزاماً من الجلد كان معلّقاً مع براثن دبدبة وجلاجل[2] أفاعٍ جلبها أثناء واحدةٍ من رحلاته إلى داخل سان بيرناردينوس من هنديّ أحمر «كاهيولا» ينصبُ الشِّراك للحيوانات. وحتى إن هاليك سرق أحجية الصور المقطوعة[3]، و«القاطرة المهشمة»[4] العائدتين لپيوتر، وهما لعبتاه الأثيرتان. أنيللا وحدها التي حافظتْ على حاجياتها، إلّا إذا أحصى أحدهم جرّة السُّكّر التي سرقها من المطبخ. ومارينا فقدتْ قلادة وقرطين متناظرين من الفضة المؤكسَدة: النساء البولنديات اللائي يواكبن الموضةَ يلبسنَ حلي الحِداد هذه، كما كانت تُسمّى، بعد فشل «انتفاضة العام 1863». وهي هدية من جدّة بوغدان، وكانت من بين ممتلكاتها النفيسة جدّاً.

1- البرجميات knuckles: مفردها برجمية، وهي قطعة معدنية تُكسى بها مفاصل الأصابع أو عظام اليد الصغيرة في الملاكمة - م.

2- الجلاجل rattles: مفردها جلجل، وهو العضو المحدِث للصلصلة في ذيل الأفعى ذات الجرس rattle snake - م.

3- أحجية الصور المقطوعة jigsaw puzzle: أحجية مؤلفة من قطع خشبية صغيرة يتعين على المرء أن يرتبها بحيث تشكّل صورةً ما - م.

4- القاطرة المُهشمة smashed locomotive: لعبة فيكتورية هادئة للصبيان، اخترعها ميلتون، برادلي وشركاؤهما، ينبغي ترتيب القطع المفقودة من القاطرة كما كانت عليه في الأصل - م.

كان سخط بوغدان على سرقة القلادة والقرطين قد جعلها تغرق في حزنها. «لا تحزني على الجواهر، يا فؤادي العزيز. العجوز هاليك ربما يُعزُّها حتى أكثر مما فعلتُ. إنه مقيمٌ في أمريكا منذ أمدٍ طويل جدّاً».

«أنتِ كريمةٌ جدّاً»، قال بوغدان ببرودٍ شديد. «إنه شيءٌ غير طبيعي».

«إنه هو الذي كان سخيّاً جدّاً، أكثر مما تستطيع أن تتحمّل طبيعته».

«أنتِ تقارنين تلك الأشياء التافهة التي جلبها معـــــ».

«أوه، بوغدان، دعنا لا نكترث بالأمر. ينبغي للمرء دوماً أن يكونَ مستعدّاً لأن يتخلّى عن كلِّ شيء».

إن امتلاك الأشياء طريقةٌ من طرائق العزاء. الفراشي ذوات الخلفيات الفضية، وغطاء المائدة الدِّمقَس ومناديل المائدة، والصناديق الأربعة الضخمة التي تحتوي على ألف كتاب (أين سيضعونها؟)، مجموعة أوراق الموسيقى العائدة لأغنيات مونيشكو[1] وشوبان لم يعزفها أحد على البيانو العمودي في قاعة الاستقبال (فقد نغماته بنحوٍ ميئوس منه)، الأزياء التي لن تلبسها مجدداً ـــــ أيُّ شيء جلبتْه لم تكنْ له قيمةٌ عمليةٌ خالصةٌ يدلّ على رغبةٍ في أن تستمر بإيمانها بالحياة القديمة، والحاجة للحصول على السلوى لأنها تخلّتْ عنه. لكن لماذا تحتاج هي إلى أن تُعزّى؟

لم تفتقدْ هي ويلاتهم البولندية الكئيبة أو حتى جوّهم الكئيب، مع أنّ الجو الخرافي في كاليفورنيا الجنوبية، الذي بدا لهم أنه يتكوّن من غياب الجوّ، لم يكفَّ عن إثارة دهشتهم. يبدو أنه كان هنالك موسمان فقط هنا: صيف حار جاف، يعقبه ربيع معتدل طويل الأمد يُسمى شتاءً. ظلّوا يتوقعون شيئاً أكثر، عنف الطبيعة، وهو عَقَبة. أما الآن، هناك في بولندا، الحقول والجبال، الكنائس والمسارح رقدتْ تحت السماء الرَّحبةِ الرطبة الرمادية لشتاءٍ حقيقي ـــــ الطريق المؤدي إلى زاكوپين سوف يكونُ غيرَ سالكٍ

1- ستانسواڤ مونيشكو Stanisław Moniuszko (1819 – 1872): مؤلف موسيقي، قائد فرقة موسيقية بولندي وبيلاروسي، كتب أغنيات شعبية، وأوبرات، وموسيقاه مليئة بالموضوعات الوطنية الشعبية. يُعدُّ عموماً «أبا الأوبرا الوطنية البولندية» – م.

مرةً أخرى ـــ في حين إن أيام [صني لاند] اللازوردية ولياليها المُرصّعة بالنجوم تكهنتْ بأن يكون الانتقال أسهل فأسهل من مكانٍ إلى آخر، ومن حياةٍ إلى حياةٍ أخرى.

الصحة وعدٌ بمزيدٍ من المستقبل، في حين إن الممتلكات تقوّي الصلات مع الماضي. يوميّاً، كانت مارينا تشعرُ بأنها أقوى، ملائمة أكثر، وهذا ما كانت تضمنه الكُتبُ المُعزِّزة المتعلقة بكاليفورنيا الجنوبية للجميع الذين ينوون السفر إليها، والاستقرار هنا، وأن يملؤوا الأرض الخالية. أولاً، كان هنالك ذهب؛ الآن توجد صحة. كاليفورنيا وَهَبت الصحة، كاليفورنيا كانت تشجعُ على العمل حين يكونُ المرءُ أصح. لكنكَ ستكون في أقصى درجات قوّتك، في أنسب حالاتك، لمّا تخمد ضجة الحاجة؛ حين تفسح الحاجات المجال لعدم اكتراث مهدئ، قوي؛ حين تكون ببساطة ممتنّاً لكونكَ ما تزال حيّاً، حيّاً من جديد. كما هو الحال حين تكون قد استيقظتَ توّاً، تلك اللحظات الأولى غير الحاسمة ـــ انبلاج النور، الرعي في أجمة من الأحاسيس الأصلية، جسمكَ ما يزال مخضلاً بالنوم في حين إن عقلكَ، حتى حين يفك نفسه من حلمٍ ما (كانت حبكتُه قد انحرفتْ بنحوٍ يُنذر بالخطر أو بنحوٍ هزليّ عن الحياة التي تتذكّر أنكَ عشتَها)، عقلكَ يعوم حرّاً.

هـذا الأمـر لا يرجـع إلى كونـكَ لا تعـرف أين أنـتَ أو ما الـذي وافقتَ عليـه مع أنّكَ لـم تعدّه مثاليّاً. كان هنالك رأس بوغدان مشـعث الشـعر على الوسـادة المتاخمة، هكذا فكرتْ مارينا. يوجد هنالك ذلك الصوت: الرجل العزيـز يطحن أسـنانه حين ينام. ربما يكـون ذاك هو هينريـش بفمه المفتوح وشخيره المزماري، أو لعله ريشارد، الذي يدعكُ عينيه ويمدُّ يدَه إلى كؤوسه الموضوعـة علـى طاولة الليـل، أو أيّ واحدٍ من دزينة الرجـال الآخرين، مع أنّـه قـد لا يكون الأمـر كذلك. وفي هـذه اللحظة، هـذه اللحظـة فقط، حتى لـم يعـد الأمر مهمّـاً. ذلك أنـكَ فيما تنظـر إلى مـا حولكَ، تكون مشـاعركَ نحـو الاثنين معـاً: رفيق السـرير وأثاث حجـرة النوم مقبولان بالقدر نفسـه،

مُخدَّران بالقدر نفسه. هيكل السرير الحديدي بنهائياته[1] ذوات الكرات النحاس، خزانة الثياب غير المزخرفة ذات الباب المرتخي؛ الشعاراتُ المكتوبة على الجدران، E PLURIBUS UNUM صُنعتْ في خرز و HOME SWEET HOME مزخرفة بالصوف ومُزيّنة بأزهار مصنوعة من شعر الإنسان ـــــ هذه تبدو صحيحةً، غير شخصية وغير مُختارة على غرار ديكور غرفة فندق حيث انسحب شخصٌ ما كي يؤلف كتاباً أو يلاحق علاقةً غرامية سرية: موقعٌ مثاليّ للتحوّل.

إنما كيف هو غير ممكن التحكُم بـ: الحافزُ من أجل إضافة بعض اللمسات الشخصية بغرض تحسين الأشياء، بغرض توسيع منطقة الامتلاك. منذ البداية كان واضحاً أنهم يجبُ أن يخلقوا مجالاً أكثر لأنفسهم وللآخرين. من خلال بناءِ مسكنٍ صغير واحد من اللَّبِن لدانوتا، وسيبريان وطفلتيهما، وبعدها مسكنٌ آخر لواندا ويوليان حيث يكون بوسعهما أن ينقلا تعاستهما بعيداً عن مرمى السمع، ووضع أرضية وجدران جديدة في الكوخ الذي يشغله ألكسندر وبربارة، سيكون لديهم كتائبية حقيقية. بطبيعة الحال سيكون من السخافة أن يوظّفوا مزيداً من المال في ملكٍ مُستأجَر، خيار بيعه لن يكون ساري المفعول قبل ستة أشهر من الاستئجار. ربما سيكون المالكُ راغباً ببيعه لهم الآن.

على غرار العروس التي تدرك، وهي واقفة في الكنيسة بجانب العريس، أنها بينما هي تحبُّ هذا الرجل فعلاً وتريد أن تتزوجه، فإن هذا لن يدوم، سوف يتبينُ أنها غلطةٌ، تتصوّرُ هذا قبل أن يستقبلَ إصبعُها الخاتمَ، قبل أن يصوغَ فمُها كلمة «موافقة»، إلّا أنّها تجد من الأسهل عليها أن تتخلّصَ من المعرفةِ المُسبقة وتستمر في أن تُصبِحَ متزوجةً، فكّرتْ مارينا: إنه شيءٌ تافه أن تتصادمَ مع ما هو مفهومٌ بحماسةٍ شديدة، ومع ما أُنجز بإخلاصٍ شديد. كان يلزمُها أن تنجزه، لأنَّ كلَّ شيءٍ أفضى إلى هذا. كيف بمستطاعها أن تكون واقفةً في أيّ مكان إلّا هذا المكان؟ والنزوع إلى الشك يُمكن أن

1- النهائية finial: قمة السطح المزخرفة – م.

يتعايش مع الثقة. مع كلّ هذا الأمل والجهد الخاصين ببناء الشخصية، كيف يسعهم ألّا ينجحوا؟ الأمل والجهد، كالرغبة، هما قيمتان بحدّ ذاتيهما. سيظل مجتمعهم ناجحاً حتى إذا فشل.

جَلبَ ريشارد معه محبرته السعيدة الحظ المرمرية الخضراء كالبحر كي تُستخدم في الاحتفال. بعد أن وقّع بوغدان صك شراء العقار وسلّم المظروف مع الأربعة آلاف دولار إلى مالك المزرعة في غياب السيد ليودكه وكاتب المدينة الموظف ومعلّمة پيوتر (وهي غريتشن جميلة من سان فرانسيسكو كانت قد استحوذتْ بنحوٍ جليّ على إعجابِ ريشارد)، عادوا إلى المنزل كي يحتفلوا. تطلعتْ مارينا إلى بوغدان برقةٍ فعّالة.

«واندا، لا يسعكِ أن تنتظري إلى أن نجلس كلنا؟». همس يوليان.

«لحم بقر ويخنة بصل!». قال ألكسندر وهو يساعد نفسه بحصةٍ ضخمةٍ من الطاس الذي كانت أنيللا تمرّرُه حولَ المائدة.

«إنه ليس لحم بقر ويخنة بصل، إنه guïsado»[1]، قال پيوتر. «كنتُ تناولتُه بعد دوام المدرسة في منزل يواكين».

«دعونا نحتفل اليوم من خلال التحدّث بالإنكليزية»، قالت مارينا.

مَن يطمح إلى أن ينأى بنفسه
ويُحبُّ أن يعيشَ في الشمس،
باحثاً عن الطعام الذي يأكُله
وفَرِحاً بما يحصلُ عليه.

مكتبة
t.me/t_pdf

أنشدتْ. وكما لو أنّه يؤدي دورَه، قاطعها ريشارد بأبياتِ الكورس

1- guïsado: وردتْ بالإسبانية في النص الإنكليزي الأصل، وتعني: يخنة خضار، أو يخنة لحم. اليخنة stew: طعام مطهو بالغلي البطيء – م.

تعالَ إلى هنا، تعالَ إلى هنا، تعالَ إلى هنا

هنا سوف يرى

أنه لا يوجد عدوّ

إنما الشتاء والجوّ القاسي.

«براڤو»، قالت مارينا. عبسَ بوغدان. في الخارج، كانت الشمسُ تشرقُ بضراوة.

ستة

خوخ، وبابا، وبطاطس، وموشور.[1]

«معذرةً»، قال ياكوب.

«خوخ، وبابا، وبطاطس، وموشور. يتعيّن عليكَ ألّا تنطقها كلَّها. الموشور هو الشيء الذي يُدخل في الحساب، الذي يُعطي الفم تعبيراً سائغاً. إلّا أنّه يساعد في الحصول على بداية سريعة مع خوخ، وبابا، وبطاطس. هل أنتَ جاهز؟».

كانت المصورة الفوتوغرافية قد زرعتْ صندوق الكاميرا بجوار شجرة السنديان الحية في مؤخرة المنزل.

«جاهز»، قالت مارينا وهي على مبعدة ما يقارب عشرين قدماً، يداها تستريحان على كتفَيْ پيوتر. بوغدان، ويوليان، وواندا كانوا قد تجمعوا في جهتها اليمنى. وفي يسارها كان هناك دانوتا وسيبريان وفتاتاهما الصغيرتان، كلٌّ واحدةٍ منهما تمسكُ بأرنبٍ أليف.

وفيما هي تعتمر قبعتها الإسبانية ذات التاج المسطح ثانيةً (كانت مُصانةً بواسطة رباط الحنك)، انحنت المصوّرة الفوتوغرافية تحت القماش الأسود وظهرتْ بعد لحظة.

«ألا يمكنكم أن تجدوا بعض الصناديق لأولئك الموجودين في الصف الثاني كي يقفوا عليها؟».

1- هذه الكلمات تبدأ بالحرف p بالإنكليزية - م.

«أنيللا، شيءٌ ما كي يجعلكِ أنتِ والآخرين أطول»، قالت مارينا بالبولندية دون أن تلتفت.

«سأساعد»، قال ريشارد. «كلُّ ما نحتاجُ إليه موجودٌ في حظيرة الماشية».

الفتاتان أسقطتا أرنبيهما الأليفين ومضتا تعدوان وراءهما. پيوتر هرع في الطليعة إلى حظيرة الماشية وعاد مع ريشارد وأنيللا في أعلى عربة دلاء الحليب العائدة لهما. بربارة، وألكسندر، وريشارد، وياكوب، وأنيللا استعادوا أمكنتهم في الصف الثاني.

«أتذكرين ما أخبرتكِ به؟».

«پيوتر، وخوخ، وبابا، وبطاطس، وموشور»، صاح پيوتر. «پيوتر، وخوخ، وبابا ــــ».

ممتاز، أيها الرجل الصغير. الآن إذا كان بوسعكَ فقط أن تجعل أمكَ وأباكَ وأصدقاءهما أن ينطقوها...». حدّقتْ إليزا ويثنغتون بنحوٍ حكيم في المجموعة. «العيونُ مفتوحةٌ على وسعها، هذا صحيح. الآن أودُّ أن أرى تعبيراً لطيفاً. ستكونون في منتهى السعادة عند حصولِكم على هذا التسجيلِ لأنفسكم في الأعوام القادمة».

وهكذا سيكونون كذلك. والضوء الهش لعصر يوم حار من أيام آذار / مارس سيكون امتياز الصورة الفوتوغرافية ذات اللون البني الداكن للأيام الخوالي. *يومذاك* كنا *كذلك*. في مقتبل العمر وشكلنا الخارجي بريء. ورائعون جدّاً. مارينا قلّما يمكن التعرّف عليها بزي الحدود، ثوب شيت داكن مع تنورة فوقية طويلة، شعرها مفروق من الوسط ومعقود بأناقة في مؤخرة رأسها. بوغدان بجاكتته الفضفاضة الأنيقة المصنوعة من قماش قطني مضلّع مخملي الزغب وسروال صوف محشور في جزمتيه الولينغتون الجديدتين. پيوتر بقميص ذي مربعات وسروال قصير من الدنيم، شعره الأشقر بقَصّة غير حادة في مستوى الأذن ومُمشّط إلى إحدى الجهتين ــــ غلام أمريكي صغير. وانظرْ، هو ذا ريشارد بقبعةٍ مكسيكية، صمبريرة!. «السروال أحمر»، ريشارد سيقولُ لزوجتِه (زوجته الثانية)، فيما هو يمسُّ الصورةَ بإصبعه ويتفرّس ثانيةً

في نظرته المحدّقة ذات اللون القديم. «وقميص الفلانيلّة[1] مُثبّت بإحكام بواسطة كلّاب وعروة، ذلك هو قميصي المُفضَّل. جرّبي أن تحزري كم كلّفتني ملابسي كلّها؟ دولاراً واحداً!». سوف تتذكرُ أنيللا رعشةَ ارتداءِ المريلة - الصدرية البيضاء التي اشترتها لها مارينا في الأسبوع الماضي.

«نحن نعتقد أننا نضع على وجوهنا تعبيراً لطيفاً»، قال بوغدان. «ولكنكِ أنتِ المصوّرة الفوتوغرافية.

تعبيرٌ ألطف سيكون أحسن. قليلٌ من الشعور بالارتياح والاسترخاء، إن كنتَ فهمتَ ما أعنيه. تعبيرٌ لا أقترحه بشكل اعتيادي على أسرةٍ تمتهن الزراعة لكنكَ لا تبدو لي على غرار الأشخاص الآخرين الذين لاحظتهم في هذه الجماعة. وفيما هي تغادر موقعها خلف آلة التصوير، اقتربتْ من دانوتا ــــ «هل يمكنني؟». ــــ وسوّتْ قلنسوتها. وبعدها عادتْ إلى آلة التصوير كي تتفحصهم مرةً أخرى. «أو إن لم يكنْ باستطاعتكِ، ربما يوجدُ عددٌ كبيرٌ منكم، إذن كونوا طبيعيين أكثر. أعني، لا تكونوا مسترخين جدّاً، إنما أقل شروداً ــــ كما لو أنّكم تستمتعون بأوقاتكم. أحياناً في استطاعة المرء أن يظهرَ مبجلاً إلى حدٍّ كبير، إني أقولُ ذلك على الدوام. ما اسمُ البلد الذي قُلتُم إنكم أتيتُم منه؟».

«بولندا»، أجاب بوغدان.

«أوه يا إلهي! وأنتم كلُّكم من بولندا؟».

«كلُّنا»، قال ياكوب.

«حسناً، أليس هذا مُدهشاً، كلّ الشعوب على اختلافها ترغب بالمجيء إلى أمريكا. أعني، أني لن أفكر قط بالذهاب إلى بولندا، وهي قريبةٌ جدّاً من روسيا، أليس كذلك؟».

«قريبةٌ جدّاً»، قال سيبريان.

«وروسيا أليستْ شاسعةً، متراميةَ الأطراف، أليسَ كذلك، على غرار

1- الفلانيلّة flannel: نسيج صوفي ناعم - م.

أمريكا. غير أني متيقنة من أن بلدكم هو بلدٌ مشوّق بنحوٍ هائل، أيضاً. كل تلك البلدان الصغيرة لا بدّ أن يكون مدهشاً أن يشاهدها المرء ويصوّرها فوتوغرافيّاً. ربما سأكون في أوروبا في يومٍ ما. لا أزال أملك وقتاً. سوف أتنقلُ بعربتي مثلما أنا فاعلةٌ هنا، وأتوقف آنَ أحسُّ بالحافز، وآخذ الصور الفوتوغرافية التي أُريدها. أتعتقدون أن الملأ سيضحكون عليَّ؟ مَن هو هذا الطائر العجوز من كاليفورنيا، سيقولون هذا. لا يهم، سأظلُّ أحدّقُ في وجوهِهم إلى أن يتوجّبَ عليهم أن يلتفتوا. أوه» ـــ قهقهتْ، فيما هي تُشير إلى مارينا ـــ «رأيتكِ تبتسمين».

كان البورتريه الخاص بجماعتِهم هو فكرةُ مارينا، حين شاهدت الإعلان في جريدة أنهايم الأسبوعية «*غازيت*»:

السيدة إليزا ويثنغتون
فنانةٌ فوتوغرافية
صورٌ موجبةٌ مُلصقةٌ على الزجاج وصورٌ دغرية[1] *رفيعة!*
السيدة ويثنغتون، كونها أكملتْ نفسها في الفن،
لا تستطيع أن تفشلَ في إسعادكم.
سوف تمكثُ في أنهايم أسبوعاً واحداً في
پلانترز هوتيل، الغرفة رقم 9.
اتصلوا هاتفيّاً وسترون. الأسعارُ معقولة.
نضمنُ لكم صوراً فوتوغرافية تشبه الأصل
حافظْ على الظل حيث تذوي المادة.

1- صور دُغرية Daguerreotypes: صور مأخوذة بطريقة قديمة في التصوير الفوتوغرافي على ألواح فضية – م.

مارينا أرسلتْ ريشارد إلى القرية كي يتصل هاتفياً بالسيدة ويثنغتون ويطلب منها إن كان بوسعها أن تخرج وتأتي حتى تأخذ صورة فوتوغرافية لأربعة عشر فرداً، بمَن فيهم الأطفال الثلاثة. استثمر ريشارد الفرصة كي يقضي ساعةً حميمةً مع معلمته وبعدها يتنزه ذاهباً إلى الفندق. في عربةٍ بالقرب من المدخل، ذاك الذي يحملُ اللافتة التي تصف كاميرا على حامل ثلاثي القوائم، جلست امرأةٌ عجوز بدينةٌ بقبعة ستيتسون ومعطف الأيرلنديين فضفاص أسود من صوف الألبكة[1].

«لا يمكن إلّا أن تكونَ لامعةً السيدة ويثنغتون»، قال، وهو يُميل قبعته المكسيكية الجديدة. «لم أتوقعْ أن أجدكِ في الخارج تتشمَّسين».

شَرحَ لها تفويضه. شرحتْ له أنه شيءٌ مُضجر بالنسبة لها أن تنتظر زبائن متوقعين في داخل المباني. «أنا أعيش بالضوء ومن أجل الضوء»، قالت. وافقتْ على جلب الاستوديو المتنقل خاصتها إلى المزرعة في صباح اليوم التالي.

كان المستوطنون البولنديون قد سَحَرهم نموذجُ النّسوية الأمريكية المستقلة هذا. غير أنهم كانوا قادرين على المشاهدة فقط فيما كانت هي تفرّغ الصناديق واحداً إثر الآخر حاملةً صفائح الزجاج الهشة وعلب وقناني المواد الكيماوية، والحامل الثلاثي القوائم بأرجله المطوية والمشدودة، و«الحيوان الأليف»، كما سمّتْ هي صندوق آلة تصوير فيلادلفيا خاصتها؛ ونصبتْ خيمتَها الداكنة التي نشرتْ فيها أملاحَها ومستحلباتِها ورتبت الأحواض من أجل تحسس وتحميض الصفائح؛ فكّتْ وحلّت الحامل الثلاثي القوائم وثبّتتْ آلة التصوير. باستثناء طلبها للماء كي تملأ الأحواض التي نظفتْ فيها الصفائح الزجاجية بأبعاد خمس x ثماني بوصات، رفضتْ هي كلَّ عروضِ المساعدةِ من الرجال. إلّا أنّها ابتسمتْ بسمةً مشرقةً حين أخبرها يوليان أنه كان مدرّساً لعلم الكيمياء هناك في بولندا قبل أن يصبح مزارعاً في أمريكا. «آه نعم»، قالت السيدة ويثنغتون، «التصوير الفوتوغرافي هو علمُ الكيمياء.

1- الألبكة alpaca: حيوان لبون جنوب أمريكي شبيه بالخروف ذي الصوف الناعم والطويل – م.

لا شيءَ آخر، أليس كذلك؟». دعته إلى التحديقِ في داخلِ الخيمةِ السوداء المتهرئة فيما كانت تضعُ الأملاح الحساسة للضوء على شريحة زجاج ومن ثم غطتها بالكولوديون[1] الرطب، كانت مكافأتها هي بعض الأسئلة الذكية من يوليان حول تفوّق الكولوديون على الألبومين في عملية تغطية الزجاج، إلى جانب العناية المحترمة فيما يتصل بالصفات الانفجارية في المكوّن الرئيس للكولوديون، السليلوز المعالج بحامض النتريك («نعم، نحن نسميه القطن المتفجر»[2]، قالت بمرح). سُمِح لياكوب بأن ينضم إليهم لمّا أفشى سرّاً بأنه كان رساماً فضلاً عن كونه فلاحاً. «بالطبع، التصويرُ الفوتوغرافي هو رسم، أيضاً»، أشارتْ. التصوير الفوتوغرافي رسمٌ بالضوء. عدستاها الجديدتان من نوع موريسون، أخبرتْ ياكوب، وسوف تُنتجان صوراً شديدة الشبه بالأصل أسمى بكثيرٍ مما يُمكن أن ينجزه أيُّ رسام.

برغم أنه كان هنالك حيز شمالاً سمّته منزلاً ــــ [أيون سيتي]، وهي قرية صغيرة جدّاً في مرتفعات الـ«سييرا» ــــ حيث كان لديها هناك ستوديو للبورتريهات، وعلى مدى بضعةِ أشهر سنويّاً كان تخرج وتتجول هنا وهناك في عربتها مفتشةً عن خنادق حول مواقع دفاعية ومداخل إلى حصون، تشكيلات غريبة من الصخور وأشجار صبّار تبدو بأشكالٍ مضخَّمة تستحقُّ أن تصوِّرها. كانت تدعمُ ماليّاً حياتَها المتنقّلة من مكانٍ إلى مكان من خلال التوقّف في قرًى كي تعرضَ خدماتِها. «حفلات الزفاف والمآتم هي الأفضل»، أشارتْ. بما أنّ أنهايم كانت مخيّبة للآمال في هاتين المسألتين، ستكون في طريقها بعد أن تأخذ صورتهم الفوتوغرافية.

كانت قد سافرتْ في طول الولاية وعرضها، قالت لهم ذلك مراراً وتكراراً.

«وحدكِ؟». هتفتْ بربارة.

1- الكولوديون collodion: سائل دبق يخلّف غشاء شفافاً صادماً للماء كان يُستخدم في الطب والتصوير الفوتوغرافي – م.

2- القطن المتفجر guncotton: مادة متفجرة تُستخدم بخاصةٍ في البارود اللادخاني – م.

«ألا تخافين سيدة ويثنغتون؟». قالت دانوتا. «أما أنا فأخاف جدّاً».

«لم أخفْ قط!».

«إنما بالتأكيد ستكونين في وضعٍ آمن أكثر»، قال ريشارد. «لو أنّكِ أخذتِ معكِ مساعداً».

«لديّ مسدسي ماركة كولت وأعرف كيف أستعمله»، أجابتْ، وهي تربّتُ على شفتها.

بعد أن أخذت الصورة لهم دعوها إلى وجبة غداء. قالت إنها لم يسبقْ لها أن أحستْ بمثل هذه السعادة الغامرة لمّا صعدتْ إلى عربتها وانطلقتْ عائدةً إلى الفندق. «لديَّ روحٌ قلقة»، قالت، «ولديَّ صبر على كوني ربة بيت تعوّدتُ على مزج أملاحي ومستحلبي، أحضّرُ صفائحي، وأركّزُ ذهني على موضوعي قبل أن أثبّتَ صورته. إن مجدَه هو أني يومياً لديَّ شيءٌ جديد أنظرُ إليه من خلال عدستي». لكنها قبلتْ دعوتهم كي تأتي إلى داخل المبنى من أجل شرب كأس شاي «أنتم لا تملكون شيئاً من الويسكي، صحيح؟ بالطبع لا، أنتم تشربون الفودكا، شأنكم شأن الروس»؛ «قولي، بالأحرى، الروس يشربون الفودكا شأنهم شأننا»، قال سيبريان. وما إن اتخذتْ مجلسها مع كأس وقنينة ويسكي على كنبة قاعة الاستقبال، حتى بدتْ ميّالةً للمكوث والتحدّث دون كلفة. «إني أوجّه نفسي بشكلٍ خاص إلى السيدة التي تحوّلتْ إلى منزلةٍ جميلةٍ إلى حدّ بعيد حين كنتُ أهمُّ بإظهار الصفيحة الأولى ـــ ابتسمتْ مارينا مجدداً ـــ وتبتسم بظفر شديد متى تشاء. بالطبع، أشخاصٌ قليلون يريدون أن يكون لديهم بورتريه لأنفسهم وهم يبتسمون. في الرسوم التي أنجزها [الأساتذة القدامى] المهرّجون والأغبياء هم وحدَهم الذين يبتسمون. الصورة الفوتوغرافية يجب أن تُظهرنا بجوهرِنا، بروحِنا، كما نسعى لأن نكون، كما نشاءُ أن يتذكّرنا الآخرون، الصورة التي تدلُّ على الهدوء».

«الكلاب تبتسم، سيدة ويثنغتون. السيد داروين نفسه يستنتجُ شيئاً ما من هذا الأمر».

«إنه شيءٌ صحيح بما يكفي. ولكن ماذا يعني الكلب ببسمته؟ هل إن هذا الكائن سعيد؟ أم إنه يسعى فقط لأن يسليّ سيده؟ لعله يتظاهر».

«ماذا يعني الناس حين يبتسمون؟». قال ريشارد. «لعلنا كلُّنا نتظاهر».

«في اعتقادي»، قالت واندا، «إننا ــــ».

«واندا، أنصتي فقط»، قال يوليان. «أرجوكِ».

«وبعدها كي يثبّت المرءُ عضلاتِ الوجه، كي يحتفظَ بابتسامة، بما أنّ آلة التصوير بالكاد يمكنُها أن تأخذَ صورةً كتلك! ــــ فرقعتْ بأصابعها ــــ فإنه مُرغمٌ على أن يُنتج تعبيراً يبدو كاذباً، أو أسوأ من ذلك. حين يتمّ تحميض الصورة السالبة، قد يجد المصوِّر الفوتوغرافي أنه بدلاً من ابتسام الشخص موضوع الصورة يبدو كأنه يهمّ بالبكاء».

«أو كليهما»، قالت مارينا.

«كنتِ توضّعتِ للفنان الفوتوغرافي مراتٍ كثيرة، ألمْ تفعلي؟».

أومأتْ مارينا برأسها.

«هكذا اعتقدتُ. اللحظةُ التي سبقتْ نزعي الغلاف عن عدستي، قوّستِ حاجبيكِ بلامبالاة شديدة، وهذا طوّل الشكلَ البيضَويّ لخديكِ. إني أُحبُّ أن يعرفُ الناس ماذا يفعلون. هل سبق لكِ أن كنتِ على خشبة المسرح؟».

«كنتُ، سيدة ويشنغتون».

«لكني أنذركِ بألّا تؤدي أدواراً كوميدية، سيدة زاوا ــــ سيدة زاوين ــــ معذرةً، أسماؤكم البولندية من الصعب جدّاً عليَّ أن أتلفظها. إني متأكدة أنكِ كنتِ مهيبةً وجادةً إلى حدٍّ كبير ولمّا كنتِ تبتسمين، كان الناس يحسون بأن بسمتكِ بمنزلةِ هدية، هدية خاصة لهم. إني أشعر بذلك، حين تبتسمين لي».

«أنتِ حادة الملاحظة، سيدة ويشنغتون. هل ترتادين المسرح كثيراً؟».

«أوه يا إلهي، لا يوجد مسرح في [أيون سيتي]! حتى حين كانت مخيّمَ تعدين ــــ لم تكنْ قد أصبحتْ [إيون سيتي] بعد، المشتغِلون بالتعدين كانوا يسمّونها [بقة الفراش] و[تعطيل] ــــ لم تكنْ ثريةً بنحوٍ كافٍ. إلّا

أنّي أتيتُ قبل عشرين عاماً فقط، من نيويورك، حيث ذهبتُ لمشاهدة جميع المسرحيات ولديَّ مُمثليّ المفضّلون وممثلاتي المُفضّلات وسجلٌّ مليءٌ بقصاصات جرائد تحتوي على صورهم وأخبارهم. إني متيقنةٌ من أني سأفقدُ ذلك كلَّه حين انتبهَ زوجي إلى نداءِ صفارة الذهب وتبعته إلى كاليفورنيا. لكن حين تُركتُ وحدي بعد أن لقيَ حتفَه في حادثٍ مروِّع، سقطَ من على جرفٍ، الرجلُ المسكين، كرّستُ نفسي لأن أكون ضليعةً في الفن الهليوغرافي[1]، كان الطلب في ذلك الحين في الأغلب على صور الرجال الذين يُظهرون أيديهم المليئة بكتلٍ صغيرة صلبة من معدنٍ نفيس خام أو يدافعون عن حقوقهم فيها، وكان الجميعُ يظنون أنه شيءٌ أصيل بالنسبة للمرأة كي تعلّق لافتةَ مصور فوتوغرافي، والأكثر تميّزاً أن تغدو مصورةً فوتوغرافيةً جوّالةً، مع كل هذه الصناديق الثقيلة كي تحملها بمشقة هنا وهناك، إلّا أنّي كنتُ أعرف أني قويةٌ ــــ ما كنتُ أريده فعلاً هو أن أكون مسّاحة أراضي، إلّا أنّهم لم يسمحوا للنساء أن يفعلن ذلك بعد ــــ حسناً، في ذلك الحين لم أكنْ أغفل الذهاب إلى المسرحيات أبداً. إني أقدّر حين يكون الأشخاص هم أنفسهم بالضبط، لأنهم لا يعرفون أيَّ طريقةٍ أخرى كي يكونوها. دعوني أخبركم عن امرأةٍ أخذتُ لها صوراً فوتوغرافية مؤخراً في أثناء أسفاري حيث كان قدرها غير المألوف قد جعلها طبيعيةً تقريباً مثل منظر طبيعي». نظرتْ في أنحاء الغرفة. «كم قلتم إنه مضى عليكم هنا في كاليفورنيا؟».

«مضى علينا ستة شهور حتى الآن»، قال بوغدان.

«وفي ذلك الزمن هل ذكر لكِ أحدٌ امرأةً استثنائيةً، إيوليا پيريز دي غيولين[2]؟ الجميع يعرفونها. لا؟ في يومٍ ما كانت تملك الأرض التي هي پاسادينا الآن، غير أن هذا ليس هو سببَ شهرتها. السبب هو أنها في شهر ديسمبر الماضي احتفلتْ بعيد ميلادها المئة وواحد وأربعين. أجل. لقد

1- الفن الهليوغرافي heliographic art: فن تصوير الشمس بواسطة التلسكوب – م.

2- اسمها بالإسبانية كما ورد في النص الإنكليزي الأصل:
Eulalia Pérez de Guillén – م.

رجعتْ إلى هناك حيث [وادي سان غابرييل] تعيش مع أحد أبناء أحفادها، أولادها وأحفادها ماتوا منذ أمدٍ بعيد، لكن ماذا يستطيع أن يتوقّع امرؤٌ رأى النورَ في العام 1735؟ وُلدتْ هناك ورجعتْ كي تساعد في كنيسة [الرسالة] كما فعلتْ قبل مئة وخمسة وعشرين عاماً، حين كانت ما تزال في مَيعة الصِّبا. الشهر الفائت عملتُ لها صورةً موجبةً مُلصقةً على الزجاج – في حديقة [الرسالة]. هل يمكنكم أن تتصوّروها؟ شديدة الصِّغر ومنحنية الجذع، فمها خالٍ من الأسنان وكثيرة التجاعيد وشبه صلعاء ـــ لعلكم تظنون أنها في عمرها كانت أشبه بشجيرةٍ في تلك الحديقة القديمة. غير أنها كانت متململةً كجلد العِجل، لم تكنْ تعرف حتى كيف تصبح وقورةً كما يفعل الناس عادةً حين يتوضّعون أمام آلة التصوير، ولم أستطعْ أن أقاومَ تصوير بسمتِها البهيجة فوتوغرافيّاً».

«أيّ رعب»[1]، قال بوغدان.

«إنها فقط لا تعرف كيف تموت»، قالت ريشارد.

«إنه إلهامٌ لنا كلّنا»، قالت السيدة ويثنغتون. أنهتْ كأسها. «حسناً، يتعيّن عليَّ أن أذهب. أتمنى أن أكونَ في [پالم سپرنغكس] في غضون أيام قلائل، ومن هناك أذهب إلى الصحراء كي أصوّر بعض الجلاميد فوتوغرافيّاً، وبعدها من المتوقّع أن أكون في لوس أنجلس. هناك لديَّ زميلة تملك استوديو حيث يمكنني أن أطبعَ صوري وأعرضَها. ينبغي لي أن أمرّ بأنهايم ثانيةً خلال ثلاثة أسابيع، وإذا لم تعجبكم الصورة، لا ضرورةَ لأن تدفعوا الثمن. غير أني أعرف أنكم سوف تحبونها. أنتم كلُّكم لديكم وجوهٌ مشوّقة».

«هل سبق لكِ أن شاهدتِ كائناً كهذا؟». قال ريشارد. «في أمريكا وحدها يمكنكِ أن تجدي امرأةً مثلها، تفكر أن النساء لا يختلفن عن الرجال، تقضي حياتها وهي تُعطي الأوامر للأشخاص الآخرين. هي رجل! ذلك الشعر

1- أيّ رعب: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل Quelle horreur – م.

البنّي وقبعة الرجل والمسدس ماركة كولت في قِرابه الجلديّ وويسكي الصباح وكلّ تلك الآراء الصاخبة. مُدهِشة، مُدهِشة!».

«لقد أحببتُها»، قالت مارينا. «إنها جريئة».

«أحببتُ القصة المتعلّقة بالمرأة المولودة في العام 1735»، قالت بربارة.

«أودّ أن أرى شهادة الولادة»، قال يوليان. «أنا لم أصدّقْ كلمةً واحدةً من الحكاية كلِّها. ما من إنسانٍ يعيشُ هذه المدّة الطويلة».

«ماما، أتعتقدين ـــ».

مارينا مدّتْ ذراعيها إلى پيوتر وجذبته إلى حضنِها.

«بالطبع، ربما تكونُ هي مصوّرةً فوتوغرافية جيدة»، أذعن ريشارد.

«هي بالتأكيد موضوعٌ جيد»، قال ياكوب. «أحبُّ أن أرسم لها بورتريه، إلّا أنّها تبدو آخر فرد يمكنه أن يمكث في وضعٍ معين مدةً طويلةً بما يكفي من أجل الرسام».

«أوه لا، أوه يا إلهي»، قال سيبريان، وهو يحاكي تشدّقَ العجوز الأنفي. «أنا لا أحبُّ الجلوس في وضعِ ما. أنا شخص متململ جدّاً».

ضحكتْ مارينا.

«سيكونُ شيئاً حلواً»، قالت دانوتا، «أن أحصلَ على صورةٍ طبق الأصل للفتاتين وهما ما تزالان صغيرتين».

إن التقاط الصور ينقلُ الجميعَ إلى المستقبل، حين كانت نفوسهم فتيّة، محض ذكرى لا أكثر. إن الصورة الفوتوغرافية دليلٌ ـــ مارينا سوف تبعثُ إحدى الصور التي طلبتْ أن تُطبع إلى هناك، إلى أمها، وصورةً مطبوعةً أخرى إلى هينريك، وثالثة إلى شقيقة بوغدان ـــ دليل على أنهم حقيقةً هنا، يواصلون حياتَهم الباسلة الجديدة؛ دليلٌ لهم أنفسهم، في يومٍ ما، سيكونُ تذكاراً لتلك الحياة في أحلكِ ظروفِها، بداية قاسية أم، ينبغي ألّا تنجح مغامرتهم (بعد ستة أشهر في الـ[بروك فارم] الجديد، كانت الجالية قد أحصتْ أنها أنفقتْ 15 ألف دولار أمريكيّ وتقريباً لم يرجعْ منها شيء)، تذكار لِما حاولوا القيام به.

«إني أتساءلُ ما إذا سأُصاب بصدمةٍ حين أرى نفسي في الصورة الفوتوغرافية»، قالت مارينا لبوغدان حين كانا وحدهما. «أنا لم أعدْ أفكر بالكيفية التي أبدو فيها، فأنا الآن لستُ مُرغمةً على الاهتمام بأن أبدو في أبهى صورة».

طمأنها بوغدان أن شكلها لم يختلفْ (هذا غير صحيح)، إنها جميلةٌ مثلما لم تكنْ عليه من قبل، جميلةٌ في رأيه (هذا غير صحيح أيضاً). إلّا أنّ مارينا لا يُمكن تهدئتها. التوضّع، التوضّع الآن خلّفَ أثراً غريباً. «بدا شيئاً طبيعيّاً أن تُصوّرني فوتوغرافيّاً بوصفي ممثلةً مسرحية، وأنا أرتدي ثوبَ أحد أدواري. أنا أعرفُ ما هو المفروض بي أن أفعله أمامَ الكاميرا، وكيف أودُّ أن أبدو. أنا اليومَ أتوضّعُ في الفراغ. أتظاهر بأني أعرضُ شيئاً. ألعبُ على مسألة أن يتمّ تصويري فوتوغرافيّاً».

من المستحيل أن يشعرَ المرءُ بالصدق فيما يأخذون صورةً فوتوغرافية له. ومن المستحيل أن يشعرَ المرء بأنه في حالتِه الطبيعيّة بعد أن يغيّرَ اسمه.

كان ابن مارينا الصغير هو أول مَن أعاد تسمية نفسه. في يومٍ ما في شهر شباط / فبراير أعلن أنه أصبح پيتر، كما كان يُدعى في المدرسة. مارينا، التي جفلتْ من صلابة نبرته السوبرانو الطفولي، ردّتْ عليه أن هذا شيءٌ مستحيل بكل معنى الكلمة بما أنّه عُمِّد باسم پيوتر وفضلاً عن ذلك، ما الاسم الألماني الذي يريد أن يمتلكه الطفل البولندي المُشبَّع بالروح الوطنية؟

«إنه ليس اسماً ألمانيّاً، ماما. إنه أمريكي!».

«يمكنهم أن يسمّوك كما يحلو لهم، لكن اسمكَ هو پيوتر».

«ماما، أنتِ على خطأ! پيتر اسم أمريكي!».

«پيوتر، هذا النقاش انتهى».

«لن أُجيب أو أُطيع حين تنادينني پيوتر»، شكا، وهرع إلى داخل المطبخ ورمى نفسه في حضن أنيللا.

وكان يعني ما قالَه، كونه تلقّى الأمرَ كي يبدل اسمَه من الأشخاصِ المقيمين في أنبوب التصريف الذي كان يجتازه يومياً في أثناء ذهابه إلى المدرسة وإيابه منها؛ كانوا شديدي الصغر، لا يزيد حجمُهم على يده، أسرةٌ كاملةٌ منهم، ذوو أطفال كثيرون، وتعوّد أن يتوقفَ و«يدردش» معهم وكانوا يروون له القصص، وماذا ينبغي له أن يفعل. ذات يوم أقبل ميغويل راكباً ـــــ كان ميغويل هو أقوى غلام في الصف، جاء ميغويل إلى المدرسة على فرسه ـــــ ولمّا رآه جالساً القرفصاء بجانب أنبوب التصريف ويتكلّم موجهاً كلامه إلى الداخل، ترجّل من على فرسه وأحنى جذعه بجواره؛ وكان زميلُه البولندي قد أخبرَ ميغويل بشأن الأسرة الصغيرة الحجم هناك، وكذلك أن اسمَه هو پيتر فعلاً. وأن ذلك ميثاق، هو وميغويل أصبحا صديقين حقيقةً الآن. لذا عليه أن يُنهي المسألة الآن، بقدر ما كان خائفاً من أن يُثير حنقَ أمه، وخصوصاً طالما أنّها لم تَعُدْ جميلةً.

كسب الجزء الضروري من كفاحه حالاً: كفَّتْ مارينا عن استعمال اسمه كي تخاطبه. كان بمستطاعها أن تقول «حبيبي» أو «صغيري» ـــــ أما هو فكان يجيب بطواعيةٍ على التربيتة التحببية ـــــ إلّا أنّ الكبت كان يُغيظها، وكانت تشكُّ أنه وراءَ ظهرِها كانت أنيللا قد استسلمتْ أصلاً لإضراب پيوتر في سبيل اسمه الجديد. استمر هذا الأمر مدة شهرين. وبعدها في صباح يومٍ ما فيما كان يهمُّ بالذهاب إلى المدرسة، قالت مارينا، «ارجعْ لحظةً».

«لا أستطيعْ، سأتأخرُ عن الدوام!».

«افعلْ ما تؤمرْ!».

أومأتْ إليه أن يجلسَ إلى مائدة الطعام.

«ما الخطب، ماما؟». جلستْ قبالته وشرعتْ تكدّس أطباق الفطور الدسمة. «ماما سيعاقبونني إذا ما تأخرتُ عن الدوام!».

وضعتْ يديها في حضنها. تنحنحتْ. «حسناً. سأتخلّى عن الأمر».

ما من حاجةٍ للتفسير. بعد دقيقة صمت استلَّ لوحَ الكتابة الأردوازي خاصته من حقيبتِه المدرسيّة ووضعَه على سطحِ المائدة.

«أنتَ لا تريد الذهاب إلى المدرسة الآن؟» قالت بلطف.

انتزعَ قطعةَ طباشير ووضعَها على سطحِ لوحِ الكتابة.

«وسأخبرُ زوجَ أمِّكَ والآخرين ـــ بما قررناه».

دفع لوح الكتابة على سطح الطاولة في اتجاهها. كتبت اسمه الجديد بحروفٍ كبيرةٍ وأعادتْ إليه اللوحَ ثانيةً. أومأ برأسِه بوقار، أعادَ لوحَ الكتابةِ الأردوازيّ إلى حقيبته، وانطلقَ إلى المدرسة.

بعد أن أصبح پيوتر پيتر، ورث أيضاً حجرة نوم له وحده. مع المسكنين الجديدين اللذين شيّدهما العمال الهنود، كانت هنالك الآن مناطق منفصلة جديدة لسيبريان ودانوتا وطفلتيهما، ولبربارة وألكسندر. كلُّ زوج وزوجة لهما مأواهما، وبنى يوليان فرناً في العراء ببقايا قرميد اللَّبِن، إلّا أنّ الجميع استمروا في تناول وجبات طعامهم سويةً في غرفة طعام منزل مارينا وبوغدان أو كانوا يجلسون إلى طاولةٍ في الفناء. المشاعيون من الطراز المعتدل جدّاً، كان الأصدقاء قد نحّوا نداء فورييه إلى الامتناع عن الزواج ـــ الحلم الذي لم ينضجْ بعد المتعلّق بأن يكون المرء أعزب طوال حياته، انتبه إليه ألكسندر الراضي بزواجه ـــ إلا أنه أيّد الفكرة القائلة إن الحفاظ على شعور الأسرة لا يتطلّب تخليد وجبة الأسرة الكئيبة. وكانوا يحتاجون إلى أن يتوحّدوا بعد أن يبددوا نهاراتهم في العمل والأشياء الممتعة: تعوّدوا على التحدث حتى الهزيع الأخير من الليل، كما كان يفعل البولنديون المتعلّمون على مدار أجيال، كانوا قد توقّفوا فجأةً عن المحافظة على ساعات المزارعين، حتى لو عَنى ذلك أن تكون لديهم طاقةٌ أقل لعمل اليوم التالي.

كانوا لا يزالون بعيدين عن بلوغ مزيجهما المثالي للجهد العقلي والبدني. إنما في الأقل المنزل الرئيس لديه مكتبة الآن (آخر الكتب كانت قد أُخرجتْ من صناديقها ورُتبتْ على رفوفٍ شُيّدتْ حديثاً)، وبيانو مناسب، ذو غطاء وأرجل من النحاس الأصفر، طلبته مارينا من سان فرانسيسكو (كلّفَ مبلغاً طائلاً، سبع مئة دولار). ما من وسيلةِ نقلٍ للنوستالجيا أكثر فاعليةً من الموسيقى: لم يكونوا يَعون كم اشتاقوا إلى بولندا إلى أن بدؤوا

ينظمون الموسيقى بعد العشاء سويةً، كانوا قد تلهّفوا إلى موسيقى المؤلفين الموسيقيين البولنديين، إلى أغنيةٍ ينشدها كوبرينسكي، إلى فالس يعزفه أوجينسكي، وفي المقامِ الأول اشتاقوا إلى فن شوبان التعبيري بنحوٍ واضح. إلّا أنّ هذه كانت تدوّي بصورةٍ مختلفةٍ في مخفرهما الأمامي عند الحافة البعيدة من الفراغ الأمريكي، الذروة الأمريكية. كانت موسيقى البولونيز[1] التي وضَعَها شوبان ورقصات المازوركا، مشهورةً في أنحاء العالم كافة بوصفها رمزاً لنضال الشعب البولندي من أجل الاستقلال من الحُكم الأجنبي، الآن بدتْ إفشاءً لاإرادياً لرثاء حُبّ الوطن. مقاطعه الحالمة، بتدفّق أمزجتها، التدفّق المُفعم بالحيوية دون حدود، بدتْ مُثقلةً بفعلِ حزن الاغتراب والحَنين المَرضي للوطن والأسرة.

يُمكنهم أن يتنهدوا، ويتنهدوا، لو أنّهم كانوا راغبين بالاستسلام لشعورٍ حزين. من الأسهل، وأكثر حميميةً، أن يقذفوه على الذين تركوهم وراءهم.

هل تنهدتَ، هينريك، حين تلقيتَ الصورة الفوتوغرافية؟ إني أراها معلّقةً في غرفة الاستشارة الطبية خاصتك فوق مكتبك في إطار جميلٍ من خشب الجوز. تدقق النظر في وجوهنا وملابسنا الغريبة بنظارتك المكبّرة، لا بدّ أنك فعلتَ ذلك، هل فعلتَ، حتى ولو لحظةً، متخيلاً نفسك في الصورة؟ ألا تشعر بالندم لأنكَ لم تأتِ معنا؟ في الوقت الحالي لا بدَّ أن الشمسَ ستحمص كلَّ ذلك الغم الساكن فيكَ وتنتزعه خارجاً. أنتَ ما تزال قادراً على أن تبقى واحداً منا، صديقي العزيز. تعالَ! وتالياً في الرسالة عينها: لا، ليسَ لديَّ حالات صداع هنا في كاليفورنيا. يا له من وضعٍ متغيّر أن يشعرَ المرء ببساطة أنه على ما يرام، معافى إلى أبعد الحدود. إنما الجميع يشعرون بأن وضعهم هنا مختلف. لم أخبرك أن بعضاً منا حتى باتوا يملكون أسماءً جديدةً! پيوتر لا يجيب إلّا على پيتر، بوغدان يُسميه السكان المحليّون بوب – دان، ريشارد نبذ نفسه وأمسى ريتشارد، وياكوب يلهو باسم جيك. نحن كلنا في حالة نشاط، وهم ليسوا أكثر نشاطاً من ابني الصغير المدهش. پيوتر الجديد، پيوتر

1- الپولونيز polonaise: رقصة بطيئة بولندية الأصل، وموسيقى هذه الرقصة – م.

مثل بيتر، بيتر *باختصار*[1] ـــ إنه صبيٌّ آخر. أطول، وأشجع، وأقل تخوّفاً. لديه أصدقاء. بوسعه أن يمتطي فرساً غير مُسرَج، كما يفعل المكسيكيون والهنود. إنه يتلقى دروساً في العزف على البيانو من سيدةٍ شابة في القرية. هينريك، لن تتعرّفَ عليه! أغلب الظن، يتعيّن علينا جميعاً أن نغيّرَ أسماءنا!

كيف يمكنها أن تبثَّ شكواها، حتى لهينريك؟ قولي له إنهم لم يتغيّروا كلُّهم نحو الأحسن؟ سيبريان وألكسندر ظهرا نوعاً ما كأنهما أصبحا قليلَي النشاط بفعل الأعمال الروتينية والهموم، ويوليان، مع أنّه بات مُسيَّراً أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ما يزال يضطهد واندا المسكينة. قولي له إنها اشتاقتْ إلى صداقة بنات جنسها؟ واندا لا يمكنها إلّا أن تكون موضوع تعاطف، ومارينا أدركتْ أنها قلّما أحبتْ دانوتا وبربارة، اللتين أُنعم عليهما بزوجين لطيفين، أفضل بكثير؛ هما أيضاً كانتا هكذا، هكذا، كيف كان بمستطاعها أن تقول ذلك بأدبٍ، بطواعيّة. قولي له إنها كانت تتمرّد على حالة التزاوج تحديداً، باستثناء زواجها الخاص؟ فقط ريشارد المُلحّ، والذكي وياكوب الوديع، الرجلان الأعزبان بينهم ـــ وبوغدان العزيز، بالطبع، المتوتر والمفرط العناية كدأبه ـــ لا يجعلونها تشعر بالانزعاج. قولي له إنها كانت تخشى أن يصيبها الجنون، بسبب نقصٍ في التحفيز العقلي الكافي، وقد بات أصعب عليها أن تستجمعَ الصبرَ الضروري للحياة في كنفِ مجتمعٍ مقارنةً بالصبر الضروريّ للزواج؟ كلا، لن تقولَ له أيّاً من هذه الأشياء.

لكن، نعم، أخبرتْ هينريك، أنها اشتاقتْ إليه.

كان الوفاءُ لمؤسسةٍ تجاريّة جماعيّة مُعرّضة للخطر فضيلةً متأصلةً في حياتِها المهنية. أنتِ تقبلين بالدور الرئيس في مسرحيّةٍ جديدة، أنتِ تذهبينَ إلى التدريب، ومن ثم تُدركين أنه، على الرغم من كل جهودكِ أنتِ وجهود الآخرين، لن تنجح، المسرحيةُ أقل جودةً مما تعتقدين؛ إلّا أنها ليستْ سيئةً، أيضاً، ومَن يفهمُ فضائلها أحسن منكِ، أنتِ تُحبينها كما تُحبين طفلاً عاقّاً؛ وربما سوف تنجحُ على كلِّ حال: الجميعُ يسعونَ بدأبٍ ومثابرةٍ كي ينقذوها،

1- باختصار: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل tout court – م.

اقتطعوا مَشاهد منها وأجروا تغييرات على نص المسرحية وابتكروا إخراجاً مسرحياً أكثر حيويةً ورسام المَشاهد المسرحية لديه فكرةٌ جديدةٌ فيما يتعلّق بالفصل الأخير، سيكونُ من الخطأ أن نتخلى عن الأمل، وهكذا فيما يتعلقُ بزملائكِ الممثلين وزميلاتكِ الممثلات أنتِ ترصّين الصفوف، أنتِ تدافعين عنها، لا، أنتِ تمتدحينها لكل فردٍ خارج مجموعتكِ بسبب الجهد المبذول فيها. أنتِ تقولين إن هذا كله جيّد. عادةً لا يوجد عدم إخلاص في هذا الأمر. أنتِ تؤمنين بما تفعلينه. لا بدَّ أن تؤمني به.

لم يكنْ بوسعِها أن تعرفَ ما إذا تذمّر الآخرون في رسائلهم. كان بمستطاعِها أن تعرفَ فقط كم كان ذلك يعتمدُ عليها كي تُبقيهم منسجمين، متيقظين، ذوي عقول تقدّمية: تقبّلتْ تلك المسؤولية: لأنها كانت تملك الطاقات لم يكنْ بمستطاعها أن تتخلى عنها. كان حضورها ما يزال حضوراً متحوّلاً، أضاءه شفقَ كلِّ الأدوار البطوليّة والمعبِّرة التي لعبتْها. المرأة تحرّك الزبد بعنف وتحمص الخبز وتوجّه أنيللا خلال مراحل تحضير الغداء أو العشاء، ذات مرة ذهبتْ بشجاعةٍ، بفخامة، إلى قطع الرأس الذي أمرتْ به ابنة عمها إليزابيث ملكة بريطانيا، كانت تنتظر بورع اليدين المتباعدتين لعُطيل المعتوه، أسرعتْ كي تضع أفعى على صدرها لدى معرفتها بموت مارك أنتوني، الذي لفظ نَفَسه الأخير في حجرة نوم منعزلة، محظية مُقوَّمةٌ، محرومةٌ حتى من زهورِها، زهور الكاميليا العزيزةً عليها. بعد الانتهاء من هذه الأشياء الختامية: بمَهابة، بنحوٍ مؤثر، بنحوٍ لا يُقاوَم. ربما لا تبدو بالضبط كما كانت عليه في بولندا. إلّا أنّ الكدح الذي جعلها خشنةً لم يغيّر الطريقة التي تمشي بها، أو تدير بها رأسها كي تُنصتَ، أو تبقى صامتةً، أو، بنحوٍ مُغرٍ جدّاً، كي تتكلّم. في صوت الفيلونسيل[1] النابض بالحيوية تحثّهم على الاحتجاج بنحوٍ أقوى مع الجيران الذين كانت ماشيتهم قد التهمتْ محصول الشعير الشتائي خاصتهم سمعوا النغمات الختامية للصوت الذي أعلن فضيلة الرأفة بشايلوك، أنكر قدوم الفجر إلى اللاجئ روميو، تكلّمتْ

1- الفيلونسيل cello: الكمنجة الكبيرة – م.

بحماسةٍ عن حلم الليدي مكبث الآثم وشوق فيدرا الشهواني لابن زوجها. سيمرُّ وقتٌ طويل قبل أن تخبو هذه الأجواءُ المتداخلة لطبقة النبلاء.

إن الملكة التي خُطفتْ ستكونُ ملكةً على الدوام بالنسبة للذين عرفوها على العرش. إلّا أنّ مارينا التي أقسمتْ ألّا تشرح هنا في كاليفورنيا مَن كانت هي؛ مَن هي الآن، مهاجرة، لا تحتاج إلى شرح. كان وصولُهم (ملابسُهم، وقوميتُهم، وعدم كفاءتهم) قد أَحدَثَ شيئاً من الحِراك. إنما بعد مرورِ ستةِ أشهر، وقتٌ طويل في كاليفورنيا، كانت وفرته قد اتسعتْ حتى لأسرعِ مُعدّل من التغيير من بقيةِ أمريكا، كان وجودُهم قد عُدَّ تقريباً شيئاً مُسلّماً به. كان أقسى انطباع بالتفرّد بمستطاع مارينا أن تتركه لدى القرويين هو أن تأتي مع زوجها وأصدقائها وصديقاتها لحضور «قدّاس الأحد» في «كنيسة سانت بونيفيس»، مبجّلةً بإفراط أكثر من أيّ وقتٍ مضى، بقبعةٍ جديدة.

لم يعودوا أحدث المتطفلين؛ كانوا تقريباً مقيمي الزمن – القديم. كان هنالك حتى صينيون الآن، يقومون بغسلِ الثياب وكيّها ويعملون في المزارع، بالإضافة إلى مزيد من الأُسر، أي بمعنى، فلاحون صغار بريطانيون، ذوو أسماء أمريكية. في شباط / فبراير، مجموعة مؤلفة من سبعة وعشرين فرداً من البالغين وتسعة عشر طفلاً تُسمّي نفسها «المجتمع العَدَني»[1] انتقلتْ إلى مربى للماشية مساحتُه مئة أكر شمال أنهايم. كان القيل والقال في القرية يتألف من تحضيراتٍ لنومٍ غريب الأطوار، وألعاب جمبازية جماعية غريبة، وطعام إضافي بنحو مثير للاشمئزاز. وبدا أن كلَّ هذه الأفعال القسرية غير المألوفة مصممةٌ كي تُولّد القداسة والعافية. المباني التي شيّدوها كانت مستديرةً، من المفترض أن تعزز دوراناً أفضل للهواء. بما أنّ الدائرة هي أنموذجٌ لكمال الشكل، لذا فإن العافيةَ هي الكمالُ بعينه، الكمالُ الوحيد الذي يُمكن إحرازه، في الجسم والروح. الكحول والتبغ كانا محظورين، بالإضافة إلى اللحم، وأيّ طعام مسّته النار، وأيّ طعام آخر تمّ تناوله في «جنة عدن».

1- «المجتمع العَدَني»: أي بمعنى المجتمع الفردوسي؛ وردتْ باللاتينية في النص الإنكليزي الأصل Societas Edenica – م.

دولتنا الساقطة، بشّرَ قائدُهم، وهو شخصٌ يُدعى دكتور لورينز، ليستْ سوى انحرافِنا عن الحياة الصحيّة لأسلافِنا الأصليين. آدم وحواء، أنتم تعرفون ماذا يعني هذا، يقولُ القرويون، الذين كانوا، كلّما يجدون ذرائعَ كي يتعدّوا على ملكية الجالية، مُحبطين لأنهم لم يلتقوا بأيّ فردٍ جُرِّد من عدن.

كانت هذه مغامرة في العيش المثالي ليس لمارينا قط أو لمَن يُشبه بوغدان. إلّا أنّ النظرة القتاليّة للصحة كونها تعززتْ في «العَدَني» لها بعض الجاذبية بالنسبة لعضوين في الأقل من جاليتهما العملية. دانوتا وسيبريان كانا قد تخلّيا عن اللحم قبل وصول العَدَنيين، ومؤخراً جدّاً طلبا أن يُطهى طعامهما بشكلٍ منفصل، خالياً من الملح، وأن تُقدّم طاسات مملوءة بالتفاح المبشور، واللوز المقطع، والزبيب المسحوق في كلِّ وجبة طعام لهما، فيما أصرَّ الآخرون على أن يتوصّلوا إلى حلٍّ وسط فيما يخصُّ هضمُهم لليخنات الدسمة واللحم المشويّ المُزيّت.

الطعامُ بوصفِه وسيلةً للزمالة، كان الشعورُ هو أن دانوتا وسيبريان كانا قد كسرا شيئاً من الاتفاق الضمني مع الجالية من خلال هذه النُكرانات الزُّهدية للذات، وهي نُكرانات صارمة.

«أتوقع أنكَ عما قريب ستأكل البلوط المهروس كالهنود»، قال ألكسندر.

«*أنا أقدّر سخريتكَ*»[1]، قال سيبريان بطريقة فظّة.

«التزما الهدوء، أيها الصديقان»، قال ياكوب. «كما يقولون في روما، [*عِشْ أنتَ ودَع الآخرين يعيشون*]»[2].

إلّا أنّ دانوتا وسيبريان رفضا أن يعدّا نفسيهما هَزأتين، وبجدية واصلا فرض قيودهما الجديدة فيما يتصل بالطعام على الآخرين. دانوتا عرضتْ على أنيللا كيف تعدّ الحلوى بحيث إنّ مارينا كانت متيقنةً من أنها أتتْ من

1- أنا أقدّر سخريتكَ: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل J' apprécié votre sarcasme – م.

2- عشْ أنتَ ودَع الآخرين يعيشون: وردتْ بالإيطالية في النص الإنكليزي الأصل vive e lascia vivere – م.

ذخيرةِ المطبخ هناك في «العَدَني»، وهي نوعٌ من «الكاستر»[1] المصنوع من الدقيق والماء والمنكّه بعصير الفراولة.

«لذيذة، أليس كذلك؟». قالت دانوتا.

«أنا لا أقول إنها جيدةٌ بقدر فطيرة دبس السكر»، قالت واندا.

«حقّاً»، قال يوليان. «ليستْ جيدةً بقدر فطيرة دبس السكر، واندا. أأنتِ متأكدة؟».

»صالحة للأكل بكل معنى الكلمة»، قال ألكسندر. «إنما كما ترى *ياعزيزي*[2] سيبريان، إني آكلها».

كانوا قد أسهموا بشكل جماعي في الطاقات، والموارد، والآمال، فكرةٌ قليلة الصرامة عن الكياسة وتحقيق الذات. كانوا متأكدين، بوغدان كان متأكداً، لم يكنْ يبدو شيئاً بعيد المَنال أن يعتقدوا، أن المزرعة عمّا قريب ستحققُ ربحاً. لم يستسلموا حين كان الأمرُ عسيراً فعلاً، في الأشهر الأولى، أما الآن فالمَهمات التي بدتْ مروِّعةً جدّاً، من حلبِ الأبقار إلى العنايةِ بأشجار العنب، باتتْ روتينيةً. أشجارُ العنب الساكنة بدأتْ تُظهر علاماتِ الحياة، والتربة قُلبتْ كي تحصل على الهواء الضروري للجذور. كونهم وصلوا متأخرين في الأيام الأخيرة من الخريف، وجدوا مشترياً واحداً فقط لمحصول الكرم خاصتهم ـــ باعوا كرومَهم بمئتي دولار ـــ إنما كان هنالك سببٌ لأن يعتقدوا أن عملهم سيكون أفضل بكثير هذا العام. كونهم يفتقرون إلى مهمازٍ لعجزهم، كانوا قد ارتاحوا لتقديرٍ ساخر لبطء الدورة الزراعيّة.

كم الأمر مختلفٌ بالنسبة لفنانيهم: ياكوب، الذي أكمل سلسلةً من الرسوم في الموضوعات الهندية في الأشهر الأخيرة، وريشارد، الذي كانت كتابته قد درّتْ دخلاً إضافياً للجالية ـــ ساهم في ثلثي المال الذي كسبه من مقالاته

1- الكاستر custard: مزيج مُحلّى من الحليب والبيض يُخبز أو يُغلى أو يُثلّج – م.
2- يا عزيزي: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل mon cher – م.

الصحفية عن أمريكا، الآن ظهرتْ هذه المقالات بهيئة كتاب في بولندا ـــــ أنهى قصصاً كافيةً كي تكوّن كتاباً آخر، ويكاد ينتهي من كتابة رواية تجري وقائعها في معسكر تعدين في الـ «سييرا»، وبدأتْ تتشكل في ذهنه روايةٌ طويلة مسرح أحداثها روما الغابرة في زمن الاضطهاد المسيحي في عهد نيرون. ولمّا لا يكون منهمكاً في الكتابة، يخرج كي يصطاد الحيوانات ـــــ معظم اللحوم التي يتناولونها ما يزال يعتمد على غزواته ـــــ وكان قد حصل مؤخراً على جواد له وحده، حصان مكسيكي، دفع ثمانية دولارات ثمناً له؛ وهو أكثر من ثمنه الحقيقي في واقع الحال، بما أنّ أحصنةً من هذا النوع يُمكن شراؤها في لوس أنجلس بخمس دولارات؛ في حين إن الحصان الأمريكي، وهو ينفع للعمل ولجرّ العربات، فثمنه يتراوح بين ثمانين إلى ثلاث مئة دولار أمريكي.

كان سنُّه ثلاثة أعوام، رمادي أرقش، طويل نوعاً ما وقويّ، وسيّئ الطباع، حالُه حالُ معظم أفراس السهول الأمريكية. مستخفّاً بنصيحة الجيران، لم يشذّب ريشارد عُرْفه الطويل وخصلات الشعر النامية بغزارة في مؤخرات قوائمه: ما كان يُريده هو حصانٌ جامحٌ يكون أليفاً معه. في أول الأمر، كان بمستطاع ريشارد أن يتحكم بالحصان فقط لمّا يخنقه بوهقه[1]، إلاّ أنّ شهراً من الكفاح الصبور، خلاله تعلّم الحصان أن يتحمّل أن يُلاطف أولاً فيما هو يُطعم، وبعدها فيما هو يُنظَّف ويُفرَّش، حوَّله إلى حيوانٍ سريع الاستجابة، مفعمٍ بالحيوية، حيوان – رفيق مالكه على وفق ما يشاء. كان ريشارد قد أغوى مارينا بالمجيء إلى الإصطبل كي تشاهده فيما هو يسرج دييغو، كما سمّى حصانه، ويجعل اللجام منطبقاً على مقاييس خطمه الأشعث.

«وكم عدد الصفحات هذا الصباح؟».

ثلاث وعشرون. الصفحات الثلاث والعشرون من [*الكابينة الصغيرة*]. فرغتُ من كتابة الرواية.

1- الوهق lasso: حبل في طرفه أنشوطة يُستعمل لقنص الخيل أو الأبقار – م.

«انتهتْ. [خلاص]. وهي جيدة، مارينا، هي جيدة حقيقةً. وماذا تحسبين الحافز الذي يحثني على العمل بشكلٍ جيد جدّاً؟».

«آه، أنتَ تريدني أن أخمّن ما أعرفه أصلاً»، قالت مارينا. «الطموح؟».

«كنتُ طموحاً على الدوام. الطموح هوايةٌ واحدةٌ فقط من الهوايات الأربع المؤثرة بحسب ـــ ما يزال المرء يجرؤ على استحضار اسمه؟ مسيو فورييه. لا، مارينا، إنه ليس الطموح».

«الصداقة؟». كانت تبتسم. «صداقتكَ لي؟».

«مارينا، حقيقةً!».

«الإحساس بالأسرة؟». قالت، وهي تربت على عُرْف الفرس الخشن.

«إنها الشغف الذي لم تتطرقي إليه. أو»، أضاف بجرأة، «نسيتِه».

«أنا لم أنسَه».

«لأني لا أدعكِ تنسين!».

«ولأني أنتظر منكَ أن تسمحَ لهذا الافتتان أن يخمد أوارُه. سيكون هذا أسهل هنا.

أنتِ إذن تعتقدين أني مغرمٌ بالممثلة المسرحية فقط».

«كلا. أنا لا أستصغر نفسي».

«ولا تستصغرينني، أنا واثق من ذلك. مارينا، ألا تعلمين أني حقيقةً مُغرم بكِ؟».

متنهدةً، استندتْ على رأس الحصان.

«بمَ تفكرين؟». قال ريشارد برقة.

«الآن؟ سوف أُخيّبُ أملَكَ. كنتُ أفكّر بابني».

مارينا، مارينا، بدأتْ رسالة ريشارد التي دسّها في جيبها. حوار الأمس في الإصطبل. ماذا كانت فكرتكِ عني حتماً؟ ريشارد المحروم من الحب. ريشارد المهووس بالكتابة ـــ إني أضايقكِ بأمنياتي بشكلٍ مستمر، أنا

منهمكٌ في كتابتي. حتى ياكوب سوف يتحوّلُ من مهمتِه الطويلة على حاملِ اللوحات خاصته إلى جرفِ السماد من أرضيةِ حظيرةِ الماشية، في حين أنا، كرّستُ نفسي للكتابة، أنا أعدو مع مسدسِي (الذي لا يكاد يعملُ من أجلي). لقد أوحيتِ أن يكونَ هذا هو زمنُ الأهدافِ العامّة، وأنا بقيتُ منعزلاً.

من الواضح إني لم أُخلقْ كي أكونَ مزارعاً. هل كنتِ تقصدين أن أكون مزارعاً، مارينا؟ أن أكون رجلاً ماديّاً، أن أكون مكبّلاً بالأعمال الروتينية الخاصة بحرث الأرض وتحقيق الأرباح؟ هل كان يقصدُ كلُّ واحدٍ منا أن يغدو فلاحاً؟ إني أعترف أن الأمر يجعلني أتأوّه وأنا أرى بوغدان ينثر الذرة أو يشذّب أشجار العنب، وجهه المتقلّب ببسمته الساخرة بنحو اعتيادي حيال إعادة الصياغة الجاهزة بعبوس صارم للجهد. وأنتِ في مكان قريب، صبغتكِ الشفافة المتعلقة بالوميض الساخط في شمس كاليفورنيا. هل أنتم أرواحٌ طهّرها العمل البدني، كما وَعَظَ الكُتّاب الروس؟ كنا نعتقد أننا نختار الحرية والراحة وتهذيب الذات. بدلاً من ذلك، كرّسنا أنفسنا يوماً بعد يوم للواجبات الزراعية المُكرَّرة. وسيكون الأمر كذلك على الدوام، مارينا. وحتى حين تغدو الحياة هنا أقل مشقةً، فيما يُصبح الحقل مُربحاً ويمكننا أن نشغّل عمالاً محليين كي يقوموا بالشطر الأكبر من العمل ـــ هل هذه هي الحياة التي تخيّلناها؟ ليست الراحة هي التي نريدُها، مارينا. أتريدين فعلاً أن ترتاحي؟

إن أفراداً من مثلنا يجب ألّا *يقيموا* في هذا البلد ـــ وأقلَّه في قرية. إني أُحذّر أنهم على غرار أنهايم المملة خاصتنا، وليس في نيويورك أو سان فرانسيسكو أيضاً: إن أيّاً من مدننا الأوروبية المتوسطة الحجم هي مدينةٌ جميلةٌ ومتحضّرةٌ أكثر من أيّ مدينة أمريكية في أيّ وقتٍ من الأوقات. لا، يتعين على المرء أن يبقى دائم الحركة كي يحصلَ على أفضل ما يمكنُ أن يُعطيه هذا البلد. مثلما يفعل الصياد، هنا الصيد أبعد من أن يكون استجماماً: إنه ضرورةٌ، ليس ضرورةً عمليةً فقط، بل ضرورةٌ روحية، تجربةٌ فريدةٌ في الحرّية. وراء حدود ما يُسمّى بالحضارة هنا، حيثُ الأرض مقسّمةٌ وتشكّل مُلكيةً شخصيّة، تقع المنطقة التي لن يتردد عليها إلّا الذين يملكون مهاراتٍ

بوصفهم صيادين. هذه المنطقةُ تبدأ وراءَ نهرنا مباشرةً. هناك كل شيء على قياس لا يمكنكِ أن تتصوريه ـــ حجم الغزال هو ضعفُ حجمِ الغزال في بولندا، الدبُّ الأمريكي الرمادي أكبر، وأقوى، وأكثر ضراوةً من أيّ نوع أوروبيّ من الدببة. والسماء، مارينا حتى أكثر سواداً، ممتلئةٌ بالنجوم أكثر مما هي عليه في وادينا؛ والمرءُ لديه أحلامُ وأخيلةٌ حجمُها ضعف حجمِ الحياة. أوه، يتعيّن عليَّ ألّا أُخفي ذلك عنكِ، شربتُ تلفيقاً مُرّاً مصنوعاً من النبتة المائية جيمسون التي يستعملها الهنود في احتفالاتهم المقدّسة. إنما لا ضرورةَ للدواء كي يغطس المرء إلى مزاجٍ سكيّر بنحو جذل. في نهاية نهارٍ قضيته مع رفاقي، رفاق الصيد ذوي الملامح غير الودّية، حين قطّعنا فريستنا إلى شرائح وبعدها استلقينا حول نار مخيم مستمتعتين بتناول قطع اللحم الوردي التي ينبعث منها البخار، أشعر بوحدةٍ وحشية مع الكائنات كلِّها. وفيما بعد، في سحرِ التخمة، مشيتُ ببطء إلى داخل خيمتي، كانت قطعة من قماش الكنفا قد عُلّقتْ على بعض الأغصانِ المنخفضة وتحتها غرفةٌ لشخصٍ واحد (كان بالمستطاع أن تكون هناك غرفةٌ لشخصين)، ولأني وحيدٌ (وا حسرتاه)، غرقتُ مباشرةً، بعد جرعةٍ من اللّوْدنوم[1]، في النوم.

رأيتكِ سعيدةً في أفول شمسٍ مثير مرئيّ من وادينا وعند مَشهد لـ «المحيط الهادئ» الرائع الذي يعلو ويهبط بعد عدوٍ سريعٍ نحو الساحل. إني أَعدكِ بابتهاجٍ قوّتُه لا تقل في الجبال الشاهقة، والخطيرة. حين تكونين معي، سنكون شخصيتين في أوبرا رومانسية، أنا أنشد دور الباريتون لقاطع طريق من منطقة الألب وأنتِ شبه خليلتي[2]، أميرةٌ تقطع الجبل بطريقتها الخاصة إلى حالة زواجٍ خالٍ من الحُبّ، كنتُ أنقذتها من الصخرةِ الهائلة التي انهارتْ بسرعةٍ على جانب الجبل هلك فيها جميع أعضاء مجموعتها. وإذا شئتِ، يمكننا أن نمضي أبعد، يمكننا أن ننزل إلى الجانب الآخر، نحو أرضٍ خالية باهتة تشرف عليها

1- اللّوْدنوم: مستحضر أفيوني – م.

2- شبه خليلتي: وردتْ بالإنكليزية والإيطالية في النص الإنكليزي الأصل my mezzo inamorata – م.

أشجار صبّار بارتفاع ثلاثين، أربعين قدماً. بلاد القمر، مارينا. مع نبات رِعي الحمام[1] الرملي الذي يكسو أرضَ الصحراء باللون الوردي. وحين يجنّ الليل، سوف نركبُ مستندين تماماً على النجوم.

أنا لا أخطط لأن أقدّمكِ إلى أيّ واحدٍ من رفاقي، ما لم ترغبي بذلك. إلّا أنكِ لن تشعري بخيبة الأمل إذا ما التقيتِ بهم. حياتُهم، المشرفةُ على الخطر والخاليةُ من المَرح الصاخب مع الأصدقاء، أنتجتْ سلالةً استثنائية من المتوحّدين. هم لن يذكّروكِ برعاتنا من زاكوپين الذين، على مدار أشهرهم الطويلة وحيدين في جبال «تاترا» العالية، يظلّون مشرنقين في حِماياتٍ مكانٍ سَلَفي، حِمايات أسرة، حِمايات عقيدة. الأمريكي هو شخصٌ يترك دوماً كلَّ شيءٍ وراءه. والفراغ الذي يصنعه هذا في روحه هو مسألةُ دهشةٍ بالنسبة له، أيضاً.

أنا أفكّر في رجل يحتل أرضاً دون وجه حق اسمه جاك غوديير ـــ ألا تحبين هذا الاسم الأمريكي؟ ـــ الذي مكثتُ معه مراتٍ عدّة في رحلاتي الطويلة إلى أعماق الجبال. مع أنّه بطبيعته يميل قليلاً إلى العمل العقلي، كانت طريقته، طريقة روبنسن كروزو، في الحياة قد عززتْ عادةً مؤثرةً من الاستبطان. أتذكر أني مرةً استرحتُ على ألواح خشبية ثقيلة عارية في داخل كوخ جاك الصغير؛ كان ذلك في ساعةٍ متأخرةٍ من المساء، مرَّ زمنٌ طويل دون أن يقول أيُّ واحدٍ منا شيئاً، وكان قد رمى رزمةً أخرى من الغارِ اليابس على النار. وبعدها دون أيّ تمهيدٍ كسرَ الصمتَ كي يقول لي إنه في بعض الأحيان يبدو له كما لو أنّ هناك جاكان: جاك الذي قطّع الأشجار، واصطاد الدببة الرمادية، واعتنى بمنحلتِه، ورفع سقفاً جديداً فوق كوخه، وحملَ خليةَ نحلٍ بيضاء مرميةً إلى الرجل كي يستخدمها ككرسي، وطها دقيقَ الذرة خاصته وخَلَطه بالعسل؛ والآخر ـــ «بالله»، ظلَّ يقاطعُ نفسَه، «بالله» ـــ الآخر الذي لم يكنْ يفعلُ شيئاً سوى التحديق إلى الأول. أخبرني ببساطةٍ شديدة.

جاكان. ريشاردان. بوغدانان، لا أشكّ في ذلك. ومارينتان، أنا متأكدٌ من ذلك. أخبريني أنكِ لا تشعرين بأنكِ تمثلين في مسرحية. قولي لي

1- رِعي الحمام verbena: نبات زهرُه مختلف الألوان - م.

إنه لا توجد مارينا واحدة تعجنُ عجينَ الخبز، وتغسلُ الثياب في حوضِ الاستحمام الخشبي المستدير في الفناء، وتزيلُ الأعشابَ الضارّة من قطعِ الأراضي المُخصصة للخضار، ومارينا الأخرى، تقفُ بنحوٍ جميل طويلة القامة كما تقفينَ أنتِ تماماً، تحدّقُ في نفسِها بدهشةٍ وارتياب. أخبريني. لن أُصدّقَكِ.

مارينا، اركبي معي...

22 آذار / مارس.

زيارة إلى طبيب الأسنان، السيد شميت. لا يفتقر إلى الكفاءة. قُلِع الضرس العلوي الأيسر. كنتُ مستثاراً حين صحوتُ. هل قلتُ شيئاً ما وأنا تحت تأثير المخدِّر؟ شاهدتُ حلماً رقيقاً حول ـــ إنما يقيناً كنتُ أتحدّث بالبولندية، وبناءً على ذلك لم يكنْ كلامي مفهوماً. لكن ماذا لو أنّي فقط كنتُ أنادي باسمه؟

23 آذار / مارس.

بشرةٌ بلون النحاس. عظام الخدّين. أفكارٌ بذيئة.

24 آذار / مارس.

م. لا ترى كمْ يتعينُ عليَّ أن أناضلَ ضد كَسَلي الطبيعي. كان لوَلَعها بالجهد تأثيرٌ قويٌّ عليَّ. الشيء الذي يجعلني قويّاً يكون مهمّاً بالنسبة لها.

25 آذار / مارس.

كانوا قد أمسكوا بنا طوالَ الأبدية كلِّها بجوار المنزل على شريحةٍ من الزجاج الندي بواسطة مصوّرة فوتوغرافية متجوّلة، مُسنةٌ، مُضحِكةٌ بكل معنى الكلمة. م. أحبتها. مناسبةٌ مُسليّة بالنسبة لجاليتنا، فكرتُ، إنما بالنسبة لـ م. بدتْ كما لو أنّها نوعٌ من توقّع شرّ. أو ندم ـــ كما لو أنّنا نتخذُ الخطوةَ الأولى نحو تقبّل الفشل النهائي لجاليتنا، من خلال حرصنا على أن يكون لدينا من بين ممتلكاتنا صورةٌ لما نحن عليه الآن.

26 آذار / مارس.

كان يراودني على الدوام اشمئزازٌ شديدٌ من أن أجعل نفسي بارزاً أو أن أبدو مختلفاً عن الآخرين. أزعجتني مخاوف مفاجئة، لم أفعلْ شيئاً شائناً. كنتُ فقط عنيداً، شاردَ الذهن. فقط في المسرح أحسُّ بأني حرٌّ كي أهتم بأيّ شيء يظهر على خشبة المسرح من حولي. وفيما أنا أشاهدُ المسرحية، أيّ مسرحية، صحبةَ الممثلين والممثلات، أجدُ في نفسي حالاتٍ غامضةً تقريباً من الوعي. فكرتُ أني لن أتزوّج. لقد أحببتُ إلّا إني لم أشأْ أن أغوي. وبعدها كلُّ شيء بات ممكناً مع م. سَلَبَتْ لبّي. كانت تحتاج إليَّ. كانت فحمات عواطفي البطيئة تنفجرُ إلى شعلة. هل يمكنُ أن يتأسسُ الحبُّ على الافتتان، سألتُ نفسي. نعم، أجابَ قلبي.

27 آذار / مارس.

من الطبيعي جدّاً بالنسبة لي أن أدعم م. في أيّ شيء كانت تودُّ أن تفعله. على مدى زمنٍ طويل حسبتُ أن رغبتها بالمجيء إلى أمريكا هي محض نزوة. وما هو أسوأ: خشيتُ من أن يكون ذلك فعلاً من أفعال اليأس المفضي إلى التهوّر، لم تفكرْ فيه مليّاً على الإطلاق. لذا كان من واجبي أن أجعله يعني شيئاً ما ـــــ أو شيئاً آخر. كنتُ سمعتُ أنها كانت تردّدُ أفكاري كالببغاء على مسمع هينريك، تلك المتعلّقة بكيف أن مبادىء فورييه يُمكن تكييفها على وفق مغامرتنا، تقريباً جملةً بعد جملة. أعتقد أنه لا يهمّ أني كنتُ أُنصتُ. مسألة أن الممثلةَ ليستْ مؤلف المسرحية لا يقلل من أن تكون كلماتُ الدور المسرحي كلماتِها هي. السناجبُ الأمريكية دمّرتْ بقعة الخَرشَف.

28 آذار / مارس. م.

لا تزال تعامل پ. كما لو أنّه طفلٌ صغير. الممثلات يُصبحن أمهات عنيدات، وخانقات، ومُهمِلات. الآن طلبَ دروساً في البيانو. سيكون أكثر حكمةً أن نشجعَ وَلَعه بالهندسة. الصبي متوترٌ جدّاً ومن السهل أن يُصاب بالقلق. ما لم يكنْ عازفاً مستقبليّاً للبيانو، وما من سببٍ يدعوني إلى الاعتقاد بأن هذا مرجّح، هذا الشغف بالموسيقى لا يستطيع سوى أن يقوّي ميوله

المروِّعة، المتخنِّثة. ربما ستكون م. أقل من متحمسة ما إن تُدرك أن معلمة البيانو، الابنة الجميلة لموظف المدينة الكاتب، السيد ريسر، هي أصلاً موضع الشّبَق الجذل لدى ريشارد.

29 آذار / مارس.

هما متشابهان من نواحٍ عدّة. م. وريشارد. أنا أفهم، أعتقد أني أحسد، الممثلة، التي كان لديها السماح كي تتباهى بنفسها في زيّ شخصية أخرى. إني أشعر بأني عيّابٌ أكثر نحو الكاتب، الذي يعتقد أن لديه تفويضٌ بأن يقول ما يعتقد هو نفسه للعالَم. غير أني لا أتمالك نفسي من الإعجاب بثقته بنفسه وسعيه المبتهِج، الأمريكي تقريباً وراء سعادته هو.

30 آذار / مارس.

إن عيب الاحتفاظ بدفتر لتدوين اليوميات هو أني لاحظتُ في الأغلب ما الذي يكدّر مزاجي. هذه الليلة يمكنني أن أكتب خطبةً مملةً كاملةً عن بشاعة الزواج الخالي من الحب. كانت واندا قد عمدتْ إلى شدّ شعرها إلى الوراء. أما شعرُ ناصيتِها فقصّتُه قَصّاً مستقيماً ومجعداً ـــ *آخر صيحة*[1]، على ما يبدو، بين سيدات القرية ـــ ويوليان عديم الرحمة.

31 آذار / مارس.

أحاول ألّا أكونَ سريع الانفعال. م. لا تقدر أن تتصوّر أني أُضمر *أيّ* انتقادات لها. إنها تعتقد أني مرآةٌ تكنّ لها الإعجاب. ربما تلك هي فكرتها، فكرة الممثلة المسرحية، عن الزواج الجيّد. غير أني أعرفُ مشاعري المختلَطة هي التي تجعلني مناسباً لها. أنا أسجل فقط سلوكها السيّئ بوصفه سيئاً، أنا أفهم سرعة تأثرها، فزعها، أنا أعرف فقط أنها لا ترغب، حقيقةً، أن يمتلكها أيّ فرد.

1 نيسان / أبريل.

1- آخر صيحة: أي بمعنى آخر تقليعة، وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل le dernier cri – م.

نهارٌ في الحقول خلّف فيَّ شعوراً بالتفاؤل. معظم التطعيمات التي عملناها في الشهر الفائت بدأتْ في النموّ، أشجار الكرم أزهرتْ، وظهرتْ عناقيد العنب، وأوراقها وفّرتْ لها الحماية. التربة الرملية مُثمرة، وكنا نعملُ بخبرةٍ أكثر من أيّ وقتٍ مضى. رامون، عمره 17 عاماً. حواسي أكثر نشاطاً هنا. لا يُمكنني التَّحكّم بما أحسُّ به. لا يمكنني السيطرةَ على أصدائِها في جسدي وفؤادي. غير أني أستطيع التحكّم بما أفعل. لن أخونَ م.

2 نيسان / أبريل.

ياكنتو، العمر 25 سنة. شعر جعد. ندبةٌ على ساعده الأيمن. أسنان بيض. يدٌ صُلبة في قميصه المفتوح جزئيّاً. تقوّس صدره. يقف هناك.

3 نيسان / أبريل.

بعد ظهيرة هذا اليوم ركبتُ مع ريشارد واتجهنا إلى قريةٍ صغيرة هنديّة في التل الواقع عند سفح «سانتا آنا». حشودٌ من أطفال هزيلين أقبلوا راكضين من الأكواخ المستديرة[1] والأكواخ الرمادية القليلة المبنية باللَّبِن المسقّفة بقصب الدّيس[2] ـــ انطباعٌ بالفقر المُحزِن. شخصٌ أكبر سنّاً أمر بعض النسوة بأن يقدّمن لنا طاسات من عصيدة البلوط وخبزهم الشبيه بالكهرمان الأسود المصنوع من دقيق البلوط. كانت خاتمة الطعام «*هيتونا*»، الفاكهة الحمراء للإجّاص الشوكي، وكان الشراب هو عصير المنزنيتة[3]. في طريق العودة، تحاورنا أنا وريشارد حول ما إذا كان عدم إحساس الهنود بالوَجع هو دليلٌ على شعورهم بالدونية. قلتُ كلّما يحسُّ المرء أكثر، يكون أكثر عنصريةً، أكثر تحضراً. اتهمني بأكثر أنواع التحيّز جهلاً. إني متيقنٌ من أنه حدَّثَ نفسه، أن شخصاً من طراز ديمبوڤيسكي يفكّر بتلك الطريقة. على الرغم من كلِّ شيء، أنا أحبُّ ريشارد. هو رجلٌ ذكيّ. له طبيعةٌ صحيّة. يا

1- الأكواخ wigwams: المقصود هنا الأكواخ البيضوية الشكل أو المستديرة التي يسكنها الهنود الحمر (في أمريكا) – م.

2- الدّيس tule: عشب مائي أمريكي – م.

3- المنزنيتة manzanita: نبتة شمال أمريكية – م.

لسعادةِ حظّي أنه غيرُ قادرٍ على إعطاء م. الإخلاص الذي كانت تطلُبه، أو حتى أن ينتبه إلى أنها كانت تهتمُّ بتبديده وقته مع معلمة پ. والسيدة ريسر.

4 نيسان / أبريل.

ومضات أمل، أشبه بومضات الرغبة. تبدأ ثانيةً. كم عددُ الأشياء التي يتعيّن على المرء أن يتخلّى عنها من أجل أن يحصل على امتياز «البدء ثانيةً»؟ طوال ما يزيدُ على خمسين عاماً كان الأوروبيون يقولون: «إن لم ينجح المشروع، يمكننا أن نذهبَ دوماً إلى أمريكا. العشاقُ غير المتناظرين اجتماعيّاً يهربون من تحريمِ الأسرة لاتحادهم، الفنانون عاجزون عن كسبِ الجمهور الذين يعرفونَ أنَ عملَهم يستحقُّه، الثوريون سَحَقهم يأسُ جهدهم الثوري ـــ إلى أمريكا! أمريكا من المفترض أن تُصلح الميزان الأوروبي للأذى أو ببساطةٍ تجعلُ الإنسان ينسى ما كان يُريده، وأن يستبدلَ رغبته برغباتٍ أخرى.

5 نيسان / أبريل.

ستاشيك، يوزيك. الغلام الراعي الذي أعطاني الريش. حفيد السيدة باتشيلدا. لم أتوقعْ أن تكون كاليفورنيا مسرحاً جديداً للإغراءات. في حقيقة الأمر، كنتُ أحسب أني سأترك ورائي هذه الأشياء التافهة المُختلَسة في بلدِنا الحزين. بدلاً من ذلك، بدا كما لو أنّ ضعفي طار قبلي. فيما كنا نستكشفُ نيويورك، نازلين إلى الساحل الأطلسي، عابرين البرزخ، صاعدين إلى ساحل كاليفورنيا، مضيعين الوقت سدًى في سان فرانسيسكو، ومن ثم يجري تضييفنا هنا، هذه الأوهام المتقمَّصة المتعلّقة بتعريضِ الرغبةِ للخطر كانت تنتظرُني أصلاً. ومعها صوتٌ هادئ، وثابتٌ يقول: كما لم يحدثْ قبلاً في بولندا، لِم لا؟ أنتَ في خارج البلد، لا أحدَ يعرف مَن تكون أنتَ فعلاً. هذه هي أمريكا، حيث لا وجودَ لشيءٍ دائم. ما من شيءٍ من المفترض أن يكون له نتائج ثابتة، غير قابلة للتغيير. كلُّ شيء من المفترض أن يتحرّكَ، يتبدلَ، يُفكك، يختلط.

6 نيسان / أبريل.

شلّني هذا الصباح مَشهدٌ رعوي لرفقةٍ صريحة من قصائد ويتمان

الخاصة بالقصب العطري. يواكين، العمر 19 سنة. قميص قطني فضفاض، سروال مصنوع من جلد غزال أسمر. جالساً على جذل شجرة يعزف على نوعٍ من قيثارة صغيرة ذات وتر واحد يسمونها *chiote*. رسغان عصبيان، يدان عريضتان. بجانبِهِ على الأرض، ركبتاه محنيتان ومتباعدتان وقدماه ظلتا قريبتين إحداهما من الأخرى، دون مبالاة يسند رأسه على فخذ يواكين، غلامٌ آخر، لا يتجاوز سنُّهُ 15 عاماً، كان يغني. اسمه، على ما أعتقد، دوروتيو. حاجبان مستقيمان مُعلَّمان فوق جفنين كبيرين. شفتاه مكتنزتان دائمتا الحركة. لمّا طلبتُ منه أن يترجم لي الأغنية، احمرَّ.

في ظل المغنولية[1] حلمتُ بكَ
لمّا صحوتُ من نومي ووجدتُ أنكَ مضيتَ بعيداً،
بكيتُ إلى أن غَلبني النعاسُ ونمتُ ثانيةً.

وبعدها أنا بدوري توردتُ، كنتُ أُريد أن أضرب رِجله من الركبة إلى أصل الفخذ.

7 نيسان / أبريل.

مضتْ ثمانية عشر شهراً منذ أن اقترحتْ م. أولَ مرةٍ المجيء إلى أمريكا. انتهتْ أمطار الربيع، قيل لنا. سيكون الجوّ جافّاً حتى حلول شهر تشرين الثاني / نوفمبر. لحظاتٌ من الشك المُوجِع حين أفكّر في النقود (نقودي أنا لكنها أيضاً نقود ألكسندر، ميراث عمته) تنزلقُ من بين أصابعي. أنا هو الشخص الوحيد الذي يفكر في النقود، وأنا الشخص الأقل استعداداً، بالتنشئة والمزاج، كي أفكر فيها. لا بدّ أن الآخرين كانوا يقلقون أيضاً، إلّا أنهم لا يجرؤون على التعبير عن قلقهم، كما لو أنّهم سوف يكذّبون كفاءتي. على الرغم من ذلك، ثمةَ سببٌ لأن يكونَ المرءُ متفائلاً. لم أفهمْ تماماً مدى

1- المغنولية magnolia: نبات من الفصيلة المغنولية جميل الورق والزهر – م.

الانخفاض في تجارة النبيذ، الذي بلغَ أدنى معدلاتِه في العام قبل الفائت. بِيعَ العنب بسعرٍ ثمانية دولارات للطن الواحد، وكان يُعطى أحياناً طعاماً للخنازير. إلّا أنّ الأسعار بدأتْ تتزايد، وعما قريب سوف يعودون إلى السعر الذي كان عليه قبل العام 1873، نحو 25 دولاراً للطن الواحد. سوف نحققُ النجاح في هذا الخريف أو المقبل، سوف نكسبُ بضعة آلاف من الدولارات.

8 نيسان / أبريل.

حلم عن فرانسيسكو. يده على القربوس[1] الحديدي لسرجه. من الطبيعي أن ينجذب المرء إلى الجمال. كانت م. جميلةً.

9 نيسان / أبريل.

في القرية هذا الصباح كي أضع حدوةً جديدةً للحصان وأشتري الحبوب من أجل الدواب، ذُهلتُ مرةً أخرى بمسألة كم هي بسيطةٌ، منفعيّة بنحوٍ رديء، المباني. يستطيع المرءُ بسهولة أن يتصوّر أيَّ أو كلَّ واحدٍ منها وهو يُفكك. حوارٌ حول الريّ مع الأبله كوهلر.

10 نيسان / أبريل.

تجربةٌ متواضعةٌ كي تكونَ دون ماضٍ. لا أحدَ يعرف، أو يبالي إن لم يعرفوا، مَن كان جدي. جنرال مَن؟ لعلهم سمعوا بپوواسكي، غير أن هذا لأنه جاءَإلى أمريكا، أو بشوبان، غير أن هذا لأنه عاش في فرنسا. في بولندا، هنأتُ نفسي أن إحساسي بكرامتي لم تأتِ من اسمي أو طبقتي الاجتماعية. كنتُ مختلفاً تماماً عن أفراد أسرتي ـــ كانت لديَّ مُثُل عليا أفضل، حالات ضعف أخرى. إلّا أني كنتُ فخوراً بكوني بولنديّاً. وهذا الفخر، حالُهُ حالُ الهوية البولندية، ليس فقط غيرَ ذي صلةٍ بالموضوع هنا، بل هو عائقٌ، لأنه يجعلنا عتيقي الطراز.

حين وصلنا أولَ مرةٍ، معظمنا كانوا مُحبطين لأنه لم يكنْ لدينا سوى

1- القربوس pommel: قسم من السرج مقوّس مرتفع من قُدّام المِقعد ومن مؤخره – م.

الأجانب، بدلاً من الأمريكيين الحقيقيين، كجيران. كلّما عرفتُ أكثر عن القرويين، على أية حال، أفهم، مع أنّهم ما يزالون يتكلّمون الألمانية هم في حقيقة الأمر أمريكيون. ما هو الأوروبي، كسلان، وعتيق الطراز، لا مكانَ له هنا. ويبدو أنه من الأسهل لفردٍ من أوروبا أن يصبح أمريكيّاً أكثر مما حسبتُ. إنما لن يكون الأمر سهلاً بالنسبة للمكسيكيين. المكسيكيون المساكين سيكونون دوماً أجانب وضيعين بالنسبة للأمريكيين المسبوكين حديثاً، في حين إن المكسيكيين الأثرياء القليلين يذكّرونني بالطبقة الأرستقراطية خاصتنا هناك في ديارنا ــــ إنهم شجعان، ومتغطرسون، ومتهوّرون، وحسنو الوفادة، ورسميون، وكسالى ــــ وكُتِبَ عليهم أن ينحّيهم الأمريكيون جانباً بسبب صفتهم العملية الصارمة ووَلعهِم بالعمل. قَدَرُ كاليفورنيا القديمة تقرّر نهائيّاً.

11 نيسان / أبريل.

الاسم بيللي، يقولُ الفتى ذو الشعر الشبيه بالجزر في سوقِ الماشية. ما اسمكَ أنتَ؟ أسنانٌ بيض، ندبةٌ على جبينه. بوبدان، أقول. سررتُ بلقائِكَ، بوب. صهيل واندفاع متهوّر للأحصنة. لعنات رعاة البقر المكسيكيين وهم يحفرون رِكابهم الخشبية في الجوانب النازفة لخيولهم الأمريكية الأقزام غير المروَّضة. الماشية تجأر، رُميتْ، وقُيّدتْ، ووُسمتْ بالنار. لا، ليس بوب، أقول، بوب ومن ثم دان. إنه يسميني بوبي.

12 نيسان / أبريل.

أعتقد أني لم أشعرْ قط بأني معافى جدّاً، ومسرورٌ جدّاً مع نفسي، ومُبسط بنحوٍ مقبول، كما شعرتُ في هذا الصباح، حيث كانت درجة الحرارة 85 درجة فهرنهايت عند الساعة العاشرة، وأنا أملأ المذراة بالقش وأرميه من مخزن القش للجياد. أقرأ كتاب باستور المعنون «*دراسات حول النبيذ*»[1] في ما بعد الظهر.

1- دراسات حول النبيذ: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل Etudes sur le vin – م.

13 نيسان / أبريل.

عقدتُ العزم على إجراء حوار صريح مع دريفوس، اليهودي الوحيد في أنهايم بقدر ما أستطيع أن أجزم، ودون عَجَب، أذكى فرد في القرية. إنه يقول إن الطريقةَ الوحيدةَ كي تحققَ شركتُنا النجاحَ هي أن نبدأ شركتنا الخاصة بالنبيذ. يلزمنا أن نوسّع أو نهلك.

14 نيسان / أبريل.

رغبةٌ مُحرّمة، أجهدُ كي تحررني الهوية الأجنبية. اللعنة على الرغبة. إنما لا يوجد لغزٌ فيما يتعلّق بالكيفية التي أكون فيها منجذباً بقوةٍ شديدةٍ إلى هؤلاء الصبيان وأكون مغرماً قلباً وقالباً بـ م. إن الوقوع في غرامها هو الثبات الوحيد الذي أملكه.

15 نيسان / أبريل.

حلٌّ واحد هو أن نزرع أنواعاً أخرى من العنب. من شجرة عنب واحدة، جلبها الأجداد الإسبان الذين أسسوا «الرسائل التبشيرية»، صنعوا أنواعاً كثيرةً جدّاً من النبيذ. الأشربة الكحولية المقطّرة، البراندي وأنجليكا وأنجليكا البراقة، والپورت وشيري والخمور الحلوة الأخرى، مع كونها غير متساوية، هي مقبولةٌ ـــ عنب الـ *criolla* ينتفخُ بالسكّر تحتَ هذه الشمس كلِّها. إلّا أنّ ضروبَ النبيذ غير الحلو، الريزلنغ[1]، الكلاريه[2] كون الحمض فيها قليلٌ جدّاً، هي عديمة النكهة ومملة. مع ذلك الجميع يشربونها. وليس فقط في كاليفورنيا. الشركات هنا تبيع أكثر فأكثر في «الساحل الشرقي»، وحتى إنها تصدّر إلى أوروبا. إنه شيءٌ ممكن تماماً أن النبيذَ سوف يغدو أمريكيّاً، بمعيارٍ أمريكيّ للجودة، على غرارِ السعادة التي شاء القدرُ أن تكون أمريكيةً، بمعيارٍ أمريكيّ في ماذا يعني أن يكونَ المرءُ سعيداً.

1- الريزلنغ Riesling: خمر شبيهة بخمر الراين – م.

2- الكلاريه claret: خمرة بوردو الفرنسية الحمراء – م.

16 نيسان / أبريل.

هل نحن مغفَّلون لأننا أتينا إلى هنا؟ هذا الاحتمال لا يُستثنى. هل أنا مغفَّل؟ زوجٌ لطيف، يبدو بشكلٍ آخر حين يغازل رجلٌ آخر زوجته؟ إلّا أنّها لن تتركني من أجله. ريشارد ليس هو الرجل المناسب لها. أنا لستُ مغفَّلاً.

17 نيسان / أبريل.

وُلدتُ قبل خمسة وثلاثين عاماً، الأمر الذي يجعل عيد ميلادي *أمريكيّاً*[1]. عادتنا في الاحتفال بأعياد الميلاد في يوم القديس الذي يُسمّى المرء على اسمه لا مجالَ للتفكير فيها هنا، ليس فقط لأن هذا البلد غير كاثوليكي، وذو تقويمٍ ديني يحتفظُ بالقصص والتقاليد الغابرة جدّاً باعتبارها أشياءً مقدّسةً. ما هو أسمى في أمريكا هو التقويم الشخصي، الرحلة الشخصية. عيد ميلادي، حياتي، سعادتي.

18 نيسان / أبريل.

غلامان هنديان يلعبان «القفزية»[2]. أحدهما ذو شعر أسود كعرف الحصان وأسنانٌ ملوّثةٌ. درجة الحرارة 97 فهرنهايت. والوقت ليس صيفاً حتى الآن. يتعيّن عليَّ أن أحصل على كتابٍ عن تربية الخنازير. وكتابٍ آخر عن تربية النحل وكيفية صنع الميد[3]. وفيما أنا أتحدّث مع الناس في القرية، استنتجتُ أن هذه هي المهن التي تتطلّب أقلَّ قدرٍ من العمل وتدرّ أفضل ربح: الخنازير والنحل. الميد شائعٌ جدّاً هنا، إلّا أنّهم لا يصنعونه بطريقةٍ صحيحة. أنا ويوليان صنعنا شيئاً منه، وبدا جيداً جدّاً. على كل حال، إنه شيءٌ غير مؤذٍ أن تحصل على وصفات طهو مناسبة.

19 نيسان / أبريل.

أتيتُ متأخراً جدّاً إلى حياتها كي أفكر في فنتازيا صياغتها. ليس لديّ

1- أمريكيّاً: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل à l'américaine – م.

2- القفزية leapfrog: لعبة ينحني فيها أحد الأولاد فيقفز الآخر فوق ظهره – م.

3- الميد mead: شراب مُخمَّر يُعدّ من عسل ومَلت وخميرة – م.

طموحات في تغييرها. أحببتُها بالضبط على ما هي عليه. أنا زوجٌ ثانٍ مثالي. زوج ممثلة رائعة ـــــ ذلك هو الدور الذي عرفتُ كيف ألعبه. أردتها أن تعدّني شيئاً مفروغاً منه، والآن أجد أني اعتبرتُها شيئاً مفروغاً منه، أيضاً. غير أني لم أخترقْ أعمقَ أعماق قلبها. إنه لشيءٌ غريب كم أنا واثق بنفسي بأن م. لن تتركني أبداً.

20 نيسان / أبريل.

خوان ماريا، دوروتيو، جيسوس.

21 نيسان / أبريل.

اقترح ريشارد أن يأخذنا، أنا وم. فقط، في رحلةٍ أمدها يومان إلى الـ «سان بيرناردينوس». أخبرتُ م. أني لا أستطيع أن أترك العمل الذي أقوم به مع ألكسندر في الإصطبل، إنما يجب عليها أن تذهبَ. للعلم، ربما كان ريشارد يعوِّلُ على رفضي.

22 نيسان / أبريل.

م. تذهبُ قبل الفجر مع ريشارد، بحضور العجوز سيلڤادور. كان ريشارد مسلّحاً ببندقيته، بندقية هنري 14 – طلقة، مسدس، ومدية غِمدية[1]. سيلڤادور يحمل أسلحة تكفي لقاطعي طريق. م. أخذتْ مسدساً أيضاً. على العشاء بدا الجميع مقهورين، لا يوجد أحدٌ كي يُمثلوا له. ربما كانوا كلُّهم قلقين من أنها سوف تتركُهم. كانت أنيللا هي أكثرنا اهتياجاً. كيف تستطيعُ المدام أن تنامَ في العراء، ظلتْ تقول مراراً. سأل پ. ما إذا كان غياب أمه يعني أن يبقى يقظاً مدةً أطول ويتمرّن على البيانو. بدا المنزل خالياً ومضيتُ في مسيرةٍ راجلة طويلة نحو منتصف الليل. بعيداً عن قريتنا الصغيرة، في اتساع وصدق الطبيعة، تحت لامحدودية سماء الليل، هيمنتْ عليَّ بغتةً رؤيةٌ تتعلّق بالكذب الهائل للعلاقات البشرية. بدا حبي لـ م. بوصفه كذبةً كبرى. كذبة بالقدر نفسه مشاعرها نحوي، نحو نجلها، ونحو جميع أفراد جاليتِنا. حياتنا نصف البدائية،

1- مدية غِمدية bowie knife: مديةٌ ضخمةٌ طويلةُ الشفرة ذات غمد – م.

ونصف الرعوية كذبةٌ، واشتياقنا لبولندا كذبةٌ، والزواج كذبةٌ، والطريقُ كلُّه الذي سنّه المجتمعُ لا شيءَ سوى أكاذيب. إلّا أنّي لا أفهم ماذا يمكنني أن أفعل بهذه المعرفة. أقطعُ علاقتي بالمجتمع وأصبحُ ثوريّاً؟ أنا شكوكيّ إلى حدٍّ بعيد. أتركُ م. وألاحقُ رغباتي المُخزية؟ لا يسعني أن أتخيّلَ حياةً دونها. أرجعُ إلى المنزل، أجلسُ كي أدوّنَ هذا، أفكّر ثانيةً: المنزل خالٍ.

23 نيسان / أبريل.

رجعوا هذا المساء. م. مبتهجةٌ، مليئةٌ بالقصص المتعلّقة بما شاهدته. لَحِقَ بها أذًى خطيرٌ جدّاً، المجرمُ ليس حيواناً متوحّشاً بل كوبَ شاي ساخنٍ إلى درجة الغليان؛ أمستْ راحةُ يدِها اليمنى كلّها بثرةٌ متقيّحةً واحدة. لا أعتقد أنها اكتشفتْ أنها مغرمة بريشارد. إنما كيف يتسنى لي أن أعرف ما إذا كان ثمةَ شيء قد ترشّح بينهما؟ لديَّ ممثلةٌ مسرحيّةٌ بصفةِ زوجة.

السفر شرقاً باتجاه الجبال، جيادهم اجتازت القاع الرملي الواسع لنهر أنهايم الموسمي. بعد توسّلاته كلِّها، ذُهِل ريشارد لأن مارينا وافقتْ على النزهةِ القصيرة. الآن بوسعه أن يُدهشها، بأن يُظهِر أنه لم يكنْ يتصوّرُ أنها أذعنتْ لأيّ شيء إلى أبعد حدّ فضلاً عن ذلك بأن أعطته هذا. الصبر هو الفضيلة الأساسية للصياد: إنه لن يطلب يدها للزواج. ولن يُشير إلى ما كانا يشاهدانه. من الفرصة المؤاتية للصمت، التي سوف تقدّمُ نفسَها بوصفها تطفلاً، كما لو أنّه ظنَّ أنها غير قادرة على أن ترى بنفسها قطيع ماعز أنغورا، وذكور طيور التَّدرُج التي جثمتْ على أشجار الصبّار، والظبي على الهضبة، وسرب القُمريات الوردية اللون التي رفرفتْ في الأعلى. أحسَّ بالخجل من رذاذه الجاهز المؤلف من كلمات. الكلمات سهلةٌ ـــ تدفّقتْ منه وملأتْ كلَّ شيء بالضوء. ما من حاجةٍ إلى الكلام.

قرب الظهيرة توقفوا على قمةٍ عاليةٍ في الـ«سان بيرناردينو»، أشار سيلڤادور إلى شجرةِ سنديان سوداء ضخمة في حافة الوادي الضيق المنعزل وهتف بشيءٍ ما لريشارد بالإسبانية.

هزَّ ريشارد رأسه. «*لا أريد أن أسمعَ هذا*»[1].

رسم سيلڤادور علامةَ الصليب على نفسِه، ترجّلَ من على الحصان، ربطَ الأحصنةَ وشرعَ يجمع أغصاناً مقطوعةً كي يُضرمَ النار.

«ماذا قال؟». سألتْ مارينا.

«إن سارق ماشية قُبض عليه هنا البارحة».

«هنا تحديداً؟».

«نعم».

«وماذا جرى له؟».

سيلڤادور أَشعلَ النار، وكان يصفُّ أوانيه، الصفيح ـــ قِدرٌ صغيرةٌ ذات مقبض، وغلّاية، وأطباق، وأكواب ـــ من أجلِ وجبة طعام خفيفة.

«أُعدِمَ دون محاكمة قانونية».

«من على تلك الشجرة».

«أنا خائفٌ أيضاً. نعم».

تأوهتْ مارينا وتحرّكتْ صوب النار. تبعها ريشارد، تناول بطانيةً من حقيبة السرج خاصته، وبسطها على الأرض لهم كي يقعدوا عليها.

«لن أسأل ما إذا هدّكِ التعب».

«شكراً».

«هل تمنيتِ لو أنّكِ لم تأتِي؟».

«ريشارد، ريشارد توقفْ عن تبديدِ الوقت في ما إذا أشعرُ بالسعادة لأني هنا. ومعكَ. أنا فعلاً أشعرُ بالسعادة».

«الآن أنا أعرفُ أنكَ تُحبينني. رددتِ اسمي مرتين».

«أجل، مثلما تفعل». قهقهتْ. «مارينا، مارينا!».

كان يحسبُ أن قلبَه سينفجر من فرط السعادة.

«هل أنتِ سعيدة، مارينا؟». قال بلطف.

1- «لا أريد أن أسمع هذا»: وردتْ بالإسبانية في النص الإنكليزي الأصل No quiero oirlo – م.

«آه، السعادة»، قالت. «أعتقد أن لديَّ قدرة هائلة على السعادة».

لم تكنْ تلك اللحظة المناسبة كي تشرح لريشارد ترتيبها الجديد في نفسها في ما يتصل بالسعادة والرضا. السعادة تعتمد على مسألة ألّا تقع في شِرك وجودكَ الفردي، وهو وعاءٌ كُتب اسمكَ عليه. عليكَ أن تنسى نفسَكَ، ووعاءَكَ. وعليكَ أن تُلصِق نفسكَ بما يأخذكَ إلى خارجِ نفسِك، وبما يمطّ العالم. ومباهج العين، في سبيل المثال ـــ تذكرتْ سرورَها المجنون حين وطأتْ قدمُها أولَ مرةٍ أرضَ متحفٍ ما: جرى ذلك مع هينريش، أخذها هينريش إلى ڤيينا، كانت يومئذٍ في ربيعِها التاسع عشر وفي حاجةٍ ماسةٍ إلى التحفيز. كانت ما تزالُ فتاةً صغيرةً. إن أحد مصادر القوة التي تأتي حين تصبحُ امرأةً، وأكبر سنّاً، هو أنها كانت تملكُ حاجةً أقل كي تتقاسمَ تلك اللحظات المُشرقة للخروج من الذات. إلّا أنّها لم تنسَها، مع أنّ ريشارد بدا أنه ظنَّ أنها نَسيتها، مباهج اليد والفم والبشرة.

مرّر عليهما سيلڤادور أطباقَ البسكويت المجفف ولحم الضأن المُقدّد وأكواباً كبيرة من الشاي اليابانيّ المُحلّى بالعسل.

ريشارد، مكشّراً، وضع كوبه على البطانية، وهزَّ يده المحترقة. رأى أن مارينا ما تزالُ تحملُ كوبَها.

«أنتِ لا تجدينه ساخناً جدّاً؟».

أومأتْ مارينا برأسِها وابتسمتْ. «لستُ متأكدةً من كوني لا أحبّكَ».

أحسَّ ريشارد بأنه طُعِن في فؤاده. تناول كوبه، لا يزال ساخناً بنحوٍ لا يُطاق، وبسرعةٍ وضعه جانباً. «مارينا، أنزلي شايكِ!».

«ربما أفعل»، استطردتْ. «ربما يمكنني. إنما بالطبع أشعر بالذنب لمّا أُحبُّ شخصاً ليس من المفترض أن أُحبَّه».

«مارينا، دعيني أرى يدكِ».

«لمّا كنتُ في سن التاسعة، بُعيد وفاة أبي» ـــ أنزلتْ كوبها وهزّتْ كتفيها ـــ «وضعوني في مدرسة دير مدة سنة واحدة».

«يدكِ؟».

مدّتْ يدها، راحتُها إلى الأعلى. كانت حمراء قاتمة. «سيلڤادور!». صاحَ ريشارد.

«سنيور؟»[1].

«أبله! أبله!». وثب على قدميه وأحضر قارورة العسل. «هل تدعينني أضع هذا عليها؟». رأى دموعاً في عينيها. «أوه، مارينا!». قلب راحة يدها، راح ينفخ عليها ويضع العسل. «هل تؤذي قليلاً؟». حينَ رفعَ بصرَه، كانت عيناها جافتين ووامضتين.

«لديّ معلمة هناك، سستر فيليسيتا، كنتُ أعرف أني أحبها أكثر من أمي، أكثر من أيّ شخصٍ آخر في العالم. لذلك درّبتُ نفسي ألّا أتطلّع إلى وجهها، قطعاً. كانت تحسب أني خجولٌ جدّاً، أو ورعٌ جدّاً، بعينيَّ المُسبلتين، وطوال هذه المدةِ الزمنيةِ كنتُ أتحرّقُ شوقاً كي أضغط بشفتيَّ على وجهِها الجميل.

دعيني أقبّلكِ، مارينا».

«لا تفعلْ».

«إذن لن أضمّكِ بين ذراعيَّ؟ أبداً؟».

«أبداً! مَن يعرف ماذا يعني ذلك؟ إن ما أعرفه هو أن تتوقّع أن أكون في... أن أضطر للاختفاء، أن أضطر للاختيار، هو شيءٌ لا يُطاق بالنسبة لي. أريد أن تكون حياتي بسيطةً».

«أنتِ تجدين الزواج سهلاً!».

«أوه، هذا ليس بسيطاً! بوغدان ليس رجلاً بسيطاً. إلّا أنّي أعتقدُ أن بوغدان يملكُ ما يكفي من التعقيد». جلسا بصمتٍ برهةً.

«مارينا؟».

وقفتْ. «أريد أن أنطلق».

بعد أن امتطوا خيولهم ثانيةً، حين رآها ريشارد تستخدمُ يدها اليسرى كي

1- سنيور: وردتْ بالإسبانية في النص الإنكليزي الأصل Señor – م.

تقبض على عنانها، حاملةً اليمنى، الملفوفة بمنديل، قريبةً من صدرها، أخذ عنانها وكلا الحصانين راحا يسيران عبر وَهْدٍ صخري وصعدا سَفحاً شديد الانحدار كثير العلّيق. من خلفه كانت تقول شيئاً ما عن عذابٍ خاص جعل الحياة صعبةً بالنسبة لبوغدان، شيئاً عن عدم معرفتها (لكنها لم تستطعْ أن تفسّر) مَن كان هو حقيقةً. وبعدها ظهرا كأنهما يتجادلان، وكان ذلك آخر شيء أراد ريشارد أن يقع، بخاصةٍ بعد أن وَعَدتْه فعليّاً أن تكون مُلكاً له ذات يوم.

«إذا كان جدي ضابط ركن إبان عهد نابليون وكانت زوجتي البطلة القومية لبلادي»، أدارَ ريشارد ظهره كي يقول، دون استحقاق، «أعتقد أني ربما أطيل التفكير في مسألة مَن أكون».

«أنتَ غير ذكي كما اعتدتَ أن تكون»، ردّتْ عليه ببرود.

إلّا أنّها بدتْ كأنها تصفح عنه فيما كانت الأرضُ تصبح مستويةً واسترجعتْ عنانَها بيدها اليسرى وظلّا يعدوان بسرعة برهةً من الزمن، رافعين وجهيهما إلى الشمس المتوهّجة وإلى قليلٍ من لطخات الغيوم في السماء الزرقاء الخالية من العيوب، فيما استغرق ريشارد في التفكير في سعادته ودرس مارينا الصغير المروِّع في كيفية تحمّل الألم.

حين حلَّ الليل عسكروا في الجهة البعيدة من الجبل، وقدّم لهم سيلڤادور القلق لحم الخنزير المملّح والخبز على أطباق الصفيح، ومرةً أخرى تكلّم بنحوٍ غير واضح معبّراً عن اعتذاراته وأعذاره. «*مدام، سامحيني، ألف اعتذار، سامحيني*»[1]. كانت يداه صُلبتين جدّاً، قال، لم يكنْ يعرفُ كم كانَ الكوبان ساخنين. «*الآن هو ليسَ ساخناً، مدام، إنه بارد*»[2] ترجم ريشارد.

«ليس اللحم، أتمنى»، قالت مارينا، ضاحكةً.

1- مدام، سامحيني، ألف اعتذار، سامحيني: وردتْ بالإسبانية في النص الإنكليزي الأصل: Señora, *perdóneme*, perdóneme mil disculpas – م.

2- الآن هو ليس ساخناً، مدام، إنه بارد: وردتْ بالإسبانية في النص الإنكليزي الأصل: Ahora no está caliente, señora, está frío – م.

كانت مارينا مبتهجةً كطفلٍ بالسرير الذي صنعه لها سيلڤادور من الأغصان الصغيرة المكسورة العائدة للمنزنيتة والبنفسج البري، وبسط عليها طبقاتٍ من الطحالب الداكنة والسراخس اللامعة. ومن ثم، وهي تترك سيلڤادور عند النار مع بندقيته، الذي شرع يسهرُ على مارينا النائمة ــــ طمأنها ريشارد مرةً أخرى أنه ما من حية ذات أجراس يمكنها أن تنزلق على الوهق المصنوع من شعر الحصان الذي كان قد وضعه بهيئة حلقة حولها ــــ انتزعَ ريشارد نفسَه من مخيمهما كي يتمشى وسط الأشجار المُضاءة بنور القمر ويدخّن غليونه. إن فكرة مارينا النائمة، تحت حمايته، في رِحاب الطبيعة، تحت سماء الليل غير المحدودة، هي تحقيق لفنتازيا قديمة ــــ كانا سهمين رشيقين يمران عبر ضخامة الكون ــــ وكان قد تملّكه إحساسٌ رائع بالنصر. أحبَّ. كان محبوباً. هو مُتيقن من ذلك الآن. ثارت الرياح، والغابةُ الساكنة بدتْ كأنها تنقرُ وتهمس. بعدها لحظته الخاصة بالانتباه الجذل تكشّفتْ للعيان، يا لفزعه، يا لخوفه، جلبةٌ مخشخشة منحوسة. يمكن أن تكون هذه الجلبة، ذكّر نفسه، صوتُ بلوطاتٍ ناضجةٍ تنفصلُ عن عنيقاتها وتخشخش عبر الأوراق فيما هي تهوي على الأرض. يُمكن أيضاً أن تكون الاقتراب المختلِس لـ «*الدبّ الرمادي*»[1]، وهو يكاد يقفز من وراء الشجرة ويمزق حنجرته قبل أن يتمكن من إطلاق صرخةً. وكان قد ترك بندقيته عند نار المخيم. مضروباً بسياط الخوف، حواسه كلّها جلبتْ له أنباءً جديدة. وحتى بمستطاعه أن يكتشف، بين أشذاء الغابة، رائحةً كريهةً لظربان أمريكي[2] آتيةٍ من بعيد. والضجيج ــــ طيور بوم الناعبة وصوتُ خشخشة آخر أضعف؛ ومن ثم... سكونٌ مبارك، كان قد رحَّبَ به بارتياحٍ منفعل إلى درجة الاختناق وبعرفان بالجميل، كما لو أنّه تلقّى رسالةً مُطمئِنةً من الطبيعة ذاتها. كلُّ شيء بخير، كلُّ شيء سيكون بخير. لم يكنْ ذلك لأنه فكّر في أيَّ فنتازيا تتعلّق بكونه غير حساس، ريشارد كان عقلانيّاً جدّاً فيما يتعلّق بذلك. لكن ما من شيءٍ بوسعه

1- الدُّبّ الرمادي: سلالة دببة من نوع الدب البني، منتشرة في المرتفعات الغربية لأمريكا الشمالية. وردت باللاتينية في النص الإنكليزي الأصل Ursus horribilis – م.

2- الظربان الأمريكي skunk: حيوان لبون صغير منتن الرائحة – م.

أن يكتشفَ شعورَه العميق بالصحة التامة والرضا عن الذات. حتى إذا انتهتْ حياتي الآن، خاطب نفسه، سأظلُّ أفكرُ، يا إلهي، يا للرحلة التي قمتُ بها.

24 نيسان / أبريل.

مجتمعنا كالزواج، أيّ زواج، تقول لي م. اليوم، وفجأةً أكون متيقظاً لكل مباغتة. لا أعني زواجنا، تقول، ضاحكةً. أعني الزواج الذي أنضجته التسويات وخيبات الأمل وانتظار الرضا ـــ من الجليّ، أنا لا أفكر في يوليان وواندا أيضاً! فرسٌ عجوز صالح للزواج، فرسٌ يجد الزوجان أنه شيءٌ مثبِّطٌ للعزيمة أن يفكرا بأنه سيستمرّ للأبد إنما من المستحيل أن يتخيلا أن يلغياه. إنها لمحةٌ لـ م. العجوز، تلك المرأة التي أحبها أكثر ما يكون: قلقةٌ، وقاسيةٌ جدّاً، وناقدةٌ لنفسها، وأرستقراطية.

25 نيسان / أبريل.

يبدو أنه أمريكي إلى حدٍّ كبير أن أشجار الكروم هنا هي في حقيقة الأمر أجمات. يعتقد الناس المحليون أنها فعالةٌ جدّاً: لا هَرَج ومَرَج مع التعريشات، إلخ. غير أن كل ما أستطيع التفكير فيه هو: ما من دعم مشترك، وما من تماسك، وما من اختراق. كل شجرة كرم تحيا حياةً مستقلةً. تكافح، وتكافح، كي تتفوّق على جاراتها.

26 نيسان / أبريل.

إذا ما عثرتُ على كتابٍ جيد عن تجفيف العنب من أجل تحويله إلى زبيب، يمكنني أن أنفق بضعة آلاف من الدولارات على جهودنا هذه. عصر هذا اليوم أنا ويوليان زرنا منزلين للتجفيف في القرية، كلاهما يُداران بصورةٍ سيئة. ومع ذلك، العنب المحلي أفضل بكثير أن نحوّله إلى زبيب منه إلى الخمر؛ الأكثر من ذلك، الزبيب يُباع أفضل بكثير. أخبرني بستاني أنه باع من الزبيب من عشرينَ أكر من الأرض بثمانية آلاف دولار أمريكي. عينا ياكنتو البنيتان المُشعتان.

27 نيسان / أبريل.

يمكننا أن نحاول توظيف أموالنا في مشاريع أكثر. الزيتون، والبرتقال، بالطبع، والليمون، والرمان، والتفاح، والإجاص، والخوخ ـــ هذه كلها تدرّ ربحاً جيداً. التين كذلك، الذي يُباع بصورةٍ رخوة، بدلاً من، كما في بولندا، أن يُنظم في حبلٍ طويل. يبدو أن التربةَ جافةٌ جدّاً لزراعة الموز، وفيما ينمو البطيخ الأحمر بنحوٍ جميل فهو عديم النفع بكل معنى الكلمة ـــ رخيص جدّاً. كما يزرع الناسُ كثيراً من التبغ هنا، إنما بشكل رئيس من أجل استعمالهم الشخصي. إنهم لا يعملون بالقزازة[1] كثيراً؛ مع أنّ ديدان القز تنمو بسرعة والأغلفة رائعة، قيل لي إنها «تنجحُ كثيراً» بالنسبة للأمريكي.

28 نيسان / أبريل.

في بولندا أعتقد أني كنتُ ما يتعين عليَّ أن أكونه. أمريكا تعني: بوسع المرء أن يكافحَ مع القدر.

29 نيسان / أبريل.

كنا قد أُوقظنا خلال الليل من قبل سريرنا وهو يتحرّك من جانبٍ إلى آخر في الغرفة. زلزال «بسيط»، بحسب القرويين، وفي الظاهر أنه شيءٌ شائع في كاليفورنيا الجنوبية، مع أنّه أول زلزال شعرنا به. الاثنان معاً، م. و پ.، قالا إنهما استمتعا به، م. تزعم أنها حُذّرتْ في حلمها. آنَ استيقظتْ من النوم سمعتْ نداء البوق من برج كنيسة سانت ماري! پ. الآن يعيش على أمل زلزالٍ كبير، على غرارِ الزلزال الذي وقعَ قبل عشرين عاماً، قبل وصولِ جاليات أنهايم.

30 نيسان / أبريل.

فرسنا لدغتها حية ذات أجراس، إنما يبدو أنها سوف تستعيدُ عافيتها. أما أنا، كنتُ أحسُّ بأني مستاء. م. تعرف أني لا أريد هذا. الآن أنا أريده أكثر مما تريده هي. لعلكَ تملك بعض الشكوك فيما يتعلق بإخلاصنا، أنا أقول بنحوٍ

1- القزازة sericulture: أي إنتاج الحرير الخام بتربية دودة القز – م.

لاذع. ما نفع الإخلاص دون حكمة، تُجيب هي بنبراتها الفاتنة إلى حدٍّ بعيد، والناضجة جدّاً. أنا أشعر بالرضا، إنما ليس الرضا التام. كانت تعتقد أنها تُؤكد الحرية والصفاء، وليس الأسرة والعمل المنزلي. لا أحسب أنها حقيقةً تريدُ بيتاً.

1 أيار / مايو.

إن مسألة كوني لا أشعر بأني حُرّ في السعي من أجل تحقيق رغبتي هي بالتأكيد لا ترجع فقط إلى أني أحرّضُ رغبةَ إنسانٍ آخر. حتى في القضايا المتعلقة بالحواس، أظلُّ هاوياً، مُحبّاً للفنون.

2 أيار / مايو.

الأسبوع الفائت، بالقرب من تيميسكال، عامل هندي دخل المرحاض فيما كانت تستخدمه زوجةُ صاحب مربى الماشية وزعمتْ، أنه حاول الانقضاض عليها، مع أنّ صرخاتها العالية اجتذبت الإنقاذ قبل أن يقع ما لا تُحمد عقباه. كان المسكين قد شدوا وثاقه وأخصاه الزوج الغاضب على الفور، ووضعه في حظيرة الماشية، حيث ظل ينزف حتى الموت في تلك الليلة. سمعنا عن هذه الحادثة اليوم. يبدو أنه شيءٌ جدير بالازدراء أن نعتقد، أننا يجب ألّا نسمع هذه القصة الشنيعة.

3 أيار / مايو.

ياكوب ألقى عليَّ محاضرةً عن الجرائم التي ارتكبتْ هنا ضد الهنود. يبدو أن الهنود كانوا فعلاً قد استعبدوا هنا بعد «فورة الذهب»[1]، واستمر هذا تقريباً حتى الأعوام الخمسة المنصرمة. إنه يتصرفُ كما لو أنّه الوحيد من بيننا الذي يمتلك مشاعر أخلاقية.

4 أيار / مايو.

يمكن أن تفشل. لكني يجب ألّا أفشل. يجب ألّا أخذل م. نحن لا ننتج أغلب ما نحتاج إليه. نحن لا نبيع أغلب ما ننتجه.

1- فورة الذهب Gold Rush: هجرة سكانية واسعة النطاق إلى الأرض التي اكتشف فيها الذهب - م.

5 أيار / مايو.

درجة الحرارة 99 فهرنهايت. النجاحُ الذي لا يلين لهؤلاء الكاليفورنيين يستفزني. لقد نشأتُ على تقدير بولندي مميّز لنبل الفشل. (يبدو أنه شيءٌ سوقي أن ينجح المرء، وهلمَّ جرّاً.) وباء من الجنادب هبط على حقولنا.

6 أيار / مايو.

تبدو واندا على غير ما يُرام وغادرت العشاء مبكراً. قال يوليان إنها محمومة. نحن كلنا قلقون بشأنها. دانوتا، بنحوٍ متوقّع، اقترحتْ إجراء تغيير على الطعام، وذكّرتنا أنه حين مرضتْ إحدى الفتاتين أطعمتها فقط الفاكهة والحبوب المتبرعمة، وفي غضون يومين فارقتها الحمى.

7 أيار / مايو.

أخذني سيبريان لمقابلة الدكتور لورينز. رجلٌ هزيل، وشاحب الوجه، بحاجبين كثين يتدليان على عينيه الثاقبتين، ولحية أشبه بلحية بطريرك، وصوتٌ قوي رنان. يصلح لأن يكون نموذجاً دقيقاً لقائد طائفة دينية. كلُّ عضوٍ من أعضاء المجموعة له عنوان «عامل في حديقة الله»، لكني رأيتُ أن عملهم الروتيني اليومي لا يتضمن العمل الحقلي ـــ كان مربى الماشية ينهض بأعبائه بشكل تامّ عاملٌ مكسيكي ـــ الأمر الذي قد يفسر السبب الذي يجعل أعضاء الجالية يشعرون بأنهم بحاجةٍ إلى ساعات عدّة من التمارين الشاقة عقب صلاتهم الصباحية. طفتُ حول منزل الرجال والمنزل الأصغر حيث كان يُقيم الأطفال. هاتان البنايتان، كالبناية التي تنام فيها النساء، كانت مستديرةً تماماً. الزوجات والأزواج كان يُسمح لهم بأن يقضوا ليلة السبت سويةً. كانت قواعد «الغذاء العدني» قد فُسّرتْ لي، وكنا مدعوين لتناول وجبة طعام فاسدة من برغل القمح والشعير، المطحون بنعومة، ومُرطّب بعصير فاكهة.

8 أيار / مايو.

م. تقول لي إن ريشارد سأل يوليان لماذا هو وواندا ليس لديهما طفل. يبدو أنها، بحسب يوليان، غير قادرة على أن تحمل بطفل. م. تفكر بتأسيس مدرسة مهن يدوية للفتيات الهنديات.

9 أيار / مايو.

الملأ الذين استقروا في أنهايم جاؤوا إلى هنا كي يعيشوا بنحوٍ أفضل مما كانوا عليه في سان فرانسيسكو. أما استقرارنا هنا فكان محض مصادفة، ونحن نعيش بنحوٍ أسوأ مما كنّا عليه في بولندا. إذا أخفقتْ مجموعتنا، لن يكون هذا بسبب لاعملية جميع المشاريع اليوطوبية، بل لأننا تخلينا عن قدرٍ كبير جدّاً مما كان مُرضياً. كنا نريد أن نخلق حياةً، وليس سُبُلاً للعيش؛ إن جمع المال لم يكنْ، ولن يكون، هو حافزنا الرئيس. إنه شيءٌ يُلهب الضغينة أن نعرف أنه إذا استسلمنا، فإن جيراننا سيقولون إننا لم نعملْ بدأبٍ كافٍ ــــ إنه بعد أن زرعنا محاصيلنا توقعنا أن نجلسَ في المدخلِ المسقوف أو نستلقي في الأراجيح الشبكية فيما كانت الأشياءُ تنمو. إنه شيءٌ غير صحيح. بالأحرى، نحن نعمل بدأبٍ أكبر من دأبهم. لكننا متحيّرون. نحن نفتقر إلى الفطرة السليمة التي تأتي بشكلٍ طبيعي إليهم.

10 أيار / مايو.

ركبتُ وحدي إلى «رصيف مرفأ أنهايم»، ما يقارب ستة وعشرين ميلاً ذهاباً وإياباً، وشعرتُ بأني أقوى للقيام بهذا الرحلة. رقعةٌ واحدة من الساحل كانت مفروشةً بكبريتور الحديد ــــ يسمونه هنا ذهب المغفل ــــ وملأتُ كيساً به لـ پ.

11 أيار / مايو.

فشل آخرون قبلنا. «بروك فارم. الجالية الفورييه (نسبةً إلى فورييه) التي أسسها كاليكست ڤوليسكي[1] في لا رينيون، في ولاية تكساس. كنا نعرف

1- كاليكست ڤوليسكي Kalikst Woliski (1816 - 1885): كاتب بولندي يتحدّر من أسرة أرستقراطية. درس في وارسو إلّا أنّه غادرها للانضمام إلى «القوات البولندية» في الانتفاضة ضد روسيا في تشرين الثاني / نوفمبر 1830. وحين مُنيت الانتفاضة بالفشل ذهب إلى فرنسا. درس الهندسة وساهم في إنشاء السكك الحديدية الفرنسية وإنشاء سدود على الديبب. وبسبب كونه اشتراكيّاً متحمساً خشي الانتقام من حكومة لويس نابليون (الثالث) وجاء إلى الولايات المتحدّة في العام 1852. كان مهتمّاً بحركة تحرير النساء، طلب منه فيكتور بروسپر كونسدرنت، وريث شارل فورييه، أن يتوجه

ذلك. في الواقع، بينما كنا نعدُّ خططنا من أجل الهجرة قرأتُ مقالة ڤوليسكي الكئيبة عن مغامرته، وكان قد نشرها بعد أن رجع هو وأصدقاؤه إلى بولندا. إنما حتى الآن أعتقد أننا كنا محقين بألّا يُثبط همتنا فشل مجموعة أخرى كي نُبقي على مجموعة تعاونية على امتداد مسالك فورييه هنا في أمريكا. لو كان الجميع متعقلين جدّاً، ما كان ليحدث أيُّ شيء. سيكونُ هذا أشبه بفقدانِ الإيمان بالزواج بسبب واندا ويوليان. من حقِّ المرء أن يقولَ، زواجي سيكونُ مختلفاً.

12 أيار / مايو.

ربما ستبدو مغامرتنا بولنديةً إلى حدٍّ كبير. أنا أعرف أن السمعةَ التي نملكُها في الخارج بين أولئك المتعاطفين مع تاريخِ بلدِنا الفاجع. فيما يتعلق بافتقارنا إلى الحكمة السياسية ـــ انظرْ إلى عصياناتنا المسلّحة، التي لم تمتلكْ أيَّ فرصةٍ للنجاح. فيما يتعلّق بكوننا سُذّجاً ـــ نابليون لم تكنْ لديه مشكلة في إقناعنا أن جيوش بلادنا يجب أن تريق دمها له؛ كان يكفيه بأن يلوّح بـ «النسر الأبيض» أمام أنوفنا، وهكذا ركبنا جيادنا ومضينا بعيداً إلى داخل روسيا في العام 1812، جَدّي في الطليعة. فيما يتعلّق بنزوعنا إلى الحماسة بطريقة صبيانية، غير مؤهلة؛ يقيناً لا تنسجم مع الإدارة الجيدة، والذكاء، والانضباط، والاعتدال، والخصائص الأخرى الضرورية في الصراعات الجبّارة المقبلة للبلدان كلِّها من أجل البقاء في عهدِ التصنيع والتسلّط العسكري. فيما يتعلق بأن يُعتمد علينا دوماً في مسألة الكياسة وأفعال الجرأة الشخصية، إنما يوجد إدراكٌ معين في سموّ مبادئنا. التهمة الأكثر إيلاماً هي: أننا أمةٌ من محبي الفنون.

13 أيار / مايو.

بولندا تعجُّ بالتماثيل. نحن نحيي ذكرى الماضي لأن الماضي هو مصير.

إلى نيو أورليانز كي يلتقي أول مجموعة من المهاجرين الذين توجهوا إلى تكساس كي يؤسسوا جاليةً لا رينيون La Réunion، قرب دالاس. اختير زعيماً لها بسبب معرفته بالإنكليزية – م.

نحن متشائمون طبيعيون، نعتقد أن ما حصل سوف يحصلُ ثانيةً. ربما هذا هو تعريفُ المتفائل: الشخص الذي يُنكر سلطة الماضي. الماضي ليس مُهمّاً حقيقةً هنا. هنا الحاضر لا يؤكد الماضي مجدداً، بل يُبطله ويُلغيه. إن ضعف أيّ التصاق بالماضي ربما هو الشيء اللافت جدّاً فيما يتعلق بالأمريكيين. إنه يجعلهم يبدون سطحيين، ضحلين، إلّا أنّه يمنحهم قوةً كبرى وثقةً بالنفس. إنهم لا يشعرون بأنهم أقزامٌ حيال *أيّ شيء*.

14 أيار / مايو.

نحو الساعة الخامسة عصر هذا اليوم حاولتْ واندا أن تشنق نفسها في حظيرة الماشية. أخفقتْ في أن تثبّت الحبل بالعارضة الخشبية، ولا بدّ أنه صمد لحظةً واحدةً فقط بعد أن قفزتْ من السلّم، إلّا أنّ السقوط ضيّق الأنشوطة ــــ كانت ستختنق حتى الموت في غضون لحظات قلائل لو لم يكنْ ياكوب في الطابق العلوي في وكره، سمع الاصطدام ووصل في الوقت المناسب كي يسحب السلّم بعيداً عنها ويفكّ الأنشوطة ويهرع لمساعدتها. حملناها غائبةً عن الوعي إلى منزلنا وركبتُ حصاني متجهاً إلى القرية كي أُحضر هيجينس، الذي عمل لها كمّادات لمعالجة الكدمات في رقبتها، جبّر ذراعها المكسورة وأعطاها شيئاً من الكلورال هايدريت[1]. الوقت هو الثانية فجراً؛ كان قد غادر توّاً. بطبيعة الحال، لا بدّ لها أن تبقى هنا بضعة أيام. م. لا تزال معها. ألكسندر وبربارة أخذا يوليان إلى الداخل كي يقضي ليلته معهما. كان قد عمل مَشهداً من نفسه خارج المنزل، إذ كان يبكي ويصيح أنه سوف يقتلُ نفسه هو أيضاً، كان ذلك هو الشيءُ الوحيدُ الذي سيقنعُ الجميع، هو وحده الذي لن يقوم بعملٍ سقيم أخرق. إنما الآن، بحسب بربارة، إنه يجلس فقط ورأسه بين يديه. م. منعته من الاقتراب من واندا.

15 أيار / مايو.

واندا لا تزال تعاني من ألم فظيع، عاجزة عن الأكل أو حتى الشرب. هيجينس، الذي أقبل اليوم، يقول إنها في حالة جيدة، وحثّنا على إبقائها في

1- كلورال هيدريت chloral hydrate: عقار مهدئ ومنوّم – م.

السرير بضعة أيام. لا أحدَ يعرف ماذا يجب أن يفعل. يوليان منسحق الفؤاد، إنما كم سيستمر هذا الوضع؟ «أنا أعرف أني لستُ ذكيّاً»، هذه الكلمات هي كل ما تمكّن من أن يقولها لي بهمسٍ أجش. إنه جديرٌ بالشفقة إلى حدٍّ كبير، إلّا أنّه خسيسٌ ومُنحط، أيضاً. كانت تتوسّل إلى م. كي تسمح ليوليان بزيارتها.

16 أيار / مايو.

لدينا تقريباً درسٌ بقدر درس يوليان كي نشعر بأننا نادمون. إن العيش في إطار جماعةٍ ما يعني أن يتولّى المرءُ المسؤوليةَ على الآخرين، وليس على نفسه وعلى أفراد أسرته. الجميع لم يوافقوا على الطريقة التي عامل فيها يوليان واندا؛ كجماعة، كان يلزمنا أن نكبح جماحه.

17 أيار / مايو.

عادتْ واندا إلى يوليان. بعد أن غادرت المنزل، م. كانت تهمّ بالبكاء. هي الآن غاضبة. ذكّرتها، ما من أحدٍ يستطيع أن يعرف ماذا يجري في نطاق زواج شخصٍ ما.

18 أيار / مايو.

بما أنّ يوليان وواندا لم يعودا يأتيان إلى وجبات الطعام، م. قالت لأنيللا أن تجلبَ لهما طعامهما. حينَ زرناهما مساءَ اليوم، تحدّثتْ واندا عن نوبةٍ عصبيّة، ربما بسبب العمل الشاق، ووافق يوليان على أنها عملتْ بدأب ومثابرة شديدين.

19 أيار / مايو.

يوليان وواندا سوف يعودان إلى بولندا في بداية الشهر المقبل. ما جرى مروِّع إلى حدّ كبير بحيث إنّه ما من أحدٍ يجرؤ على أن يحثّهما على البقاء، مع أنّه، الله يعلم، من غير المرجّح أن تتحسنَ العلاقات بينهما حين يرجعان إلى الوطن. سيكون لدى يوليان سببٌ جديد كي يُلقي اللوم على واندا، كونهما تركا أصدقاءهما، وهجرا المغامرة الكبرى، وتخلّيا عن أمريكا، ولحق به العار بسبب ضعفها. م. حزينةٌ جدّاً. بوسع ياكوب أن يشغل منزلهما. يفضّل

ريشارد أن يبقى في حظيرة الماشية. لم يتبدل شيءٌ آخر، لم يتغيّرْ شيءٌ آخر إنما تغيّرَ كلُّ شيء، يمكنني أن أشعرَ بذلك. سوف نفشل.

20 أيار / مايو.

لا أشعر بالرغبة في كتابة أيّ شيء هذا المساء.

21 أيار / مايو.

ولا اليوم.

22 أيار / مايو.

في أمريكا، كلُّ شيء من المفترض أن يكون ممكناً. وكلُّ شيء ممكن هنا، تُحرِّض عليه الابتكاريّة الأمريكيّة والموهبة الأمريكيّة في انتهاك المقدّسات. أمريكا تؤدي دورها المتوقّع في الصفقة. الذنبُ هو ذنبنا، والفشل هو فشلنا نحن.

23 أيار / مايو.

الغداء اليوم كان لاذعاً. ذكرتْ بربارة أنها سمعتْ من إحدى جاراتها أنه توجد طفلةٌ مريضةٌ في «العدني» وهي تعاني من جوعٍ بطيء حتى الموت تعيش على طعامٍ قوامُه التفاح المبشور، والرز، وماء الشعير، ولم يُستدعَ أيّ طبيب كي يزورها. دانوتا وسيبريان يصرّان على أنه توجد حملةٌ من أجل تشويه سمعة الجالية.

24 أيار / مايو.

أقطعُ شجرةً ميتةً بجوارِ حظيرة الماشية مع ألكسندر. في أحد طرفَيْ منشار قطع متعارض، فقدت الإيقاع والتوتْ الشفرة. في أمريكا من الصعب أن تفكر أن الفشل له نبلاؤه.

25 أيار / مايو.

لا تنتظر الشمس حتى تأفل. (قرأتُ هذا المثل السائر في موضعٍ ما.) الملأُ المتعقّلون يهجرون الأشياءَ قبل أن تهجرهم. الملأُ الحكماء يعرفون كيف يحوّلون كلَّ نتيجةٍ إلى نصر.

26 أيار / مايو.

لم يكنْ من السهل أننا لم نكنْ نملك خبرةً: حتى الألمان لم تكنْ لديهم خبرة، هم الذين أقبلوا كي يعتنوا بأشجار الكرم قبل عشرين سنةً خلتْ، وكان من بينهم نَقّاش على الخشب، وصانع البيرة، ومصلّح أسلحة، ونجار، وعاملة فندق، وحدّاد، وصاحب متجر ألبسة جاهزة، وصانع قبعات، وموسيقيين، ومصلّحي ساعات. يقيناً لم تكنْ قليلة قدرتُنا على تعلّم ما كنا نحتاجه كي نجعلَ مغامرتنا ناجحةً. إلّا أنّ هدفهم الأوليّ هو أن ينجحوا كمزارعين. كنا نرغبُ بأن نكونَ فلاحين، كي تكون لدينا حياةٌ ريفية هادئة.

27 أيار / مايو.

نقاش مع دانوتا وسيبريان. الفتاة الصغيرة في «العدني» أخذتْها سلطات القرية، وكانت التُّهم الرسمية هي تعريضُ حياة طفلةٍ للخطر من قبل لورينز. كان من المفترض أن يحضرَ في محكمة القرية الاثنين المقبل. يؤكدُ لنا الاثنان، دانوتا وسيبريان، أنه سوف يُبرّأ. م. تحبُّ هذه السهرة بنحوٍ خاص. هي الآن نائمة.

28 أيار / مايو.

امتطيتُ حصاني ما يقارب خمسين ميلاً متجهاً نحو الجبال صباح هذا اليوم وعدتُ عند الغسق. لم أشعرْ بالتعب على الإطلاق.

29 أيار / مايو.

اجتماع كي نقرر ماذا نفعل. دانوتا وسيبريان يريدان أن يواصلا. يقول ياكوب إنه يرغب بالاستمرار، ومهما يحصل، يريد البقاء في أمريكا. بربارة حزينةٌ بسبب رسالةٍ تلقّتها من أُمّها ـــ أبوها مريضٌ ولا يُتوقَّع أن يعيشَ طويلاً ـــ إلّا أنّها هي وألكسندر يفكران في القيام برحلةٍ إلى الوطن هناك، بما أنّهما من الجائز ألّا يصلا إلى وارسو في الوقت المناسب. كان ألكسندر قد أكّد لي سابقاً أن الرعبَ الذي عبّر عنه في ما يتصل بتوقعاتنا لا يعني أنه نادمٌ على انضمامِه إلى مغامرتِنا، وأتمنى أن أصدّقَه. اتفقنا على أننا سوف

نستمرُّ حتى حلول تشرين الأول / أكتوبر وقطف العنب، ونرى ما إذا كان بوسعنا أن نبيع العنب بسعر جيد. تقول م. إنها قادرةٌ على أن توفّر بعضَ المال كي تُبقينا سويةً إلى أن يكون الحقل مُربِحاً من خلال العودةِ إلى التمثيل المسرحي مدةً من الزمن.

30 أيار / مايو.

درجة الحرارة 97 فهرنهايت ظهراً. يلزمني ألّا أفكّر أني أضغط على م. كي تعود إلى خشبة المسرح، أن يكون لنا عُذرٌ في التخلّي عن حياتِنا هنا، التي سوف نسمّيها «مغامرة»، فترة فاصلة. وبعدها أفكر: لكنها ترغب بالذهاب.

31 أيار / مايو.

في اعتقادي إنه شيءٌ يستحق الملاحظة أن التُّهم الموجهة ضد لورينز قد أُسقطتْ عنه. في الظاهر أن المجموعة تعهدتْ بمبلغٍ ضخم من أجل الاعتماد المالي المخصص لبناء مدرسة جديدة. شاهدتُ دوروتيو يُبدي إعجابه بقبعة قش في واجهة متجر بالقرية. أراني أن لديه 15 سنتاً ـــ ثمن القبعة «قطعتا نقد صغيرتان»، قال لي، وهو تعبير دارج (في كاليفورنيا) يعني 25 سنتاً ـــ وطلب مني أن أشتريها له. مشاعر العار.

1 حزيران / يونيو.

شاهدنا يوليان وواندا يغادران المستودع صباح اليوم. سوف يركبان متن القطار السريع العابر للقارات في سان فرانسيسكو غداً. تغادر سفينتهما نيويورك متجهةً إلى بريمرهيڤين في عشرة أيام.

2 حزيران / يونيو.

أنا منزعجٌ من الأسئلة غير المُجدية. ما الذي يُقنعنا كي نسلكَ اتجاهاً واحداً في الحياة وليس الآخر؟ كيف أَصبحَ شيئاً محتوماً أن نسافرَ إلى كاليفورنيا وليسَ إلى مكانٍ آخر؟ وجدتُ دوروتيو في المطبخ، يحاول أن يجعلَ نفسَه مفهوماً بالنسبة لأنيللا. يسألني ما إذا كنا نحتاجُ إلى عاملِ مزرعة إضافيّ. أعتمرُ القبعة.

3 حزيران / يونيو.

يوم دون عمل ومناقشات حول مستقبلنا. تلقتْ بربارة رسالةً أخرى من أمها: فارقَ أبوها الحياة.

4 حزيران / يونيو.

بربارة وألكسندر أخذاني جانباً بعد العشاء. كانا قد عقدا العزم على الرجوع إلى بولندا في وقتٍ ما خلال هذا الصيف.

5 حزيران / يونيو.

دانوتا وسيبريان أعلنا عن نيتهما البقاء في كاليفورنيا: سوف ينتقلان إلى «العدني». م. اعترضتْ على قرارهما، دون طائل. لا يوجد نقاشٌ مع الفنتازية. من الجليّ، هذه الحماقة كانت قيد العمل على مدى زمن طويل. وأن مجتمع لورينز المنافي للعقل لديه فرصةٌ في البقاء على قيد الحياة أفضل من فرصتنا. ربما لأننا لم نكنْ راديكاليين أو غريبي الأطوار بنحوٍ كافٍ. نعم، دوروتيو.

6 حزيران / يونيو.

في استعادةٍ لأحداثٍ ماضية، من السهل أن يقول المرء إننا كنا مُرغمين على أن نضعف، كنا ساذجين، وكان ينبغي لنا أن نعرفَ: المثقفون الأوروبيون الذين كانوا يحسبون أن بمستطاعَهم أن يكونوا روّاداً، وهلمّ جرّاً. قلّما كنا أول وبالتأكيد لن نكون آخر مَن يؤمن بإمكانية حياةٍ أفضل، ربما على أرضٍ أجنبية، حيث، يُقال للفرد، إن بدايةً جديدةً قد أُنجزتْ. أولئك الأشخاص العاجزون عن أيّ مثالية سوف يغدقون علينا الاحتقار. إنما لا يوجد شيءٌ مُخزٍ في المراهنة على طبيعتنا الأحسن. سيكون عالماً أفقر إن لم يشعرْ بذلك أيُّ فردٍ مثلنا مجدداً.

7 حزيران / يونيو.

ياكوب غادر اليوم متجهاً إلى نيويورك. في توديعه أهدى لي ولـ م. ثلاثة رسوم يعتقد أنها أفضل الأعمال التي أنجزها هنا. بورتريه صغير لرأسين حزينين، امرأةٌ في مقتبل العمر ورجلٌ ملتحٍ: جيسيكا وشايلوك. بورتريه بكامل القامة لـ م. جالسةً، تقرأ. منظرٌ طبيعي في لوس نيتوس: امرأةٌ

مكسيكية مع جلبةٍ من أطفال صغار على ركبتيها تعلّق أشرطةً طويلةً من لحم البقر المقدد على نوعٍ من حبل الغسيل يمتد بين شجرتَيْ يوكالبتوس. الرسوم باهرةٌ. م. مكتئبةٌ على رحيل ياكوب.

9 حزيران / يونيو.

م. منخرطةٌ مع أنّيللا في نوبةٍ ضارية من تنظيف المنزل. تقول إنها تشعر بأنها هادئة جدّاً. يلزمني أن أتحدّث إلى أوغست وبيت فيشر.

12 حزيران / يونيو.

أنا وم. وريشارد ركبنا أحصنتنا بعد ظهر اليوم متجهين إلى «مرسى أنهايم» كي نتناول السمك المفلطح المقبوض عليه توّاً في الحانة هناك ونشاهد الشمس وهي تغرب فوق سطح المحيط. مُبرئين من تمنّي شيءٍ ما من هذا الموقع الجميل، أحسسنا تقريباً بمثل ما أحسسنا حين وصلنا أولَ مرة، إحساساً مليئاً بإعجابٍ طافح بشعور بالخفة والنشاط. عشية الرحيل، تصرّفنا كما لو أنّنا قادمون جُدد أو سائحون مستقبليون. نهائيّاً جدّاً وهائلاً ولامبالياً لاحَ المحيط الهادئ، بدا كما لو أنّ المرءَ لا يستطيع أن يمضي أبعدَ من هنا، أن بوسعَ المرءِ أن يرجعَ فقط، متتبعاً خطواتِه من جديد. لكن هذا بالطبع مجردُ وهم.

13 حزيران / يونيو.

لم تكنْ م. تبغي حياةً جديدةً، كانت تبغي نفساً جديدة. كانت مجموعتنا أداةً جديدةً لذلك، والآن تعقدُ العزمَ على العودة إلى خشبة المسرح. لن تفكر هي في الرجوع إلى بولندا، هكذا تقول، إلى أن يتبدى لها ماذا بوسعها أن تفعل أمام الجمهور الأمريكي، وكانت تتحدّاني في أن أذكرَ جميعَ العقبات التي تقفُ بينها وبين النجومية في أمريكا.

15 حزيران / يونيو.

م. تستعد للذهاب إلى سان فرانسيسكو. وما إن تستقر هناك، حتى يلتحق بها پ. وأنيللا.

16 حزيران / يونيو.

آل فيشر، كانوا يعون جيداً جميع التحسينات التي أجريناها على الملكية، بما فيها المسكنان الجديدان، يقولون إنهم يرغبون بأن يشتروا من جديد الحقل بسعرِ ألفَيْ دولار أمريكي أقلّ مما دفعتُه أنا ثمناً له في شهر كانون الأول / ديسمبر. سأمكث كي أبحثَ عن عروضٍ أخرى.

17 حزيران / يونيو.

هل استوعبَ حقيقةً أيُّ واحدٍ منا تقلّبَ الاقتصاد هنا؟ أو كمْ هناك من عملٍ من أجل إدارةِ مزرعة؟ ربما كان يتعينُ علينا الذهاب إلى «بحار الجنوب».

سبعة

بدا ذلك أشبه بفرار؛ أشبه بمغادرة الوطن؛ أشبه بسرد الأكاذيب ـــــ وسوف تروي هي أكاذيبَ كثيرةً. كانت تبدأ ثانيةً؛ كانت تنضم ثانيةً إلى مصيرها، الذي أسبغ عليها الشعور القوي بأنها لن تتيه أبداً.

وصلتْ مارينا إلى المدينة في أواخر حزيران / يونيو. كانت بشرتها قد نَسِيتْ جوّ سان فرانسيسكو البحري المُنعِش، كانت قد سمحتْ للخليج الشهير ومناظر المحيط أن تغيب عن ذهنها، الضباب يسمحُ بذلك، عن أعلى الشوارع الشديدة الانحدار في قلب المدينة المُخطَّط لها بطريقةٍ لامبالية، إلّا أنّها تذكرتْ كلَّ تفصيل من تفاصيل المدخل الواسع، المزوَّد بالأعمدة، إلى المبنى الواقع في أسفل «نوب هِلّ» الذي تدرّبتْ جميعُ رغباتها عليه.

كان بوغدان قد رتّبَ الأمور لمارينا كي تمكثَ مع القبطان العجوز زنانيكي وزوجته. وهي امرأة محترمة كانت أسرتها قد قستْ عليها مؤقتاً وقلّما تريد أن تحيا بمفردها. كان آل زنانيكي قد اختيرا لأنهما كانا عطوفين وحريصين على حمايتها، ولأن القبطان كان قد تزوّج أمريكية، لذلك لن تتحدّث مارينا البولندية طوال الوقت. والأكثر من ذلك، زنانيكي، وهو مسّاح مُخضرَم وباحثٌ عن اللقب لدى «لاند أوفيس»، في الظاهر كان يعرفُ الجميع ـــــ من أعضاء «النادي البوهيمي» إلى حاكم الولاية ـــــ وكان يتطلّب الأمرُ تأثيراً متَّفقاً عليه على أعضاء صنع القرار من أجل ضمانِ تجربةِ الأداء لدى أنغوس بارتون المرعب، مدير «مسرح كاليفورنيا»، المسؤول عن الخشبة. في صباح اليوم التالي للوصول، كانت مارينا قد مشتْ نحو «بش ستريت» وتسللتْ

إلى داخل المسرح. ومثل مُجالِد[1] كان تبجحه بالشجاعة وخوفه قد أغراه حتى الصف الأخير من الملعب المُدرّج الخالي في اليوم الذي سبقَ المباراة، أعلى الرمل الممهد بنعومةٍ وغير الملطّخ بالدم لميدان الصراع، دخلتْ مارينا إحدى المقصورات كي تُلقي نظرةً على ستارةِ المخمل الحمراء وعلى سعةِ الخشبة المُعتمة بسلام. إلّا أنّ الخشبة لم تكنْ معتمةً: كان يجري عليها تمرين مسرحي. ثمة رجلٌ طويلُ القامة، محدودب الظهر، مجللٌ بالسواد قفزَ من مقعده في الصف العاشر وهرعَ نازلاً في الممرّ الكائن بين المقاعد: تساءلتْ ما إذا كان يُحتمل أن يكونَ بارتون. «لا تقلْ لي إنكَ ستكونَ [على ما يرام] هذا المساء»، كان يصيحُ على أحد الممثلين. «إن كان هنالك شيءٌ أكرهه، إنه هذا». إذا كان بوسعكَ أن تكون [على ما يرام] في أيّ وقتٍ من الأوقات، يمكنك أن تكون [على ما يرام] الآن. نعم، لا بدّ أن يكونَ هذا هو بارتون.

كانت المسألة، كما أسرّتْ في رسالةٍ بعثتها إلى هينريك، هي إنها نادراً ما كانت وحيدةً. كانت قد انتشرتْ كلمةٌ عن وصولها (إنما كيف تستطيع هي الذهاب إلى أيّ مكانٍ في العالم يوجد فيه بولنديون وتظل مستخفيةً؟) وجميع أعضاء الجالية البولندية في سان فرانسيسكو يريدون أن يدعوها كي يلتقوا بها. كان من الصعب أن تُذكي نيران الطموح المغطاة بالرماد وأن تُشعل الخوف من الفشل فيما يحتضنها الافتتان المشبوب بالعاطفة لمواطنيها المجتثين من جذورهم. وبعدها مساءً كانت البولندية هي اللغةُ الوحيدة التي يتمّ التكلّم بها، مع أنّ القبطان زنانيكي، وهو لاجئ من موجة الذبح وإحراق المباني عمداً التي حرّض عليها مترنيخ[2] (وبنحو مُرعب، نفذها الفلاحون البولنديون)،

1- مُجالد gladiator: شخص، وبخاصة عبد أو أسير، يقاتل حتى الموت، لإمتاع الناس في روما القديمة – م.

2- مترنيخ Metternich (1773 – 1859): الأمير كليمنس فينزل مترنيخ سياسي ورجل دولة نمساوي ومن أهم شخصيات القرن التاسع عشر. ينسب إليه وضع قواعد العمل السياسي التي سارت عليها القوى الكبرى في أوروبا طوال الأربعين عاماً التي أعقبت هزيمة نابليون بونابرت. شكلت مبادئ مترنيخ، والتي تبلورت خلال مفاوضات مؤتمر فيينا، مجرى الأحداث السياسية الأوروبية الأساسية – م.

التي أهلكت السوادَ الأعظم من الأرستقراطيين الليبراليين، المؤمنين بالعصيان المسلّح وأنتلجنسيا الجزء النمساوي من بولندا قبل ثلاثين عاماً خلتْ، كان مستغرقاً في سياسةِ البلد الذي تبنّاه مثلما كان مستغرقاً في الكوارث التي نزلتْ على وطنه الأم فوراً. كان يسمي نفسه اشتراكيّاً ـــ في حين كان يخبر مارينا أنه كان يشك في أن يكونَ للاشتراكية مستقبلٌ ضئيل هنا في أمريكا، حيث بدا إعجاب الفقراء بالأغنياء لا يمكن الهجوم عليه بعد الآن أكثر من الإخلاص الذي كانوا يستمتعون به للملوك والقساوسة في أوروبا ـــ وكان قد تولّى بنفسه مسؤولية أن يشرحَ لها الفرق بين الحزبين الأمريكيين، إنما في النهاية فهمتْ مارينا أكثر قليلاً بأن الجمهوريين كانوا يريدون حكومةً مركزيةً قوية. أما الديمقراطيون فكانوا يريدون اتحاداً فيدراليّاً رخواً للولايات. كانت قد اعتقدتْ أن قضايا هذين الحزبين لا بدّ أنه كان من السهل فهمها في أوقات الحرب أو قبلها، قبل حسم قضية العبودية، لمّا لم يفشلْ أيُّ فردٍ ذي تفكير سليم في أن يكون جمهوريّاً؛ لم تكنْ واضحةً بالنسبة لها القضية التي كان الأمريكيون يتخاصمون بشأنها الآن. ذاتَ مساء دعاها زنانيكي كي تسمع «اللاأدري الكبير»، رالف أنغرسول[1]، الذي كان يجتذب حشوداً ضخمةً في سان فرانسيسكو بمواعظه الملحِدة، كانت مارينا قد تأثرتْ باستجابة الجمهور.

كانت قد اعترضتْ تراكمات الاستحسان الذي يشجع الممثل، أيَّ ممثل، مهما كانت عواقبُ فنِّها الذي يتعين على مارينا أن تنجزه الآن. أنا أعبدُ الطيش والتهوّر، كتبتْ إلى هينريك، وتساءلتْ ما إذا كانت تقول الحقيقة.

غادرتْ آل زنانيكي، عزلتْ نفسها عن مواطنيها المتملقين في حجراتٍ مؤثَثة على بعد نصف منطقة سكنية. من خلال رهن جواهرها كلها، لا واحدة منها تساوي دولارات كثيرة، كان لديها ما يكفيها كي تستمر بالعيش، باقتصادٍ شديد في النفقات، على مدى شهرين. كانت بحاجة إلى العزلة كي

1- رالف أنغرسول Ralph Ingersoll (1900 – 1985): كاتب ومحرر وناشر أمريكي. اشتهر كثيراً بوصفه مؤسس وناشر جريدة «نيويورك سيتي ليفت وينغ»، اليسارية خلال أربعينيات القرن العشرين، التي لم تدمْ طويلاً، وقد رفضتْ قبول الإعلانات – م.

تُعيد تأسيس مواهبها، وتقنيتها، واستياءاتها، وميلها للوقاحة الذي جعل منها الممثلة المسرحية كما هي عليه الآن. إن فن المشي، مشيتها العمودية وثقة الخطوة، تحتاجان إلى إعادة صقل. إن فن التفكير في نفسِها فقط، ضروريٌّ للإبداع الحقيقي ــــ وأنها تستطيعُ فقط أن تعودَ إلى وضعِها السّويّ بمفردها.

الآن ليس هنالك سوى نفسها هي وهذه المدينة، ونفسها هي وطموحها، ونفسها هي وإنكليزيتها، هذه الأستاذة القاسية الذي ستمتثلُ لها وتنحني لمشيئتها.

«مشيئة»، قالت الآنسة كولينغرج. «وليس مشاءة».[1]

وجدت الآنسة كولينغرج من خلال عبور أرضية الخشب المائلة لغرفة الاستقبال خاصتها والنظر إلى خارج النافذة المقوّسة، تضم مجلّداً من مجلّدات شكسبير بقوةٍ إلى صدرِها. محدّقةً بطريقةٍ حالمة في الشارع فيما هي تتلو لنفسها سطوراً من «*أنتوني وكليوباترا*»، أصبحتْ واعيةً بأن امرأةً قصيرةً مكتنزة الجسم ذات شعر بلون الذرة تعلوه قبعة قش ترنو ببصرها ناظرةً إليها. بصورةٍ لاإرادية، ابتسمتْ مارينا. ربّتت المرأة بيدها على فمِها، ومن ثم أبعدتها عنه ببطء؛ ابتسمتْ، تلعثمتْ لحظةً؛ رمتْ نفسها على العجلة الخشبية (دوّم رداؤها الخارجي العديم الكمين)؛ وانطلقتْ ماشيةً.

التقتا ثانيةً بعد أيام قلائل، حين سمحتْ مارينا لنفسها أن تخرج بعد الظهر بغية التنزه مشياً على الأقدام في «الحي الصيني» ــــ كانت الشقة لا تبعد سوى بلوكات قليلة عن «شارع دپنوت» ــــ بعد ثماني ساعات من الدراسة والتكلّم بطريقة خطابية. كانت قد انعطفتْ إلى زقاقٍ تُعلّق فيه فوانيس، منجذبةً إلى الصخب غير المباشر لموسيقى وأصواتٍ تصرخُ بقوة على الشرفات ذات المظاهر الخادعة لمحلات شرب الشاي؛ عبر الأبواب المفتوحة للمتاجر المزيّنة بأعلامٍ مثلثة الشكل أشارتْ إلى اضطرابٍ مشرق في الأشياء العاجية

1- في النص الإنكليزي الأصل، استخدمت الكاتبة كلمتيْ «will» التي تعني «مشيئة»، وكلمة «weel»، وهي خطأ؛ لأن مارينا لا تُحسِن الإنكليزية، وآثرنا أن نحذو حذو الكاتبة في ترجمتنا – م.

المنحوتة، وصواني الورنيش الحُمر، وقناني العطر المصنوعة من العقيق، وطاولات خشب الساج المطعّمة بعرق اللؤلؤ، وصناديق من خشب الصندل، ومظلات من الورق المشمّع، ورسوم لقمم جبال. يمشين الهوينى بجانبِها وسط الحمالين بمشيهِم السريع وثيابهم القطنية الزرق الطويلة المشدودة عند الخصر. كان هناك عدد من النبلاء بسترات مطرزة أرجوانية شاحبة وسراويل حرير منتفخة، ضفائرهم الطويلة مجدولةٌ بخيوط حرير حمر كالكرز، ويأتون ببطء شديد وراءها ـــ مارينا خطتْ جانباً كي تُبدي إعجابها بهم ـــ امرأتان برأسين جميلين أملسين وأساورَ يشب تتهدّل على أيديهما، كلٌّ واحدةٍ منهما تستند على خادمة مرافقة؛ سقطتْ نظرتها المحدّقة بنحوٍ عرضي إلى أسفل حاشية ثوبيهما المترَفين وإلى الجدعات بارتفاع ثلاثة إنجات المزوَّدة بنعلٍ من الحرير المُطرَّز بالذهب، وقبل أن تتمكّن من أن تذكّر نفسها بأنها قرأتْ مرةً عن شعائر الأسر الصينية الناجحة في كسر عظام أقدام بناتها الصغيرات والاحتفاظ بأصابع الأقدام مشدودة إلى الوراء بالكعوب إلى أن تصبح الفتيات مكتملات النموّ، معدتها انتفختْ وامتلأ فمها ببلغم لاذع. كانت الصدمة قد مضتْ مباشرةً إلى أحشائها.

«هل أنتِ مريضة؟ هل أستدعي طبيباً؟». شخصٌ ما كان بجوارها فيما هي تكبح غيبوبةً. كانت تلك هي المرأة الشابة التي رأتها من نافذتها قبل بضعة أيام.

«أوه، هذه أنتِ ثانيةً»، قالت مارينا بضعف. فيما هي تكافح في احتواء نوبةٍ أخرى من الغثيان، ابتسمتْ كي ترى التأثير المُكهرِب الذي أحدثتْه هذه التحية على منقذتِها، التي اندفعتْ كالسّهم إلى داخل متجر وظهرتْ ومعها مروحةٌ من الريش الأبيض، التي لوّحتْ بها بنشاطٍ على وجه مارينا.

«لستُ مريضةً»، قالت مارينا. «المسألة فقط أني رأيتُ سيدتين صينيتين ـــ امرأتين بـــــ».

«أوه، المرأتان بالأقدام الصغيرة. أنا أيضاً جعلتا معدتي تنقلب، لمّا رأيتهما أولَ مرة».

«هذا لطفٌ منكِ ـــ لطفٌ كبير»، قالت مارينا. «لقد استعدتُ وضعي السّويّ الآن».

في الوقت الذي سارتْ فيه المرأة الشابة إلى منزلها، كلُّ واحدة منهما عرفتْ كلَّ ما كانت تحتاجُ إلى معرفتِه عن الأخرى كي تشعرا بأن القدرَ شاءَ أن تصبحا صديقتين. لماذا تعين عليَّ أن أنظر من الشباك في تلك اللحظة بالضبط، كتبتْ إلى هينريك. ولماذا ابتسمتُ لها؟ ثمة شيءٌ ما فيه قليلٌ من الرومانسية. وأنا حتى الآن لم أسمعْ صوتها الرنان «الكونترالتو» الناعم أو نطقها الرائع! حسناً، هي ذي، صديقةٌ عزيزة. أول *حُب من أول نظرة*[1] خَبرته بعد مضيّ سنةٍ كاملة في أمريكا هو حبي لفتاةٍ نزّاعةٍ إلى السيطرة، صخّابة نوعاً ما، تعتمر قبعات سخيفة وثياباً خارجية بشعةً من قماش الصرج وتقول لي إنها تحتفظ، باعتباره حيواناً منزليّاً أليفاً، بخنزير شاب كامل النموّ. لكنكَ تعرف أصلاً كيف يمكن إغوائي بواسطة صوت مَعسول.

صديقة مارينا الجديدة كانت قد امتدحتْ تمكّنها من المفردات والقواعد الإنكليزية، وغامرتْ بالقول إن هذا الحُكم نزيه، مهني. الآنسة كولينغرج ـــ ميلدريد، قالت بحياء، ميلدريد كولينغرج ـــ هي معلمة كلام. كانت تُعطي دروساً في طريقة الإلقاء للزوجات الثريات في القصور الجديدة في «نوب هِل».

أخبرتها مارينا أنها أعطتْ نفسها شهرين، لا أكثر، كي تستعد لتجربة الأداء[2]. سوف تُري مستر بارتون ماذا يمكنُها أن تفعل.

«مستر»، قالت الآنسة كولينغرج. «وليس ميستر».

غاطسةً في خدمة مارينا مقابل أجرٍ زهيدٍ ممنوحٍ مع الشكر (لم يكنْ بمستطاع مارينا أن تُعطي قرشاً أكثر)، كانت تأتي صباح كل يوم في الساعة الثامنة إلى مقرّ إقامة مارينا كي تعمل معها على الأدوار المسرحية التي كانت

1- حُبّ من أول نظرة: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل coup de foudre – م.
2- تجربة الأداء audition: تجربة يخضعُ لها المغني أو الممثل لتقدير مدى براعته في الأداء – م.

تتعلمها من جديد بالإنكليزية. جالستين جنباً إلى جنب إلى مائدة مطوية[1] بالقرب من شباك غرفة الاستقبال، مضتا إلى كلماتِ الدور المسرحيّ كلمةً بكلمة في كلّ مرة، وحين كُررتْ حروف اللين ونُحتت الحروف الساكنة وصُقلتْ فقرةٌ كاملةٌ بحسب قناعة الاثنتين، علّمتْ مارينا مخطوط المسرحية من أجل التوقفات القصيرة، والنبرات، وعلامات التنفس، ومعونات التلفّظ. وبعدها تنهض وتذرع المكان جيئةً وذهاباً وتتكلّم بطريقةٍ خطابية، والآنسة كولينغرج ما تزال جالسةً إلى المائدة وتقرأ (في أكثر النبرات فتوراً، فيما كانت مارينا تعطيها التعليمات) الأدوار المسرحية الأخرى. لم تكنْ معلمتها الخصوصية التي أنهتْ أيامهما الطويلة معاً: وجدتْ مارينا شريكةً في العمل لا تعرف الكللَ مثلها تماماً. إنما في بعض الأحيان، بإلحاحٍ من مارينا، كانتا تأخذان قسطاً من الراحة وتذهبان في نزهةٍ مشياً على الأقدام. لم تكنْ مارينا تعرف، فيما كانت تسمح لنفسها بأن تهدئها الأعمال الريفية المتزمتة، كم اشتاقتْ إلى عنفوان حياة المدينة وعطرها.

«المدينة»، قالت الآنسة كولينغرج. «وليس *المديــــنة*».[2]

كان القبطان زنانيكي يأتي عادةً في أوّل المساء كي يجلب أطباقاً كبيرةً مغطاة من صحون بولندية جيدة علّم زوجته أن تطهوها وكي يرى كيف تفلحُ مارينا في تدبّر أمرها، وحين حكتْ له عن الآنسة كولينغرج، قال لها: «سيدتي العزيزة مارينا، أنتِ لا تحتاجين إلى أيّ أستاذ جامعي. تلفظي الكلمات كما هي مكتوبة، كما تتلفظينها بالبولندية ــــ هذا أكثر من جيد بدرجةٍ كافية، أنتِ فقط تُفسدين شكلَ فمكِ أو تجعلين صوتكِ أخشن فيما أنتِ تحاولين أن تصنعي أصواتاً مستحيلةً أو خشنة. وقبل كل شيء، لا تحاولي أن تتلفظي الـ*t – h*، كما يفعلون، لأنكَ لن تستطيعي فعل ذلك. إن حرفي الـ*t* أو الـ*h* الواضحين ألطف على الأذن من لثغهما بالـ*th* ــــ وفضلاً عن ذلك، أؤكدُ

1- المائدة المطوية gate – leg table: مائدة ذات جانبين مُسدَلين يُرفعان عند الحاجة بتثبيتهما على قائمتين متحركتين – م.

2- في النص الإنكليزي الأصل: .«City», said Miss Collingridge. «Not ci – ty» – م.

لكِ، الأمريكيون مسحورون باللكنات الأجنبية. كلما كان انطباعهم عن لكنتكِ سيئاً، سيحبونكِ أكثر.

قال إنها لن تستطيع قط أن تتلفظ الإنكليزية بشكل صحيح. ماذا لو كان على حق؟ ستكون نوعاً من فلتة، وسوف يصفقون لها لأنها كانت مُضحكةً بدلاً من أن تكون مدهشةً. كيف يتسنى لها إذن أن تمثل شيئاً مثالياً بوصفها فنانة؟ إلّا أنّها لا تفعل ما نصحها به.

تدرّبتْ مراراً وتكراراً على الـ*th* الجهنمية ـــ هي لا تستطيع أن تضع لسانها كي يشكّل الصوت دون أن يُوقف أولاً تدفق شبه جملة. أغلب الظن يحتاج المرء إلى طقمَيْ أسنان صناعيين أمريكيين، مزحتْ مع الآنسة كولينغرج. كانت قد رأتْ لافتةً كبيرةً في ملتقى شارعَيْ «سوتر وستوكتون»: أسنان بليك غير القابلة للتلف.

«Teeth»، قالت الآنسة كولينغرج. «وليس *teece*».

كلُّ كلمةٍ كانت أشبه بعلبةٍ صغيرةٍ، غريبة الشكل في فمها. theatre, thespian, therefore, throughout, thorough, Thursday, think, thought, thorny, threadbare, thicket, throb, throng, throw, thrash, thrive... that, that, that, this, this, this.[1] هي ذي الكلمات.

بالإضافة إلى الآنسة كولينغرج الشخصُ الوحيد الذي رأته مارينا بغبطةٍ في الأسابيع الأولى في سان فرانسيسكو كان ريشارد. إنما في النهاية تعيّن عليها أن تصرفَه.

1- يُرجى ملاحظة أن هذه الكلمات الإنكليزية تبدأ بحرف (ث) العربي، والحرفين th الإنكليزيين، وتسلسلها من اليمين إلى اليسار بحسب ما وردتْ في النص الروائي؛ ومعانيها كما يلي: theatre: مسرح؛ thespian: ممثل مسرحي ؛ therefore: لذلك؛ throughout: طوال؛ thorough: شامل؛ Thursday: الخميس، think: يعتقد أو يفكر؛ thought: اعتقد أو ظنَّ؛ thorny: شائك ؛ threadbare: رث الملابس؛ thicket: أجمة أو دغل؛ throb: ينبض أو يخفق؛ throng: حشدٌ من الناس؛ throw: يرمي؛ thrash: يجلد أو جلد؛ thrive: ينمو أو يزدهر... that: ذلك؛ that: ذلك؛ that: ذلك؛ this: هذا؛ this: هذا؛ this: هذا. –م.

غادرَ ريشارد أنهايم قبل أن تمضي هي شمالاً. كان ينتظرها حين وصلتْ. في الرابع من تموز / يوليو، أنصتا إلى خطبةٍ مُلتهبةٍ وموسيقى وشاهدا الاستعراض والألعاب النارية ورجال الإطفاء ينطلقون مُسرعين في سياراتهم الحُمر كي يُطفئوا حرائقَ كثيرة. وفي يومٍ آخر استأجرا مركبةً ستنهوبية[1] للقيام برحلةٍ خلال الأصيل على طول ساحل المحيط. شعرتْ بأنها منجذبةٌ إليه. أمسك كلٌّ منهما بيدِ الآخر. كانت أيديهما نديةً. شعرتْ بالسعادة، ويقيناً كان ذلك جزءاً من الوقوع في الحب. لم تعدْ رئيسةَ قبيلة، بنحوٍ مؤقت لا هي زوجةٌ ولا أمّ ـــــ ليستْ مسؤولةً عن الآخرين؛ حرّةٌ في التمثيل حصراً لنفسها. (هل سبق لها أن فعلتْ ذلك؟) إنما لأنها ضيّعتْ زوجَها وابنَها معاً على مدى ردحٍ من الزمن، هل تريدُ هي أن تأخذَ على عاتقِها واجبات عاشقة؟

كلّ ما كانت تريدُ أن تفكر فيه هو ما يتعلّق بالأدوار المسرحية التي تحضّر لها.

اقترحَ ريشارد أن يذهبا إلى المسرح. «ليس بعد»، ردّتْ عليه. «لا أريد أن أتأثر بأيّ شيء أراه هنا وأفكر، [أوه، هذا هو ما يفعله الممثل الأمريكي] أو [هذا ما يصفقُ الجمهور له]. كي أجدَ الشيءَ الأعمقَ في موهبتي أنا يلزمني أن أبحثَ عن كلِّ شيء في داخلي.

كان ريشارد مفتوناً برؤيتها وهي تطرحُ جلدَها وتعودُ إلى الفنانة المَهيبة. «لم يخطرْ ببالي قط»، قال بتواضع، مبدياً إعجابه، «أن أتصوّر ما يجب عليَّ القيام به دون الإلهام الذي من المفترض أن أجده في كتب المؤلفين الآخرين».

«أوه، عزيزي ريشارد، لا تطبّق ما أقوله على نفسكَ»، قالت بمهابة، برقة. «عليَّ أن أركّز. إنها الطريقة الوحيدة التي أعرفُ بها كيف أكون».

«إنها عبقريتكِ»، قال لها.

«أو عقَبتي»، قالت باسمةً. «سأقرّ بأني أشتاقُ للذهابِ إلى المسرح».

في مساء اليوم التالي أخذ ريشارد مقصورةً في «مسرح الصين» الواقع في

1- مركبة ستنهوبية stanhope: مركبة خفيفة مكشوفة وحيدة المقعد ذات عجلتين أو أربع – م.

«شارع جاكسون»، وهو مبنى بطابقين وبلون كليل سقفه مكسوّ بالآجر مرفوع للأعلى في الزوايا. بعد الرنين الأول للأجراس القرصية والصنوج من أعضاء الأوركسترا الذين يرتدون القمصان دون جاكتات في مؤخرة خشبة المسرح، على وفق واحد، اثنان، ثلاثة، وفي الختام نحو عشرين ممثلاً وممثلة مُثقلين بنحوٍ بارع بالمسؤوليات اندفعوا إلى المَشهد عبر خفقةِ قماش في جهة اليسار وبدؤوا يصيحون بأصواتٍ عالية الطبقة، كل منهم على الآخر، جرّتْ مارينا جاكتة ريشارد مثلما يفعل الطفل. وبعدها حدث شيءٌ ما، ميلان معين في ما يتعلق بقصةٍ ما، لأنه على حين غرة اندفع ستة ممثلين اندفعوا خارجين عبر الفتحة، لابسين ثياباً مجعدةً متشابهة، الواقعة في جهة اليمين.

«أداء رائع، أليس كذلك؟». قال ريشارد. «ما من مداخل ومخارج يمكن تحديدها ــــ الممثلون يأتون مهرولين دوماً من جهة اليسار ويغادرون بالسرعة نفسها من جهة اليمين. ما من شخصيةٍ يمكن تأسيسها من موارد الفرد الداخلية ــــ *ذلك* الفرد هو رجلٌ ذو بسالة لأنه صبغَ قناعاً أبيض على وجهه و*ذلك* الفرد رجلٌ فظّ لأنه صبغَ وجهَه باللون الأحمر. ما من إخفاء لميكانيكية المَشهد ــــ حين تكون الخاصية ضروريةً، يجلبها شخصٌ ما إلى خشبة المسرح ويسلّمها إلى الممثل؛ حين تكونُ ثمةَ حاجةٌ إلى تعديلِ ثوبٍ معين، يقف الممثل بعيداً قليلاً عن الآخرين ويصل الملبِّس كي يرتّبَ الثوبَ. لا ــــ لماذا أتكلّمُ دون كلفةٍ هكذا، ريشارد لامَ نفسه، حين يكون بمستطاعها رؤية كلّ شيءٍ أراه أنا، وأكثر؟».

لدى رؤية البراميل الدوّارة والأسود الكرتونية والتنانين صفقتْ مارينا بيديها ببهجة. «يمكنني أن أجلس هنا الليل كلّه!». هتفتْ، قائلةً بمبالغة. «أودّ أن يستمر هذا إلى الأبد. آه»، خاطب ريشارد نفسه، «لا يزال الأمر على ما يرام».

في صباح اليوم التالي كانت الآنسة كولينغرج تأخذ خنزيرها، المصاب بوجعٍ في بطنه، إلى طبيب بيطري؛ قالت لمارينا إنها ربما لن تصل في الوقت المحدد لعملهما حتى وقتٍ متأخر من الأصيل. وفيما هي تتمسك

بالوقت بعد أن حرَّرتها هذه البلية كي تقترح، بصورةٍ استثنائية، نزهةً نهاريةً، جاء ريشارد كي يأخذ مارينا في رحلةٍ على متن معدّية حول الخليج مع توقفٍ قصير في «متنزه غولدن غيت». كانت ما تزالُ تفكر، أخبرته، بالبراعة البهية لحفلة الليلة الفائتة.

«يوجد مسرحٌ صينيّ آخر هنا أتمنى أن يكون باستطاعتي أن أُريكِ إياه»، قال ريشارد. «إلّا أنّه لا يوجد فيه سوى حفرة مزوّدة بالمصاطب وأمكنة للوقوف، لا توجد فيه مقصورات للسيدات، وفي الليلة، التي ذهبتُ فيها إليه كان مكتظّاً والازدحام والحرارة كانا لا يُطاقان، الجمهور معدودون، بالإضافة إلى الرجال الصينيين، عددٌ قليلٌ من المغفلين بكل معنى الكلمة وكما يمكنني أن أُثبت، نشالين. إن شغف التجربة (لا، فقدتُ دولارين فقط ومنديلي) هي أنهم لا يصنعون أوبرا ولا سيرك. خشبة المسرح أصغر بكثير من تلك التي شاهدناها البارحة، لذلك كنتُ مستعدّاً لأن أشاهد أبهةً فارغةً أبسط. أنتِ تعرفين، واحدة من تلك المسرحيات التي تبزغ فيها الشمس، ويعقبها تنين، يسعى التنين إلى ابتلاع الشمس، الشمس تقاوم، التنين يلوذ بالفرار، وبعدها تؤدي الشمس رقصة النصر، هذه الرقصة يمتدحها الجمهور بنحوٍ جذل. لا أبداً! *بعيداً عن ذلك!*[1] يا لعجبي، كلُّ شيء منسجمٌ مع الواقع».

«أتمنى أن أعرف ماذا تعني، عزيزي ريشارد، بالواقع».

«قبل كلِّ شيء»، قال ريشارد، «حبكةُ المسرحية التي شاهدتُها. بالطبع أنا لم أفهمْ كلمةً واحدة مما قيل، إلّا أنّ القصة بدتْ جليةً. إنها تتعلّق بكاتب وقع في علاقة حبٍّ ميئوس منها، حسناً ربما ليس ميئوساً منها بكل معنى الكلمة، مع سيدة جميلة أغنى منه بكثير».

«ومتزوجة، بلا ريب».

«لحسن الحظ، لا. لا، كانت السيدة حرّةً تماماً، باستثناء عائق اختلافهما في الثروة، كي تبادلَ الكاتب حُبَّه».

1- بعيداً عن ذلك!: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل! Loin de cela – م.

«ريشارد» ـــ ضحكتْ مارينا ـــ «إنك تختلق هذا الأمر».

«لا، أُقسم أنا لا أختلق».

«وهل أسلمتْ نفسها للكاتب المُفلِس؟».

«آه، هذا ما جعلَ المسرحية التي شاهدتُها في تلك الليلة شديدة الشبه بالحياة. كان الممثلون والممثلات يذرعون المكان ذهاباً وإياباً، يتناقشون مع بعضهم بعضاً وحتى إن بعضهم يقفزون إلى الأعلى والأسفل، إنما في النهاية لم يكنْ هنالك زواج ولا جنازة. من الجلي، بالنسبة للعقل الصيني العقلاني، شيءٌ غير منطقي أن تتكشف القصة على مدى أشهر عديدة ـــ وحتى أعوام عدة ـــ عن حيوات أبطالها كي تُصوَّر في مساء واحد. لا، المسرحية يجب أن تستمر شهوراً أو أعواماً كثيرة كالقصة التي ترويها. كلُّ مَن يرغب بأن يتابعها، دعيه يأتي ثانيةً».

«وكيف يمكنكَ ـــ أنا أطرح سؤالي على الكاتب ـــ كيف تعتقد أن المسرحية تنتهي، حين تنتهي فعلاً؟».

«أعتقد أنه، بما أنّه في الصين الأحداث التي تجري بحسب فهمنا بعيدة الاحتمال بنحوٍ متزايد، السيدة سوف تهبُ حبَّها للكاتب المُفلِس».

«هل تعتقد ذلك فعلاً؟».

«على كل حال»، استطرد قائلاً: «قوانين الترقّب المسرحي تتطلّب أن يستغرقَ الغزلُ زمناً طويلاً جدّاً».

«أأنتَ متأكدٌ من ذلك؟ لعلكَ متشائم».

«مرَّ شهرٌ منذ أن شاهدتُ حادثتي العَرَضية. أنا أفترض أن الكاتب المُتيَّم لم يفلحْ بعد في نيل يد الحسناء [زهرة الشاي] ـــ».

«ريشارد ـــ».

«إلّا أنّه ربما نال قريبات عديدات مؤثرات وعدن بأن يلتمسن يده للزواج». ابتسم بكآبة. «أترين كم أنا صبور».

«ريشارد أريدكَ أن تذهب إلى مكانٍ آخر فيما أنا أستعد لتجربة الأداء».

«أنتِ تصرفينني»، قال متذمراً.

«أنا أصرفكَ».

«كم طول المدة؟ هل المسألة على غرار المسرحية الصينية؟ أسابيع؟ أشهر؟».

«إلى أن أستدعيكَ. إذا كنتُ ناجحةً سأرحّبُ بعودتكَ».

«وبعدها ماذا يحصل؟».

«آه، إنكَ تريد معرفة النهاية»، صاحتْ. «لا يمكنكَ أن تكون شخصيةً في المسرحية ومؤلفها. لا، يتعيّن عليكَ أن تنتظر بترقب. مثلما أفعل أنا».

«أيّ ترقب؟ كيف يمكنكِ أن تخذلي؟».

«يمكنني أن أخذلَ»، قالت بوقار.

«إذا خذلكِ بارتون، هو أبله ولا يستحق العيش. سأعودُ وأقتله».

كررتْ هذا على مسمعِ الآنسة كولينغرج، متوقّعةً أن تجعلَ الشابة تضحك.

«Idiot»، قالت الآنسة كولينغرج، «وليس *eediot*. و kill وليس *keel*».[1]

«الآنسة كولينغرج تتنبأ»، قالت لريشارد، «إنه قدري أن أكون محبوبةً من لدن الجنس الناعم». وفيما هي تتجاهلُ بسمةَ ريشارد العريضة، استطردتْ مارينا قائلةً: «وعليكَ أن تشعرَ بالسعادة فيما يتصل بهذا. حتى الآن، ينبغي لي أن أخبركَ، لم يتفحصني رجلٌ أبيض، لم يعبّر أحد عن إطرائه لي. لكن بما أنّه، إذا ما صدّقَ المرءُ القولَ السائر هنا، [مشيئةُ المرأة هي مشيئة الله]، أنا راضية».

بعد انقضاء بضعة أيام غادرَ ريشارد المدينة، واختار البقاء بعيداً عن مارينا صحبة مهاجرَيْن بولنديين مُسنين، كانا محاربَيْن قديميْن في انتفاضة العام 1830 ضد روسيا، أقاما في سيباستوپول، وهي قرية تبعد نحو أربعين ميلاً شمال سان فرانسيسكو. المكان هنا مثالي للكتابة، قال لها في رسالته

1- كلمة idiot تعني: أبله؛ كلمة kill تعني: يقتل - م.

الأولى، لأنه ليس لديَّ شيءٌ آخر أقومُ به هنا على الإطلاق؛ الجنديان القديمان لا يدعاني أنشغل بالأعمال المنزلية الروتينية. أنا أكتب أشياء كثيرةً، أخبرها في رسالته التالية، من بينها مسرحيةً لكِ، كنتُ، بما أنّكِ لا تحتاجين إلى أن تذكّريني، وعدتُكِ بها يوماً، أوه يبدو أن هذا حَدثَ منذ أمدٍ طويل، غير أني لم أحاولْ كتابتها قط. في بعض الصباحات، أعيدُ قراءتها وأنا جالسٌ إلى طاولتي، أحسبُ أنها مسرحية رائعة بكلّ معنى الكلمة. أتعتقدين كذلك، أنتِ أيضاً؟ مارينا، عزيزتي مارينا، «زهرة قلبي» الجميلة، أنا أعوّل كثيراً على تغطيتكِ فقر مسرحيتي بمعطفكِ الملكيّ.

كتبتْ له، طالبةً نصيحتَه حول ماذا يتعينُ عليها أن تقترحَ على بارتون لافتتاح مسيرتها. كان يتعين عليها بالأحرى أن تقترح تمثيل إحدى بطلات شكسبير (جولييت أو أوفيليا) لكنها حسبتْ أنه شيءٌ أكثر حكمةً أن تبدأ بمسرحيةٍ لغتها الأصلية ليست الإنكليزية: ستكون لكنتها مزعجة بدرجةٍ أقل. مسرحية «*كاميليا*»، ربما. والأفضل منها «*أدريانا لوكوڤرييه*»؛ أن تؤدي دور ممثلة، هو أسوأ ما يمكن أن تظهر فيه... ممثلة مسرحية. كانت المسرحية رائجةً على المسارح الأمريكية وأثيرةً لدى النجوم الأوروبيين الزائرين، بدءاً براشيل نفسها، التي افتتحتْ جولتها الأمريكية الوحيدة بها في نيويورك قبل عشرين عاماً مضى.

«*كاميليا*»، كتب لها ريشارد. إنها مسرحية أفضل بكثير. إن سمحتِ لي، لطالما اعتقدتُ «*أدريانا لوكوڤرييه*» هي بالأحرى جيّاشة العاطفة وحادّة. عليكِ أن تعرفي ذلك، مارينا، مهما كان مبلغ استمتاعكِ بالدور. سأعترف لكِ أن النهاية تتركني جاف العينين تماماً إلّا إذا مثلتِ أنتِ الدور. وهذا يرجع إلى، إلخ، إلخ.

طلبتْ رأي بوغدان، كذلك. *أدريانا لوكوڤرييه*، أجاب بوغدان. بالتأكيد *أدريانا*. كانت رسائله من أنهايم مقتضبةً على الدوام. كانت تحتوي أخباراً مطمئِنةً عن پيتر، وأخباراً مُشجِّعةً عن مساعٍ من أجلِ بيع المزرعة، لكنها لا تحتوي إلّا على نزرٍ يسيرٍ عن مزاج بوغدان. كانت ممتنةً لأنه لم يجعلها تشعرُ بالقلق بشأن تركه مع الغلام. سوف تبعثُ في طلب پيتر وأنيللا عمّا قريب ــــ

حالما تنتهي من تجربة الأداء. ينبغي لها أن تكرّسَ كلَّ وقتِها للتحضير. تحتاج لأن تكون ذات هدفٍ واحد يستقطب قواها كلَّها. تريد أن تجرّبَ بنفسِها وبمفردها بشكل تام. خطرَ ببالِها أنها ربما لن تكونَ وحيدةً ثانيةً.

«الآن، أنتِ تذكرين العبقرية»، قال أنغوس بارتون، مع أنّ مارينا لم تذكرها. «والعبقرية تنطقُ بالألسن كلِّها، أنا لا أقول إن هذا غير صحيح. وأنا لا أقول إني لا أصدّق أنكِ لم تكوني نوعاً معيناً من نجمة في بلدكِ، كلُّ مواطنيكِ هنا في سان فرانسيسكو ممَّن كانوا يكتبون إليَّ الرسائل ويأتون إلى المسرح ويتوسّلون إليَّ أن أراكِ ويتركون لديَّ مقالاتٍ عنكِ، وهي بالطبع لا أتمكّن من قراءتها، لم يكنْ بمستطاعهم أن يختلقوها كلَّها، هل يستطيعون، إنما هذه هي أمريكا، وأنتِ تقولين إنكِ تريدين أن تمثّلي بالإنكليزية مع أنّه شيءٌ غير منطقي بالنسبة لممثلةٍ أجنبيّة أن تأتي إلى هنا ولا تمثّل بلغتها، بما أنّ جمهورنا تعوّد على ذلك، وأعتقد أنهم يفهمون فعلاً بما أنّهم يعرفون القصة، مع أنّي أتمسك بالرأي العتيق الطراز الذي مفاده أنه فيما يتصل بالمسرحية، أيّ مسرحية، الجمهور يجب أن يفهم الكلمات. وأنا لا أقول إن الجمهور في أمريكا لم يفتحْ ذراعيه للممثلين الأجانب، إلّا أنّهم يأتون من بلدانٍ يحبُّ الأمريكيون صوتَها، من مثل فرنسا وإيطاليا، وأخشى أن بلدكِ ليس واحداً من تلك البلدان، وهم يأتون إلى هنا في جولة، وكلُّ شيءٍ مُعدٌّ بشكلٍ لطيف، والجميع متلهفون لرؤيتهم، وبعدها يؤوبون إلى ديارهم. وأنا لا أقول إني لن أعطيكِ تجربة أداء، لمجرد أن أجعل أصدقائكِ وصديقاتكِ يكفون عن مضايقتي بشكلٍ مستمر، أنا أرغب بأن أفعلَ هذا، إنما يجب عليكِ أن توافقي أني قادرٌ على أن أكون صادقاً معكِ، سوف أنتقدُكِ بصراحة، أنا أقولُ ذلكَ دون غموض أو موارَبة».

«أجل»، قالت مارينا.

«وأنا لا أقول إني أعتقد أنها مضيعةٌ تامةٌ لوقتي أن أهبكِ ساعةً صباح الأربعاء، أنا آسف لأني لا أستطيع أن أقضي زمناً أكثر معكِ الآن، لديّ موعدٌ في غضون دقائق قلائل، إلّا أنّي لا أريدكِ أن تثقي كثيراً جدّاً بنجاحكِ، أنتِ

تبدين امرأةً لطيفةً، مَهيبةً جدّاً، عَقلكِ مُصمِّمٌ بكلّ معنى الكلمة، أنا أُحبُّ ذلك، أنا أُحبُّ المرأة ذات الشرارة، المرأة التي تعرفُ كيف تناصرُ نفسَها، إنما يجبُ عليكِ أن تعملي بهمّةٍ ونشاط في هذا البلد أيضاً، فالجميع يفعلون هذا. وأنا لا أقول إنكِ لم تسمعي بهذا قبلاً، لكن المسرحَ يجب أن يكون مهنةً جيدة، الناس هنا لا يتقبّلون كثيراً الآراء الطنانة عن المسرح كما اعتادوا أن يفعلوا في أوروبا. وأنا لا أقول إنكِ لا تعرفين هذا، إلّا أنّ ما أراه أمامي هو سيدة، وربما هناك في بلدكِ امرأةٌ مهذبةٌ مثلكِ سوف تتركُ انطباعاً رائعاً، يمكنكِ أن تؤثري في الجمهور بهذه الصفة هنا أيضاً، غير أنهم لا يريدون غذاءً ثابتاً من سيدة، حتى قومُنا الأثرياء في سان فرانسيسكو، ولدينا كثيرون منهم حاليّاً مع سبيكة كومستوك الذهبية كلها، على غرار الراحل السيد رالستون الذي شيّد هذا المسرح و«پالاس هوتيل» أيضاً، كان يُحبُّ كثيراً من الأشياء الأوروبية الفاخرة. وأنا لا أقول إنهم مجرَّد مجموعةٍ من المقتنعين بتفوّقِ معرفتِهم وذوقِهم على الآخرين، هذه المجموعة تقيم في قصورٍ فاخرة في [نوب هِل]، جميعهم يأخذون المقصورات في كاليفورنيا، لأن الأغنياء يريدون أن يعتقدوا أن لديهم ثقافة، ولهذا السبب للمدينة مسارح كثيرة جدّاً، وهنالك قلةٌ قليلةٌ من اليهود في المجتمع هنا، وأنا أخمّنُ أنهم الأكثر تحضّراً، إلّا أنّكِ لا تقدرين أن تمثلي لهم وحدهم. لذا أنا لا أقول إن سان فرانسيسكو ليس لديها بعض الناس ممَّن يعرفون ماذا يشاهدون، حين يقوم بوث بجولةٍ هنا أو يقومُ أحدُ النجوم الكبار بجولةٍ قادماً من أوروبا يأتي خارجاً من أزمةٍ أو حرب، جميعُهم يتمنون أن يمثلوا في كاليفورنيا، بما أنّ الجميع يعرفون أن [مسرح بوث] في نيويورك أفضلُ مسرح في البلد بأسره، وهذا يجعل من الصعب جدّاً علينا أن نُرضي جمهورنا، بخاصة أن أناس الصحف هنا، الذين ينتظرون على أحرّ من الجمر أن يثقبوا بالون شهرةٍ أجنبيةٍ كبيرة. غير أني لا أقول إن الناس العاديين لا يذهبون إلى المسرح أيضاً، وإذا لم تُرضِهم لن ينفع الأمر على الإطلاق. كان يتعيّن عليهم أن يبتهجوا ويقهقهوا ويلكزوا بعضهم بعضاً ويبكوا. إني أتساءل ما إذا كان

بوسعكِ أن تؤدي أدواراً كوميدية. لا، من خلال مظهركِ الخارجي، ربما لا. طيّب، هذا يحسم الأمر. عليكِ أن تجعليهم يجهشون بالبكاء».

«أجل»، قالت مارينا.

أرسل إليها نظرةً حادة. «أنا لا أثبّط عزيمتك، أن أجرّدكِ من سلاحكِ، بهذه الثرثرة كلها؟».

«لا».

«آه، أرى. أنتِ فخورةٌ بنفسكِ، أنتِ واثقة بنفسك. ربما تكونين ذكيةً. حسناً»، شَخَرَ معبّراً عن سخريتِه، «هذا ليس مصدرَ قوةٍ للممثل».

«قيل لي هذا من قبل، سيد بارتون».

«أعتقد أن لديكِ هذه الصفة».

«غير أنكِ قادرةٌ على أن تكوني متلطفةً أكثر. كان بوسعكِ أن تقولي لي إن الذكاء ليس مصدر قوة للمرأة، أيّ امرأة».

«أجل، كان بمستطاعي أن أقول هذا. وبهذه الطريقة أنا أذّكر هنا بألّا أقولها لك». نظر إليها بفضول وانزعاج. «أنا أقول لكِ ما هي المسألة، مدام لا يمكنني أن أتلفظ اسمكِ. دعينا ننتهي من القضية. هل أنتِ مستعدةٌ لأن تفعلي شيئاً ما الآن حالاً؟».

بالطبع لم تكنْ مستعدّةً. «أجل».

«وسنفترق بوصفنا صديقين، صحيح؟ ما من مشاعر صعبة. وسيكون من دواعي سروري أن أدعوكِ إلى مقصورتي في قاعة المسرح في أيّ مساء خلال هذا الأسبوع».

«لن أضيّع وقتكَ، سيد بارتون».

ضرب بارتون سطح مكتبه بقوة. «تشارلس!، تشارلس!». أطلَّ شابٌّ من الباب. «اذهبْ من فورك إلى مكتبِ أميس وأخبره أن ينتظرَ دون أن يفعلَ شيئاً، لن أكونَ حُرّاً قبل نصف ساعةٍ أخرى. وأرسلْ وليم كي يضعَ بعض المصابيح على خشبة المسرح، وطاولةً وكرسيّاً».

«كرسيٌّ واحد يفي بالغرض»، قالت مارينا.

«انسَ الطاولة!». صاح بارتون.

وقادها بارتون من مكتبه عبر متاهةٍ من الممرات، وبادر قائلاً: «وماذا ستقدّمين لي؟».

«كنتُ أفكّر بدور جولييت. أو مارغريت غوتييه. أو ربما أدريانا لوكوڤرييه. هذه الأدوار مثلتها كلّها مراراً في وطني الأم وقد تعلّمتُ الإنكليزية الآن». توقفتْ هنيهةً عن الكلام، كما لو أنّها تترددُ. «أعتقد، لم يكنْ لديكَ اعتراض، يمكنني أن أريكَ تمثيلي دور أدريانا. ذلك هو الدور الذي ظهرتُ فيه أول مرة في [المسرح الإمبراطوري] في وارسو، وطالما جَلَبَ لي الحظ». صفّر بارتون، وهزَّ رأسه، «نعم، ذروة [الفصل الرابع]، حين تُلقي أدريانا على غريمتها أمام مجموعةٍ متألقةٍ خطبةً مسهبةً عنيفةً ومهينةً من [فيدر]، ومن ذلك الفصل مباشرةً إلى [الفصل الخامس]».

«ربما ليس كل [الفصل الخامس]»، قال بارتون بسرعة. «وأنا لن أحتاجَ إلى [فيدر]».

«على أية حال»، «استطردتْ مارينا برباطة جأش، «سأحتاج إلى الواجبات الجيدة لصديقةٍ شابة، إنها تنتظرني في صالة الاستقبال ولديها نسختي من [*أدريانا*]، كي تلتحق بي على خشبة المسرح وتقرأ لي».

«كانت لدينا ريستوري في سان فرانسيسكو مع فرقتها تفعلُ هذا قبل سنتين لا غير. إلّا أنّها في [الـ بوش]. بطبيعة الحال، مثلتْها بالإيطالية. ربما ألقتْ كلمةً بالإنكليزية ــــ مهما يكنْ من أمر، لا يسعكِ أن تفهمي كلمةً مما قالته. بعد أن دفعتْ كثيراً للمراجعات في الجرائد والمجلات، أقبلَ الجمهور، وفي نهاية المطاف حققتْ نجاحاً باهراً».

«نعم»، قالت مارينا، «كنتُ متيقنةً من أنكَ سبق أن اطلعتَ على المسرحية».

وصلا إلى الجزء الجانبي من خشبة المسرح. أمامها الخشبة المُعتمة، وينتظر في وسطها كرسيّ خشبي بسيط. خشبة! سوف تتمشى ثانيةً على

خشبة المسرح. تمهّلتْ مارينا لحظةً، لحظة من التردّد الأصيل، وهيمن عليها الاهتياج والفرح، اللذين اعتقدتْ أن بارتون سوف يفسرُهما باعتبارهما رهابَ خشبة المسرح. لا، هي حتى ليستْ رهبة المسرح، بل الرعب العادي، رعب الممثلة الهاوية التي، متجاوزةً نفسها بوصفها ممثلة محترفة، على وشك أن يُقبض عليها في خداعها.

«حسناً»، قال، «هي ذي أنتِ».

«نعم»، قالت. «هي ذي أنا».

«الخشبةُ خشبتكِ»، قال لها، وغادرَ عبرَ الدرجات الواقعة في جهة اليمين، وقطع نصف الطريق كي يسحب مظروفاً من جيبه ويفتحه بواسطة خنجر صغير.

«دعْ شكوككَ جانباً»، قال مارينا، قاصدةً من وراء ذلك رسالته الملعونة، «*وإذا كان لديكم دموع، استعدوا لذرفها الآن*».

«آه، مارك أنتوني» وهو يخاطب عامة الناس. استدار بارتون للوراء كي ينظر إليها. «عليكِ أن تسمعي كيف ألقى إدوين بوث هذه الكلمات».

«سمعتُها».

«حقّاً. وأين سمعتِها، إذا جازَ لي أن أسأل، هل شاهدتِ ممثلنا التراجيدي العظيم؟ لا أعرف أنه قام حتى الآن بأيّ جولات أوروبية».

ضربت الأرضَ بقدمِها برقة. «في المكان الذي أقف فيه الآن، سيد بارتون. في شهر سبتمبر المنصرم. دور مارك أنتوني الذي لعبه، ودور شايلوك».

«هنا؟ يعني أنكِ زرتِ [مسرح كاليفورنيا] من قبل! إنما بالطبع، لقد أخبرتِني أنكِ كنتِ في الولاية منذ مدة قصيرة». كان قد وصل إلى مقعده في وسط الصف العاشر. «الآن، يجب أن تكوني ضيفتي في وقتٍ ما خلال هذا الأسبوع».

أومأتْ مارينا إلى الآنسة كولينغرج الهيّابة كي تخلعَ قبعةَ البحار خاصتها، وأن تأتي إلى الخشبة، وتجلس على الكرسي، ومنه يتعين عليها أن تقرأ (دون عاطفة) كلمات دور موريس، محبوب أدريانا لوكوڤيه، وفي نهاية الفصل،

الكلمات القليلة الخاصة بـ ميشونيه، الملقّن في [الـ كوميدي فرانسيز]، وهو أعزّ أصدقاء أدريانا إلى جانب كونه المرشح الميئوس منه لحبها.

«تذكّري، لا تمثلي. فقط أعطني give me كلماتِ الدور المسرحيّ».

«give me»، قالت الآنسة كولينغرج. «وليس *geeve* me».

ابتسمتْ مارينا. «ولا تقلقي عليَّ»، همستْ. «سأكون» ــــ كانت لا تزال تبتسم إنما الآن لنفسها ــــ «سأكون [على ما يرام]».

أجالتْ مارينا بصرَها في أنحاء المسرح الخالي. كيف يتسنى لها أن تؤدي أفضل أدوارها في هذه الظروف المُوحِشة، القابضة للصدر؟ لا يوجد أصدقاء معجبون جالسون في مقاعدهم، ولا يوجد ممثلون آخرون، ولا مناظر مسرحية مرسومة، لا توجد خصائص (هل كان ينبغي لها أن تطلب شيئاً ما، شمعة، قمع لتسهيل لبس الحذاء، مروحة كي ترمز إلى باقة الزهور المسمومة؟) لا يوجد جمهور كي يحفزها. لا يوجد سوى الكرسي كي تخاطبه، الكرسي الذي تقعد عليه الآنسة كولينغرج، ورجلٌ غير عاطفي من المفترض أن يحكم. وبدت الآنسة كولينغرج مُقنِطةً وصغيرة جدّاً. ربما يتعين عليها أن تتخيّل ريشارد جالساً على الكرسي بدلاً منها. وهل ستملك صوتها، الصوت الآمر المسموع دون أيّ مجهود (دون مجهود!) في مؤخرة الشرفة الثانية، كي تقول كلمات دور أدريانا بالإنكليزية؟ في أمريكا!

«فقط مَشهد الموت، النصف الثاني من [الفصل الخامس]، سيد بارتون. لا تيأسْ». «سأبدأ»، قالت، الصوت لم يكنْ صوت الممثلة، «بعد أن فتحتُ التابوت الصغير الحاوي على الأزهار المسمومة التي بعثتها الأميرة دي بولون، التي حسبتُ أنها مُرسلةٌ من موريس، وقبّلتها. لأبدأ بردي حين يقول لي موريس، الذي ظهر للتوّ في شقتي» ــــ صوته أعلى قليلاً من الصوت المنخفض ــــ «*أدريانا! لكن يدكِ ترتعش. أنتِ مريضةٌ* آنسة كولينغرج...».

حدّقت مارينا في الكرسي.

«*أدريانا! لكن يدكِ ترتعش. أنتِ مريضة*»، قالت الآنسة كولينغرج بهدوء، وبطريقةٍ خاليةٍ من التعبير.

كان القفاز الواقي قد رُمي بعيداً.

«*لا، لا، لا مزيد*». كانت الكلمات قد تقوّستْ من فم مارينا. بصوت الممثلة. وضعتْ يدها على قلبها. «*الوجع ليس هنا*». جلبتْ يدها إلى رأسها. «*إنه هناك*».

قالت.

«*إنه لشيءٌ غريب، إنه لشيءٌ غريب الأطوار*»، استطردتْ قائلةً. *أشياء خيالية، مختلفة يربو عددها على الألف، دون نظام أو رابطة، تعبير ذهني*. إنها عكس الأشياء التي تجري في داخل رأس مارينا، حيث خيّم عليه وضوحٌ ثابت، مُقطّعٌ إلى شرائح.

وتدفقتْ من حنجرتها كلمات الهذيان.

«*ماذا قلتِ؟ آه لقد نسيتُ أصلاً... يبدو أن خيالي يتيه، أين هو عقلي؟ إنما يجب ألّا أفقد عقلي، لا... في المقام الأول، من أجل موريس... و... ومن أجل هذا المساء*. الهذيان، الناتج عن عملِ السمّ الخبيث على الدماغ. *المسرح فُتح توّاً... مقاعد الصالة مكتظة أصلاً*. ما من وجع جسدي حتى الآن. ما من تلوٍّ جرّاء الوجع. نعم، *الستارة سوف ترتفعُ ثانيةً... وأنا أعرف مبلغَ عدم صبر وفضول الجمهور. كانوا قد وُعدوا بهذه المسرحية منذ أمدٍ طويل... نعم، أمدٌ طويلٌ جدّاً... منذ أول يوم رأيتُ فيه موريس... كان ثمة اعتراض فيما يتصل بعرضها على خشبة المسرح ثانيةً. إنها مسرحيةٌ قديمةٌ جدّاً، قال بعضهم، إنها تبدو عتيقة الطراز. لكني قلتُ لا، لا... ولديَّ سبب. آه، قليلون هم الذين يخمنون ذلك السبب: حتى الآن لم يقلْ لي موريس: أنا مُغرمٌ بكِ... ولا أنا قلتُ له ذلك... أنا لا أجرؤ. الآن في هذه المسرحية ثمة كلمات معينة... يمكنني أن أقولها أمام الجميع ولن يعرف أحدٌ أني كنتُ أوجهها إليه. إنها فكرةٌ ذكية، أليس كذلك؟*

«*حبيبي، حبيبي الأفضل، عُدْ إلى نفسكَ*»، قالت الآنسة كولينغرج لموريس، وهو لا يزال فاتراً على نحو رائع. تطلعتْ مارينا إلى الآنسة كولينغرج. كانت تتأرجح إلى الأمام والخلف في الكرسي وترفع وجهها،

باتتْ صريحة العاطفة تماماً، تجاه مارينا، وأحستْ مارينا بقوة عاطفة الآنسة كولينغرج تخترقها، تحرِّك وتهدئ موضعاً ناعماً قلقاً. «هُش، هُش»، قالت، بوصفها أدريانا، إلى الآنسة كولينغرج، «*يلزمني أن أظهر على خشبة المسرح*».

كانت ممتنةً للآنسة كولينغرج: لا يقدر المرء أن يؤدي أفضل أدواره إن لم يحسَّ بأنه محبوب. الممثل يذوي دون حب. تصوّر أنكَ تؤدي المَشهد في هذا المسرح الخالي وليس هنالك سوى بارتون، الذي توجّه إليه الآن كلَّ أرقها. *يا له من جمهور رائع ـــ كم هو عددهم غفير، كم هو بهيّ! كيف تشاهدُ حركاتي الأنظار كلّها. إنهم عطوفون، عطوفون جدّاً أن يغدقوا عليَّ حبهم هكذا*. في أول الأمر لم يكنْ بوسعه أن ينتبه البتة، كان يطالع رسالته، ومن ثم استند للوراء، شَبكَ يديه خلفَ رأسِه، وبدا أنه ينظر إلى أعلى قوس ستارة المسرح: صرفته باحتقار من بالها؛ إلّا أنّها حين نظرتْ ثانيةً شاهدتْ ـــ كان منحنياً للأمام، ذراعاه مطويتان حولَ أعلى المقعد الذي أمامه ـــ ذلك أنها أخيراً أثارت انتباهه.

«*أدريانا! إنها لا تراني، إنها لا تسمعني*». صوت الآنسة كولينغرج المنعش، الريان، نموذجي - الأداء، بدور موريس. أجل، شاهدتْ مارينا، لديها بارتون الآن. الآن سيرى ماذا بمستطاعها أن تفعل.

ألا يستطيع أحدٌ أن يمدَّ لها يدَ العون؟ ألا تملك صديقةً؟ تابعت الآنسة كولينغرج بوصفها موريس، وهي ما تزال تحت السيطرة بنحوٍ عنيد. وبعدها تعيّن عليها أن تستمر، العجوز ميشونيه دخل توّاً ـــ *ماذا حصل؟ هل أدريانا في خطر؟* ـــ مضاعفة الأسى الذي مزَّقَ رباطة جأش الآنسة كولينغرج، لأنها نهضتْ من كرسيّها فيما هي تجيبُ بصوتٍ أجش، بوصفها موريس، *أدريانا تحتضر!* وهربتْ إلى جانب الخشبة.

ماذا تفعل الفتاة السخيفة، فكرتْ مارينا، قبل أن تُدرك أنها أدّتْ لها خدمةً حقيقيةً من خلال التخلّي عن الكرسي.

مَن هو قريب مني، همستْ مارينا بحزن. *كيف أعاني! آه*، موريس، *وأنتَ أيضاً*، ميشونيه. *إنه لشيءٌ لطيف جدّاً. رأسي هادئ الآن، إنما هنا في صدري يوجد شيءٌ كالجمر يُتلفني*.

مسمومةً، شكت الآنسة كولينغرج بوصفها ميشونيه من زاويتها المظلمة.

تطلّعتْ مارينا إلى وجه بارتون المتفرس في الصف العاشر. بدا منفعلاً. لكن هل استطاعتْ أن تجعله يبكي؟ *آه، الألم يشتد. أنتَ المُغرَم بي كثيراً جدّاً، ساعدني!* وبعدها، أوه برقةٍ شديدةٍ، بنبراتٍ تنمّ عن العَجَب المنطوي على الاتهام: *لا أريد أن أموت.*

كان تلك هي كلمات الدور التي لم تُخفقْ في أن تُشعل انفجار البكاء وسط الجمهور، كلماتٌ لامسَتْ شغافَ كلِّ فؤاد عدا تلك الأفئدة التي قُدّتْ من حجر أو الأفئدة المنحازة. وفيما هي تُنصتُ إلى صداها في رأسها، أقرّتْ مارينا أنها لم تُلقِ الكلمات بنحوٍ أفضل. *لا أريد أن أموت!* سمحتْ لنفسها بأن تقوم بخطواتٍ قليلةٍ مترنّحةٍ قبل أن تجلسَ، ببطء.

قبل ساعة كان ينبغي لي أن أصلي للموت باعتباره بركةً، قالت بهدوء، *إنما الآن*، دون أن ترفع صوتها، *أريد أن أحيا*. وبنحوٍ أكثر ثباتاً: *أوه، طاقات مقدّسة! اسمعني!* لا بصوتٍ مرتفع جدّاً. كان بمستطاع بارتون أن يتلقى كلَّ مقطع لفظي في ذلك القلب الأجوف الذي يملكه. *دعني أحيا... أياماً قليلةً أخرى... فقط أياماً قصيرةً قليلة معك، حبيبي موريس... أنا شابةٌ والحياة أخذتْ تبدو جميلةً جدّاً.*

آه، إنه شيءٌ لا يُطاق، ناحت الآنسة كولينغرج بوصفها موريس.

الحياة، صرختْ مارينا. الآن التنزّل[1] سيكون أفضل. *الحياة!*

أدريانا ريستوري، عقب أدريانا راشيل، تحاول الوقوف بعد هذه الكلمات، محاولة لامُجدية، وبعدها تغطس مجدداً في الكرسي. مثّلتْ مارينا دوماً هذه اللحظة بتلك الطريقة، أيضاً ـــ الجمهور توقّعها ـــ إلّا أنّ الإلهام الآن قادها إلى فكرةٍ جديدة، أفضل. كانت قد لوتْ جسمها هنا وهناك كي تواجه بثبات البقاء في مؤخرة المسرح، كما لو أنّ أدريانا كانت ترغب بأن توفّر على حبيبها وصديقها القديم مَشهد الكَرَب الذي دَمّرَ ملامحها،

1- التنزّل decrescendo: التناقص في ارتفاع الصوت أو قوته – م.

مُبقيةً ظهرها إلى بارتون طوال ثلاثين ثانية كاملة، بلا نهاية. وبعدها، ببطء، استدارتْ، استدارتْ إليه أدريانا أخرى، وجهٌ آخر، وجهُ شخصٍ فارقَ الحياة أصلاً. *لا، لا، لن أحيا؛ كلُّ جهد، كلُّ صلاة بلا جدوى. لا تتركني، موريس. يمكنني أن أراكَ الآن، إلّا أني لن أكون قادرةً على رؤيتكَ مدةً أطول بكثير. أمسكْ بيدي. لن تشعرَ بضغطها مدةً أطول بكثير...*

أدريانا! أدريانا! صرخت الآنسة كولينغرج.

كان من المفترض ألّا تكون هنالك كلماتٌ أخرى من ميشونيه أو من موريس، كانت قد بدأتْ حديث أدريانا الأخير، فقط كلمات قليلةٌ أخرى حتى النهاية، ومع أنّه كان بمستطاعِها رؤية كلِّ غضنٍ في وجه الآنسة كولينغرج الشمعي في جانب المسرح، لم يعدْ بوسعها تمييز وجه بارتون البتة. *يا لانتصارات المسرح! قلبي لن يخفقَ بعواطفكَ المتوهّجة! وأنتَ، دراستي الطويلة عن الفن الذي أحببته حبّاً جمّاً، لن يبقى منكَ شيء لمّا أكون قد مضيتُ.* نبرة عويل نبيل كما لو أنّ أدريانا، على مدى لحظة، كانت قد نسيتْ نفسها تماماً. *لا شيءَ يُنجينا، لا شيءَ سوى الذكرى.* لكنها تتذكّر الآن! نظرتْ مارينا بعمى من حولها. *هيا، هيا، ستتذكّرني، ألن تتذكّرني؟* (شاهدت الآنسة كولينغرج تومئ برأسها من خلال دموعها إلى تلك الـ*هيا هيا* المقبولة.) وكما لو حلم، أنهتْ، *وداعاً موريس، وداعاً ميشونيه، يا صديقيَّ الاثنين، الوحيدين!*

حلّتْ لحظة صمت. كان باستطاعتها أن تسمع الآنسة كولينغرج تعول. بعدها بدأ بارتون يصفق بنحوٍ إيقاعي، بنحوٍ يُرجِّع الصدى، ببطءٍ شديد. أحسّتْ مارينا بأنها كانت تتلقّى صفعةً مع كلّ صوتٍ. بعدها أخرجَ منديلاً، نفخَ أنفه بصوتٍ مرتفع، وصاح في عمق المسرح المظلم، «قلْ لأميس إني لا أستطيع أن أقابله على الإطلاق. مدام، أنا... انتظري، أنا قادمٌ إلى أعلى الخشبة».

«آنسة كولينغرج»، قالت مارينا برقّة، «هل تقابلينني في حجراتي بعد ظهر اليوم في الساعة الرابعة؟ يلزمني أن أسمع رأي السيد بارتون دون شاهد. كان من الفظاظة أن تُصرف الفتاة، إنما كان يلزمها أن تواجه مصيرها بمفردها.

بارتون، مُطلقاً صوتاً كالصفير، أقبل إلى الأمام وقبض على يدها. «هل لي أن أدعوكِ لتناول الغداء معي؟».

«ربما. إنما قلْ لي أولاً، ما هو مصيري؟».

«مصيركِ؟».

«هل ستعطيني أسبوعاً؟».

«أسبوعاً!». زعق. «سأعطيكِ أسابيع. خذي ما تشائين من الوقت».

«أنا رجلٌ متشائم، مدام»، قال بارتون، وهو يأكلُ بحماسةٍ وجبة الغداء الوافرة المُقدَّمة في «فاونتين بار». «هل يمكنكِ أن تغفري لي».

«لا يوجد شيءٌ كي أغفره لك».

«لا، لا، أعتذر لكِ من أعماق قلبي. كنتُ أحسبُ أنكِ ممثلةٌ مبتدئة. وحتى ليس ذلك، حسبتُ أنكِ سيدةُ مجتمعٍ تحلمُ باعتلاء خشبة المسرح. لم أتصورْ قط أني بصدد رؤية فنانة رائعة!». تنهّدَ. «لعلكِ أروع فنانةٍ رأيتها في حياتي حتى الآن».

«أنتَ رجلٌ لطيف، سيد بارتون».

«تعنين أني أبله. حسناً، سوف أرتّبُ لكِ الأمور».

يقول إنه سيرتب لي الأمور، هينريك. الأمور كلُّها سارتْ على قدمٍ وساق، بوغدان. ريشارد، تعالَ.

كانا جالسين في واحدة من الحانات المختارة بكثرة في المدينة، في ملتقى شارعَيْ «سوتر وكيرني»، «حانةٌ رائجة»، أشار بارتون، إلى أصحاب بنوك.

«كما تشاهدين»، أضاف قائلاً، بإيماءة رأس إلى الرجال الغادين والرائحين في أنحاء الغرفة وهم ماضون في استشارة شريط نحيف من الورق ينزل هزيلاً رقيقاً من أحد الجدران ويسقط في سلّة على الأرض، أعقبه شرحٌ: كانت هذه لُقاطة مختارة بعناية، جديدة في كلّ لحظة، من

كيبل الغواصة، كانوا يحتاجونها للصفقات التجارية الكبرى هنا في سان فرانسيسكو. «أنباء من العالم كلّه، نُقلتْ عبر المحيطات الواقعة بين البلدان والقارات كي تصل في شريط ورق نادراً ما يكون أوسع من طوق سيجاري».

«يا له من شيءٍ مناسب»، قالت مارينا.

«حتى رالستون تعوّد أن يأتي إلى الـ [فاونتين]. للأسف، لا يمكنكِ اللقاء به، كان أغنى رجلٍ في المدينة، لكن اللعنة عليه، سامحيني على فرنسيتي، مدام، إن لم يذهبْ للسباحة في [الخليج] ويغرق بمحض المصادفة في عصر اليوم نفسه الذي عرف فيه أن بنكه مُني بالخسارة. حصلتْ مشكلةٌ ما مع شريكه». ضحك. «ذلك الشخص الواقف هناك الذي يعبثُ بسلسلةٍ صغيرةٍ متصلةٍ بساعة البنطلون الذهب - الصلب خاصته التي تعترض صُدرته».

«هل نتحوّل الآن إلى عملنا، سيد بارتون؟».

«صحيح»، قال بارتون.

بدآ باختلاف في الرأي. لم يعتقدْ بارتون أنها ستفتتح تمثيلها بـ «*أدريانا لوكوڤرييه*». «*كاميليا*»، ظنَّ، ستكون أفضل بكثير.

«*أدريانا*» أولاً، قالت مارينا. قرب نهاية الأسبوع الأول، «*كاميليا*». وبعدها مسرحية واحدة، ربما مسرحيتان لشكسبير. كانت تعتقد أن بمستطاعها أن تبدأ بـ «أوفيليا» أو «جولييت»، اللتين كان العنصر المثير للشفقة فيهما الطبيعة الثانية بالنسبة لها. ذلك أنه على الرغم من عدم وجود دور شكسبيري تفضّله أكثر من روزاليند، آثرتْ أن تنتظر تمثيل *كما تهواه* إلى أن تقلّل لكنتها أكثر. فيما يتصل بمسرحيات شكسبير الكوميدية، قالت، لديها الانطباع بأن الجمهور يُنصت بنحوٍ مختلف. يتوقّع المرء، فسّرتْ، كياسةً لغوية أبرز.

«هل كلامي واضح؟». أضافتْ قائلةً.

«واضح جدّاً»، قال بارتون.

«لكنكَ ربما تخالفني الرأي».

ابتسم. «يمكنني أن أرى أنه سيكون من الصعب أن أختلف معك».

«لمّا كنتَ في ذلك المزاج، سيد بارتون»، قالت بسرعة. «أعتقد أنه يتعين علينا أن نمضي في مناقشة عَقْدي، وراتبي، والتواريخ التي بوسعكَ أن تقترحها. والممثلون الآخرون، بطبيعة الحال ــــ أنا أثق بأنكَ قادر على أن تزوّدني بـ موريس دي ساكس أميري على غرار الموريسات (جمع موريس) الذين مثّلتُ معهم في بولندا. وكذلك تخبرني شيئاً ما، إنما ليس كثيراً جداً، عن النقاد المسرحيين هنا. مع أنّي قلّما يمكنني أن أشكو من المعاملة التي تلقيتُها من النقاد، لم أحبهم قط. إنهم يبدؤون دوماً بالاعتقاد بأنكَ سوف تفشل. أتذكّرُ حين ظهرتْ في أول عرض مسرحي لي في [المسرح الإمبراطوري] في وارسو، كان النقاد متشككين جداً. كوني اخترتُ، نعم، [*أدريانا لوكوفْرييه*]، كان هذا الدور يُعدُّ دوراً رائعاً من أدوار الجرأة. كيف يتسنى لي أنا، مجرّد ممثلة بولندية، أن أتجرأ وألمس دوراً مسرحيّاً كُتب من أجل راشيل الخالدة، التي كانت قد أصبحتْ في ذلك الحين مُلكاً لـ[أدليدا ريستوري][1]؟ لكني انتصرت. بذلك الدور المسرحي أعلنوا أني ملكةُ المسرح البولندي، ومنذ ذلك الحين فصاعداً لم يكنْ بمستطاعي أن أقترف خطأً». ابتسمتْ. «يكون النصر أحلى لمّا يتعينُ على المرء أولاً أن يعبرَ جدارَ الشكوكية».

«فعلاً»، قال بارتون.

لمّا عادا إلى المسرح، أخذها بارتون في جولةٍ على الأمكنة الداخلية والخارجية المعلَّمة بشكل مرتب في مخزن جهاز المسرح[2] (غرفة السنديان، والقصر القوطي، وغرفة الرسم الإنكليزية، والقصر الڤينيسي العتيق، وفرجة الغابة، وشرفة جولييت، وقاعة استقبال متواضعة، وبحيرة عند ضوء القمر، ومطبخ ريفيّ، وزنزانة سجن، وقاعة رقص فرنسية، وساحلٌ مُتجهم، وقاعة محكمة، وشارع روماني، وأحياء العبيد، وحجرة نوم، ومجاز صخري) وحجرة مستلزمات الإخراج المسرحي (كرسي العرش، وسقّالة، وأرائك مَلَكية،

1- أدليدا ريستوري Adelaide Ristori (1822 – 1906): ممثلة إيطالية تراجيدية مميّزة، يُشار إليها دوماً بوصفها المركيزة – م.

2- مخزن جهاز المسرح scene dock: مخزن يُحفظ فيه كل ما تزوَّد به خشبة المسرح من ستائر وجدران مدهونة إلخ. لتمثيل مكانٍ معين أو إعطاء خلفية زخرفية. عادةً يكون المخزن قريباً من الخشبة – م.

وأشجار، وصولجان، ومَهد طفل رضيع، ودولاب الغزل، وسيوف، مغاول[1]، وخناجر، وبنادق قصيرة، وحلي زائفة من الزجاج البرّاق، وعلبة صغيرة للجواهر، وأزهار صناعية، وأقداح، وكؤوس شمبانيا، وأفعى صغيرة سامة من المطاط، ومرجل ساحرات، وجمجمة يوريك)؛ عرّفها إلى رئيس رسامي المناظر المسرحية ورجل - مستلزمات الإخراج المسرحي ومساعديْهما المُغبّرَين؛ أراها وسائل راحة غرفة تبديل ملابس النجم وحجرة استراحة الممثلين والممثلات المبجَّلة. لم يكنْ هنالك ممثلون وممثلات حتى الآن في المبنى والأرض التابعة له. طمأنها بارتون أنها سوف تحبُّ صحبةَ موريس، الذي خمنتْ من خلال الطريقة التي مدحه فيها (ممثلٌ قويّ وشجاعٌ من المدرسة القديمة) سيبرهن على أنه من السهل العمل معه وهو ليس يقظاً جدّاً.

وحين انتهى ذلك كلُّه ـــ عادا إلى مكتب بارتون ـــ منحها أسبوعاً يبدأ بعشرة أيام من الآن، في الثالث من أيلول / سبتمبر؛ كان المدير العام لـ «مسرح كاليفورنيا» قد أصرَّ على حجز مقاعد عرض منوَّع يُسر الجمهور خلال ذلك الأسبوع، إلّا أنّه سيكون مبتهجاً كي يتخلّى عن جيورجيا مينسترلز، وهيرمان الساحر، والبروفيسور أو. أس فولر، العالِم بفراسة الدماغ الذائع الصيت، المنتمين إلى «مسرح بوش» أو «مسرح مغواير». بعدها في تشرين الأول / أكتوبر يمكنها أن تحصلَ على ثلاثة ـــ أربعة، إذا شاءت ـــ أسابيع أخرى.

«يوجد شيءٌ واحد آخر. اسمكِ، سيدتي العزيزة ـــ بالطبع إنه في رسائل أصدقائك وصديقاتك، إنما هل ستكونين عطوفةً جدّاً كي تكتبيه لي؟». تطلّع إلى قطعة الورق. مـــ ا ـــ ر ـــ يـــ نـــ ا ز ـــ ا ـــ مُضحِك لـــ يـــ ز ـــ و ـــ ف ـــ ســـ كـــ ا. نعم. أنا أتذكّر. والآن أرجوكِ، تَهجيه لي.

فعلتْ.

«هل لكِ أن تتهجيه مجدداً؟ الاسم الثاني. أخشى أنه لا يبدو كما أنظر إليه».

1- المغاول rapiers: جمع مغول، وهو سيف مستقيم مستدق الرأس ذو حدين - م.

شرحتْ له أن الحرف «/ البولندي، حرف» *l* «المزوّد بمزلاج، يُلفظ بوصفه *w*»[1] وحرف «*e*» ذو الكلاب تحته يُلفظ بوصفه «en»، أما حرف «z» ذو النقطة فوقه فيُلفظ بوصفه«zh»، وحرف «w» يُلفظ بوصفه «*v*» أو «*f*».

«سأحاول تلفظه مرةً. مرةً واحدة فقط. زآلين... لا، زاوين... عليَّ أن ألثغ، صحيح؟». ضحك. «إنما لنكن جديين، سيدتي العزيزة. أنتِ تُدركين، أليس كذلك، أنه ما من أحدٍ في أمريكا سوف يتعلّمُ تهجي اسمكِ بشكلٍ صحيح. الآن، أنا متيقن أنتِ لا تريدين أن تسمعي اسمك يُلفظ بطريقةٍ خاطئة طوال الوقت، وأنا قلِق من أن قلةً قليلةً فقط سوف تبذلُ الجهدَ كي تنطقه بأية حال. اتكأ في كرسيه. «سيكون أقصر. ربما يمكنكِ أن تحذفي الـ z – o – w[2]. ما رأيكِ؟».

«سأكون مسرورةً بأن أحسِّن اسمي الأجنبي الصعب»، قالت بابتهاج. «أليس هذا هو ما يفعله أناس كثيرون لمّا يأتون إلى أمريكا؟ أنا متأكدة أن زوجي الأول الراحل، الذي أحمل اسمه، هينريش زويزوڤيسكي ـــ لا، أعتقد أني لن أفسر لك لماذا كان هو زويزوڤيسكي وأنا زويزوڤيسكا، هذا شيءٌ كثيرٌ *جدّاً* على عقل رجل أمريكي ـــ كان سيتسلى كثيراً جدّاً. ومتسليةً باحتمال تشوّه الشذرة الأخيرة المتبقية من سيادة هينريش عليها، أخذت الورقة من جديد، كتبتْ عليها، وناولته إياها ثانيةً».

«ز ـــ ا ـــ لـ ـــ نحن ننسى حرف اللام البولندي، صحيح؟». سجّل إيماءة رأسها. «ز ـــ ا ـــ ل ـــ يـ ـــ نـ ـــ سـ ـــ كـ ـــ ا. زالينسكا. اسم لا بأس به. أجنبي، إنما لا يشق تلفظه».

«تقريباً سهل حاله حال ريستوري».

«أنتِ تسخرين مني، مدام زالينسكا».

«سمّني مدام مارينا».

1- الحرف الذي تعنيه الكاتبة هو Ł (وهنا جعلنا الحرف كبيراً كي يكون واضحاً للقارئ الكريم) – م.

2- هذه الحروف الثلاثة w – o – z: تُلفظ من اليسار إلى اليمين، بحسب النص الإنكليزي الأصل – م.

«يلزمنا أن نفعل شيئاً ما فيما يتعلّق بالاسم الأول أيضاً، أنا متأسف».

«آه، *ça, non!*»[1] صرختْ. «هذا هو اسمي فعلًا».

«إنما لا أحدَ يستطيع أن ينطقه. أتريدين حقيقةً أن يقولوا مدام ماري ـــ ناااه؟ ماري ـــ ناااه. ماري ـــ ناااااه. لا. أنتِ لا تريدين».

«اقتراحكَ، سيد بارتون؟».

«حسناً، لا يمكنكِ أن تكوني Mary. هذا الاسم أمريكيّ إلى حدٍّ كبير. Marie، هذا اسم فرنسي. لنقل، ما رأيكِ بأن نغيّر حرفاً واحداً؟ انظري».

كتبَ على الورقة: مـــــ ا ــــ ر ـــــ يـــــ نـــــ ا.

«لكن هذه هي الطريقة التي يُنطق بها اسمي بالروسية! لا، سيد بارتون، لا يمكن أن تحمل ممثلةٌ مسرحيةٌ بولندية اسماً روسيّاً. كانت تهمّ بأن تقول، [الروس مضطهِدونا]، وأدركت الآن كم سيبدو هذا صبيانيّاً».

«لِم لا؟ مَن سيعرفُ في أمريكا الاختلاف؟ والناس يستطيعون أن يتلفظوه. مارينا، سيقولون. سيحسبون أنه اسمٌ إيطالي. يبدو جميلاً. ما رأيكِ؟ مارينا زالينسكا». تطلّع إليها بغنج. «مدام مارينا».

قطّبتْ حاجبيها وأدارتْ وجهها.

«طيب إذن، حَسَمْنا الأمر. سوف نحضّرُ العقدَ بعد ظهيرةِ اليوم. والآن ـــ هل يمكنني، أن أشربَ نخبَ هذه المناسبة؟». كان يرفعُ زجاجة ويسكي من جرارِ مكتبه. «يلزمُني أن أخبركِ»، خاطبَها، «أيَّ شخصٍ يعملُ لصالحي يُغرّم خمسةَ دولارات إذا ما قُبِضَ عليه وهو يشربُ الخمرَ في المسرح. الممثلون يُغرَّمون بعشرةِ دولارات. ملأَ كأسين إلى المنتصف. باستثناء [إدوين بوث]، بالطبع. توجدُ استثناءات على الدوام. وأنا أقولُ بنحوٍ صائب هكذا، من أجل بوث المسكين. صرف أم ممزوجٌ مع الماء؟».

«مارينا زالينسكا. مارينا زالينسكا. مارينا ـــ ما هي القضية مع إدوين بوث؟ ـــ زالينسكا. أستميحكَ عذراً؟ أوه دون ماء. مارينا، أم پيتر. اسم پيتر الأخير يجب تغييره هو أيضاً».

---

1 - هاتان الكلمتان !ça, non: تُقرآن من اليسار إلى اليمين، كما في النص الإنكليزي الأصل - م.

وهكذا حُسمت الأمور كلُّها، هينريك. والتواريخ، والأدوار المسرحية، وراتبي السخي، واسمي المشوَّه. لا، الرجل ليس شقيقاً مدمناً على الخمر. وحين أخرجتُ سيجارةً، قال حصراً، «آه»، ومدَّ يده إلى عيدان الكبريت خاصته. إنه أول أمريكي قابلتُه لا يبدو مصدوماً بشكل أصيل لدى رؤيته امرأة تدخن. أعتقد أنه يتعين عليَّ أن أنسجم مع السيد بارتون هذا بشكل جيد جدّاً. إنه يحبني، إنه يتخوّف مني قليلاً، وأنا أحبُّه، هو داهية ومُغرمٌ حقيقةً بالمسرح. تناولتُ الغداء معه ومع زوجتِه الفاتنة، وجبة طعام مطهوة في المنزل من حساء الذرة ذي القشدة، والسراطين المشوية مع كثيرٍ من البهار، وشرائح من لحم الحَمَل مع أضلاعها بصلصة الطماطم، والبطاطا المحشوّة، والدجاج المحمّص، وآيس كريم الموز، والفطيرة الهلامية، والقهوة، ويلزمني ألّا أنسى سيقان الكرفس غير المطهو الموضوعة هنا وهناك على سطح المائدة في كؤوسٍ طويلة كي يقضمها المرء *بقدر ما يرغب*[1] في أثناء وجبة الطعام. ويجب عليكَ أن ترسمَ بسمةً على ثغرِكَ على حماسة شهيتي.

منكبّةً على المرآة، الصديقة الصريحة الوحيدة للممثلة، اعترفتْ لها مارينا أنها كانت أكثر هزالاً مما كانت عليه لمّا غادرتْ بولونيا، مع أنّها كانت واثقةً من أنها لا تبدو هزيلةً جدّاً، في الواقع ذات مظهر نحيل، حيث ضيّقتْ جميع الثياب التي جَلبتْها معها؛ ذلك أن وجهها شاخ، لا سيما حول عينيها، مع أنّها كانت تعرف أنها على خشبة المسرح، أيّ خشبة، مع السحر الطبيعي للمكياج ومصابيح الغاز، سوف تظهرُ كأن عمرها لا يتجاوز الخامسة والعشرين. للعلم، كتبتْ إلى هينريك، أن تفجّر النشاط الحيواني لدى فتاةٍ جذلة بات بعيداً عني الآن، إلّا أنّ فرحي وحماستي ما يزالان سليمين. في اعتقادي إني قادرةٌ على أن أقدّم تقليداً خالياً من العيوب للعواطف التي ربما تراوغني في الحياة الواقعية. لم يسبقْ لي أن كنتُ ممثلةً فطريةً عظيمة، لكني ممثلة قويةٌ لا تكلّ ولا تتعب.

أربعة أيام قبل بدء عرضها المسرحيّ، حين بدأت التدريبات، انتقلتْ مارينا إلى شقةٍ متسمةٍ بالأُبهة في الطابق العلوي من «پالاس هوتيل». كانت تلك فكرة بارتون،

1- بقدر ما يرغب: وردتْ باللاتينية في النص الإنكليزي الأصل ad libitium – م.

تبذير بارتون. كما فسّر الأمر، «سوف يسمعُ الناسُ أنكِ تقيمين في الـ[پالاس]، وهذا سيجعلهم ينتبهون إليكِ. وضع السيد رالستون كلَّ ما يملكه في الـ[پالاس]. نحن ثاني أفضل مسرح في أمريكا. الـ[پالاس] أفخم فندق في العالم. كانت مارينا مغرمةً بالفنادق: أن تكون في فندق، أي فندق، كان يعني، وسوف يعني ثانيةً، أن تواصلَ ظهورَها على خشبةِ المسرح. وأن يكونَ تعامُلُها مع الترف حقٌّ ليس إلّا بعد ضروبِ العوز والحرمان خلال الأشهر الفائتة، فيما كانت تستقبل النظرات المحدّقة الفضولية من وراء الـ[غراند كورت] الضخم ذي الطوابق السبعة بسقفه ذي القبة بالزجاج الكهرماني اللون ومن نَفَس إلى نَفَس في التخوم المزوّدة بالمرايا للمصعد الهيدروليكي، كان بحدّ ذاته نوعاً من الأداء. إعلانات المسرحية في أنحاء المدينة كلها صرّحتْ بالظهور الأمريكي الأول للممثلة البولونية الرائعة مارينا زالينسكا، برغم أن بارتون لم يتمكنْ من حثّ صحافي واحد من جريدة يومية كي يطلب منه إجراء حوار صحفي. أفراد من الجالية البولندية في سان فرانسيسكو، كانوا مترعين بتوقّع النصر الأمريكي الوشيك لكنزِهم القومي، أرسلوا أشياء صغيرة ظريفة وكتباً وأزهاراً، إلّا أنّ أكثر الهدايا التي أثارت الانتباه كانت تنتظر عند المكتب حين وصلت مارينا إلى الـ[پالاس] وسجلتْ اسمها فيه: علبة مبطنة بالمخمل تحتوي على قلادتها الفضية السوداء وأقراطها المتدلية، والهدية النفيسة من جدّة بوغدان مع بطاقة كُتب عليها: «من شخصٍ مجهول الاسم» ـــ هذه الكلمات حُذفتْ وكُتب فوقها بنحوٍ مُدقع ـــ مُعجب.

لبستهما بفرح، جواهر حِدادها المستعادة بنحوٍ رائع، حتى ليلة يوم الاثنين، حين لبستْ جواهر أدريانا الباهرة.

متلهفاً لأن يدلل «اكتشافه» المُذهِل، عرضَ بارتون أربعة تدريبات لـ «*أدريانا*» بكامل أعضاء الفرقة المسرحية، بما فيها التدريب على الملابس في يوم الافتتاح. من الطبيعي أن يتمّ التدريب على المسرحيات الجديدة فقط. فيما يتعلّق بالرصيد المسرحي[1]، ساعات قلائل في يوم التمثيل مع أحاديث

1- الرصيد المسرحي repertory: مجموع ما مثّلته الفرقة المسرحية فيما مضى من مسرحيات تُعيد بعضها، كما يعني المصطلح أيضاً مجموع الأدوار التي أداها الممثل من قبل – م.

منطوقة بطريقةٍ مفعمةٍ بالحيوية ومراجعة عمل المسرح عدَّت التحضير كافياً. انتبهتْ مارينا للمضايقة المعتدلة لزملائها الممثلين بأن يحضروا أربعة أيام متتالية في الساعة العاشرة؛ بالنسبة لها لن يكون هنالك روتين فيما يتعلق بهذه الأيام. الصباح الأول الذي مُنحتْ فيه مارينا حقَّ الدخول إلى «مسرح كاليفورنيا» عبر بابِ دخول الممثلين مناسبة لا تقلُّ أهميةً عن مساء يوم ما في زمنٍ قديم جدّاً حين مرّتْ، بوصفها جليسة طفل لستيفان، عبر أول باب مسرح بالنسبة لها. ألم يكن البوابُ في المسرح الكائن في كراكوف حيث كان ستيفان يمثل في «*دون كارلوس*» منحرف المزاج وبطيئاً في الاستجابة، مثل هذا الشخص الذي هنا ذي الاسم المشؤوم «تشيستر كانت»؟ غير أن المسارح كلَّها متشابهةٌ، فكرتْ بفرح: الروائح، والنكات، والغيرة. البواب في «مسرح غلوب» يُمكن أن يكون نموذجاً للمُدمدِم الخالد في خدمة مكبث الذي، متوانياً في فتح بوابة القصر لزائرين صاخبين في ساعةٍ متأخرة من الليل، يتخيّل نفسه بواباً لجهنم.

«بوابك الشكسبيري»، هتفتْ لجيمس غلينوود، ميشونيه اللطيف خاصتها، الذي وصل بدوره من أجل التدريب في وقتٍ مبكر، إنما فقط بعد جدال قليل مع البواب دون ريب ـــ كان بمستطاعها سماع الضوضاء من غرفة استراحة الممثلين والممثلات. «*كنتُ أحسب أن يسمحوا لي بأن أُدخل بعضاً من أهل المهن كلها الذين يسلكون سبيل المتعة واللهو متجهين صوب المشعل الأبدي*»، ألقتْ مارينا بنحو حلو العِشرة. «إنما دعنا نأمل ألّا يفعل ذلك صاحبنا السيد [كانت]. وفيما هي ترى تعبير غلينوود المشدوه، أضافتْ قائلةً، «مكبث، الفصل الثاني».

توتر وجه غلينوود. «يمكنني أن أفهم أنكِ لم تعرفي أننا لا نذكر هذا الاسم» ـــ سعل بصوتٍ عالٍ ـــ «إما بسبب المسرحية أو بسبب الشخصية. نحن لا نذكره. على الإطلاق».

«يا له من شيءٍ شيّق! هل هذا نوع من خرافة أمريكية؟».

«بوسعكِ أن تسميها خرافة»، قالت كيت إيغان، أميرة بولون[1] المخضرَمة، التي دخلتْ إلى غرفة استراحة الممثلين والممثلات توّاً صحبة توماس ـــ توم ـــ دِين، موريسها متبلّد الحس.

«أنتِ تعنين، أن الممثلين الأمريكيين حين يمثلون المسرحية لا يمكنهم أن يتلفظوا اسم ماكـــ»

«أوه، أرجوكِ لا تذكريه ثانيةً»، قال دِين. «أجل بالطبع العرافات الثلاث عليهن أن يقلن، [*فوق المرج / هناك كي نلتقي*]... أنت تعرفين، وكذلك بانكو ودونكان والآخرون حين تأتي كلمات أدوارهم. إنما في الأمكنة كلِّها باستثناء الخشبة ـــ مطلقاً!».

«باسم السماء، لماذا؟».

«لأن المسرحية منحوسة»، شرح دِين. «تجلب الكارثة. تجلب الكارثة على الدوام. لماذا، قبل ما يناهز ثلاثين عاماً خلتْ في نيويورك، كان هنالك عرضان للمسرحية الاسكتلندية في الوقت عينه، واحدة من تمثيل [ماكريدي]، الذي يُعتقد بأنه أروع ممثل إنكليزي شكسبيري بعد كين، والثانية من تمثيل زميلنا الرائع إدوين فوريست[2]. بعض الناس انزعجوا من هذا الأمر، أعتقد أنه ثمة ممثلين أيرلنديين كثيرين بينهم، قائلين إنه بالنسبة للرجل الإنكليزي أن يتمّ عرض المسرحية نفسها في مسرح آخر كان إهانةً لممثلنا الأمريكي، ولهذا احتشدوا حول ذلك المسرح في ليلة افتتاح ماكريدي وفصلوا أحجار الرصيف وقذفوا بها النوافذ وهشموا الزجاج وبدؤوا بضرب الأبواب بقوة واستمرار. فتحت الميليشا النارَ عليهم، وقُتل عشرات من الحشد».

1- أميرة بولون Princesse de Bouillon (1718 – 1888): سيدة نبيلة فرنسية، كانت أحد أفراد أسرة منزل لورين House of Lorraine، تزوجتْ من أسرة لا تور دو أوڤرجين House of La Tour d'Auvergne، وأصبحتْ دوقة بولون – م.

2- إدوين فوريست Edwin Forrest (1806 – 1872): ممثل أمريكي شكسبيري بارز في القرن التاسع عشر. عداؤه مع الممثل البريطاني وليم تشارلس ماكريدي هو سبب «شغب أستور پلاس»، العام 1849 – م.

«طيب، سأتأكد كي أزيّن نفسي بتعاويذ السحر - الأبيض حين أعمد إلى تمثيل دور الليدي ــــ» نظرتْ مارينا من حولها بنحوٍ مؤذٍ إلى زملائها القلقين. (الليدي الاسكتلندية).

لم يجرؤْ ريشارد على توجيه سؤال عن وقت وصول بوغدان. كانت مارينا قد ذكرتْ أنها تأمل أن يكيّفَ نفسَه عاجلاً مع مسألة بيع الحقل مجدداً إلى آل فيشرز، بما أنّ خسائره سوف تتمُّ تغطيتها مرات عدة وأكثر بواسطة مكاسبها من أول عرضٍ لها خلال أسبوع والأسابيع الأربعة التي اقترحها بارتون في تشرين الأول / أكتوبر. في الوقت الحالي، كانت منافسة ريشارد الوحيدة هي الآنسة كولينغرج، التي (مرةً واحدةً فقط!) لم تكنْ تنتظر في حجرة تبديل الملابس عند نهاية التمرين، وكانت تريد من مارينا أن تقومَ بمزيدٍ من العمل على كلمات دورها في المسرحية.

«إنها مغرمةٌ دوماً بكِ»، قال متذمراً.

«هي مغرمةٌ بي، بطريقتها المحترمة».

«إذن يذهب قلبي إليها. مَن كان يظن أن بيننا قواسم مشتركة كثيرة جدّاً، مُعلّمة الإلقاء الصغيرة خاصتكِ وأنا؟».

«ريشارد، لا تتعاطف مع نفسكَ. الآنسة كولينغرج ليستْ كذلك».

«الآنسة كولينغرج ليستْ مُحبطة. الآنسة كولينغرج لا تتوقع مزيداً من الألفة من معبودتها أكثر مما تملكُه أصلاً».

«أوه»، صرختْ. «هل سببتُ لكَ الإحباطَ فعلاً؟».

هزَّ ريشارد رأسه. «أنا كتلة طين. أنا أتحرّش بك. إنه شيءٌ لا يمكن الصفح عنه، ما قلتُه توّاً. يلزمني الانصراف». ابتسمَ بسمةً عريضةً. «حتى اليوم الذي يعقب الغد».

«وماذا تعتقد»، قالت، «إذا ما شجعتكَ الآن قليلاً؟ إذا ما اعترفتُ أن شيئاً ما ارتخى في أحاسيسي وــــ» تورّدتْ. «ربما يتعين *عليكَ* أن تنصرف. أنا أجلسُ هنا وحدي، وقلقة لأني ربما يصيبني الصداع، ويلزمني أن أدعكَ جبيني وصدغيَّ بالكولونيا، وبعدها أدرك أني لا أفكر في أدريانا أو مارغريت غوتييه

أو جولييت، بل أفكر بك. وفيما أنا أفكر بك، أشعر بكل ضروب الأحاسيس البدنية التي تشبه رهاب خشبة المسرح، بالإضافة إلى تسارع النَّفَس، والأطراف القلِقة، واهتياجات صغيرة قليلة أخرى يمنعني احتشامي من ذكرها.

«مارينا!».

رفعتْ يدها. «لكن الإمبراطور، تذكّرْ، لم يقلْ نعم. لأني سألتُ نفسي، [هل هذا حُبّ؟ أم إنه توقٌ أنثوي للاستسلام لرغبة ذكر مُلحّة؟] أخشى أنكَ أنهكتني بكلّ معنى الكلمة، ريتشـــ ارد» ـــ نطقت اسمَه بالطريقة الأمريكية، كي تزعجه. صفعة صغيرة.

«ما ـــ ريـــ نا»، قال برقة، وجرَّ يدها إلى فؤاده.

ممتنةٌ لأن بوغدان لم يلتحقْ بها حتى الآن، وخائفةٌ فيما يتعلّق بوصولِهِ من أجل افتتاح مسرحيتها، مارينا لم تطلبْ من نفسها حتى الآن بأن عليها عاجلاً أن تختار بين الرجلين. لكنها لمّا تخيّلتهما معاً واقفين هنا وهناك في حجرة تبديل الملابس خاصتها فيما هي تضعُ مكياجَها وتُعطي التعليمات للخيّاطة، كلاهما قَلِقٌ، كلاهما متلهفٌ نيابة عنها، ما خطرَ ببالِها، [أيّ وجهٍ سأراقبه]؟

بعدها، في يوم السبت من أنهايم، وصلتْ برقيةٌ:

حادثة نقطة سقوط نقطة من الحصان نقطة ما من عظام مكسورة بل رضوضٌ في كلّ أجزاء الجسم بما فيها الوجه اليدينً نقطة شيء غير مُستساغ البتة نقطة وا حسرتاه سان فرانسيسكو لا مجال للتفكير فيها الآن

لم تقلْ مارينا شيئاً لريشارد كم كانت مُحبطةً؛ اعترفتْ لنفسها أنها غاضبةٌ أكثر مما هي مرتاحة. إن لم يتمكنْ بوغدان من حضور افتتاح مسرحيتها، فلا بدّ أنه يشعر ـــ فليكنْ، فكرتْ. وتساءلتْ ماذا كانت تعني بذلك.

ليلة الأحد رأتْ مارينا في منامها أنها قبيل صعودها إلى خشبة المسرح أبلغها بارتون أنه يتعين عليها أن تمثل دورها بالروسية.

في يوم الاثنين، كانت مارينا في حجرةِ تبديلِ الملابس خاصتها ثلاثَ ساعاتٍ قبلَ رفعِ الستارة، تؤدي بعض الطقوس النظامية الصغيرة. وقفَ ريشارد بجوارِها، مشدودَ الأعصاب كزوجٍ بقفازيه الأبيضين الجديدين الشبيهين بقفازَيْ طفل منتعلاً جزمتين من الجلد اللماع، متمنياً أنه جنَّدَ الروحَ الصحيحةَ من الصلابة المطمئِنة كي يُظهر دعمه ويهدئ أعصابها. (تذكّر تلك النظرة على وجه بوغدان المُعبِّر، الساخر.) كان قد رافقها من الفندق، رآها منخرطةً مع مُلبِّستِها، ثبّت البرقيات الكثيرة المُرسَلة من بولندا على حصيرة فلين معلّقة على الحائط بجانب المرآة، واضعاً في الأعلى البرقيات المميّزة ـــ تلك المُرسلة من هينريك، من أمها ويوزفينا، وبربارة وألكسندر، وتاديوش، وكرستينا، وبعض الممثلين الشبان في «المسرح الإمبراطوري» ـــ ثم غادر كي يذرع المجاز جيئةً وذهاباً. في السابعة والنصف رجع ريشارد، مُجهَّزاً بلغةٍ مميّزة ممتعة، كي يخبرها أن الإنارة كلها جاهزة (أضاءَ رجلُ الغاز «الحدود» بمشعل وسارية طويلة، و«الأجزاء السفلى» أمام الستارة، وحوّلها إلى اللون الأزرق)، الأبواب فُتحتْ، والجمهور ـــ كان بوسعه أن يرى مُواطنيْ بلدِهما قد غادروا منازلَهم قسراً ـــ كانوا مصطفين في أرتالٍ بغية الدخول إلى المسرح.

بما أنّ أدريانا لا تظهر في «الفصل الأول» من المسرحية، ثمة متسع من الوقت لبارتون كي يقدّم تفسيراً للجمهور. صحيح، لم تكنْ صالة المسرح مكتظةً، إلّا أنّ عدداً ضخماً من مرتادي المسرح كانوا هناك، بالإضافة إلى جولييت الأمريكية المتسيدة، روز إدواردس، التي سجلت اسمها في «مسرح كاليفورنيا» الأسبوع المقبل كي تكونَ هي نجمة الميلودراما البريطانية الرائجة دائماً «*إيست لين*»[1].

«انتظري إلى أن تراكِ روز»، صاح بارتون. «إنها ممثلة جيدة، وهي

1- إيست لِين East Lynne: ميلودراما «مشجاة» كتبها جون أوكسفورد مُعدّة عن رواية السيد هنري وود. عُرضتْ أول مرة في لندن العام 1866. وتُعدّ أشهر مسرحة للرواية وأكثرها عرضاً، «الموسوعة المسرحية»، ج 1، جون رسل تيلر، ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي، دار المأمون، بغداد 1990: 179 – م.

ليستْ حمقاء أيضاً. ربما ستقولُ لي إنها لا تجرؤ على أن تسيرَ في أعقابك، ويمكنكِ أن تشاهدي أسبوعها».

«أنا أشكّ في أن يكون بمستطاع أيّ ممثلةٍ ناجحةٍ أن تقدّم عرضاً كهذا»، قالت مارينا، باسمةً. «أنتَ ذكيٌّ جدّاً، سيد بارتون، في الإبقاء على معنوياتي عاليةً».

«إنما أين هو خوفي»، سألتْ مارينا نفسها، بعد أن صرفتْ كلا الرجلين كي تُكمل استعدادها الباطني الأخير واختبار المرآة[1]، وتنتظر نداءات الفتى الذي يدعو الممثلين لأداء أدوارهم كي تدخلَ في «الفصل الثاني». واقفةً في الجزء الجانبي من خشبة المسرح الذي لا يراه المشاهدون، لا تزال لم تسجلْ حتى الآن أيّاً من الأعراض العنيفة لرهاب المسرح، الراحتان المتعرّقتان، والقلب المتسارع، والمعدة المعقودة. بدا لها أنه حتماً كانت مجنونةً كي تمتلك هذا اليقين بأن كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام. وبعدها أدركتْ أنها باتتْ خائفةً أكثر من أيّ وقتٍ من أوقات حياتها، إلّا أنّ الخوف كان في الخارج، مثل تكثف مستحيل للهواء. كانت قد حُزِمتْ بخوفها ــــ خوفٌ بارد دون رنين جسدي، باستثناء توتر جلدها ــــ وفي الداخل أحستْ بأنها هادئةٌ ومترفةٌ. هي أكثر من مُترفة بنحوٍ كافٍ بالنسبة لهذه الكلمات التي تحملها. الكلمات الإنكليزية، التي تقبع وراءها كلمات المسرحية بالبولندية، ووراءها الكلمات الفرنسية للمسرحية الأصلية، التي درستها حين كانت تستعد أولَ مرة لأداء الدور في وارسو... إنما كلُّ شيء يجب أن يكونَ في الداخل، مُصاناً حيال الخوف. بشرتُها، كلُّ بشرتِها، من فروة رأسِها حتى أخمص قدميها، هو الحاجز إزاء الكساء الحديدي للخوف؛ الجزءُ العلوي من جسمِها ــــ فمُها، ولسانُها وشفتاها، وعنقها، وكتفاها، وصدرها ــــ هو

1- اختبار المرآة mirror check: اختبار المرآة هو اختبار نفسي صممه النفساني Gordon G. Gallup في العام 1970، لتحديد مقدرة الحيوانات على التعرف على نفسها في المرآة. يستخدم هذا الاختبار كمقياس للوعي الذاتي عند الحيوانات. استُخدِم هذا الاختبار في علم النفس التنموي لتحديد العمر الذي يقدر به الإنسان على إدراك نفسه في المرآة وهو في بداية الشهر الثامن عشر من عمره تقريباً، وبالطبع هذا الأمر يختلف من شخص إلى آخر – م.

الوعاء الذي خُزنتْ فيه الكلمات الندية والتي بدأتْ بالتدفق، بالإنكليزية، لمّا صعدتْ إلى خشبة المسرح.

سوف تبدأُ، فيما كانت تذكّر نفسها ثانيةً قبل أن تمشي إلى داخل الضوء بوقتٍ قصيرٍ جدّاً، دون رجّة الترحيب الحماسي ذلك أنها في بولندا كان يُرحّب بدخولها بنحوٍ ثابت، وكان دخولها هذا يجعل المسرحية تتوقف ويمنعها الجمهور مراراً من أن تنطق الكلمات الأولى من دورها المسرحي. سيكون هنالك ـــ باستثناء مواطنيها ـــ تصفيقٌ مؤدَّب موجزٌ لا غير. كانت قد رأتْ، حتى مع بوث الرائع، أن الجماهيرَ الأمريكية لا تقاطع بالتصفيق بعد أن يُلقي المشاهير أحاديثَ كثيرٌ منهم حفظوها عن ظهر قلب. («في الأوبرا، نعم»، أخبرها بارتون.) كيف يمكن أن يُبدي هذا الحيوان الجديد حماسته، وعدم اكتراثه، واستياءه، واستعداده للترويض؟ كانت تعرف كيف تفسر التصفيق البولندي، فضلاً عن السعال البولندي، والهمسات، والتغيير في المقاعد. غير أن هذا الجمهور بدا في منتهى الهدوء. كيف يُمكنها أن تفسّر هذا الأمر؟ لمّا بدأتْ خرافة الفتاتين (*فتاتان كانتا عاشقتين كلاهما مرهفةً وحقيقية...*) توقف السعال كلُّه، وبعدها تعالتْ عاصفة من التصفيق، وصرخات، ونداءات. توم دِين حاولَ خمسَ مرات أن يبدأ بكلماتِ دورِه المسرحيّ بوصفه موريس قبل أن يفلح في الاستمرار. بدا بلا عزاء بكل معنى الكلمة. حين انتهى الفصل غادرتْ مارينا الخشبة منتشيةً، فيما كان الجمهور يهدر، ويصفق، ويضرب الأرض بأقدامه. في المدة الفاصلة تجوّل ريشارد في ردهة الانتظار مع بارتون والآنسة كولينغرج. «عرض باهر! عرض باهر!». سمع هذه الكلمات مراراً وتكراراً، وكانت تعلو على أصوات الدردشة المفعمة بالحيوية والنشاط، وعلى الانحناءات، والابتسامات، والمصافحات، والتلويحات المشترَكة. رجلٌ بقبعةٍ رسمية رحّبَ ببارتون بـ «الآن تستحق هي ثلاثين ألف دولار في السنة!». ـــ المُحرِّر في «*إيڤننغ بوست*»، عرفَ ريشارد من بارتون فيما بعد ـــ وقالت زوجته، التي فرضت نفسها بتنورتها المسائية المزوّدة بذيل، إنه فيما كانت إنكليزية مدام زالينسكا

تملك ظلّاً من الصفة الأجنبية، لا بدّ لها أن تُبقي عليها كما هي، لأنها تجسيدٌ للحلاوة. الآنسة كولينغرج لم تردّ على بسمةِ ريشارد الغادرة.

طفقتْ مارينا عائدةً إلى «الفصل الثالث» على موجةٍ من الطاقة بدتْ أنها آتية من منطقةٍ أعمق في داخلها. أحسّتْ بأنها مطوّقةٌ بهالة ناعمةٌ، وخفيفة الأطراف، ليستْ سريعة التأثر. في الجناح المظلم، مَشهدٌ من لقاء أدريانا الأول مع منافستها للفوز بحُبّ موريس، كان إخراجاً مسرحيّاً مقبولاً بالنسبة لأميرة بولون كي تدنو من أدريانا ومعها شمعة كي ترى ما وراء المظهر الكاذب للمرأة المجهولة التي عرضتْ بشهامة أن تنقذها من وضعٍ معرّضٍ للخطر. متفتحةً، مُهدأةً، شاهدتْ مارينا الشمعةَ تدنو منها رويداً رويداً، أشار لهبُها إلى الطاقة الكامنة في داخلها، إلى أن غطى لهاثُ الجمهور، لحسن الحظ، على صرخةِ كيت إيغان «أوه، يا للجحيم!». ـــ و«معذرةً!» ـــ وجعلها تعي أن أحدَ أركانِ خِمارها قد شبتْ فيه النار. وفيما هي تتساءل ما إذا كانت إيغان تعتذرُ عن اللغةِ التجديفية أم عن الحادث المؤسف، رمتْ مارينا الخِمارَ المشتعلَ على الأرض، في حركةٍ سريعةٍ واحدة كستْ وجهها مجدداً بشال أدريانا الحرير المتموِّج، ومدّتْ يدها كي ترشد الأميرة الشريرة إلى الأمان. ظنَّ بعض الناس أن هذا كلَّه موجودٌ في المسرحية؛ استحسن آخرون هذا الدور الصغير الجريء من الإخراج المسرحي الذي ابتكرته الممثلة البولندية.

دعوها إلى العودة في نهاية «الفصل الثاني» و«الفصل الثالث» من أجل مزيدٍ من التصفيق.

كان إلقاء الكلمات التي كدحتْ طويلاً جدّاً كي تنطقها بشكلٍ صحيح هو مجرد جزءٍ واحد من سيلِ الوقائع المتناغمة في بدنها. فيما يتصل بالتقفية المحتومة لبعض الكلمات مع شيءٍ من مشاعرها (أيّ ممثل، مهما كان الدور المسرحي، لا يشعر بهذا الأمر؟)، مرةً واحدةً فقط، ودوماً في النهاية، سمحتْ مارينا لنفسها بأن تفكّر بالكلمات. حين تقول أدريانا في اهتياجها: «*الآن في هذه المسرحية ثمةُ كلمات من دوري المسرحي يمكنني أن أقولَها*

أمام الجميع وما من أحدٍ سيعرفُ أني أوجهها إليهم»، فكرتْ مارينا في نفسها، «إذا حققَ هذا نجاحاً، إذن كنتُ أوجّه كلماتِ أدريانا عن الحُبّ إلى ريشارد».

إنها فكرةٌ ذكية، أليس كذلك؟

يتعيّن على المرء أن يُغرم بشخصٍ ما.

كان ذلك أفضل تمثيل لدور أدريانا قدّمته حتى الآن ــــ ونصراً يفوق أيَّ شيء كانت تتمناه. أحد عشر نداء ستارة[1]، أحد عشر. وبعدها مئات الأشخاص احتشدوا وراء الكواليس كي يهنئوها؛ بمَن فيهم جميع البولنديين (باستثناء صديقتهم السارقة، مع أنّها كانت متيقنةً من أن هاليك كانت بين الجمهور)، يبتسمون بابتهاج ويتحدّثون من غير كلفة ويتعانقون. المخدوع القبطان زنانيكي العجوز لم يتمالكْ نفسه من توبيخها لأنها لم تسمحْ لاسمها الأول بأن يُروّس[2]، وبعدها انفجرَ بالبكاء من فرطِ السعادة والزهو؛ مارينا بكتْ هي بدورها، وعانقته. ما منحها اللذةَ الكبرى هو ثناءُ وتقدير امرأةٍ ذات شعر أسمر محمر بفستانِ سهرةٍ مطرز وحذاء كانت أوّل مَن وصل إلى غرفة استراحة الممثلين والممثلات وعرّفتْ عن نفسها بوصفها روز إدواردز، «أنا عند قدميكِ، مدام»، قالت.

بعد مضي ساعتين على انتهاء الأداء، تمكنتْ مارينا أخيراً من مغادرة المسرح.

خلال عودتها إلى الفندق مع ريشارد، توقفتْ عند طاولة المكتب وأرسلتْ برقيةً من كلمة واحدة إلى بوغدان. نصر.

بعد أن ودّعوا أحدُهم الآخرَ بنصفِ ساعة مُتمنياً له ليلةً هانئةً، ريشارد، الذي كان قد انتقل إلى الـ «پالاس» قبل يومين، جاء إلى شقة مارينا. كانت في انتظاره. كانت تعرف أنها في انتظاره لأنها لم تخلعْ ثيابها كي تنام في سريرها، كما لم تبدأ بتحضير أحد أسرار جمالها غير المرئية أكثر: مربعات الورق البني

1- نداء الستارة curtain call: تصفيق استحسان في نهاية المسرحية تحمل الممثل على العودة إلى المسرح – م.

2- يُروّس to be Russified: يجعله روسيّاً – م.

المنقوعة في خل عصير التفاح التي كانت تلبسها على صدغيها حين تنام، التي تجعل البشرة المحيطة بعينيها ناعمةً وخاليةً من التجاعيد. كانت تعرف أنها تنتظره لأنها قلبت الخراطيم في حاملات المصابيح الجدارية هكذا، إلى أن استحمت الحجرة بالظل. كانت تعرفُ أنها تنتظره لأنها نظرتْ مدةً طويلةً جدّاً إلى السرير الضخم، من خشب الماهوغاني، ذي اللوحة الرأسية[1] التي ترتفعُ نحو منتصف المسافة إلى السقف الذي يقعُ على ارتفاعِ خمس عشرة قدماً، وتساءلتْ أولَ مرة عن الشيء الذي لا تحبه فيه، ومن ثم رفعت الوسادةَ الأولى، والثانية، وبعدها الثالثة، من الوسائد المكتنزة الست المحشوّة بزغب البطة وحشرتها في قاع خزانة ثياب في غرفة ارتداء الملابس.

تبادلا القبلات فيما كانت تغلقُ الباب؛ كانا ما يزالان يقبّلان بعضهما بعضاً حين قادته إلى حجرة النوم، قبلاتٌ سريعة الخدوش أشبه بالكلمات، بالخطوات: أحسّتْ مارينا بأنها تجرّه وراءها بفمِها. ولمّا ارتميا على السرير، وهما ما يزالان لابسين ثيابهما، مُغلَقين، كانت قوةُ جسديهما الملتحمَيْن قد فصلتا رأسيهما. بدا فم مارينا شريداً بكلِّ معنى الكلمة. في غضون ذلك، كانت أذرعُهما وسيقانُهما المتشابكة تفتشُ عن الوضع الأحسن، عن القرب المفتوح. «أعتقد أني أشعر بالحَرَج»، تمتمتْ قبالة وجهِهِ. «أنت تجعلني أحسُّ كأني فتاة في مَيعة الصِّبا».

هبّتْ على قدميها كي تنضو عنها ثيابَها وأمسكَ ريشارد بها من رسغها. «لا تخلعي ثيابكِ الآن. أعرف كيف تبدين. لقد عشتُ مع جسدكِ في بالي ردحاً طويلاً جدّاً من الزمن. ثدياكِ، وفخذاكِ، كهف الحب خاصتكِ ـــ يمكنني أن أحكي لكِ عنها».

«إلّا أنّي لستُ فتاةً»، قالت.

حرّر ذراعها ووقف. بنحوٍ منفصل، بوقار، خلعا ثيابهما. طوّق الطول الناعم لجسمها بذراعيه.

1- اللوحة الرأسية head board: لوحة خشبية تشكّل مُقدم السرير – م.

«يمكنني أن أهبكَ فؤادي، ريشارد. إلّا أنّني لا أستطيع أن أعطيكَ حياتي. أنا لستُ أدريانا لوكوڤرييه» ـــــ قهقهتْ. «أنا فقط ممثلةٌ ناضجةٌ أخرى تستمتعُ بتجسيد تلك الفتاة الطائشة».

اضطجعَ على الفراش وفتحَ ذراعيه لها. استلقتْ فوقه. «تفوحُ منكَ رائحة الصابون»، همستْ.

«أنتِ الآن تدفعينني لأن أشعرَ بالخجل»، قال لها.

«كانت رحلةً طويلةً جدّاً لكلينا حتى نصلَ إلى هذا السرير».

«مارينا، مارينا».

«سأعرف أنكَ لم تعدْ تحبني حين تنطقُ اسمي مرةً واحدة فقط».

«مارينا، مارينا، مارينا».

«حين تنتظر شيئاً ما مدةً طويلةً جدّاً ألا يغدو هذا الشيء؟ أوه...». لهثتْ.

«مَن يقول إننا انتظرنا زمناً طويلاً جدّاً؟». قال.

«كفانا أسئلةً!»، أنّتْ، وجرّته أكثر إلى داخلها، مطوّقةً إياه بكل أوصال جسمها.

بعد أن غمر كلّ واحدٍ منهما الآخرَ باللّذة وارتميا منفصلَين لحظةً، مستلقيين جنباً إلى جنب، سألها ريشارد ما إذا كانت تفكرُ فيه قليلاً لأنه طوالَ هذا الوقتِ كلِّه الذي كان مغرماً فيه بها كان ما يزالُ يذهب مع نساءٍ كثيرات.

«كوني صادقةً معي، مارينا».

ردّتْ عليه ببسمةٍ مُبهَمَة، مُتوهِّجة.

الحقيقة هي، أن ريشارد لم يكنْ يصدّقُ تماماً أن مارينا ستكونُ مُلكَه في يومٍ ما. حُبُّه لمارينا، في أصدق حالاته، كان مكسوّاً بشعور لاذع ببُعد احتمالِ تحققه. غير أنه لم يكنْ قادراً على القفز أبعد من الرغبة. شأنُه شأنَ كتّابٍ كثيرين، لم يكنْ ريشارد يؤمن حقيقةً بالحاضر، بل فقط بالماضيَ والمستقبل. وكان يمقت تمنّي شيءٍ ما يعتقد أنه لا يستطيع نيله.

«أنتَ تحصلُ على ما تريده، وهذا يجعل كلَّ شيء صحيحاً».

غرقتْ في النوم بعد أن مارسا الحب ثانيةً، رأسها على صدره ورجلها مرميةٌ على فخذيه: مع أنّه كان ما يزال يريدها، تعيّن عليه أن يدعها وشأنها، لأنها حتماً كانت مُرهَقةً؛ حاولَ أن يحذو حذوها ويستسلم للنوم، إلّا أنّ رغبةً لا تُشبع وسعادةً غامرةً، منعتاه من النوم. أمضى بقية الليل وهو ينجرف نحو النوم، متحمّلاً جسم مارينا، وعند حافة النوم يستيقظ من جديد مع الفكرة القائلة، «لكني ما أزال يقظاً». حين انبلج الفجر، كان قد غطَّ في النوم، واستيقظ بعد مضيّ ساعات قلائل كي يجدها ما تزال تطوّقه بأطرافها، وتساءل ما إذا كان بوسعه أن يتحرّك دون معرفتها؛ يجب أن تستمر في نومها، أطولَ مدةٍ ممكنة، كي تستعيدَ كلَّ قوتها من أجل أن تمثل دور *أدريانا* آخر هذه الليلة.

إلّا أنّها كانت صاحيةً، وراحتْ تغطيه بقبلاتها. «أوه، كم أشعر بالحيوية!». صاحتْ. لقد أعدتَ إليَّ جسدي. أيّ دورٍ آخر سأمثّله. وكل أصدقائنا وصديقاتنا البولنديين، الذين حتماً كانوا يفكرون في سبب عدم وجود بوغدان هنا في سان فرانسيسكو، سوف يتأكدون من أن السبب هو أنت. موريس خاصتي سوف يلاحظُ بكلِّ تأكيد، حين أستكنُّ على صدرِهِ كي ألقي خرافة الفتاتين بأن أدريانا البناتية ليستْ خجولةً كما كانت ليلة أمس. السيد بارتون سوف يتساءلُ: «ماذا جرى للسيدة المبجلة من بولندا؟ يبدو أن النجاحَ مضى مباشرةً إلى عقلِها. عقلها!». انحنتْ عليه وراحتْ تقبّل أصل فخذه.

«السيدة البولندية مُغرمةٌ؟». قال ريشارد.

«السيدة البولندية مُغرمةٌ بنحوٍ مؤكد ـــ بنحوٍ طائش ـــ بنحوٍ غير مُحتشِم».

بعد أداءيْن آخريْن لدور «*أدريانا*»، في ليلة الخميس افتتحتْ مارينا مسرحية «*كاميليا*»، وبعد ثالث أداء لدور «*كاميليا*» في حفلة نهار السبت، أنهت الأسبوعَ بدور آخر لـ «*أدريانا*». كانت صالاتُ المسارح مكتظةً على الدوام، وكانت الاحتفاءات مطوّلةً وجذلةً أكثر، جماعة المعجبين بثيابهم الفاخرة الذين قادهم بارتون المتهلّل إلى الكواليس أعدادهم أكبر بكثير. رحّبتْ بهم بالاسم بعد الزيارة الأولى فقط، الطاقات البرّاقة لأدائها سرعان

ما جفتْ في صخب تبادل غرفة استراحة الممثلين والممثلات ـــ كانت مبتهجةً (نعم، شكراً، شكراً... آه، أنتَ لطيفٌ جدّاً)، سهلة التسلية، ومنيعةً. ليتهم عرفوا الثمن الذي وجب عليَّ أن أدفعه ـــ ويجب عليَّ أن أستمر في دفعه ـــ كي أفعلَ ما أفعلُه الآن! والآن لديها سرٌّ آخر: الطيش المألوف لما بعد العرض كان قد تكثف بالترقّب الجنسي. إلّا أنّ الأشخاص الذين أقبلوا كي يتمنوا لها الخير يجب صرفهم، وأزهارهم تُسلّم إلى مُلبِّسَتِها وخازني أدوات التمثيل عليهم أن يفسحوا المجال لأزهار اليوم التالي، قبل أن تعود، أخيراً، مع ريشارد إلى الفندق.

كان الأكبر من بين الثناءات الزهرية التي جُمعتْ معاً في غرفة تبديل الملابس خاصتها قبل أداء دورها مساء السبت هو سلّةٌ ضخمةٌ ضُفرتْ بهيئة برجٍ بطبقة فوق طبقة من الأزهار الحمر، والبيض، والزرق. من برج الجرس تتدلى شريحةٌ مربعةٌ من الرَّق ذي حافة ذهبية.

«قصيدة»، قالت مارينا. «غير موقّعة».

«بالطبع!». هتف ريشارد. «إنها شيءٌ محتوم. لقد ملكتِ فؤادَ كاتبٍ آخر. أعطني قصيدتَه وسأخبركِ، بموضوعيةٍ تامة، إذا ما كان نِدّي الجديد لديه موهبةٌ أم لا».

«لا» ـــ ضحكتْ مارينا ـــ «سأقرؤها لكَ. لا يمكنها أن تكون أصعب من سونيته ألّفها شكسبير، ولحسن الحظ، الآنسة كولينغرج ليستْ هنا كي تُصحّح نُطقي».

«الحظ السعيد هو ملكي».

«*يا عزيزي أنت تبالغ!*[1]. الرجال الغيورون ربما يكونون مثيرين على الخشبة إنما في الحياة الواقعية يغدون حالاً مُملين جدّاً».

«*أنا* مُمل»، قال ريشارد. «الكُتّاب مُملّون».

1- يا عزيزي أنت تبالغ: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل Là mon cher, tu exagères!- م.

«ريشارد، حبيبي ريشارد»، صاحتْ ـــ تأوّه بفرح ـــ «سوف تكفُّ عن التفكير في نفسكَ وتنصت فقط».

«متى يسعني القيام بشيءٍ آخر؟».

«ششش...».

«إنما أولاً عليَّ أن أقبّلكِ»، قال.

تبادلا القبلات، ولم يشعرا أنهما يريدان الانفصال.

«أما زلتِ تريدين أن تضطهديني بقصيدة ندّي؟».

«أجل!». رفعت الرَّق مجدداً، أمسكتْ به أمامها، وتكلّمتْ بطريقةٍ خطابيّة، بما أطلقَ عليها النقادُ البولنديون «الصوت الفضي»:

هنا صوتُ الشهرة لم يقدّرْ موهبتكِ حقَّ قدرها،
ولم يُعلن سوى كونكِ أجنبيةً جميلةً أتتْ إلى هنا.

خفيفاً كان الترحيبُ الذي أعددنا له ـــ
حتى عواطفنا أنتِ قلّما تقاسمتِها؛
لا ـــ

«أوه، مدام، مارينا، عزيزتي مدام مارينا»، صاح ريشارد، «عواطف sympathies وليس *sympaties*».

«قلتُ sympathies، أيها الأبله»، زعقتْ مارينا، ومالتْ كي تقبّله قبل مواصلة القراءة:

لا يعرفكِ أناسكِ بوصفكِ الفنانة ـــ
نظرنا إليكِ بوصفكِ مبتدئةً قليلة الخبرة.

«أها، ندّي مجرَّد ناقد مسرحي!».

«هدوء!». قالت. وفيما هي تلفُّ يدها اليمنى، بإبهامها وسبابتها ربتتْ على صدرها، مرتين، وهي إيماءةٌ مسرحيةٌ مُبجلة، تنحنحتْ مقلِّدةً، وهبطتْ إلى نبرتها الناعمة الشهيرة:

انتبهي إلى التغيير الكبير! منذ تلك الليلةِ الزاخرةِ بالأحداث،
فقط فنكِ المُدهش الذي يبقى في المَشهد.
برغم قيود لغتكِ الأجنبية ـــ

«قيود»، قاطعها ريشارد باستهجان.
«ريشارد، لن أدعكَ تقاطعني!».

برغم قيود لغتكِ الأجنبية،
الغيرةُ تتسكعُ حول موهبتكِ المنقطعةِ النظير؛
مبتهجين إلى أقصى حدّ نعترفُ بنجاحِكِ ـــ
نجاحكِ أكبر مما كان متوقعاً.

«إلّا أنّه الآن سوف يقبّلُ حاشيةَ ردائكِ، هذا الناقدُ المسرحي الصغير».
«ولِم لا؟».

احتفظي بذكرياتكِ البولندية في ـــ

توقفتْ.
«ما الخطب، مارينا؟ حبيبتي!».
«لا ـــ لا أعرف ما إذا كان باستطاعتي أن أقرأ البيتين الأخيرين».
«ماذا يقولُ عنكِ الحيوان، مزّقي الرَّق!».
«لا، بالطبع يُمكنني أن أُنهيها».

احتفظي بذكرياتكِ البولندية في فؤادكِ وحده،
أمريكا الآن تطالبُ بأن تكوني مُلكاً لها.

أنزلت الرَّق ودارتْ على عقبيها.

«لقد حصلتَ على ما أردته، وأنتَ الآن في حالة يأس».

«مارينا»، قال ريشارد. «حبيبتي مارينا، لا تبكي أرجوكِ».

في ضحى اليوم الذي أعقب الافتتاح، نَصبَ سبعة صحافيين مخيماتٍ قلقةً، متنافسة في قاعةِ الاستقبال الضخمة التابعة لـ «پالاس هوتيل»؛ نزلتْ مارينا ظهراً. كان ريشارد قد هبطَ قبلها بساعةٍ واحدة كي يقول إن المدام ستكون حالاً معهم، وكي يبعث برقيةً إلى محرر الـ «*غازيتا پولسكا*» معلناً عن مقالته المرتَقبة الكاملة عن الظهور الأمريكي الأول لمارينا، وهو متيقن تماماً من أن هذه المقالة ستجعل جميع القلوب البولندية تخفق بالزهو. إذ عرف يوماً بعد يوم من محرِّره أن صحيفةً منافسةً تصدرُ في وارسو كانت قد أرسلتْ شخصاً ما إلى سان فرانسيسكو كي يغطي هذا الحدث، فاندفعَ ريشارد بسرعة، وبدلاً من مقالةٍ واحدة كتبَ مقالتين طويلتين، الأولى يصف فيها أداءَ مارينا بالتفصيل، أما الثانية فوَصَفَ فيها استقبالَها المثير من لدن جمهور الليلة - الأولى والنقاد، الذين، كما صاغها هو، «كلُّهم، بالنسبة له كرجل، كانوا مبتهجين إلى أقصى حدٍّ بالسحر الأنثوي والعبقرية المنقطعة النظير لممثلتنا المسرحيّة البولندية الأولى. لم تكنْ به حاجةٌ لأن يُذكّرَ قراءَه مَن هي مارينا، بل اكتفى بأن روى ما حققته فعلاً من تألقٍ وبهاء.

مَن ــــ ماذا ــــ كانت هي، هذا هو موضوعُ مارينا في حوارٍ بارع مع صحافيين محليين متيّمين ينتظرون في الـ «پالاس» صباح ذلك اليوم؛ وكان هنالك كثيرون سواهم في الأيام التالية. إن إعطاء حوار يستلزم إعادة كتابة الماضي، بدءاً بسنها (كانت قد بترتْ ستة أعوام)، سنوات ماضيها (مدرّسها في الثانوية، مدرّس اللغة اللاتينية أصبح أستاذاً أكاديميّاً في [الجامعة الياجيلونية]، بداياتها كممثلة مسرحية (أصبح هينريش مخرجَ مسرحٍ خاص مهم في وارسو حيث ظهرتْ أولَ مرةٍ على المسرح وهي في ربيعها السابع عشر)، أسباب مجيئها إلى أمريكا (كي تزور [المعرض المئوي]) ومن ثم

مجيئها إلى كاليفورنيا (كي تستعيدَ صحتها). بحلول نهاية الأسبوع كانت مارينا قد بدأتْ تصدّق بعضَ القصص هي نفسها. على أية حال، كانت لديها وفرةٌ من الأسباب للهجرة. «كنتُ عليلةً». (هل كنتُ عليلةً؟) حلمتُ دوماً بالصعودِ على خشبة المسرح في أمريكا. (هل كنتُ أعني بـ[دوماً] أن أعودَ للصعودِ على خشبةِ المسرح هنا؟).

ثم كانت هنالك الابتكارات غير الضرورية. عرفتْ مارينا لماذا قالت إنها في الواحدة والثلاثين: كانت قد بلغتْ أصلاً سن السابعة والثلاثين. أو لماذا قالت إن الإعياء الشديد وحده الذي جلبته سنوات من الإجهاد في بولندا قد أقنعها بالموافقة على أن تقضي مدّةً محدّدةً من العزلةِ الريفية «هل يمكنكُم أن تتخيّلوني، أيها النبلاء، أن أقضي عشرةَ أشهر وسط الدجاج والأبقار» قالت، ضاحكةً: لم تكنْ ترغب بأن يعتقد أيُّ فرد بأنها واحدةً من الذين يعيشون حياةً بسيطةً. لكن لماذا قالت إن الحقل كان قريباً من «سانتا بربارة»[1]؟ ما من أحد سيفكر فيها بنحو أسوأ إذا ما قالت إن الحقل كان خارج أنهايم. ولماذا تروي قصصاً مختلفةً لمحاوِرين مختلفين؟ لطالما كان أبوها باحثاً بارزاً في الأعمال الكلاسيكية وما يزال يُعلّم في جامعة كراكوف الرفيعة، والعريقة، الذي، لمّا أصبحت ابنته، «ماذا تسمّون ذلك، مهووسة بالمسرح؟». قالت بنحو ظريف، كان قد عارض بعنف آمالها في مجال التمثيل المسرحيّ (إلّا أنّي عقدتُ العزم وغادرتُ كراكوف متجهةً إلى وارسو، حيث ظهرتُ أولَ مرةٍ على خشبة المسرح في العام 1863)؛ غير أنه أكثر من مرةٍ كان رجل الجبال، ابناً وحيداً سيّئ التكيّف مع مجتمعه، وحالماً، كان يحفظ عن ظهرِ قلب قصائد الشعراء البولنديين العظام إبان أسابيع عزلةٍ طويلة الأمد في «جبال تاترا» الشاهقة يرعى خراف الأسرة، هجرَ قريته قاصداً كراكوف كي يحصل على قبولٍ في الجامعة، لم يفلحْ في أن يجد أفضل من المهن

1- سانتا بربارة Santa Barbara: مدينة في مقاطعة سانتا بربارة. يجاورها عدة بلدات صغيرة، منها: كاربينتيريا، وغوليتا، وسمرلاند، وهوب رانش، ومنتسيتو. تقع المدينة ما بين حدّ المحيط الهادئ وما بين جبال إينيز. ويصنف مناخها بوصفه مناخاً متوسطاً معتدلاً. ووفق تعداد العام 2010 يسكن فيها ما يقارب 88,410 نسمة – م.

المتواضعة، لم يتكيّف قط مع حياة المدينة، ولم يعشْ بما يكفي كي يفتخر بابنته الممثلة المسرحية، كما عرفتْ أنه سيكون كذلك. ربما يتعب المرء من سرد القصة ذاتها المرة تلو المرة.

كان بمستطاعها أن تقولَ إنها كانت حصراً تصنع ذكرياتها وفق الحاجة كي تجعل من نفسها مفهومةً: عمل امرأة أجنبية (ونعم)، قالت، «نعم، أنا مسرورةٌ بشكل خاص بأني حققتُ ظهوري الأمريكي الأول في سان فرانسيسكو.) أو اعترفتْ قائلةً، ببسمة، بأن اختلاق القصص الفنتازية هو ببساطة تسلية الممثلة المسرحية. راشيل، سمعتْ من أحد الممثلين المخضرَمين في «المسرح الإمبراطوري»، كانت تروي أكثر الأكاذيب استثنائيةً عن نفسها للصحافيين حين أقبلتْ كي تُمثّل في وارسو قبل عشرين عاماً مضت. (حالها حال كثير من الأشخاص الميّالين إلى التخيّل بنحو مُتزايد)، كما صاغها هذا الرجل الساحر برقةٍ كبيرة، (راشيل كانت ميّالةً إلى ما يسميه أشخاصٌ آخرون [الكذب]). إنما ليس من السهل أن نتذكّر أيّاً من القصص تلك التي ترويها عن حياتكِ هي قصصٌ صحيحةٌ حين ترويها كلَّها مراراً. وكلُّ القصص تستجيبُ لحقيقةٍ داخليّة معينة.

بطبيعة الحال إنه لشيءٌ مستحيل، وطائش، أن يبرّر المرءُ أفعالَه بشكلٍ تام حين يكون قد أصبح أجنبيّاً. بعض الحقائق يجب أن تكونَ مؤكدةً كي تنسجم مع آراء محلية تتعلّق بالمظهر المناسب وحسن السلوك (كانت تعرف أن الأمريكيين يحبذون أن يحكي لهم المرء عن الصعوبات وحالات الرفض المبكرة من لدن المتوّجين بالثروة والنجاح)، في حين إن بعض الحقائق، تلك التي كان لها ثقلُها هناك في الوطن، من الأفضل ألّا تُذكر قط.

في صباحِ اليوم التالي لظهورها الأمريكيّ الأول على المسرح ثلاثة مُرشَّحين لوظِيفة المدير الشخصي لمارينا كانوا ينتظرون أيضاً في قاعة استقبال الـ «پالاس»، كانوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً بكآبة، إلّا أنّ مارينا وقعتْ مع الأول الذي تشاورتْ معه، هاري أچ. وارنوك، الذي أقبل بتزكيةٍ من بارتون. كان ريشارد منزعجاً، كما أخبر مارينا تالياً، من السرعة التي حصلتْ بها على

هذا الزوج المهني. «زوج؟». بالطبع لم يحبه، ريشارد بات يتحرّك بتثاقل، إنما ليستْ هذه هي المسألة. هل كانت تعرف أنه من الآن فصاعداً وارنوك سيكون على الدوام معها (معنا، كان يعني)، هل كانت متأكدةً أنه من طراز الرجال الذين كان بمستطاعها أن تتحمل قربهم ردحاً طويلاً من الزمن، وهلمَّ جرّاً، وربما مارينا لم تكنْ تفهم كم هو مهمٌّ القرار الذي اتخذتْه، بما أنّ المديرين الشخصيين لا وجودَ لهم في «المسرح البولندي». إلّا أنّ وارنوك كان مُقنِعاً: اقترح جولةً موجزةً في وقتٍ متأخر من ذلك الشهر في نيڤادا الغربية (ڤيرجينيا سيتي ورينو) وكاليفورنيا الشمالية (سَكرمنتو، وسان خوزيه)، ظهور أول على المسرح في نيويورك في شهر كانون الأول / ديسمبر، وبعد ذلك جولة قومية أمدها أربعة أشهر. مارينا مُتلهفةٌ وثملةٌ بالنصر. اتفقا على المستودع. أغلب الأدوار التي تمثلها مارينا هي أدوار من مسرحيات شكسبير ـــــ كانت قد مثّلتْ أدوار أربعَ عشرة بطلةً من بطلات شكسبير في بولندا وخططتْ بأن تمثّلَها كلّها ثانيةً دون استثناء ـــــ فيما هي تواصل تقديم دور «*أدريانا لوكوڤرييه*» ودور «*كاميليا*» وفي المجتمعات الريفية أكثر التي كانت تملأ أيَّ جولةٍ شاملة، عددٌ قليلٌ من الأعمال الميلودرامية «إنما ليس [*إيست لين*]! قالت؛ ماذا حسبتِني، مدام؟ أعرف متى أتعاملُ مع فنانة» كانت النقودُ الموعودَةُ بها ضخمةً. في الواقع، كانا في طريقِهما إلى الاتفاق حول الأشياء كلِّها، إلى أن ذكر وارنوك أنه سعيدٌ لأن بعضَ أصدقائها وصديقاتها البولنديين كانوا يفكرون ليلةَ أمس بأن يقولوا له إنها كانت كونتيسة. سيجد استخداماً جيداً لذلك الأمر كي يجعل منها نجمةً!

«آه، لا. وارنوك!» ـــــ جعّدتْ مارينا أنفها بنفور ـــــ «هذا لن يكون صحيحاً على الإطلاق. لأن تدنيساً كهذا لاسم الأسرة لن يغفرَه لها شقيقُ بوغدان. هذا لقب زوجي، وليس لقبي»، قالت. وآملةً أن يروق للشخص المتواضع في هذا الرجل الممتلئ الجسم ذي الدبوس الزيني[1] المصنوع من الماس، «فنانة ـــــ ممثلة مسرحية ـــــ هو لقبٌ كافٍ بالنسبة لي».

1- الدبوس الزيني scarpin: المقصود هنا في النص أعلاه الدبوس الزيني الذي يُثبّتُ طرفيْ عقدة الرقبة في موضعهما – م.

«نحن لا نتحدّث عنكِ، مدام مارينا، نحن نتحدّث عن الجمهور»، قال وارنوك بنحوٍ لطيف.

«لكن في برامج حفلات المسرحية! كيف يمكنني أن أكون الاثنتين معاً: مارينا زالينسكا والكونتيسة ديمبوڤيسكا».

«إنه لشيء هيّن».

«إنه شيء غير وارد في بولندا»، صاحتْ، وعرفتْ أنها خسرت المناقشة أصلاً.

«حسناً، هذه هي أمريكا»، قال وارنوك، «والأمريكيون يحبون الألقاب الأجنبية».

«و ـــــ وسيكون شيئاً سوقيّاً جدّاً بالنسبة لي أن أسمح لنفسي بأن أُدعى كونتيسة في حياتي المهنية».

«سوقيّاً؟ إنه نوعٌ من التكبّر الشنيع أن يقول المرء ذلك، مدام مارينا. الأمريكيون لا يشعرون بأنهم يؤدبون حين يُقال لهم إن شيئاً ما يستمتعون به سوقيّ».

«لكن الأمريكيين يحبون نجمات المسرح»، قالت، وهي تبتسم بقسوة.

«نعم»، قال، «الأمريكيون يحبون نجمات المسرح». هزَّ رأسه بتأنيب. «وإذا ما أحبوكِ، يمكنكِ أن تجمعي مالاً طائلاً».

«سيد وارنوك، أنا لم آتِ من كوكبٍ آخر. في أوروبا الجمهور يولعون بنجمات المسرح. الجمهور يرغب بأن يحب حتى العبادة، نحن نعرف هذا. على الرغم من ذلك، في بولندا، كما هو الحال في فرنسا والبلدان الناطقة بالألمانية، المسرح هو أول الفنون الجميلة قاطبةً، ومسارحنا الرئيسة، تلك التي حافظتْ عليها الدولة، مكرّسة لنموذج من ـــــ».

فيما كانت مارينا، الجالسةُ مع وارنوك في إحدى حجرات الاستقبال في الـ «پالاس»، تحاولُ بهدوءٍ أن تجعلَ مديرَ مسيرتها الأمريكية المستقبلية يقدر لحظةً واحدةً فقط المقام والامتيازات التي تراكمتْ من المسيرة الفنية في «المسرح الإمبراطوري» في وارسو ـــــ الخدمة الوظيفية الآمنة والترقية

المستمرة عبر الدرجات، وإعفاءات من التجنيد الإلزامي لجيش القيصر، وضمانٌ في المجالات كلِّها، وعند الإحالة على التقاعد، راتبٌ تقاعديّ سخيّ مدى الحياة «الممثلُ موظفُ خدمةٍ مدنيّة»، قالت؛ «هو ماذا؟»، هتف ـــ روز إدواردز، وهي تذرع المكان جيئةً وذهاباً في مكتب بارتون، كانت في حالة هجوم سريع. «كما تعرف، أنغوس، لستُ معتوهةً، وينبغي لي أن أخبركَ بصراحة أني لا أستطيع أن أمثّل بعد ممثلةٍ عبقرية كهذه. وفي مسرحية «*إيست لين*» القديمة العزيزة ـــ كان يجبُ أن يجلدَني النقاد المسرحيون. هل ستفكرُ فيَّ بنحو سيّئ إذا ما ألغيتُ أسبوعي؟ لا يسعكَ، أنتَ صديقي. أعلن أني مريضة، أنغوس. وبوصفكَ صديقاً، هل يُحتمل أن تفكر في دفع فاتورة فندقي وتكلفة وصولي إلى هنا والسفر بوسائط نقلٍ مريحة إلى تعهد الأسبوع التالي؟ نعم؟ لا؟».

«عزيزتي، عزيزتي روز!». جأر بارتون برهافة. «ما يتعين عليَّ أن أُعلنه غداً في الصحف كلها هو أنكِ بمحض إرادتك الحرّة سوف تنسحبين من تعهدكِ هنا لصالح مدام مارينا. الجمهور سوف يستحسنُ التفاتتكِ النبيلة، يرحّبون بكِ بنحوٍ حماسي أكثر في المرة القادمة حين تمثلين في كاليفورنيا، وسأعطيكِ ليس فقط التكاليفَ التي طلبتِها بل خمس مئة دولار أيضاً».

هكذا كان بارتون قادراً على أن يبلّغ مارينا، كما تمنّى، أن روز إدواردز تخلّتْ عن أسبوعها.

في الأسبوع الثاني كررتْ مارينا دوري أدريانا ومارغريت غوتييه خاصتها وتجاوزتْ بالنهايةً فعلاً اللغة الإنكليزية، أضافتْ دور جولييت. كان توم دِين مسروراً أن يؤدي دور روميو خاصته، جيمس غلينوود أدّى دوره المحبَّب فرير لورنس، وكيت إيغان اقترحتْ تنويعاً مخيّباً للآمال على دور مُربية جولييت، الأمر الذي صفحتْ عنه مارينا، مثلما صفحتْ عن كيت على اشتعال الخِمار ـــ بنحو غير متعمَّد بكل معنى الكلمة؟ بالطبع لا ـــ في الليلة الأولى. جولييت العام المنصرم في «مسرح كاليفورنيا» كان يتعين عليها أن تشعر بالاكتئاب لأنها تحوّلتْ إلى دور المرضعة، وكانت مرغمةً

على أن تكون مبتهجةً وقاسيةً مع موضوع مانشيت من مثل «ظهور أول في [مسرح كاليفورنيا] يسجّل عهداً مُميزاً في [الفن المسرحي]» و«أروع ممثلة في العالم تقدّم ظهورها الأمريكي الأول في سان فرانسيسكو».

مطوّقةً نفسها بسبب الغيرة التي ترافقُ النجاحَ باستمرار، تذكّرتْ مارينا سنتها الأولى في المسرح الإمبراطوري. كان مجيئها قد وجّه إهانةً قويةً للنظام القديم، الذي كان قد صيغ على غرار الـ«كوميدي فرانسيز»، حيث كان الممثلون فيه يُجنّدون في الغالب من المدارس المسرحية الإمبراطورية، وكان ينبغي للدخلاء القليلين المقبولين في الفرقة أن يبدؤوا مسيرتهم الفنية من أدنى الدرجات. لم تكنْ هنالك سابقةٌ فيما يتعلق بالدعوة التي تلقّتها مارينا من مدير المسرح الجديد ذي العقل الإصلاحي، الجنرال ديميتشوف، بالمجيء من كراكوف إلى وارسو من أجل مسرحيات يشارك فيها نجومٌ - ضيوف يبلغ عددهم اثني عشر ممثلاً وممثلة؛ لم تسمعْ بأيّ أحد منهم، وإن الشيء الذي أزعج الممثلين الآخرين كثيراً جدّاً، هو أن العقد مدى الحياة الذي عرضه عليها ديميتشوف في ذلك الحين كان يتضمن حقها في أن تختار هي بنفسها أدوارها المسرحية. يا لجودة الطريقة التي فهمتْ فيها مارينا عبوسَ زملائها الجدد، قبل أن ترغمهم على أن يحبّوها. كانت تشعرُ دوماً بأنها تحسدُ نجاحَ أيٍّ من منافسيها المزعومين (فنتازيا حقيرة: أوه، ليت غابريللا إيبرت تشاهدها الآن!) إلّا أنّ الممثلين الأمريكيين بدوا شهاماً بنحوٍ مُذهِل. (كانت تسعى إلى تقليد هؤلاء الأمريكيين وإلى تحسين شخصيتها). في أمريكا الممثلون كانوا يتكلمون عادةً بشكل حسن عن بعضهم بعضاً، ويبدون توّاقين لإبداء إعجابهم.

بدا الأمر طبيعيّاً جدّاً بالنسبة لمارينا بأن تكون مغمورةً بالإعجاب، كما هو الحال لمّا وجدت الحرية بأن تتقبّل حبّ ريشارد. إذ كان هنالك صوتٌ يقول لها، «إن لحناً رعويّاً كهذا لا يمكن أن يستمر طويلاً»، ما كان بوسعها أن تسمعه.

سمعه ريشارد، استحضره في الأمكنة كلِّها. كان كئيبَ المزاج، مؤنّباً:

بشأن ماذا بالضبط، أياماً قلائل بعد أن أصبحا عاشقين، كان قد وعد مارينا بأنه لن يصبح كذلك. كانت قد استخرجتْ هذا من داخله بواسطة سؤال بارد. «الآن وقد امتلكتني» ـــ كانا يتكاسلان في السرير في ساعةٍ متأخرةٍ من صباح يومٍ ما ـــ «ما الذي ستفعله معي؟». إنما في ذلك الحين، فكر، لقد قلتُها بأيِّ حالٍ من الأحوال؛ كنتُ أريدُها أن تفكر بي بوصفي ضوءاً، ضوءاً، ضوءاً.

«يا له من سؤال، حبيبتي! سأنظر إليكِ. ما دمتُ قادراً على أن أراكِ يوميّاً، سأكون سعيداً».

«فقط انظرْ إليَّ؟ متى لا تستطيع القيام بذلك؟».

«الآن» ـــ جرّها باتجاه جسمه ـــ «يمكنني أن أراكِ... بنحو أقرب».

«إنما بالطبع لم يكن الأمر بتلك البساطة».

كان ريشارد يعتقد أنه روحٌ حرّة، طليقة، لن تقيّده الغيرة. كيف يتسنى له أن يعرف خلاف ذلك؟ حتى الآن، النساء اللائي امتلكهن لم يُغرم بهن والمرأة التي أُغرم بها لم يمتلكها. الآن وقد امتلكها، أو ظنَّ أنه امتلكها، كان قد اغتاظ من جميع معجبي مارينا. وبالطبع، كانت هنالك خطابات من بوغدان، والبرقية العَرَضية، التي لم تحاولْ مارينا أن تخفي وصوله، وكان ذلك يعني أن الخطابات كانت تعودُ من مارينا إلى بوغدان. إلّا أنّ ريشارد لا حقَّ له أن يتوقعَ وصفاً لهذه الرسائل المتبادَلة. في أول الأمر كان ممتنّاً لأن بوغدان ظلَّ غير مذكور. بدا كما لو أنّ الرجل قد نُفي من الكون بطريقة سحرية. الآن بدا كما لو أنّ مارينا كانت ببساطة تحمي بوغدان من خلال عدم التحدّث عنه.

كُلُّ شيء تدفق في خطبةٍ مُسهبةٍ عنيفةٍ في مطلع الأسبوع الثاني، بعد أن مثلتْ دور جولييت أولَ مرة.

«وذلك المغفل، القنصل الغواتيمالي الذي يأتي إلى الكواليس كلَّ ليلة، وهو حتى ليس غواتيماليّاً، ما اسمه، هانغكس ـــ».

«هانكس»، قالت مارينا. «ليزلي سي. هانكس».

«هانغكس أفضل»، قال ريشارد. «كنتِ تغازلينه».

وربما كانت تفعل ذلك. الرجال كلّهم بدوا جذابين لها. لماذا لا يستطيع ريشارد أن يفهمَ أنه جعلها واعيةً أكثر بملاطفات الرجال؛ سبب ذلك هو أنها كانت معه ـــ لكن لا، هو، ببساطة، كان غيوراً، غيوراً أكثر فأكثر. كان بوغدان يتسلّى فقط حين كان الرجال الآخرون يغازلونها وكانت تغازلهم هي بدورها. كان يعرف أنها لم تكنْ تعني شيئاً جديّاً بغزلها ذاك. كان يعرف أن ذلك هو جزءٌ من الطيش الطبيعي والرياء والاشتياق الذي لا يشبع لأن تكون محبوبةً وهو شيء تميل إليه كلُّ ممثلة. إنما في ذلك الوقت، فكرتْ، ريشارد هو فتى، في حين إن بوغدان رجل.

وفي الليلة التالية، كان ذاك سمسار البورصة المسمّى جون إي. ديرلي، والمَشهد نفسه تكرر ثانيةً من البداية، مع ريشارد وهو يندفع بعنف في قاعة استقبال شقة مارينا وكان يهمّ بالعودة إلى غرفته الواقعة في الطابق الثاني كي يقضي فيها ليلته، لمّا بدأتْ مارينا تضحك عليه، بعد أن صاح ريشارد، «سأقتلهما كليهما».

إنما لم تكنْ ثمة حاجة إلى إجراءات يائسة كهذه، من مثل أن يتمّ عاجلاً التبليغ عن ريشارد الذي نادراً ما يؤدَّب. بعد مضيّ بضعة أيام، وهي بالخارج تتنزه في «ماركت ستريت»، لا تفكر (كما طمأنَ مارينا) في شيءٍ سوى فمِهِ بين فخذيها، رأى ريشارد سمسار البورصة يخرج بخطواتٍ واسعة من إحدى البنايات (كانت تلك البناية، عرف ريشارد، مكتب شركة السمسرة العائدة له)، أحمر الوجه، مُحملِقاً، هادراً من فوق كتفه على رجلٍ كان يسرع وراءه عبر الباب، وبعدها ينعطف في الشارع ـــ كان آتياً نحو ريشارد ـــ في حين إن مُطارِده، الذي تعرّف إليه ريشارد الآن، القنصل الغواتيمالي، استلَّ مسدساً وأطلق النار على ظهر ديرلي. استمر سمسار البورصة في المسير بضع خطوات، سعل، أمسك بياقته، وسقط صريعاً عند قدميْ ريشارد.

ربما كان يجب عليَّ أنا أقتل ديرلي بالرصاص، لو أنّه استمر في إرسال

رسائل الغرام[1] الصغيرة تلك كلِّها. على أية حال، وصلَ هانغكس إلى هناك أولاً.

«ريشارد، هذا ليس شيئاً مُسلياً».

«الأذى هو»، استطرد قائلاً: «إني الآن لا أستطيع أن أظلّ بعيداً جدّاً عن سان فرانسيسكو. بوصفي شاهداً على القتل، يلزمني أن أشهدَ في المحاكمة، وهي من المُستبعد أن تُعقد قبل حلول تشرين الثاني / نوفمبر».

«وهل اعترف السيد هانغكس بالحافز الذي دفعه لارتكابِ الجريمة؟».

«كلا. إنه يرفض أن يقول. لا يهمّ، سوف يُشنق على جريمته. ما لم يقلْ إنه اكتشف توّاً أن ديرلي هو عشيق زوجته وكان قد خرج عن طوره بسبب الصدمة التي ألمّتْ به. في الظاهر، هم لن يشنقوكَ في سان فرانسيسكو بسبب قتلكَ عشيق زوجتك طالما أنكَ تفعلها آن اكتشافكَ أمره. كان البوليسُ يعتقد أنه تخمينٌ سيئٌ في خامات مناجم نيڤادا التي حدّثه عنها ديرلي ـــــ».

«في حين إنكَ تشك بأنهما كانا يتشاجران بسببي».

«مارينا، أنا لم أقلْ ذلك».

«لكنه شيءٌ جالَ في خاطركَ».

وهكذا كانا يتشاجران شجارهما الأول، الذي انتهى بطريقةٍ جميلة في ذلك المساء في الفراش. «أنا فقط غيور من الجميع لأني مغرمٌ بكِ إلى حدٍّ بعيد»، شرح ريشارد بطريقةٍ حمقاء.

«أعرف هذا»، قالت مارينا. «إلّا أنّه مع ذلك يتعين عليكَ أن تتوقفَ عن ذلك». كانت تهمُّ بأن تقول، [بوغدان لم يكنْ يغارُ منك هناك في بولندا]، غير أنها أدركتْ أنها لم تكنْ تعرف ما إذا كان ذلك صحيحاً.

في نهاية أسبوع مارينا الثاني من نصر سان فرانسيسكو، ويومين قبل ذهابها في جولة مدتها ثلاثة أسابيع نظّمها وارنوك يأخذها خلالها أولاً إلى الأمكنةِ

1- رسائل الغرام: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل billets – doux – م.

الغنيةِ بنحو استثنائي بالمناجم في نيڤادا الغربية، أقام بارتون حفلة توديعية. حين طلب منها أن تقترح نخباً، مدّتْ ذراعها الطويلة، رفعتْ كأسها، وفيما هي تحدّق في ضبابية ضوء الشمعة، دندنتْ، «في صحة بلدي الجديد!».

«بلد country»، تمتمت الآنسة كولينغرج. «وليس *cou – n- try*».

سيكون ريشارد بجانبها، ووارنوك، الذي كان قد ذهب مقدّماً كي يجهز كلَّ شيء، والآنسة كولينغرج، التي وافقتْ بسعادةٍ أن تضطلعَ بواجبات سكرتيرة مارينا إنما قيل إنها كانت تأمل أن تناديها مارينا باسمها الأول من الآن فصاعداً.

«بالطبع، آنسة كولينغرج، إن كنتِ تصرين على ذلك فعلاً»، أجابتْ مارينا بأن هزَّتْ كتفيها وابتسمتْ.

«كولينغرج»، قالت الآنسة كولينغرج. «بما أنّها كلمة واحدة. لا ـــــ».

«سأكون في منتهى السرور، صديقتي»، قالت مارينا، «كي أخاطبكِ بوصفكِ ميلدريد».

كانت المسافة ثلاث مئة ميل نحو «ڤيرجينيا سيتي»، موطن «كومستوك لود»، وأكبر المدن بين سان فرانسيسكو وسانت لويس. «إلّا أنّها ليستْ مدينة طبيعية»، حذّرها وارنوك قبل رحيلها، «والرحلة هي تجربةٌ كذلك». منعطفٌ حادّ في طريق الحديد مربوط بواجهة جدار غرانيت مُجلّل بالثلج، جسورٌ منصبية ضعيفة ممتدةٌ فوق وديان عميقة ـــــ التقاطع الخرافي لـ «سنترال باسيفيك» الخاص بـ «الهضبة الكبرى»، كما أخبرها أنها كانت تُسمى الـ «سييرا» تندراً، ربما تبدو مثيرةً بما يكفي. إنما الأفضل سوف يأتي حين يكونان قد وصلا إلى هناك تقريباً، بعد أن استبدلا القطارات في رينو. المسافةُ المتبقية نحو «ڤيرجينيا سيتي»، سبعة عشر ميلاً إن كنتَ طائراً، واثنان وخمسون ميلاً إن كنتَ مسافراً في إحدى أرائك «پولمان» التابعة لخطوط «سكك ڤيرجينيا وتروكي». (مغامرةٌ جامحةٌ أخرى للراحل السيد رالستون)، ستأخذهما على طول خط للسكة الحديدية درجته شديدة الانحدار، يدور ويدور مجدداً حول جبلٍ خالٍ من الشجر كي يصلا إلى المدينة الخرافية

القريبة من القمة. «لكني أعرف أن لديكِ أعصاباً قوية، مدام مارينا»، قال مختتماً كلامه.

«نعم، لديَّ». ابتسمتْ. كم يحبُّ الأميريكيون عجائبَهم. «شكراً لك، سيد وارنوك، أنا مستعدّةٌ لكلِّ شيء».

كان متيقناً من أن مارينا نسيتْ حتماً مسرحية الرحلة إلى «ڤيرجينيا سيتي» لمّا اكتشفتْ قياس المدينة - الكبيرة لأشهر مسرح في البلدة وترف فندقها المسمّى «أنترناشنل هوتيل» ذي الطوابق الستة، الذي كان ينافس الـ«پالاس» في سان فرانسيسكو في البلش[1] والذهب الزائف، والبريق الظاهري والكريستال، والخشب المطعّم بالصدف والعاج والمينا الذي يفصل بين ألوان نقشها المتعددة شرائط معدنية، وكؤوس البلّور من ڤيينا وحبال الأجراس المطرزةٌ بأناقةٍ من فلورنسا، كلُّها في تحدٍّ شجاع لرسالةِ التذكير العَرَضية التي أجلستها البلدة بشكلٍ متقن على قمة المناجم. «أنتِ تعرفين»، قال لها. «الأبواب التي لا تنغلق بغتةً، الشبابيكُ التي لم تحاولي أن تفتحيها التي تتهشّمُ، حسناً، على حينِ غرّة. نظر ريشارد إليه بنفورٍ لا يُمكن إخفاؤه. «مستعدّة لكلِّ شيء»، كررتْ مارينا بطريقةٍ حالمة. «خمود»، قالت الآنسة كولينغرج بجزم. «بالضبط»، قال وارنوك. «بين حينٍ وآخر».

افتتحتْ أسبوع تمثيلها في البلدة ذات اللقب بمسرحية «*كاميليا*».

كان المدير المسؤول عن الخشبة في «پايپرز أوبرا هاوس» قد أخبر مارينا بألّا تتوقع أن بوسع فرقته[2] أن تقدّم لها ممثلين مساعدين بخبرةِ أولئك العاملين نفسها في «مسرح كاليفورنيا». «لكنهم ممثلون جيدون، انتبهي، وكلُّ واحدٍ منهم لديه عشرات الأدوار على طول الخط. النجم بوسعه أن يجعلنا نعرف في اللحظة الأخيرة ما إذا كانت [*روميو وجولييت*] أم

1- البلش plush: نسيج ذو زئبر أطول من زئبر المخمل - م.

2- فرقته: في النص الروائي وردت كلمتا stock company: أي فرقة تقدّم عدداً من التمثيليات المختلفة في مسرح واحد (بدلاً من مسرحية واحدة يُعاد تقديمها طوال الموسم)، وبخاصة فرقة ليس فيها نجوم ذوو شهرة ذائعة - م.

[ثُمن الزنجي][1] أم [ريشيليو][2] أم [*ابن عمنا الأمريكي*][3] أم [كاميليا]، أيّ واحدة منها، ونحن جاهزون لأن نمثلها. وكما أقول دوماً للممثلين العاملين لديّ، إن القاعدة الأولى هي أن نُعطي النجم مركز الخشبة وأن نبتعد عن طريقه. لكن إن كان ثمةَ حاجة للمساعدة يمكننا أن نقدّمها أيضاً. أتذكّر أولَ مرة أقبل فيها بوث كي يمثل [*هاملت*] هنا في الـ[پاپيرز]. أخمن أنه فكّر، ستكون هذه بلدةً من نوعٍ فظّ، ربما لم يكنْ بمستطاعنا أن نلبي معاييره. ما يبدو أنه أقلقه أيّما قلق هو [الفصل الخامس]، إلّا أنّي طمأنته أن لديه قبر يمكن استخدامه وكلّ ما يحتاجه، وكنا قد عملنا شيئاً أحسن قليلاً من ذلك، أعطيناه شيئاً حيويّاً أكثر، سأراهن، مما حصلَ عليه على مدى مسيرته الفنية الطويلة. لديّ مقطعٌ منشور من أرضية الخشبة، استأجرتُ اثنين من العاملين بالتعدين من الـ[أوفير] كي يقوما بعمل الانتقاء الشجاع، وفي تلك الليلة حافرو القبور جَرفوا بعضَ العينات الممتعة من المعدن الخام ووضعوها فوق سطحِ الخشبةِ قبل أن يسلّموا جمجمة يوريك، ولمّا صرخ بوث، [*هذا أنا، هاملت الدانمركي!*] وقفز إلى داخل قبر أوفيليا كي يتصارع مع لارتيس، كانت لديه مفاجأة، لا بدّ أنكِ رأيتِ النظرة البادية على وجهه، لمّا وجدَ نفسَه يمس الأرض بعمق خمس أقدام تقريباً وعلى صخر الأديم.

بطبيعة الحال الممثل المسرحي الرائع لم يتفوّهْ بكلمة شكر، ولحسن

1- ثُمن الزنجي the Octoroon: شخص نسبة الدم الزنجي فيه إلى الدم غير الزنجي 1: 8 وهي مسرحية ألّفها ديون بوشيكاولت، أول عرض لها في العام 1859، في «ونتر غاردن ثيتر»، في نيويورك – م.

2- ريشيليو the Richelieu: وهي مسرحية تاريخية تتناول حياة أرماند جان دو بلاسيس دو ريشيليو أو الكاردينال ريشيليو، هو رجل دولة ورجل دين ونبيل فرنسي عاش في القرن السابع عشر، ألفها البريطاني إدوارد بولوير لايتون. اشتهرت المسرحية كثيراً بالكلمات التي يقولها الكاردينال في الفصل الثاني، المَشهد الثاني: القلم أقوى من السيف – م.

3- ابن عمنا الأمريكي our American cousin: مسرحية ساخرة من تأليف الكاتب المسرحي البريطاني توم تايلور، تتكون من ثلاثة فصول. عُرضتْ أولَ مرة على مسرح «لورا كين ثيتر»، في نيويورك، العام 1858 – م.

الحظ لم يؤذِ نفسه، استمر مدير الـ «پاپرز» المسؤول عن الخشبة. «يا إلهي، إنه رجلٌ غريب نزّاع إلى التأمل. غير أن العباقرة هم هكذا، أعرف هذا. أخبر مارينا أنه نصح بوث أن يتوقف، بعد مغادرته لـ «ڤيرجينيا سيتي»، عند ينبوع خاص يقع على بُعد ميل غرب «كارسون سيتي»، كان يترددُ عليها أشخاصٌ مُصابون بالروماتيزم والكآبة. إنه «ينبوع حساء الدجاج»، سمِّي هكذا لأنه، عند إضافة الفلفل والملح، يكتسب الماء طعم حساء دجاج خفيف وهو في الحقيقة مُغذٍّ بكل معنى الكلمة.

«وأنا أوصيكِ به أنتِ أيضاً، أيتها المدام العزيزة».

«شكراً لك، سيد تيلر، إلّا أنّي لا أعاني من الروماتيزم ولا من السوداوية. في الأقل، ليس بعد».

«كَمِيل، كَمِيل، كان الناس يسمّونها في الشارع. كان أحدهم رجلاً طويل القامة ذا ضمادة عريضة نظيفة تحت ذقنه، حكم عليه ريشارد أنه حتماً كان يتعافى من حنجرة مشقوقة طوليّاً. كلُّ واحدة من المسرحيات الثلاث التي قدّمتها مارينا خلال الأسبوع قد دعتها إلى موتٍ كاذب ـــــ بدور أدريانا ماتتْ في اهتياجٍ موجع جدّاً؛ وبدور جولييت، في نشوةٍ حسيّة، وهي تسقط على جسد حبيبها روميو؛ وبدور مارغريت غوتييه، في احتجاج مصحوبٍ بتشنج ضد ظلم الموت ـــــ إلّا أنّه تمّ الاعتراف عموماً بأن نجاحَها الأعظم في مَشهد الموت كان في «*كاميليا*»، خلال دور مسرحي واحد، كتبتْ عنه الصحيفة البارزة في البلدة، «*ذه تيريتوريال إنتربرايس*»، عضوان من الجمهور، في جزأين مختلفين من المسرح ذي الألف مقعد، كانا مسمّرين جدّاً من الرعب لدى رؤيتهما مارغريت تقفز من كنبتها وتسقط بصوت ارتطامٍ مهول، ميتةً، على الأرض، بحيث إنّ كليهما أُصيبا بشلل تَصلّبي وظلا غيرَ قادرين على النهوض من مقعديهما بعد ساعةٍ كاملةٍ من انتهاء المسرحية.

كيف كان بوسعِ جريدة الـ «*إنتربرايس*» بخلاف ذلك أن تنقل إلى قرائها سحر الأدوار التي مثلتها مارينا؟ الحكايات غير القابلة للتصديق، والخُدَع، والنكات العملية هي الأشياء التي تنال إعجاب الصحيفة، طريقة ذات علامةٍ

تجاريّةٍ في الاستجابة لمنظر طبيعي من الأشياء غير المحتمَلة. كانت «ڤيرجينيا سيتي» نفسُها حكايةً غير قابلة للتصديق ــــ اكتشافٌ بمحض المصادفة من لدن مستكشِفين مجهولين، قبل ما يناهز عشرين عاماً مضى، اكتشاف قناة من الكوارتز الغني بالفضة تحتَ سطحِ الأرض مباشرةً بالقرب من قمةِ الجبل الذي كان يُسمى في حينها «صن پِيك»، التي تحوّلتْ، بواسطة أقطابٍ من سان فرانسيسكو كانوا يعرفون كيف يستثمرونها، إلى أكثر مغامرات التعدين في تاريخ العالم ربحاً. مؤخراً فقط استطاع بعض العاملين في التعدين أن يقطعوا جزءاً من كتلة فضة خالصة تقريباً بعرض أربع وخمسين قدماً وعمق ثلاثين قدماً. تبليغٌ رصين كانت لديه فرصةٌ ضعيفة بأن يُسمع طالما كانت هنالك قصصٌ حقيقيةٌ من ذلك الطراز.

قرب نهاية الأسبوع كشفتْ مارينا بأنها كانت تروم رؤية دواخل هذا الجبل الخرافي، وعلى الفور تلقّتْ دعوةً موقّعةً من لدن جديديا فورستر، مراقب أضخم مناجم كتل الذهب والفضة، ڤيرجينيا الموّحَدة. ولمّا وصلتْ صحبة ريشارد إلى مكتب المنجم، جُهِّزتْ بقبعة، وبنطلون قصير، وعباءة، وبعد أن لبستْ زيّها في مخزنٍ متاخم، عادتْ إلى المكتب كي يُرحِّبَ بها رجلٌ طويلٌ جدّاً، وسيم يرتدي بنطلوناً من جلد الغزال وأبازيم فضة، هو فورستر نفسه. كان يشرّفه ــــ انحنى احتراماً ــــ أن يكون دليل مدام مارينا زالينسكا، مع أنّه كان يأملُ أن تفهم هي أن المنجم سيّئ التجهيز كي يستقبل الزائرين، فما بالكَ باستقبالِ زائرةٍ استثنائية بكلّ معنى الكلمة. وفيما هو يومئ إلى أحدِ الرجال في المكتب كي يتبعه حاملاً قنديل زيت، قادَ مارينا وريشارد إلى العراء حيث توجد سقيفةُ آجر تؤوي هيكلاً من الحديد ذا أرضية من لوح خشب ثقيل مربع، كان هو أولَ الداخلين. وفيما بدأ القفص هبوطه البطيء، المقعقع، تكثف الهواء واكتسبت الرطوبةُ رائحةً كريهةً حادة قرصت المناخر وسدّت الحنجرة. كان بمستطاعهم أن يسمعوا الماء يجري نازلاً في العمود فيما كانوا ينزلون إلى أسفل فأسفل، ولمّا بدأ القفص يترنّحُ من جانبٍ إلى جانب، مدَّ ريشارد ذراعه كي يحمي مارينا من الاحتكاك بالجدار الرطب

الخشن. (ما نفعُ هذه التجربة، تساءلتْ مارينا في سرِّها، وهي تكافح كي لا تستسلم للرعب. هي واحدةً من تلك المغامرات الطائشة التي تمرُّ بها من خلال تجاهلك أين أنتَ وما هو شعوركَ؟) في الختام توقّفَ، صَرَف ركابه في الفم المعتم لخندقٍ منخفض وضيّق. أخذا يسيران، أعمق فأعمق. كانت الحرارةُ، التي لا تُطاق، يتحمّلها عمالُ التعدين الذين تجرّدوا من ثيابهم حتى الخصر، مستخدمين ببراعةٍ معاولَهم ومجارفَهم. عملٌ جهنميّ!. «نحن في ألف وتسع مئة قدم تحتَ سطح الأرض»، قال مُرشدُهم، الذي، بعد أن طلبَ رخصةً من مارينا، خلعَ جاكتته المصنوعةَ من جلدِ الغزال، كاشفاً قميصاً نظيفاً من الحرير.

قرر ريشارد ألّا ينزع جاكتته، بقدر ما كان يحلو له، مثلما سَمحَ لنفسِه بأدبٍ أن يؤخذ كي يُلقي نظرةً على الماء المرتفع في التجويف التالي ومكائن الضخ الجديدة التي جُلبتْ كي تسحبه. مُراقبُ كونڤيرجينيا أنيقُ الملبس، الذي مكث مع مارينا، لم يكنْ يعتقدُ أن تكونَ سيدةٌ ما مولعةً بأن يُعرَض عليها كيف تعمل الأشياء في المنجم فعلاً. كان في منتهى السرور، على كلّ حال، أن يكون صحبتها.

«هذا هو المنجم الثاني الذي زرتُه»، أشارتْ مارينا، إذ لم تكنْ بها حاجةٌ لأن تقول أيَّ شيءٍ أفضل من ذلك. «قبل بضعة أعوام خلتْ مُنحتُ جولةً إلى منجم ملحٍ شهير يقعُ جنوب كراكوف، مسقط رأسي في بولندا».

«منجم ملح. أخشى أن الملأَ هنا لن يعتقدوا أن هذا يُمكن أن يكون منجماً».

«موافقة، كولونيل فورستر» ــــ كلُّ رؤساء المنجم، قيل لمارينا، يُخاطَبون بـ «كولونيل» ــــ «الملحُ قلّما يكون ثميناً كالفضة، لكن المنجمَ نفسَه يستحقُّ الزيارة. أنتَ ترى، أنها عمليةٌ مستمرةٌ منذ القرن الثالث عشر».

«وما يزالون لم يستخرجوا الملح كلَّه؟ لا بدّ أنهم يعملون ببطء شديد في بلادكِ. إنما لا يمكن أن يكون هنالك حافزٌ قويٌّ، إذا أخذنا بعينِ الاعتبار ما أحسبُ أن تكون عليه الفائدة المرجوَة من الملح».

«يمكنني أن أفهم، عزيزي الكولونيل، أني لم أشرح المسألة بشكل مناسب ماذا يحتوي هذا المنجم الكبير، هذا المنجم البولندي الملكي. إنها ليستْ مسألة تجارة فحسب، حالها حال كل شيء هنا في أمريكا. ويتعين عليكَ ألّا تعتقد أن عمالنا، عمال التعدين البولنديين، يفتقرون إلى الكدّ. إن قرونَهم التي قضوها في الحفر قد جوّفتْ مساحةً هائلةً من عالم ما تحت الأرض في خمسة مستويات، ومع ميل بعد ميل من دهاليز المناجم الواسعة التي تربط أكثر من ألف ردهة أو تجويف، كثير منها ذو حجم هائل. بعضها كانت تسندها شبكيات من قطع الخشب الكبيرة، وبعضها الآخر تسندها أعمدة ملح بسمك الأشجار الضخمة العتيقة في كاليفورنيا الشمالية، والعديد من هذه الكهوف الكبيرة تحت الأرضية، الطويلة والعريضة جدّاً بحيث تبدو بلا حدود، هي دون إسناد في الوسط. في أكبر وأعظم اثنين منها توجد بحيراتٌ يمكن أن يجتازها المرء في زورقٍ مسطح القاع مربع الطرفين. إنما ليس فقط من أجل هذه المَشاهد[1] البلوتونيّة[2] التي جذبَ إليها المنجمُ سائحين مميزين كثيرين جدّاً، بدءاً بعالم الفلك البولندي العظيم كوبرنيكوس؛ وحتى غوته كان يحسب أنه يستحق الزيارة. إن الشيء الشيق جدّاً بالنسبة للزائر هو أن التجاويف، بعد أن حُفرتْ واستخرِجَ الملحُ كلُّه، نحتَ عمالُ التعدين هيئاتٍ بشريةً بالحجم الطبيعي من الملح كي يزيّنوا التجاويفَ المهجورة.

«تماثيل»، قال فورستر. «أخذوا استراحةً من العمل، فيما كانوا هناك في أسفل المنجم، كي يصنعوا التماثيل».

«نعم، تماثيل للملوك البولنديين والملكات البولنديات ـــــ ثمة تمثال بارز لإحدى الشهيدات المؤسِسات في بلادي، واندا، ابنة كراكوس. وبالطبع التماثيل الدينية في الكنائس الصغيرة في كلِّ مستوًى من المستويات حيث يتعبّد عمال التعدين صباح كل يوم، أعظمُ هذه الكنائس وأعرقها هي

1- المَشاهد vistas: جمع مَشهد من خلال مجاز ضيق – م.

2- البلوتونيّة Plutonic: المتعلّقة بـ بلوتو Pluto، إله الموتى أو الجحيم، عند الإغريق والرومان – م.

تلك المكرَّسةُ لأنتوني من پادوا، وهي مزوّدةٌ بأعمدةٍ ذات تيجان، وأقواس، وصور للمخلِّص، وللعذراء، والقديس، ومذبح، ومنبر بكلّ ديكوراته، وهيئاتٌ بشريةٌ لاثنين من القساوسة تمّ تخيّلُهم وهم يؤدون صلاتَهم أمامَ مرقد القديس ـــ كلها نُحتتْ من ملح الصخر الداكن. هنا، مرةً واحدة شهريّاً، يُقام قدّاسٌ مهيب».

«كنيسةٌ في منجم. صحيح».

من الجليّ، أن الكولونيل لم يصدّقْها. يعرف أنها قصةٌ غير قابلة للتصديق حين يسمعُ قصةً من هذا النوع.

استمتعتْ مارينا بكونها أدخلت البهجة إلى قلبِ ريشارد بالقصة المتعلّقة بالطريقة التي أذهلتْ فيها مرشدَهم الجليل حين رجعا إلى الفندق.

«أعرف قصةً عن منجم ملح آخر»، انبرى ريشارد قائلاً: «مع أنّه لسوء الحظ لستُ أنا مَن اختلقها بل ستندال. عند منجم الملح في [هالين]، بالقرب من سالزبورغ، كان عمالُ التعدين لديهم الطقس الجميل بأن يرموا غصناً رئيساً بارداً في داخل أحد دهاليز المناجم المهجورة ومن ثم استعادته بعد مضي شهرين أو ثلاثة حين يكونُ، بفضل المياه المشبَّعة بالملح التي بللت الغصن ومن ثم تراجعتْ، قد كُسيَ بقشرةٍ سميكةٍ حتى أصغر غصنٍ براسبٍ برّاق من البلورات الصغيرات، وهذه القطع النادرة من الجواهر تُعرض على السائحات اللائي يزرن المنجم. يزعم ستندال أن الوقوع في الحب هو شيءٌ يشبه عملية التبلور هذه. أن يدسَّ فكرةَ عشيقته في خيالِه، العاشقُ يسبغُ عليها كلَّ ضروبِ الكمال، كالبلورات الظاهرة على غصنٍ رئيس خالٍ من الورق».

«كما فعلتَ معي».

«مع نسوةٍ أخريات، طوال أسبوع واحد أو ثلاثة، أعترف». قال ريشارد ضاحكاً.

«ليس معي».

«مارينا الفريدة، الأعز على قلبي!».

«لماذا لستُ أنا كذلك؟ ربما أنا مجرّد غصن رئيس بارد. على خشبة المسرح أنا أتلألأ وأُبهر البصر لكن ـــــ»

«مارينا!».

«أنا لا أفهم لماذا تحكي لي هذه القصة».

وفكّر ريشارد: «وأنا من ناحيتي لا يمكنني أن أفهم. كيف يسعني أن أكون بهذه الدرجة من الغباء؟ لماذا أفعل هذا؟ ومن المؤكد أنه شيءٌ تافهٌ، لا، شيءٌ جبان، أن أدلي بجواب، أرجوكِ، حبيبتي، لا تدعينا نتخاصم الآن. الآن؟. أبداً!».

وهما يغادران عبر باب مسرح «پايپر» نحو منتصف الليل بعد الأداء النهائي، مارينا وريشارد والآنسة كولينغرج انضمّوا إلى ما يقارب ألفَيْ شخص ممَّن رفعوا، على ضوءِ القمر الساطع والمشاعل، بصرَهم ناظرين إلى امرأةٍ ترتدي عباءةً ورداءً مُحكَماً تمشي على الدرابزون المصنوع من الحديد المطاوع فوق مدخل المسرح في الهواء؛ وكان يتابعها الحشدُ الكائن في الأسفل في «يونين ستريت» فيما كانت هي أيضاً تنزل الشارع الشديد الانحدار، المرتفع جدّاً فوق رؤوسهم، وصفقوا مع الحشد فيما كانت الآنسة إيللا لارو تمشي على الحبل بضربةٍ مزهوة من قدمها على سقف بناية من القرميد في ملتقى شارعَيْ الـ D و (يونين). «مَشهد مُبهِج»، قال ريشارد لمارينا. «ضخمةٌ في منطقة الردفين، أليستْ كذلك؟». أضافَ قائلاً، آملاً أن يزعج الآنسة كولينغرج. وبعدها، بحثا عن تسليةٍ أكبر، تنزها عائدين مشياً على الأقدام الى الشارع C وعبر بابين زجاجيين مزودجين دخلا إلى حانة الپولكا.

مثلما كانت المناجم تعمل دوماً، كانت الحانات كذلك. كان عمالُ التعدين يصلون بعد انتهاء نوباتِ عملِهم مباشرةً كي يراهنوا على ما كسبوه في ألعابِ ورق القمار: فارو، مَنت، وپوكر (لم يكونوا يثقون بالألعابِ

الفخمة وبأيّ نوعٍ من أجهزة المقامَرة)، وكانت مارينا تتوسّل إلى مواطنيها أن يسلّوا أنفسهم فيما كانت تجلسُ هي وتُشاهد المَشهد اللافت.

مضى ريشارد كي يقف عند البار وفي الحال أمتعه مراسل صحافي من الـ «أنتربريس» الذي زوّده بأنباءٍ عن اكتشاف «رجل فضي» في كهف جبل مختوم ـــ وهو رجل هندي مسكين وقع في شَرَك بالكهف منذ زمنٍ طويل جدّاً، كان جسمه قد تبدل على مرّ القرون بفعل طبيعة التربة، والأبخرة المتصاعدة، وتحوّل المواد المعدنية إلى كتلةٍ من الفضة؛ بنحوٍ أدق، حيث أُرسِل الجسم إلى التحليل في «كارسون سيتي»، إلى كبريتيد الفضة الممزوجة قليلاً بالنحاس والحديد. في غضون ذلك، الآنسة كولينغرج كانت قد انتشتْ بجالب الحظ في الحانة، وبلاك بيللي، الذي كان، على خلاف كثيرٍ من ذكور الماعز التي تقيم في أنفاق المنجم العتيقة ممَّن كانت تطوف بحثاً عن الكلأ الضئيل على سفوح «جبل داڤيدسون»، واحداً من مجموعةٍ ذات امتياز أكثر أو جريئةً أكثر لها الحرية الكاملة في أن تذهب إلى كلّ مكان وأن تفعلَ ما تشاء: كان بيللي يقيمُ ويمضغُ التبغ في شارع C.

ظلّتْ مارينا هادئةً، رابطة الجأش، مع كأس الشمبانيا خاصتها طوال ربع ساعة بالضبط قبل أن ينهض رجلٌ ضخم ملتحٍ بقميص ذي خطوط حُمُر من إحدى الموائد القريبة ويمشي مترنّحاً نحوها، زجاجةٌ بإحدى يديه وزهرة جيرانيوم حمراء باليد الأخرى، وهو يُطلق صيحةً عاليةً طويلة، «يا جوولـــــ ييت، جوولـــــ ييت، من أجل ذلك الفن أنت جولـــــ ييت!». أجالتْ بصرها في أنحاء الغرفة بحثاً عن تدخّل ريشارد، إلّا أنّ امرأةً كانت وراء المتطفّل مباشرةً وكانت قد طردَتْه أصلاً بـ «اذهب الآن، نيت. لا تزعج السيدة. هي بدورها عملتْ بجدٍّ، ولها الحق في أن تجلس هنا بسلام في حانتي وتحتسي كأساً دون أن يضايقها المعجبون بها».

كانت منقذتُها قد مكثتْ بجانب مائدتها. بدينةً، ترتدي مشدّاً «كورسيه» ضيقاً جدّاً، مزينةً بالأشرطة، ثملةً قليلاً، في نحو الخامسة والأربعين أو الخمسين، خمنتْ مارينا. «أروم فقط أن أقولَ لكِ يا له من شرفٍ أن تكوني

في حانتي». ابتسمتْ، وشاهدتْ مارينا أن هذه المرأة كانت حلوةً جدّاً في يوم ما. «أنا لا أكاد أصدّق أنكِ، جالسةٌ هنا في حانتي. يبدو كما أنّ ملكةً أقبلَتْ إلى هنا. ملكة! هنا في الـ[پولكا]!».

«وهي التي نرقصها نحن في بولندا»، قالت مارينا بسعادة.

«لا تمزحي؟». قالت المرأة. «وأنا كنتُ أعتقد أنها رقصة أمريكية مئة بالمئة!». توقفتْ عن الكلام هنيهةً. «عليكِ أن تكوني أنتِ نفسكِ. لن أنحوَ عليكِ باللائمة. يجب أن تكوني محاطةً بالناس في الأوقات كلِّها».

«تفضلي اجلسي معي»، قالت مارينا. «أصدقائي سيعودون بعد لحظة».

«هل لي؟». ــــ غطست في كرسي. «هل لي؟ لن أتحدّث كثيراً جدّاً، أعدكِ». حدّقتْ، على وجهها علامات الرهبة، إلى مارينا. «أودّ فقط أن أقول لكِ، إنكِ كنتِ مُذهلةً» ــــ تنهّدتْ ــــ «مُذهلةً جدّاً البارحة. أنتِ تعرفين أن لدينا مسرحياتٌ كثيرة في ڤيرجينيا وأنا أذهب على الدوام كلما سنحتْ لي الفرصة، لقد شاهدتُها كلّها، تقريباً، جميع الممثلين والممثلات يأتون إلى هنا، حتى بوث، وقد شاهدتُ ثلاثةَ عروضٍ له بدور هاملت. وفي بعض الأحيان يتردد على الـ[پولكا]. ذات مرة جلسَ إلى هذه المائدة تماماً».

«أنا سعيدةٌ بالجلوس إلى مائدة السيد بوث»، قالت مارينا، باسمةً.

«في المكان نفسه الذي تجلسينَ فيه بالضبط. مُؤدبٌ جدّاً، ليس ثمة كبرياءٌ مصطنعةٌ على الإطلاق، إلّا أنّه بدا حزيناً جدّاً. وكان قد ثمل كاللورد، مع أنّكِ لن تعرفي ذلك في الليلة التالية. حسناً، إنه ممثل عظيم، لن أقول لا، لكني أحب الممثلات أكثر، وأنتِ أحبكِ أكثر منهن قاطبةً. يمكنكِ حقيقةً أن تحسّي بشيءٍ ما حين تعاني امرأةٌ ما، في الأقل هذا هو ما أظنّه. خذي الشخصية التي مثلتِها توّاً، السيدة الفرنسية التي كان يجب عليها أن تُقصي الشابَّ اللطيف الذي يحبها فعلاً وكانت تتظاهر بأنها لم تعدْ تحبه، لا يمكنني أن أنطقَ اسمها، إنه ليس الاسمُ نفسُه في المسرحية».

«مارغريت غوتييه».

«هذا صحيح. نحن لدينا ممثلات كثيرات أدّيْنَ دور [*كاميليا*]، لكنكِ أفضلهن. لم يسبقْ لي أن بكيتُ بهذا القدر على [*كاميليا*] في حياتي».

«إنه دور رائع بالنسبة لأيّ ممثلة مسرحية»، قالت مارينا.

«والطريقة التي مثّلتِ بها دور جولييت، كان ذلك دوراً مُذهلاً، والدور الآخر، شاهدتُ كلَّ شيء مثلتِه هذا الأسبوع، الدور المتعلّق بالممثلة الفرنسية، ما اسمها، أنتِ تعرفينه».

«أدريانا».

«هو ذاك. لقد مثلتِ دورها أفضل بكثير من الإيطالية التي أتتْ إلى هنا قبل سنتين، نسيتُ اسمها، وقد مثلته بالإيطالية، إلّا أنّ هذا لم يضايقني، لمّا يكون شخصٌ ما جيداً أنتِ تفهمين الإحساس».

«أدليدا ريستوري».

«هذا هو اسمها. أنا أحبُّ هذه المسرحية. لكني أحبُّ [*كاميليا*] أكثر».

«آه، هذا الأمر يثير اهتمامي كثيراً جدّاً»، قالت مارينا. «هل يمكنكِ أن تخبريني لماذا تفضلين [*كاميليا*]؟».

«لأن جولييت هي مجرد شابة حلوة، وكان يتعين عليها أن تكون سعيدةً، ولم يكنْ للسعادة شأنٌ بها، تلك الأُسر لا تستطيع أن تتدّبر أمرها. والممثلة الفرنسية، نسيتُ اسمها ثانيةً...».

«أدريانا».

«صحيح. هي جيدة، كذلك. ولم تكنْ غلطتها أن الرجل الذي تحبه ينبغي أن يكون مؤدباً مع تلك الأميرة المروِّعة التي تمضي قُدُماً وتسممُها. هذا مجرد حظ سيئ، إن كنتِ تعرفين ما أعنيه. لكن [كاميليا] شديدة الشبه بالحياة الواقعية. أعني، ما كان ينبغي لها أن تكون صالحةً جدّاً، هي لم تكنْ بريئةً، كيف باستطاعتها أن تكون كذلك، كانت صحبة عددٍ غفيرٍ من الرجال، لذا فهي نوعٌ من امرأة مُذعنة، لم تكنْ تؤمن بالحب، لماذا يتعينُ عليها أن تؤمن، بعد أن رأتْ رجالاً كثيرين، وبعدها تلتقي رجلاً هو في الحقيقة رجلٌ

مختلفٌ تمام الاختلاف، وتريد هي أن تغيّر حياتها. إلّا أنّها لا تقوى على ذلك. إنهم لا يدعونها تفعل ذلك. كان يجب معاقبتها. كان ينبغي لها أن تعود إلى ما كانت عليه». بدأت المرأة تبكي.

«هيا، سيدة... سيدة... أنا آسفة، أنتِ لم تُخبريني باسمكِ»، قالت مارينا، وهي تمدُّ إليها منديلاً.

«ميني»، أجابت المرأة. «كيف تعرفين أني متزوجة؟».

«لم أكنْ أعرف بالطبع. لقد خمنّتُ فقط».

«حسناً، أنتِ على حق. أنا متزوجة». لمستْ عينيها برفق. «لكنكِ تعرفين كيف هو الزواج». أمالتْ رأسها للوراء بنحوٍ غير ثابت. «أنتِ لا تتزوَّجين الرجلَ الذي تُحبينه».

«أنا آسفة لسماعِ هذا الأمر»، قالت مارينا.

أومأت المرأة إلى أحد النُّدُل، الذي أحضرَ إليها قنينة سازيراك. «صرتُ أحبُّ مشروبات سان فرانسيسكو الفاخرة هذه في سنواتِ عمري المتأخرة. لمّا كنتُ شابةً، الويسكي الخالص كان جيداً بدرجةٍ كافية، البوربون[1]، الجاودار، الذرة، أنتم تسمونه. أيَّ شيء آخر لك؟ الساقي في حانتي يعدُّ [براندي سماش] جيداً حقيقةً».

«شكراً لكِ، لا أشربْ. سيرجعُ أصدقائي بعد لحظةٍ، وبعدها يتعين عليَّ المغادرة».

«أتمنى ألّا أكون قد أتيتُ في غير محلي. إلّا أنّكِ تبدين امرأةً يمكنني أن أثق فيها. أنتِ ممثلة، وأنتِ تفهمين كلَّ شيء...».

«قلّما أفهم».

«دعيني أخبركِ لماذا أخبرتكِ بما فعلتُه، فيما يتصل بالزواج وكل شيء، إنها قصةٌ جيدة في البداية مع أنّي لا أعتقد أن باستطاعتكِ الاستفادة منها كثيراً كمسرحية، ليس بالطريقةِ التي انتهتْ بها».

1- البوربون bourbon: ضربٌ من الويسكي – م.

«أنا لا أتطلّع إلى دورٍ آخر»، قالت مارينا بلطف. «غير أني سعيدةٌ بأن أسمع قصتكِ. أنا مولعةٌ بالقصص».

وشرعتْ ميني تروي قصتها.

«جرى ذلك قبل خمسة وعشرين عاماً مضى، لا، أكثر... وكنتُ أُقيمُ في كاليفورنيا، في [كلاودي ماونتين]، لا أعرف ما إذا سمعتِ قبلاً بهذه المنطقة. كان هناك هذا الرجل الذي ورائي، كان عمدة البلدة، كان مقامراً كبيراً أيضاً، إنما ليس نوعاً سيئاً بطريقته، يمكنني أن أرى ذلك، ولمّا قال لي إنه مغرمٌ بي، عرفتُ أنه كان يعني ما يقوله، لم يكنْ يحاولُ فقط أن يدخل إلى تحت تنورتي. كان يقول باستمرار، [تزوّجيني، يا فتاة، تزوّجيني، هكذا كان يسمّيني، فتاة، وحين أذكّره أن لديه زوجةٌ هناك في نيو أورليانز، يقول لي إن هذا لا يعني شيئاً، لأني الفتاة التي يُريد أن تكون زوجته. ولعلكِ لن تصدّقيني، وأنتِ تنظرين إليّ الآن، لم يكنْ شكلي سيئاً، وكنتُ نقيّة السريرة، لا أزال شابةً، مع أنّ لديَّ هذه الحانة حيث يتردّدُ عليها جميعُ عمال التعدين، الـ[پولكا]، أنا أُسمي جميع رواد حانتي الـ[پولكا]، ومعظمهم يعاملونني باحترام حقيقي، كما لو كنتُ شقيقتهم الصغرى، مع أنّ بعضهم لا يفعلون ذلك ولم يكنْ لديَّ شيءٌ كثيرٌ يمكنني أن أقومَ به حيال هذا الأمر، أعني أنهم كانوا زبائن جيدين. غير أني لا أحب هذا الشطرَ من المهنة، إنه يجعلني أشعرُ بالحزن، مع أنّي لا أُفشي سرّاً، كنتُ أغني وأضحكُ طوال الوقت، وكنتُ أتساءل ما إذا كانت هنالك أيُّ طريقةٍ خارج تلك الحياة، إنما لم تكنْ هناك. وفي ذلك الحين كنتُ أفكرُ، العمدة ليس رجلاً من الطراز السيئ، ففي الأقل كان مُغرماً بي، وكنتُ من النوع الذي يأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار، مع أنّي لم أكشفْ هذا السر.

وفي ذلك الحين قابلتُ هذا الرجل الآخر الذي أحببتُه، كان رومانسيّاً جدّاً، قال لي إن لي وجه ملاك، أنا التي كنتُ أدير حانةً. لكنه هو الذي له وجه ملاك، لم يسبقْ لي أن رأيتُ رجلاً مثله. كان وجهه كلُّه بارز العظام إلّا أنّه ناعمٌ أيضاً، أنتِ تريدين أن تلمسي خدّه، وكان له جبينٌ عالٍ، وغالباً يقع شعره في

داخل عينيه، وهما عينان كبيرتان داكنتان بأهدابٍ جميلة، وهي تتجعّدُ تماماً حين يبتسمُ، وهي بسمةٌ بطيئةٌ، بطيئةٌ فعلاً، كما لو أنّه يقبّلكِ ببسمته. انظري إليه فقط، بسمتُه تلك تغلغتْ إلى داخلي، وجعلتْ ركبتيَّ ضعيفتين. كانت المشكلة هي أنه قاطع طريق، وكانت تلك هي حياته، أعتقد أنه تورّطَ في هذه المهنة، وبعدها بات معروفاً بوصفه قاطعَ طريق، وأمسى مطلوباً باعتباره قاتلاً، لذا أحسَّ بأنه يجب عليه أن يستمر. خلال المدة الزمنية التي كان فيها قاطع طريق تخفى بزي رجل مكسيكي، وأطلق على نفسه اسم راميريث، لأن الجميع يعرفون أن كثيراً من المكسيكيين هم قُطّاع طرق. إلّا أنّه حين تسلّل إلى داخل [كلاودي] كي يتغزلَ بي كان قد أصبحَ واحداً من أولئك الأشخاص الضئيلين المبجلين من ساكرمينتو واستخدم اسمه الصحيح، دِك جونسون. وبعدها أخبرني أنه الشخص الذي يُدعى راميريث الذي يلاحقه الجميع، إنما منذ ذلك اللقاء لم يشأْ أن يكون راميريث بعد الآن، ووعدَ بأن يقوّم سلوكه، وأنا أعرف أنه صادق. تحدّثتُ إليه أنا أيضاً وأخبرتُه بأسراري كلِّها، وأنصتَ إليَّ، كان هذا شيئاً لطيفاً جدّاً، لم يسبقْ أن خبرتُ شيئاً من هذا قبلاً، شخصٌ ما يمكنكِ أن تتحدّثي إليه، شخصٌ يمكنكِ أن تفتحي له فؤادكِ. نسيتُ تقريباً مَن أكون! وطوال هذه المدة كلّها، كان العمدة قد بَحثَ في الأمكنةِ كلِّها عن راميريث، وما من أحدٍ كان يعرف أن راميريث هو في حقيقة الأمر دِك. غير أن العمدة، جاك، لم يغفلْ أيَّ حيلةٍ فيما يتصل بي. رأى أني أصبحتُ نوعاً ما مولعةً بالرجل المتحدّر من ساكرمينتو الذي لم يكنْ يعرفُ أنه راميريث. مولعةً! كنتُ مجنونةً به! وأيّ امرأة، إن كانت امرأةً حقيقيةً، لا تحب قاطع طريق أكثر من عمدة بلدة، أنت تعرفين هذا، فأنتِ امرأة، وأنتِ ممثلة لذا باستطاعتكِ أن تؤدي أدوار جميع النساء، الملائكة والآثمات...

وخمّني بمَن تعلّقتُ؟ إنه ذاك الواقف هناك عند الخزانة الحديدية الصغيرة مع المسدس ذي الطلقات الست في حزامه، كلانا نملك هذه الحانة. عمدة البلدة. لكنه تخلّى عني ذلك، بعد أن شاهد أنه بمستطاع الناس

أن يكسبوا مالاً أكثر من الحانات، وبعد مضيّ عشرة أعوام، حين وجدوا الـ[كومستوك لود]، أتينا إلى هنا، لأنه لا يتعين عليكِ أن تكوني ذكيةً جدّاً كي تري أنه سيكون بمستطاعك أن تكسبي مبلغاً طائلاً من المال من عمال مناجم الفضة العطاشى الذين يأتون بعد انتهاء نوبات عملهم. لكن لماذا حسمتُ أمري واخترته، هذا السؤال طرحته على نفسي، لمّا كنتُ متيّمةً بحب دِك وكنتُ أملك من الجرأة وذهبتُ معه فعلاً، ورأسي يعجُّ بالأحلام. كان يلزمنا أن نغادر كاليفورنيا، التي أحبها إلى حدٍّ بعيد، لأنه كان مطلوباً في الأمكنة كلها بسبب حادثة قتل، كانوا سيشنقونه إذا ما ألقوا القبض عليه، وأتينا إلى نيڤادا، التي لم تكنْ ولايةً في ذلك الحين أو حتى إقليماً، طالما أنّ لا أحدَ كان يعرف ماذا يقبع تحت هذا الجبل فالموقع كله كان مجردَ إقليمٍ في أوتاه، وتهنا هنا وهناك مدةً قصيرةً مفلسين، وكنا نتضوّرُ جوعاً أكثر فأكثر. وبعدها رجع دِك إلى شخصيته القديمة راميريث واجتاحني الخوف، وأنا أفكرُ في الحياة التي تنتظرني، كنتُ أختبئ وأركض دوماً وكنتُ خائفةً، وتركته ورجعتُ ببطء إلى كاليفورنيا، وجاك، غفر لي، ورأيتُ أنه كان مغرماً بي حقيقةً، لأنه كان يعرف أني لم أُحبّه، ليس بالطريقة التي أحببتُ بها دِك، وهو لا يزال مغرماً بي، لذلك كان ينبغي لي أن أفكر به بنحو أحسن، إلّا أنّ هذا لا يعني أنه يجب عليَّ أن أتزوجه. لكني تزوجته. أولاً كنا بشكلٍ من الأشكال متزوجين هناك في [كلاودي] بعدالة السلم، زواج حقيقي، مع أنّ زوجته تلك ما تزال حيةً في نيو أورليانز، بيد أني حسبتُ أنه يجب عليَّ أن أدعه أن يكون جدّيّاً، وفي النهاية قضتْ نحبها، لذا أنا فعلاً السيدة رانس الآن، وكنتُ كذلك منذ أمدٍ طويل. وانتهى بي المطاف ثانيةً في نيڤادا على أية حال، لقد مضتْ حتى الآن خمس عشرة سنة. وفي بعض الأحيان يغادرني النعاس وأظلُّ مستيقظةً الليلَ كلَّه وأنا مستلقيةٌ بجوار جاك، هناك في الأعالي الماعز تمشي على سقوف الشقة الصفيح، مثلما كان عليه الحالُ في منزلِنا، وحوافرها تحرمني من النوم، ولا أتمالك نفسي من التفكير بأنه كان لزاماً عليَّ أن أبقى مع دِك، حتى إذا كان يتعين عليه العودة إلى حياة قاطع الطريق.

ربما أنا فقط لم أفكرْ بما يكفي في نفسي. أو ربما فقط أني لم أكنْ جسورةً. دأبَ دِك على القول، توجد هذه القصيدة التي تعوّد أن يتلوها:

ما من نجمةٍ تضيع أبداً إذا ما رأيناها مرة واحدة
علينا دوماً أن نكون ما يُفترض أن نكون عليه.

دأبتُ على أن أحدّث نفسي بذلك الآن». تناولتْ يد مارينا وقبضتْ عليها بقوة. «إلّا أنّ هذا غير صحيح».

«مارينا؟». قال ريشارد.

مطمئنةً إياه بنظرتها أنه لا يوجد (مَشهد) تحتاج هي لأن تُنقذ منه، مارينا عرّفتْ كلَّ واحدٍ منهما إلى الآخر.

«هذا زوجكِ؟». سألتْ ميني. «شاهدته معكِ خارجاً من الفندق».

«قاطع الطريق خاصتي».

(أهـــــ ها!». قالت ميني. «عمَّ كنتما تتكلمان أيتها المرأتان؟». سأل ريشارد بعصبية. «أم أنه غير مسموح لأيّ رجل بأن يطّلع على أشيائكما الخصوصية؟».

«وهل ستكرر الخطأ نفسه؟».

«نعم، أظنُّ ذلك».

«أيتها السيدتان، أيتها السيدتان»، قال ريشارد، وهو يشعر بموجةٍ من الهجوم المباغت. «مارينا، الوقت متأخر. لا بدّ أنكِ مُرهقةٌ. دعيني أُرجعكِ إلى الفندق».

«يبدو لي كما لو أنّه زوجكِ»، قالت ميني.

«لهذا السبب أنه قد لا يكون خطأً».

«حسناً، سوف تعرفين أحسن مني. أنتِ جميلةٌ. أنتِ نجمةٌ. الجميع يحبونكِ. يمكنكِ أن تفعلي كلَّ ما تشائين».

«أيمكنني حقّاً؟ لا، لا أستطيع».

الآنسة كولينغرج، التي تضوع منها رائحة الماعز، كانت واقفةً بجوار ريشارد. «مدام مارينا، أتحتاجين شيئاً ما؟».

«أحسب أنها تريدُ الرجوعَ إلى الفندق، أيضاً»، قالت ميني.

السؤال الذي سمع ريشارد نفسه يوجهه على مدى أيام عدّة. السؤال. في الختام، لمّا رجعا إلى الفندق، بعد أن مارسا الحب، طرحه.

«أنتِ لن تسمحي لي بالبقاء معكِ، أليس كذلك؟».

كان قد سمع جواب مارينا، أيضاً. مع ذلك، أَدهشه أن يسمعه الآن.

«بلى».

«لكنكِ تحبينني!». صرخ قائلاً.

«نعم، أنا مُغرمةٌ بك. وقد جعلتني في منتهى السعادة. لكن، كيف يسعني أن أقول هذا، *العلاقة الثنائية*[1] لن تكون، ولا يمكن أن تكون، ذات أهميةٍ كبيرةٍ بالنسبة لي. إني أفهم هذا الآن. *تشويه مهني*[2]، إن شئتَ. أودّ أن أحِبَّ وأن أُحَبَّ، مَن منا لا يفعل هذا، إنما ينبغي لي أن أكون هادئةً... في قرارة نفسي. ومعك سأقلق، أكنتَ مملاً أو قَلِقاً أو لا تكتب كفايةً. وسيكونُ من حقي أن أقلقَ. ماذا كتبتَ الشهر الفائت ـــ ناهيكَ عما كتبتَه عني؟».

«هذا شيءٌ عديم الأهمية! أنا سعيد جدّاً أن أكتب!».

«إلّا أنّه شيءٌ مهم. الكتابة هي حياتُكَ، مثلما هو المسرح بالنسبة لي. أنت لا تحبّذ الحياة التي أعيشُها. أنت لا تعرفها حالياً إلّا أنّكِ ستكتشفُها لاحقاً، في غضونِ ستة أشهر، سنة واحدة في أقصى تقدير. أنتَ لم تُخلقْ كي تكونَ رفيقَ ممثلةٍ مسرحيّة. صدّقني، لن يدوم الأمرُ طويلاً».

1- العلاقة الثنائية: وردتْ في النص الإنكليزي الأصل بالفرنسية à deux – م.

2- تشويه مهني: وردتْ في النص الإنكليزي الأصل بالفرنسية Déformation professionelle – م.

«أنتِ تتحدّثين مع نفسكِ، أيتها المخلوقةُ الرهيبة!». ضرب إطار الشباك بيده بقوة.

«ما هذا الصوت الذي سمعتُه، ريشارد؟ هل يُحتمل أن يكون صوتُ بلوراتٍ تهمي من غصن رئيس بارد؟».

«أوه، مارينا!».

«أنتَ تسألني الآن، ولكَ كلّ الحق في أن تسألني، إن كنتُ مغرمةً بك فعلاً. وأنا أبغي القول ـــ أوه، ريشارد الأعز على قلبي، إنكَ تعرفُ ما *أبغي* قولَه. وهذا الابتغاءُ هو الحبّ، أيضاً، مع أنّه ليس النوعَ الذي تعنيه. إنما الحقيقة هي، لم يسبقْ لي أن عرفتُ على وجه الدقة ما أحسُّ به عندما لا أكون على خشبة المسرح. لا، هذا ليس صحيحاً. إني أحسُّ بشغفٍ هائل، بحب الاستطلاع، والشفقة، والقلق، والرغبة في إدخال البهجة ـــ ذلك كلِّه. إنما الحب، ماذا تعني بالحب، ما تُريده مني... لستُ متيقنةً. أعرف أني لا أحسُّ بالحب بالطريقة التي أُمثّلها أمام الجمهور. لعلي لا أحسُّ كثيراً بأيّ شيء على الإطلاق».

«مارينا، حبيبتي مارينا، أنتِ لن تُقنعيني بذلك. ضممتُكِ بين ذراعيّ، رأيتُ وجهكِ كما لم يسبقْ لأحد أن رآه ـــ» توقفَ هنيهةً عن الكلام. «أحقّاً فعلتُ ذلك»، تساءلَ. استطردَ قائلاً: «مارينا، أنا *أعرفكِ*».

«أجل، الآن»، قالت. «إني أشعر بقدرٍ كبير الآن، وهذا لكَ، وليس لأيّ أحدٍ سواكَ. إلّا أنّه يمكنني أيضاً أن أشعرَ بأنه يميلُ بعيداً عنكَ، ويعود لينسكبَ في النفوس التي أخلُقُها على خشبة المسرح. لقد أعطيتَني قدراً كبيراً، عزيزي عزيزي ريشارد».

«أنتِ تجعلين مني رجلاً في منتهى التعاسة».

«ربما»، فكّرتْ بعمق، «هذا لأني أعتقد أني لن أقع في الحبّ مجدداً بحيث إنّي لن أبالي بأن أمثّل بعد الآن، وأفكر أن باستطاعتي التخلّي عنه. إنما الآن عرفتُ هذا الأمر ثانيةً وـــ».

«وماذا؟».

«ولن أنساه ثانيةً».

«ستبقين تعيشين على ذكرى حبنا؟ هذا كافٍ بالنسبة لك، مارينا؟».

«ربما الأمر كذلك. الممثلون غير مولعين جدّاً بالحياة الواقعية. نحن نُريد فقط أن نمثل».

«أنتِ تعتقدين أني أقفُ عائقاً أمام مسيرتِكِ الفنية؟ أليس هذا قدرٌ كبيرٌ من الذهول؟».

«لا، لا، المسألة هي أني لا أُريد أن أخدعكَ».

«أنا فاهم. أنتِ تصرفينني لمنفعتي».

«أنا لم أقُلْ ذلك»، قالت.

«في حقيقة الأمر، إني أعتقد أنكَ تصرفينني لمنفعتكِ أنتِ. أنتِ فقط لا تملكين الشجاعة كي تعترفي بهذا الأمر. لا، مارينا، إن مبرّركِ الحقيقيّ في التخلّص مني لا صلةَ له باهتمامكِ بسعادتي».

«أوه، ريشارد، ريشارد، توجد مبرِّراتٌ كثيرة».

«أنتِ محقة. دعيني أرَ ما إذا كان باستطاعتي أن أخمّنها كلها. الخوف من الفضيحة ـــ ممثلةٌ مسرحيّةٌ تهجرُ زوجَها وابنها من أجلِ رجلٍ آخر! الرغبةُ في الأمان ـــ ممثلةٌ مسرحيّةٌ تتركُ زوجَها الثري من أجل كاتبٍ مُفلِس! عدم الرغبة في فقدان الامتيازات الطبقية ـــ ممثلةٌ مسرحيّةٌ رائعةٌ تستبدل زوجاً أرستقراطياً بـ... وضيع المحتد ـــ».

«آه، لقد أهديتني إلى واحدة من كاتلوغاتك، كاتلوغات متذوّق للفن».

«انتظري، لم أنتهِ، مارينا. الخوف من الهزء بالتقاليد ـــ ممثلةٌ مسرحيّةٌ تهجرُ زوجها من أجل رجلٍ يصغرها بعشرة أعوام! عدم الرغبة في خسارة احترامٍ صعب المنال، فيما هي تربي لقيطاً تدّعي أنها تزوّجتْ بأبيه. تظنين أني لمْ أكنْ أعرف، أنا أتصوّر، لأن العزيز بوغدان يتظاهر بأنه لا يعرف».

«أعتقد أنه لا حقَّ لي الآن في أن أطلب منكَ ألّا تؤذيني».

«لا تذكري الأنانية، غيابَ الرحمة، الضحالة ـــ» توقف ريشارد. «كلماتٌ يتعذّر تغييرها. كلماتٌ لا يمكن الامتناع عن قولها». بدأ يبكي.

لم يكنْ ذلك فقط لأنه يفقدُ مارينا. كانت تلك نهاية شبابه: نهاية قدرته على أن يحب بطريقة مبجلة، أن يعاني بطريقةٍ خاليةٍ من الحماية. ما الذي سيحلمُ به عندما لا يحلم بمارينا بعد الآن؟ هذا، فكّرَ ريشارد، هو الشعورُ الأشدُّ إيلاماً الذي أحسستُ به حتى الآن. هل تعاني هي، أيضاً؟ أكان بمستطاعِها، هي أيضاً، أن تتسلقَ بجهدٍ على أحاسيسها كي لا تغرق؟ هذا، فكر، هو أشدُّ الأشياء حُزناً التي جَرَتْ لي. كان في موقعٍ مظلم، حيث لا توجد سوى الجروح. ومن ثم شظيّةٌ من الارتياح. أوه، الكُتب التي سيدوّنها الآن، بهواجس أقل يمكن أن تُلهيه! لن يحدثَ ذلك ثانيةً ـــ وأتت الفكرة إليه على موجةٍ من العار ـــ هل سأكون (سعيداً جدّاً) وأنا أمارسُ الكتابة.

مكتبة
t.me/t_pdf

ثمانية

لم يكنْ أمامَ مارينا خيارٌ سوى أن تصدّق القصةَ التي رواها حين التحقَ بها أخيراً في «هوتيل كلاريندون» في نيويورك في مطلع كانون الثاني / يناير. لم يكنْ يبدو أن بوغدان يروي قصةً مخترَعة. كما لاحظ هو نفسه، قلّما كان يشعر بالتلهّف لسرد أيّ نوعٍ من القصص.

«وخوفي ــــ(كانت هذه الكلمة قد طُوِّقتْ قبل أن يكون بمستطاعها أن تبرز). وكنتُ قلقةً من أنكَ كنت تهلكُ من الضجر والإحباط هناك في أنهايم».

«لا أبداً»، قال. «شيءٌ ما يتدفق دوماً إلى الداخل كي يملأ الفراغ».

بوغدان المسكين. كانت بسمتها طافحةً بالحُبّ، ويقظةً. كانا جنباً إلى جنب على مَسند القدم. أمسكتْ بمؤخرةِ رأسه.

«آه، أنتِ لا تشعرين بالشفقة عليَّ. من المفترض أن تصدّقيني».

«دعني أصدّقكَ»، قالت وانحنتْ على كتفه. «هل تحسبني ساذجةً، أو مجرّد مولعة جدّاً، إذا ما صدّقتُ كلَّ ما تقوله؟».

«مولعة جدّاً؟ لا أُريد شيئاً أكثر من ذلك»، قال، وهو يقرّب يدها من وجنتِه. «عندئذٍ سأكون متأكداً من أنه حتى إذا لم تصدقي مغامرتي، فلن تنكريني أيضاً».

«استمرَّ في كلامكَ»، تمتمتْ.

«كان ذاك بِن دريفوس، لعلكِ تتذكرينه، أليس كذلك، الذي أخبرني

قبل بضعةِ أعوام خلتْ أنه سمعَ حديثاً عن طائفةٍ دينيةٍ غريبة الأطوار في سونورا، كلُّ عضوٍ من أعضائها عُهدتْ إليه مسؤوليةُ تصميم ماكينة عملية من أجل رحلةٍ في السماء. ليس بالوناً من الهواء الساخن، تحت رحمة العمل الداخلي للريح، بل سفينةُ - فضاء صالحةٌ للملاحة يُمكنها أن ترتفعَ عن الأرض بواسطة طاقتها هي وما إن تُصبِح في الأعلى، يكون بمستطاعها أن تطير في الاتجاه المرغوب. عددٌ قليلٌ من هذه المكائن الشبيهة بالطير ارتفعتْ حقيقةً في الهواء، قيل، قبل أن تتحطمَ. لمّا حاول أن يكتشفَ أكثر، قيل له إن أفراد المجموعة تشتتوا وزعيمُها، وهو رجلٌ ألمانيّ اسمه كريستيان ڤون روبلينغ، هاجرَ جنوباً إلى (ساحل مونتويا)، بالقرب من كارپينتيرا. الآن ظهرَ أن ڤون روبلينغ ربما لا يزال منخرطاً، بما أنّ صديقاً لدريفوس نزلَ من سان فرانسيسكو في آب / أغسطس بواسطة باخرة أَقسَمَ أنه رأى *شيئاً ما*، من المؤكد ليس بالوناً، في أعلى الساحل بالقرب من كارپينتيرا يسافرُ في داخل غيمة. بما أنّه، كما يقول دريفوس، لن يمر وقتٌ طويل قبل أن تكون هنالك ماكينات طائرة ذاتية الطاقة، كان يعتقد أنه ربما يكون شيئاً يستحق الرؤية إلى أيّ درجةٍ وصلَ هؤلاء المتهورون، وهم يفكرون في استثمار ممكن؛ و ـــ كان كريماً جدّاً، وحتى إنه أعارني المال كي أسدد تلك الديون المترتبة عليَّ عن الآليات والتجهيزات التي لم أخبركِ بها ـــ اقترحتُ عليه أن أفاتح ڤون روبلينغ نيابةً عنه. لذا بعد أن تعافيتُ من حادثتي صعدتُ إلى الساحل ـــ أتذكرين ذلك الأسبوع لمّا لم يكنْ بيننا أيّ تماس البتة؟ كنتِ في [ڤيرجينيا سيتي]، تجعلين عمال التعدين ينشجون ويُسقطون عموداً في داخل أحشاء هضبة - كنز. وأنا، كنتُ ألاحقُ دجالاً معيناً يُدعى ديدالوس كان بمستطاعِه أن يأخذني عالياً في الجوّ».

«ما فعلته»، هتفتْ مارينا، «لم يكنْ خطيراً البتة. بوغدان! كن حذراً!».

«أوه، ماريا، متى لم أكنْ حذراً؟». قال. «استأجرتُ غرفةً في خان القرية، تكلمتُ دون كلفة مع الناس في الحانات، لم يكنْ أيُّ واحدٍ منهم يعرفُ شخصاً يُدعى ڤون روبلينغ، وجاسَ الكثبان خلسةً، وحدّقَ في السماء. بعد

أيامٍ قلائل، كنتُ مستعدّاً للاستسلام، ومضيتُ لأشتري بعض التجهيزات من أجل رحلة العودة خاصتي من المخزن العام. الزبون الآخر الوحيد هو رجلٌ أشيب يرتدي عويناتٍ عريضةً مثل قناع لص، كان يشتري... براميل مسامير، على ما أعتقد. وفيما أنا أسمع لكنةً ألمانيةً فظةً، قدّمتُ نفسي. أخبرني أن اسمه هو ديلشاو، أو اسماً من هذا القبيل، إلّا أنّني شككتُ بأني عثرتُ على ڤون روبلينغ. وفيما أنا ألاحقه خارج المخزن، قلتُ بالألمانية إن اهتماماتي العلمية قد جلبتْ إليّ أنباءً عن العمل الذي يوجهه وطلبتُ رخصةً منه كي يشاهد المرة القادمة فرداً ما يسعى لأن يرسل ماكينته في الجوّ. لزم الصمت مدةً طويلةً؛ كنتُ آمل أنه ربما يثبت بأنه أحد الأشخاص المتكتمين الذين كانوا متلهفين فعلاً بقدر ما كانوا يخافون من تطفلِ شخصٍ آخر. إلّا أنّه فيما بعد جعلني أعرف، بإنكليزية متناوبة بنحوٍ مروِّع، بأن فضولي بالمستطاع أن يكون له عواقب غير مستساغة أبداً» ـــ «بوغدان!». صرختْ مارينا ـــ «لأنه إذا كانت هنالك أيّ حقيقة بالنسبة للقصة» *الخيالية*[1]، هذا *الهراء*[2] الذي سمعتُه عن الأشياء المتعلقة بالطيران وعن [نادٍ للطيران]، كلماته، لم أستخدمه، يقيناً سأدركُ أن رؤيةَ إحدى تلك المكائن عن كثب، ناهيكَ عن ذكرِ ملاحظة فرد وهو يطير، ستكونُ *مضحكةً بكل معنى الكلمة*[3] للجميع باستثناء أعضاء النادي الأصليين. كانت نصيحته، وقد كرّرها، هي أن أغادرَ المدينة *بسرعة*»[4].

«لكنكَ لم تفعلْ».

«بالطبع لم أفعلْ».

«وهل حصل أن رأيتَ أيَّ شيء؟».

1- الخيالية: وردتْ بالألمانية في النص الإنكليزي الأصل phantastisch – م.
2- الهراء: وردتْ بالألمانية في النص الإنكليزي الأصل Blödsinn – م.
3- مضحكةً بكل معنى الكلمة: وردتْ بالألمانية في النص الإنكليزي الأصل streng verboten – م.
4- بسرعة: وردتْ بالألمانية في النص الإنكليزي الأصل schnell – م.

«ليس في الجو. على الساحل، في ساعةٍ متأخرةٍ من إحدى الليالي، كنتُ مضيتُ في نزهةٍ راجلةٍ تحت ضوء القمر وهناك، في مكانٍ ما أمامي، كان ثمة شيءٌ داكن حسبتُه في أول الأمر مسنداً مسحوباً إلى الساحل. كان شكلُهُ أشبه بالكانو[1] إلاّ أنّه أكبرَ من الكانو، ذو أربعة أجنحة، اثنان في كلِّ جانب من جانبيه، نوعٌ من سلّة في أوسع جزءٍ منه كي يجلسَ فيه ملّاحان جوّيان، وكانت هنالك مراوحُ لولبية[2] متّصلةٌ بمقدّمةِ الطائرة ومؤخرتها».

«عملتُ بعضَ الرسوم لها، ماما».

«بيتر، أنتَ لم تكنْ هناك!».

«نعم، إلّا أنّي أعرفُ كلَّ شيءٍ عنها وسوف ـــــ سوف أُريكِ!».

هرع إلى داخل حجرة النوم الأخرى في الشقة ورجع مع مطويةٍ كبيرة. بسط بوغدان الرسوم عند أقدامهم.

«هي ملوَّنةٌ بنحوٍ جميلٍ جدّاً»، قالت مارينا.

«ماما، هذا علم!».

«أجل، إنها دقيقةٌ إلى حدّ بعيد»، قال بوغدان. «الجزء الملاحي بدا جليّاً ـــــ المراوح وانظري، تلك هي الدَّفّة. لكن ما من شيء يمكنني أن أكتشفه يعطيني مفتاحاً لمعرفة كيف يتزوّد هذا الاختراع بالقوة المحرِّكة. لا يوجد محرِّك بخاري، الذي يعني محرِّك، مرجل، وحملٌ كبيرٌ من الماء والوقود، يكون صغيراً بما يكفي، خفيفاً بما يكفي. لكن إن لم يكنْ بخاراً، فماذا هو؟ ماذا كان بوسعهم أن يخترعوا كي يرفعوا شيئاً أثقلَ من الهواء من على سطح الأرض؟».

«يأتي تنين»، قال بيتر. «كان بحوزتهم تنين أليف وكان ينقر الماكينة إلى الجوّ بذيله».

«بيتر!».

1- الكانو canoe: زورق طويل خفيف ضيّق يُقاد بمجذاف – م.

2- المروحة اللولبية screw propeller: مروحة الدفع في الطائرة أو الباخرة – م.

«أنا لا أكون طفولياً، ماما. أنا أكون مسلّياً».

«كنتُ أرغب بأن أدنو أكثر»، تابع بوغدان، «غير أني وقتذاك رأيتُ أربعة رجال مزوَّدين بمشاعل يقتربون من المكان. كان أحدهم ڤون روبلينغ. كانوا مسلّحين، لذا قررتُ العودة إلى المدينة».

«مسدسات»، قال پيتر. «كلُّهم بحوزتهم مسدسات. هل يملكُ جميع السكان في نيويورك مسدسات، أيضاً؟».

«لا، حبيبي!». قالت مارينا. «لم نعدْ في [الغرب المتوحِّش]. الآن كُنْ صالحاً، واذهبْ إلى قاعة الاستقبال الأخرى واقرأْ».

«هذا الأمر من المفترض أن يجعلكِ تقهقهين»، قال پيتر. «لكن بما أنّي لا أُسليكِ، أعتقد أني سأذهبُ إلى حجرة الجلوس الرئيسة وأجدُ أنيللا أو الآنسة كولينغرج». صفق الباب.

قطّبتْ مارينا حاجبيها. «وماذا بعد؟».

«حين خرجتُ فجراً إلى البقعة ذاتها، كانوا قد تواروا عن الأنظار».

فكرتْ مارينا، [لعله يختلق هذا الشيء. ربما بوغدان هو أيضاً يعتقد أنه يتعين عليه أن يُسلّيني].

بالطبع، لا بدّ أن يبدو الأمر مُضحكاً أن فرداً ما هوى مؤخراً من على صهوة حصان يأمل بأن يؤخذ مئات الأقدام عالياً في الجوّ في بِدعة خياليةٍ لا يمكنها أن تبقى في الأعالي مدةً طويلةً جدّاً.

ولمّا تذكرتْ مارينا هذه الواقعة التي لم تصدّقها حقيقةً في وقتها سألته، مرةً أخرى، كم كانت إصابته مؤذيةً في أيلول / سبتمبر.

«تريدين أن تعرفي طبيعة إصاباتي على وجه الدقة؟ لماذا؟ هل أبدو لكِ مصاباً بالندوب أو مُعاقاً؟». وقف. «أخبرتكِ. لا شيءَ يستحقُ أن أرويه مجدداً».

«أنا آسفة»، قالت برقة. وبعد هنيهة صمت انبرتْ قائلةً: «هل قلتَ لڤون روبلينغ إنكَ رأيتَ ماكينته؟».

«بصعوبة. لكني سأعود إلى كاليفورنيا بعد مدةٍ قصيرة، وربما سأسعى للتحدّث معه ثانيةً».

«وإذا كانت هذه... هذه الأشياء الخاصة بالطيران تطيرُ فعلاً، هل ستدخلُ في مشاركةٍ مع دريفوس بوصفه مستثمراً؟».

«بالتأكيد لا»، أجاب بوغدان. جلس بجانبها ثانيةً وتناول يدها. «لئن كان هنالك درسٌ واحدٌ تعلّمتُه من هذه المغامرةِ الريفية في العام الفائت، فهو أنه يتعينُ عليَّ ألّا أعمل بصفة رجل أعمال. في المستقبل المنظور، عزيزتي، كاسب المال الوحيد في هذه الأسرة هو أنتِ».

كان المالُ هو السبب الذي حالَ دون أن يتوحّدا حالما قررتْ مارينا أن تقطعَ علاقتَها بريشارد. المال ـــ ورفض ريشارد مغادرة سان فرانسيسكو، حجته هي أنه كان ينتظر أن يستدعوه باعتباره شاهداً في محاكمة هانكس. لم تُحسمْ شؤون بوغدان المهنية في أنهايم بعد، وسيكونُ من السخافة أن تتمّ تصفية كلِّ شيء في عجل من أجل عودةِ مارينا إلى عملها لدى «مسرح كاليفورنيا» في شهر تشرين الأول / أكتوبر طالما أنّه هو وپيتر ما يزال لديهما بيت في «كاليفورنيا الجنوبية»: مُضحك وغالٍ بنحو مُدمِّر. ربما يبدو شيئاً غير لائق أن يتذمر المرء من التقتير وتقديم التضحيات، كما كانت تفعل مارينا يوميّاً من أجل وارنوك، حين كانت تسددُ ألفَ دولار في الأسبوع، أكثر بكثير، مثلما رأى العزيز الكابتن العجوز زنانيكي أنه من المناسب أن يذكّرها، مما يكسبُه أغلبُ العمال في أمريكا خلال عامٍ كامل. إنما في وقتها لم يكنْ معظم الناس يملكون نفقات مارينا ومسؤوليّاتها. في الأقل كانت قادرةً على أن تبعث شيئاً من المال إلى بوغدان كي يسدد الديون التي تراكمتْ عليه في أنهايم؛ أن تنقذَ الأسرة المُفلِسة التي يتزعمها سيبريان ودانوتا، اللذين خاب أملهما في حياتهما في «العدني» وشرعا يتوقان للعودة إلى وارسو (دفعتْ تكاليفَ مرورِهما)، حوّلتْ بالكامل، كما تطلّب الشرفُ والسخطُ، المبلغ الصافي الباهظ البالغ خمسة آلاف روبل ابتزّه «المسرح الإمبراطوري» منها على خلفية فسخها عقدها (كانت قد تضرّعتْ إلى مدير

المسرح ـــ وهو صديق سابق!) كي يمدِّدَ سنةَ إجازتِها بسبب غيابِها سنةً أخرى، إلّا أنّ تضرّعَها قوبل بالرفض). وأمامها كانت تلوحُ نفقةُ رحلتها إلى نيويورك، ستة أسابيع في الفندق إلى أن تحصل مجدداً على راتب لمّا باشرتْ بعملها كممثلة في منتصف كانون الأول / ديسمبر (زوّدها وارنوك بمبلغٍ كسلفةٍ كي تسددَ فاتورة الفندق الذي تقيمُ فيه إلّا أنّها لم تتوقعْ أن يدفع تكاليفَ إقامة بوغدان، پيتر، وأنيللا، وكانت قد دفعتْ سابقاً تكاليف سكنَ الآنسة كولينغرج)؛ وأكثر النفقات إرهاقاً بلا منازع التي تعيّن عليها أن تتوقعها، الثياب. كانت قادرةً على أن تجدَ بديلاً مؤقتاً في سان فرانسيسكو. الثياب الخاصة بدورَي أدريانا وجولييت كانت بين ثيابها التي جلبتها معها من بولندا، في حين دور «*كاميليا*» كان ينبغي لها أن تستدين بعض النقود من الكابتن زنانيكي، استأجرتْ خيّاطة، ورتبت الثياب على وفق مقاييس جسمها بنحوٍ مقبول؛ إنما في نيويورك سيكون افتتاحُ دورها، دور «*كاميليا*»، والثياب الخمسة كلُّها يجب أن تكونَ مُترفةً فعلاً. في نيويورك، لم تكنْ ثمةَ حاجةٌ لأن يشرحوا لمارينا، أنهم كانوا يتوقّعون شيئاً كبيراً من ثيابِ ممثلة رئيسة. وحتى أكثر، لاحظَ وارنوك، من باريس.

إنما يقيناً ما كان يجبُ أن تكون الدعايةً سوقيةً في باريس. كان عمل وارنوك في ذلك القسم ـــ برامج المسرحية التي تُعلن الظهور الأول في نيويورك لـ «الكونتيسة زالينسكا المنتمية لـ [المسرح الإمبراطوري الروسي في وارسو]» ـــ كانت قد جعلتها تنحني انحناءةً راشحةً بالتذلل. الـ «كونتيسة» زالينسكا، باسم الله مَن تكون هذه؟ وأكان يجب أن يذكروا «*الروسي*»؟ إلّا أنّ بوغدان ضحكَ فقط حين شاهدَ البرنامج. «*ماذا تريدين يا عزيزتي*»[1]، هذه هي أمريكا؟ لماذا يتعيّن عليهم أن يحصلوا على أيّ شيء عن الأجنبي في البداية تحديداً؟ يعتقد وارنوك أنه من الممكن أن يحصل على ثروةٍ منكِ، إلّا أنّه خائف مع ذلك. صدّقيني،

1- ماذا تريدين يا عزيزتي: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل Que veux- tu ma chère - م.

مارينا، عما قريب سيرى أنه لا يحتاج إلى أن يلصق لقبي العديم الصلة بالموضوع باسمك الجديد الساحر».

أحستْ بهدوئِه، بهدوئِه اللطيف، يغمرها. لم يتغيرْ بوغدان كثيراً جدّاً: نعم، كان ريفيّاً – أسمر لمّا وصل، أثقل قليلاً، كان يعمد إلى قضم أظافره؛ لا، كان هو نفسه. كان بوغدان وديعاً، وديعاً جدّاً، كي يدّعى قلةَ اهتمامه بمكانِ وجود ريشارد: تطوّعتْ مارينا بنقل أخبار صديقها، فقد كان سيّئ الطالع لدى رؤيته رجلاً يُطلق النار على رجلٍ آخر في الشارع، وكان قد لبث في سان فرانسيسكو كي يقدّم شهادته في محاكمة القاتل، وبعدها سيرجع إلى بولندا. كان مثقلاً بالأفكار التي لا يتقاسمها مع أحد، مارينا بامتنانٍ سمحتْ لنفسها بأن تشعر بأنها باتتْ خفيفةً، وعندئذٍ استقرتْ، في التكتم البارع لبوغدان. كانت متوترةً جدّاً قبل وصوله. على مدار شهر بأكمله كانت علاقتها الوحيدة الخالية من المشاكل مع دمية السلك والقماش التي كانت تُحكِم عليها الثياب الجديدة المخصصة لـ «*كاميليا*». تشاجرت مارينا مع الخيّاطة في موضوعين معاً، فستان الحفلة الكبرى من أجل «الفصل الرابع» وملبس الاحتضار الفاخر (ثوب ليلي من الموسلين الهندي الأبيض) من أجل «الفصل الخامس». كل شيء كان يثير أعصابها.

أحسّتْ باضطرابٍ شديد في ليلة الافتتاح. الجزء الذي يمكنها أن تميّزه باعتباره «رهاب خشبة المسرح» بدا مناسباً، إلّا أنّه ليس فقط «رهاب خشبة المسرح» كما أنّه لا يمكن إلغاؤه. كانت ساخرةً ويائسةً في «الفصل الأول»، قلقةَ وسريعة التأثر وتتقبلُ أخيراً حبَّ أرماند في «الفصل الثاني» ـــ كانت تعرفُ أنها تقلّدُ حزنَ مارغريت غوتييه وفرحِها أيضاً مثلما لم تفعلْ ذلك من قبل. لم تمنحها القصة الفرصة كي تعرض العاطفة ـــ الغضب ـــ الذي يجعلها عصبيةً جدّاً. في الختام، في «الفصل الثالث»، كانت لديها فرصةٌ كي تنفّس عن غضبها. مارغريت السعيدة باهتياج تقيم الآن مع محبوبها أرماند في الريف خارج باريس مباشرةً؛ هذا الصباح كان قد مضى إلى المدينة في مَهمةٍ موجَزة، وكانت هي وحدها في غرفة مغمورةٍ بأشعة الشمس تطل على

الحديقة، تلبس ثوباً كشميريّاً ورديّاً بلون زهر المشمش، مزيناً بشلالٍ من الدانتيللا في أسفلِ المقدمة وحاشية ضيقة حول الأسفل، كشاكش دانتيللا عند أكمام المرفق، أوتاد مستدقة الطرف من الدانتيللا عند الرقبة، وجيب الدانتيللا بهيئة الصدفة في الجانب الأيسر مزيّن بأشكال وردية ذات لون وردي، الذي لقي استحساناً خاصّاً لدى مراجعين عديدين كتبوا مقالاتِهم في الصحف. كانت خادمتُها نانين قد أعلنتْ توّاً وصول جنتلمان يرغب بالتحدّث إليها. مارغريت، معتقدةً أنه محاميها (لم يكنْ معروفاً لأرماند، كانت قد عرضتْ كلَّ محتويات منزلِها الضخم في باريس للبيع)، طلبتْ أن يظهر هذا الجنتلمان. بطبيعة الحال، لم يكن المحامي.

«*مدموازيل مارغريت غوتييه؟*» رجلٌ جليل يكبرها سنّاً ظهر عند باب الكواليس الأيمن وواصل طريقه مارّاً بالكناري الحيّ الذي كان مدير المسرح، المتحمس للواقعية المسرحية، رآه مناسباً كي يزين موقعَ الحدث. «*هذا هو اسمي*»، قالت مارينا. مع «*مَن لي الشرف أن أتكلّم؟*» كان الكناري قد بدأ يسقسق. *مع مسيو دوڤال*. سقسقة. سقسقة. لعلك ظننتَ أن ثمة طائرين في القفص. *مسيو دوڤال؟* سقسقة، سقسقة، سقسقة. *نعم، مدام، مع والد أرماند*. كان من المفترض أن تقول مارينا الكلمات التالية من الدور المسرحي بنبرةٍ قلقةٍ إنما هادئة ـــ هادئة، هي، بصوتِ الطائر الحاد الرديء؟«*أرماند غير موجود هنا، مسيو*». سقسقة. سقسفة، سقسقة، سقسقة. «*أعرف. أودّ أن أتكلّم معكِ وحدك. كوني صالحةً بما يكفي كي تُنصتي إلى ما ينبغي لي أن أقوله*». «أنصت؟» كيف يسعها أن تُنصتَ إلى أيّ شيء؟«*ابني يدمر نفسه من أجلكِ*». سقسقة. صرير، صوتٌ عالٍ حاد، سقسقة، رعشةٌ في الصوت، تغريدٌ، سقسقة. كونها وقفتْ بقدر ما استطاعتْ، سارتْ مارينا إلى مؤخرةِ المنظرِ المسرحيّ، أنزلت القفص وقذفته خارج النافذة المفتوحة المقسّمة إلى أعمدةٍ حجرية، وبعدها استدارتْ وانزلقتْ نازلةً أرضية الخشبة المائلة كي تحافظَ على موعدها مع الحسرة.

كانت قلقةً فعلاً من احتمال أنها صَدَمتْ بعضَ أفراد الجمهور ـــ

يقيناً لن يعتقدَ الجميعُ أن هذا هو جزءٌ من المسرحية! ـــ لكنهم طُمئنوا، بعد خمس عشرة دقيقة، حين تدركُ مارغريت أخيراً أن حبها الخالص غير الأناني لأرماند لن يقبله أبوه، سمعتْ مارينا أن المسرح يمتلئ بصوتِ بكاء المشاهدين ورأت المُلقِّن يرمي نَصّ المسرحية[1] على الأرض ويهرب من أجل أن ينهمك في طقسِ نفخِ الأنف في زاويةٍ ما خلفَ المناظر المسرحية. لسوء الحظ، أحد النقاد المسرحيين رفض أن يدعها تنسى الحادثة كليّاً. في اليوم التالي، كانت مراجعةُ جريدة «صن» قد أشارتْ عرضٌ أصيلٌ جدّاً لخاصية المزاج العنيف لأروع الممثلات المسرحيات، إلقاء كناري بصوت أجش من النافذة. كانت مارينا قد رُوِّعتْ لدى رؤيةِ هذا مذكوراً في مادة مطبوعة. نقاد! إنهم لا يبغون سوى أن يسخروا ويبحثون دوماً عن الأخطاء والهفوات! إلّا أنّها كانت مغتاظةً أكثر مع سكرتيرتها الشابة الطيّعة بنحوٍ لا يرحم ومدرّبة الإلقاء خاصتها، التي كانت قد قامت بغزوةٍ متحمسةٍ على حجرة تبديل الملابس خاصتها آنَ انتهى التمثيل. «الطائر لا يغني الآن، مدام مارينا. ذلك الطيرُ لديه ارتجاجٌ في المخ، أنا متيقنةٌ من ذلك!». الآنسة كولينغرج «كرهتْ ما فعلته مارينا بالطير».

في الواقع، ارتابتْ مارينا، أن الآنسة كولينغرج ربما كانت فعلاً وراء زيارةٍ تحذيرية من رجلين ريفيين مرتبكين بعيونٍ واسعةٍ من «الجمعية الأمريكية لمنع الأعمال الوحشية تجاه الحيوانات»، طرقا بابَ حجرةِ تبديلِ الملابس خاصتها قبل بدء التمثيل في اليوم التالي بساعةٍ واحدة وطلبا أن تُخرج لهما كناري مُسقسق لم يلحقْ به أذًى. صرفتهما مارينا بفظاظةٍ، قائلةً إن الطيور والحيوانات كلها هي في عناية سكرتيرتها، ويمكنهما أن يجداه من خلال تقديمِ طلبٍ إلى مديرها، هناك في حجرةِ الجلوس الرئيسة في الأسفل، الباب الثالث من جهة اليسار. كانت تأمل أن يغني الكناري.

1- نص المسرحية prompy book: نص المسرحية الذي يستخدمه الملقِن prompter ويتضمن أيضاً تعليمات المخرج بالحركات وإشارات الإضاءة وغير ذلك - كتاب «معجم المصطلحات المسرحية»، م. س: 187 - م.

على مدار أيام قلائل، مارينا كان لديها انطباع بحيث إنّها قررتْ أن تُرسِل الآنسة كولينغرج إلى سان فرانسيسكو. ألا يوجد هنالك فردٌ يمكنها أن تعتمدَ عليه في دعمها والتعاطف معها؟

إنما بعدها في الأسبوع الثاني، قبيل عيد الميلاد «الكريسماس»، حين كانت تمثّل دور «*أدريانا لوكوڤرييه*»، الذي كان وارنوك قد أقنعها بأن عنوانها يجب أن يُختصر بشكلٍ واضح إلى «*أدريانا*» «*أدريانا لوكوڤرييه*»، تمثيل النجمة الكونتيسة مارينا زالينسكا؟ هذه صفةٌ أجنبية[1] ملء الفم أكبر من أن نطلب من النيويوركيين أن يبلعوها. «سيد وارنوك، يمكنني أن أفهم أنكَ تميل إلى أن تدفعني إلى الجنون. لا يوجد فردٌ من مثل الكونتيسة زالينسكا. الكونتيسة ديمبوڤسكا، نعم. اسم زوجي. إلّا أنّ الممثلة التي كانت أقدارها قد تعهدتْ برفق أن تعززها هي إنسانةٌ بسيطة، كما تقولون أنتم الأمريكيون، البسيطة مارينا زالينسكا». «حسناً»، أجاب وارنوك – فيما كانت تبدأ بتمثيل «*أدريانا*»، كانت مارينا قد تلقتْ أخباراً من بوغدان بأنه في طريقه نحو الشرق، جالباً إليها ابنها پيتر وأنيللا. وكان بوغدان مُشجعاً جدّاً، وكانت هي بحاجةٍ إلى التشجيع لأنها على مدى الأسبوع الثالث من موسمها في نيويورك سوف تمثلُ «*روميو وجولييت*» و«*كما تهواه*». صحيح، فيما يتصل بـ «*كاميليا*» و«*أدريانا*» لا يوجد شيءٌ سوى الإطراءات ـــــ جريدة الـ «*هيرالد*»: «ملكت الأفئدة كلَّها»؛ الـ «*تايمز*»: «نجاح شعبي، نصر فني»؛ الـ «*تربيون*»: «هي ممثلةٌ رائعة»؛ الـ «*صن*»: «أروع ممثلة منذ راشيل»؛ الـ «*وورلد*»: «لا يُمكن تجاهلها. غير مهم. يمكنها دوماً أن تخفق مع شكسبير».

«أفهم أنكِ لم تمثلي فقط كما هو متوقّع، لكن النقاد فعلوا الشيء نفسه»، قال بوغدان، «حزمة جميلة من الأوسمة».

«عبارات من أجل وارنوك كي يرشّها على برنامج المسرحية الجديد»، قالت مارينا بكآبة.

1- صفةٌ أجنبية: في النص الإنكليزي الأصل foreignness – م.

«انسي وارنوك».

«وا حسرتاه، لا يسعني أن أنساه. إنه يسيطر على حياتي. إنما فقط قلْ لي، هل أنا جيدةٌ مثلما كنتُ في بولندا؟».

«أحسن، في اعتقادي. مثلما تعرفين جيداً، عزيزتي، أنتِ تستمتعين بالعقبات».

«وماذا عن إنكليزيتي؟».

«لا، لا» ــــ ضحك ــــ «من أجل أن تطمئني على هذا الموضوع، عليكِ أن تستشيري الآنسة كولينغرج التي لا غنى عنها».

«*أرمونغ، أنا أحبكَ*»[1]، أجابت الآنسة كولينغرج. وبعدها، وهي ترى النظرةَ الهلِعة على محيّا مارينا وابتسامة بوغدان، أضافتْ بتلطّف، «إنما ليس دائماً».

جلب بوغدان الدعمَ؛ جلب بوغدان الانسجام. أعطى موافقته المُسلية على هذه الإضافة من حاشية مارينا، وهي نموذج جديد للنسوية الأمريكية اللاجنسية الودية. وكانت الآنسة كولينغرج تحبُّ بوغدان، كان قد ترك فيها انطباعاً قويّاً، وأفضل الأشياء كلِّها، كانت قد عقدتْ، فوراً، بعفويةٍ، علاقةَ صداقةٍ مع بيتر. كانت ثمة امرأةٌ غريبةُ الأطوار في أسرة مارينا التي أُسستْ من جديد ألا وهي أنيللا، وجهُها الشاحب المكسو بالحبوب الذي جعّدتْه الغيرة. هذه المرأة الأمريكية التي بحوزتها قبعاتٌ مختلفةٌ كثيرة، هل هي خادمةٌ أخرى أم أنها صديقةٌ أخرى للمدام؟ من أجل المغامرات خارج شرنقتها الناطقة بالبولندية في أنهايم، تعلّمتْ أنيللا أن تعدّ حتى العشرين وتقول بصوتِها الرخيم الضعيف، «*ذلك الفرد*»، «*نصف*»، «*أكثر*»، «*جيد*»، «*شكراً لك*»، «*سعره مرتفع جدّاً*»، «*وداعاً*». في نيويورك، كانت قد تلقّتْ أصلاً مع التعليم الخصوصي الرقيق للآنسة كولينغرج جملاً مفيدةً من مثل، «*المدام مشغولة*»، «*المدام ترتاح*»، «*من فضلك ضع الأزهار هناك*»،

1- أرمونغ أنا أحبك: وردتْ في النص I loaf you Armong، وهي جملة تشي بالودّ والسخرية معاً – م.

«*سأعطي رسالتكَ للمدام*». وكان هذا مجرد بداية. كان يتعين على أنيللا أن تتقبّل الآنسة كولينغرج، ماذا يسعُها أن تفعلَ خلافَ ذلك؟

«كلُّ شيء عادَ إلى وضعِه السابق كما ينبغي»، قالت مارينا فيما كانا يستسلمان للنوم في السرير الكبير بالشقة الواقعة في (كلاريندون هوتيل). «لديّ أنت، إن كان بوسعكَ أن تتحمّلني. لديّ پيتر. لديّ المسرح...».

«هل هذا هو الترتيبُ الصحيح؟». تمتم.

«أوه، بوغدان»، هتفتْ، قبّلته بقوةٍ في فمه.

بالمقارنة مع المسرح، حيث زنا أيّ امرأة لا يمرُّ دون عقاب، الحياة الواقعية، كما لاحظتْ مارينا بامتنان، لا ينبغي أن تكون مشجاة ميلودراما. الحياة هي غطسٌ حارٌّ طويلُ الأمد في حوضِ الاستحمام، الحياة تدليكٌ بالغليسيرين وعنايةٌ بالأقدام وأظافرها. الحياة لا تكون عقيمةً أبداً، حاولي دوماً أن تتفوّقي على نفسكِ، بحوزتكِ ثلاثُ باروكات جديدة مصنوعة، ترمين طائر كناري من نافذةِ مسرح، تجعلين الأجانب يبكون. الحياة كلامٌ هادئ مع بوغدان عن پيتر.

«أليس من الأفضل أن نضعه في مدرسةٍ داخليّةٍ قبل أن أنطلقَ في جولةٍ خارج المدينة؟ هذه ليستْ حياةً بالنسبة لغلامٍ في مثل سنِّه».

«في اعتقادي ينبغي لنا أن نُبقيه معنا خلال جولتك وفي الأقل خلال الصيف. أنا والآنسة كولينغرج سوف نُعطيه دروسَه. ما يزالُ الوقت مُبكراً كي ينفصل عنكِ ثانيةً».

«إنه مغتاظٌ مني».

«أحضرتْ له حلوى سارية – الحلاق[1]. رماها بعيداً. اشترتْ له هدايا. كسرها. قرأتْ له. قال لها أن تتوقف عن القراءة».

لم يردّ بوغدان.

1- حلوى سارية – الحلاق barber – pole candy: حلوى أمريكية لزجة، قديمة الطراز. سُميتْ بهذا الاسم بسبب كونها غنيةً بالألوان وشبيهة بالدوّامة – م.

«أخبرني أمس أنه يُحب أنيللا أكثر مما يُحبني».

«يجب أن يغضبَ لأنكِ تمضين وتتركينه. وبما أنّه لا يزال صبيّاً لا يتعين عليه أن يُخفي مشاعرَه».

«لكني أستطيع أن أعوّضه عن ذلك. سينسى. أتحسب أنه سينسى؟ لا يمكن أن يبقى غاضباً».

«أعتقد أنه لن يبقى غاضباً»، قال بوغدان.

«وعدتُه أني لن أتركَه ثانيةً».

«وعدٌ ممتاز» – قال بوغدان.

«كان بمستطاعكَ القدوم، هينريك. بقدر تعلّق الأمر بي، أيها الصديق العزيز، لا عذرَ لديكَ بعد الآن، ما إن أكون في نيويورك، وهي أقرب بكثير من قارتنا، قارة أوروبا العجوز. بوغدان كان يُحبُّ أن تكون هنا، بما أنّه لم يكنْ بمستطاعه أن يفعل ذلك. (هو معي الآن، يسرّني أن أقول ذلك.) لكن... *لا بأس*[1]. وهكذا أخيراً كان لديّ ظهوري الأول في نيويورك. من الطبيعي ـــ دعني أتباهى بنفسي ـــ كان ذلك نجاحاً. أثبتُّ لنفسي مرةً وإلى الأبد أنه بعزيمةٍ كافية يستطيعُ المرء أن يتغلّب على أيّ عقبة. المسرحُ دائماً مكتظٌّ بالجمهور (في ليالي الاحتفال أفضلُ التذاكر بيعتْ في مزاد علنيّ)، الجرائد مفتونةٌ بي، النسوة يُغرمن بي. ومع ذلك ـــ هل ستندهش من هذا؟ ـــ استنزفني الغضب. أم لعله الحزن؟ ذلك أني وحيدةٌ فعلاً في نصري هذا؛ لا يسعني أن أخدع نفسي فيما يتصل بهذا الشأن. يا ترى، أين هُم أصدقائي وصديقاتي؟ أينَ هُم مجموعة أصدقائي وصديقاتي الذين صدّقتُهم؟ أين هي بولندا؟ للعلم، كلّ البولنديين الذين قابلناهم هنا في السنة الفائتة كانوا بين الجمهور في ليلة الافتتاح، إلّا أنّه من بين الأصدقاء الحقيقيين الشخصُ الوحيد الحاضر هو ياكوب، وهو، كما تعرفُ، مقيمٌ في نيويورك منذ ستة شهور حتى الآن. وماذا جرى لفناننا الرائع؟ وجدَ له عملاً

1- لا بأس: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل passons – م.

في مجلة رائجة تُدعى [*اليزلي ويكلي*]، إنه يُنجز رسوماً توضيحيةً، ويقضي معظمَ أيامِه جالساً إلى طاولةٍ في مكتب المجلة جنباً إلى جنب مع واضعي الرسوم التوضيحية الآخرين. يقول إنه يأملُ أن يُنجز بعض الرسوم الجانبية. يا للأسف. وسمع ياكوب من صديقٍ له في كراكوف أن واندا حاولتْ مؤخراً أن تنتحرَ ثانيةً. لماذا لم تخبرني أنتَ بهذا الأمر؟ شيءٌ مروِّع، مروِّع، مروِّع! أنا أعرفُ أن الأشخاصَ الضعفاء ينجحون على الدوام في إيذاءِ أنفسِهم إن كان هذا هو فعلاً ما يرومون القيام به. لكن مع ذلك ــــ».

كانت مارينا قد استنفرتْ قوة الإرادة، كما كانت تفعل ذلك دوماً مع هينريك ــــ ثمة توبيخٌ في هذا الأمر، بالإضافة إلى التفاخر ــــ لكن ربما يكون ذلك مجرّد اسمٍ آخر للرغبة. كانت تريدُ هذه الحياة، مهما كلّفتها: هذه الوحدة، هذا الشعورُ بالخفة والنشاط. الاستحسان الميّال للحب إلى حدٍّ ما لعددٍ لا يُحصى من الآخرين، ممَّن لا يمكن معرفتُهم أو قلّما يكونون معروفين؛ استياؤها الموجِع، المنعِش. كان يمكنُ أن تُدمَّر لو لم تكنْ مراجعات الصحف تسبيحات نصر. إذا تعيّن على مارينا أن تصدّق ما تقرؤه عن نفسها، كان تمثيلُها على النقيض من التمثيل الخطابي. كانت «بساطتها»، «رقتها»، «فنها الرقيق والمهذَّب»، طبيعيتها التامة بدتْ كلُّها أصيلةً جدّاً بالنسبة إلى نيويورك. إلّا أنّها لم تصدّقْ ما تطالعه، بخاصة حين لا يحتوي على شيءٍ سوى المديح، وبسبب فضائل متناقضة بكل معنى الكلمة. من المؤكد لا يوجد شيءٌ طبيعي فيما يتعلّق بهذه الطبيعية[1]، التي كانت ملفقةً لكلِّ دورٍ من الأدوار من بين ألف حُكم وقرار صغير جدّاً. كانت تعرف أنه يُمكن تحسين أشياء كثيرة. صوتها ما يزال يمتلك مغامرته الهائلة، سمحتْ هي بذلك، إلّا أنّ الغيابَ على مدى سنة، عن خشبة المسرح كان قد أضعفَ دقةَ سيطرتِها على نَفَسها. كانت تشعر غالباً بأن الكلمات تفتقر إلى اللدغة. كانت تحتاج إلى أن تغيّر أكثر تدفّق فقرات معينة. إنما حين تُصحح هذه الأشياء كلّها، مثلما يكون عليه الحال حين تُمثّل ثماني مراتٍ في الأسبوع

1- الطبيعية: في النص الإنكليزي الأصل naturalness – م.

(وفي يوم الأحد، كانت مارينا تأتي إلى المسرح ساعاتٍ قلائل كي تعمل على الخشبة الخالية)، ألا تُعرّض نفسها للخطر حين تكون واضحةً جدّاً في تأثيراتها الصوتية؟

كانت تخشى من أن هذه المشاعر المنبعثة العائدة إلى براعتها القرصانية سوف تُحفزُها كي تزيدَ من تمثيلها. إنه شيءٌ أن يكونُ التمثيلُ معبّراً دون انقطاع، وشيءٌ آخر أن يعملُ الممثل بإفراط بعيداً عن السوقيّة أو الوعي الناقص بالذات يكونُ معبّراً دون انقطاع. قالت مخاطبةً بوغدان، «أتبرّع بعشرة أعوام من عمري كي أجلسَ مرةً واحدة فقط وسطَ الجمهور وأرى نفسي أمثّل، فربما أتعلّم ما يجبُ عليَّ أن أتحاشاه».

إن السلطة على المسرح مساوية للقدرة على إظهار جوهر الشخصية باستمرار، بسلاسة، بصورةٍ ثاقبة. في الطبيعة توجد لحظات كثيرة من عدم الانخراط في عملٍ معين، كثير من الإيماءات غير الضرورية؛ في المسرح الشخصيات تكشف جوهرها طوال الوقت. (أيّ شيء آخر سيكون قليلَ الأهمية، غير مُركّز؛ ينضحُ بدلاً من أن يومئ ويتخذ شكلاً معيناً.) كي يمثّلُ المرء دوراً مسرحيّاً هو أن يُظهِر ما هو مؤكد في شخصٍ ما، ما هو ثابتٌ وطويل البقاء. الإيماءاتُ الضروريةُ هي الإيماءات التي تتكرر. إذا كنتُ شريرةً، فأنا شريرة طوال الوقت. انظرْ إلى نظراتي الشزرة، إلى تقطيباتي. أنا أكشف أسناني (إذا كنتُ رجلاً). وأنا أفكرُ في المعاناة، أكادُ أؤذي ضحاياي السُّذّج، أنا أرتجفُ، بنحوٍ جليّ. أم، أنا صالحة (بما أنّ النساء صالحات). انظرْ، أنا أبتسم، أنا أحدّق بوداعة، أنا أنحني للأمام كي أُسعِف، أو للوراء في تراجعٍ مثير للشفقة من التقدّمات الوحشية له ـــ هو الذي حياله لا طاقةَ لديّ للدفاع عن نفسي.

اتفق الجميع على أن هذه هي طريقة الشروع. الجمهور لا يمكن أن يخطئ في مَن يُحب، ومَن هذا الذي يُشفق عليه، ومَن هو الذي يتعيّن عليه أن يحتقره. هل إن إظهار جوهر المرء يجب أن يعني تضخيم العلامات التي بواسطتها نتعرّف على هذا الجوهر؟ إذا كان المرء يمتلك الجرأة كي لا يكون

بارزاً جدّاً من البداية، ألن يكون هذا أروع، أصح؟ أكثر سحراً؟ كلَّ ليلةٍ حين كانت ترتقي خشبة المسرحِ، تعطي مارينا وعداً لنفسها، سأكبحُ شيئاً ما. لن أكون واضحةً تماماً. مزيداً من الاختلاف، كانت تأمر نفسَها، حتى إذا كان الأمرُ ينطوي على مجازفةٍ أن تكون مُربِكةً. غاضبةً أكثر.

وماذا عن جوهري أنا؟ فكرتْ مارينا. ماذا أُظهر منه إن كنتُ أؤدي دوري أنا؟

بيد أن الممثل لا يحتاج إلى أن يكون لديه جوهر. أغلب الظن سيكون عائقاً بالنسبة للممثل أن يكون له جوهر. الممثلُ لا يحتاج إلّا إلى قناع.

فيما هي تسعى جاهدةً لتحليل شيءٍ ما لا يُوصف وهو شيءٌ جلبته إلى أدوارها المسرحية، النقاد لجؤوا إلى كلماتٍ من مثل «بارعة»، «أرستقراطية». إن تقديم نفسها الذي سحر الجمهور في سان فرانسيسكو بات غير كافٍ في نيويورك. كانت مارينا قد أبهجتْ مراسلين صحافيين كثيرين في كاليفورنيا بحكاياتها عن البدايات القاسية، لمّا كان التجوال في الريف البولندي يعني التمثيل في مدارس ركوب الخيل وحظائر الماشية التي كانت كثيرةً حالُها حالُ المسارح. هنا في نيويورك كانوا مولَعين أكثر بأفكارِها المتّصلة بالمسرح، طالما أنّ هذه كانت ترتقي بمستوياتِ المرء الأخلاقية، الروحية، الثقافية وما إلى ذلك[1]. إنما ما هو الأمل المرتجى من تصحيح أيّ حالات سوء فهم وقحة تطاردُ انتقالَ مسيرةٍ فنيةٍ كبرى إلى بلادٍ أخرى؟ كلُّ ممثل (مطرب، عازف على آلة موسيقية، راقص) كان قد تلقّى تعليماً، له معلمون خصوصيون، سلالةٌ فنيّة، سلالةٌ أخلاقيةٌ أيضاً؛ إلّا أنّ هذه الخصائص لدى مارينا زويزوڤيسكا، التي زُوِّدتْ بأسماءٍ غير قابلةٍ للنطق بشكلٍ متساوٍ، لا تعني هنا شيئاً. موهبتُها موهبةٌ يتيمة. وكيف يسعها أن تشرحَ في أمريكا المعنى المميّز للرسالة التي غذّتها العادات البولندية الخاصة بالإخلاص للأحلام المستحيلة. «نحن البولنديون ممثلون مسرحيون محترفون بامتياز»، أعلنتْ بتصميمٍ موجز للدفعة الجديدة من الصحافيين الذين استجوبوها.

1- في النص الروائي: as long as these were uplifting – م.

في بولندا كانت قد مثّلتْ طموحات بلدٍ ما. أما هنا فلا يمكنها سوى أن تمثلَ الفن، أو الثقافة، التي كان يخشاها كثيرون كونها شيئاً تافهاً أو مقلّداً للأرقى منه أو مشوِّشاً أخلاقيّاً. أشار بوغدان ببسمةٍ إلى أن الأمريكيين بدوا كأنهم بحاجةٍ إلى تطمين متكرر بانتظام بأن الفن ليس فنّاً فحسب، بل يخدمُ تعاليمَ أخلاقية أسمى أو هدفاً مدنيّاً بنحو صحيّ.

فيما يتصل بحواراتها المبكرة مع الصحافة في نيويورك، كانت لديها ترجمةً إنكليزية جاهزة، أنجزها ريشارد، لثناء وتقدير عالق بالذهن نُشر في المجلة المسرحية الصادرة في وارسو المسمّاة [*أنتراكت*]. «في كلّ دور تؤديه، تكون زويزوڤيسكا سريعة الاستجابة إلى أقصى حدّ للعصر الذي تعيش فيه، وعلى غرار موسيقى ڤيردي التي تتنّهدُ، تبكي، تتعذّبُ، تُحبُ، وتصرخ بلغةِ الجنس البشري كلّه. بما أنّ ڤيردي هو المؤلفُ الموسيقي الأسمى منزلةً في عصرنا الحالي، زويزوڤيسكا هي ممثلتُه المسرحية الأروع. إلّا أنّ مارينا شكّتْ في أنه شيءٌ لا معنى له بالنسبة لأيّ فرد هنا بأن ناقداً بارزاً في بولندا قارنها، دفاعاً عن كونيّة قدرتِها التعبيرية ـــ ليس بسببِ دورها باعتبارها حاملةَ طموحاتِ بلادها ـــ مع ڤيردي. ربما يعتقد الأمريكيون أن ما كان يعنيه الناقدُ هو أن موهبتَها غير بارعة، وهي موهبة أوبرالية حصراً.

بدلاً من ذلك، صرّحتْ مارينا قائلةً: «أيها السادة النبلاء، إنكم لا تتخيّلونني مع سجل القصاصات، أليس كذلك؟ أنا، التي نادراً ما أقرأ مراجعاتِ النقاد وحتى لم يخطرْ ببالي يوماً أن أحفظ ما كُتب عني!».

كانت قد انتصرتْ على النقاد، بمَن فيهم وليم ونتر المَهيب، المنتسب لجريدة الـ«*تربيون*»، وهو أقوى ناقدٍ مسرحيّ في البلد. صحيح، ونتر لا يستطيع أن يقاوم باعتدال وهو يستهجنُ خيارَ مدام زالينسكا في فتحِ مسلكٍ ضيّق. «كان شيئاً ضروريّاً حقّاً بالنسبة لهذه الفنانة الاستثنائية (وكونتيسة، أيضاً، انتبه!) أن تبدأ بانتزاع قلوبنا من خلال تمثيل تلك المخلوقة المشكوك فيها ذات الرئتين الهشتين وحتى فضيلة أكثر هشاشةً؟ بالطبع ونتر مضى في الصفح عنها. لم يكنْ هنالك حتى همس عن استهجانٍ كهذا في سان

فرانسيسكو العزيزة أو [ڤيرجينيا سيتي] المتوقّدة بتبجح، وتعيّن على وارنوك أن يشرحَ لمارينا أن [الغرب] هو أكثر تسامحاً (غير صارم، قال بعضُهم)، في حين إن شرقَ أمريكا (تذكّري أننا قارةٌ كاملةٌ ويبلغُ عددُ سكاننا خمسين مليوناً!) بخاصة منتصف البلد، يمكنه أن يُستثار [شوّية] فيما يتعلّق بعِفة النساء الموصوفة على خشبة المسرح، قاصداً بذلك أن مارينا يتعينُ عليها أن تسرقَ نفسها من أجل «كمية معتدلة» من الافتتانِ المتعلّق بتهديد التعاليم الأخلاقية العامة الذي طرحته مسرحيةُ دوماس السيئة السمعة والناجحة بطريقةٍ سيئة السمعة.

لحسن الحظ، لم يكنْ جميع النقاد مهتمين كثيراً فيما إذا كانت معبودتهم الجديدة قد قلّلتْ من قيمة فنها من خلال تمثيل دور امرأة ساقطة. الصحافية المؤثرة جانيت غيلدر، من الـ «*هيرالد*»، التي أصبحتْ معجبةً خاصةً بمارينا، كانتْ مولعةً أكثر بالملابس المُبهرَجة للمحظية، وهو ولعٌ، لاحظ بوغدان، لا يقدر المرء أن يستدله من التصنعات الخيّاطية للآنسة غيلدر، التي كانت تضمُّ ياقةً عالية ورابطة عنق، وقبعة مستديرة صلبة من اللباد على هيئة بيضة وسترة رجل. «الذراعان، اللتان كان يكشفهما ثوبها النسائي، كانا مكسوين بجلود جدي مزوّدة باثني عشر زرّاً، بلون كرِيمي، تحت المرفق، ومربوطة بين هذه النقطة والكتف بشريطِ مخمل مثبت بدبوسٍ مُرصّعٍ بجوهرة»، لاحظت الآنسة غيلدر في وصفها لوصول مارغريت غوتييه المُذهل إلى خشبة المسرح في الفصل الأول. «ألم يكنْ مُسلياً»، استطردَ بوغدان، أن الثيابَ التي لبستها مارينا في دور «*كاميليا*» كانت من بين كلِّ ثيابها التي قلَّدتها كثيراً هي الثيابُ المُعرَّضة للنقدِ القاسي والمواكِبة للموضة؟

كان بوغدان هو أولُ مَن أشارَ إليها (ستكون هي الفردُ الأخير الذي يراها، قالت مارينا) إن السيدات في نيويورك كنَّ قد بدأن يقلّدنَ تصرفاتها وحركاتها وتسريحات شعرها، كما في «الفصل الأول» من «*كاميليا*»، حيث كان شعرها مُسرّحاً عالياً فوق رأسها بلفات غير مضغوطة وأربطة وقبعات زالينسكا بدأتْ تظهر في أكثر المخازن أناقةً، وقفازات زالينسكا، وبروشات زالينسكا، و«ماء

بولندي»، وهو نوع جديد من ماء الكولونيا ـــــ كانت الرقعة «الليبل» تُظهر بورتريه بيضويَّ الشكل لمارينا مُركّب على مَنظر لغرفة رسم مع شاب يجلس إلى بيانو فيه توقيع شوبان بشعرِهِ الطويل ووجهِهِ الحساس والمسلول. صورٌ فوتوغرافية لها بكلّ اللباس الخاص بـ «*كاميليا*» معروضةً في واجهات مخازن الصيادلة وللبيع في محلات بيع السيجار. حملت الجرائد الأخبارَ اليومية لالتزامات مدام زالينسكا الاجتماعية. مارينا لا تزال لم تسترجع الوزن الذي فقدته، وإذا كانت شديدة الشبه بالشبح فهي لن تبدو حسنة المظهر في الثوب مثارَ الإعجابِ الشديدِ الذي لبسته في «الفصل الأول» من «*كاميليا*»، ثوب سهرة قرينول مُركّب من الحرير الأزرق المخضر ذو بطانةِ مخمل أخضر - أسود، مفصّلٌ كي يلائمَ مقاييسَ جسمِها بالضبط. إلّا أنّها كانت مسكونةً بالصور الفوتوغرافية للنجمة الجديدة السائدة في باريس، سارة برنار[1]، هذه الممثلة ذات الوجه الشبيه بوجه طير وصورة ظلية مهزولة. مطوّقةً نفسَها بالتنافس المستقبلي، أخذتْ مارينا على نفسِها عهداً بأن يبقى وزنُها أقل من السّوي.

بعد الأسابيع الأربعة في «مسرح الجادة الخامسة» وأسبوعٍ آخر من العمل (تضييق الثوب، توسيع الثوب) على ملابسِها في المسرح، التي تملأ الآن عشرين صندوقاً كانت تنهضُ بأعبائها خيّاطة ألمانية، انطلقتْ مارينا في مسابقة أمريكا، تظهرُ في فرقةٍ مسرحيّة دائمة في جميع أنحاء البلاد باستثناء «الغرب الأقصى». في فيلادلفيا، المراجِع الرئيس في المدينة

1- سارة برنار Sarah Bernhardt (1844 - 1923) ممثلة مسرحية فرنسية ذاع صيتُها في أوروبا في أوائل السبعينيات من القرن التاسع عشر، وبعد ذلك أصبحت واحدة من الممثلات المشهورات في أوروبا وأمريكا. حققتْ نجوميتها من خلال تمثيل بعض المسرحيات الفرنسية الرائجة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ومنها: «غادة الكاميليا» لألكسندر دوماس، «روي بلاس» لفيكتور هوغو، «فيدورا» و«لا توسكا» لفيكتورين ساردو، «فرخ العُقاب» لإدموند روستاند. سمّاها إدموند «روستاند» ملكة التوّضع وأميرة الإيماءة، في حين مدح «فيكتور هوغو» صوتها الذهبي. كانت مَشاهد الموت في الفصول الختامية لأدوارها الرئيسة تجعل الجمهور ينخرط بالبكاء. كما لعبتْ أدواراً ذكورية من بينها دور هاملت شكسبير. سُميتْ بـ «سارة المقدسة» - م.

أُعجب بـ «الصليب وعصابة الرأس المرصّعين بالماس اللذين تساوي قيمتهما أربعين ألف دولار» (كما أشاع وارنوك) ــــ الزجاج البراق الذي كانت ترتديه كحلي زائفة، بالطبع ــــ في «الفصل الرابع» من «*كاميليا*». إن الخطأ، خطأ وارنوك، قررتْ مارينا، هو أن تمثل «*كاميليا*» فقط أثناءَ أسبوعِها في «آرج ستريت ثيتر» الشهير. كانت مارينا مُحبطةً في فيلادلفيا. بالتيمور وواشنطن، قدّمتْ فيها عرضها أيضاً. «*كما تهواه*» و«*روميو وجولييت*»، كانتا قد سلّتا الجمهور بنحوٍ مناسب أكثر. وبعدها ثانيةً في أعلى الساحل عند الباخرة حيث، أخبرها وارنوك، سوف تُمثّلُ ــــ دوريها، دور روزاليند، ودور جولييت فقط ــــ لأرقى جمهور من الناحية الثقافية في البلاد بأسرها، في واحدٍ من أكثر المسارح عُرضةً للانتقاد. («متحف بوسطن، سيد وارنوك؟ هل هذا شائعُ في أمريكا، أن يُسمى المسرح متحفاً؟». «في بوسطن وحدها، سيدتي العزيزة.) كان صديقها الجديد وليم ونتر، وهو رجلٌ عسكريّ من نيويورك، كان شكّاكاً أكثر فيما يتصلُ بالعاصمة المتبجحة لأمريكا ذات المبادئ السامية. وحتى بوسطن، أكّد لمارينا بنحوٍ مُزعج، لم يكنْ بوسعها أن تتحدّاها بالجماهير من مثل تلكَ التي ملأت المسارح في لندن في يوم ديڤيد غاريك، الذي كان يعرفُ شكسبيرهم جيداً جدّاً بحيث إنّ الممثلَ الذي حرّف النص، أخطأ في تلفظ كلمة واحدة، أو حتى أنه أخطأ في وضع توكيد معين في موضعه الصحيح مخافةَ أن يُهمس به أو أن يُصحح بجلبةٍ بواسطة الجزء الخلفي من قاعة المسرح وشرفة المسرح. إنما، أجل، وافق، بوسطن كانت ممتلئة بالشكسبيريين المُميزين. كانت مارينا تتطلّعُ إلى التحدّي بثقة. بما أنّها، وقد هدأها المديحُ (احتراسها مع ذلك)، كانت تقضي وقتاً أقل وهي تراقبُ إنكليزيتَها بدقة، كانت الصدمةُ كبيرةً جدّاً في اليوم الذي أعقبَ افتتاحها في «متحف بوسطن» في ما حسبتْ أنه كان أكثر دور لروزاليند سلاسةً حتى الآن، حين قرأتْ في الـ «*إيڤننغ ترانسكبرت*» أن ناقدها المسرحي البارز وجد لكنتها فاتنةً، بخاصة في الفقرات الرومانسية في «*كما تهواه*»، عدا عائقٍ واحد قدر تعلّق الأمر بمتطلبات هزل شكسبير.

«هذا صحيح، أليس كذلك؟». شكتْ للآنسة كولينغرج، التي كانت قد استدعتها فوراً إلى شقتها في «لَنغهام هوتيل»، من أجل دورة تدريب. «منذ متى انقطعتُ عن التدريب؟».

في فيلادلفيا قلتِ [*ozer*] بدلاً من [other]، وفي واشنطن قلتِ [*loaf*] بدلاً من [love] و[*strent*] بدلاً من [strength]، وفي بالتيمور قلتِ [*trone*] بدلاً من [throne]، و [*lar-r-r-k*] بدلاً من [lark].

إنه العندليب، وليس القبَّرة،
الذي اقتحم التجويف المُخيف لأذنكِ.

كان هذا هو أسوأ الأشياء طرّاً.

«ميلدريد، كيف يمكنكِ أن تتحمليني؟».

«*أرمونغ، أنا أحبُكَ*[1]».

توقفي عن ذلك، ميلدريد. فهمتُ المسألة.

ليت إحباط مارينا وحده الذي يجعل إنكليزيتها ذات لحنٍ جميل بما يكفي كي تكون منصفةً مع شكسبير!

باتتْ تورنتو أفضل؛ بفالو وبطرسبورغ اعترفتا بنفسيهما أنّهما فُتنتا بهذه المفخرة الجديدة، المثيرة للمسرح الأمريكي؛ كليڤلاند وكولومبوس ومضتا بنحو ثابت بالاستحسان. بما أنّ مارينا ارتكبتْ خطأً بأن أخبرتْ وارنوك أنها لم تستغرقْ أكثر من يومين كي تحفظ عن ظهر قلب دوراً مسرحيّاً جديداً، كان ذلك فقط ثلاثة أيام قبل وصولها إلى كنكناتي لمّا أخطرها بأن برنامجها لن يقتصرَ على «*أدريانا*» و«*كما تهواه*» بل سيتضمن أيضاً «*إيست لين*» في حفلةِ السبت الصباحيّة، من أجل، أيضاً. غاضبةً، ذكّرته مارينا أنها قالت بأنها لن تنحني لـ «*بيست لين*»، كما سمّتها ـــ «أنا فنانة، سيد وارنوك»، رَعَدتْ،

1- أرمونغ أنا أحبك: هذا الخطأ ذكرته ميلدريد سابقاً – م.

«ولستُ مُتاجِرةً بالدموع!». ـــ إنما هي ذي، في الشهر الثاني من جولتِها، استسلمتْ إلى توسّلات وارنوك، إلحاح وارنوك، وراحتْ تمثل في كنكناتي ولويسڤيل وساڤانا وأغوستا وممفيس وسانت لويس. كان وارنوك على حق بطبيعة الحال لمّا أكّد لها، «إنه المال في البنك» ـــ «إنه ماذا؟». ـــ «أعني أن الجماهيرَ يُحبّون ذلك». «لأنهم يريدون أن يبكوا؟». «حسناً، نعم، الملأ يحبون فعلاً أن يبكوا في المسرح، بقدر ما يحبّون أن يضحكوا، وما الضيرُ من ذلك، سيدتي العزيزة؟ إلّا أنّ ما يُحبّونه أكثر من الأشياءِ كلِّها هو مشاهدةُ تمثيلٍ رائع. وهذا التمثيلُ الرائع هو أنتِ!».

ما من تمرين للبراعة المسرحية الفائقة مبهج للجمهور أكثر من ذلك الذي تنتُجه حبكةٌ تتطلبُ من الشخصية الرئيسة أن تغادرَ ومن ثم تعود متسللةً إلى القصة، متخفيةً بسبب حيلةٍ ما أو متحوّلةً بسبب المعاناة، مثل شخص آخر، هويته الحقيقية، واضحة للكلّ دفعَ المال كي يشاهدَ المسرحية، يمضي دون أن يكتشفَ أحدٌ من الموجودين على خشبة المسرح أمرَه. هذا هو دور البطولة في «إيست لِين» – وهو في الواقع، دوران. أحدُهما شخصٌ ضعيف العقل، الليدي إيزابيل الساذجة، التي تهجرُ زوجاً حنوناً وأطفالهما تحت التأثير المؤذي لرجلٍ فاسق وماكر. أما الشخص الثاني فهي آثمة نادمة، شاختْ قبل الأوان بسبب عذابات تبكيت الضمير، التي تدخل منزلها ثانيةً كمربية أطفال بعوينات طبية وشعر أشيب، «مدام ڤاين»، كي تعتني بأطفالها. كانت صرختها، وراء أصغر الأطفال الثلاثة، وهو مجرد طفلٍ رضيع في وقت مغادرتها المنزل، يموتُ بين ذراعيها ـــ *«أوه، ويللي، طفلي، مات، مات، مات! لم يكنْ يعرفني، لم ينادِني ماما!* ـــ تُطلقُ في داخلِ الجماهير انفجاراً من الحزن. والدموعُ تتدفقُ مُجدداً لمّا تتخلى، وهي تحتضرُ، عن اسمِها المستعار وتتضرّع إلى زوجِها أن يصفحَ عنها ـــ *«دَعْ ما فعلتُه ينمحي من ذاكرتكَ، فكّر فيَّ (إذا استطعتَ) بوصفي الفتاة البريئة الجديرة بالثقة التي جعلتَ منها زوجةً لكَ»* ـــ يصفح عنها، وتتوسّل إليه ألّا يعاقب ابنيهما الباقيين بسبب هجرِها هي ـــ *«كنْ عطوفاً ومُحِبّاً مع لوسي والصغير آرشي»*، تهمسُ بصوتٍ أجش، *«لا تدعْ خطيئة أمهما تصيبهما!»*.

«*أبداً، أبداً!*». صَرَخَ الممثلُ الذي لعبَ دور أرشيبالد في هذه الفرقة المسرحية الدائمة تحديداً ـــــ أمريكا لها عشرات من أمثال أرشيبالد، إلّا أنّه ثمة إيزابيل واحدة لا غير، الأفضل، الأكثر حزناً بنحو مُرعب، تعلّمتْ ماريا أن تُمثّلَ دورَها. ينكسُ رأسَه. ترى قشرة شعرَ الرأس على ياقتِه. كانت تلفُّ وتدورُ في برميل من الحزن الذي لا يخمد أواره. ما هذا الذي أفعله، مارينا تخاطب نفسها فيما هي، رويداً رويداً، تهب نفسها للاهتياجات غير القابلة للإتلاف والشفقة الوقحة لـ «*إيست لين*».

كانت تتطلّع إلى هدوءٍ مروِّع.

في شيكاغو، حيث مثلتْ في «هولي أوبرا هاوس» على مدى عشرة أيام، كانت قد أُزعجتْ بباقات الزهور والهدايا والتوسّلات من المستوطَنة البولندية المتضاعفة أبداً في المدينة، وهي أكثر المستوطنات عدداً في أمريكا. في يوم الأحد، بعد «القداس المهيب» في «كنيسة سانت ستانسلاف» مع بوغدان وغداء مطوّل أقامَه المونسنيور[1] كليموڤيسكي؛ اقترحتْ مارينا برنامجاً في القاعة الاجتماعية المتاخمة للكنيسة (العائدات من المفترض أن تُوزع على أبناء الأبرشية المعوزين) التي ألقتْ فيها قصائد ميتسكيفيتش[2]، عبارات *منمازيا* سووڤاكي[3]، وبعضاً من لحظاتِها الشهيرة من شكسبير: حديث استعطاف بورشيا، مَشهد أوفيليا المجنون، الهذيان السّرنمي للسيدة الاسكتلندية. ذلك كلُّه جعلها تشعر بأنها خاليةٌ من الهموم إلى حدٍّ كبير كي

1- المونسينيور: (في الكنيسة الكاثوليكية) لقبٌ يُمنح لبعض الأساقفة الكبار. وردت الكلمة بالإيطالية في النص الإنكليزي الأصل Monsignor – م

2- ميتسكيفيتش (آدم بيرنارد) Adam Mickiewicz (1798 – 1855): شاعر وطني بولندي، وكاتب مقالات ومترجم وناشر وكاتب سياسي. كما كان ممثلاً رئيساً للحقبة الرومانسية البولندية، وواحداً من الشعراء الوطنيين الثلاثة في بولندا وأعظم شاعر في تاريخ الأدب البولندي. ويُعتبر أيضاً واحداً من أعظم الشعراء السلافيين والأوروبيين – م.

3- سووڤاكي (يوليوش) Juliusz Słowacki (1809 – 1849): شاعر رومانسي بولندي. يُعدُّ أحد الشعراء الوطنيين الثلاثة في الأدب البولندي، وأب الأدب المسرحي البولندي الحديث – م.

تُلقي شكسبير ملفوفاً بالبولندية. رجالٌ خشنو الطباع، رثّو الملابس ونساءٌ بعيون حُمر ومناديل أقبلنَ وطبعن قبلاتٍ على يديها.

تجوّلٌ كثيرٌ جدّاً، أن تفعلَ الشيءَ نفسه في كلِّ مكان جديد، يقلّصُ العالم. مدينةٌ جديدةٌ تساوي سعة ومواعيد غرفة تبديل الملابس خاصتها، إن العجز الأكبر أو الأصغر لممثلي الفرقة المسرحية الدائمة، ضمان رؤية بوغدان في وظيفته (في الأجنحة، كما كانت تفضّل، أو في مقصورةٍ بالمسرح، كما كانت تصرُّ مارينا عادةً، حيث يمكنها رؤيته بشكلٍ أفضل فيما هي على الخشبة)، ودفء التطمين بأن كلَّ شيءٍ جرى مثلما تشتهي السّفن.

لمّا كانت ممثلةً شابة في «فرقة هينريش»، كانت مارينا تفكرُ بأنها خبرتْ حماسة التجوال إلى أقصى درجاتها. إنما في أمريكا كانت الحاجةُ للراحة يُعترف بها بنحوٍ ضعيف: الأمريكيون اخترعوا الجولةَ المستمرة، أداءٌ بعد أداء، مع يومٍ واحد أو يومين بين مدينةٍ ومدينةٍ لاحقة. وفيما هي تلازمُ مقصورتهما في القطار، كانت مارينا تُنصت إلى كلمات أدوارها المسرحية في طقطقة العجلات. بوغدان يقرأ. كان يستمر بالمطالعة حين، بعد محطةٍ مُقفرة، كانا يتحوّلان إلى خطٍّ جانبيّ كي ينتظرا مدةَ ساعةٍ فيما كانت قطاراتٌ بدائيةٌ أكثر تطرقُ مارةً بهما. پيتر يتطلعُ إلى خارجِ النافذة، متمتماً في نفسه، فيما كانت مارينا تقفُ وتجلسُ، تجلسُ وتقف. كانت تعرفُ أن ذلك أحسنُ من أن تقاطعه في ذلك الحين، بعد أن فعلتْ ذلك مرةً.

«ثمانية وعشرون ماذا، حبيبي؟».

«ماما، أنت تفسدينها!».

«في سبيل الله، پيتر، أُفسدُ ماذا؟».

«أنا أجمعُ الأعدادَ المكتوبة على عرباتِ الشحن. كانت هنالك الأعداد 1 و 9 و8 و7 و3 وبعدها أنتِ ـــــ».

«معذرةً. ارجعْ إلى عملية العدّ خاصتكَ».

«ماما!».

«ما الذي فعلتُه الآن؟».

«يلزمني أن أنتظر قطاراً آخر».

في كثيرٍ من الأحيان لا تنام نوماً ليليّاً مناسباً، إلّا أنّ جَلَدها كان استثنائيّاً. كان بمستطاعها أن تنام في أيّ وقتٍ تشاء كي تستيقظ بعدها متجدّدة النشاط بعد ساعة.

انتظرها وارنوك كي تتذمّر.

«أنا لا أتذمر، كما ترى، سيد وارنوك»، قالت مارينا في منتصف الليل، فيما هي ترتشف الشاي في نهاية حافلة القطار في مكانٍ ما في سكونسون المغمورةِ بالثلج. كانت تمضي أمسيتين في «غراند أوبرا هاوس» بميلووكي أو ثلاث أمسيات في «أكاديمية الموسيقى» في «كَنساس سيتي». كانوا قد توقفوا في فناء شحن، وكان القطار يترنّح إلى الأمام والخلف، صارخاً ومرتعداً، مدةً تزيد على الساعة. «هذه الرحلات المروِّعة في القطار، التي تستغرقُ ساعاتِ الليل كلّها. الفنادقُ القذرة التي جعلتَني أسكنُ فيها مؤخراً أنا وأسرتي. الممثلون المروِّعون الذين كنتُ مرغمةً على التمثيلِ معهم. هذه هي أولُ جولة أمريكية لمارينا زالينسكا، ويلزمني أن أتعلّم أشياءً كثيرة. أنا أقولُ فقط، أرجوك، أنصتْ إليَّ، لأني لن أُكرّرَ ما أقولُه، لن يتكررَ *هذا*».

بولندا هي دوائر ــــ كلُّ شيءٍ أليف، مُشبع، مندفعٌ بعيداً عن المركز. هنا البلاد، واسعةٌ أكثر ومُعلّمة بنحوٍ ضعيف، متدفّقةٌ وشائكةٌ في الاتجاهاتِ كلِّها. في حركةٍ مستمرة من موقعٍ غير مألوف إلى موقعٍ آخر، مارينا لم يسبقْ لها أن أحستْ بأنها مُركّزةٌ جدّاً، وقويةٌ جدّاً، ومنيعةٌ جدّاً. التمثيلُ درَّعها بحاجاته المُلِحّة، بقناعاته. جولييت وروزاليند شكسبير؛ أدريانا ومارغريت غوتييه؛ وحتى الليدي إيزابيل المُحطمة في «*إيست لين*» ــــ كم كانت مرتاحةً صحبتهنَّ. في بعض الأحيان كانت هذه الشخصياتُ المسرحيّة تدخلُ أحلامَها، يتحدّثن مع بعضهن بعضاً. كانت تريدُ أن تواسيهنَّ، وتخفف عنهنَّ وطأةَ الألم واللوعة. هنَّ أيضاً نجحنَ في مواساتها. عادةً كان يبدو كافياً ألّا تكون لديها أفكار باستثناء أفكارهنَّ.

في غضونِ ذلك، كان ثمةَ شيءٌ يتراجعُ أكثر من السابق من أن يُنطق به. تمّتْ تغطية شيء ما تمّ التلميح إليه بنحوٍ متقطع. تذكّرتْ حين تَساقطَ شعرُها خلال نوبةِ حمّى التيفوئيد قبل ثلاثة أعوام، كاشفاً ويا لدهشتها بقعتين ورديتين داكنتين في مؤخرة رأسها، إحداهما أسفل القمة والأخرى أعلى مؤخرة العنق. وفيما هي تحمل مرآةً يدوية بزاويةٍ صحيحة، كانت قد حدّقتْ باشمئزاز إلى انعكاس علامات الولادة[1] في المرآةِ الكبيرةِ العائدةِ لغرفةِ تبديلِ الملابس خلفها. إلاّ أنّ صانعة الباروكة خاصتها ومُلبّستِها وحدهما اللتان رأتا مؤخرةَ فروة رأسها، وفي الحال غطتها أولاً بزغبٍ باهت اللون، ومن كتلة شعرها كلّها نمتْ من جديد، وكان من المستبعَد أن تكون مُجبرةً على رؤية فروة رأسها العارية ثانيةً.

كما ترى، أنتَ تفهم، شيءٌ ما يُثير الإزعاج، شيءٌ يلوح بنحوٍ قبيح في المَشهد... وبعدها يغيب عن الأنظار، ولا توجد هنالك حاجةٌ للحاقِ به، ما من ضرورةٍ للإصرار على شيءٍ لم تُعدْ رؤيتُه ممكنةً. كم من السهلِ أن تغدو المعرفة المزعجة معرفةً عديمة النفع.

تصوّر، خلال انفصالِهما الطويل السنةَ الفائتة، مارينا وبوغدان كان كلاهما يفتشُ عن العاطفةِ في مكانٍ آخر، بوصفها حاجةً مُلِحّةً: لن يفرض أيُّ واحدٍ منهما قصصه على الآخر عما هو معروف دون ضرورةٍ لأن يتحدّثَ عنه المرء. الحُبّ، الحُبّ الزوجيّ، كان زاخراً بالصمتِ السخيّ. سيكونان سخيين مع بعضهما بعضاً.

كانت مارينا تعتقد أنها تعرفُ ما يقيّدها بنحوٍ لا يُمكن تغييره بهذا الرجل. إنه فقط محترسٌ بنحوٍ كافٍ بحيث إنّي ما أزال أحس بأني حرّة.

لكن أليس هذا شيئاً جريئاً أن نعتقد أن بوغدان سيكون بجوارها دائماً، وأن يحضرَ كلَّ أدوارها المسرحية؟ في بولندا كان هو الكونت ديمبوڤيسكي، كان وطنيّاً، كان خبيراً. في أمريكا كان رجلاً ذا دورٍ معين بدلاً من أن تكون له وظيفة: أن يقف بجانب زوجته في المركز الملتهِب لمجدِها.

1- علامة الولادة birthmark: وهي ورم وعائي دموي، ولادي حميد. يُسمى باللغة الطبية hemangioma ؛ يُسمّى بالدارجة العراقية: وَحمَة – م.

«أنا قلقةٌ عليكَ، يا أعز الناس على قلبي. إن لعنةَ مهنتي هي أنها تستدعي مني دوماً أن أفكّر بنفسي. أنا ممتنةٌ جدّاً لحضوركَ، لدعمكَ، لحبّكَ...»

«أأنتِ قلقةٌ عليَّ؟». قال بوغدان. «أنا لا أشاركِكِ هذا الاعتقاد. هل سيوبّخها الآن؟ كلا. «أنتِ تطلبين مني أن أطمئنكِ».

«أعتقدُ هذا»، قالت مارينا، وقد أحستْ بأنها طاهرةٌ ومرتاحةٌ.

في أقصى نقطةٍ في الغرب من جولة مارينا ـــ أسبوع في «بويد أوبرا هاوس» بأوماها ـــ تركها بوغدان ورجع إلى كاليفورنيا الجنوبية. كان غرضه المُعلَن هو أن يبحث عن مِلكية كي يشتريها، منزل يمكنهما أن يلجآ إليه في الأوقات التي لا تكون مارينا في إحدى جولاتِها. كانت تحسب أن بوغدان سوف يرجعُ إلى كاربينتيريا كي يسعى إلى اختراق «نادي الطيران» المُبهَم، وكانت متيقنةً، كونها تعرف بوغدان، من أنه ما إن يضمن السماح له بأن يَشهد طيراناً فسوفَ يطلبُ فوراً أن يُصبحَ ملّاحاً جويّاً.

«إذا حصل شيءٌ ما لكَ»، قالت مارينا، «سيكون ذلك شيئاً لا يُطاق بالنسبة لي. إنما يتعين عليكَ أن تفعل ما يجب أن تفعله».

إنه لشيءٌ مستحيل بالنسبة لبوغدان أن يُبقيها مطمئنةً بواسطةِ رسالةٍ فيما تكونُ مارينا في ترحال دائم؛ وستكون هنالك برقيات، اتفقا، في حالات الضرورة القصوى فقط. تنتهي جولتُها في شهر حزيران / يونيو حيث تقضي أسبوعاً في بروكلين، في «پارك ثيتر»، مع «*كاميليا*»، «*أدريانا*»، و«*روميو وجولييت*». كانت لديهما تذاكر على الـ «أس. أس. *أوروبا*» في مطلع شهر تموز / يوليو. إذا جرت الريحُ بما تَشتهي السّفن، سوف يلتحقُ بها بوغدان في نيويوركَ في ذلك الحين.

بطبيعة الحال، كان يُريدها أن تقلق. كان ذلك من حقه بوصفه زوجها. كما أنّه واجب مارينا، حيال فنها، حيال صحتها، ألّا تقلق كثيراً جدّاً.

في الحقيقة، كانت تفضّلُ ألّا يُخبرها بوغدان بجميع خططه؛ أقل ما تستطيع القيام به هو أن تُعطيه الحق في أن يحتفظ ببعض المغامرات السرية الخاصة به وحده. كان يُريد سرعة تصديقها. ربما طارا فعلاً. لكنهما تحطّما بالتأكيد.

«لا، ماما، لا يُمكنني البقاءُ مدةً أطول. كانت الخطة دوماً بأنه بعد أسبوع أن أمضي إلى زاكوپين بعد انتهاء عملي. الطبيب الذي كان يعتني بستيفان، وهو صديق عزيز عليَّ، الدكتور تيشنسكي، هذا حق، والذي يجب عليَّ أن أزوره فيما أنا موجودةٌ هنا ـــــ لا، هو لم يعدْ يقيم في كراكوف. نعم، إنه يُقيمُ طوالَ العام هنا في زاكوپين. ماما، أنا لا أفهمْ، أتريدينني أن أكونَ غير مرتاحة؟ الفندق يناسبني تماماً. إنه أفضل بكثير بهذه الطريقة، ولديّ أشياء كثيرة يتعيّن عليَّ القيام بها. مجيئي الانتصاري إلى الوطن. السخرية، ماما. هذه يقيناً زيارة شخصية بنحو خالص، إنكِ تعرفين ذلك. الجميع ينشبون مخالبهم فيَّ. لماذا؟ المعجبون بي سوف يكفون عن مضايقتكِ أنتِ ويوزفينا حالما غادرتُ، أنا أضمنُ ذلك. ربما سأكتب «رسالة من أمريكا» لـ «*أنتراكت*» فيما أنا موجودة هنا هذا الأسبوع، ماذا تعتقد، بوغدان؟ كلا، لن أحصل على راحة البال التي أحتاجها في كراكوف، سأكتبها في زاكوپين. في وارسو؟ لماذا ينبغي لي الذهاب إلى وارسو، ماما؟ إنه شيءٌ غير وارد. أصدقائي في وارسو يمكنهم أن يستقلوا القطار الذاهب إلى كراكوف إذا أرادوا أن يزوروني. لأني مستاءةٌ بنحوٍ قاتل من إدارة «المسرح الإمبراطوري». كنتُ أعدُّ المدير صديقاً لي، نعم. إلى أن عرفتُ أنه مجرّد بيروقراطي حقود آخر. بوغدان، ألا تؤيدني؟ لم نكنْ نأخذ ذلك بالحسبان. كان بمستطاعي أن أفعل ما أفعل. وأنا أحتاج إلى أن أنعم بالهدوء وراحة البال. أنا مشتاقةٌ جدّاً لأن ألقي التحية على زملائي السابقين، وأنا آسفة على عدم رؤية تاديوش في المسرح الرئيس لـ «الإمبراطوري»، لن أذهبَ إلى وارسو. اطلبْ منهم أن يعيدوني؟ ماما، هل فقدتِ صوابكِ؟ أنا بالتأكيد ما أزالُ منزعجةً. إنما ليس هذا هو سببُ بقائي في أمريكا. كنا نخططُ على الدوام أن نعود في شهرَيْ تموز / يوليو وآب / أغسطس من أجل زيارة الأقارب. أن يزورنا أصدقاؤنا. بوغدان يتعينُ عليه أن يغادرَ مباشرةً إلى پوزنان كي يعرّج على العديدِ من ممتلكاتِ ديمبوڤيسكي، وا حسرتاه، لديه قضايا تتعلق بالميراث يريدُ أن يناقشها مع شقيقِه. إنه لشيءٌ يبعثُ على

الجنون أننا اقتربنا كثيراً جدّاً كي نراها ثانيةً. غادرنا نيويورك، كنا أصلاً في البحار العالية! بوغدان كسيرُ القلب. هي امرأةٌ استثنائية، يوزفينا. لم تكنْ حديثةَ الطراز على الإطلاق، غير موقَّرة بكلّ معنى الكلمة. لم يعد المرء يجدُ نساءً من مثلِها في بولندا. بوغدان، أمي لديها رجلٌ يطلبُ يدها، إذا جازَ لي أن أصوغ كلامي بأدبٍ شديد. هل يستمرُ كلُّ شيء في هذا البلد دون انقطاع؟ إنها تشارفُ على الثمانين من عمرها! غلينسكي، الخبازُ في «شارع فلوريانسكا»، أبله ذو رأسٍ بقبةٍ كبيرة وشاربين مُخطَّطين بالطحين، يمكنني أن أُعوّل على أن أجدَه هناك حين آتي في الصباحِ الباكر كي أقضي ساعةً مع *الصغير*[1]. هل يمكنني؟ لا أقصد أن أكون كذلك. أعتقد أنه ما من ضررٍ في هذا الأمر. إنه يسمحُ لپوتر أن يذهبَ معه إلى المخبز وأن يتسكعا هنا وهناك. أجل، ماما، إنه يُدعى پيتر الآن. لا، حقيقةً، إنه اسمٌ أمريكي أيضاً، لكني متيقنة من أنه سوف يدعُكِ تنادينه پيوتر. ماما، لِمَ العجب في مسألةِ أنه لمْ ينسَ البولندية؟ يتعينُ عليه أن يتحدَّثَ بها مع أنّيللا. سكرتيرتي؟ هل أتتْ أنيللا على ذكرِها أم أن پيتر هو الذي فعلَ ذلك؟ إنها أمريكيّة. لا تعرف كلمةً واحدة من البولندية. بطبيعة الحال، بمستطاعها أن تتعلّم البولندية، لكن لماذا يجبُ عليها أن تفعلَ ذلك؟ إنها أمريكيّة، ماما! أنيللا تحمرُّ خجلاً حين أقول لها إنها ستأتي معنا والآنسة كولينغرج تعود إلى كاليفورنيا مدة شهرين. إنما أن تكون ثانيةً في بولندا لا يبدو أنه حرّك فيها وتراً حساساً البتة. أغلب الظن لأنه ليسَ لديها أسرة. هذا الوجع الفظيع في فؤادي. لا، أنا أتحدّث مع نفسي، ماما. أنا مسرورةٌ جدّاً أن أراكِ على ما يرام، ماما. صدّقني، هينريك، القناعة الكبرى التي أتوقعها من هذه الزيارة هي رؤيتكَ. بوغدان، عزيزي بوغدان، هل أنتَ متأكد من أنكَ لا تريدني أن أذهب معكَ إلى ويلكوپولسكا؟ إغناسي لا يجرؤ. ماما، كفّي عن محاولةِ إقناعي بالذهاب إلى وارسو. أجل، ثمة عقاب. أخبرتكِ بذلك سَلَفاً. كلُّ مسرحٍ لديه جدولٌ من الغرامات التي فرضها على الممثلين بسببِ سوءِ

1- الصغير: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل le petit– م.

السلوك من الأنواع كلِّها. ماما، بالطبع أنا لم يفرضوا عليَّ غرامةً من قبل! عشرة آلاف روبل، ماما. نعم، عشرة. هذا هو الثمنُ الذي تعيّن عليَّ أن أدفعه كي أشتري حريتي. آه، إنكِ تفهمين الآن. وزعتُ كلَّ الهدايا التي جلبتها لشقيقاتي وأشقائي وأُسرهم. هينريك، لقد أودعتُ پيتر في رعايةِ أمي ويوزفينا، الجميعُ يدلّلونَه. لا، پيتر، لا يسعكَ أن تأتي معي إلى زاكوپين. إلّا أنّ أنيللا ستبقى مَعكَ. لا، ماما، لن تذهبَ مدةً طويلةً. ماما سوف ترجعُ خلال أسبوع أو نحو ذلك. ماما، أنا لا أُريد أن أتناولَ الفطائر المُحلّاة بالتفاح. أنا متخمةٌ تماماً، شكراً جزيلاً لكِ. ماما، أنا ـــــ أنا في سن الثامنة والثلاثين! بوغدان يخمنُ ما قالتْهُ أنيللا صباحَ اليوم قبل مغادرتي إلى «شارع پوسيليسكا». إنها غير مشغولة هنا مثلما كانت في أمريكا. إنها يقيناً مشغولةٌ أقل! وا حسرتاه، أنا كذلك. هينريك، كان يلزمكَ أن تكونَ في محطةِ القطار وقتَ وصولِنا من بريمين. الحشودُ، الأزهار، الأغاني. المَشهدُ نفسُه حينَ غادرتُ البلاد. تأثرتُ كثيراً جدّاً. لم يكنْ بوسعي أن أعرفَ أيَّ شعورٍ سيراودني وأنا آتي إلى بلدي، بوغدان، هل يمكنكَ أن تعرف كُنهَ شعورك؟ إن ملحمتي الأمريكية كلَّها يُمكنُ أن تبدو الآن أشبهَ برحلةٍ إلى القمر. إلّا أنّها ليستْ كذلك، بوغدان، لا. التملّق الأمريكي لا يُسبَر غورُه، في حين إن التملّقَ البولنديّ له أعماقٌ بحيث... أنتَ تعرف ما أعنيه. المقابلةُ، نعم. مقابلةٌ واحدةٌ فقط. أرجوك اقعدْ هنا. أتريد شيئاً من القهوة؟ لديَّ ساعةٌ واحدةٌ فقط. أجل، أنا سعيدةٌ بكلّ معنى الكلمة في أمريكا. للعلم، فكرتُهم عن المسرح مختلفةٌ كلّ الاختلاف هناك. لا، لديهم بعضُ الممثلين الممتازين. لا أعتقد أنكَ سمعتَ قبلاً بإدوين بوث؟ إنما لا حاجةَ للقول إني أنوي أن أمثّل في بولندا! سأكون دوماً أمامَ الجميع أيضاً باعتباري وطنيةً بولندية ومُمثلةً بولندية. مع ذلك، لأني فنانةٌ حديثة، أُريد لفني أن يراهُ عددٌ غفيرٌ من الناس. إنه شيءٌ طبيعيّ جدّاً بكل معنى الكلمة أن أمثّل باللغة الإنكليزية، وأنا أخطط لموسم العام المُقبل في لندن. مع أعاجيب المواصلات الحديثة، من الممكن أن تأخذ فن المرء إلى الأمكنة

كلها. لن تُثبّطَ عزيمتي المسافاتُ البعيدة. فيما يتعلّق بهذا الشأن، أصبحتُ أمريكيةً حتى النخاع. بوغدان، عليكَ أن تغادرَ الآن؟ ابقَ أياماً قليلةً أخرى. بوغدان، كَمْ تبدو صغيرة كراكوف الجميلة العتيقة خاصتنا. لم يتغيّرْ شيء. لا شيء! أنا أعرفُ أنه شيءٌ سخيف، هينريك، لكني أخافُ من المجيء إلى زاكوپين. أخشى أن أجدَها قد تغيّرتْ. أنتَ تعرفُ كيف كانت لمّا رجعنا بعد غيابٍ طويل. حتى المكان الذي هربتَ منه، ما تزال ترغبُ أن تَجِدَه بالضبط كما غادرتَه. الصورُ القبيحة ذاتها على الجدار، الكلبُ النعسان نفسُه تحتَ المائدة، زوجُ الكلابِ الخزفي نفسه على رفِّ المستوقَد، نفسُ المجموعاتِ الكاملةِ المغلّفة بالجلد من الأعمال الكلاسيكية غير المقروءة في خزانةِ الكُتب، طائر الحسون نفسه بصوته غير المتناغم يغني في النافذة. إنه آتٍ إلى كراكوف، بوغدان. إنه يكتب، يحلو له أن يجعل مني أضحوكةً، ذلك أنه لا يستطيع أن يضمن أن زاكوپين لم تستمرّ في التغيير. أوه عزيزي. تلك التجاعيدُ الظاهرة على وجهِكَ، هينريك. سأبكي. لا، ليست التجاعيد، أنتَ تعرف ذلك. السبب هو أنك هنا. وشعركَ بات أبيض. وما هي هذه الرعشة في يدكَ؟ دعني أحضنكَ مُجدداً، عزيزي هينريك، صديقي المحبوب. كان يتعيّنُ عليَّ المجيء إلى زاكوپين، سامحني. كان بمستطاعي أن أحوِّل بصري حين أمرُّ بالشاليهات التي شيّدها أثرياء كراكوف. ربما كان يجدرُ بي أن أقولَ إني لم أعدْ أتعرّف على زاكوپين خاصتنا، إلّا أنّكَ لا تصدّقني. أنتَ تعرفُ كم أبالغُ. أنتَ لم تنسَ أن مارينا ممثلةٌ، هل نسيتَ؟ دعني أقبّلُ خديكَ ثانيةً. إنه شيءُ صحيح، أنا لا أريد أن يتغيّرَ شيءٌ كنتُ تركتُه، ولماذا ينبغي أن يتغيّر؟ لم أغبْ عن زاكوپين مدةً طويلةً جدّاً. عامين فقط. لا يمكنكَ أن تسمي عامين أبديةً! مَن هو المسرحي الآن؟ هل تضحك عليَّ، هينريك؟ أجل، للعلم، أريد أن يجدنَي الآخرون قد تغيّرتُ، نحو الأحسن، أولئك الذين تركتُهم ورائي. حسناً؟ نعم، *أنا* أقوى. نعم. أول مرة في حياتي، أفهم ماذا يعني أن أقف وحدي. مع أنّي لم أكنْ بمفردي. أنتَ تفهم. لا، لم أغادرك إلى الأبد، صديقي العزيز، العزيز. هذا الشيءُ

فقط، ماذا يعني أن أكونَ أعظمَ ممثلة بولندية؟ أتتذكّره حين كان أوجُ طموحي أن أكونَ أحسنَ من غابريللا إيبرت. الآن، من الطبيعي، أريد أن أكونَ أحسنَ من سارة برنار. لكن هل أنا أحسن من برنار؟ لن يتسنى لي أن أكتشفَ هذا لو أنّي بقيتُ في بولندا. أنا أحتاجُ إلى آلام، تحدّيات، طقوسٍ سرية. أحتاج إلى أن أحسَّ بأني *لستُ* في الوطن. هذا هو الذي يجعلني قويةً. أعرفُ هذا الآن. أحتاج إلى أن أهربَ من نفسي، يمكنكَ أن تفهمَ ذلك، هينريك. وأنا لا أعني أن أكونَ فقط على خشبةِ أحد المسارح، أجسدُ شخصيةً معينة وأحوّلها. ما هو التمثيل؟ التمثيل، بالطبع، بوسعي أن أقول هذا لك وحدَك، هينريك، هو تحريف. وما هو المسرح؟ ادعاء، هراء. لا، لستُ مخيَّبة الأمل. على العكس. مجاميع من الطلبة يعزفون ويغنّون تحت نافذةِ غرفتي في الفندق. كلَّ يومٍ كمياتٌ من الزهورِ الطازجة تتكدّس بجانبِ المدخل. في أحد الأيام سمعتُ بيتر يقول لأمي إن ما يُحبّه فيما يتصل بالمسرحيات هو أن الناسَ لا يموتون فعلاً، إنهم فقط يتظاهرون بذلك! أنقذْ بيتر من ماما ويوزفينا، وخذهُ على صهوة الحصان، ياريك. يجب ألّا يبقى طوالَ اليوم في الشقة أو المخبز. إنه يحتاجُ إلى تمرينٍ جسديّ، إنه يحتاج إلى العراء. وبعد أن غادرتُ الكتائبية خاصتنا ــــ دون سخرية، هينريك! ــــ حلّتْ أوقاتٌ عصيبة، غير أني لم أستطعْ أن أطلب من بوغدان مساعدتي، كانت لديه مشاكل معينة في المزرعة. بعتُ ما استطعتُ بيعه، رهنتُ الجواهر والدانتيللا، وفي بعض الأحيان لم يكنْ بحوزتي مالٌ حتى ولو باون واحد كي أشتري به الشاي وقليلاً من السكّر وأويتُ إلى فراشي وأنا جائعة. غير أن الفقرَ هو أقلّ الأشياء التي كابدتُها. لأنه بعد سعادةٍ غير متوقّعة كانت هنالك حسرةٌ، أيضاً. أنا أقوى حيالَ ما ضحيتُ من أجلِه. سامحني على عدم قولي أكثر من هذا. أنا أشعرُ بأن التكلّمَ عن ذلك، حتى لكَ، سيكون أكبر الخيانات قاطبةً تجاه بوغدان. أنت تعرف؟ تحدّثَ... تحدّثَ معكَ حين رجع؟ لا، بالطبع هو لن يفعلَ هذا. أنا متيقنةٌ من أنه سيكون روح التعقّل والكرامة. لم يذكرني على الإطلاق؟ ولا

مرة؟ هذا لأنه كان مغتاظاً جدّاً مني. إذن، هينريك، كيف عرفتَ؟ إنما لماذا أطرحُ عليكَ هذا السؤال؟ أنت تعرفني أحسن من أيّ فردٍ آخر. أنا مسخ. رميتُ الحب بعيداً. أنا أم سيئة. أنا أكذبُ على الجميع، ومن بينهم أنا نفسي. لا، لا أريد غفراناً منكَ، هينريك. لا، لا، أعتقدُ أني أريدُ. نعم؟ أنا لا أبدو لك هذا المسخ؟ سوف أدفنُ رأسي في كتفِكَ. وسوف تطوّقُني بذراعكَ. كم يبدو هذا مُحبباً إلى القلب. عزيزي هينريك، يا أعزَّ أصدقائي، وكيف حالكَ؟ كلُّ ما أقومُ به هو أني أتكلّمُ عن نفسي. بوغدان يجب أن يذهب وأن يتجادل مع أقاربه العنيدين. بوغدان يجب أن يبكي عند قبر جدته. كانت امرأةً ضاريةً جدّاً. كنتُ معجبةً بها، وكنتُ أتوجس خيفةً منها. كانت حنوناً *جدّاً*[1] مع بوغدان. سيعود وسيكون لدينا وقتٌ قصير نقضيه في باريس قبل أن نُبحر إلى تشيربورغ في أواخر شهر آب / أغسطس، وطوال شهر سبتمبر / أيلول كلّه سأستمع وأرى الممثلين وهم يقدّمون تجاربَ أدائهم لصالح الفرقة المسرحية التي أنظّمُها من أجلِ جولتي الخريفية والشتائية، التي تبدأ بموسمٍ مدته ستة أسابيع في نيويورك. عزيزتي كريستينا، دعيني أنظرْ إليكِ. بالطبع يمكننا أن نعملَ معاً على مدى أيام قلائل على دور أوفيليا خاصتكِ. ما من شيءٍ يمنحني لذةً أكبر. تعالي إلى الفندق غداً بعد الظهر. جيد. جيد. المسيرةُ السّمِجة. أنا أُحبُّها. حتى يمكنكِ أن تتلعثمي حين تقدّمين باقةَ الزهور إلى جيرترود. لا تخافي من أن تكوني جريئةً. يمكنكِ أن تجرّبي أيَّ مظهر، شريطةَ ألّا يبقى مدةً طويلةً جدّاً. اجعلي من الدورِ المسرحي دورَكِ، لا تشعري بالحُزن بسبب الطريقةِ التي صوّرتُها. حين جلبتْ راشيل الرائعة سيدتَها الاسكتلندية (توقفي عن الظهور كما لو أنّكِ لا تعرفين مَن أعني بالسيدة الاسكتلندية!) إلى لندن ويُقالُ لها إن سيدتَهم الرائعة سيدونز استنفدتْ كلَّ فكرةٍ ممكنةٍ من أجل أن تمثل مَشهدَ السير أثناء النوم، أجابتْ راشيل، «بالتأكيد ليست *كل* فكرة، أنا أنوي أن ألعق يدي. خيالك الجامح جدّاً، كريستينا. خداع، كريستينا! برافا.

1- حنوناً جدّاً: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل toute tendresse – م.

لديكِ موهبة كبيرةٌ. لكنكِ جبانة. الممثل ينبغي أن يسدّدَ طلقةَ مسدس واحدة أو اثنتين. حتى أوفيليا ليستْ مجرد ضحية. احترسي من كلماتِ الدور العرجاء، المهنة العرجاء، والمَخارج العرجاء. لا تقلْ ذلك، هينريك. سأرجعُ ثانيةً في الحال. لماذا، كي أرى كيف ستكونُ حالكَ دوني. هينريك، هينريك. هل يمكنني ألّا أُضايقك؟ أيجب أن تكونَ كئيبَ المزاج؟ نبرة صوت أخرى، هينريك. آه، ستطلبُ مني، لا يسعكَ أن توقفَ نفسك. بعدها يكونُ لديك الجواب: أعتقد أني لن أفتقدَ أحداً. أنا مشغولةٌ جدّاً. غالباً أفتقدُ بوغدان، هذا الأمر قد يبدو غريباً، بما أنّه معي على الدوام تقريباً. لا يبدو الأمر غريباً بالنسبة لكَ؟ في الواقع. الزوج المثاليّ؟ منعزلٌ ذكي متسامح[1]؟ الآن أنتَ تبدو مثل ريشارد. هذا شيءٌ ربما يقوله هو. إلاّ أنّكَ لا تستطيع أن تجرح مشاعري، صديقي الأعز هينريك. أنت تعرف، أنا لستُ منهمكةً في شؤوني الذاتية كما أبدو. أنا قلقةٌ من أن بوغدان لا يملك أشياء كافيةً كي يقومَ بها. إنه يحبُ كاليفورنيا أكثر من المدنِ كلِّها، وهو يتفاوضُ من أجل شراء [قطعة أرض] تقعُ في وادٍ ضيق جميل في [جبال سانتا آنا]، مكان لنا كي نكونَ معاً عندما لا يكون لديّ تمثيل. بالطبع أنا منهمكةٌ بالتمثيل دوماً. الفنانُ الناجح في أمريكا يعملُ مئتين وخمسين يوماً في العام، أيّ بمعدل ثلاث مئة أداء سنويّاً. نافعٌ جدّاً. إنها سكرتيرة أقلّ من كونِها نوعاً من حاكمة، على ما أعتقد. صارمةٌ ومُذلة جدّاً. كل امرئٍ يحتاج إلى حاكمة، وبيتر يحبها إلى درجة العبادة. يوزفينا، هل حصل لك أن فكرتِ في الزواج ثانيةً؟ أنا أفهم لماذا هجرتِ خشبة المسرح، لستِ مزهوةً أو مغرورةً بما يكفي كي تكوني ممثلةً، وهو شيءٌ أكثر من جديرٍ بالثناء منكِ أن تمكثي دوماً مع ماما. إنما يتعيّنُ عليكِ أن تفكري في نفسكِ، كذلك. لا تعبسي، يوزفينا. الزواج قد لا يكون دوماً هو الحلُّ الأمثل بالنسبةِ للمرأة، أما أنتِ، شقيقتي الحبيبة ذات التجاعيد في جبينكِ المحبوب، *أنتِ* بحاجةٍ

1- وردتْ هذه الكلمات الثلاث: «منعزل ذكي متسامح» ككلمة واحدة في النص الإنكليزي الأصل Remotecleverindulgent – م.

إلى أن تكرّسي نفسكِ لشخصٍ ما. والأفضل، لقضيةٍ أو خدمةٍ مثاليّة، كما يفعل هينريك. كان ينبغي لكِ أن تكوني معلّمة. أجل، إنه رجلٌ ساحر. روحٌ نبيلة. إنها مثيرةٌ للإعجاب بكلِّ معنى الكلمة، رسالتُه الطبيّة في زاكوپين. وبوسعكِ ـــــ آه، أنتِ تبدينَ حتى أجمل حين تحمرين خجلاً، يوزفينا. هينريك، لديَّ فكرةٌ لك. إلّا أنّي لا أستطيع أن أخبركَ بها الآن. يلزمني أن أجعلكَ تفكرُ فيها بنفسِك. نعم، الجولات الأمريكية مطلوبةٌ، ويمكنها أن تستمرَّ مدةً طويلةً تصلُ إلى اثنين وثلاثين أسبوعاً. إلّا أنّ حياةَ ممثل بارز تكونُ لها دوماً حصّتُها من اللذات، أغلبها لذّات الطفولة والصِّبا: الوثوب فرحاً، أحلام اليقظة، الخِداع، نوبات الغضب غير المعقول. بسمتُك، هينريك، لا تعني أنكَ ظننتني عاجزةً بكلِّ معنى الكلمة عن الاستبصار؟ وكان يُتوقّع، يُتوقّع أن أكونَ متحمسةً، مستبدةً، متقلّبة المزاج، توّاقةً للحنان؛ وسيكون لديَّ أسرةٌ مُنتخَبة متسامحةٌ في متناول اليد: الممثلون الآخـرون، ومديرو الاستبدادي، والآنسة كولينغرج، وامـرأةُ ملابس الممثلين... وبوغدان سيكونُ معي خلال جزءٍ من العام، مع أنّي لا أستطيع أن أتوقّعه أن يسافر معي هنا وهناك. في كاليفورنيا كانت لديه مغامراتٌ تخصُّه هو وحدَه. هل صاغ نوعاً ما من الصداقة؟ لم يتكلّم قط عن أيٍّ منها، وهو أمرٌ أنا ممتنةٌ له، لكن مهما كان نوعُ هذه الصداقات، أو ما يزالُ، هو ما يزالُ يريدُ أن يجعلَ حياتَه معي. پيتر، ماما، تتحدّثُ مع العم هينريك. أجل، أنتَ وأنيللا يُمكنكما الذهاب إلى المخبز. لا، ماما، لن أكونَ هنا على الغداء. بوغدان يعودُ غداً. في بحرِ أيامٍ قليلة أنا وهو ذاهبان إلى پوزنان كي نبقى هناك مدة أسبوع مع شقيقة بوغدان. إنه ملاكي الحارس، هينريك. نعم، أعرف أن هذا هو ليس ما سألتني عنه. لا *أعرف* ما إذا كنت سأفعل هذا. لكني أريدُه. أنا أحتاجُه. أحسُّ بأني بخير معه. إنه لا يدعني أقلق. أنا لا أُحسّ بالمَلل معه. *أتمنى* أن أُغرمَ به. سيكون من الظُّلم ألّا أُغرم به. أنا أحبُّه حقيقةً. آه. أنتَ قاسٍ جدّاً معي، هينريك. لكنكَ مُحِقٌّ بطبيعة الحال. قلتُ لك، أنا امرأةٌ سيئة. أنا لا أُحبّ أحداً. كلا، لا أُحسّ بأني مسحوقة

بفعلِ حبّ فردٍ آخر. يا لها من فكرة! إنما لا يلزمك مع ذلك أن تقلقَ عليَّ. أنتَ عطوفٌ جدّاً معي، هينريك. عطوفٌ جدّاً وإلى حدٍّ كبير، هينريك. دعني أبكي. أنا أُفسدُ كلَّ شيء. أنا لا أجعل أحداً ينعمُ بالسعادة. أنتَ تهزُّ رأسكَ. إلّا أنّي فردٌ لا عزاءَ له، هينريك. لا، أنا لا أمثل. هل أُخبركَ ما هو التمثيل، تاديوش؟ التمثيلُ هو تحريف. إن فنَّ الممثل يتألفُ من استغلال مسرحيةِ المؤلف كي نعرضَ قدرتَه على الإغواء والتزييف. الممثل يشبه المزوِّر. بوغدان، ثمة أنباء. تاديوش وكريستينا سوف يتزوجان. لا أبالي حين يتصرفُ الناس بنحوٍ متوقّع، هل تفعل هذا مثلي؟ كان هذا مقدّراً. أنا أثق بأن الحمقاء الصغيرة ليستْ بصدد التخلّي عن مسيرتها كي تكون زوجةً. إنها امرأةٌ موهوبةٌ، موهوبةٌ أكثر من تاديوش. وسأكون عرّابة طفلهما الأول. أوه بوغدان، إنه شيءٌ مروِّع أن يكونَ المرءُ مُسنّاً. أنا أكره أن أغدو عجوزاً. أنتَ تقول ذلك لأنكَ لطيفٌ جدّاً، وأنتَ تُحبُني، لكني أعرفُ كيفَ أبدو. كراكوفي الجميلة. المُدنُ الأمريكية قبيحةٌ بنحوٍ لا يصدّقه العقل، يوزفينا. قبيحةٌ جدّاً، لا تحترم الآخرين بنحو... إلّا أنَّ الأرض، الأرض، والجبال والصحارى والمروج، والأنهار الجامحة، هي أكبر، مُلهِمةٌ أكثر، مُربكةٌ أكثر من جميع فنتازياتنا الأوروبية عن أمريكا. لا يسعكَ أن تتصوَّرَ كيف... هي كاليفورنيا الجنوبية البطولية. أتمنى أن تراها في يومٍ ما، هينريك. أنتَ تتنفسُ هناك بنحو مختلف. المحيط، الصحراء، في جميع حياديتها المهيبة، يقترحان فكرةً مختلفةً أخرى في كيفية العيش. أنت تستنشقُ أنفاساً عميقةً وتشعرُ بأن بمستطاعِكَ أن تقومَ بأيّ شيء تضعُه في بالكَ. لا، ماما، لستُ عليلةً. أنا فقط أحتاج إلى أن أكون هادئةً مدة يوم واحدة لا غير. حفلاتٌ كثيرةٌ جدّاً، ودموعٌ متسارعة، وحوارات لا تنتهي. سمعتُ أن ثمةَ اقتراحات وشيكة تتعلّق بعودتي إلى المسرح البولندي الأمر الذي لم يكنْ باستطاعتي أن أرفضه، بما فيها إدارة مسرح خاص بي وحدي. بوغدان، لماذا لا أشعر بأني بخير هنا؟ ألأني أفكرُ في ستيفان طوال الوقت؟ الآن أتذكّر لماذا أردتُ مغادرة بولندا؟ السببُ، السبب هو... لا، لا أعرف

السببَ. حتى حاليّاً. كلّ ما أعرفُهُ هو أني أشعرُ بأني في منتهى القلقِ والاضطراب. مسرحٌ خاصٌّ بي. مسرح بولندي. ماذا أبغي أكثر من ذلك؟ عدتُ كي أعتزّ بما حققتُه وأن أحظى بإعجاب الجمهور وتقديره، وأن أطمئن أني ما أزالُ محبوبةً والناس يشتاقون إليَّ، سيما أنّ الجميع كانوا يتوسّلون إليَّ حتى أرجع، وهذا كلُّه لا يمنحني أيَّ لذةٍ على الإطلاق، البتة. بربارة، لا يسعني أن أتذكّر شكلكِ وأنتِ راضيةٌ تماماً، عزيزتي. أتفكرين أحياناً في آردن خاصتنا؟ كم كان حلماً ساحراً. وكم كنا جريئين وأقوياء! أنا فخورةٌ جدّاً بنا. ألكسندر، نحن نشتري قطعة أرض في «وادي سانتياغو». مَرْبَى الماشية في هونيكوت. أنتَ تتذكّر. يتعين علينا جميعاً أن نلتقي هناك في كلِّ صيف من الآن، بعد أن ينتهي تشييدُ المنزل. بوغدان يريد أن يمتلكَ دواب إنما يجب أن نحصلَ على عونٍ مناسب، لن نطلبَ منكَ أن تُطعِم الخيول أو تحلب الماعز، أعدكَ! سيكون ذلك شيئاً رائعاً. أنتما الاثنان ودانوتا وسيبريان وفتاتهما و... أوه، لا تذكّرني. لا يمكنني أن أكف عن التفكير في ذلك. ولم يكنْ هنالك أحدٌ كي يوقفها! إنه لشيءٌ مروِّع. مروِّع. بالطبع سوف ندعو يوليان. بيد أني أعرفُ أنه لن يأتي. وياكوب من نيويورك. ريشارد؟ هذا شيءٌ جليّ، أليسَ كذلك، بوغدان؟ هل ما يزالُ في المسكن نفسِهِ في وارسو؟ جنيف؟ جنيف؟ منذ متى؟ لماذا جنيف بالذات؟ لا، لا أخبارَ لدينا منه في المدة الأخيرة. وأنتَ أيضاً ستأتي، هينريك. ليس إلى كاليفورنيا، هذه ليستْ لك. هذا العام ستكون لي فرقتي المسرحية الخاصة وجولةٌ أطولُ بكثير في أنحاءِ البلاد. في أمريكا، الممثلُ الرئيس «يُدار»، مثلما تُدارُ مهنةٌ ما، والمدير يأتي معه أثناء الجولة. وسوف تسافرُ معنا بوصفكَ طبيب الفرقة المسرحية. في أغلبِ الأحيان يمرض شخصٌ ما من أعضاء الفرقة. أوه، يا له من رأيٍ مُحبَّب إلى القلب. فكّر فيه مليّاً، هينريك. ربما سأدعو يوزفينا، هي أيضاً، للمجيء. شقيقتي امرأةٌ محترمةٌ، ألا تؤيدني، هينريك. الحنين المَرَضي، ألكسندر؟ إلى بولندا؟ ممرات تاترا التي تحفّ بها أشجار الراتينجية، وديان أشجار السنديان في كراكوف،

أشياء من هذا النوع. أوه، من أجل حياتي القديمة. أعتقد أن هذا ليس هو ما أشعرُ به. كلا، هينريك، ما من شيءٍ يجعلني مصابةً بالنوستالجيا. جعلتُ قلبي يقاتلُ الماضي. أمريكا مكانٌ مناسبٌ لهذا الشيء. أمريكا، أمريكا! أنت تجيب ـــ بالمناسبة، أنا أفضّلُ هذه النبرة. إن كنتَ تشك بأني أجدُ في بلدي الجديد كلَّ ما أريدُ أن أجدَه هناك، فأنتَ على صواب، هينريك. أمريكا نافعةٌ في هذا الشأن أيضاً. وأنتَ حمّصتَ أقراصَ الخبز المدوَّرة هذه بنفسِكَ، پيتر حبيبي؟ إنها رائعة. بوغدان، تعلّمتُ شيئاً شيقاً جدّاً في أحد الأيام. بحسب هينريك، حتى قبل مدةٍ غير طويلة كانت النوستالجيا تُعدُّ مَرَضاً خطيراً، وغالباً مَرَضاً قاتلاً. يُعتقد أن الخريفَ هو الزمن الأخطر، والجنديةُ هي المهنة السريعة التأثر بنحوٍ خاص. من الناحية العملية كلُّ شيء، رسالةٌ غرامية، صورةٌ، أغنيةٌ، ملءُ ملعقة من العصيدةِ اللذيذةِ الطعم من عهد طفولة شخص ما، مقاطع قليلة بلكنةِ منطقةٍ محليّة لفردٍ ما تُسمعُ بالمصادفة في الشارع، بوسعها أن تحثَّ على انطلاق المرض. تواريخ الحالات المرضية التي يقرؤها ظهرتْ كلُّها في المجلات الطبية الفرنسية، إنما يبدو من المستبعَد أن الفرنسيين وحدَهم قادرون على الموت بسبب التصاقهم بالماضي. البولنديون، اتفقنا، لا بدَّ أنهم كانوا مُعَرَّضين أكثر لهذا المرض، مثلما كان الأمريكيون قد انتهوا إلى أن يتفوّقوا في تحرير أنفسهم من الماضي. نعم، إنه لذيذ، ماما. لا، ماما، أنا لا أريد شريحة لحم خنزير مشوية مع الأضلاع، أو قرنبيط يعلوهُ فتاتُ الخبز والزبد. (يا إلهي!) ماما، لستُ نحيفةً *جدّاً*. الممثلةُ الأكثرُ تقديراً في أوروبا اليوم، ملكة المسرح الفرنسي، لا تساوي أكثرَ من... أوه، لا يهم! ماما، هل لديكِ أدنى فكرة، أيّ فكرة بأية حال، مَن أكون؟ هذا السؤال بالتحديد، بوغدان، سألتُه. من المفروض، أن أفول هذا المرض هو أحدُ الفوائد الكثيرة للتقدّم الحضاري: الماكنة البخارية، والتلغراف، والبريدُ المنتظم. لكنكَ تعرفُ هينريك ـــ التفاؤلُ شيءٌ غريب على طبيعته، ولأنه أيضاً غير قادر أبداً على الامتناعِ عن الملاحظةِ الشائكة ـــ إنه يقول إنه يعتقد أن أفول هذه العاطفة بشكلِها

القاتل حصراً يُظهِر صعود مرضٍ جديد، العجز عن أن يكون المرءُ ملتصقاً بأيّ شيء. بطبيعة الحال أنا أفكر في ريشارد أحياناً، هينريك. دكتور. هل لكَ أن تصف لي شيئاً يخفِّفُ الألم؟ أم إنه الخَدَر؟ لم أكنْ أنانيةً حسب. كنتُ أشعرُ بالرعب. أَخَذَ أنفاسي. أحسستُ بأني منشطرةٌ بكلّ معنى الكلمة. بوغدان، هينريك قال لي أمس إنكَ تعرفُ كيف يمكنه أن يكون فظّاً، بولندا تحبُّكِ. بولندا تحتاجُ إليكِ. لكنكِ لم تعودي تحتاجين إلى بولندا. ماذا يسعُني أقول له؟ هينريك، هنالك صنفان من البشر. الذين على غرارك، صديقي العزيز، يحسون فقط بأنهم بخير لمّا تكون الأشياء كلُّها مفهومةً، مألوفة. وأولئك، السلالةُ التي أنتمي إليها، الذين يشعرون بأنهم وقعوا في الشِّرك، أنهم أغبياء، مضطربون حين يكونون في ديارهم. هذا الأمر لا يحول دون أن أكون وطنيةً متحمسة. أكثر الأشياء التي تعجبني في يوزفينا، هينريك، هي أنها كبيرةُ القلب. أوه بوغدان، كيف يستطيع إغناسي أن يكون عنيداً جدّاً! لا بدّ أنه شيءٌ مروِّع بالنسبة لكَ. نحن نستحقّ شيئاً من العطلة الآن. أنا سعيدة لأننا بذلنا المجهود ورافقنا هينريك في طريق عودته إلى زاكوپين. هل يجب أن يحجم اثنان من الكاليفورنيين الجنوبيين الموسميين عن رحلةٍ مدة يومين بالعربة؟ هل كان يتعين علينا ألّا نبتهج بالتقدّم الذي أقبل إلى القرية، بدءاً بمستوصف[1] هينريك الجديد، المجهَّز بنحو رائع؟ هي ما تزالُ زاكوپين القاسية، اللاذعة، المعزولة بنحو لذيذ، خاصتنا، وقد تناولنا أشهى الأطعمة، ومشينا، أيَّ نوعٍ من المسيرات، تسلّقنا أكثرَ مما كنا نعنيه من أجل بانوراما شائعة، وسكان الهضاب كانوا مُرحّبين جدّاً. أعرف أنكَ تعتقد أننا سنبقى حتى يوم الأحد. لكننا بذلك سنجعلُ هينريك أكثر اكتئاباً. سوف يفتقدنا حتى أكثر لو أنّنا مكثنا مدةً أطول. جبين يوزفينا، شعرُها. ألا تعتقد بأنها محبوبةٌ، هينريك؟ أنت أعمى، يا صديقي. أينَ نحن؟ نحنُ في زاكوپين. إلّا أنّي لم أرغبْ بالمجيء إلى زاكوپين. نحن في كراكوف. إلّا أنّي لا أروم البقاءَ في كراكوف. پيتر،

1- المستوصف dispensary: مستوصف لتوزيع الأدوية مجاناً – م.

احضنْ جدتكَ وعمتيكَ وخاليك وأبناء خاليك. بالطبع يمكنكَ أن تقول وداعاً للسيد غلينسكي! بوغدان، بوغدان حبيبي. أعرف أنكَ ستعتقد أني امرأةٌ نزوية بطريقةٍ لا تُغتفر، غير أني لا أريد أن أبقى مدةً طويلةً كما خططنا. دعنا نغادر إلى باريس الآن. أحتاجُ إلى الثياب، نعم، الأمر يستغرقُ أياماً عدة ريثما أجدَ الملابس التي تنطبق على مقاييس جسمي. وليليّاً سنرتادُ المسرح. ربما تُمثل هي[1] في الـ «كوميدي فرانسيس». أعرف أني سأكرهُها وأقعُ في حُبِّها. أنا أصلاً لديّ غصّة لمّا أفكرُ في حروفِ اللينِ الطنّانة الخاصة بالكاتب راسين كما يجبُ أن تبدأ بها هي، والحقب الزمنية المَلَكية. ربما لن أستمتعَ برؤية «*أدريانا لوكوڤرييه*» أو دورها في «*كاميليا*»، إلّا أنّ دورها في مسرحيتَيْ «*هيرناني*»[2] و«*فيدر*» ـــ أكثرَ من أيّ شيءٍ في العالم. طالما أنّها لا تعرف أني جالسةٌ وسط الجمهور. ماما، يقيناً سأعود في الصيف المقبل. وأنتِ ويوزفينا ستأتيان كي تعيشا معنا في أمريكا، حين يكون لنا أنا وبوغدان مربى الماشية خاصتنا. أنتِ، هرمةٌ جدّاً؟ لا تكوني مُضحِكةً، ماما. أوه بولندا. لا تكوني حبّاً ضائعاً. كوني قوّتي، كوني كبريائي، ترسي الذي أحملُه معي وأخرجُ إلى العالم. أوه ريشارد، يداكَ، فمكَ، *جنسكَ*[3]. بوغدان، هل كلّ شيء بخير؟ بالنسبة لي، نعم. أنا متكيّفةٌ ومنتصرةٌ، هينريك. مَن كان يحسبُ أن الأشياءَ ستكونَ هكذا؟

غادرا بولندا في أواخر شهر تموز / يوليو؛ مسافريْن إلى باريس حيث قضتْ مارينا ثلاثة أسابيع وهي تشتري دزينةً من الملابس الجديدة للتمثيل، وتجلسُ كي يُرسم لها بورتريه، وتذهب إلى المسرح (شاهدتْ فعلاً سارة برنار وهي تؤدي دور «دونا سول» في مسرحية فيكتور هوغو المُعنونَة

1- المقصودة هنا الممثلة الفرنسية الشهيرة سارة برنار – م.
2- هِرناني Hernani: مأساة شعرية ألّفها الشاعر والروائي الرومانسي الفرنسي فيكتور هوغو Hugo. عُرضتْ أولَ مرة في باريس العام 1830. هِرناني بلدةٌ في إقليم الباسك الإسباني الجنوبي – م.
3- جنسكَ: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل ton sexe – م.

«*هِرناني*»، وذهبتْ فيما بعد إلى الكواليس كي تقدّمَ ثناءَها وتقديرَها إلى منافستِها الجليلة، زارتْ معارضَ الفنون التشكيلية و«إكسبوزيشن يونيڤرسيل»؛ وأبحرا من تشيربورغ في العشرين من آب / أغسطس، ووصلا بعد مضيّ أسبوع، في زمن الشهر الأخير من صيف نيويورك كريه الرائحة. مكثا مجدداً في حي المسرح، خارج «يونين ِ سكوير»: كانت الشقة الكائنة في «كلاريندون هوتيل» مليئةً بالأزهار، وهذه سرعانَ ما ذَبَلتْ في الحرارةِ القابضةِ للصدر التي تخترقُ البشرة كالمبضع. وجدتْ مارينا فندقَها، حيث كان من دأبها أن تمكث هناك حين تمثّل في نيويورك؛ وسوف تكدّسُ، في هذه الجولةِ القوميّة الثانية، ميولاً أخرى غير قابلة للتغيير. أولئك الأفراد ممَّن كانوا متجوّلين مهنيّاً يريدون أن يُرحّب بهم وأن يُمطَروا بالعناية المتملقة بنحو معوَّل عليه، بطريقةٍ حميمة، في التوقفات المؤقتة الأطول في المدنِ التي تزورها فرقتُهم المسرحيّة المتجوّلة. نزلا في الحجرةِ ذاتِها في الفندق المألوف، وكانا يتناولان كلَّ وجبةِ عشاء في المطعم نفسِه ـــ تكمنُ السعادةُ الغامرةُ في أن يتخذا أقلَّ ما يمكن من القرارات.

كانت مارينا سعيدةً جدّاً بعودتها إلى أمريكا، وبعدها عاجزةً عن كبت انفجار خيبة الأمل (شعرتْ بأن خيالها خذلها) حالما اندفعت السفينة إلى الرصيف. إنما سواء أكان إحباطاً لأنها لم تفهمْ حقيقةً، أو نفاد صبر مع الجميع لأنها كانت أمريكيةً بنحو فاتن جدّاً، بنحوٍ مسلٍّ جدّاً، بجديةٍ تامة، بنحوٍ راضٍ عن نفسه (هل تخيّلتهم بغير هذه الصورة؟)، خيبة أمل، وإحباط، ونفاد صبر كانت تُقمع كُلُّها ما إن تبدأ بالاستماع إلى الممثلين الذين يرومون الانضمام إلى فرقتِها المسرحية. كي تشعر بأنها على ما يُرام وأنها مستقرّةٌ، كان يكفي بأن تدخل مسرحاً صباحَ كلّ يوم وتتولى القيادة، المسرح حيث ستبدأُ بالتمثيل في مطلع شهر أكتوبر / تشرين الأول على مدى ستة أسابيع. تظهرُ في ساعةٍ مبكرة من العصر، كانت تحسّ بأنها ضعيفة بسبب نور الشمس والحرارة والحشود القاسية الأفئدة، المصابة بالغرور. كان يلزمها أن تذكّر نفسها أنه هذه ليستْ أمريكا بل فقط نيويورك، معتدّة جدّاً بنفسها، ومُرهِقةٌ جدّاً، ضيّقةٌ جدّاً ومملوءةٌ

جدّاً. الوطن ـــــ ذلك الجزء من بلدها الجديد الذي بمستطاع مارينا أن تتخيّل نفسَها زاعمةً أنه وطنها ـــــ ليس نيويورك، حيث تبدأ أمريكا المهاجرين، بل حيث تمضي أمريكا مسرعةً إلى الأوقيانوس المجاور وتنتهي. كان بوغدان يحتاج إلى كاليفورنيا، النهاية، البداية الأخيرة، وكذلك كانت هي.

من أجل موسمها، موسم نيويورك الثاني في «مسرح الجادة الخامسة»، كررتْ مارينا، استجابةً لإطراء أكبر من قبل، أدوار أدريانا ومارغريت غوتييه وجولييت خاصتها، وفي الأسبوعين الأخيرين حققتْ نصراً جديداً في الدور الرئيس[1] لـ «فرو – فرو»[2]، وهي مسرحيةُ فرنسية أخرى محبوبةُ كثيراً عن أجور البغاء. القصة؟ آه، القصة! غيلبريت دي سارتوريس المفعمة بالحيوية، المولودة قبل الأوان، كان لقبها هو «فرو – فرو»، كانت قد قدّمتْ إلى أسرتها شقيقتها غير المتزوّجة، التي أبقتْ نفسها بعيدةً عن الأضواء، لويزا، وهي مثال الفضيلة الأنثوية، التي تأتي بنحو محتوم كي تحلَّ محلَّ الزوجة – الطفلة المُفسَدة في عواطف ابنها الصغير وزوجها، هكذا، فيما هي تتصوّر أن شقيقتها خدعتها، فرو – فرو تهربُ مع الرجلِ الخسيس الذي تودّدَ إليها سابقاً ولم يكفّ عن ملاحقتها، لمجرد أن تعودَ بعد مضيّ بضعة أعوام، نادمةً، ضعيفةً بنحو مُهلِك، ويصفحُ عنها زوجها ويسمح لها بأن تعانق طفلهما قبل أن تصبحَ في عِداد الأموات.

«أعتقد أنها ليستْ لطيفةً جدّاً مثل [*إيست لين*]»، قالت مارينا. «نعم؟ لا؟».

«[*إيست لين*] مسرحية إنكليزية، و[*فرو – فرو*] فرنسية»، قال بوغدان. «الجماهير الأمريكية تبكي كثيراً جدّاً بحرية على مصير النساء الأجنبيات اللواتي يلحق بهنَّ العار».

1- الدور الرئيس title role: الدور الذي تستمد منه المسرحية عنوانها، من مثل مسرحية «عُطيل» أو «الملك لير» لوليم شكسبير – م.

2- فرو – فرو frou – frou: مسرحية من تأليف الكاتبين المسرحيين الفرنسيين لودفيك هالڤي وهنري ميلهاك. عرضتْ أول مرة في العام 1869. كلمتا فرو – فرو الفرنسيتان تعنيان حفيف ثوب المرأة الحريري بخاصة، أو زينة مُفرَطة التنميق خصوصاً لملابس المرأة – م.

«أجنبيات وثريات. وذوات ألقاب رفيعة المنزلة»، أشارت الآنسة كولينغرج.

«بوغدان، قلْ لي إنها ليستْ سيئةً جدّاً».

«كيف يتسنى لي ذلك؟ انظري إلى الطريقة التي انتهتْ بها كلتاهما، وأنت مُصابةٌ بضربةٍ قاضية ومستعدةٌ لأن تلفظي أنفاسكِ الأخيرة في قاعة الاستقبال المتسقة بنحو نبيل في الوطن الذي هجرتِه بنحوٍ سخيف، إجرامي. في [*إيست لين*] كلماتُكِ الأخيرة هي، ونحنُ كلُّنا نعرفُها عن ظهر قلب، [*آه، هل هذا الموت؟ من الصعب أن يرحلَ المرء! وداعاً، أرشيبالد العزيز! زوجي في يومٍ ما، والذي أحبُّه الآن في الموت، مثلما لم أحبه من قبل. وداعاً، حتى حلول الأبدية! فكّر فيَّ أحياناً، اتركْ زاويةً صغيرةً لي في قلبكَ ـــ زاويةً لزوجتكَ إيزابيل الضائعة ـــ المحتَقرة ـــ المسكينة!*] ستارة.

«متعفنةٌ، أتوقع»، قالت مارينا. كانت تقهقه.

«آه، هل هذا الموت؟»، قال پيتر.

«لا ينبغي لك أن تقاطع، أنت»، قالت مارينا، وهي تجرّه كي تعانقه.

«*فكّر فيَّ أحياناً، اتركْ زاويةً صغيرةً لي في قلبكَ*»، قالت الآنسة كولينغرج.

«أنتِ أيضاً!». صاحتْ مارينا.

«في حين»، تابع بوغدان، «في حين في [*فرو - فرو*] تقولين بدلاً من ذلك ـــ مع أنّ باستطاعتكِ أن تستعملي الكنبةَ نفسها، المكسوة بقماشٍ آخر ـــ [*آه، في هذا الوقت إنه شيءٌ صعبٌ جدّاً أن يموت المرء. لا، لا تحزنْ عليَّ*]. تقولين هذا لزوجكِ الفظيع، لشقيقتك، وأبيكِ، كلُّهم تلقّوا التعليمات كي يبكوا ويجففوا دموعهم بمناديلهم كي يستطيع الجمهور أن يركّز انتباهه عليكِ. [*ماذا يلزمني أن أتوقّع غير أن أموت منبوذةً من الجميع، يائسةً ومهجورةً؟ بدلاً من ذلك، أن أكون محاطةً بالأشخاص الذين أحبّهم، أموتُ بسلام ـــ سعيدةً ـــ دون معاناة ـــ هادئةً، ساكنة تماماً ـــ*]

«اصفحْ عني!». صرختْ مارينا.

«وثمةَ موسيقى ناعمةٌ وحزنٌ مرتفعُ الصوت يرافقانكِ إلى كلماتكِ الأخيرة، [*كلُّكم تغفرون ـــ ألا تغفرلي؟ فرو ـــ فرو ـــ فرو المسكينة ـــ فرو!*] ستارة. الآن، قلْ لي، أليستْ هذه هي المسرحية عينها؟».

«إنها المسرحية عينها».

«لكن لماذا يجب أن تموت فرو ـــ فرو؟». قال پيتر. «كان بوسعها أن تقفز وتقول، [غيّرتُ رأيي]».

«سيكون ذلك مختلفاً»، قالت مارينا، وهي تقبّل شعره.

«إذن كان بوسعها أن تخرج إلى كاليفورنيا وتصعد في سفينة فضاء وتقول، [حاولوا أن تقبضوا عليَّ إن استطعتم]».

«أنا أحبُّ هذه النهاية أكثر بكثير»، قالت الآنسة كولينغرج.

«وكذلك أنا»، قالت مارينا. «نعم، أنا أغدو أمريكيةً بامتياز. أنا أفضّل أكثر أن تكون النهاية سعيدةً».

«لا يُطاق»، قال بوغدان. كان الجدول لا يُطاق. «سوف تقتلين نفسكِ».

في جولتها الأولى كانت مارينا مقيّدةً بالتمثيل في المسارح التي لديها فرق مقيمة، وهي أقل بكثير مما كانت عليه قبل عقدٍ مضى. في فرقتها المسرحيّة الخاصة، ثلاث عشرة امرأة واثنا عشر رجلاً، سيكون بمستطاعِها أن تمثل كلّما كان هنالك مسرح، وكلُّ مدينة في أمريكا لديها مسرح، كثير منها تُسمى «دور أوبرا» كي يجعلوها تبدو محترمةً أكثر، على الرغم من أنه لم تُمثلْ هناك أيّ أوبرا قط.

في «ولاية نيويورك» وحدها، كان وارنوك قد حجز لها دوراً أو دورَيْن تمثيليْين في پوغكيپسي، وكنغستون، وهودسون، وألباني، وأوتيكا، وسيراكوس، وإلميرا، وطروادة، وإيثاكا، وروشيستر وبفالو.

بعد أسبوعها في بوسطن، هذه المرة في مسرح «غلوب ثيتر»، جاءتْ

سلسلةٌ من الليالي في لويل، ولورنس، وهاڤرهيل، وفول ريڤر، وهوليوك، وبروكتون، ووركيستر، ونورثامپتون، وسپرنغفيلد.

في بنسلڤانيا، بين الأسبوع في فيلادلفيا والأيام الأربعة في پيتسبورغ، أدوار تمثيلية مفردة في برادفورد، ووارين، وسكرانتون، وإيري، وويلكيس - بار، وإيستون، وأويل - سيتي ـــ «أويل سيتي. اسم غير اعتيادي بالنسبة لمدينةٍ في الجزء الشرقي من أمريكا، إن لم أكن مخطئاً»، تمتم بوغدان.

«في أوهايو»...

«كالامازو»، قال پيتر. «لا بدّ أنه اسمٌ هنديّ».

«ابن زوجتي يذكّرني»، استطردَ بوغدان، «أنه في ميشيغان كل ارتباطات المدام محددةٌ بليلةٍ واحدة. كالامازو، وموسكيغون، وغراند راپيدس، وساغيناو، وبَتل كرِيك، وآن أربور، وبيّ سيتي، وديترويت. ثماني مدن في عشرة أيام».

«الرئيس ساغناو وزوجته ديترويت يعسكران عند [بيّ سيتي] تحت الـ[آن أربر] بعد الـ[بَتل كريك] قبل أن يذهبا على طوفٍ عبر الـ[غراند راپيدس] ويعودان إلى كالامازووووووو»، قال پيتر.

«تركتَ موسكيغون»، قالت الآنسة كولينغرج.

لكنهم لن ينسيا أن يأخذا ابنهما الصغير، المدعو موسكيغون.

«تمام»، قالت الآنسة كولينغرج.

«الإسراع في طولِ البلادِ وعَرضها» ـــ طوى بوغدان الخارطةَ من جديد ـــ «وعلى مدى أسابيع في كلِّ مرة ينامان، إن كان ذلك مُمكناً، في غرفة فندقٍ مختلفة، غير مريحة كلّ ليلة؟ أتريدُ أن تقتلَ نجمتكَ، سيد وارنوك؟ هذه الارتباطات المسائية الفردية التي يعقبُ كلُّ واحدٍ منها الآخر دون شفقةٍ ينبغي شطبها من البرنامج».

«سيدي العزيز، لا بدّ أنكَ تمزح. إن توقفَ الفرقة مدة ليلةٍ واحدةٍ في مدينةٍ ما بغرض تقديم مسرحية يجلبُ أكبرَ فائدة من الجولة».

كانت مارينا قد أعلنتْ نفسها أسمى من المعركةِ ومستعدّةً لأيّ مجهود؛ ظلَّ بوغدان ساخطاً؛ كان وارنوك شديد الاهتياج. رأى الجولة كلَّها تنهار ما لم...

حلّ وارنوك، وجبَ على بوغدان أن يُقرَّ، كان ذكيّاً.

«عربة السكة الحديدية خاصتنا؟ هل هذا شيءٌ شائع في أمريكا؟». سألتْ مارينا.

لا أبداً. فرقتها المسرحية ستكون أول فرقة تسافر إلى عددٍ من المسارح يملكها شخص واحد بواسطة نقل كانت حتى الآن محجوزةً لأقطاب السكك الحديدية والرؤساء المؤثرين. كانت مارينا تُحبُّ أن تكونَ جزءاً من موجة المستقبل. كان وارنوك يحبُّ الاهتمام من جانب الصحافة الذي تستحقُّه العربة. في كلِّ مدينةٍ من المدن التي زاروها، كان المراسلون الصحافيون مدعوين على متنِ القطار كي يُبدوا إعجابهم بسقفِ مَنوَر الكنيسة ذي الارتفاع المضاعف، وأساطير مائية على السقف ذي اللوحات الجصيّة (النبي موسى في البردي، ونرسيوس عند بركة المرآة، والملك آرثر في بارجة الجنازة خاصته)، أجزاءٌ داخليّة من خشبِ الجوز الأسود المنحوت، وأشياء مخمليةٌ متدليةٌ من النوافذ، ومصابيحَ غاز ذات صفائح فضة وأدوات معدنية مختلفة. وسجاجيد فارسيّة وبيانو عمودي في بهو المدام، وسجادة بنقش الحمار الوحشي ومرآة طويلة متأرجحة مؤطرة بالذهب وبورتريه بالقامة الكاملة للممثلة العظيمة على صهوة جواد بزَيّ غربيّ في غرفة نومها. فضلاً عن شقةٍ كبيرةٍ مزوّدة بغرفةِ تبديل الملابس خاصتها ومرحاض للمدام وزوجها، كان هنالك مكتب دافئ ومريح وغرفة نوم ملاصقة لمدير المدام، غرفتا نوم لابن المدام وسكرتيرة المدام، وصفّان من مَضاجع النوم المريحة للممثلين والممثلات وخادمة المدام الشخصية والسيدة المسؤولة عن ثيابها(«ترتيبات النوم للسيدات والسادة النبلاء يتمّ فصلها ليلاً بواسطة حاجب في وسط العربة»)، هذه المَضاجع تُطوى مُجدداً خلال النهار كي تتركَ الأرضيةَ خاليةً لوضعِ الكراسي المُنجّدة ذات الأذرع المفتوحة وأثاث

الطعام؛ في الزاوية البعيدة من العربة كانت هنالك حجرات غسل الوجه واليدين، ومطبخ قطار، وثياب وخزانات للأفرشة. كان وارنوك قد جعلهم يعرفون أن إعادةَ التصميم الداخلي وتجهيزات عربة نوم فاجنر السابقة بطول سبعين قدماً قد كلّفتْ تسعة آلاف دولار. من الخارج، صبغوا بلون بيرغندي عميق، ألواحاً بيضوية في كلا الجانبين تُعلن بكتابة ذهبية مجعدة: زالينسكي وفرقتها المسرحية، هنري أج. وارنوك، والمدير. اسمه الأوسط، الذي يُحبذ أن يُذكر، هو هانيبال. واسم العربة، اسمها الجديد، هو *بولندا*.

إن الحصولَ على عربةِ قطار خاصة ومركبة مخصصة لحقائبهم، مع مناطق مخصصة لأفراد طاقمهم الماهرين الملوّنين (الطاهي، ونادلان، وحمّال) وفضاء خزن مقسّمٌ بشكلٍ بارع للأزياء وستائر المسرح الخلفيّة، كانت تتيحُ لوارنوك أن يُضيفَ أكثر من توقّف لليلةٍ واحدة للفرقة المسرحية.

لن يكون هنالك مزيدٌ من حزم الحقائب وتفريغ محتوياتها! ناموا وأكلوا في القطار على مدى أسابيع دون انقطاع، حين كان هنالك يوميّاً أو بين يومٍ وآخر مدينةٌ جديدة، ومسرحٌ جديد.

عند الوصول، مارينا ووارنوك يذهبان مباشرةً إلى المسرح، حيث يلتحق بهما حالاً بوغدان وبقية أعضاء الفرقة المسرحية ــــ وارنوك يعاين إيصالات شباك التذاكر ويتشاور مع مستخدمي المَشهد المسرحي في ما إذا كانت توجد أيّ مشاكل تقنية يمكن أن تظهر للعيان مع ستائر المسرح الخلفيّة إذا ما كانت سماءُ خشبة المسرح واطئةً جدّاً أو أن يكونَ فضاءُ الجناح أقل من النصف الضروري لمقدّمة خشبة المسرح، مارينا من المفترض أن تمتلكَ حجرة تبديل ملابس النجمة وتُلصِق خطَّ الرحلة بجانبِ المرآة كي يكونَ بمستطاعِها أن تتذكّر اسمَ المدينة، والمسرح، والمدير المسؤول عن الخشبة. في ما بعد الظهر تدريبٌ مسرحيٌّ موجز ربما يحتاج إلى أن يُنظم إذا كانت مسرحية الليلة لم تُمثّل على مدى أسبوع أو أكثر، ووقتٌ ما يجب أن يُوفَّر للمقايضات المؤدَّبة مع وفد من محبي المسرح المحليين، وشاعرٌ برابطة عنق مزهرة، وسيدةٌ شابةٌ مهووسةٌ بالمسرح وأمها، ومحرر جريدة

المدينة، ورئيسةُ الفرع المحلي من «اتحاد الاعتدال[1] المسيحي الخاص بالمرأة. ثم تعود ثانيةً إلى حجرة تبديل الملابس خاصتها كي تضعَ مساحيقَ التجميل خاصتها وترتدي ثيابها، وتصعد إلى خشبة المسرح كي تؤدي دورها، وتستقبل الأشخاص رفيعي المقام المحليين في حجرة استراحة الممثلين والممثلات، وتختار أزهاراً قليلةً من الباقات الكثيرة، وتكون في محطة السكة الحديدية في منتصف الليل، حيث «*بولندا*» وعربة الحقائب خاصتها تكون مشدودةً إلى مؤخرة أيّ قطار ذاهب إلى المدينة التي لديهم فيها ارتباطهم القادم.

إن علم الاقتصاد المتعلّق بجعل حياة التمثيل خارج التجوال، دون مسرح يُعدّ مقرّاً رئيساً حيث يتمّ التدريب على المسرحيات والحفاظ عليها، يعني أن مارينا لن تكون قادرةً على نشر ذخيرةً كبيرةً بالإنكليزية. (في «المسرح الإمبراطوري» كانت قد أدّتْ ستة وخمسين دوراً مسرحيّاً!) ومع ذلك، بست مسرحيات تمّ التدريب عليها كلِّها من البداية إلى النهاية، زالينسكا وفرقتها المسرحية «كانوا قد أعطوا أكثر مما يعطيه معظم الممثلين الرئيسين في أمريكا الذين كانوا يقطعون البلد من أقصاه إلى أقصاه. في الواقع، بعض الممثلين اختاروا سنةً بعد أخرى أن يقوموا بجولةٍ على أكثر أدوارهم المسرحية شعبيةً، باتوا أقل طموحاً لأنفسهم وصاروا يحتقرون جمهورهم أكثر. إلّا أنّ الممثل دوماً، وبنحو صحيح، لا يثق بجمهوره. (إذا كانت الجماهير تعرف أن الممثلين كانوا يحكمون عليهم!) الممثلون المصابون بالدوار المصحوب بالإعياء والارتياح بأن إجهادَ الليل قد انتهى، الممثلون يحدّقون إلى مرايا حجرات تبديل الملابس العائدة لهم فيما هم يضعون طبقاتٍ كثيفةً من الكرِيم البارد كي يزيلوا مكياجهم هم أيضاً يُصدرون أحكاماً على «نظارة»[2] الليلة. هل هم يقظون؟ أغبياء؟ أموات؟ لا يمكن القيام بشيءٍ حيال الغباء، إلّا أنّ

1- الاعتدال temprance: الاعتدال في معاقرة الخمر أو الامتناع التام عنه. الاسم الكامل للاتحاد كما ورد في النص الروائي: Woman's Christian Temperance Union – م.

2- نظارة house: جماعة المشاهدين أو الجمهور في مسرحٍ إلخ – م.

مارينا لديها حيلها التي تسود بها، وتصحح، وتوقِظ جمهوراً ميتاً ـــــ من مثل أن تقترب كثيراً من مقدّم المسرح، وأن تتطلّعَ إلى الجمهور، وأن تصعّد طبقة الصوت والرجفة vibrato معاً ـــــ أو تُسكت صوتَ سعال. السعال يقول لك إن الجماهيرَ تتمنى أن يحصلَ ذلك في مكانٍ آخر. (في الإلقاء، لا أحدَ يسعلُ في الدقائق العشر الأولى أو خلال الاستعادات).

لم تكن المسارحُ مكتظةً دوماً. ربما الأسباب هي الجوّ السيئ، وضعف الدعاية، ومديرو مسارح جشعون جعلوا أسعار التذاكر مرتفعةً جدّاً، أو غَضب مُنظم على المسرحيات التي حُكم عليها بأنها أجنبية بنحوٍ عدواني أو مرافقة جدّاً لنيويورك. «لتحصلْ نيويورك على تراجيدياتها الخاصة بحجرات النوم. أوهايو سوف تظلُّ تفكرُ في الأشياء الأعلى»، هكذا جاءتْ خاتمة رسالةٍ إلى الصحيفة الصادرة في ليما حاثّةً على مقاطعة «زالينسكا» وفرقتها المسرحية في «مسرح فاروت» في مسرحية «*كاميليا*». كانت الرسالة موقّعةً من: «أمٌّ أمريكية». كان المُراجِع في «تيري هاوتي» قد استحضرَ «الفضيلةَ الأنثوية» لدى مارينا بدور مارغريت غوتييه لمجرد أن يؤنبها لأنها بتلك الطريقة تجعل مسيرة الخطيئة تبدو فاتنةً بنحوٍ مرهَف.

كانت مارينا قد رفضتْ بشكلٍ صريح أن تبرمجَ أدواراً إضافيةً، استرضائيةً لـ «*إيست لين*» في أوهايو وأنديانا. وارنوك، آملاً أن يلفت انتباه الجمهور، أعلنَ أن مدام زالينسكا قد ضيّعتْ «صليباً وعصابة رأس مرصَّعين بالماس قيمتُهما أربعون ألف دولار»، برغم أنه أرسلَ فوراً برقيةً إلى أرقى صانع مجوهرات في باريس، والرسول الذي جمع صليباً وعصابة رأس أغلى من الماس كان قد ركب أصلاً متن الباخرة التالية في تشيربورغ، إلى أن وصلت الأشياء الثمينة إلى أنديانا، هو، هاري أچ. هارنوك، لم يكنْ بمستطاعه أن يستجيب لمزاج نجمته. اعترضتْ مارينا بأنه جعلها تبدو مُضحكةً. لا أبداً، شرح وارنوك، الجمهور الأمريكي يتوقّع أن تظلَّ ممثلةٌ مشهورةٌ دون جواهرها مدّةَ عامٍ واحد في الأقل.

«من جواهرِها المزيّفة فقط؟ أم من جواهرها الحقيقية أيضاً؟».

«مدام مارينا» ـــــ صَهَل بنفادِ صبر ـــــ «النجمة تكون دوماً غير مبالية بأشيائها النفيسة».

«مَن قال لك هذا الهُراء، سيد وارنوك؟».

«هذا الأمر أثبته بارنوم منذ عشرين عاماً مضى ـــــ».

«لكن بطبيعة الحال». تنهدتْ مارينا بطريقةٍ مسرحيّة. «سمعتُ بهذا الرجل الذي يُدعى برنوم».

حين أحضرتْ جيني ليند[1]. العندليبة السويدية، كما يلقّبها بي. تي. بارنوم، وكانت تلك امرأة عبقرية خالصة، فقدتْ جواهرها ثلاثَ مرات خلال جولتِها.

وكان وارنوك على حقّ. بعد أن أفشى القصةَ المتعلِّقة بالجواهر، كانت صالات المسارح المخصصة لعرض «*كاميليا*» مكتظةً على الدوام.

كان يجب أن يتحمّلوها أيضاً: بعد سبع نداءات ستارة من أجل «*كاميليا*» سريعة الخطوات في «أكاديمية الموسيقى في فورت ويَن»، الرجل البدين، باروكة شعر مصفرّة منحرفة، يشق طريقه عبر حشد المعجبين حاملي الهدايا في حجرة استراحة الممثلين (الذين كانوا قد ضغطوا أصلاً على تمثال برونزي لـ «هيواثا»[2]، مجموعة أحاديث يوليسيس أس. غرانت[3]،

1- جيني ليند Jenny Lind (1820 – 1887): مغنية أوبرا سويدية؛ تُسمى أيضاً جوانا مارينا ليند. وهي من أكثر المغنيات اللائي نلن تقديراً وإعجاباً في القرن التاسع عشر، كما أنها معروفة بأدائها لأدوار الغناء السوبرانو في أوروبا وجولتها الموسيقية في أمريكا التي حققتْ شعبيةً لا نظيرَ لها، إذ دعاها منظم العروض بي. تي. بارنوم وأحيتْ 93 حفلةً ضخمة الحجم له – م.

2- هيواثا Hiwatha: زعيم هندي أحمر في حقبة ما قبل الاستعمار ومؤسس مشارِك في حلف إريكويس Iroquois Confederacy، أو «الأمم الخمس Five Nations» – م.

3- غرانت (يوليسيس) Ulysses S. Grant (1822 – 1885): الرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الأمريكية. وكان القائد العام لجيش الولايات المتحدة، وعمل مع الرئيس إبراهام لنكولن لقيادة جيش الاتحاد للانتصار على الكونفدرالية في الحرب الأهلية الأمريكية. إذ انفصلتْ إحدى عشرة ولاية عن الولايات المتحدة العام 1860 و1861– م.

والصندوق الموسيقي، الموضوع على طاولةٍ قريبة وكان يُدار مراراً كي يفكَّ [كرنفال البندقية[1]] ـــ ألحّ على مارينا أن تقبلَ هديةً منه، وهي كلبةٌ إنكليزية من جنس بغّ، محبوبة جدّاً، سمينة، تتنفس بصوتٍ مسموع، بلون الشمبانيا. «إنها ليستْ كالجواهر، مدام زِي، لكنني أراهن أنها ستجعلكِ سعيدةً طوال برهةٍ من الزمن».

«سأسميها [أُغّ]»، قالت مارينا، وهي تبتسم ابتسامةً حقيقية. كانت متعبةً، وحتى برمة في تلك الليلة.

«أستميحكِ عُذراً؟». قال المُعجَب.

بنحوٍ غير متوقّع، مارينا، التي كانت مولعةً فقط بالكلاب الضخمة، والكلاب التي ليستْ لديها عيوب في أجهزة التنفس، كان يلزمها أن تعِد وارنوك بأنها لن تتخلّى عن «أُغّ». وثمة قول فصل آخر من أقوال وارنوك يفيد بأن: «كلّ الممثلات الشهيرات لديهن كلاب صغيرة بوصفها حيوانات مدلّلة» ـــ وفيما يتصل بهذا الحيوان المدلّل لم يلِنْ له. إلّا أنّ الآنسة كولينغرج، التي ستكون مسؤولةً عن الحيوان، سُمِح لها أن تُعيد تسميتها، فأطلقتْ عليها أنديانا.

في جاكسونڤيلل، تلقّتْ مارينا هديةً أخرى: تمساحان أمريكيان صغيرا السن من جنس قاطور بلون الليمون الحامض الأخضر.

«يتعين عليكِ ألّا تحتفظي بهذين التمساحين»، قال وارنوك. كانت الآنسة كولينغرج قد وجدتْ سَلفاً قفصاً أكبر لهما، وكانت تُفرغ بأناقة جرار الحشرات والقواقع وبعض الأطعمة الشهية النازفة من اللحم النيئ في فكوكها المفتوحة.

«آه، لكنني سأفعل»، قالت مارينا. «أنا أصلاً منحتهما اسمين بولنديين.

1- كرنفال البندقية Carnival in Venice: مهرجان سنوي يُعقد في البندقية، إيطاليا. ويُعدُّ هذا المهرجان واحداً من مهرجانات العالم المعروفة ويحظى بالتقدير. يبدأ المهرجان نحو أسبوعين قبل أربعاء الرماد وينتهي يوم ثلاثاء الشرف، أي اليوم الذي يسبق أربعاء الرماد – م.

تلك التمساح هي كاسيا. وصاحبها هو كليمنس. آنسة كولينغرج تطمئنني بأنهما كائنان لطيفان، أسنانُهما البيض الصغيرة ليستْ حادةً بعد بما يكفي كي تؤذي كثيراً».

«أنتِ تضحكين عليَّ، مدام مارينا».

«كيف يسعكَ أن تتخيّل شيئاً كهذا؟ ألم تسمعْ بأن سارة برنار لديها شبل أسد أليف، وفهد صيّاد، وببغاء، وحمار؟».

«سارة برنار ممثلةٌ مسرحيّةٌ فرنسيّة»، مدام مارينا. «أنتِ ممثلة مسرحيّة أمريكية».

«صحيح، سيد وارنوك. أم ينبغي لي أن أقول [صحيح بما يكفي]. مع ذلك، ألم يُدينوني لأني أقضي أيامي في عربة قطار سكة حديدية، لقد اكتسبتُ أصلاً ــــ».

«صحيح»، قال السيد وارنوك. «احتفظي إذن بالتمساحين».

حين جعلها وارنوك تجلس من أجل أخذ صورة فوتوغرافية مع كاسيا وكليمنس، مصرّحاً للمندوبين الصحافيين أن التمساحين الأمريكيين قد أُعطيا إلى مدام زالينسكا في نيو أورليانز، مارينا، وهي نفسها ليستْ هاويةً قدر تعلّق الأمر بالكذب المتزايد، كانت فضوليةً لمعرفة السبب.

«لأن نيو أورليانز تبدو أفضل من جاكسونڤيلل».

«أفضل؟ بأيّ معنى أفضل، سيد وارنوك؟».

«رومانسيةً أكثر. غريبةً أكثر».

«وهذا شيءٌ حسن في أمريكا؟ كنْ صبوراً معي. أنا أحاول فقط أن أفهم».

«أحياناً نعم، أحياناً لا».

«لكن بالطبع. إذن أعلن أنهما فُرضا عليَّ في نيو أورليانز من لدن عرّافة كريولية عمرها تسعة وأربعون عاماً كي تُبعِد عني السحر الشرير الذي رأته معلّقاً على رأسي. وهذا الشيء، مع أنّي ضحكتُ على نبوءة العجوز المسنة، بعد قطعة غليظة قصيرة من أنبوب رصاص سقطتْ من سماء خشبة المسرح أخطأتني على بعد مسافة بوصة واحدة خلال الاحتفاء بـ[روميو وجولييت]

في ناشڤيللي، وبتُّ أشعر بأني أكثرُ أماناً مع هذه الكائناتِ المشؤومةِ في مَخدعي أكثر مما لو كنتُ دونها».

«أنتِ الآن على متن قطار!». قال وارنوك. «أنا أفهم، أيتها السيدة العزيزة، لقد فهمتِ... كلَّ شيء».

«سيد وارنوك، كنتُ أفهم دوماً. لم أكنْ أوافق. هذا هو كل شيء».

أمامها «*كما تشاء*» في «دار أوبرا شولتز» في زانسيڤيلل، أوهايو، كان الجمهور قد استضيف لمحاضرةٍ من لدن بروفيسور يُدعى ستيل كريڤن عن «شكسبير والروح الهزلية». في «دار أوبرا دوهيني» في «كونسل بلفس»، أيوا، ثمة برنامج من فصول متنوّعة (شخصُ يتكلّم من بطنه، ورجل يقود دراجة وحيدة العجلة، وكلاب راقصة) قد سبق دور «*جولييت*» خاصتها في جبهة المسرح في الصالة التي يبلغُ عرضُها عشرين قدماً. في «دار أوبرا تشاترتون» في سبرنغفيلد، إيلينوس، أتى أولاً عرضٌ كوميديّ استغرقَ عشرين دقيقة عنوانه «*إليزا تهربُ عبر الثلج*» وبعدها «*فرو- فرو*». في «أكاديمية أوين للموسيقى»، في تشارلستون، كارولينا الجنوبية، «*أدريانا*» وبعدها «خليط من قطع قصيرة من تأليف بيلليني، ميربيه»، وفاجنر. في «دار أوبرا ﭘيلوت» في هيوستن، كان الجمهور مستعدّاً لـ «*إيست لين*» بواسطة مغني مونولج، ثاديوس ـــ «لكني أستجيب لتادﭘول»[1] ـــ مورج. من الأجنحة، سمعتْه مارينا يستمرُّ... ويستمرُّ في: «تادﭘول لأني كنتُ صغير الحجم جدّاً لمّا كنتُ صغير السن. مورج لأن أبي كان مورج. دودلبول مورج. يُدعى الآن دودلبول لأنه ـــ» انفجر بوغدان. إما أن وارنوك تأكد أن لا شيء، لا شيء قد تمّتْ برمجته سابقاً قبل [زالينسكا وفرقتها المسرحية]، أو أن المدام بوسعها أن تُلغي بقية الجولة.

كانت هنالك هديةٌ أخرى قد مُنحتْ من لدن الازدواجية الدافئة للزواج: بما أنّ بوغدان قد أيّد قضية السخط والرعب الذي كانت تحسّه، كانت مارينا حرّةً كي تطالب بجواب آخر، متسامح أكثر. الآن جاء دورها

1- تادﭘول tadpole: فرخ الضفدع – م.

كي تقول: «لكن ماذا تتوقع، يا أعز الناس؟ هذه أمريكا. إنهم يريدون أن يتأكدوا من أنهم يحظون بالضيافة. إلّا أنّ الآليين خشني الطِّباع يستمتعون بما أهبُهم، أيضاً».

في «دار أوبرا مينغ» في هيلينا، مونتانا، سيدةٌ تُدعى أوبرتين وودوارد دي كاي عزفتْ على شرف مارينا مازوركا القطعة الموسيقية 7، رقم 1 من تأليف شوبان وموسيقى البولونيز البولندية على مقام لا الكبير بدرجة منخفضة[1] قبل أن يُسمحَ برفعِ الستارة لـ«*كاميليا*» من تقديم زالينسكا وفرقتها المسرحية، وعقب ذلك قُدِّمتْ باقة زهور للفرقة كلِّها في قصر دي كاي. كانت امرأةً بسيطةً جدّاً، حسنة النيّة إلى حدٍّ كبير. حساسيتي الأوروبية تنهار. فكرتْ مارينا. أنا سعيدةٌ بأن أُبهجَ الآخرين.

كانت رصيدُها المسرحي الآن قد اشتملَ على ثلاثة أدوار أخرى من شكسبير مثّلتها في بولندا: دور ڤيولا في «*الليلة الثانية عشرة*»، ودور بياتريس في «*ضجة بلا سبب*» (أحبّتْ هاتينِ الحكايتين المتعلّقتين بالأزواج غير المنسجمين أو المتنازعين حيث كلُّ شيء يأتي في النهاية تماماً!) ودور هيرميون في «*حكاية الشتاء*»، وفيها يستطيعُ پيتر أن يلعبَ دوراً صغيراً جدّاً وهو دور ابن هيرميون القليل الحظ، ماميليوس. مع أنّها كانت تعرف أن پيتر يجب أن يكون في مدرسة داخلية، لم يكنْ باستطاعتها أن تتحمل الانفصال عنه حتى الآن. وكان ينبغي لها أن تدع بوغدان يذهب.

«أنا أحسدكَ. أنا لا أعرف كيف أعيش حياتين». قالت مارينا، دون أن تنظر في عينَيْ بوغدان. «دفعتُ ثمناً باهظاً جدّاً حتى أعيش هذه الحياة».

«لن أذهب»، قال.

«لا، أريدكَ أن تذهب. أنا قلّما تنقصني الوظيفة حين تكون قد ذهبتَ».

أحسّتْ بأنها قويّةٌ جدّاً. أذهلها أن بعض الناس يحسبون أنها سوداوية.

1- مقام لا الكبير بدرجة منخفضة: ورد في الرواية مصطلح A – flat major الموسيقي. تُترجم كلمة flat أحياناً بـ«بمول» – م.

«أنتِ تبدين حزينةً قليلاً لمّا أدخل»، قالت المندوبة الصحافية الرؤوم من «*ممفيس ديلي أفالانش*».

«أيَّ وجهٍ بولنديّ هذا الذي يخلو من لمسةِ حزن؟». ردّتْ عليها مارينا. «إلّا أنّي فقط شخصٌ حزين لمّا أكون دون زوجي. نحن معاً طوال الوقت، إنما في المدّة الأخيرة كان مُجبراً على الذهاب إلى كاليفورنيا على مدى أشهر قليلة من أجل العمل، وأنا أشتاق له طوال الوقت».

تاريخ البرقية هو 23 شباط / فبراير 1879

فون روبلنغ يوافق على إبداء ملاحظة عن التوقف في أثناء رحلة الطيران

أنا لا أفتش عن رخصةٍ من أجل الصعود

ماذا كان يفعل بوغدان؟ كانت تأمل ألّا يحذّرها، لم تطلبْ مني هي أن يطمئنها.

جاءت البرقية التالية بعد مضيّ ثمانية أيام:

عالياً مدة عشر دقائق نقطة مَشهد لا يُضاهى

مَشهد من الأرض؟ مَشهد من الجوّ؟ إنما كيف يتسنى لها أن تصدّق أيَّ شيء يقوله بوغدان؟ كان بوسعها أن تقلق أكثر لو لم يكنْ هنالك ستة توقفات كل واحد مدة ليلة واحدة في ميسوري وخمسة توقفات في كنتوكي. كان رصيدُها الآن قد توقف عند تسعِ مسرحيات ـــ خمسٌ منها بقلم شكسبير ـــ كانت قد مثّلتها في أربعة وثلاثين مسرحاً في الشهرين الأخيرين وحدَهما. عقدت العزم على أن تضيف «سمبرلاين»[1] لمّا وصلوا إلى نبراسكا

1- سمبرلاين Cymberline: تُسمى أيضاً: سمبرلاين، ملك بريطانيا، وهي مسرحية ألّفها وليم شكسبير، تجري أحداثها في بريطانيا الغابرة، تقريباً سنة 10 – 14 ميلادية. شأنها

خلال تأرجحهما عائدين إلى الغرب الأوسط. «سمبرلاين»، اكتشفتْ، هي أكثر مسرحيات الشاعر الملحمي شعبيةً في أمريكا. كانت الجماهير تحبّ سيل المصالحات في النهاية الذي يغسل معاً المؤذي، الذي سيكون مغوياً لـ «إيموجين» العفيفة وزوجها السريع الغضب، الذي يسهلُ خداعه.

الأزواج دوماً على حق. الزوجة الآثمة يجب أن تموت. إذا كانت غير وفية فعلاً، فيجب أن تموت حقيقةً. إذا كان الشك بنحوٍ خطأ بأنها غير وفية، عليها إذن أن تتظاهرَ بأنها ميتة ـــ وتنتظر، بقدر ما يستغرقُ الأمر، بالنسبة للرجل المُغتاظ بنحوٍ سخيف كي يرى سبباً ويصفحُ عنها.

بطبيعة الحال القضية لم تعدْ صحيحةً. هذه أزمنة حديثة. الزوج ليس دائماً على حق. إلّا أنّ المرأة ما يزال يُتوقع منها أن تعلنَ اعتمادَها المثير للمشاعر على زوجِها.

بوغدان! أيها الزوج! اكذبْ عليَّ. أمسكني. دفئني. أفتقدُ الانطلاق صوبَ النوم معك. برقيةٌ أخرى، مؤرخة في 17 آذار / مارس 1979

مارينا مارينا مارينا نقطة كلُّ شيء نقطة كامل نقطة
يوجد ماءٌ في كلّ الأرجاء

وبعدها صمت. هل أصابَه الجنون؟ هل سيختفي إلى الأبد؟

إنما بالطبع يمكنني أن أعيش دونه. طالما أنا أواصل التجوال. هذه الجولات تُبقيني في حالة توازن. الحركة والاهتياج والوعي بالالتزام تُبعد عني الأفكار السيئة، وتُسكت الميول السخيفة.

«يا زوج! يا صاح! افعلْ ما يتعيّن عليكَ أن تفعله. إنما لا تعذّبني. لم أعدْ قويةً كما عهدتني. لم أعدْ».

شأن «عُطيل» و«حكاية الشتاء» تتناول موضوعي الغيرة والبراءة. وقت تأليفها غير معروف، لكنها عُرضتْ بشكل مؤكد أول مرة في العام 1611 – م.

«كلُّ طائرة أُسستْ وفقَ قاعدةٍ مختلفة»، أشار بوغدان حين عاد. «هذه الطائرة كانت تُسمى الطائرة قلب، *Aero Heart. Aero corazón*. أحياناً فقط *corazón*».

«كانت؟ بعدها تحطّمتْ».

«مارينا، أنتِ لم تفهمي. لقد حلّقتْ فعلاً. تقريباً باستقامة، الصفةُ المميزةُ لهذه الطائرة هي أنها بلا أجنحة. وباستقامة، ودون أيّ مرور خارجي سريع، إلى مئة قدم أو نحو ذلك. رفرفتْ هناك طوالَ عشرِ دقائق مُذهلة، مهيبة!».

«أخبرني بالمزيد»، قالت.

«آه، مارينا. أحسُّ بأني سخيفٌ جدّاً. ما الذي أفعلُه بحقنا نحن الاثنين؟ أنا ممسوس».

«لا، لستَ ممسوساً. أنتَ تحكي لي قصةً».

«أنا لا أروي قصصاً!».

«بلى، أنت تروي». قهقهتْ برقة.

«ماذا تريدين أن تعرفي؟».

«كيف تبدو هي».

«مثل جرس عملاق، حيث المقصورة مغلّفةٌ تماماً ومروحةُ دفع ضخمةٌ، وعريضة ملتصقة بالسقف بحيث، حين تبدأُ بالحركة، تكون مثل الخذروف[1] الذي يلفُّ ويدور. قلتُ لكِ إنها دون أجنحة، ألم أقلْ ذلك؟ نعم، بالطبع فعلتُ ذلك. قوة الرفع تتزوّد بها من شيء يسميه المخترعون [ضاغطات الهواء]، وهي أنبوب يُقذف من خلالِه الهواء المضغوط في أسفل الطائرة. الضاغطات ومروحة الدفع تدفع الطائرة مباشرةً إلى ارتفاع مُحدَّد سلفاً، وبعدها تتوقفُ، ومن ثم تطيرُ أفقياً ـــ ذلك الجزء لم يعملْ

1- الخذروف top: يُسمى بالدارجة العراقية: المصراع. وهي لعبة أطفال شائعة، تكاد تنقرض إن لم نقل انقرضتْ تماماً – م.

هذه المرة ـــ في الاتجاه الذي كانت قد وُجهتْ إليه. تصلُ سرعتُها إلى ثمانين ميلاً في الساعة، يزعم خوان ماريا وخوزيه».[1]

«أعتقد أنَّ المخترعين كلُّهم ألمان».

«كلّهم تقريباً».

«وظلوا على قيد الحياة، سالمين، أصدقاؤك المكسيكيون، حين هوت الطائرة. عليك أن تخبرني ما إذا كانوا قد فارقوا الحياة أم...».

«نعم، *corazón* كانت مستعدةً بنحوٍ رائع للكارثة، لأيّ كارثة. بالون حجمه يساوي ثلاثة أضعاف حجمها، يُسمى معوِّض، يُنفخ بسرعة كي يُعيق الهبوط المفاجئ جدّاً، وأرجل بلاستيكية تُطلَق في أسفل الطائرة كي يضع حدّاً للسقوط أثناء هبوطها على اليابسة».

«لكن ما كان عليكَ أن تصعدَ معهم؟».

«مارينا، قلتُ لكِ إني لن أصعد».

«وهكذا أنتَ لم تصعدْ».

«كنتُ أهمّ بأن أطلبَ منهم أن يأخذوني معهم. إلّا أنّي خفتُ من ألّا أكون قادراً على قهر خوفي. كنتُ أعرف، كانوا هم يعرفون، أن الهبوط سيكون مُخففّاً، مُحرَّراً من الوهم، وليس قاتلاً. على الرغم من ذلك، ما من يقين. هذه هي المغامرة، أليس كذلك؟ المغامرة لديها أزهار في شعرها، إلّا أنّها بلا وجه ـــ (ماذا، بوغدان؟) ـــ أوه، ودريفوس كان مهتمّاً. وأنا أعتقد أن باستطاعتي أن أصل إلى ڤون روبلينغ واللقاء به. ومن ثم سأنجز مَهمتي. مارينا، مارينا، أرجوكِ لا تهزي رأسكِ بهذه الطريقة!».

«أغادر أمريكا؟ ـــ الأسباب الأكثر أمريكيةً ـــ إنه زمنُ الانتقال من

1- خوان ماريا وخوزيه: اسم شخص. في البلدان الناطقة بالإسبانية، غالباً ما يُذكر اسم الأم والأب بعد اسم الشخص، أو اسم الشخص ومن ثم اسم الأب والأم. كاسترو، في سبيل المثال، اسمه الكامل: فيدل كاسترو روز، كاسترو اسم أبيه، روز اسم أمه – م.

مكانٍ إلى آخر؟». وارنوك لم يفهمْ. «لكنكِ بدأتِ توّاً في أمريكا. يمكنكِ أن تجمعي ثروةً هنا. جميعُ الناس هنا مُغرمون بكِ».

إنما كيف يستطيعَ رجلٌ من مثل وارنوك أن يفهمَ غواية لندن بالنسبة لفردٍ مُغرم بشكسبير إلى درجة العبادة؟ كي تكون ممثلة مسرحية في إنكلترا، ليس بالإنكليزية فقط! في إنكلترا بمستطاعها أن تبرز وتندفع إلى ما وراء كلِّ شيء تحققَ في هذه الجولة الأمريكية، الثانية، الأكثر نجاحاً.

«لا، أنتِ لن تنتقلي»، قال وارنوك.

مع وارنوك المرتبك، الغاضب وهو يستمرُ في توقّع أن مغامرتها اللندية ستكون فاشلةً، وضعتْ مارينا نفسها في يدَيْ إدوارد دودلي براونلو، المنتج الإنكليزي. في الأول من أيار / مايو، 1879، ظهرتْ أول مرة على أحد مسارح لندن بدور «*كاميليا Camilles*» مع أنّها لم تظهرْ تحت هذا العنوان، لأن «*كاميليا*» ـــ كانت تُسمى بنحوٍ هُرائي «*غادة الكاميليا*»[1]، بالإنكليزية ـــ حظرها اللورد شامبرلين. ولأنها كانت تبجل بريطانيا ليس فقط لأنها بلد شكسبير بل لأنها مسقطُ رأس أيّ حريةٍ مدنية، مارينا ذُهلتْ لدى معرفتها بوجود مراقِب[2] حكومي في لندن. كما هو الحال في وارسو. لا، ليس على غرار وارسو، إذ كانت الرقابة الإنكليزية ضعيفةً جدّاً ومن الممكن مقاومتها من خلال تغيير عنوان المسرحية. ومارينا بالأحرى كانت تحب «*زهرة الثالوث البرية Heartsease*»، العنوان الجديد، الذي بدا مقبولاً، توفيقيّاً بنحوٍ لا معنى له، وشعرتْ بخيبة الأمل لمّا عرفتْ من براونلو أن *Heartsease* هي حصراً اسم زهرة أخرى. أحسّتْ بأنها أُنزلتْ درجةً، كزهرة التوقيع العائدة للمحظية النقية القلب. يقيناً هذا اللورد شمبرلين لم يكنْ بمستطاعه أن يجبر «السيدة ذات زهور

1- غادة الكاميليا: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل La Dame aux Camélias، وهو الاسم الشائع للرواية المترجمة إلى لغتنا – م.

2- مراقب censor: شخص يقوم بمراقبة المطبوعات أو الأفلام أو المسرحيات أو البرامج الإذاعية والتلفزيونية – م.

الكاميليا» على الموت في الفصل الخامس على فراشٍ نُثرتْ عليه... زهور الثالوث البرّية!

كانت قد فضّلتْ «*كاميليا*» على مسرحيةٍ لشكسبير للسبِب نفسِه الذي بدأتْ فيه تمثيلها في أمريكا بمسرحية «*أدريانا لوكوفْرييه*»: ستكونُ لكنتُها ذات أهميةٍ أقلّ في مسرحيةٍ فرنسية. القناعُ الجديد الذي من خلالِه تعلّمتْ أن تُخرجَ أصواتَ اللغةِ الإنكليزية في أمريكا، حيث يكون فكها الأسفل رخواً قليلاً، كان يجب، بمساعدة الآنسة كولينغرج، أن يُشدَّ بإحكام من أجل لندن. كانت تغييرات المقاطعِ اللفظيّة قد أُعيد فحصُها وباتتْ أوضح، الأصوات الساكنة الخارجة من مؤخرة الفم تحرّكتْ إلى الأمام، والشفاه أضحتْ أرفع. «كونهم متكّبرين على مَن يعتقدون أنهم أدنى منهم، الإنكليز يستمتعون بأن يجدوا أخطاءً في لكناتنا الإمريكية»، أوضحت الآنسة كولينغرج. «إنهم يعارضون بشكل خاص ما ينعتونه بترنّم التشدّق عند الممثلين الأمريكيين. «تشدّق!»، هتفتْ مارينا. «منذ متى وأنا أتشدّق في كلامي؟». لم يكنْ بمستطاع مارينا أن تعترفَ لنفسها أنها وجدت الإنكليز مُخيفين. كانت قد تعوّدتْ على الهجومِ التحادثي الأمريكي بالفم المرتخي ـــــ ثرثرتُه، إصرارُه على عدم الكلفة. في أمريكا، لا يوجد شخصٌ مهتم بالمصير التراجيدي لبلدها الأم، إلّا أنّها على الرغم من ذلك كانت تشعر بأنها مُرحّب بها. هنا، الصحافيون ذوو الياقات الوسخة وشركاء غدائها المنحازون كانوا سويةً يعتقدون أنها تريد أن تُضجرهم بخصوص بولندا، وفيما هي تأمل أن تُجري حواراً بالإنكليزية. وفيما يتصلُ بالموسم المسرحيّ في لندن. وفيما يتعلّق بالسيد دزرائيلي[1] والسيد غلادستون[2]. وفيما يتعلّق بالمناخ.

كانت مارينا قد توقعتْ أن الإنكليز من المفترض ألّا يُقهروا بسرعةٍ حالهم

1- دزرائيلي (بنجامين) Benjamin Diseraeli (1804 – 1881): رئيس مجلس العموم البريطاني الأسبق. سياسي بريطاني. تولّى رئاسة الوزارة في بريطانيا مرتين: (27 فبراير – 1 ديسمبر 1868)، و(20 فبراير 1874 – 21 أبريل 1880) – م.

2- غلادستون (وليم إيوارت) William Ewart Gladstone (1809 – 1898): وزير مالية إنكلترا الأسبق. سياسي بريطاني. تولى رئاسة الوزراء في بريطانيا أربع مرات – م.

حال الأمريكيين. لم تكنْ تحسب أنهم لا يُمكن أن يُقهروا على الإطلاق، إلّا بطريقة مشروطة. كان رهانها على نفسها هو أنه إذا لم تذكرْ أكثر من نصف المراجعات في الصحف اللندنية لكنتَها «الساحرة» أو «الفاتنة»، فإنها سوف تنجحُ في نقلِ مسيرتها الفنية، النصر وكلّ شيء، إلى إنكلترا. كانت جميعُ المراجعات زاخرة بالإطراء. كلُّ النقاد المسرحيين ذكروا لكنتَها.

حَظِيتْ بالمديح، إنما لم يُعانقها أحد. على خلافِ الأمريكيين، الإنكليز لا يعرفون ماذا يفعلون مع الأجانبِ الباحثين عنهم. (أن يسمحوا لهم بأن يصبحوا إنكليزاً ليس خياراً.) وهي، مارينا زالينسكا، كانت أجنبيةً بشكل مضاعَف: بولندية من أمريكا.

في نهاية شهر أيار / مايو، حين انتهى عملها لدى الـ «كورت ثيتر» و«*زهرة الثالوث البرية*»، و«*روميو وجولييت*»، و«*كما تهواه*)، ذهبتْ مع بوغدان والآنسة كولينغرج كي ترى، ربما كي تُبدي إعجابها، بالثنائي الرومانسيّ الشهير، إيلين تيري[1] وهنري إيرڤنغ[2]، في مسرح إيرڤنغ، الـ «ليسيوم». كانت مستعدةً لأن تحني رأسها لهذين المعبودين الجديدين للمسرح الإنكليزي، كادت مارينا أن تشعر بخيبة الأمل، لذا أخبرتْ بوغدان، أن يكتشف أنها تمتلك براعة تيري نفسها التي درستها عن كثب في ذلك المساء في دور العنوان لمسرحية بولوير- لايتون المحافظة، الأكثر شعبية

1- إلين تيري Ellen Terry (1847 – 1928): الحاصلة على لقب سيدة الصليب الأكبر، ممثلة مسرح إنكليزية حققت مكانة رائدة من خلال تمثيلها لأعمال شكسبير في بريطانيا. وُلِدت تيري في عائلة تتكون من عدة ممثلين، فبدأت وهي طفلة بالتمثيل في مسرحيات شكسبير؛ وفي مرحلة المراهقة، استمرت في التمثيل في لندن وأمكنة أخرى – م.

2- السير هنري إيرفنغ Henry Irving (1838 – 1905): وُلد باسم جون هنري برودريب، ممثل مسرحي إنكليزي في العصر الفيكتوري، ويُعرف باسم المدير الممثل؛ لأنه حمل على عاتقه المسؤولية كاملة لموسم عقب موسم في «مسرح ليسيوم»، مُعتبراً نفسه وفرقته بمثابة ممثلين للمسرح الكلاسيكي الإنكليزي. وكان الممثل الأول الذي حصل على لقب الفروسية – م.

«*سيدة ليونس*»[1]، وفيما يتعلّق بالعظيم هنري إيرڤنغ، بدور البطل المتحدر من أسرةٍ وضيعة، بدا لها، بمشيته الثقيلة الخطى وصوته الحنجري الضعيف، بكل معنى الكلمة متدنياً في تناسقِه وتفوّقِ الكلام مقارنةً بإدوين بوث.

في الأقل مارينا كان لديها رضا معرفة أنها، لو لم تُوضعْ أمامَها حواجز فيما يتعلّق بمسيرتِها الفنية في إنكلترا لأنها كانت قد أسلمتْ نفسَها جسداً وروحاً للتمثيل بالإنكليزية، لكان بوسعها أن تقف بمفردها قبالة تيري. إلّا أنّها لم تكنْ قادرةً على التباري مع سارة برنار، التي كانت على وشك أن تصل وأن تمثّل في الـ «غييتي»[2] بالفرنسية.

في اليوم الذي استعدَّ فيه الاثنان، برنار والـ «كوميدي فرانسيز»، لاستقبال الهتاف المُبجل في دورها «*فيدر*»، كانت مارينا قد خَرجتْ في جولةٍ صيفيّة في الأقاليم الإنكليزية. هناك قدّمتْ دوريها، روزاليند وجولييت، وكذلك دوريها، أوفيليا وڤيولا، اللذين كان براونلو متلهفاً لتقديمِهما في موسمٍ لندني آخر في الخريف؛ إلّا أنّ مارينا لم تكنْ لديها رغبةٌ في البقاء، وكانت تدير حملةً من أجل الحصولِ على استحسانٍ متماسك. أغلب الظن، تساءلتْ مارينا بكآبة، كانت قد استنفدت العددَ المُحدَّد للأعمالِ المستحيلة التي كان بمستطاع عزيمتها أن تجعلها ممكنةً. العددُ الحصري شيءٌ صعب جدّاً.

كانت قد تعوّدتْ هذه الإقامةَ المؤقتةَ في إنكلترا كي تفهم كم هو أسهل بكثير (*ألم تكنْ سهلةً؟*) أن تنتصر في أمريكا: بلدٌ كاملٌ من البشر ممَّن يؤمنون بالعزيمة.

في حفلة الغداء التي أقامتها الليدي وولسينغتون على شرفِها، كانت مارينا قد أُجلستْ بجانب الروائي والناقد المسرحي الأمريكي المُرعب

1- سيدة ليونس The Lady of Lyons: تُسمى أيضاً حب وكبرياء. ميلودراما رومانسية كتبها إدوارد بولوير - لايتون العام 1838، وعُرضتْ في العام نفسه، على مسرح كوفيت غاردن ثيتر. كما تمّ تحويلها إلى أوبرات عديدة – م.

2- الـ غييتي The Gaiety Theatre: مسرح فنون استعراضية في شارع ساوث كنغ، دبلن، جمهورية أيرلندا، افتتح في 27 تشرين الثاني / نوفمبر 1871 – م.

هنري جيمس، الذي كان قد استقرَّ مؤخراً في لندن، والسيد جيمس تساءلَ ما إذا كان يُحتمل أن تهتمَّ بالانضمام إليه في الثلاثاء القادم كي تشرب الشاي في الـ «كافيه رويال»، حيث أخبرها بفظاظةٍ غير مباشرة أنه كان يتمنّى ألّا تجده جارحاً البتة لو... تلعثمَ، وهو يربّتُ على لحيتِه الحريرية المُشذّبة بنحوٍ جميل؛ كان قد تلعثمَ أصلاً مرات عدّة منذ أن جلسا إلى المائدة ذات السطح الرخام. «لو ماذا، سيد جيمس العزيز؟». لو أعترف بأني ما يمكنني أن أنعته فقط بأني مهتم جدّاً، إن لم أكنْ مفتوناً فعلاً، معاً كروائي ويمكنني أن آخذ الحرية في أن أأتمن لديكِ إحدى أمنياتي الأعز، أن أُصبحَ كاتباً مسرحيّاً مستقبليّاً، مفتوناً، أقول، الممثلةُ المسرحيّة بوصفها *نوعاً* معاصراً. أنا أتكلّم ليس عن الممثلةِ المسرحية باعتبارها فرداً قادراً على التعبيرية غير العادية، تلك التعبيرية التي تكون إلى حدٍّ ما متحدةً بميلٍ نحو خوضٍ مجازفات، ضرورية من مثل مصادرة القوة هذه، تعبيرية، وجرأة، مصاحبتان لفنِّها، بل أتكلّمُ عن الممثلة المسرحية، الممثلة المسرحية المعاصرة، بوصفها التجسيد اللامع جدّاً لـ[*النجاح*] الأنثوي. تحدّث السيد جيمس بتوكيدٍ واضح، غالباً في البداية، عادةً في نهاية جمله المتلوية في كثيرٍ من الأحيان.

«أنا لا أشعر كما لو أنّي ناجحةٌ بكلّ معنى الكلمة في لندن»، قالت مارينا. «في الأقل ليس بقدر ما كنتُ أتمناه، مع أنّي ممتنةٌ كثيراً جدّاً لمقالتكَ الودّية».

«آه، يلزمكِ أن تعطي للإنكليزية فرصةً، مدام زالينسكا العزيزة. أخشى أن تكون الصراحة الأمريكية قد أفسدتكِ. ذلك أن كلَّ موطن ضعف *الانتشار* في هذه الجزر المتراصة هي أنه يوجد سطح أكثر بكثير هنا، يُقال شيءٌ ما في حين إنَّ المعنى شيءٌ آخر، إنهم حذرون، بوسعهم أن يكونوا مرتابين، هم لا يواصلون القيام بمجهودٍ عظيم، بالأحرى يُعتقد بأنهم بطيئون قليلاً أكثر من كونهم أذكياءً جدّاً، هم، كيف يمكنني أن أصوغها، يكبحون ذلك. إلّا أنّي أتوقّع أنهم سوف يغيّرون آراءهم.

كان يعني أن يكون عطوفاً، لا ريب. «إنكلترا ليستْ غامضةً ولينةً ومريحةً شأنُها شأنَ أمريكا»، أعلن قائلاً. كان غامضاً قليلاً وليناً ومريحاً،

بأجمل صورة ـــ هذا الرجل اللامع، والبدين قليلاً، والكثير الكلام، واضح جدّاً. كان شيئاً عقيماً، أعلن بنحوٍ مُشجّع، أن يمعن المرء النظر في مسألة الاختلافات بين إنكلترا وأمريكا، التي دعا مارينا إلى أن تنظرَ إليها بوصفها «وحدةً كليةً كبرى أنغلو - سكسونية ـــ» هل زار السيد جيمس من جديد مسقطَ رأسه، نيويورك سيتي؟ هل وطأتْ قدماه أرضَ كاليفورنيا في أيّ وقتٍ مضى؟ بالتأكيد لا. «وحدة كلية كبرى أنغلو ـــ سكسونية، قُدّر لها أن تنصهر معاً إلى درجةَ ما بحيث إنّ الإصرار على اختلافهما شيءٌ عقيم يفتقرُ إلى الحكمة العملية»، كان جيمس يقول هذا، «وإن الانصهار معاً سيأتي أسرع»، واستطرد قائلاً: «كلّما يسلّم المرء أكثر بأن هذا شيءٌ مؤكد ويعامل حياة البلدين بوصفها مستمرةً أو *قابلةً للتحويل* تقريباً».

«قابلةً للتحويل بالنسبة للشخص الأمريكي»، فكرتْ مارينا. أو بالنسبة لهذا هذا النوع من الأمريكيين. ذلك أن السيد جيمس ـــ بلكنتِه، وبتلعثماتِه، وبتصلّبِه، وبكياستِه غير الشفافة المشؤومة ـــ بدا لها إنكليزيّاً بكلّ معنى الكلمة. ربما بالنسبة للكاتب...

«فصلان من الكتاب نفسه»، ترنّم جيمس، كما لو أنّه قرأ أفكارها.

«أو فصلان من المسرحية عينها».

«هكذا على وجه الدقة»، قال جيمس.

لكن لا، ليس بالنسبة للممثلين. كان بمستطاعِها أن تكون ممثلةً أمريكيةً، إنما ليس إنكليزيةً.

كانت قد تعرّفتْ على الموقفِ الأمريكي القديم، الذي يدمجُ الاستعداد بنحوٍ نشيط ويأخذه بوصفه شيئاً مؤكداً. كان هنري جيمس أمريكيّاً بامتياز على أية حال. وكان قد اخترع وسيلةً كي تكون تحت تصرّفه حصةٌ كبيرةٌ من الاستعداد.

الممثل الإنكليزي يستطيعُ دوماً أن يأتي إلى أمريكا: كثيرون فعلوا ذلك. والد إدوين بوث، جونيوس بروتوس بوث، الذي مثّل وتنافس، لمّا كان ممثلاً

شابّاً، مع إدموند كين[1] على المسرح اللندني، هجرَ زوجتَه وطفلَه من أجل بائعة أزهار في «شارع بو» وفرَّ معها إلى أمريكا، وهناك كوَّنَ أسرةً جديدةً من عشرةِ أولاد وأنجزَ إحدى المسيرات الأمريكية الكبرى في مجالِ التمثيل. لا يفكّر الممثل الأمريكيّ في أن يهربَ إلى إنكلترا وتكونُ له مسيرةٌ لامعةٌ بالقدر نفسِه. الأمريكيون يمدحُهم النقاد اللندنيون، مثلما كانت شارلوت كوشمان[2] قبل جيلٍ بأدوارها، أدوار بورشيا، وبياتريس، وليدي مكبث، مع دورِها بوصفها روميو (الذي مثّلته مع شقيقتها التي لعبتْ دور جولييت)، هذه الظاهرةُ ليس من المفترض أن تبقى.

مارينا وبوغدان عادا إلى أمريكا بعد رحلةٍ سريعةٍ إلى كراكوف في أواخر شهر آب / أغسطس. يكون الفشلُ فشلاً فقط حين يتمّ الاعتراف به. كان الجمهور الإنكليزي مُرحّباً جدّاً، التدافعُ بالمناكب، والتعرّق، وحشدُ الصحافيين الذين ينتظرونها عند رصيف الـ «وايت ستار» الممتد في البحر، كما قيل لها. نعم، أومأتْ برأسِها، كانت قد أُغريتْ بالبقاء في لندن. («لا، لا! أرجوكم، أيها النبلاء! أنا لم أقلْ، أكررُ، إني أتخلّى عن المسرح الأمريكي.) إلّا أنّها كانت مسرورةً تماماً ـــ هذا الجزء حقيقيّ ـــ أن تكون ثانيةً في أمريكا.

أمريكا: ليستْ بلداً آخر. فيما كان السلوك غير العادل للتاريخ الأوروبي

1- إدموند كين Edmund Kean (1787 - 1833): ممثل إنكليزي، وهو أول الممثلين الرومانسيين العظماء على المسرح البريطاني. كانت خلفيته العائلية وحياته المبكرة متسمتين بالرومانسية الشديدة. حقق نجاحه الكبير الأول ممثلاً في لندن العام 1814، عندما مثّل دور «شايلوك» على مسرح دروري لين. كان يعتمد في تمثيله بشكلٍ تام على النشاط والجاذبية الشخصية. ويبدو أن صوته كان أجش ولم يكنْ مظهره يثير الإعجاب. من أفضل أدواره: «ريتشارد الثالث»، و«إياجو»، و«عُطيل»، و«مكبث»، و«باربارس» في مسرحية «يهود مالطا» -الموسوعة المسرحية، جون رسل تيلر، ج 1، ترجمة سمير عبد الرحيم الچلبي، دار المأمون، بغداد، 1990: 296 - 297 - م.

2- شارلوت كوشمان Charlottee Cushman (1816 - 1876): ممثلة مسرحية أمريكية. كان بمستطاعها أن تؤدي أدواراً مسرحية ذكورية وأنثوية. عاشتْ بشكل متقطع في روما، مع مجموعةٍ من الفنانين والنحاتين البارزين المغتربين، بعضهم أصبح جزءاً من حياتها العاصفة - م.

قد قضى بأن الشخص البولندي لا يمكن أن يكونَ مواطناً من بولندا (إنما فقط مواطناً من روسيا أو النمسا أو بروسيا)، في حين إن السلوكَ العادلَ للتاريخ العالميّ خلقَ أمريكا. مارينا ستكون دوماً بولنديةً ـــ ما من سبيلٍ لتغيير هذا الأمر، ولا هي ترغبُ بذلك. غير أنها قادرةٌ على أن تفعل ذلك - إذا شاءتْ، أن تكون أمريكيةً أيضاً.

شرعتْ فوراً ترسمُ خطةً للموسمِ التالي في نيويورك ولجولةٍ قوميةٍ أخرى. غير قادرةٍ على أن تصفحَ عن وارنوك على كونِه، مرةً أخرى، محقّاً، مارينا في تشاورٍ مع بوغدان، كانت قد أشركتْ مديراً شخصيّاً جديداً متحمساً آخر ذا اسم «لذيذ»، وهو أرييل أن. پيبودي.

«حتى إنه لذيذٌ أكثر مما اعتقدنا»، أخبرتْ مارينا بوغدان. «وأنا أستذكرُ كم كان السيد وارنوك مسروراً باسمِه الأوسط، فكرتُ أن السيد پيبودي ربما يرغبُ بأن يُسأل عن اسمِه الأوسط. [الـ أن.، تقصدين؟] صاح. أمالتْ مارينا رأسَها كما كان يفعلُ پيبودي؛ كان تقليدها لصوتِه ممتازاً. «آه، هذا الشيءُ قد يسلّيكِ، مدام مارينا. إنه يرمز لـ ـــ توقف قصير ـــ [الاسم هو] تأنق بلاغي، قوس ـــ [نشنغ].

«أمريكا لا تخيّب الأمل»، أشار بوغدان.

«*الاسم، فأل*[1]. ربما سيبرهن على أنه لا يشبه السيد وارنوك في شيء. يكفي هراءً، أنا أحبُّ هذه الكلمة، ماسات ضائعة، كلب الحضن، تمساحان، قصصٌ غير قابلة للتصديق ـــ لا شيءَ من ذلك».

«ما كان ينبغي لي أن أعوّلَ عليه»، قال بوغدان. «إلّا أنّ مارينا زالينسكا لا تحتاج أي. نشنغ پيبودي كي يقول لها ماذا يجب أن تفعل».

«كان نجاحها قد تنامى كالتيهور»، أعلنتْ جريدة «نورفولك پبليك ليدجر»[2]. استمرتْ في إضافة شكسبير: بدءاً من العام 1880، «*صاعاً*

1- الاسم، فأل: في النص الإنكليزي الأصل Nomen, omen – م.

2- نورفولك پبليك ليدجر Norfolk Public Ledger: جريدة يومية أمريكية، صدرتْ في فيرجينيا بين 1876 و1906 – م.

بصاع»، والعام التالي «*تاجر البندقية*» وأخيراً، «المسرحية الاسكتلندية». بسببِ كونها نجمةً، طراز أمريكي: عند نهاية الجولة القومية الثالثة فكرتْ مارينا أنها فهمتْ ذلك الدور بشكلٍ تام.

إنه الذهاب والمجيء هنا وهناك في شقتكِ المجهَّزة بنحوٍ مُترَف والقائمة على عجلات عربة سكة حديدية خاصة ذات نوافذ قوطية بزجاج طُبعتْ عليه خطوط، وذات أقمشة مخملية ونخلاتٍ موضوعةٍ في قدورِ فخار ومكتبةٍ صغيرةٍ وبيانو ومَخدعٍ كبير يكفي لمرآةٍ زينةٍ من خشب الماهوغاني وسريرٍ بأربعةِ أعمدة، الممثلون الآخرون وطاقُمكِ يتبعونها في عربةٍ پولمان خاصة، ثانية؛ أن يكونَ لديكِ كلبة بغ تُدعى أنديانا؛ أن يكون لديكِ رسمٌ كبير بالألوان المائية لكلبك البغ المدلّل يزيّن جزءاً من سطح جدار قاعة الاستقبال في عربتك الخاصة؛ أن تحتاجي إلى أكبر الشقق وأكثرها ترفاً كلّما تنزلين في الفنادق، أفضل الفنادق، وإلى أشهى الأطعمة؛ أن تخربشي ملاحظاتٍ في أجملِ ورقِ كتان ذي صورةٍ زخرفية بارزة، الكلمات المألوفة للتشكرات الموجهَة إلى الذين سعوا إلى أن يضيّفوكَ أو بخلافِ ذلك أن يدخلوا البهجةَ إلى قلبكِ، كلماتٌ رقيقةٌ للشابات المُبهِرات الجريئات بما يكفي كي يطلبنَ إجراء حوار «لا يمكنكِ أن تتصوّري كم عددُ الفتيات اللواتي يكتبن إليَّ يوميّاً يطلبنَ مني نصيحةً في كيفية الشروع في هذه المهنة، إنما كيف يتسنى لي أن أشجعهنَّ، طالما أنّه في أمريكا قلّما توجد أيّ مسارح دائمة؟» إنه التحدّث دون كلفةٍ مع الأساطير الحيّة الأخرى: لونغفيلو[1] هو اسم صديقكِ الخاص وتنيسون[2] استقبلكِ في لندن وأوسكار وايلد رحّبَ بكِ بملء الذراع من الزنابق البيض وأعلنَ أنه سيكتبُ مسرحية لكِ. أن تكوني غير تقليدية، مع أنّه من الصعب

1- لونغفيلو (هنري ودزورث) Henry Woodsworth Longfellow (1807 - 1882): شاعر وتربوي أمريكي؛ من أهم أعماله «رحلة بول ريفير»، و«أغنية هاياوثا»، وهو أول أمريكي يترجم «الكوميديا الإلهية» لدانتي - م.

2- ألفريد تنيسون Alfred Tennyson (1809 - 1892): شاعر إنكليزي من أبرز شعراء القرن التاسع عشر. عُيّنَ شاعراً للبلاط في العام 1850. يُعدُّ أستاذاً للشعر الغنائي، كما يُعدُّ الشاعر الذي يمثّل عصره - م.

أن تكوني غير تقليدية على غرار أوسكار وايلد: تحدّيكِ الخاص للتقليد ــــ أنتِ سيدة وأنتِ تدخنين السجائر ــــ إنه نوعٌ من الأشياء التي يتوقعُ الناس أن يعرفوه عنكِ. وأن تكوني غير مبالية بالممتلكات، وأن تكوني عاجزةً عن رمي أيّ شيءٍ بعيداً، وأن تكوني مولعةً باستمرار بالحصولِ على الأشياء: لقد نزلتِ من السفينة بخمسٍ وستين قطعة من الأمتعة، حين أقبلتِ من رحلتكِ الصيفية التالية إلى باريس «وزيارة موجزة إلى بلدها الأصلي بولندا»، هذا ما أوردتهُ الصحفُ النيويوركية. أن يكون لديكِ إقامات كثيرة: «في القريبِ العاجل هي وزوجها، الكونت ديمبوفيسكي، سيذهبان مدة شهر إلى مربى الماشية العائد لهما في كاليفورنيا الجنوبية. المنزلُ الرئيس، الذي اكتملَ بناؤه مؤخراً، كان قد صمّمه صديقٌ للمدام زالينسكا، وهو مهندسٌ معماريّ بارز ومُحِب للمسرح، يُدعى ستانفورد وايت».

في بولندا، يُسمح لكَ بشيءٍ من ممارسة فنون الانغماس الذاتي[1]، إنما يُتوقع منك أن تكون مخلصاً وكذلك أن تكون لديك مُثُل عليا ــــ الناس يكنّون لكَ الاحترام على ذلك. في أمريكا، يُتوقع منكَ أن تعرضَ تشوشاتِ العنف الداخلي، وأن تعبّر عن آراءٍ لا يحتاج أحدٌ لأن يأخذها على مَحمل الجَدّ، وأن يكون لديكَ نقاط ضعفٍ غريبةٌ وحاجاتٌ متهوّرة، وقوة إرادتكَ، وميولكَ الفطرية، وانتشار احترام - الذات خاصتكَ ــــ كلّها أشياءٌ ممتازة.

تذهبين في نزهة (بوسطن، فيلادلفيا، شيكاغو) في سيارتكِ الخاصة نوع «بَرْهام»، تتوقفين أمام مخزن كُتب وتخرجين منه بدزينةٍ من الشعراء مجلّدين بالرَّق، بالمراكشي[2]، بجلدِ العِجل المُعامَل كيمياويّاً كي يُغيّرَ لونُه ويغدو شبيهاً بلونِ الشجرة. كانت أذواقُها كلُّها من النوع الأنيق، أشارَ الصحافيون. تنفقُ أموالاً طائلةً، تبددها يمنةً ويسرةً، قالوا، بحريةٍ شبيهة بحرية أميرة. في الوقت نفسه، يُتوقع منكِ أن تكوني عنيفةً في ما يخص النقود ومفاوضةً دون رحمة، إنما مُحسِنةً أيضاً (تلاحقك خطاباتٌ مُمزقة للفؤاد من مهاجرين

1- الانغماس الذاتي self – indulgence: إطلاق المرء العنانَ لأهوائه ورغباته وشهواته – م.
2- المراكشي morocco: جلد فاخر منسوب إلى مراكش يُتخذ من جلد الماعز – م.

بولنديين ناقمين)، ووراء التوبيخ، أي، بطريقة محترمَة، وتتمنين أن تكوني فرداً يحبُّ المسراتِ الدافئةَ والبسيطةَ للبقاء في المنزل، وأمّاً مُخلصةً. المرأةُ ينبغي لها دوماً أن تُعلنَ أن أُسرتَها تهمُّها أكثر من مسيرتِها أو وظيفتِها.

بالطبع أسرتها الحقيقية هي فُرقتُها المسرحية، كان برنامجُها المتبدل دوماً يستمرُّ في التقدّم في ما يتعلّق بالبراعة، بفضلِ نصائحِ مارينا المخلصة، الضارية، الليّنة للممثلين الناشئين والأقل خبرةً.

ترتفع الستارة، عليكَ أن تُمسِكَ بالجمهور. هنا ربما تُمسِكُ هي برسغِ الممثل. «ثبّت الجمهور بنظرة، وبعدها افتنْ روحَه بصوتكِ. استخدمْ حجابكَ الحاجز استخداماً كاملاً، نعم؟». تهدر هنا. «لا تطلق صوتاً قصيراً حادّاً أو تتحدّث بصخب!».

وعرّجتْ على حيل وهفواتِ اعتناق المسرح. الاحتضار، شرحتْ، ينبغي ألّا يكون سريعاً ولا بطيئاً. أعطتْ تعليماتِها في ما يتصلُ بطرائقِ السعال، والإغماء، وأداء الصلاة. فيما يتعلّقُ بالممثل الذي لديه عادة أن يتعذّبَ في الأجنحة وهو مصابٌ برهاب خشبة المسرح قبل دخوله بزمنٍ طويل، نصحتْ، «يلزمه أن يغادرَ في الدقيقةِ الأخيرة من حجرةِ تبديل الملابس».

«لا تخفْ من أن تعتلي خشبة المسرح»، حذّرته. «الوجهُ قد يقولُ أشياءً كثيرةً، إلّا أنّ الجمهورَ بوسعه أن يقرأَ فقط ما يحتاجُه، لا أكثر، من ظهرِكَ».

و: «لا تحرّكْ رأسكَ حين تتكلّم. هذه الحركة تجعلُ عنقكَ أقلَّ نشاطاً بكثير».

و: «لا تدع الصوتَ ينزل. الصوتُ يجب أن يخرجَ، إنما إلى ممثلٍ آخر. صوتُكَ يجب أن يكون بقدرٍ كبير نحو الجمهور».

في فواصل زمنيةٍ منتظمةٍ وصلتْ علبُ زنجبيل نيئة من «الحي الصيني» في سان فرانسيسكو، لذا كان بمستطاع مارينا أن تحثَّ جميع أعضاءِ فرقتِها المسرحيّة على أخذ استحقاقاتهم من الجرع المتكررة من شاي الزنجبيل: أن يشربوه ساخناً إلى درجة الغليان، وبعدها تناول شرائح الزنجبيل النيئ

المقطعة بشكل ممتاز في قعر الكوب، سوف يحلُّ تقريباً جميعَ مشاكل الصوت في اللحظة الأخيرة، قالت. أشارتْ إلى أنه فيما يجعل الخوفُ والقلقُ الرجال حراريين أكثر ـــ «حراريين!». هتفت الآنسة كولينغرج بتقدير ـــ لذلك هم يحتاجون إلى أن يكونوا يقظين في ما يتصل ببقع التعرّق التي تزهر في الجزء العلوي من ثيابهم، العواطف نفسها تجعل النساء يشعرن بالبرد، لذا النسوة يجب أن يحرصن على ارتداء ملابس مُدفِّئة قبل الأداء وخلال فترات الاستراحة.

«لكن، مدام»، قال وارين بانكروفت الذي أدّى معها الأدوار (روميو خاصتها وبينيديك وأورلاندو وأرماند دوڤال وموريس خاصتها أثناء موسم الفرقة الثاني)، «أنا على الدوام أغدو بارداً كالثلج حين يكونُ لديَّ رهابُ خشبة المسرح.

«كلام فارغ»، قالت.

«التمثيلُ يجب ألّا يكون سهلاً»، قالت، وهي تبصق كلمة «سهلا ً». «هذا يعني أن عليكَ أن تنسى نفسكَ. عليك أن تنسى أين أنتَ. يتعيّن عليكَ ألّا تنسى أبداً، أبداً، أبداً، أنكَ على خشبة المسرح. وهكذا ستكون خائفاً على الدوام. أنتَ خائفٌ، إلّا أنّكَ مُنتصِر. حين تكونَ على الخشبة، مهما كان دورُك المسرحيّ، أنتَ مُنتصِر. يلزمكَ أن تحسّ دوماً أنّكَ طويلٌ جدّاً لمّا تقف على خشبة المسرح. كلُّ شيء في داخلكَ يجب أن يستقيم ويتقلّص حول الخوف. حتى في حالة الحزن، وهو مقعّر، تبقى أنتَ خيطاً. وذلك الخيطُ يذهبُ مباشرةً إلى الخارج إلى الصف الأخير من أعلى الشرفات. أمسكْ بالخيط! كنْ مصدرَ نور. أنتَ شمعة. أبقِ ظهركَ مستقيماً، لا تدعْ عنقكَ يستقرّ في داخل كتفيكَ. تحسس الشعلةَ وهي ترتفعُ من قمةِ رأسكَ.

فيما يتصل بـ «أبنر ديكسي»، الذي صرفته بعد الموسم الأول (كان قد لعب دور جاك في «*كما تهواه*» ودور مالڤوليو في «*الليلة الثانية عشرة*» وحتى بطريقةٍ مُتخشّبةٍ أكثر، دور الكابتن ليڤينسون، الفاسق الماكر في «*إيست لين*»)، قالت بإيجاز بارع. «هو لم يحوّلْ أيَّ شيء. الممثل يحوّل».

«أغلب القواعد المتعلّقة بالتصرّف بنحو لائق على الخشبة»، قالت لهم، «تنطبق أيضاً على الحياة الواقعية». «باستثناء»، قالت، باسمةً بمرح، بنحوٍ موجز، «عندما لا تنطبق». ثمة قاعدة تقول: لا تعترف بحادث مؤسف. ذات مرة في «*صاعاً بصاع*» في دار أوبرا تيلور «في ترينتون، الممثل الذي يؤدي دور كلاوديو، الشقيق، الذي كان قد أُدين وحُكم عليه بالموت، فيما هو يرمي نفسه عند قدمَيْ إيزابيللا متوسّلاً إليها أن تُلبّي الطلبَ الحقير لأنجيلو (ثمن المحافظة على حياتِه) ضربَ بقوةٍ مصطبةَ السجن؛ مُبقياً على نوبة طريقةِ الكلام نفسها التي تتطلّبها حقارة كلاوديو، برشاقةٍ أعاد المصطبة إلى وضعها الصحيح. حين أُسدلت الستارة على آخر الاستدعاءات العديدة التي تقاسمتها مارينا بشهامة مع الممثل الشاب، وهو مجنّد جديد انضم إلى الفرقة، قالت له برقةٍ شديدة: «لا تحاولْ أن تصحح حادثةً حصلتْ أثناء التمثيل. ذلك من شأنه أن يحفزَ الجمهور على الانتباه إليها».

للعلم، بعض الحوادث أصعبُ من أن يتجاهلَها المرءُ، كما حصلَ، في مكبث «في مسرح ميكڤيكر» في شيكاغو (بالطبع، كانت تلك المسرحية الاسكتلندية!)، وكانت قد اختبرتْ بغباء دخولها وهي تسير في نومها وهي مغمضة العينين، مارينا تعثرتْ وتمزقَ وترٌ في كاحلها. استمرتْ بالمشهَد حتى النهاية دون تمتمة، أو تكشيرة ألم، أو تغيير في مشيتها.

تصحيحاتكِ ساخرةٌ، أموميّةٌ، عادلةٌ. نموذجكُ ذكي.

أعضاء فرقتك يكافئونكِ بالتملّق والخوف والإخلاص التام، القلِق.

أنتِ تتباهين، أنتِ تُدهشينني. أنتِ عند الذروة. طاقاتك، هكذا تشعرين الآن، غير محدودة.

اجتذبوا مسارحَ كاملةً امتلأتْ بالمتفرجين وسَحَروا الجمهور في كولرادو. وبعد الأداء الختامي لأسبوع «تابور غراند أوبرا هاوس» في دنيڤر ـــ «*جولييت*» (كما كانت تُسمى في «*روميو وجولييت*» في برنامج الفرقة)، و«*أدريانا*»، و«*كاميليا*»، وفي «*حكاية الشتاء*» ـــ پيبودي نظّم عشاءً متأخراً مع شرابٍ مجانيّ للفرقة في الحانة الفارغة لفندقهم. في الوقت الذي

انضمتْ فيه مارينا إليهم، معظم الرجال، وليس الرجال وحدَهم، كانوا ثملين بابتهاج، ولورا فليتش العابثة، التي لعبتْ دور «ملكة إنكلترا» الشريرة في «*سيمبرلاين*» ودور أودري في «*كما تشاء*» ودور پولينا في «*حكاية الشتاء*»، كانت تُنهي إلقاءها من على سطح المائدة لـ:

حين تكون بالكاد كبيرَ السن كي تعرفَ
معنى حكايةٍ عن محنةٍ ما،
يومذاك قالتْ لنا الأم،
إن الأب في قبرِه يحسُّ بالبرد.
سهرنا طويلاً بجانب سريرها،
بعدها بكينا لمّا رأيناها راقدةً هناكَ ميتةً؛
والآن نحنُ نتجوّل يداً بيد،
فتاتان يتيمتان من سويسرا!

مكتبة
t.me/t_pdf

«أَهِم»، قال جيمس بردجر، الـ ميركيشيو الجديد في «*روميو وجولييت*»، وتوجستون في «*كما تشاء*»، وغاستون المخلص في «*كاميليا*»، الذي كان يحب لورا. «الآن أين هو مسرحي؟». وفيما هو يقفز بخفةٍ شبيهةٍ بخفة ميركيشيو إلى كاونتر البار ويلطمُ صدرَه بيديه، يصيح قائلاً:

دمّرتُ صحتي في الكفاح من أجل الثروة!
قال صاحب البنك بنبراتٍ جديرةٍ بالشفقة ــــ

«أوه!». ووثبَ إلى الأسفل.

لدى رؤية مارينا، كان جميعهم ينكمشون إلى وقار طفولي، آثم.

«أرجوكم! دعوني أستمر دون انقطاع».

«نحن فقط كنا نضحكُ على هذا، مدام، ونُلقي كلامنا بنحوٍ هزليّ»، قالت

كورنيليا سكودر، الممثلة الشابة التي كانت مارينا قد أعطتها أدوار سيليا في «*كما تشاء*»، وبرديتا في «*حكاية الشتاء*»، وهيرو في «*ضجة بلا سبب*»، ولويزا، الشقيقة العفيفة في «*فرو – فرو*».

إذن ـــ أنا أصرُّ ـــ أنتِ سوف تستمرين. كانت مارينا تحب كورنيليا. كانت تنقل نظراتها من وجه إلى وجه. «لا أحدَ يريد أن يمثّل لي؟ لا أحدَ يريدني أن أضحك؟». ابتسمتْ على ارتباكهم. «جيد جدّاً». أومأتْ برأسها بكآبة. «إذن يلزمني أن أمثّل لكِ. شيءٌ ما ستجدينه ذا اهتمام خاص، على ما أعتقد، مع أنّه بالبولندية.

بدأتْ مارينا كلامها هَمساً. كان صوتُها المنقّط قد تحوّلَ إلى صوتٍ أجش، ومن ثم إلى صوتٍ رخيم. كان إلقاؤها مليئاً بالتلعثمات في البداية، كاشفاً عقلاً مُثقلاً بالشعور، شعور غرامي، شعور مرير، غير متيقنة مما تودّ التعبير عنه. بعدها، وهي تكتسب زخماً، مرّتْ إلى نغمةٍ ختامية عالية، ساخرة. عبارات رابسودية، أشبه بخرير جدول كانت تُطلقها، أصواتٌ خشنة، متقطعة، وضحكةٌ خفيفةٌ، مجنونة ومن ثم أصواتُ نحيبٍ وعويل. فيما هي تحدّقُ إلى الخارج دون تعبير، ينخفضُ صوتُها إلى نبرةٍ خشنة، كَسَرها الحزن، وانتهى باندفاعٍ صوتيّ نابض، يحكي عن الأمل المتجدّد والتصميم.

الممثلون، وقد استحوذَ عليهم سحرُ مارينا، تطلّعوا إليها صامتين. الآنسة كولينغرج، وهي جالسة قبالة مارينا، خربشتْ شيئاً ما على قصاصة ورق ومررتها عبر المائدة. عبستْ مارينا. أخيراً، تجرأ شخصٌ ما وتكلّم. «هائل»، نطق لاهثاً هوراس بيتري، پوستثومس الجديد خاصتهم في «سمبرلاين»، أنجيلو في «*صاعاً بصاع*»، وبانكيو في «*مَكبث*».

«ششش»، قالت مابيل هاولي، التي كانت شخصيةً نمطية تؤدي دوماً أدوار الخادمات مربية جولييت ودور نانين في «*كاميليا*» وجويس في «*إيست لين*» لكن، كي تكبحَ استياءَها الذي يكاد يفيض، كوفئتْ كذلك بمنحها دور «*أدريانا*» أميرة دي بولون.

«مهما كان الأمر، مدام، لقد طعنتِني بالحربون[1]»، قال هاري كيلوغ، الذي مثّل في الفرقة دور الأمير بولون الجليل ذو الشعر المجعّد في «*أدريانا*»، ودور هنري دي سارتوريس في «*فرو – فرو*»، ودور ليونتس في «*حكاية الشتاء*»، ودور الدوق المخضرَم في «*كما تهواه*». كان من أسرةٍ تمتهنُ صيدَ الحيتان في نيو بيدفورد، ماساشوسيتس.

«هل كانت تلك قصيدةٌ شعرية، مدام؟». قالت مابيل. «أم مونولوج من تراجيديا بولندية قديمة؟».

ابتسمتْ مارينا، وأشعلتْ سيجارة.

ماذا كانت، مدام؟ ماذا كانت؟ صاح تشارلس ويفين، أياشيمو خاصتها في «سمبرلاين» وكلاوديو في «*صاعاً بصاع*» وأورسينو في «*الليلة الثانية عشرة*» وأرشيبالد كارليل، الزوج المظلوم في «*إيست لين*».

«أنا فحسب ـــــ» بدأت حديثها، فيما كانت تفتحُ عبثاً مذكّرة الآنسة كولينغرج. كانت المذكرة تقول: «ألقيتِ الأبجدية البولندية. مرتين». انفجرتْ مارينا بالضحك.

«أخبرينا! ماذا كانت، مدام؟».

«أخبريهم، ميلدريد، ماذا كنتُ أُلقي».

«صلاة»، أعلنت الشابة بتحدٍّ. وهي تحْمرّ.

«بالضبط»، قالت مارينا. «صلاة الممثل. في بلدي الحزين الوَرِع، توجد صلاة لكل شيء».

تبسّمت الآنسة كولينغرج.

«ميلدريد، أنتِ لم تدرسي البولندية من وراء ظهري، صحيح؟». قالت مارينا في صباح اليوم التالي في القطار المنطلق نحو العرض الليلي لـ «*فرو ـــــ فرو*» في ليدفيل. وفيما كانت ترتدي وزرةَ الشاي المصنوعة من الدانتيللا، كانت تستندُ على كرسيٍّ مائل، ملوّحةً بسيجارتِها بحركةٍ كسولة؛

1- الحربون harpoon: رمح لصيد الحيتان – م.

الآنسة كولينغرج هزّتْ رأسها. «إذن، إن لم أكنْ أعرفكِ جيداً جدّاً، كنتُ سأقول إنكِ وحشيةٌ بكل معنى الكلمة».

«مدام مارينا، هذا أجمل الأشياء طرّاً التي قلتِها لي حتى الآن».

«وكيف كانت هي، أبجديتي؟».

«بالإنكليزية، نحن نقول [كيف كانت أبجديتي؟]»

«لوحظ»، قالت مارينا. «والأبجدية؟».

«متكلّفة العَظَمة»، تنهدت الآنسة كولينغرج.

لم يكنْ بمستطاع مارينا أن تفهم لماذا يوجد في أمريكا كمٌّ كبيرٌ من الشك في ما يتعلّقُ بالفنون، حتى بين الناس المثقفين، كمٌّ كبير من الكراهية الفطرية نحو المسرح. ثمة امرأة تعرّفتْ إليها مارينا في قاعة استقبال «پلانكتون هوتيل» في ميلووكي تباهتْ بأنها لم تضعْ قدماً في داخل مسرح. «حين أرى مدخل مسرح، أعبر إلى الجانب الآخر من الشارع». مع ذلك لا حصرَ للشابات في أيّ مدينة أمريكية ممَّن يعتقدن (أو أمهاتهنَّ يعتقدن) أنهن وُلدن من أجل المسرح.

واحدةٌ منهنَّ أو اثنتان قد تُصبحان ممثلتين مسرحيتين. لا واحدةَ منهن ممَّن رأتهن ـــ ومارينا تُريد أن تبدو رَحبة الصدر ـــ ستكون نجمةً في أيّ وقتٍ من الأوقات.

السلطة، الخاصية، المخملية ـــ هذه الأشياء هي التي تصنعُ النجمة، أيّ نجمة. والصوت الذي لا يُنسى. يمكنكِ أن تفعلي *كلّ* شيء مع الصوت، ما إن تعرفي أيَّ الأصوات التي يجبُ أن تسجلي موعدَ انتهاءِ عملِها، وتلك التي تُركتْ في الظلّ. إن تحكمّكِ بنفَسكِ الآن يمنحكِ كلَّ ما تُريدينه: التعبير العديم الندوب بالكلمات، ومدى مُشرق من الألوان، وتغييرات نقّارية حاذقة، ورجّة صرخة أو همسة صافية أو توقف قصير غير متوقّع. صوتكِ يرتفع، عفويّاً، دون عجلة، ونقيّاً ـــ ساحراً المسرح كلّه ومُجبراً الجمهور على التزام الصمت المبجل. مَن ذا الذي لم يشعرْ بأنه قد تحسّنَ، في ذلك الزمان وذلك المكان، بفعلِ الالتماس النبيل لإيزابيللا؟

لكن الرجل، الرجل المتكبّر،
الذي يلبس قدراً قليلاً موجزاً من القوة،
جاهلٌ تماماً بما هو مقتنعٌ به تماماً،
جوهرُه الزجاجي، مثل قردٍ غاضب،
يلعبُ تلك الحيل الغريبة جدّاً في حضرة السماء العالية
بحيث يجعلُ الملائكةَ تبكي ــــ

يمكنكِ أن تجعلي كلَّ فردٍ من الجمهور يحسُّ بأنه مستغرقٌ في تأملٍ حالم وعميق، حتى ولو مدة لحظة واحدة. أو، مع «*هنا رائحة الدم... ما تزال*» ومجرّد رعشة أصابع في نهاية ذراع بشعة المظهر مشدودةٍ بإحكام واحتشام بجنبكِ فيما أنتِ تزدرين اليدَ المشلولة الآثمة (ما من حاجةٍ إلى أن تشميها أو تلعقيها أو تنقليها إلى طرفِ لهب شمعتكِ النحيلة جدّاً) وتتأوهين، تتنهدين، ترجّعين الصدى كالجرس بقولكِ: «*كلُّ عطورِ بلادِ العرب لن تزكّي رائحة هذه... اليد الصغيرة. أوه، أوه، أوه!*». ــــ يمكنكِ، أنتِ جعلتِ، كلَّ قلبٍ في المسرح ينقبض.

في بعض الأحيان، كانت مارينا تُدّرب ممثلاً على دورٍ مسرحيّ جديد من منتصف الليل حتى الساعة الخامسة صباحاً، وعليها أن تستيقظَ وفي موعدِها الأول في الساعة التاسعة، وتستمر في أن يكون لديها نهارٌ حافلٌ وتُمثِّل مساءً. لم تظهرْ عليها علاماتُ الإعياء أبداً. وحين كانوا يسألونها، كما يحصلُ عادةً، عن أسرارِ جمالها، كانت تردُّ في أول الأمر، حياةٌ سعيدة... زوجي وطفلي، وأصدقائي، وحياتي في المسرح، وكميةٌ معقولةٌ من النوم، وصابون جيد وماء. في أمريكا كان من الشائع بالنسبة للنجمة أن تزعمَ أنها، تحت قيود الامتياز، لا تختلف أبداً عن أيّ فردٍ آخر، مهما كان هذا الفرد، في حين إنها لا تتخيّل هذه الامتيازات إلّا بنحوٍ ضعيف، وعرفتْ أن هذا غير صحيح. كان معجبو مارينا من النساء أسعدَ حين بدأتْ «توقّع» على

شيءٍ كان بمستطاعِهم أن يشتروه: «كرِيمات تجميل هارييت هوبارد آير»، و«غسول شعر أنجيل ستار».

كانت تتمنى أن يكون باستطاعتها العثور على كرِيم أو غسول تحبّه، لا سيما أنّها بدأتْ تستعملُ على مضض مستحضرات التجميل الجديدة التي أساسها السمن. موحّدة القياس حالها حال كثيرٍ من الحياة الحديثة، مكوّنات المكياج الجديد أتتْ جاهزة الصنع بهيئة عيدان مستديرة، كلُّ واحدٍ منها مُرقّم وعليه ليبل. كانت أسرعَ في الاستعمال من المكياج الجاف، وأكثر أماناً، إذا صدّقَ المرء الشائعة التي مفادها أن بعض المواد الكيماوية المستعمَلة في تحضير بعض المساحيق، من مثل البسموث والرصاص الأحمر والأبيض، هي في الواقع موادّ سامة. (حبذا لو كان بالإمكان استعمال النوعين معاً: المكياج الجاف والمكياج الرطب ــــ فيما تشقُّ البواخر عباب الأطلسي، الدخان يخرج باستمرار من مداخنها الهائلة، فيما كانت تلاعبُ، في حال عطل المحرك، مجموعةً كاملةً من الأشرعة!) وكان يتعين على مارينا أن تُروّض نفسها على الإضاءة المُزعِجة، غير المتذبذبة، أيضاً. دون رائحة، آمنة (هل الأمان *بتلك* الأهمية؟)، أكثر إشراقاً (أوه، مشرقةٌ كثيراً جدّاً) ــــ ما هو مُثير في الشارع يكون مُدمِّراً في المسرح. مصباح غاز رقيق خشن، مع كلّ اللطخات وذرات الغبار المحبَّبة عليه، منحت الوهمَ الضروري في مَشاهد كثيرة كشفها الآن التيار الكهربائي في كلّ تفاهتها العارية. كانت قد سمعتْ أن هنري إيرڤنغ وإيلين تيري رفضا أن يستبدلا الغاز بالكهرباء في الـ «ليسيوم» ــــ إلى الأبد. إنما في أمريكا ما من أحدٍ بوسعه أن يرفض الحاجات غير المحبَّبة للتقدّم. مصابيح الغاز باتتْ عتيقةَ الطراز، وكانت تلك نهايتها. إن التحيّز حيال الجديد ينص على أن: مهما كان الشيء، بالمستطاع تحسينه. أو يجب استبداله. مارينا نسيتْ حالاً ما إذا كانت قد وقّعتْ رسالةً، مؤرخة في السابع من أيار / مايو، 1882، ظهرتْ في مجلات كثيرة تحت عنوان رئيس «إجلال مدام زالينسكا لاختراع أمريكي»، فقط بسبب البقشيش الذي دُفعَ لها، أم لأنها استخدمت فعلاً هذا النتاج المسلّي مرةً واحدة.

سيدي العزيز: في شهر تشرين الأول / أكتوبر الفائت في توپيكا، كنساس[1]. اشتريتُ صناديق عدّة من «ألواح لباد» (ملمِّع أسنان نموذجي) من أجل أسناني ودأبتُ على استعمالها منذ ذلك الحين. أنا أضيفُ بنحو مرحٍ دليلي للآخرين تقديراً لقيمتهم، وأن يُصدّقوا أن هذا الاختراع سوف يُبطِلُ أخيراً وبشكل تامٍّ تقريباً الفرشاةَ المصنوعة من الشعيرات الغليظة والصلبة. أنا فقط خائفة من أني في وقتٍ ما سينفد ما لديّ من «ألواح» في مكانٍ لا تكون فيه يسيرة المنال.

المخلصة لكَ

مارينا زالينسكا

بات من الأصعب ـــ ألّا يحصل هذا دوماً للممثلات العظيمات؟ ـــ أن أتذكّر الاختلاف بين ما قالته وما كانت تعتقده. بعد أن ألقت التحية على صديقها، السيد لونغفيلو، بوصفه شاعر أمريكا العظيم ـــ كانت قد قطعتْ جولتها كي تُلقي «حطام الـ[هيسپروس]»[2] وتقول كلماتٍ قلائل تعبيراً عن إجلالِها أثناء جنازتِه ـــ غامرَ بوغدان بأن يؤنبها. «أنتِ لا يمكنكِ حقيقةً أن تعتقدي أن لونغفيلو شاعرٌ جيد حاله حال والت ويتمان؟». هتف قائلاً: «أنا... أنا لا أعرف»، قالت مارينا. «أتعتقدُ أني أُصبحُ غبيةً، بوغدان؟ إنه شيءٌ مُمكن بكلِّ معنى الكلمة. أو شيءٌ تقليدي جدّاً؟ لا يلزمني أن أحبَّ ذلك على الإطلاق».

1- كنساس Kansas: ولاية أمريكية. اختصرت الكاتبة الاسم بـ .Kan، آثرنا وضعه كاملاً في المتن أعلاه. وتوبيكا هي مركز الولاية وتقع على امتداد نهر كنساس في الجزء الوسطي من شاوني كاونتي Shawnee County ، في الشمال الشرقي من كنساس، الجزء الأوسط من الولايات المتحدة الأمريكية – م.

2- حطام الـ[هيسپروس]: قصيدة سردية للشاعر الأمريكي هنري ووردزورث لونغفيلو، نُشرتْ أولَ مرة في كتابه المعنون: «Ballads and other poems»، العام 1842 – م.

استدعيتْ أخيراً كي تمثلَ قبالة إدوين بوث، في أدوار تمثيلية خيرية لـ «*هاملت*» في «ميتروپوليتان أوبرا نيويورك»، أنشدتْ مارينا أغاني أوفيليا بمصاحبة موسيقى مونيوشكو[1] الذي عزف لها لمّا مثّلتْ دور أوفيليا في وارسو قبل أعوام طويلة. «آه، شبح أبي!». صاح بوث حين قرعتْ مارينا بابه قبل ساعةٍ من رفع الستارة؛ كانت تُريد أن تُريه الحساب الأصيل بكل معنى الكلمة. كان جالساً بكامل ثيابه في العتمة، يشرب؛ قلّما كانت قادرةً على رؤية وجهه النحيف، المهم. كانت حجرة تبديل الملابس تفوح برائحة البول. تناهى إلى سمعها أنه يُقال في أحيانٍ كثيرةٍ إنه وُلد متأملاً وحزيناً، وإن حقبةَ شبابِه التي كرّسها لأبٍ استبدادي، عتيق الطراز، كانت غير مريحة، وإنه لم يتعافَ من موت زوجةٍ شابة محبوبة بعد ثلاث سنوات من الزواج، وبعدها مباشرةً، من العمل السيّئ السمعة لشقيقه الأصغر سنّاً، جون ويلكس بوث. مارينا كانت لها مبرراتها بأن تكون مزاجيةً، إنما لا أحدَ منهم باستطاعتِه أن يقارنَ مزاجيتَها مع مزاجيتِه. لم تتجرأ ثانيةً على اختراقِ عزلته.

أحسّتْ بأنها رائقة. كانت تأمل ألّا يكون ذلك بسبب كونها كبيرة السن. كلَّ مساء، بعد أن تنتهي من مكياجها وترتدي ثوبَها كانت تختار مَشهداً وتعمل على تجديد قراءة بعض كلمات الأدوار المسرحية: في ذلك الحين تكون مشرقةً، مركّزةً، قلقةً. في غرفة تبديل الملابس خاصتها بين فصول المسرحية، يُرمى كيمونو قرمزي وأحمر ضارب إلى الأرجواني (هديةٌ من السفير الياباني في واشنطن، مُعجب) على ثوبِها، ولفاع صوفي حول حنجرتها كي تبقى عضلاتها الصوتية دافئةً، سيجارةٌ مثبتة بِملزَم ذهب صغير ملتصق بخاتم دُسَّ في سبابتِها، كانت مارينا قد أطالت التفكير في لوحِ حضن[2] يؤوي بطاقاتِ قلّما يزيدُ حجمُها عن حجم أظافر الأصابع... إلى أن تنتزعها نداءاتُ الفتى الذي يدعو الممثلين لأداء أَدوارهم من لعبتها.

1- مونيوشكو (ستانسواف) Stanisław Moniuszko (1819 – 1872): مؤلف موسيقي، قائد فرقة موسيقية، ومدرس بولندي. كتب كثيراً من الأغاني الفنية والأوبرات الشعبية، وموسيقاه مليئةٌ بالثيمات الشعبية الوطنية – م.

2- لوح حضن lapboard: لوح رقيق يُوضع على الحضن ويُستعاض به عن المنضدة – م.

أنتَ لا تخدع حين تلعب السَّلتير[1]. إلاّ أنّكَ لا تتقبل كلَّ ورقةٍ من أوراق توزعها بنفسك؛ أنتَ توزع ثانية وتوزع ثانيةً إلى أن ترى ورقة لعب (لنقل، ذات ملكين وفي الأقل آس واحد) تهبكَ فرصةً أفضل في الفوز. غالباً ما كانت تفكر؛ أو تخطط لشيءٍ ما؛ أو تتذكّر، في سبيل المثال، ما يتعلق بريشارد. كانت تلك بالطبع الرغبةُ الناعمةِ المُغوية بأن تلعبَ دستاً آخر. كانت ثمة أخبار عن ريشارد. كان قد تزوّج. هينريك كتبَ لها أولاً، ومن ثم الآخرون. تفجّرت الغيرة، حارّةً ــــ بيضاء (أجل، كان من العبث بما يكفي أن تعتقدَ أنه لن يُغرم بامرأةٍ أخرى.) كانت تشعر بأن دواخلها جُرفتْ إلى الخارج بندم؛ وبعدها شعرتْ بأنها غدتْ باردةً كالثلج بسبب الغضب. (لم يدرْ بخلدِها أنه تزوّجَ دون حُبّ.) وزّعت البطاقات على نفسها. خسرتْ. إذا خسرتَ - عليكَ أن تلعبَ من جديد. أنتَ تفكرُ، دستٌ واحد إضافي لا غير. إلّا أنّكَ حتى إذا فزتَ، تريد أن تلعبَ ثانيةً.

«أودّ أن أتكلّم مع مدام زالينسكا وأولادها»، قال الشبح الطويل الهزيل في مَدخل عربة مارينا.

قبل ساعةٍ خلت كانوا قد انسحبوا إلى فناء القطار الواقع في ليكسنغتون، كنتوكي؛ على مدى ليلتين، وكانت الأعجوبة هي كيف مرّت من أمام ميلڤيل، حمّالهم الذكي، الذي كانت لديه أوامر بأن لا يُدخل أحداً باستثناء أعضاء الفرقة المسرحية. كانت الشابات اللائي يطفن خلسةً حول باب المسرح أو يلازمن الرصيف خارج الفندق (إذا كانت مارينا في مدينتهن على مدى أسبوع)، يراودهنَّ أملٌ بأن يحظين بنظرةٍ خاطفة على معبودتهن، وقد عُرِف عنها أنها كانت تغامر بالذهاب إلى التخوم الأكثر عتمةً من محطة السكة الحديدية. إلّا أنّ هذا الشبح، رأتْ مارينا، لم يكنْ متعطشاً للمسرح.

«كيف لي أن أقدّم لكَ المساعدة؟». قالت مارينا، وهي تنهض.

«كيف هي حالكِ مدام زالينسكا» وــــ عيناها الزرقاوان الباهتتان

1- السَّلتير solitaire: ضرب من ألعاب الورق - م.

أرسلتا نظرةً عامةً إلى المنضدةِ الطويلة التي جَلسَ إليها بوغدان، والآنسة كولينغرج، وپيبودي، ونصف دزينةٍ من الممثلين والممثلات، كي يتناولوا عشاءَهم صحبة مارينا ـــــ «هؤلاء أولادكِ؟».

موريس باريمور ذو الأعوام الخمسة والثلاثين (وهو ممثل إنكليزي موهوب وكاتب مسرحي طموح مثّل مع مارينا دور روميو، ودور أورلاندو، وكلوديو، وموريس، وأرماند دوڤال على مدى مواسم مسرحية عديدة حتى الآن) وفرنسيس مكغڤرين، بسنواته الستين (لعب معها أدوار فريار لورنس، وأنجيلو، وميشونيه، ووالد أرماند) انفجر ضاحكاً.

«هدوء، يا فتيان، وإلّا ستوبَّخون بقسوةٍ وتُرسلون إلى الفراش دون عشاء!». قالت مارينا. «بما أنّنا كلُّنا نعرفُ أن الممثلة العظيمة أبدية، أنا أشكرُكم على الحفاوة، سيدة ـــــ».

«سيدة وينتون».

«إنما لسوء الحظ لديّ طفلٌ واحدٌ فقط، وهو في مكانٍ بعيدٍ جدّاً، في مدرسة داخلية قريبة من بوسطن».

«أنا أتحدّث عن فرقتكِ. هؤلاء هم أولادكِ أيضاً، أولاد روحكِ، وخلاصُهم يعتمد عليكِ اعتماداً كُليّاً».

«كم تخمّنين نفوسَ المجانين الورعين الموجودين في أمريكا؟». تمتمَ بوغدان للآنسة كولينغرج.

«لماذا تهمسُ، سيد؟ عليكَ أن تُنصِتُ لما أقوله لأمكَ».

«أنا لستُ ممثلاً، مدام، لذا من الجائز أن تكونَ روحي مُستثناةً من الخطرِ المباشر. وأنا أتحدّى أيَّ أحدٍ أن يفسّرَ علاقتي بهذه السيدة بوصفها بنويةً»[1].

إيبين ستوپفورد، الذي مثّل لهم دور تشارلس المصارع في *«كما تهواه»*، ودور الحمّال في «مَكبث»، ضربَ سطحَ الطاولة براحةِ يدِه الضخمة.

«إنكم تسخرون مني بطريقةٍ قاسية».

«مدام مارينا، هل يسعني أن أرافقَ السيدة إلى بابِ الخروج؟».

1- بَنوية filial: أي بوصفه ابناً لها – م.

«كلا، كلا، إيبين. لا بأس».

تبسّمت السيدة وينتون بانتصار، وبعدها اقتربتْ من المائدة وتفرّستْ بقصدٍ في وجه مارينا. «اسمحي لي أن أُجري حديثاً معكِ. حديثاً خاصّاً. أنا مُرسلة إليكِ في مهمةٍ مقدّسة من لدنِ أعزِ الناس على قلبي».

«حديثاً خاصّاً! جيد جدّاً. إنما عليَّ أن أدعو الجنتلمان الذي قال لكِ إنه ليس ممثلاً كي ينضم إلينا».

في قاعةِ الاستقبال الغائرة في نهايةِ العربة، التقط بوغدان مجلةً من طاولة القراءة، جلس على إحدى الكنبات، لفَّ ساقاً على ساق، وقطّب حاجبيه. أَجلستْ مارينا المتطفلة قبالتها على الكرسي ذي المَسنَدين بجوارِ خزانةِ كتب. ميلڤيل، الذي كانت مارينا قد قررتْ ألّا تونبه لأنه أخفقَ في واجبِه كحارس، ظهرَ مع القهوة. بصرامةٍ لوّحتْ له بأن يُبعدها، ضيفتهم غير المطلوبة حدّقتْ فاغرةً فمها فيما كانت مارينا تُدخلُ شيئاً ما في أنبوب ذهب صغير وضعته بين شفتيها، مالتْ إلى الأمام حين نهضَ بوغدان، أشعل عود ثقاب، كي يكون بمستطاعه أن يضرب طرفها بلهب، ومالتْ إلى الوراء، أراحتْ رسغَها على الغطاء المصنوع من الدانتيللا العائد للكرسي المريح.

«لم يسبقْ لكِ أن رأيتَ امرأةً تدخن سيجارة؟».

«بلى!».

«لذا، أنتِ الآن ترينها بأُمِّ عينكِ»، قالت مارينا. «كوني عطوفةً إلى درجة أن تقهري دهشتكِ وتُخبريني ماذا تُريدين مني، أو تدعينني أعودُ إلى طعامي».

«هل لي أن أبدأ الآن؟ هل ستنصتين إليّ؟».

«يمكنكِ أن تبدئي، سيدة فينتون».

«وينتون. لا أعرف ما إذا بوسعي، مع هذا الدخان الذي يخرج من المنخرين والفم.

بوسعكِ»، قالت مارينا. «جرِّبي».

البارحة ظِهر ابني لي من العالم العلوي. ابني الصغير، كان في عامه الثالث لمّا غرق في البركة القريبة من منزلنا، وكانت لديه نجوم في عينيه.

[أمي]، قال، [اذهبي إلى مدام زالينسكا. قولي لها إن أرضية المسرح ليستْ سوى شبكية تقبع تحتها ألسنة نار جهنم. حذّريها، أمي، إذا ما واصلتْ نشر النماذج السيئة، فلن يأسف أحد عليها. في يومٍ ما سوف تتخذُ خطوةً، خطوةً واحدةً فقط، وتلكَ الأرضيّة سوف تتهاوى تحتَها في انهيار مفاجئ وهي والممثلون الآخرون سوف يسقطون في الهاوية النارية]. نظرت السيدة وينتون دامعة العينين، بتضرّع، إلى مارينا.

«أنا متأسفةٌ لسماع ما يتعلّق بابنكِ. متى حصلت الحادثة المروِّعة؟».

«قبل أعوام طويلة. إلّا أنّه معي على الدوام. [ماما]، قال البارحة، [اذهبي باسم خير الإنسانية، وتوسّلي إلى مدام زالينسكا كي تُنقذ نفسَها والأرواحَ الكثيرة الأخرى التي تجرّها معها إلى دنيا الفساد].

«مارينا، لا ـــــ»

«إفساد؟ هل أُفسِد أحداً؟».

«نعم!». والمتطفّلة شرعتْ في إلقاء خطبة مُسهَبة عنيفة ضد المسرحيات التي تظهر فيها مارينا، وأفردتْ «*أدريانا*»، قصة تمجد المسرح؛ و«*كاميليا*»، قصة محظية؛ و«*فرو ـــــ فرو*»، قصة امرأة لعوب تتخلّى عن زوجها وابنها الصغير. «المسرحيات الثلاث كلُّها»، خلصتْ إلى القول: «هي المفاهيم الشيطانية للمؤلفين الفرنسيين».

«إنه شيءُ لا يُضايقك أن هؤلاء النسوة التعيسات، أدريانا ومارغريت وغلبرت المسكينة، كلُّهن يتوفين في نهايةِ المسرحية؟ حتى إذا كنَّ سيئاتٍ كما تقولين، ألم يُعاقبنَ بما يكفي؟».

«لكنهن قبل أن يُعاقبنَ، أنتِ، مدام زالينسكا، بفنكِ، جعلتِ منهنَّ جذابات جدّاً».

«إذن يجب معاقبتي، أنا أيضاً؟ هل هذا هو ما تقولينه؟».

«مارينا، دعيني ـــــ».

«لا، بوغدان، أُريد أن أستمع إلى السيدة وينتون. أُريد أن أفهمها».

«ما من شيءٍ كي تفهميه، مدام زالينسكا. أتيتُ باسم الأخلاق والدين».

«أيّ دين، إذا جازَ لي أن أسأل؟».

«أنا مُبشِّرة. أنا أنتمي للأديانِ كلِّها».

«حقّاً؟ في أمريكا توجدُ أنواعٌ كثيرةُ جدّاً من الكنائس وحتى ـــ قيل لي ـــ أُسر فيها كلُّ فردٍ ينتسب إلى كنيسةٍ مختلفة. وأنتِ تؤمنين بالكنائس *كلِّها*، سيدة ونتون؟ أنا أنتسبُ إلى كنيسةٍ واحدة، الكاثوليكية الرومانية، وأتبعُ وصاياها المتعلّقة بالإحسانِ والمحبة».

«أنا أشكرُ السماءَ أني لا أنتمي إلى روما، إنما كلُّنا، رومانيين أو لا، نعرف الاختلاف بين الصالح والشرير. الله أعطاكِ الموهبة. وهي موهبة جميلة. لماذا لا تستخدمينها من أجل الخير؟ لماذا تُقدّمين مثل هذه المسرحيات اللاأخلاقية؟».

«يقينا أنكِ لا تعتبرين شكسبير مؤلفاً خليعاً».

«موهبةٌ جميلةٌ أخرى أُسيء استخدامها! ليس كلُّها، لكن نعم، شكسبير ميّال إلى قلة الاحتشام! الشبق، يُسمّي نفسَه [حبّاً]، هي ثيمة [روميو وجولييت] وثيمة [*حلم منتصف ليلة صيف*] وفيها كلّ أولئك الأزواج الذين ينامون سويةً على الأرض، وكلتا المسرحيتين [*كما تهواه*] و[*الليلة الثانية عشرة*] لديها امرأة تثبُ فرحاً هنا وهناك على الخشبة لابسةً *الرداء المُحكم*! وتوجد عِرافة في تلك المسرحية التي تُظهِر زوجةً تُغري زوجها بأن يقتل الملك، بحسب نبوءة العرّافات بأن ـــ».

«أرجوكِ لا تذكريها»، قالت مارينا.

«أذكر ماذا؟».

«سيدة وينتون، أيَّ نوع من المسرحيات ترغبين بأن أقدّمَها للجمهور؟ [مسرحية *الآلام*][1]، ربما».

1- مسرحية الآلام The Passion Play: نوع من المسرحيات تدور حول آلام يسوع المسيح، وموته، وقيامه. انتشرتْ في القرون الوسطى، وكانت تُمثل باللاتينية، ثم صارتْ تُمثل بالألمانية منذ القرن الخامس عشر، وبقي من آثارها ذلك التمثيل السنوي الذي يقام في بلدة أوبرامرجادو في الألب البافارية، وفيه تُمثل حياة يسوع المسيح منذ دخوله أورشليم إلى قيامه من بين الأموات – م.

«هل هذه مسرحية فرنسية هابطة أخرى؟ من عنوانها أنا ـــ».[1]

«كلا، كلا، إنها مسرحيةٌ ورعةٌ، مُثلتْ في النمسا. موضوعُها هو آلامُ يسوع المسيح».

«أنصتي إليَّ، مدام زالينسكا. أنتِ لديكِ حضورٌ رائع، صوتٌ رائع. شيءٌ ما يتحدّث من خلالكِ. إنها موهبة امرأة. أن تكوني امرأة رصيف بدلاً من كائنٍ مرسوم على خشبة المسرح، تتظاهرين بأنكِ شخصيةٌ لا تمتُّ إليكِ بصلة. يمكنكِ أن تتحدّثي من قلبِكِ. عليكِ أن تكوني مُبشّرة!».

«وماذا عن فني؟».

«الفن هو وَهَم! أكبر وَهَم في العالم. الشهرة على غراره».

«والمال؟».

«المال ليس وهماً لكنه فخّ».

«تمييز دقيق»، قالت مارينا. «لكني إذن لا يمكنني أن أتخيّل أمريكيّاً يحسب أن المال هو مجرد وَهَم خالص وبسيط».

«لماذا تنتقدين هذا البلد العظيم الذي كان لطيفاً جدّاً معكِ؟».

«آه»، صاحتْ مارينا، وهي تسحق عقب سيجارتها وتهبُّ واقفةً، «أنتِ على حق. إنه انتقاد، عفويّ وغير أصيل فضلاً عن ذلك ـــ والذي لم يُبطل قصةَ الحبِ العنيف مع المال؟ ـــ لكن ثمةَ شيءٌ واحد ألا وهو أن لي الحقّ، الحقّ الأمريكيّ القُحّ، أن ألوم علناً بلدي الذي اخترتُه. لأنه كما يُحتمل أن تعرفي، أنا وزوجي هذه السنة ـــ مرّتْ سبع سنوات منذ وصولنا إلى هنا ـــ أصبحنا مواطنيْن أمريكييْن. أنا ممتنةٌ جدّاً لهذا البلد. وصدّقيني، لا أعتقد أن المال هو وَهَم، أيضاً».

«مارينا، آن الأوان...». قال بوغدان.

«أجل. أجل. هل يمكنني أن أطرحَ عليكِ سؤالاً، سيدة وينتون، ما إذا كنت ترتادين المسرح كثيراً جدّاً؟».

1- كلمة passion: قد تعني أيضاً: عاطفة أو هوى أو هيام أو شغف، ولهذا ظنّت السيدة وينتون أنها مسرحية هابطة – م.

«أنا مُرغمةٌ على الذهاب للمسرح» ــــ كانت ترنو بعينيها إلى مارينا ورأسها منتصب ــــ «كي أرسم خطةً لتقدّم السلوك اللاأخلاقي».

«إذن أنتِ بالتأكيد تريدين أن تري المسرحية التي أتعلّمها الآن وسوف أُقدّمُها يومَ السبت في لويسڤيل، على مسرح ماكيولي. فيها مَشهد حيث يكون الزوج الشاب مستثاراً، وزوجته ترقص له الترنتيلة[1] الجنسية جدّاً هازّةً دفَّها الصغيرَ أمامه».

تهبُّ السيدة وينتون واقفةً بسرعة.

«لعلكِ تُريدينني أن أرقصها لكِ الآن».

«أنتِ تُصرين على طرائقكِ الشيطانية».

«أنا أُصرّ».

«ابني سيكون مُحبطاً. [أمـي]، سيقول لي، [فشلتِ في إنقاذ مدام زالينسكا] أتمنى ألّا يغضب عليَّ». استدارتْ كي تذهب، وبعدها استدارتْ من جديد. «تذكّري، أن أبواب جهنم مفتوحة».

«ألم يسقط السيد لنكولن ذاك في أيّ مكانٍ آخر إلّا عند أبوابِ جهنم!». ترنّمتْ مارينا. «قيل لي إنه بعد أن لقي مصيرَه التراجيدي عند [مسرح فورد]، أُغلقتْ دور المسرح في الأرجاء كلِّها على مدار أسابيع، في حين إن رجال الدين الشماليين من على منابر يوم الأحد أطلقوا العِنان لحكم الله ضد مهنتي الشيطانية».

«كوني وُلدتُ ونشأتُ في كنتوكي، لم أسفحْ دموعاً على رحيل ذلك الكافر السيد لنكولن. مع ذلك، دار المسرح هو مكانٌ بائس كي يموت المرء فيه».

«أنا لا أُبالي إذا ما فارقتُ الحياة في المسرح»، قالت مارينا. «في الحقيقة، أعتقد أني سأبالي إذا ما فارقتُ الحياة في أيّ مكانٍ آخر».

«سأصلّي من أجلكِ، أنتِ أيتها الروح التي ضُللتْ».

«آه، سيدة وينتون، ماذا يستطيع المرء أن يفعل مع أنّاسٍ من مثلكِ؟ أنتِ

1- الترنتيلة tarantella: رقصة شعبية إيطالية – م.

والملأ الذين من طرازكِ سوف يُحطمون الفرص المتاحة للمسرح كي يُصبح أيَّ شيء عدا كونه تسليةً هابطةً في هذا البلد. سوف ـــــ سوف تدمّرون أمريكا!».

«على كلّ حال»، قال بوغدان، وهو يقذف مجلته إلى الأرض، «لقد أتلفتِ عشاءَنا. مارينا، تعالي، تعالي!».

3 كانون الأول / ديسمبر. المسرحية التي فيها رقصة الترنتيلة. تلوٌّ بشبق. غارة من متعصّب ورِع. وتهديدات مُحزِنة، وخطب مُسهَبة عنيفة. ونار جهنم. وإدانة. م. مولَعةٌ بالجدال، ومفتونةٌ.

4 كانون الأول / ديسمبر. لماذا، أعتقد أن م. كانت مستثارةً جرّاء هذه المسرحية. إنها «فرو ـــــ فرو» وقد باتَ عاليُها سافلَها. الطفلة - الزوجة التي أُفسِدتْ كانت لا تفعلْ شيئاً سوى التظاهر بأنه صبيانية وسخيفة، لأن زوجها كان يُريدها أن تكون هكذا. تتغيّر كي تُصبح ذكيةً بكل معنى الكلمة. ألم تتخلَّ عن أسرتها كي تسعى وراء علاقةٍ غير مشروعة. المشكلة هي: كانوا قد جعلوها تعرفُ أنها متزوّجةٌ من زوج غير ثري. الزوج هو المذنب، وهو الذي لم يُصفحْ عنه. ما من إشارةٍ إلى الجمهور بأن اندفاعها بقوة ونشاط من تلقاء نفسها ـــــ كي تكتشف مَن تكون! ـــــ ربما يُثبت كارثةً. المسرحية تتغاضى عن تخليها عن بيتها، وأطفالها. ثلاثة أطفال، على غرار «*ايست لين*».

5 كانون الأول / ديسمبر. إذا كانت الرغبةُ ممنوعةً، سوف تتورّمُ وتنفجرُ. القمر أصغر من الغيمة التي تُغطيه. هذه هي الإقامة المؤقتة الأخيرة في كاليفورنيا. مضطجع. وتمتمة الجدول. وابتساماتٌ قلِقةٌ، وعصبيةٌ وناعمة، ونحاسيّة، مُتفقٌ عليها... الأشياءُ التي نراها في أحلامِنا تُصبح واضحةَ المَعالم تماماً. أحسستُ بالغمّ. كما لو أنّني فقدتُها. رغبةٌ ضبابية. بدأتُ أحلم بـ م. لا يسعني أن أتركَها. أبداً. أبداً. أبداً. أبداً.

6 كانون الأول / ديسمبر. غرباً وشرقاً. الأمان والتهوّر. البيت والخطر.

الحُب والشّبَق. أجلبُ خوان ماريّا شرقاً كي يلتحقَ بالفرقةِ المسرحيّةِ بصفة حمّال أو نادل؟ هل هذا هو ما أبتغيه.

7 كانون الأول / ديسمبر. ربما من الخطأ أن تُؤدى «بروفة» في لوسڤيل فيما يتصلُ بمسرحيتنا الجديدة السيئة السمعة أصلاً من «العالم القديم. الزوجة لا يسعها أن تترك زوجها وأولادها الثلاثة في كنتوكي، قلتُ لـ م. كنتوكي لن تسمح بذلك البتة. كان يتعيّنُ عليها المكوث، والقيام بأفضل الأشياء. شكل م. في الأقل، علينا أن نغيّر عنوانَ المسرحية. الأمريكيون كونهم ذوي عقول واقعية جدّاً، والجمهورُ قد يحسبُ أنها مسرحية للأطفال. في السبت القادم، رصيفُ المشاة خارج «مسرح ماكيولي» تصطف فيه عربات الأطفال الرضّع وموريس يعتقدُ أنه حين يهبُ زوجته اسماً اسكندنافياً فهذا من شأنِه أن يُساعدَ الناسَ على فهمِ المسرحيّة. يقترح اسم «ثورا. ثورا وزوجها، تورروالد؟ أليس هو اسم اسكندنافي قُح نوعاً ما، لا؟»

8 كانون الأول / ديسمبر. المشكلة هي، بالطبع، النهاية. هل تتقبّل الجماهير الأمريكية الفكرة المتعلّقة بامرأةٍ تترك زوجها وأولادها لا لأنها شريرةٌ بل لأنها جادةٌ. هذا شيءٌ غير مُرجَّح. ألن يكونَ من الأحسن، أن أقول لـ م.، إذا ما كانت تنتهي المسرحية بالزوجة وهي تتصالح مع زوجها؟ إنه يبدو تائباً. بوسعها أن تمنحه فرصةً إضافيةً أخرى. وإذا ما ألحّتْ على تركه، وتخرج من بيتها إلى ليل الشتاء الجليدي يبدو شيئاً مُستبعداً إلى حدٍّ بعيد. لا بدَّ أن يكونَ ذلك في منتصف الليل تقريباً. إلى أين تولي وجهها في مثل هذه الساعة من الليل؟ إلى فندقٍ ما، إن كان هنالك فندق في تلك القرية الصغيرة؟ ألا يبدو هذا كلُّه ميلودرامياً نوعاً ما؟ ألا يسعُها أن تنتظرَ حتى الصباح؟

9 كانون الأول / ديسمبر. كنتُ أحسب أنكِ تحبين النهايات السعيدة، أخاطبها. أعتقد أن هذه نهايةٌ سعيدة، تردّ م. عليَّ. لا يمكنكَ أن تفهمَ لماذا تُريد الرحيل؟ كلُّ شيءٌ جيد تماماً. جميعُ الناس يحلمون بأن يفجّروا سلاسلَ الزواج ويبدؤون حياتَهم من جديد. أجل، تقول م.، إلّا أنّي لا أفعل هذا حاليّاً. وأنتَ، بوغدان؟ أتريديني أن أُجيب عن هذا السؤال؟ أُجيبها. أنا

أعتقدُ أننا كُنّا نناقشُ كيف نُنهي هذه المسرحية. زوجي، زوجي، تقول م.، نحن دوماً نتحدّث عن أنفسنا حين نتحدّث عن أيّ شيء آخر. نعم، جواب. إذن لماذا لا يمكن تغيير النهاية، سألتها. لن أغادر، قلتُ لها.

11 كانون الأول / ديسمبر. توافق م. على مضض. نورا ـــ لا، ثورا! ـــ سوف تفكّرُ في الرحيل. إلّا أنّها لن ترحل. هل ستسامح زوجها. هل ستسير الأمور سيراً حسناً هنا، يمكننا أن نعوّض النهاية الواقعية حين نأتي بها إلى نيويورك.

12 كانون الأول / ديسمبر. افتتحتْ *ثورا* الليلةَ الأخيرة. م. رائعةٌ إلى حدٍّ استثنائي. موريس محتشمٌ تماماً باعتباره الزوج المتبلّد الفهم. الجمهورُ بائس. مراجِعو الجرائد سريعو الغضب، حتى إذا كانت النهايةُ سعيدةً. مثلما خفتُ على وجهِ الدقة. إساءة للتعاليم الأخلاقية المسيحيّة والأسرة الأمريكيّة. وآه، رقصة الترنتيلة.

«*ثورا*» هينريك إبسن، حيث تؤدي مارينا زالينسكا دورَ البطلة الرئيسة التي حملت المسرحيّةُ اسمَها، كان أداؤها هذا هو الوحيد في لوسيڤيل، كنتوكي.

فيما كانت مارينا تواصل بحثها عن مسرحيةٍ جديدةٍ أخرى، قال موريس باريمور[1] إنه عقد العزم على أن يكتب مسرحيةً لها لا يمكن أن تُمنى بالفشل، في موضوع كانت تتكلّم عنه في كثيرٍ من الأحيان في حضوره: الشهادة في بولندا في ظل المضطهِدين الروس. كان عنوان المسرحية «*ناديجدا*»، بحسب أحد الدورين اللذين صنعهما لمارينا: امرأة بولندية جميلة كان زوجها قد سجنه الروس على خلفية مشاركته في «انتفاضة العام 1863». الأمير زوبوروف، قائد الشرطة، يُقنع ناديجدا بأن تستسلم لشبقه مقابل وعده بإخلاء سبيل زوجها؛ بدلاً من ذلك يُرسله زوبورف إلى فريق

1- موريس باريمور Maurice Barrymore (1849 – 1905): ممثل مسرحي بريطاني مولود في الهند. وُلد باسم هربرت آرثر شامبرلين بليث – م.

الإعدام رمياً بالرصاص، ويُعاد الجثمانُ المُصابُ بالرصاص إلى ناديجدا، في غضونِ ذلك تكرّسُ ابنتَها الصغيرة للثأر، تبتلعُ السمَّ، تتهاوى على جثةِ زوجها، وتلفظُ أنفاسَها الأخيرة. ومارينا ستلعبُ أيضاً دورَ البنت الجميلة، نادين، حين تكبرُ، هي التي ستثأرُ لميتتَيْ أبويها. زابوروف، الذي ما يزال فاسقاً كشأنِه دوماً، مفترِساً كحالِه دوماً، دعى نادين إلى مكتبِه في ساعةٍ متأخرةٍ من إحدى الليالي؛ وفيما هو ينقضُّ عليها، تتمكّنُ من طعنِه بسكينٍ من طاولةٍ قريبةٍ صُفَّ عليها عشاؤهما الحميم. تنتهي المسرحية بنادين وهي تبتلعُ السمَّ وتموتُ بين ذراعَيْ حبيبها (الدور الذي كتبه باريمور لنفسِه) حين تكتشفُ أنه نجلُ الرجل الذي قتلتْه.

لم يكنْ بمستطاعِ مارينا أن ترفض تمثيلِ المسرحية: كانت هدية موريس لها، وموريس كان ممثلاً رائعاً. كانت مولعةً جدّاً جدّاً بموريس. حبذا لو أنّ شغفه بها لم يُلهم هذا الكاريكاتير جيّاش العاطفة للوطنية البولندية، للمعاناة البولندية، الشهامة البولندية. في سبيل المثال، حين تضعُ نادين، قبل الهَرَب، شمعتين عند رأسِ زابوروف وترتلُ صلاةً موجزةً... موريس، حقّاً!

«جياش العاطفة؟ أوه. ما عنيتُه هو أنها تندم على عنفها، أترين. ينبغي لي أن أقول إن الإيماءةَ الوَرِعة مؤثرةٌ، مدام مارينا. ألا تعتقدين ذلك؟».

«لا أعتقد، موريس. هذه وجدانيةٌ، وليستْ وَرَعاً. نادين ربما تُروّع بعنفِها إلّا أنّها يجب ألّا تندم على فعلتها. قائد الشرطة القيصرية يستحق أن يموت».

بعد أدوار تمثيلية قليلة في بالتيمور، افتتحتْ مارينا «*ناديجدا*» في شباط / فبراير 1884، في «*مسرح النجمة*» في نيويورك ومثّلتها أكثرَ من خمسين مرّة في الربيع والصيف خلال جولتِها القومية.

حينما لم تستمرّ مارينا مع «*ناديجدا*» في العام التالي، فلأن مؤلفَها المخادِع بعثَها إلى سارة برنار، مُصرّحاً بأن قراءَتها لمسرحيتِه سيشرّفه حتماً؛ الدوران الرئيسان، قلّما كانت لديه الجرأةُ كي يعترفَ بأنه كتبَهما وهي في بالِه.

وبرنار لا بدَّ أنها أحبّتْ مسرحيتَه قليلاً بما أنّها وبنحو جليّ كانت قد مرَّرتها إلى ڤيكتورين ساردو[1]، مؤلفُها المسرحي المنتظَم وعشيقُها: بعد مضيّ سنتين فتحتها في باريس في عربة ساردو التي ذكّرتها تماماً بـ «*ناديجدا*». للعلم، كان ساردو قد أجرى تغييراتٍ طفيفةً حاذقةً. قصةٌ تمتد زمنيّاً ما يزيد على عشرين عاماً كانت قد ضُغطتْ في فعلٍ تجري وقائعُه بين ضحى يومٍ ما وفجرِ اليوم التالي. كانت الانتفاضة البولندية الفاشلة لعام 1863 قد تحوَّلتْ إلى انتفاضة جمهورية في روما في نهاية القرن الثامن عشر، الزوجةُ البولندية النبيلة تحوّلتْ إلى مغنية أوبرا إيطالية متهوّرة، والزوج الذي ينتظرُ الإعدام تحوَّلَ إلى عاشقٍ ورسام متحمّس. بدلاً من الأم والبنت، وحادثتَي الانتحار، كانت هنالك بطلةٌ واحدةٌ، المغنية، التي تصعدُ، بعد أن تضمنَ حرية زوجِها (تعتقد هذا) وتقتلُ قائدَ الشرطة الفاسد، إلى سقفِ قصرٍ يقعُ على نهر الـ «تيبر»[2] من أجل تنفيذ إعدامٍ مزيف وَعَدتْ به، فتكتشف أنها شَهِدَتْ إعداماً حقيقيّاً، وتقفز مُنهيةً حياتَها.

لم تتأثرْ مارينا بمحنة موريس. صحيح، كانت قد تخلّتْ عن «*ناديجدا*». إلّا أنّه ما كان يتعيّن عليه أن يُرسلها إلى برنار. كان قد عوقب بنحوٍ عادل.

على الرغم من أن ساردو استبقى كما يبدو تلكَ الشموع المُضحِكة الموضوعة على جانبَيْ جثمان قائد الشرطة، بدا لمارينا كما لو أنّه حَسَّن مسرحية موريس كثيراً. في الواقع، الآن أبطالُها لم يعودوا وطنيين بولنديين، شرعتْ مارينا تشتهيها بعد أن باتتْ مُلكاً لغيرِها. كتبَ پيربودي إلى ساردو

1- ڤيكتورين ساردو Victorien Sardou (1831 – 1908): مؤلف مسرحي فرنسي وأحد أبرع وأنجح أنصار المسرحية المتقنة. خلال حقبة زمنية معينة كان كاتب سارة برنار المعاصر المفضّل وألّف لها سلسلةً من المسرحيات القوية تحمل أسماء نساء: «دورا» (1877) التي نُقحتْ لاحقاً باسم «الجاسوسة» (1905)، و«فيدورا» (1882)، و«لا توسكا» (1887) التي عرفتها الأجيال اللاحقة من خلال أوبرا بوتشيني ــــ الموسوعة المسرحية، ج 2، م. س.: 499 – م.

2- نهر الـ «تيبر» the Tiber: ثاني أطول نهر في إيطاليا، يبدأ في سلسلة جبال توسكان ويتدفق جنوباً لمسافة 405 كم، في نهايته يعبر مدينة روما قبل أن يصب في البحر الأبيض المتوسط في منطقة أوستيا. كان يعدُّ وسيلةَ تجارةٍ مهمةٍ في العهود الرومانية – م.

مقترحاً شروطاً معينةً لمارينا كي تكسبَ حقوقَ عرضِ مسرحيتِها في أمريكا. قبل أن تفكرَ جديّاً بأن تكون بهيميةً جدّاً حيال موريس، أرسل ساردو رفضاً مؤدَّباً. لعله ارتابَ بأن موريس قد خطَّطَ لأن يرفعَ دعوى قضائية ضدَه على خلفيةِ الانتحال. وفي الأرجح، كان الاعتراضُ قد جاءَ من برنار، التي لم يكنْ بمستطاعها أن تسمحَ بأن يُمرر أنجح كلّ الأدوار التي كُتبتْ لها إلى يديّ مارينا زالينسكا.

ولأنه لم يُدركْ خيانة مارينا التي برزتْ جليةً، ومع دعوتِه القضائية المُحبَطة، اقترحَ مؤلف «*ناديجدا*» السيّئ الطالع إعادة انتحال مسرحيته هو وحوّل «*توسكا*» ساردو إلى قصة حرب أهلية. ليديا ـــــ لا، أنابيللا، وهي زوجةٌ جميلة لجاسوس لقضية «الاتحاد» أصدرتْ بحقه محكمةٌ عسكرية في جيورجيا حُكماً بالموت، تتوسّلُ إلى جنرال كونفدرالي كي يُبقي على حياة زوجِها. وذاتَ مرةٍ يقترحُ عاشقُها، الفاسقُ الجنرال دونارد صفقةً خسيسةً، وهي، زيادةً على ذلك، لم يكنْ لديه نيّة بالاحتفاظ بها. في المعهد الموسيقي التابع لـ قصر الإحياء اليوناني «العائد لدونارد، جورجِ، الساقي كريم النفس، أشعل شمعدان الفضة الوامض على المائدةِ التي صُفَّتْ من أجلِ عشاءٍ في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل مؤَّلف من المحار والشمبانيا؛ فيما ينتظرُ مالكُ جورج وصولَ المرأة المحبوبة المتوسِّلة، التي كانت تتصوّرُ بسذاجةٍ ـــــ

شيءٌ غير وارد، موريس! شيءٌ غير وارد. كان بوغدان هو الذي اعترضَ على الفكرة، ورجعتْ مارينا إلى انتصارتها المضمونة أصلاً.

اسمعْ، بوغدان. [أعظمُ ممثلةٍ على المسرح الأمريكيّ هي بولنديّة الجنسيّة. في واقع الأمر، مدام زالينسكا ما من مُنافسةٍ حيّةٍ لها عدا سارة برنار، وهي] ـــــ اسمع! [وهي في رأيي تتفوّق عليها في كثيرٍ من الأحيان].

«مَن كتبَ ذلك؟ ليس وليم ونتر...؟».

بالكاد. قهقهتْ، فيما كانت تنزلُ إلى صوت ونتر الخشن. «[الأمريكيون يجبَ أن يقفوا سويةً في تصميمهم الجدّي على منع الاستعمال اللاأخلاقي

للمسرح، الذي تمَّ في ظل ادّعاء هدفٍ جدّي. أنا أتحدّثُ عن أسلوب تقديم «مسرحيات القضية[1]»، وهي مسرحيات مُقرِفة] كم كَرِه مغامرتنا الصغيرة مع إبسن، أتتذكر؟».

«جينيه غيلدر المبجّل أبداً؟».

حتى غير هذا! ناقد في مجلة [مسرح] لم يسبقْ لي أن قابلته.

انتهى كل شيء، مارينا. ربحتِ.

ماذا بقي لي كي أصدّق ما أقرؤه.

في العام المقبل ستقوم بجولةٍ قوميةٍ مع إدوين بوث: تقوم بدور أوفيليا فيما يؤدي هو دور هاملت، هي ديزدمونه وهو عُطيل، هي بورشيا وهو شايلوك، وفي «ريشيليو» وهي مسرحيةٌ ألّفها كاتبٌ يُدعى بولوير ــــ لايتون وفيها استمتعَ بوث بنجاحٍ يأتي ثانياً بعد نجاحه في «*هاملت*»، أما هي فسوف تلعبُ دور جولي دي مورتيمار، الفتاة القاصر المحرومة من الحماية وهي تحت وصاية الكاردينال. هي امرأةٌ – ضحيةٌ أخرى!

«مارينا المسكينة»، قال بوغدان. حياةٌ مليئةٌ بالإجهاد الشديد أثقلتْ سذاجتها. نقاد خنوعون، قد لا يجرؤون على عمل شيءٍ عدا كيل المديح لها. زوجٌ مُنحرف، ربما لا يجرؤ على أن يقول لها الحقيقة، إلّا أنّه على الرغم من ذلك حاولَ أن يُفصح عن، إن لم يقلْ... ما يبدو أنه شيءٌ شديدُ الفظاظة كي يقوله.

«إن كنتَ ترومُ المغادرة» – قالت مارينا، «يلزمُكَ أن تفعلَ ذلك. أنا قويّةٌ بما يكفي الآن».

«أحزمُ حقيبتي، أجرُّ رباطَ الزوجية وأرميه عليكِ، أفتح البابَ، أغلقُ البابَ بقوةٍ، وأخرجُ ماشياً متوغلاً في حِلكة الليلِ الجليدي؟».

«هذه ليست الحياةُ الوحيدةُ التي يمكنكَ أن تعيشها».

1- مسرحية القضية problem play: مسرحية جادة تصور مشكلةً اجتماعيةً ومناقشة وسائل حلّها من مثل مسرحيات هينريك إبسن وبرناردشو - معجم المصطلحات المسرحية – سمير عبد الرحيم الجلبي، م. س.: 185 – م.

«هذا الشيء يُمكن قولُه لأناسٍ كثيرين»، قال بوغدان.

«لكن، بوغدان، الآن تحديداً أنا أقولها لكَ».

«تعتقدين أنني جبان».

«كلا، أعتقد أنكَ مُغرمٌ بي. غرام زوجي. صداقة. إلّا أنّنا نُدركُ معاً، أن ثمةَ أنواعاً أخرى من الغرام». مدّتْ إحدى يديها فيما كانت تُنهي إعادةَ شدِّ شعرِها. مرَّرَ إليها عيدان السمن. «أتمنى أن تصدّقَ أني أودُّ دوماً أن تجدَ ما تحتاجه».

«لن أجد».

«لن تجد؟».

«أنا مُشكّلٌ جدّاً. من قطعة. انتهى. أمريكا خاصتي هي أنتِ. لا تزالين أنتِ. لمّا أكونُ... هناك، أنا ـــ لا يمكنكِ أن تتصوّري كم أشتاقُ إليكِ».

«ولا يمكنكَ أن تتخيّل، بوغدان الأعز، لأني لم أفهمْ ذلك أنا نفسي، كم أُحبُّكَ. هل تُريدني أن أسعى للتخلّي عن المسرح ثانيةً؟».

(مارينا!».

«سأفعل ذلك من أجلك».

«حبيبتي، مارينا، أنا أمنعكِ من أن تفعلي ذلك حتى لو أنّي أخذتُ بالحسبان أنكِ تقومين بتضحيةٍ كهذه من أجلي».

«لا أعرف إن كان هذا سيكون تضحيةً كبرى». كانت تُدلكُ طبقةً خفيفةً من زبد الكاكاو على جبينها وخديها. «كما تقول، إني ـــ لكني لا أُحب هذه الكلمة ـــ ربحتُ. ما يتبقى فقط هو أن أستمرَّ، أن أكرّرَ نفسي، أحاولُ ألّا أُصبح خشنةَ الطباع أو مبتذلةً. أيَّ نوعٍ من المسخ سأكونُ حين أقومُ بعشرين جولةً قوميةً؟ ثلاثين؟ أربعين؟». ضحكتْ بطريقةِ فتاةٍ صغيرة. «حتى حينَ أُكيّفُ نفسي لتمثيلِ دور مربية جولييت؟ لا يمكنني أن أكيّفَ نفسيَ مع المربية! بالأحرى سأمثّل دور إحدى العرّافات في [مكبث]».

«مارينا!».

«أن أحبّ حتى العبادة أن أُصدمكَ، بوغدان»، قالت بأقوى نبراتِ صوتها الآتية من الحنجرة. «[مكبث]. سأقولها مجدداً. [مكبث]. أتعتقد أننا سنكون َمذعورين بسبب البرق؟».

«يمكنكِ دوماً أن تسحريني، مارينا. أنتِ تسحرينني تماماً إلى درجة أن أفقد صوابي. لقد صعدتُ فعلاً في الطائرة مع خوان ماريا وخوزيه. واصلتُ التحليق معهم».

«ظننتُ كذلك. يا لك من رجلٍ شجاع». وقفتْ، ودنتْ منه كي تمسكَ بوجهِه.

«يا لكِ من امرأةٍ لطيفة»، قال. «كنتُ أحسبُ أني سأتوارى في داخلِ ذاتي. ربما كنتُ آمل أنها سوف تندفعُ بقوة وتتحطّم».

«لكنها لم تلقَ هذا المصير، بوغدان الأعز». تذوقتْ فمه. لفّها بين ذراعيه. «وأنتِ ترين، لا توجد صاعقة البرق. مع أنّه سيكون شيئاً مُحبباً أن نموت معاً الآن تحديداً. تحطمّ. نار. رماد».

«مارينا!».

«والآن، بما أنّكَ نجحتَ في أن تجعلني أصرخُ، عليكَ أن تُخلي مملكتي الصغيرة. كيف يسعني أن أضعَ مكياجي فيما أنتَ واقفٌ في رذاذٍ من المصالحات؟ اذهبْ، حبيبي. اذهب!». كانت بسمتُها مُشعة. «واحرصْ» ـــ كان فمُها قد انفرجَ ونظراتُها توجهتْ صوبَ السقفِ مثل كسرةٍ من الذكرى ـــ «احرصْ على أن تضع القفلَ كي لا يكون لديَّ متطفلون غير مُرحّبٍ بهم».

جلستْ مارينا وتفرّستْ في مرآتها. يقيناً كانت تبكي لأنها في منتهى الفرح ـــ ما لم تكن الحياةُ السعيدةُ مستحيلةً، وأسمى شيءٍ يستطيع الإنسانُ بلوغَه هو الحياةُ البطولية. السعادة تأتي بأشكالٍ شتى، أن يعيشها المرءُ من أجل الفن فهذا امتيازٌ، وبَرَكة، والنساء موهوباتٌ في تخلّيهن عن النشوةٍ الجنسية الرائعة. سَمِعتْ إغلاقَ مزلاجِ حجرةِ تبديل الملابس. أنصتتْ إلى المزلاج فيما كان يُثبّتْ.

تسعة

أنتِ ترين، عزيزتي مارينا... أنا أثق أن بوسعنا أن نستغني عن مدام مارينا والسيد بوث سيما أنّنا الآن وحدنا، وأنا مُرهَق وقد أُتخمتُ بالإطراء وثملتُ تماماً بالقدر الذي أحتاجه... يتعيّن عليَّ أن أُخبركِ أني لم أوافقْ حين نزلتِ من مقدّمة المسرح ولمستِني الليلة. كنتُ تثبتين نظراتكِ عليَّ طوال الوقت، متجاهلةً الآخرين في قاعة المحكمة، ما من اعتراضٍ على ذلك. كلانا نؤيد أن الكلام كان موجهاً إلى شايلوك. *إن نوع الرحمة ليس متكلِّفاً، إنها تهطل كالمطر الناعم من السماء.* لا، إنها لا تهطل، إنما ليستْ هذه هي المسألة هنا، وهي، مسألتي، مسألتي هي... پورشيا تحاول أن تُقنع شايلوك، وبتلك الطريقة أن تُثير مشاعره. هو ليس من النوع الذي يسهل إثارة مشاعره. إنه يملك كثيراً من المظالم. پورشيا بوسعها أن تُثير نفسها بواسطة الشخص البائس. إلّا أنّ پورشيا يتعين عليها ألّا تمسّ شايلوك. حتى لو كانت تمسُّ كتفه فقط. تمسُّ كتفه، تمس أيَّ جزءٍ آخر من جسمه. بلا لمس! شايلوك يتألّم. [*يحدّق بالكأس التي يحملها*] أن يتألّم المرء هو شيءٌ جد... قابل للاحتراق. [*يرفعُ بصرَه إلى الأعلى*] أنا أعتقد أنكِ فكرتِ بأن تُظهري أن پورشيا باذخة الأنوثة تحت أردية المحامية الحُمر خاصتها، باذخة الأنوثة، وبناءً على ذلك تعرف، دون حاجةٍ إلى أن يُقال لها، أن الغول له حواس، عواطف، أهواء، آلام. إلّا أنّ هذه إيماءةٌ عاطفية سخيفة. [*يهزُّ رأسَه*] أنتِ امرأةٌ عاطفيةٌ بشكل هائل، هل سبقَ أن قال لكِ أحدهم ذلك؟ أنا من ناحيتي أفضّل الإيماءات الكبيرة، الغاضبة جدّاً. إلّا أنّ هذا لا يعني أنه لا يلزمني أن ألمسكِ قبل انتهاء المساء، إذا كان لديَّ كمٌّ قليلٌ أكثر كي أشربه. لا تقولي لي إنكِ متزوّجة، أو

أنكِ لم تعودي شابةً، أو شيئاً من هذا القبيل. أنتِ تصغرينني سنّاً بثلاثة عشرَ عاماً، ما لم تُكذّبي فيما يخص عُمركِ، مثلما تفعلُ كلُّ امرأةٍ جذابةٍ يمكنُها أن تفعلَ ذلك دون عواقبٍ وخيمةٍ، إنما دعينا نترك هذا الشأن، اللمس وما إلى ذلك، بما أنّ النزوة هي التي تؤثر في نفوسنا. [*يقف عند المستوقد*] لأني الآن لن ألحَّ على أن تشربي معي. دعكِ من ممانعة النساء؟ علامةٌ ممتازة. ممتاز. إلّا أنّ الإيماء بالرأس والابتسام، بسمتُكِ المُغرية بنحوٍ ناجح، ولمسُ قمة شعركِ الجميل، كلُّها لا تكفي. أُريد أن أسمعكِ تردّين بقوة «نعم، إدوين. نعم... إدوين» براڤا! «أحسنتَ صنيعاً» [*يُنهي كأسه*] و «أحسنتَ صنيعاً لك» أنتَ، نيد. [يضع الكأس الفارغة على رف المستوقَد] في طفولتي كانوا يسمونني «نيد». لكنكِ لا تستطيعين أن تسميني نيد. لا تستطيعين لا سيما أنّكِ بدأتِ توّاً تسمينني إدوين. سيكون اسم نيد حميميّاً جدّاً، ألا تعتقدين هذا؟ ونحن نبذلُ أقصى جهودنا، أنا وأنتِ، بحسب حصصٍ معتدلة من الحميمية. نحن ممثلان. [*يضع قدمه اليمنى على الدرابزون*] هل سبق لكِ أن تمنيتِ أن تكوني طفلةً من جديد، مارينا؟ آه، *أنتِ* أيضاً لا تتمنين. هذا شيءٌ نتقاسمه معاً. مع أنّني أشكُّ في مسألة أننا لا نملك قواسمَ مشتركةً كثيرة بيننا، أنا وأنتِ، فضلاً عن كوننا ممثليْن. حتماً، هذا مقدار كبير. أليس كذلك، مارينا؟ هل أنالُ اهتمامكِ التام، مارينا؟ أرى أن نظراتك تتيه، مرتبكةً، لنقل، نحو التمثال النصفي لشكسبير فوق خزانة الكتب. حوّلي أنظاركِ. ستجدين صورةً أو تمثالاً نصفيّاً لشكسبير في كل غرفةٍ من الغرف هنا. هل أنزله لك؟ [يمشي *نحو خزانة الكتب*] لا؟ أنتِ ترين، من الأفضل لك أن تنظري إليَّ. [يربّت *على رأس شكسبير*] التمثيل، مارينا، هو ما نفعله أنا وأنتِ. لقد مثّلنا معاً أمام الجمهور هذا المساء. تمثيلاً جيداً بنحوٍ ممكن احتماله، بوسعي أن أُضيف. ودون[1] الجمهور، يتعين علينا أن نستمر بالتمثيل مع بعضنا بعضاً، نعم؟ لكن بالطبع سنكون مخلصين تماماً، تماماً. [*يقوم بانحناءة مسرحية*] أيَّ شخصيةٍ أُمثّلها؟ أعتقد، دعيني أرَ، أعتقد أنني سأجسّد إدوين بوث. يا لها من

1- دون: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل sans – م.

فكرةٍ رائعة. إنه يبدو شخصاً مشوِّقاً أكثر من شايلوك، وكلّ ذرة فيه حزينة. حزينٌ بنحوٍ شهير، مكتئب، جاهز بشكل مدهش لأن يمثّلُ الأدوارَ التراجيدية. على أية حال، لا تحسبينني استبداديّاً جدّاً، أنا أفضّل... الليلةَ... أن لا تمثلي دور مارينا زالينسكا. [*يتناول زجاجة ويسكي من خزانةٍ ما*]. هل يمكنكِ أن تفكّري في هذا الأمر؟ لمجرد أن تسايريني. يقيناً لديكِ ذواتٌ أخرى قليلةٌ في رصيدِك المسرحي. أنا أعتقد فعلاً أنه شيءٌ مسلٍّ جدّاً أن الجميع طوالَ الأعوام العشرة الأخيرة اتفقوا على أن أعظمَ ممثلةٍ في العالم الناطق بالإنكليزية هي بولنديّة. بولنديّة ذات لكنة. نعم، مارينا. لم يعدْ أحدٌ يذكر لكنتكِ، إنها جزءٌ من سحركِ، إلّا أنّها eet ees ver –ree, ver–rree noticeable[1] باتتْ ملحوظةً جدّاً. آه، في سبيل الله، لا تقطّبي، يا امرأة. يلزمني ألّا أنكر هذا، اللكنةُ وكلّ شيء، عبارتكِ أحسنُ من معظم الذين يملكون اللغة. كأسٌ أخرى؟ جيد. أنا فضولي فيما يتعلقُ برؤية متى سيؤثر فيكِ الشراب. [*يدور حولها*] أنتِ فاتنة، مارينا زالينسكا. إما أنا مخلصٌ بكلّ معنى الكلمة أو إني فقط أرغبُ بأن أمدحَكِ. أيّهما تعتقدين؟ أم لا هذا ولا ذاك. ربما أنا ببغاء. [*يُطلق صوتاً حادّاً كصوت الببغاء*] لا ترتعبي. والدي يفعل ذلك أحياناً. في الأجنحة. يتكلّف الابتسام ويصرخ صرخات ذُعر أو ألم ويُطلق صوتاً حادّاً. قبل أن يستمر بوقت قصير، ويغدو على الفور نبيلاً، وفصيحاً، ورخيماً. ماذا كنتُ أقول؟ أوه، نعم، كانوا يقولون. «الشخص الأكثر سحراً الذي قابلتُه حتى الآن» ألا يُزعجكِ ذلك، مارينا؟ ألم تسألي نفسكِ، ما الذي فعلتُه أنا بنفسي حتماً باسم الله بحيث إنّ الملأ باتوا يجدونني فاتنةً إلى هذا الحدّ؟ [*يُقبّل يدها*] لعلكِ تعرفين أني لم أنجحْ في تمثيل روميو وفي الحال أسقطتُ هذا الدور من ذخيرتي... وفيما يتعلق بدور بينيديك... لم أكنْ قط بينيديك جيداً! لا يمكنني أن أكون خفيفاً بما يكفي. يوجد شيء راسخ في داخلي. يلزمني ألّا أطير خارجه. آه، حسناً. علينا أن نبذل أقصى ما

1- هذه المقاطع اللفظية تُقرأ من اليسار إلى اليمين. وهي تُشير إلى طريقة نطق مارينا للكلمات الإنكليزية من مثل: it أو very – م.

نستطيع. ألا تؤيدينني؟ أنا أحبُّ أن أمثّل أدوار الأوغاد. من المؤسف أننا لم نمثّل «*ريتشارد الثالث*» خلال جولتنا. [*يديرُ جسمَه، يصبح قبيح المنظر*] هذا هو الدورُ العظيم الأول للأب. وكنتِ أنتِ الليدي آن ـــ مع أنّكِ لم تكوني معي بعد، وا حسرتاه ـــ مَن كان يقاوم دِك كروكباك حين يمثل دور العاشق. [*يقوّم جذعه*] أخبريني، هل أنتِ أصغرُ مني سنّاً بهذا القدر؟ لا تحمرّي خجلاً، يا امرأة! أتعتقدين أننا على الخشبة هنا؟ حسناً؟ سرُّكِ سيكونُ في مأمنٍ معي. أرى أنكِ تتلعثمين. أرى أنكِ تُريدين أن تُدخلي السرورَ إلى قلبي. أنا من ناحيتي ظننتُ هذا أيضاً. حسناً، أنتِ ما تزالين أقل مني بسبعة أعوام فيما يتعلّق بالتمثيل. وجميلة الشكل بكلِّ معنى الكلمة. والجمال هو رأسُ مال المرأة. هل أبدو شديدَ السخرية؟ هل أنتِ بحاجة إلى شيءٍ من البَلسَم؟ كلُّ الممثلين يُريدون أن يُكال لهم المديح. مَن يعرف هذا بصورةٍ أفضل من إدوين بوث؟ لنرَ، ماذا بوسعي أن أقول كي أدخل البهجة إلى فؤادكِ ويكون أيضاً صحيحاً؟ آه، نعم. [*يُشير بإصبعه إليها*] مشيتِ بشكل جيد. أحببتُ مشيتكِ الليلة. أنتِ لا تنسين أن المسرحيةَ تجري وقائعُها في ڤينيسيا. پورشيا تمشي كما لو أنّها تدوسُ بقدميها على الرخام. سأتذكّر هذا. هذا يعني، سأسرقه. من الآن فصاعداً، شايلوك هو الآخر سيمشي على الرخام. [*يمشي عبر الغرفة. المشي يغدو أنيقاً بطريقة متكلّفة. يتوقف. يقهقه*] كما ترين، أنا لا أزال أعملُ على الدورِ بعد هذه الأعوام كلِّها. أبي سوف يبدأُ، حين كانَ يلزمُه أن يؤدي سلسلةً متعاقبةً من شايلوك ينبغي له أن يؤديها، بالتمتمة بالعِبرية. أو يقول شيئاً ما يبدو شبيهاً بالعِبرية. ذاتَ مرةٍ فيما كان يؤدي دور شايلوك في أطلنطا، دلفَ إلى أرقى مطاعمِ تلك المدينة وطلبَ لحمَ خنزيرٍ وخضاراً، ولمّا أحضرهما النادل إلى مائدته، خَبطَ الطبقَ فهوى على الأرض، فزعق قائلاً: [قذر! تُف! قذر! تُف!] وخرج مسرعاً من المطعم. أنا بطبيعة الحال، أنا الروح القح للعقلانية، لا أفكّر حتى دقيقة واحدة بوصفي شايلوك عندما لا أكون على خشبةِ المسرح لابساً الغبردين البُنيّ الغامق لرجلٍ يهودي وقبعةً عريضةَ الحافة سمراء مصفرّة، حاملاً خيزرانة المشي المليئة بالعُقد بيدي

اليمنى ذات الخاتم. [*يبسط يدَه لها*] ولا أفكر بوصفي عُطيل، إلّا حين ألطّخُ نفسي بالسخام كالمغربي. أو حتى باعتباري ريتشارد الثالث، فيما أنا أتلذذُ بهذا الدور كثيراً. ديتو في روشيللو. هاملت... ربما. بوسعكِ أن تقولي إن لديَّ ضعف حيال هاملت. لا لأن جميع الناس يحسبون أني شبيه – هاملت. أنا، شبيه – هاملت؟ كما يُحتمل أن يقول أبي، تُف! مع ذلك، هاملت يذكّرني بشيءٍ ما في سريرتي. ربما لأن هاملت هو ممثل. أجل، مارينا، هو كذلك بمعنى الكلمة. إنه يمثّل. يبدو أنه شيءٌ واحد، وتحت ذلك المظهر الخارجي، ماذا يوجد؟ لا شيء. لا شيء. لا شيء. البدلة السوداء – الحِبرية التي يلبسها في المحكمة في المَشهد الثاني. الحِداد اللزج، المُبهرَج لأبيه. أب كلِّ فردٍ يموت، كما تذكّره جيرترود، وهي على صواب، *لماذا يبدو الأمر استثنائيّاً جدّاً معكِ؟* وهاملت يولول، إنه يولوِلُ، كما تعرفين، *يبدو، مدام؟ كلا، إنه فعلاً كذلك. أنا أعرفُ وليس «يبدو»*. إلّا أنّه يعرف فعلاً «*يبدو*». إنه لا يعرف أيَّ شيءٍ آخر. هذه هي مشكلته. هاملت يُعطي كلَّ شيء، كلَّ شيء، كي لا يكون ممثلاً، إلّا أنّه محكومٌ بهذا. محكومٌ عليه بأن يكون ممثلاً! إنه ينتظر كي يخترق من خلال المظهر الخارجي والتمثيل، ومجرّد أن يكون كذلك، إنما لا يوجد شيء في الجانب الآخر من المظهر الخارجي، مارينا. باستثناء الموت. [*ينقل نظراته في أرجاء الغرفة*] أنا أفتش عن جمجمة يوريك خاصتي. هل يُحتمل أنني وضعتُها في الموقع الخاطئ. يوريك! أعني، فيلو! أين أنتَ؟ ماذا عساي أفعل بتلك الجمجمة؟ [*يسحبُ ويفتحُ منضدةَ كتابة ذات غطاء لفّاف. يرمي الأوراقَ على البلاط*] المُلحَقات، المُلحَقات. مملكتي من أجل المُلحَقات! كلماتي الأخيرة كانت ستغدو باهرةً أكثر بكثير لو كان بمستطاعي أن ألوّحَ مهدِّداً بالجمجمة. باستثناء الموت. باستثناء الموت Death. أسمعتِ بالحرف الكبير D في «death» الثانية؟ من هذه التفاصيل الصغيرة جدّاً تُصنع الأدوار التمثيلية الرائعة. غير أني متأكد من أنكِ سمعتِ به فعلاً، مارينا. أيّ جمهورٍ أفضل يُمكنكِ أنتِ الممثلة التراجيدية المفتَتن بها أن تحصلَ عليه؟ [*يبسطُ يدَه عليها*] أميرتي الصغيرة. مَلِكتي البولندية. لقد وافقتِ بلطفٍ على

أن ترافقي نيد فيما هو يغرقُ في سُكرِه. إنكِ تعرفين أنه عديم الأذى بكل معنى الكلمة، بما أنّه ثملٌ جدّاً، لذا فإن عِفتكِ في أمان. حتى إذا كنتِ امرأةً متزوِّجةً محترمة، ولستِ يافعةً جدّاً، وهلمَّ جرّاً. إنما حاذري من العجوز نيد. إنه شخصٌ ماكر. [*يرقص على قدم واحدة*] لعله يتظاهر بأنه ثمل. ربما هو فعلاً مجرّد شخص مشوَّش. وبناءً على ذلك فهو مجرد خطير قليلاً قليلاً[1]. على غرار هاملت، هو شخص ماكر أيضاً. إنه يتظاهر بأنه لا يمثّل. وهو يعطي دروس التمثيل للآخرين. *تكلّمي الكلام، أنا أصلّي لكِ، فيما أنا أنطقها لكِ، بنحوٍ حيويّ على اللسان*. ألا تعتقدين أن تعليماته للممثلين واضحةٌ نوعاً ما؟ واضحةٌ جدّاً. *اجعلوا الكلامَ مُنسجماً مع الفعل، اجعلوا الفعلَ مُنسجماً مع الكلام*. لماذا، إنه مبتذلٌ شأنُه شأن پولونيوس! أين النار؟ أين الطيش؟ ربما يتعينُ عليَّ أن أمثّل دور هاملت على أطراف أصابع قدميّ، المسرحية كلّها من البداية إلى النهاية، كما مثّل أبي مرةً دور لير في بوفالو. أو همساً، كما مثّل هو دور «ياغو»[2] في فيلادلفيا. بطبيعة الحال كان أبي معتوهاً. أو ثملًا. أو الاثنين معاً. لا يستطيع المرء أن يجزم بسهولةٍ أيّهما. مثلي، هل هذا هو ما تفكرين فيه، مارينا؟ ألا تفكرين؟ أوه، فكرتُ أنكِ ستكونين مخلصةً مع صديقكِ العجوز نيد. [*يجلس بجانبها على الديوان*] لكن هل إن هاملت معتوه؟ سُفِح حبرٌ كثير على ذلك. يلزمني أن أقول إن هاملت يجب أن يُعدَّ معتوهاً لأن الشخصَ المعتوه وحدهُ الذي يفكر بأن يُقنّع نفسه[3] بكونه شخصاً معتوهاً، عندما تكون هنالك أقنعةٌ أخرى كثيرةٌ يمكنه أن يختار منها. لكن ربما لا. ربما لا توجد أقنعةٌ كثيرةٌ كي ينتقي منها. إذا تصوّرنا أن كونه معتوهاً هو الخيار

1- قليلاً قليلاً: هذا التغيير في كلمة «قليلاً» مقصود، إذ حاولنا أن نجاري الصيغة الواردة في النص الإنكليزي leetle, leetle. كلمة «قليل» الصحيحة بالإنكليزية هي little- م.

2- ياغو Iago: إحدى الشخصيات المسرحية الرئيسة في مسرحية «عُطيل»، التي كتبها شكسبير بين عاميْ 1601 و1604. وهو زوج أميليا، وحامل علم عُطيل، ومرافق زوجة عُطيل ديزدمونه. يكره ياغو عطيل ويضع خطةً كي يحطمه بأن يجعله يعتقد أن زوجته ديزدمونه لها علاقةٌ غرامية مع ملازم عطيل: ميخائيل كاسيو – م.

3- يُقنّع نفسه disguising himself: أي يرتدي قناعاً، أو يتنكّر – م.

الوحيد المتوافر، ماذا تعتقدين، مارينا، في أيّ حالةٍ يكون خيارُ هاملت ذا معنى تام؟ «أمير الدنمارك»... الممتاز جدّاً، العقلاني، الفاتن، أنا أردد ذلك دوماً. غلامٌ حزين، للعلم. حزينٌ جدّاً، في الواقع. لكن إنْ لم يكن المرء سعيداً هل سيكون مجنوناً، لماذا إذن نكون كلُّنا مجانين. [*يخلعُ فردَتَيّ حذائه ويدعكُ قدميه*] هل أسبّبُ لكِ الضَّجَر؟ أتمنى لا، لأني الآن آتٍ إلى دورِكِ. [*يثِبُ على قدميه*] إلّا أنّ أوفيليا *تُصبح* مجنونةً، لهذا لن يكونَ دورُها شيّقاً. تتكلّم بحماسةٍ بالغةٍ عن الأزهار. هاملت لم يكنْ عطوفاً معها. يا للفتاةِ المسكينة. هاملت يغرز نصلَه في أحشاء أبيها. طيّب، أمّه تضايقه. وكان يعتقد أن هنالك فأر خلف الستارة. [*يلتقط مُذكي النار من المستوقد، يلوّح مهدداً به كما لو أنّه سيفٌ*] وترمي نفسَها في اليمّ وتختفي هناك. هل تفهمين فيما يتصل بالجنون، مارينا؟ لا أعتقد هذا. أنا أراهنُ أنكِ خبيرةٌ جداً في صدّ أحزانكِ. ليس تماماً بالطبع. هل أنا على حق؟ قليل قليل من المعاناة. آه، أنتم الأوروبيّون. لقد اخترعتم التراجيديا ولهذا إنكم تعتقدون أن من حقكم أن تحتكروها. ونحن الأمريكيين، نحن كلُّنا متفائلين قليلي الخبرة. صحيح. بوسعي أن أحسّ بزيادةٍ في التفاؤل الغِرّ يأتي الآن تحديداً. يا له من شيءٍ منعش! آه ه ه ه ه... كأس أخرى من الويسكي، مارينا؟ إنكِ تعرفين، أن المرةَ الوحيدة التي رأيتكِ فيها تمّثلين أوفيليا إذ تبدو مجنونة فعلاً هي في الأسبوع المنصرم في پروڤيدنس[1] لمّا دخلتِ، وهو شيءٌ غير مألوف بالنسبة لكِ، شاردةَ اللب، هل يُحتمل أنني كنتُ أصرُّ بأسناني بجانبكِ في الأجنحة، في الفصل الرابع» خالية اليدين وغير مرتبكةٍ على الإطلاق، تقدّمتِ كي توزّعي أزهاركِ على جيرترود وكلاوديوس ولايرتيس. أزهارٌ غير مرئية. الأب[2] كان سيقدّر هذا. [*يسكب لنفسه جرعةً*] هل قلتُ إن أبي كان يُطلق صوتاً قصيراً

1- پروڤيدنس Providence: عاصمة «رود آيلند» الأمريكية، وأكبر مدنها من حيث السكان. كما أنها ثالث أكبر مدينة في نيو إنجلاند. أُسستْ في العام 1931 وهي إحدى أقدم مدن الولايات المتحدة – م.

2- الأب father: تعبير ينطوي على الاحترام والتقدير. العراقيّون يستخدمون الكلمة ذاتها في لهجتهم الدارجة – م.

حادّاً كالببغاء؟ إني أتذكّر تمثيلاً لـ *هاملت* في ناتشيز، لمّا بدأ، أثناء مشهد جنون أوفيليا، صوتُ شخصية غائبة[1] يصيح كالديك، ومن المؤكد بدرجة كافية كانت تلك الشخصية هي الأب، جاثماً على قمة سلّم عالٍ في الأجنحة. [يصيح] هكذا. لذا، عزيزتي أوفيليا، انظري فعلاً من حولكِ حين تُصبحين مجنونةً. من المحتمل أن يكون الجنون مُعدياً. أمي كانت تقلق هكذا على الأب حين يكونُ في الطريق، وفي سن الرابعة عشرة أرسلتني معه كي أكونَ مُلبِّسه ورفيقه. ليس لتعلّم التمثيل، كلُّ شيءٍ إلّا هذا! كان جوني هو الممثل، الوريث. قال الأب إنه ينبغي لي أن أكون نجارَ الموبيليا، لذا كانت علامةً رائعةً لمّا دعاني كي آكل شكسبير معه ذات ليلة في ووتربري. هذا أمر، فكرتُ مع نفسي. لذيذ، قال أبي. بضع صفحات من «*لير*». فيما يتعلق بهاملت، كنا نتكلّم عن هاملت، كان أميراً، مَن كان يتنبأ، يتنبأ بشكلٍ صحيح، أن يكون هو الوريث. [*يعود إلى المستوقد*] ألا تعتقدين أن والد هاملت هو المجنون؟ يبدو لي أنكَ مجنون بكل معنى الكلمة كي تحوّل نفسكَ إلى شبح وتعود كي تلازم ابنكَ ليلَ نهار. إنما في الأقل هاملت ليس لديه شقيق يستطيع أن يعود ويلازمه ليلَ نهار. أنتَ تعرف، بعد أن أطلق جوني الرصاصة قفز من المقصورة الرئاسية على خشبة المسرح وهتف بكلماته. *ليكنْ هذا*[2]، كما تعرف. وكسرَ رجلَه. [*يقفز على المكتب*] أنا بصدد أن أحتسي جرعةً أخرى، مارينا. نعم؟ ثمة علامةٌ واحدةٌ من علامات نوبة ميل أبي الفطري لتناول الكحول هي قيامه بحركةٍ خاصة، كهذه [*ينشرُ*[3] *الهواءَ بيدِه اليمنى بجانب رأسه*]، وإذا ما سعيتُ إلى منعه من الشرب، وهو جزءٌ من مهنتي، يقوم بتلك الحركةِ المشؤومة ويصيحُ قائلاً: «اغربْ عن وجهي، أيها الشاب، اغربْ عن وجهي! بحق الله، سيد، سأجعلكَ مقاتلاً خارج البلاد، سيد». هراء خالص، كما ترين. لم يكنْ بالمستطاع القيام بأيّ شيء كي أمنعه. باستثناء أن أنضو عنه

1- شخصية غائبة off stage: شخصية تؤدي دورها في الأحداث على خشبة المسرح ولكنها لا تظهر أمام المتفرجين - معجم المصطلحات المسرحية، م. س.: 164 - م.
2- ليكنْ هذا: وردتْ باللاتينية في النص الإنكليزي الأصل sic simper - م.
3- ينشر saw: هنا التعبير مجازي، لأن فعل «ينشر» يُستخدم في حالة نشر الخشب - م.

ثيابه فيما بعد وأن أنظف قيئه. [*يرفع كأسه*] نخبكَ، أيها الخلد العجوز. كان ممثلاً رائعاً. عليكِ أن تثقي بكلامي فيما يتعلقُ بهذا الموضوع، مارينا. رائع حقيقةً. كان قد أذهل لندن بدور «ريتشارد الثالث» لمّا كان في سن الحادية والعشرين، وكان قد لقيَ الترحيبَ ونادوه بوصفه منافساً لـ «كين» وخليفته. وكان قد ظهرَ أولَ مرةٍ في نيويورك بعدها ببضعةِ أعوام بالدور المسرحي نفسه. أبي بوصفه الوغد الأحدب هو جزءٌ من حياتي بدءاً من طفولتي المبكرة وصاعداً. كان يدخل الخشبة من ناحية اليسار وسط عاصفةٍ من التصفيق الشديد. أول شيءٍ يراه المرء هو قدمه الموفوعة وهي تجتاز الجناح، وبعدها بقية أجزاء جسمه، رأس مطأطأ. كان يجتازُ ببطءٍ خشبةَ المسرح مُتجهاً إلى أضواء مقدّم خشبة المسرح، بتسليةٍ يركلُ سيفَه الذي يحملُه في حزامِه بعيداً عن جسمِه. مرّتْ أربعون سنةً ويمكنني أن أسمعَ صليلَ السيف وأحسُّ بالسكوت المُخيف لثلاثة آلاف متفرّج ينتظرونه أن يفتح فاه. *الآن هو شتاءُ سخطنا*[1] ـــــ أحسبُ أن أسلوبَ الأب في التمثيل كان مبالغاً فيه ومتكلِّفاً. من المؤكد أن يُعدُّ أسلوبه هكذا بحسب مقاييس اليوم. لا أحدَ سمّاه استبطانياً ومثقفاً، كما يفعلون ذلك معي. [*يضحك*] امتثلَ لمخاوفِه. تعرّف على الشيطان في داخلِه. الأب أقسمَ ألّا يتناول اللحم، «اللحم الميّت»، كان يسمّيه، وفي يومٍ ما حين كسرَ قاعدته، عاقبَ نفسَه بأن ملأ فردتَيْ حذائه بالبازلّا اليابسة، وبعدها كيّفهما على مقياسه بواسطة نعلين من رصاص وراح يمشي مُجهَداً طوالَ الطريق من بالتيمور إلى واشنطن. كان يعتقدُ أنه إنسان سيئ. كان يعرفُ، في بعض الأحيان كان يعرف، أنه مجنون. «لا أستطيع أن أقرأ! أنا غلامُ الإحسان! لا يمكنني أن أقرأ! خذوني إلى مستشفى المجانين!». صاحَ ذات مرة في منتصف «*لير*» في ويتنغ في سيراكوس. كان قد شقَّ طريقَه بعيداً عن مقدّم خشبة المسرح، استجابة لصيحات استهجان قليلة. إلّا أنّ هيجانات كهذه على الخشبة كانت نادرةً. أوه. ماذا أرى؟ أنا ما أزال في قدميّ

1- شتاء سخطنا the winter of our discontent: عنوان الرواية الأخيرة للكاتب الأمريكي جون شتاينبك (1902 – 1968)، كتبها في العام 1961؛ عنوانها بالعربية «شتاء السخط». العنوان مأخوذ من مسرحية «ريتشارد الثالث» لوليم شكسبير – م.

المكسوتين بالجوارب! [*ينتعل فردتي حذائِه من جديد*] أنا أستمرُّ بالهَذر عن أبي لأن الحديث عن أخي يؤذيني أشدَّ الأذى. لمّا أتكلّم عن جوني أبكي. [*يرفعُ يده بغطرسة*] ليس بعد. انتظري. «أن تقتل ملكاً، فإن هذا عمل رائع»، يتكلّم جوني بطريقة خطابية. «سوف ترى، في وقتٍ قريب جدّاً اسم بوث سيكونُ معروفاً في الأمكنة كلِّها». كنتُ أعتقدُ أن جوني هو الذي يتخذ وضعاً معيناً. كيف يُمكن أن يؤخذ الفنانُ على مَحمَل الجَد؟ كلّ شيء هو إضحاك[1]، وغرور، وتفاخر. الممثلُ يسعى دوماً لأن يجعلَ نفسَه ممتعاً. في البداية يجب أن يجعلَ من نفسه ممتعاً لنفسِه. ومن ثم للناس الآخرين. هل تجدينَ نفسكِ ممتعةً، مارينا؟ [*ينظر حوله بحثاً عن كأسه*] تهديدات، دريلات يدوية[2] ـــــ ونحن نسمعُ فقط ما نودّ أن نسمعَه. هل انتبهتْ زوجة لنكولن إليه لمّا أخبرها «المحرِّر العظيم» بالحلم الذي رآه في منامه، كان يندفعُ فيه وحيداً في نهرٍ داكن؟ لا، ذهبا إلى المسرح. [*يقهقه*] كان جوني ينال إعجاباً كبيراً. مَن يعرف ما إذا لن يكون هو أنجح مني، حتى أنجح من الأب، لو لم ـــــ لو ظلَّ على قيد الحياة. كان رائعاً في الأدوار الرومانسية. روميو، والبقية. أدوار الأوغاد لا تناسبه، ريتشارد الثالث وياغو واللورد الاسكتلندي، أو أولئك العظام ممّن كانوا يخدعون أنفسَهم من مثل هاملت وعُطيل. كان يتلقّى مئات الرسائل أسبوعيّاً من نساءٍ وفتيات متيّمات، ناهيك عن المرسَلين من نساء سعيدات الحظ بنحوٍ كافٍ كي يضمنَّ وصاله. [*يشرع بالبكاء*] كان جوني يريدُ أن يكونَ محبوباً. [*يستل منديلاً مطرزاً*] إذا بكيتُ الآن، هل تعتقدين أن هذه دموعُ ممثل؟ هي كذلك، كما تعرفين. هل يملك الممثل عينين؟ إذا ما نخستهِ بآلةٍ حادة، ألا ينزف؟ كنتُ أمثّل في «مسرح بوسطن» لمّا جرى ذلك. كنتُ أظن، في بادئ الأمر، أن ذلك تآمرٌ عائلي، وجينيوس، شقيقي الأكبر، اعتقلَ، مع أنّهم أخلوا سبيله على الفور. أنا لم يقبضوا عليَّ إلّا أنّ تحرّكاتي كانت تخضعُ للمراقبة من لدن البوليس. كلُّ أفراد أسرة بوث تلقّوا تهديدات بالموت.

1- إضحاك hokum: أي بمعنى عناصر إضحاك إو إثارة يُدخلها المخرج على المسرحية – م.

2- دريلات augers: بالدارجة العراقية، جمع «دريل»، وهي آلة ذات مقبض تُستخدم لإحداث ثقوب في الخشب أو التربة أو الثلج – م.

[*ينظر إلى يديه*] كنا أنا وجوني نتشاجرُ في السياسة كالشياطين، بما أنّني أؤيد «الاتحاد» وإلغاء الرق. كنتُ قد صوّتُّ لصالح لينكولن مرتين. كان جوني يعتقدُ أنه قتل طاغيةً. كان يتوقّع بأن يُنادى بطلاً. كانت ميتته موجعةً جدّاً. وأن آل بوث سيكونون دوماً أسرته. ماذا لو قورن ممثلٌ بقاتلِ ملك ـــ لا، سفاح قديس؟ لماذا لم يعدموني دون محاكمةٍ قانونية؟ كنتُ مستعدّاً. لمّا حاولَ أحدهم، بعد سنواتٍ طويلة، فعلاً أن يقتلني ـــ ووقتذاك لم يكنْ كارهاً للمسرح، بل عاشقاً للمسرح، ومجنونٌ مهووس بالمسرح كما سمّته الجرائد ـــ لم أعدْ مُستعدّاً. هوس التمثيل، أعتقد هكذا يُسمّى هذا الضربُ من الجنون. إنكِ تعرفين القصة. لا؟ [*يجلس من جديد*] حصلَ ذلك في شيكاغو، في «مسرح مكڤيكر»، أثناء «*ريتشارد الثالث*». رجلٌ يُدعى مارك غراي ومسدسه كانا في الشرفة الثانية. كنتُ على الخشبة، في زنزانةٍ في «قصر پومفرت»، مندفعاً بقوة في المناجاة الأخيرة للملك الشاب الحزين:

كنتُ أدرسُ كيف يمكنني أن أقارنَ
هذا السجن حيث أقيم بالعالم؛
ولأن العالَم كثيفُ السكان،
وهنا لا يوجد مخلوقٌ سواي،
لا يُمكنني أن أفعلَ هذا.

أطلقَ عليَّ النار مرتين. نجوتُ لأني غيّرتُ مهنتي الاعتيادية. «*لا يُمكنني أن أفعلَ هذا*» كنتُ دوماً أدفنُ رأسي بين يديَّ لحظةً. في إحدى المرات، بدافعٍ ما، وقفتُ. [*يقف*] وبعدها ماذا جرى بعد أن افتقدني الرجلُ المسكين؟ أوه، كان ذلك أداءً جميلاً. الممثلُ التراجيديّ الرائع ـــ هذا أنا، مارينا، خادمكِ المتواضع ـــ بهدوءٍ تقدّمتُ إلى أضواء مقدم خشبة المسرح ومشيراً إلى الرجل المجنون، طلبتُ أن يُقبض عليه دون أن يؤذى، بعد مدةٍ

وجيزةٍ غادر الخشبة كي يطمئن زوجته الواقفةَ كالعادة في الأجنحة، التي أُصيبتْ بالهيستيريا، عادَ وبرباطةِ جأش أنهى أداءَه. [يضحك] كنتُ معجباً إلى حدٍّ بعيد برباطة جأشي[1]. مَن يقدر أن يعلم أن قلبي كان يقفز هنا وهناك في قلبي كالأسد؟ وظل يدوّي ويضج هنا وهناك إلى أن انقضى يومٌ وليلةٌ آخران؟ كنتُ، حسناً، *بدوتُ*، جسوراً جدّاً. إنما حتى ذلك أعطى عكس النتائج المرجوة. إذ قيل في صحفٍ عدّة بأني رتّبتُ هذه المحاولة على حياتي كي تكون لي شهرةٌ أكثر على مدى أسبوعي. الإعلان عملٌ مثير. سبحان الله! إلّا أنّ المجتمع الذي يكون فيه كلُّ شيء للبيع وكلُّ مناسبةٍ ذات قيمة *تُبتذَل* ينبغي أن ينتهي بأن يجعل كلَّ الساخرين على خلاف مع الجميع. أعتقد أن الطريقةَ الوحيدة التي يُمكن بواسطتها إقناع الجمهور أني لم أستأجرْ مجنوناً كي يطلقَ النار عليَّ هي أني كنتُ مُثخناً بجروحٍ بليغة. أن أُذبح تماماً. بعدها يكونُ بمستطاع المرء أن يتكلّمَ بسعادةٍ عن اللّعنةِ التراجيدية لأسرة بوث، وما إلى ذلك. [*يسكبُ لنفسه جرعةً أخرى*] فيما بعد أصابتني إحدى الرصاصات، وقد مرّتْ بجانب رأسي، حدّقتُ بإمعان خارج المَشهد حيث كانت قد استقرتْ وركبتْ على غطاء خرطوشة ذهبية كُتب عليها «إلى أدوين بوث، من مارك غراي»، وقد لبستُها كتميمةٍ على سلسلة الساعة خاصتي. أتريدين أن تري التذكار المنحوس؟ [*يُخرج الساعة*] تعساً، الوقت متأخر. ليس لأني مُتعَب. حضوركِ، مارينا، بكل معنى الكلمة... يُنعشني. أنتِ شاهدتِني أولاً، متى قلتِ، في كاليفورنيا، قبل اثنى عشر، ثلاثين عاماً مضى؟ كنتُ أفضل بكثير في ذلك الحين. أفضل بكثير. أنتِ تُحبينَ أن تُبدي إعجابكِ، أليس كذلك؟ أنا أيضاً أفعل هذا. دعينا نشرب نخب هنري إيرڤنغ؟ لا، أنتِ مُخطئة. إنه ممثلٌ جيد جدّاً. أداؤه لدور هاملت ربما أجمل من أدائي. [*يرفع كأسه*] أنتِ لن تشربي نخب إيرڤنغ؟ يا إلهي، أنتِ مُخلصةٌ، يا امرأة. أنا ممسوسٌ تقريباً. يتعينُ عليَّ ألّا أقول إن أدائي لدور هاملت دون استحقاق. في الواقع، لديَّ رصيدٌ شيء قليل جيد من عمل المسرح لـ «دين»

1- رباطة جأش: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل sang – froid – م.

المعتوه. حين أصبحتُ مستعدّاً كي أمثل دور هاملت خاصتي في «ونتر غاردن» ابتعتُ سيفاً مع مقبضٍ مُرصّع بالجواهر وأخذتُه معي إلى المنزل وعلّقته عند قدم سريري. طوالَ الليل كنتُ أفيقُ من نومي وأشعلُ عيدان الثقاب كي أراه، أبدلُ موضعه، إلى أن ومَض لي أن ـــ *الملائكة وقساوسة الرحمة يدافعون عنا!* ـــ كان السيفُ صليباً فعلاً، ويُمكن استعمالُه، المقبض مرفوع إلى الأعلى، كي يحمي هاملت من شبح أبيه. بالطبع، أصالةٌ كثيرةٌ جدّاً وسوف نحطمُ شكسبير. لكن قليلاً قليلاً من الأصالة، كما يُحتمل أن تقولي، مارينا العزيزة... كنتُ أميراً أصيلاً ومجنوناً فعلاً للدنمارك. تقولُ القصة إن السيدة ديڤيد غاريك أقبلتْ إلى كين وخاطبته قائلةً: «تعوّد داڤي أن ينجز شيئاً مُذهلاً في مَشهد المُختلى في [*هاملت*]، في حين أنتَ لا تقوم به. قَلِبَ الكرسي لمّا رأى الشبح» جرّب كين القيام بذلك؛ لمّا رأى الشبح نهض، وضع كعب قدمه تحت رِجل الكرسي، وقَلَبه. إلّا أنّه لم يستطعْ أن يُعيده إلى وضعه الصحيح. كان يفكّرُ في نفسه، «هل هذا هو الوضع صحيح؟ قاتل!» [*يقلب كرسيّاً*] كما ترين، لا يمكنكِ أن تُكرري أيَّ شيء. يُمكنني أن أقلبَ كرسيّاً حتى يوم الحساب، إلّا أنّني لا أستطيع أن أقلبه بالطريقة التي قام بها غاريك. [*ركل كرسيّاً آخر*] هل ترغبينَ بأن تجرِّبي؟ ربما تستطيعُ إحدى النسوة أن تقومَ بالحركة الآن. لماذا لا يجب أن تقلبَ أوفيليا، كسيرة الفؤاد، كرسيّاً؟ أسرعي، مارينا، إن كنتِ تُريدين أن تسرقي هذهِ الفكرةَ مني. كلُّ شيء يمضي أسرع الآن. هذه هي الحياةُ الحديثة. لن أتعوّد عليها قط. إنما بعدئذٍ لا يلزمني أن أقومَ بذلك. ولا حتى أنتِ. إني أتذكّرُ مديرَ مسرحٍ ما في كاليفورنيا، حين كنتُ يافعاً جدّاً، كانت فكرتُه في إدارة التمرين المسرحي هي أن أواصلَ مناداة أعضاء الفرقة قائلاً: «أسرعْ! هذا لا يجري بسلاسة. مزيداً من الحيوية! لا تنتظرْ إشارات البدء!» كان يتعين عليَّ أن أراه وهو يتمرّن على «*هاملت*». مع «*هاملت*» عليك أن تمضي ببطء. «أوه... ماذا... متشرِّد... وعبد ريفي... هل... أنا» كان الضعف هو الذي أعادني إلى خشبة المسرح. بعد الـ... كارثة، وآخذاً بنظر الاعتبار

الكراهية المبرَّرَة لأيّ شخصٍ يحمل اسم بوث، قررتُ أن أهجر المسرح إلى الأبد. انسحابي من العمل استمر أقلَّ من ستة أشهر. كان ينبغي لي أن أكسبَ لقمةَ العيش. قال لي أصدقائي إني مَدينٌ للمسرح ويتعيّن عليَّ الرجوعَ إليه. كان ثمة تهمةٌ مفادها أني جبان. وكنتُ أُريد حقيقةً أن أعطي للناس شيئاً آخر كي يفكّروا فيه حين يسمعون باسم بوث. عدتُ إلى هنا، إلى «ونتر غاردن»، بوصفي هاملت. حافظتْ على كل شيءٍ يعود لجوني خمسة أعوام بعد الواقعة. في ذلك الحين افتتحتُ عملي الأحمق، معبدي الخاص بالفن المسرحيّ. بطبيعة الحال، ينبغي لنا ألّا نملك مسرحاً قومياً، كما هو الحال في فرنسا، إنما يمكننا أن نملكَ مسرحاً يديرُه ممثلٌ جاد، تكون فيه للقيم الفنية أسبقيةٌ على الجانب التجاريّ من الرؤية. هاه. إنكِ تعرفين كم طالَ أمدُ «مسرح بوث. إما كنتُ غبيّاً في التجارة أو أن مشروعاً تجاريّاً كهذا لا يمكن أن ينجح في أمريكا، أو كلاهما. نعم، كلاهما. [*يجمع عدداً من ألواح الخشب من دلوٍ للفحم*] وفي ساعةٍ متأخرةٍ جدّاً من إحدى الليالي، مع نجار خشبة المسرح أحضرتُه كي يساعدني، رميتُ كلَّ ثياب جوني، كُتبِه، تذكاراتِه، آخر قطعةِ ثيابٍ من ملابسِه المسرحيّة (بعضها كانت ملابسَ ورثها من الأب) في موقدٍ متقد في سرداب «مسرح بوث». كانت هنالك يومياتُ جوني، علبُه وعلبُ رسائله، كلُّ واحدةٍ منها في لمسةٍ أنثوية مختلفة، ومشدودة بسلكٍ بطريقة جميلة. [*يقذفُ ألواح الخشب في المستوقَد*] النسوة مُغرماتٌ بجوني. الطريقة التي كان يرفعُ بها رأسَه وحنجرتَه من كتفيه جميلةٌ حقّاً، والشحوبُ العاجي لبشرته، سوادُ شعرِه الكثيف، الجفنان الثقيلان لعينيه المتوهجتين، اكتنازُ فمه... [*يحرّكُ النار بمُسعِّر*] ثمة شيءٌ «شرقي» في آل بوث. كان الأب يفتخرُ أننا يهودٌ مُبعَدون، جدّه، جون بوث، وهو صائغُ فضة يهودي كان أجدادُه، يُسَمّون بوث، طُرِدوا من البرتغال. يلزمني أن أحبّ هذه المسألة. وحتى من الجائز أن يكونَ ذلك صحيحاً. [*يستدير كي يواجه مارينا*] كان أبي قصيراً جدّاً، مثلي. كانت لديه ساقان مقوّستان. البورتريه العائد له هناك. لا، لا تنهضي كي تنظري إليه. [ينزعه من

الحائط، يأتي به إلى مكان جلوس مارينا] كانت شفتا أبي تشكلان خطّاً مستقيماً، وليس خطّاً مقوّساً كما يظهر هنا. يُقال إن أنفَه المعقوف الجميل هو أفضلُ ملامحِ وجهِه، إنما حين كنتُ في سن العاشرة، ما أزال في البيت في الحقل القريب من بالتيمور مع أمي وأشقائي وشقيقاتي، كان هنالك شجارُ مع المدير في إصطبل يقع في تشارلستون، حيث كان يعمل الأب. [*يعلّق الصورةَ من جديد. يعودُ إلى المستوقَد. يستند على رف المستوقَد*] كما رأيتِ، أنف أبي كان مكسوراً عند القصبة. وليم ونتر يضعُ التشوّهَ تحته، أقرب إلى الطرف. لكنكِ تعرفين مبلغ دقة النقاد. جداجد، تعوّدتْ طفلتي إدوينا أن تُسمّيهم لمّا كانت صغيرة السن. «لا تبالي فيما يتعلّق بالجداجد، بابا». هم ليسوا أفضلَ من الجمهور. امدح الجمهور، احتقر الجمهور. لا. عليكَ أن تكرهَ الجمهور. أعتقد أنه ينبغي لي أن أكون شاكراً للطريقةٍ التي رحّبوا بها بي هناك... 1865. لم أكنْ. بوسعهم أن يلعقوا وجهكِ. إنهم ينتحبون ويسيلُ لعابُهم... سوف أراهنُ أن «*إيست لين*» جعلت الناس يسفحون دموعاً أكثر من «الحرب الأهلية»... وبعدها يقطعون رأسكِ. [*يبصق في المستوقَد*] هل يشعرون بأنهم يبدون كأنهم يشعرون؟ في ذلك الحين هم أغبياءٌ فعلاً. ثمة أسبابٌ أكثر للممثل كي لا يهتمّ فيما يتعلّق بأن يكونَ مخلصاً. أتمنى أن أُلهَم من حينٍ إلى حين. إنما يقيناً لا أن «أشعر» بدوري المسرحيّ. يا لها من فكرة! على أية حال، لا يقدر المرء أن يكرّر بلا نهاية قممَ إلهامه دون أن يكون منجذباً إلى حركاتٍ مُدمِّرةٍ. ذات مرةٍ، استطعتُ أن أتبوّل فيما أنا واقفٌ عند قبر أوفيليا دون أن يراني أحدٌ عدا ابني لايريتيس المهووس بالمسرح. ذاتَ مرةٍ، حينما كنتُ أرقدُ محتظراً بين ذراعَيْ هوراشيو، فيما كان مع كلماته «*ليلة هانئة، أيها الأمير الحبيب*» يضغط خدَّه بحزنٍ على خدّي، همستُ بكلماتٍ فاحشةٍ في أذنِه وشاهدتُه وهو يشحَب. غير أن هذا هو ما أفعله مع الرجال. مع النساء أنا شهمٌ وحريصٌ جدّاً. [*يجلس قبالة مارينا ويتناول سيجاراً من المرطاب*[1] *على الطاولة*

1- المرطاب humidor: صندوق للسجائر مجهّز بوسيلةٍ تقي التبغ من الرطوبة – م.

الصغيرة بجانب كرسيّه] أتودّين أن تجرّبي واحداً؟ أأنتِ متأكدة؟ كم سيجاراً دخّنتِ في حياتكِ؟ [*يُشعل السيجار*] لا أكثر من سيجارٍ واحد، نعم؟ إنما هذا ليس الأساس لفكرةٍ ما. كلُّ الأشياء التي يتعوّدُ عليها المرء، المسرّات بقدر الأحزان. [*يُسقط السيجارَ على السجادة*] لا، لا، لا تكترثي. [*يثبُ على قدميه*] لا أنوي أن أُضرم النار في المنزل. [*يرمي السيجار في المستوقد*] أنا أحسُّ بأني مشوّش الذهن نوعاً ما. أجل، سأجلس. [*يجلس بجوارها*] أنتِ لا تخافين من العجوز نيد؟ إنه غير مؤذٍ، كما ترين. عزيزي العجوز الثَمِل نيد. [*يأخذ يدها*] لا خطرَ من أن يتحوّلَ حديثُنا الخصوصيّ في آخر المساء[1] إلى جسم *لجسم*[2]. آه، جعلتكِ تبتسمين. هل هي فرنسيتي السفيهة؟ أنا أحاول أن أؤثّر فيكِ. أنتم الأوروبيون تُولدون وأنتم تتكلّمون الفرنسية، أليس كذلك؟ لكننا بالطبع لدينا شكسبير. شكسبير يجعلنا فاضلين. «الملك هنري الثامن» خاصته يقول «*إنه نوعٌ من عملٍ جيّد أن تتحدّثَ بشكلٍ حسن*». كان بمستطاع شكسبير أن يجعلني فاضلاً تقريباً. كم كنتُ سأكونُ مُنحطّاً دونه. يُمكنني دوماً أن أُعلّي نفسي من أجل مستوى أحسن مع كلماته. لكني بعدئذٍ أفكر، «رؤيتي هذه لنفسي في شكسبير قد دمّرتْ شكسبير». أنا الذي سمّمتُ شكسبير. لقد قتلتُ شكسبير. وبعدها أفكر، «لا، أنتَ أيها الممسوس، ما هذا الذي تقوله؟ [*يصفعُ جبينه*] إنه ليس أنتَ، إنه شكسبير. شكسبير مفيدٌ جدّاً لنا». ما الذي يمكنُ أن تعنيه جنّة الكلمات لنا، لأمريكا؟ ما فائدةُ الديمقراطية لما هو جميل ونبيل في الفن؟ لا شيء، لا شيء قطعاً. ما هي القضايا التي كنتُ ناجحاً فيها بنحوٍ مُضجِر. كسبتُ أموالاً طائلةً وأنفقتُها بأسرع ما يُمكن في مغامراتٍ سفيهةٍ متنوّعة، من مثل مسرحي. كنتُ غطستُ حتى عينَيْ في الرمل الليّن للاستحسان الشعبي الذي حلمتُ به طوالَ سنوات حياتي كلّها. هو ذا أنا، مارينا، لديكِ بانوراما لعقلي. [*يقف*] أنا أفضل. لا. يمكنني أن أقف. مارينا، لديّ بنتٌ بالغة. أنتِ لديكِ ابنٌ في الجامعة. إني واثقٌ من أنه لا

1- حديثنا الخصوصي في آخر المساء: وردتْ بالإنكليزية والفرنسية في النص الإنكليزي الأصل our late evening tête-à-tête - م.

2- جسماً لجسم: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل corps-à-corps - م.

يُريد أن يُصبِح ممثلاً. لا تَدَعي شجرةَ الموهبةِ تزدهر. اجتثيها، يا امرأة. [*يبدأ بالتمايل*] لا، أنا بخير. أنتِ لا تفكرين بالعودة إلى بولندا، أليس كذلك؟ ينبغي للمرء ألّا يعود. قطعاً. لا، لا... أنا أُريد فقط أن أستند على شيءٍ ما. [*يمضي إلى رف المستوقد*] هو ذا موضوعٌ لنا! هل تستطيعُ المرأة أن تكون ممثلةً عظيمةً؟ ونيد يعتقد: «لن تُصبحَ طالما أنّها تُريد أن تكونَ نموذجاً للأنوثة». ثمة شيءٌ لطيف، مهدئ، فيكِ، مارينا. ربما يوجدُ في كلّ الممثلات المسرحيّات، بالاستثناء المحتَمل لبرنار، لا تجفلي، يا امرأة، عدا أن جهودها بألّا تكون لطيفةً تبدو متكلّفةً بنحوٍ مبتذل. أُسودٌ أليفةٌ في سبيل الله! تنام في نعشٍ مبطن بالساتان. ليس لأني أعتقد أنها تفعل ذلك. إلّا أنّها تقولُ إنها تفعلُ ذلك. لا، الممثل العظيم يكون مضطرباً، نادراً ما يكون أنيساً، غاضباً... بنحوٍ عميق. أين هو وريد الغضب خاصتكِ، مارينا؟ [*يلتقط مُسعّر النار، يحمله بطريقةٍ مهدِّدة*] لا يوجد شيءٌ خطير فيما يتعلق بك، مارينا. أنتِ لم تتقبّلي نكبتكِ. عبثتِ بها، ساومتِها. بعتِ روحَكِ حتى تكوني قادرةً على أن تفكّري، من وقتٍ إلى آخر، بأنكِ سعيدة. نعم، بِعتِ روحكِ، مارينا. كم أنتَ حاد الملاحظة، إدوين. [*يلوّح بمسعّر النار*] بالطبع هذا ليس هو ما تفكرين فيه. أنتِ تشعرين بأني أهجمُ عليكِ. وأنا أفعل هذا حقّاً. إن هذا ليس هو حقّ امرئٍ تقبُّلَ نكبتَه. [*يُعيد مسعِّر النار*] آه، مارينا، يلزمني أن أعلّمكِ كيف تشتمين. ربما يُضيف ذلك سمعةً لتلك الملامح الصافية. [*يبدأ بذرع المكان جيئةً وذهاباً*] لا تخافي كثيراً من الفشل، مارينا. إن هذا ينفعُ الروح. يا إلهي، أيّ مهنةٍ مُفسِدةٍ هذه التي نزاولُها. نحن نعتقدُ أننا ندعمُ الجميل والحقيقي، ونحن تحديداً نبثُّ الغرور والأكاذيب. أوه، إنكِ تعتقدين أني أبدو أمريكيّاً قُوو - وح[1] الآن. حسناً، *أنا* أمريكي. وكذلك أنتِ الآن. ملكةٌ بولنديةٌ مخطوفة، وإن لم تكوني حَذِرةً، الحقائق القديمة لـ «نيو إنجلاند» ستتغلّب عليكِ. إنكِ حتى لن تلاحظي أن حَصافتكِ قد انحرفتْ عن السبيلِ الصحيح،

1- أمريكي قُوو - وح: أي أمريكي قُح. في النص الإنكليزي الأصل: «verr rree American» - م.

وأنتِ أصبحتِ كئيبةً وميّالةً إلى النقد القاسي. على كلِّ حال، أنتِ تُحبين كاليفورنيا، وهذه علامةٌ جيّدةٌ في شخص أوروبيّ. لذا من الجائز أن تكوني استثناءً. إني أشكُّ في ما إذا كان يتعين عليَّ أن أقبلَ دعوتكِ لزيارتكِ في مَربى الماشية العائد لكِ. لم يعُدْ لديَّ المزاج لكاليفورنيا. أنا أريدُ أن أكونَ حبيسةَ مكانٍ ضيّق ومُزدحم، هادئةً، مُتمَدْينة. أخبريني عن زوجكِ الموجود هناك. لمّا جاءَ خلال أسبوعنا في ميسوري، كنتما فاتنين معاً. [*يلتقط صورةً فوتوغرافية صغيرة من فوق سطح المكتب*] هي ذي صورةٌ أخرى. أم أدوينا. ماري. زوجتي الأولى كانت مَلاكاً. إنكِ تعرفين ماذا يعني مَلاكاً: امرأة لا تفكر إلّا بزوجها. زوجتي الثانية أُصيبتْ بالجنون. في الأعوام الأخيرة من حياتِها البائسة كانت متيقنةً من أن لي زوجةٌ أخرى في مكانٍ ما، أنا سعيدٌ جدّاً معها. كنتُ أتمنى ذلك! أبي كان له زوجتان. تلك التي هجرَها في إنكلترا وأمنا. [*يُنزل الصورة الفوتوغرافية على سطح المكتب*] أتُحبين النهايات السعيدة، مارينا. أنا أشنُّ حرباً صليبيةً ضدها. نعم، أنا أفعل هذا. من الجائز أنكِ تحبينَ الطريقةَ التي أُفسد فيها «*الملك لير*» على مدى مئات الأعوام في إنكلترا وأمريكا، مع «الأحمق» المُبعَد، وهي رومانس بين إدغار وكورديليا، وكورديليا ولِير وقد سُمح لهما بالعيش. أحد الأشياء القليلة التي أفتخرُ بها هي أني وضعتُ حدّاً لذلك. أنا لا أحبُّ النهايات السعيدة. لا أحبُّها قطعاً. لكن فقط لأنها غير موجودة. [*يجلس. يأخذ يد مارينا*] الفصل الأخير يجب أن يكون هبوطاً مفاجئاً. ألا تعتقدين هذا؟ كما في الحياة أن يشيخَ المرءُ هو هبوطٌ مفاجئ. الاحتضار هو، إن كان المرءُ حسنَ الطالع، هو هبوطٌ مفاجئ. مَن يُعيب على المسرحية، أيّ مسرحية، على كونها لا تنتهي في أعلى سماتها المميَّزة؟ «*هاملت*» لا يُمكن أن تنتهي بكلمات احتضار هاملت، هل يمكن، مارينا؟ فورتنبراس يجب أن يحضر ويُفصلُ الجمهور عن مصير هاملت الجدير بالشفقة. ربما يتعيّن علينا إذن أن نتفجعَ عليه، إذا شئنا. أو لا نتفجع. [*يقف من جديد*] الوقتُ متأخر، هل يبدو هذا شبيهاً بهبوط مفاجئ؟ الوقت الآن منتصفُ الليل تقريباً. «*ما الذي أخافُ منه؟ أخاف من نفسي؟ لا يوجد*

شخصٌ *آخر هنا*»، كما يقول الملك دِك لمّا تلاحقه الأشباح في «بوزورث فيلد». لا أشعر بأني أُريد أن أدعكِ وشأنكِ، مارينا. «*سمعنا قرعَ أجراس الكنائس في منتصف الليل، أستاذ شالو!...*» إلّا أنّ أمريكيّاً واحداً لم يسمعْها. لا بدّ أنكِ سمعتِ قرع أجراس الكنائس في منتصف ليلةٍ ما، مارينا، لمّا كنتِ هناك في بولندا. نحن ليس لدينا قرع أجراس كنائس في منتصف الليل في أمريكا. أودُّ أن أجرِّبَ ذلك في يوم ما، يومٍ ما، حينما لا أفكر في كلماتُ دور إحدى مسرحيات شكسبير! ثمّةَ وقتٌ لجرعةٍ أخيرة، هابطة مقارنةً بالجرع التي سبقتْها. [*يسكبُ مزيداً من الويسكي*] إنه شيءٌ غير صحيح أن كلمات أدوارَ شكسبير تتشقلبُ هنا وهناك في رأسي دون انقطاع. تمرُّ أيامٌ لا أفكر خلالها في شيء حينما لا أتكلّم، ولا أُلقي، ولا أشرب. وأنام. وأذرع غرفتي ذهاباً وإياباً. وأبدو كئيباً. أعطني يدكِ، مارينا. لا، لديَّ فكرةٌ أفضل. اغمضي عينيكِ، مارينا. لا تخافي. وبسرعةٍ غيّري - أو! تعويذةٌ! وصرخات وثرثرات مُشعوذٍ أخرى. افتحي عينيكِ. هي ذي الجمجمة! [*يتباهى بها*] جمجمة - يوريك خاصتي. هذه ليستْ جمجمة بائسٍ عـادي، مارينا، تمّ استخراجها من مقبرةِ الفقراء والمجهولين والمجرمين وبيعتْ للمسرح. هذه جمجمةُ مجرم! وحتى إني أعرفُ اسمَه. فيليب پيركنز. شُنِق لأنه نهبَ حصاناً. ما من رحمةٍ له تهطلُ عليه كالمطرِ الناعم وهلمَّ جرّاً. الآن حين يُثبَّتُ الفردُ المسكين على السقالة ويُسأل عن طلبِه الأخير، ماذا كان طلبُه هذا؟ لماذا، فيما بعد، رأسهُ يبدو أقرب ما يكون إلى أن يُولِّي بعيداً عن عنقه، كانوا يحسّون بالسعادة حين يقطعون رأسَه، ويسلخون عنه الجلدَ بطريقةٍ جميلةٍ ونظيفة، ويرسلون الجمجمةَ بوصفها هديّةً، مع تحياته، استعمالها سيكون جليّاً، إلى الممثل التراجيدي العظيم جونيوس بروتوس بوث. أجل، سارق الحصان كان متردداً متحمساً على المسارح. مُعجب خاص بالأب، حيث كان يمضي ليراه يمثل كلّما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وهكذا كان جلادوه يلبون طلبه الأخير بطيب خاطر، وهذا *الشيء* الخشبي الرمادي كان جمجمة - يوريك العائدة لأبي على مدى أعوامٍ

طويلة، وبعدها انتقلتْ إليَّ. ويقول الملأ إن الأمريكيين لا يبالون حقّاً بالمسرح الجاد! حسناً، حسناً، حسناً... [*يضع الجمجمة في وسط السجادة. ينتصبُ من جديد وينظر إليها*] هل أنا أتعذّب؟ أسمعُ الناس يهمسون وراء ظهري. إدوين بوث المسكين. إدوين بوث المسكين. وأنا لا أُريدُ أن أخيّبَ أملَهم. لذا فأنا أعاني فعلاً. إنه دوري. إنه عمرٌ أقضيه وأنا أبدو كئيباً، مُعذّباً، مُغتاظاً بسبب الهمّ. سأكون أسوأ المسوخ. موت ماري. موت... جوني. ربما لم أتعذّب البتة. أصبحتُ فقط شديد الهزال، مثل صفحةٍ في كتاب. إن كان بمستطاعكِ أن تقولي «أنا أتعذّب»، فأنتِ لا تتعذبين فعلاً، مارينا. أنتِ ممثلة. [*يضع قنديلاً على السجادة بجانب الجمجمة*] في بعض الأحيان أفكر أنا ببساطةٍ أصبح أبي. كل تلك العمليات التي تجعلني شبيهاً بأبي أكثر فأكثر تزيدني قوّةً، تزيدني سرعةً، تجعلني أندفعُ بسرعةٍ إلى الحافة، كالشلال، وبعدها سيرموني في عمق الماء المظلم والداكن، وسوف أَغرقُ في جنونه. إلّا إذا كنتُ أموتُ أولاً. سأحرص على ذلك. حتى إذا كان «الأبدي» قد تحدّد. شريعتُه هي ضد ذبح – الذات... أنا أمثّل، مارينا. لا بدَّ أنكِ انتبهتِ. نِيد الشرير. قلّما يعني أيَّ كلمةٍ يقولها، ينبغي لي ألّا أقتل نفسي. أنا خائفٌ جدّاً. كان أبي وحيداً حين لفظَ أنفاسَه الأخيرة، وحيداً تماماً. كنتُ يومذاك في سن التاسعة عشرة. كان قد تركني في سان فرانسيسكو. في نيو أورليانز ركب زورقاً نهريّاً في ميسيسيبي متجهاً صوب كينكيناتي؛ بعد انتهاء اليوم الخامس سقط ميتاً، هكذا. [*يتهاوى على الأرض*] لا، لا تساعديني كي أنهض. لقد ضيّعتُ الجريان المطّرد للزمن والأحداث، وأنا أعيش في سديم. قيل لي أنا أفضل مما كنتُ عليه في أيّ وقتٍ مضى. هذا لا يُمكن أن يكون صحيحاً. إيه، فيلو؟ [*يقف بصعوبة*] بيد أننا كنا جيدين تماماً الليلة، على ما أعتقد. وقد وافقتِ على العودة إلى النادي بصحبتي. يُمكنني أن أدعو امرأةً محترمةً إلى هناك حيث مأواي لأني أُقيم في نادٍ للممثلين. إلّا أنّه منزلي، كما تعرفين، وأنتِ في شقتي الخاصة. هل لي أن ألمسَ وجهكِ؟ سألمسَ وجهكِ، إن أحببتِ ذلك. أرى أنكِ تحبين ذلك فعلاً. أنتِ جذابةٌ

بكل معنى الكلمة، مارينا. [*يتجشأ*] قلتُ لكِ إني لستُ روميو. [*مزيدٌ من التجشؤ*] يوجد فقط قدرٌ كبيرٌ جدّاً من العذاب يمكنكِ أن تحتمليه، ويوجد فضلاً عن ذلك وقتٌ لكوميديا الرغبة. أم لا يوجد. *هل سبق أن كانت المرأة في مزاج الفكاهة هذا؟ هل سبق أن فازت المرأة في هذه الفكاهة؟* غالباً ما أودُّ أن أكون قد مُنحتُ هذا القدر من الزمن لتعلّم اسماء الكواكب مثلما يجب عليَّ أن أستظهر عن ظهر قلب قواعد الشاعر الملحمي. حين تسقطين في عمق الظلام، مارينا، يصبح من الصعب عليَّ أن أتخيّل ذلك، بعد أن تكوني قد رحلتِ عن عالمنا، الضوء سيظل حاضراً. نعم، ما إن نفهم، نفهم حقّاً، أننا سوف نموتُ، علمُ الفلك هو البرجُ الوحيد. انظري إلى المسرح السماوي، مارينا. [*يفتح النافذة برمية*] ليبرد الجوّ. الثلج يهطلُ من السماء. سوف ترغبينَ بالرجوع إلى كلاريندون في وقتٍ قريبٍ جدّاً. انظري إلى النجوم، مارينا. والأشجار، والأضواء وهي تصعدُ الجادة. هل تشعرين بالبرد؟ أتحتاجين إلى شخصٍ كي يبثَّ فيكِ الدفء؟ تعالي وادخلي حجرةَ النوم، مارينا. سأُريكِ سرّاً. أنا أحتفظُ بصورةٍ مؤطرةٍ لجوني بجانب سريري. يمُكنكِ أن تدخلي الفراش معي. ربما لستُ مخموراً جدّاً كي أمارس معك الحبّ. [*تقف مارينا*] نعم، استندي عليَّ. لا، تعساً، سأستند عليكِ. انتظري، انتظري. كيف يتسنى لي أن أعرفَ كثيراً جدّاً عنكِ، قد تتعجبين. ياه، لقد مثّلتُ معكِ، يا امرأة. لقد رأيتُ كيف تتظاهرين. لا شيءَ موحياً أكثر من ذلك. أنتِ عاريةٌ بالنسبة لي كما لو أنّكِ عروستي. وأنا زوجكِ في الفن. زوجكِ العجوز. زوجكِ العاجز، الفاقد العقل... القصير والثخين، الرفيع الشفتين، ذو الشعر السبط، المجنون.

«هذا يكفي، إدوين»، قالت. «إدوين العزيز».

«آه، نعمة امرأة. غير مستحَقة بكل معنى الكلمة. مقبولة بنحوٍ مُقِرّ بالجميل. دعوةٌ سخيةٌ، حَسنة النية، غير مفهومة للتوقف، دعوة امرأة».

«كفى، إدوين».

«سوف أفعل. في حقيقةِ الأمر، يوجد شيءٌ قليل من العمل أودُّ أن أؤديه

الآن، إن لم يكنْ لديكِ مانع. بعد دخولكِ، وپورشيا تقول لي... أعني، إنها تلك اللحظة حين يقولُ شايلوك لكِ، لپورشيا... أعني مارينا، أعتقد أننا نستطيعُ أن نُحسّنَ اللحظة. ربما، لستُ متأكداً، يمكنكِ أن تلمسيني. لستُ كارهاً تماماً لقطعةٍ جديدةٍ من العمل هنا. لستُ متمسكاً جدّاً بالتقليد. ولديَّ اشمئزازٌ مطلقٌ من التكرار الفارغ. إلّا أنّي أكرهُ الارتجال. الممثلُ لا يستطيع أن يصطنعَ الأشياءَ فحسب. هل نعدُ بعضنا بعضاً، هنا والآن، بأن نقولَ في أوّل الأمر وعلى الدوام متى نبدأُ بالقيامِ بعملٍ جديد؟ أمامُنا جولةٌ طويلةٌ».

مكتبة
t.me/t_pdf

انضم إلى مكتبة اضغط هنا

سجل على تيليجرام

@t_pdf

المترجم

ولد علي عبد الأمير صالح في مدينة الكوت - واسط سنة 1955. يمارس كتابة القصة القصيرة والرواية والترجمة منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين.

نال جائزة وزارة الثقافة العراقية في الترجمة سنة 2000، وفي الإبداع الروائي سنة 2009، وجائزة دار الشؤون الثقافية العامة في النقد الأدبي سنة 2009، وجائزة الإبداع العراقي / وزارة الثقافة والسياحة والآثار لعام 2017، في حقل الترجمة.

من ترجماته المنشورة:

فريدا: سيرة حياة فريدا كاهلو(بيروت 2019)؛ لا تقولوا إننا لا نملك شيئاً (بيروت 2018)؛ العمى (بيروت 2018)؛ المطيرجي (بيروت 2018)؛ أشرطة تسجيل صدام (بيروت 2017)؛ راوي مراكش (الكويت 2016)؛ أشياء كنتُ ساكتة عنها (بيروت 2014)؛ طبل من صفيح (بغداد 2000).

من أعماله المنشورة:

الهولندي الطائر(قصص، دمشق 2000)؛ يمامة الرسام (قصص، بيروت 2010)؛ خميلة الأجنة (رواية، بيروت 2008)؛ أرابيسك (رواية، عمّان 2009)؛ ثقافة واسط: الماضي والحاضر (جزآن) (دمشق 2017)؛ العوالم الثلاثة: تجربتي في الكتابة والترجمة والنقد (دمشق 2018).

t.me/t_pdf

في العام ١٨٧٦ تُهاجرُ مجموعةٌ من البولنديين إلى أمريكا وعلى رأسِهم، الممثلةُ البولنديّة الذائعة الصيت هيلينا موديسكا، صحبة زوجها الكونت كارول تشالـپوڤيسكي، وابنها الفتى ذي الأعوام الخمسة عشر، رودولف، والصحافي الشاب هينريك سينكيويتش والكاتب مستقبلاً، وعدد قليل من الأصدقاء والصديقات؛ يُقيمون مُؤقتاً في أنهايم، ولاية كاليفورنيا، ويَسعونَ إلى تأسيسِ مجتمعٍ يوطوبي، لكنَّ هذا المُجتمع يفشلُ، ويعودُ معظمُ المُهاجرين إلى بلادِهم، لكن هيلينا موديسكا تَبقَى وتَنتصر وتُصبحُ لاحقاً نجمةً من نجومِ المسرحِ الأمريكي.

استوحتِ الكاتبة الأمريكية الطليعيّة سوزان سونتاج (١٩٣٣ - ٢٠٠٤) هذهِ القصة الحقيقيّة في روايتِها المعنونة ((في أمريكا)) التي تَقولُ عنها: ((ينبغي لي القول إنني شاطرتُ نفسي المُعتقدَ المُدهشَ في قوةِ إمكانيةِ إعادةِ اكتشافِ الذات. نحن دوماً نؤمنُ بأمريكا: بوسعنا أن نبدأ ثانيةً، يُمكننا أن نَقلبَ الصَفحةَ، يُمكننا أن نَكتشفَ أنفسَنا، يُمكننا أن نُحوّلَ أنفسَنا مِن حالٍ إلى حال. لذا، حَسبتُ أنَّ ذلكَ كان... ذلك كانَ إغراءُ أمريكا لهذهِ المجموعةِ من المُهاجرين البولنديين. هُم ليسوا لاجئين اقتصاديين (أي جاؤوا هَرباً من الفقرِ والعَوَز)؛ اختاروا المَجيءَ إلى أمريكا وكانوا يُريدون أن يُصبحوا أناساً مختلفين. وثمةَ مغامرةٌ كبرى هناك أن تُحوِّل ذاتَكَ، أن تُعيدَ اكتشافَ ذاتِكَ كما يفعلُ المُمثلون، بطبيعةِ الحال، طوالَ الوقتِ، حينَ يكونون على خشبةِ المَسرح)).

نثرُ سونتاج في هذا العمل الروائي رشيقٌ ولَـعوب: على الرغم من الحَبكةِ المتوانية، هذا الكتابُ متدفقٌ وبوسعِ القارئ أن يقرأه بسلاسةٍ بالغة.

نالتْ ((في أمريكا)) جائزة الكتاب القومي The National Book Award لسنة ٢٠٠٠، وهي عملٌ مدهشٌ لكاتبةٍ وناقدةٍ سارتْ في اتجاهٍ مُناهضٍ لسياسةِ بلدِها، ويَعدُّها كثيرون واحدةً من الكُتّاب الأمريكيين الأكثر جلبةً في القرن العشرين.